جيوفاني بوكاشيو

الدّيكاميرون

ترجمة
صالح علماني



أعمال خالدة 9

جيوفاني بوكاشيو



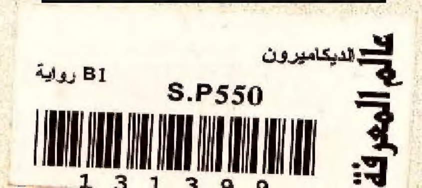
الدّيكاميرون

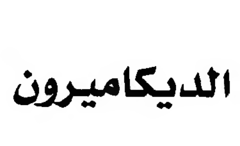
«الديكاميرون» حديقة الملذات الدنيوية

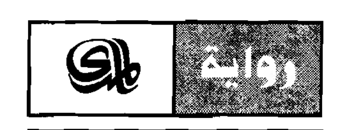
النص الكامل في العربية للمرة الأولى

تجاوز جيوفياني بوكاشيو 1313 ـ 1375 عصره، ليكشف عن الوجوه الخفية في الحياة في كتابه السحري المهيب «الديكاميرون» تحفة التراث الإيطالي والإنساني، الكرنفال المترف بالحب والمتعة والجمال، صندوق الحكايات السرية والبهجة واللوعة والغواية والامتاع والعشق والمجون والمكر والخديعة والإغراء والسخرية والتهكم والمؤانسة والهتك والشعوذة والتلبس والوله والحرية والاعتراف والتصابي والتنكر.

كل هذا وغيره في قصص يومية مبهرة تحدث في الطريق أو وراء الأبواب المغلقة أو في الهواء الطلق أو في الغابة السحرية، بعيداً عن محاكم التفتيش والتزمت تنفلت الرغبات الطبيعية الحية العطشى وتتسامى في نزعاتها الحرة لترسم لوحة متحركة مدهشة قد تصدم الخائفين من الأشباح أو من أنفسهم، أو من الحقيقة العارية.







اسم المؤلف : جيوفاني بوكاشيو
عنوان الكتاب : الديكاميرون
المترجم : صالح علماني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٦

Author : Giovanni Boccaccio
Title : Decameron
Translator: Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

جيوفاني بوكاشيو

الديكاميرون

ترجمة:
صالح علماني





بوكاشيو والرواة العشرة



مقدمة

القرن الرابع عشر.. بداية احتضار العصور الوسطى في أوروبا ، وتبدل في العقلية يصوغه النظام الاقتصادي الذي سيسود أوروبا عصر النهضة. فالقرن الرابع عشر الذي مثل غروب العصور الوسطى وخريفها ، كان مثل كل مرحلة فاصلة في التاريخ، عصر أزمات كبرى. فهو العصر الذي شهد حرب المئة عام «استمرت 116 سنة ، إذ بدأت في العام 1337 ، وانتهت في العام 1453» بين فرنسا وانكلترا «مع مشاركة أطراف أوروبية أخرى في بعض مراحلها»؛ وهو كذلك عصر الأوبئة الفتاكة ، والطاعون الأسود الذي أودى بحياة ربع سكان القارة الأوروبية. بل إن الكنيسة التي كانت لها ، لقرون خلت، اليد العليا في شؤون اللاهوت والسياسة الدنيوية ، وجدت نفسها في خضم أزمة طاحنة ، لاسيما مع انتشار الشكوك حول إمكانية التحقق من معرفة الرب عن طريق العقل ، وظهور حركات صوفية تحاول التوفيق بين الأنا الفردية والجوهر الإلهي؛ وقد قلصت هذه الحركات والتوجهات بالطبع من أهمية الكنيسة ومكانتها كوسيط بين الرب والإنسان. فانقسمت الكنيسة ـ لأسباب دينية وسياسية دنيوية ـ ، فكان هناك بابا في روما ، وآخر في أفنيون ، وكل منهما يحكم على الآخر بالحرمان الكنسي؛ بينما تتواصل المتاجرة بالمراتب الدينية ، وتتراجع مكانة محاكم التفتيش ، وتتراخى العادات والتقاليد الأخلاقية.. وتتهاوى النظم القروسطية ، وتفقد الإمبراطورية الرومانية المقدسة هيبتها الروحية ، ولا تلبث أن تخسر مكانتها الزمنية نهائياً بعد موت الإمبراطور فردريك ، مفسحة بذلك المجال لظهور أمم أوروبية مختلفة ، تبدأ معها الحياة البرجوازية والمدينية باكتساب أهمية متزايدة مع تطور الصناعة الحرفية وتنامي آفاق التجارة المحلية والدولية.

حروب الإمبراطور فردريك ضد البابوات انتهت بوفاته سنة 1250 (وإن يكن ورثته، لاسيما ابنه غير الشرعي، وخليفته في إيطاليا، قد حاولوا دون جدوى، الحفاظ على تماسك الإمبراطورية)، وشقت المدن الإيطالية طريق حريتها بقوة مبدعة، رغم ما واكب ذلك من فوضى سياسية واجتماعية، ومن تسلط الأدواق الذين ورثوا عن فردريك تحرره الأخلاقي والفكري، ومناصرته للآداب والفنون، وإحلاله الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس، والعقل محل الإيمان، والطبيعة محل الله، والضرورة محل العناية الإلهية. وهي المنطلقات التي هيأت الأرضية المناسبة لعصر النهضة وظهور فلاسفته وكتّابه ذوي النزعة الإنسانية، حتى قيل إن فردريك «كان رجل النهضة قبل مئة عام من حلول عصر النهضة».

وفي أثناء ذلك، كانت مدينة فلورنسا (عُرفت بهذا الاسم لكثرة أزهارها)، مثل غيرها من المدن ـ الدول الإيطالية الكبرى التي شكلت قلب النهضة الأوروبية ومركزها، تشهد تحولات اجتماعية وفكرية نتيجة الطفرة الصناعية والتجارية، لاسيما صناعة الصوف وصباغته، وعودة الحيوية إلى مؤسساتها المصرفية بعد نكستها إثر انتقال البابوية إلى أفينيون (1307). وقد أدت حركة الصناعة والتجارة النشطة إلى نشوء طبقة من الناس أقل تقوى وورعاً دينياً من طبقة الزراع، تنزع في تفكيرها نزعة دنيوية غير دينية، وتتجسد ككتلة علمانية مدركة لأهميتها في التحولات الفكرية والاجتماعية.

في ذلك القرن ـ القرن الرابع عشر ـ، وفي تلك المدينة ـ فلورنسا ـ، عاش وأبدع أعظم عباقرة الأدب الإيطالي: دانتي أليجيري Dante Alighieri، وفرانشيسكو بتراركا Petrarca، وجيوفاني بوكاشيو Boccaccio، حيث كانت البرجوازية الناشئة ترعى الثقافة والفنون. فكان كبار الموظفين يوصون على أعمال فنية لتزيين بيوتهم الدنيوية أو مدافنهم في المقابر. وحذا النبلاء ورجال الدين حذوهم راغبين في المشاركة في تجميل المدينة بالتماثيل وبناء القصور الباذخة والكنائس الفخمة. ولكن قيادة التجديد لم تكن في يد هاتين الطبقتين الأخيرتين؛ وإنما كانت تقود التجديد طبقة حديثة التشكل من سكان المدن عُرفت بالبرجوازية.. وكان البرجوازيون يسعون إلى ما يرضي أذواقهم وأمزجتهم، وهي أذواق تختلف جداً عما كانت عليه الحال في مجتمع الإكليروس والفرسان الإقطاعي.

إذا كان لنا أن نُعرّف طابع الفن البرجوازي في القرن الرابع عشر، فلا بد لنا من القول إنه فن أكثر واقعية وأكثر مادية من المرحلة السابقة. فالبرجوازي يميل، منطقياً، إلى «ما هو عامي» أكثر مما يميل إليه رجل الدين المثقف أو السيد الإقطاعي. ولكن البرجوازيين المتطلعين إلى السمو بأنفسهم معرفياً وروحياً، اتخذوا لهم معلمين ومؤدبين يرفعون من مستواهم الفكري، فانتهى الفن البرجوازي في القرن الرابع عشر لأن يكون فناً منمقاً ومتقلباً مع تقلب نزوات أثرياء البرجوازية المحدثين، لكنه يستند مع ذلك إلى قاعدة واقعية. أما الأدب، فضلاً عن استناده إلى أرضية واقعية، غلبت عليه الرؤية العامية؛ وهو ما يمكن تفسيره في أن الأدب يصل، بطريقة أو بأخرى، إلى كافة الطبقات الاجتماعية، بينما كان الأثرياء وحدهم قادرين على اقتناء أعمال الرسم أو النحت مثلاً، ولهذا تمتعت الفنون التشكيلية بذوق ورهافة لم يعرفهما الأدب البرجوازي التقليدي المتمثل في القصة والرواية. غير أن الحديث عن الطابع العامي أو الشعبي لأدب القرن الرابع عشر لا يعني أنه قد انفصل تماماً عن التقاليد الأدبية اللاتينية السابقة، واقتصر على أساليب تعبير التجار والصناع والحرفيين. لا، فالأمر ليس على هذا النحو؛ لأن ما حدث هو أن الكتّاب بدؤوا بالتخلي عن الأحكام المسبقة التي كان يحترمها أسلافهم، وحتى هم أنفسهم إلى ما قبل وقت قريب. وصاروا يرسمون الواقع مثلما هو، مهما بدا لهم قاسياً، مفكرين في أنهم يكتبون لجمهور أكثر اتساعاً، وأن هذا الجمهور يرغب في قراءة أو سماع أخبار الإشاعات والنمائم المتداولة في المدينة نفسها التي تدور فيها أحداث القصة، لأن جمهورهم مؤلف من أناس مرحين من العامة، يرغبون في اللهو والتسلية، وليسوا مثل أسلافهم المتعلقين بمشكلات شديدة السمو، كالخلاص الروحي أو الخطيئة.

وهكذا صارت تتبدى في الأدب البرجوازي في أواخر العصر الوسيط، لاسيما في رواية النثر والقصص، نزعة طبيعية دنيوية مشوقة، تعارض بذلك أكثر أشكال المثالية تطرفاً في روايات الفروسية والمشاعر السامية للشعر الغنائي الارستقراطي. وللمرة الأولى نجد هنا شخصيات حية وحقيقية. ويبدأ شيوع التوجه النفسي في الأدب، وذلك بالتغلغل في أعماق الشخصيات والتعبير عما يعتمل فيها.

جيوفاني بوكاشيو(1313 ـ 1375):

يبدو أن مدينة فلورنسا الغنية هي التي شهدت ميلاد جيوفاني بوكاشيو الذي جاء إلى

الدنيا في العام 1313، ثمرة غراميات خارج الزواج بين أبيه بوكاشيو دي شيلينو Chellino وسيدة مجهولة. لكن نظرية أخرى تقول إنه ولد في شرتالدو Certaldo، وهي قرية تبعد نحو أربعين كليومتراً عن فلورنسا؛ ونظرية ثالثة، يستبعدها معظم الدارسين، ويصفها بعضهم بالأسطورية، تقول إن مدينة باريس هي التي شهدت ميلاده، وتستند هذه الرواية إلى أن أبا الكاتب كان وكيلاً لمؤسسة مالية يملكها آل باردي Bardi، وأنه زار باريس في عامي 1313/1312. وتقول «الأسطورة» إن الأب أقام علاقة غرامية مع سيدة فرنسية، هي فوق ذلك إحدى بنات ملك فرنسا. أما أكثر سير حياة كاتبنا ثقة وتوثيقاً، فتتحدث عن علاقة غير شرعية بين الأب التاجر وسيدة مجهولة في شرتالدو، القرية التي يتحدر منها الأب، أو في فلورنسا، وهو الاحتمال الأكبر. وإذا كانت الشكوك تحيط بمكان ميلاد بوكاشيو، وتتعدد الآراء في هذا المجال؛ فإن هناك ما يشبه الإجماع على عدم توفر أية معلومات مؤكدة عن طفولته، باستثناء بعض الأخبار المتناقضة وغير الدقيقة. لكن الأمر المؤكد الذي لا شك فيه، هو أن بوكاشيو قد أمضى سنوات صباه في فلورنسا، وفيها تلقى أول دروسه الأدبية.

كانت فلورنسا في ذلك الحين تمر بفترة سعيدة من تاريخها. فصناعة الصوف والحرير المزدهرة تشغل مواطنيها، والمصارف تقدم خدماتها إلى كل التجار. في هذا الجو، وفي حي سان بير ماجور عاش بوكاشيو الصبي حياته، في بيت أبيه الفخم والسعيد كما يبدو. فقد تزوج أبوه فيما بعد من مرغريتا دي ماردوني Margarita de Mardoli، التي تربطها صلة قرابة مع آل بورتيناري Portinari المشهورين، أهل بياتريس، حبيبة دانتي. ويُفهم أن زوجة الأب تلك هي من حببت بوكاشيو الصغير بالأدب، لاسيما شغفه بالمعلم دانتي، صاحب «الكوميديا الإلهية»، الكتاب الذي علّق عليه بوكاشيو بحماسة في شيخوخته. ونعرف كذلك اسم معلم من معلمي بوكاشيو في هذه المرحلة، هو جيوفاي مازولي دا سترادا Mazzuoli da Strada، وكان دارساً كبيراً أيضاً لأعمال دانتي.

وفي شبابه المبكر (ربما في العام 1328) أرسله أبوه إلى نابولي في مهمة تجارية، كي يتعلم هناك مهنة التجارة والأعمال المصرفية. ويبدو أنه تعامل في نابولي مع مصرف آل باردي الذين كانوا يتحكمون بموارد حكام المدينة من آل آنجو Anjou. غير أن تجربته

التجارية تلك أخفقت، لأن الفتى لم يشعر بأي ميل إلى هذه المهنة؛ مثلما أخفقت بعد ذلك دراسته للقانون. فقد اكتشف بوكاشيو منذ ذلك الحين أنه منذور للأدب وليس لأي عمل سواه. وحظي كاتبنا منذ البدء بأساتذة متميزين من معلمي بلاط نابولي وعلمائه، فراح ينمي اهتماماته الأدبية بالتردد على المعلم المكتبي باولو دا بيروجيا Paolo da Perugia، والفلكي أندالو دا نيغرو Andalo da Negro، والعلامة ديونيجي دي سان سيبولكرو Dionigi da San Sepolcro. «دون نسيان صداقاته التالية مع أبرز أدباء عصره، بمن فيهم شاعر إيطاليا العظيم بتراركا». لقد أمضى بوكاشيو في نابولي أسعد سنوات حياته، يستمتع بأجواء المدينة الاحتفالية والمرحة وبطبعها المنفتح والمتدفق. وأضاف إلى دراسته للآداب، ميله إلى حياة السعادة واللهو التي يعبق بها بلاط نابولي. وفي ذلك البلاط، تعرف عام 1333 على ماريا دي أكينو Maria dei Conti d'Aquino (الابنة غير الشرعية لملك نابولي)، وأحبها إلى حد الضياع، وهو الحب الذي حفظه مدى الحياة في نفسه وخياله، واحتفى به في كل كتاباته. وأنشد محبوبته قصائد باسم استعاره لها هو فياميتا Fiammetta (اللهب الصغير). وخلال مرحلته النابوليتانية، يعكف على قراءة الكلاسيكيين باللغة المحلية المحكية وبالفرنسية، وينظم «فيلوكولو»، وهي رواية حب ومغامرات سنتحدث عنها فيما بعد، وأناشيد فيلوستراتو التسعة. وكانت أعمال أوفيد وفرجيل وشيشرون هي أحب الكتابات إلى نفسه، والتي لم يكن يمل قراءتها. وقد دفعه شغفه غير المحدود بالكتب، على امتداد سني حياته، إلى جمع واقتناء مكتبة شخصية كانت تستثير حسد معاصريه.

في العام 1341 يعيده أبوه إلى فلورنسا. وكان رجوعه إلى بيت أبيه على إثر إفلاس مؤسسة آل باردي الذي خلّف أسرته تحت وطأة الديون وبإمكانات مادية شحيحة. وتكشف مراسلات الكاتب في هذه الفترة عن شاب قلق ومتذمر؛ غير أن الضائقة المادية لم تتمكن من صرفه عن الأدب. وفي فلورنسا، بدأ العمل في خدمة بعض متنفذي المدينة والمنطقة. والقيام برحلات مختلفة، في مهمات ثقافية، تبعده من جديد عن البيت الأبوي. فيقضي فترة في رافينا Ravena، وفي فورلي Forli (1347)، ويرجع بعد ذلك إلى فلورنسا من جديد. ويبدو مؤكداً أنه كان في المدينة خلال جائحة الطاعون الدملي المأساوية التي عصفت بالمدينة سنة 1348، وعاثت بها خراباً، ووصفها الكاتب بدقة في مدخل كتابه البارع «الديكاميرون» الذي نقدمه هنا.

في السنة التالية ــ 1349 ــ، وبموت أبي الروائي، تزداد أوضاع الأسرة المادية حرجاً، لكن بوكاشيو صار ينعم الآن بقدر من الشهرة. فقد رفعته كتاباته إلى مرتبة مواطن متميز، وعرضت عليه حكومة المدينة مناصب مختلفة. وكلفته بالذهاب أولاً لزيارة أسياد رومانيا في مهمة دبلوماسية؛ ثم يُكلف بعد ذلك بتسليم مبلغ عشر فلورينات ذهبية إلى ابنة دانتي بالعماد، قدمتها إليها حكومة المدينة كتعويض عن الأضرار التي تعرضت لها الأسرة لأسباب سياسية.

وقد تواصلت مهمات بوكاشيو الدبلوماسية حتى اللحظة الأخيرة من حياته النشطة. في عام 1351 حصل على منصب عضو مجلس المدينة؛ وبعد ذلك مثّل جمهورية فلورنسا عندما سيطر عليها براتو Prato، وكان كذلك مبعوثاً للتفاوض مع لودفيك دي بافيرا Ludovico de Baviera. وبعد سنوات من ذلك ــ في عامي 1356/1354 ــ ينتقل بوكاشيو إلى أفينيون بمنصب سفير في بلاط البابا أنوسنسيو السادس والبابا أوربانو الخامس. وبعد حوالي عشر سنوات من ذلك، كان هو نفسه أيضاً من حمل تكريم فلورنسا إلى هذا البابا الأخير.

مساعيه ومهامه الوظيفية والدبلوماسية لم توقف إنتاجه الأدبي. فقد كتب «نينفالي دي آميتو» Ninfale d'Ametto و «رؤية غرامية» Amoroso visione، و«مرثاة مادونا فياميتا» Elegia di Madonna Fiammetta. وفي هذا الكتاب الأخير يُظهر مواهب باهرة في الرصد السيكولوجي وحرفية في السرد تمهد لعمله الذروة. مع ذلك، فإن كتابه Il Ninfalo fiesolano «1344- 1346» هو الذي يبلغ به أرفع مستوى قبل أن يكتب عمله الخالد. إنه قصيدة غرامية مطولة، تتألف من ستة أناشيد ثمانية المقاطع، موضوعها قصة حب بين راع يدعى أفريكو Africo، ووصيفة تدعى مينسولا Mensola. كما كتب بوكاشيو فيما بعد عدداً من المؤلفات باللغة اللاتينية، منها: «فضائل ورذائل»، «معجم جغرافي»، و«أساطير وثنية». وقد انكب فوق ذلك على تعلم اللغة اليونانية، ودراسة آداب الإغريق.

ربما يخيل لنا، للوهلة الأولى، أن المهمات الدبلوماسية الموكلة إلى بوكاشيو والمناصب التي تقلدها قد أخرجته من الإفلاس الذي أوقعت أزمة آل باردي الأسرة فيه؛ ولكن هذا غير صحيح. وقد حمله ما تعرض له من خسائر إلى الانتقال مجدداً إلى نابولي، حيث دعاه صديقه الكبير نيكولو اشيابولي Nicolo Acciaoli الذي كان يتصرف على

هواه آنذاك بشؤون حكام المدينة من آل آنجو، ووعد الكاتب بأن يوفر له حماية الملكة جوانا دي آنجو، والعيش في كنفها. ولكنه استُقبل بفتور في بلاط الملكة، ولم يجد هناك ما سعى إليه، فلا ذكريات الشباب اللطيفة، ولا الصداقات، ولا المعاملة التي خصه بها البلاط توصلت إلى رفع روحه المعنوية؛ ولم يطرأ أي تحسن كذلك على أحواله المادية. فدفعته هذه الظروف إلى مغادرة نابولي والنزول ضيفاً على الشاعر بتراركا الذي كان يقيم آنذاك في فينسيا «1363». ولكنه رفض مع ذلك الاستقرار في بيت قدمه له بتراركا، ورجع إلى بيته في شرتالدو مفكراً في اعتزال الحياة العامة. وقد كرس بوكاشيو سنوات حياته الأخيرة في التأمل الديني، وأسعده تعيينه عام 1373 دارساً ومحاضراً رسمياً متخصصاً بدانتي وأعماله. غير أن محاضراته تلك توقفت بعد سنة، بسبب مرضه واعتلال صحته، وتوفي في شرتالدو في الحادي والعشرين من كانون الأول 1375.

بالنظر إلى حياة كاتبنا التعسة، يهمنا الآن النظر كيف راحت روحه تتطور وترتقي من الطيش والعبث والاستسلام للمتع الدنيوية، ومن الإقبال على رفاهية حياة البلاط وأساليب العيش البرجوازية، إلى التأمل المتقشف في المسائل الأزلية التي أرقت إنسان العصور الوسطى المتعلق بشؤون الحياة الأخروية أكثر من ارتباطه بالحياة الأرضية. لهذا لابد من النظر إلى بوكاشيو باعتباره رجلاً يجمع كل عناصر العصر الوسيط الآخذ بالانتهاء وينقلها إلى العصر الجديد، عصر النهضة، الذي سيبدأ بعد قليل، وباعتباره أحد أوائل من عاشوا، وتمتعوا أيضاً، بروحية العقلية الجديدة التي نتحدث عنها.

التحول الذي طرأ على حياة بوكاشيو في السنوات الأخيرة من حياته، وتحوله إلى دروب التأمل الروحاني والانكباب على الدراسات الدينية، إنما تحقق بفعل الصداقة الحميمة التي ربطته بواحد آخر من أعمدة النزعة الإنسانية والمبشرين بالنهضة الآتية، ونعني به الشاعر فرانشيسكو بتراركا. فصداقة بوكاشيو وبتراركا لم تكن حدثاً عارضاً؛ إنها صداقة نمت ببطء، من خلال الزمن والمعاشرة. ففي العام 1350 عندما كان بوكاشيو في السابعة والثلاثين من عمره فقط، حظي بالتعامل شخصياً مع بتراركا. وبعد سنة من ذلك، في بادوا Badua، وكان بتراركا قد انتقل للإقامة فيها، أُتيح لبوكاشيو التعرف بعمق على هذا المعلم والتحدث إليه وتقديره، ثم قيض له فيما بعد —

1359 و1363 ـ أن يكون ضيفه ونزيله في ميلان وفينسيا. ولكن ما وطد الصداقة، أكثر من اللقاءات والمحادثات، هي المراسلات الغزيرة التي تبادلها الأديبان حول شكوك عن المهنة، وحول نقاط محددة من حياة العصر وروحه. ونجد الذكرى النوستالجية لأيام لا تُنسى متضمنة في هذه الرسالة التي تحمل تاريخ 18 تموز 1353:

«أنت تذكر، على ما أعتقد، أيها المعلم الأمثل، عندما جئتُ إليك في بادوا، منذ أقل من ثلاث سنوات، مبعوثاً من مجلس شيوخنا. وبعد انتهاء مهمتي، أمضيت عدة أيام معك، جميعها تقريباً بالطريقة نفسها. أنت كنت منكباً بالكامل على قراءة النصوص المقدسة؛ وأنا، المتلهف لاقتناء مؤلفاتك المنظومة، انكببتُ دون هوادة على استنساخ نسخة منها. وعند الغروب، كنا نتوقف عن العمل معاً، ونخرج إلى بستانك الصغير، المزدان بالأزهار والأوراق الوارفة بفضل الربيع الذي لم يمض سوى القليل على انقضائه». إنها رسالة تعكس الحس النهضوي، والحياة غير العابئة بمشاكل السياسة والبلاط، وسط الطبيعة الوادعة.

ابتداء من العالم 1360، يحوّل بوكاشيو بيته إلى منتدى للكتّاب والفنانين. يرتاده أول كبار الإنسانيين الإيطاليين: سالوتاتي Salutati، مازيني Masini، فيللاني Villani وآخرون كثيرون. وسيكون ذلك البيت مركزاً كذلك لدراسة نصوص كلاسيكية، لاسيما الآداب الإغريقية، ذلك أن بوكاشيو كان أحد أول رجال النهضة الذين تعلموا اللغة اليونانية، واستطاع قراءة أشعار هوميرو مباشرة. وصداقته للهيليني الكبير ليونزيز بيلاتو Leonzio Pilato، أتاحت له تلقي دروس مفيدة في الأدب اليوناني خلال الفترة من 1360 إلى 1362.

«لي شرف ومجد أن أكون أول التوسكانيين الذي جنى فائدة من الشعر الهيليني [...] لقد كنت أول من أحضر إلى استروريا Estruria، على نفقتي، كتب هوميرو وإغريقيين آخرين [...] وليس فقط إلى استروريا، وإنما كذلك إلى وطني».

هذه المرحلة الأخيرة من حياة بوكاشيو تطبع كذلك حياته ككاتب. إنه يصحح الآن أعماله ويهذبها ويعكف على التأليف باللاتينية، هاجراً العامية الإيطالية التي عبر بها عما كانت تمليه عليه مرحلة الشباب المضطرمة. وشيئاً فشيئاً، بمساعدة بتراركا، يكتسب من جديد وعياً دينياً متيناً، تتبعه أزمة ندم حقيقية؛ حتى إن بوكاشيو، الكاتب الدنيوي

السابق لعصر النهضة، نال مغفرة الكنيسة، بل والتصريح له بـ «التفرغ لعلاج الأرواح». وقد انتهت حياة بوكاشيو المضطربة بطمأنينة روحية، تبدت بوضوح في تعليقاته على الكوميديا الإلهية لدانتي التي سمعها معاصروه بتأثر في محاضرات ألقاها في كنيسة سان استيبان دي باديّا. وبهذا يتحد أعمدة عصر النهضة الثلاثة ـــ دانتي، بتراركا، بوكاشيو ـ وتبدأ إيطاليا بوعي حداثتها الآتية. ومع ذلك، فإن التزام دانتي الأخلاقي والديني، وكآبة بتراركا حيال هروب الأشياء وضياعها، غائبة تماماً عن كتابات بوكاشيو؛ فتخيلاته المبدعة تتوجه نحو عواطف الحياة الأرضية ومرحها ومتعها وإغراءاتها. إنه يرسم شخوصه ويتأملهم باستغراق الفنان ودهشته، ويتحرر من أية هموم أخلاقية أو دينية.

أعمال بوكاشيو الأدبية:

يعترف لنا الكاتب نفسه أن الأدب قد اجتذبه واستهواه منذ بدء حياته:

«... أما في ما يخصني فأقول إن الطبيعة قد مالت بي، مذ كنت في بطن أمي، إلى التأملات الشعرية، وهو ما يدفعني إلى التقدير بأنني ولدت من أجل الأدب وحسب».

لقد شكلت أعمال بوكاشيو، ولاسيما «الديكاميرون»، إضافة للمشهد الروائي في عصره، وصارت نموذجاً يحتذى للرواية الحديثة، وجعلت من إيطاليا بذلك مهداً حقيقياً لفن السرد القصصي بالطريقة التي مازلنا نفهمه بها حتى أيامنا هذه. صحيح أن الصقل والتهذيب وضبط الحدود والتطلع إلى الإتقان والكمال ما زال يتواصل، ولكن الإطار العام للفن القصصي ووسائله نجدها كلها قد أُبدعت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، قبل أن يهيمن عصر النهضة على الروح الإنسانية. ولم تكن قصص **«الديكاميرون»** وحدها هي التي أمتعت سهرات البرجوازيين الأغنياء، وأوائل الإنسانيين في ذلك العصر. ذلك أن بوكاشيو، وقبل خمس سنوات من كتابته كوميدياه الإنسانية هذه، كان قد ضبط اللغة الإيطالية العامية (الآخذة بالانشقاق عن اللاتينية) لتتوافق مع منهج السرد القصصي؛ فكانت رواية **«فيلوكولو»** *Filocolo* التي ألفها نزولاً عند طلب ماريا دي أكينو، هي أول محاولة في الرواية الفنية، بتطلعات سيكولوجية، ومحاولة لدراسة الطباع واكتشاف الأعماق الحميمة للشخصيات. غير أن **«فيلوكولو»**، كأول مظاهر هذا الجنس الأدبي، كانت ثقيلة الظل وكثيرة التشوش والاضطراب. فقد راكم فيها

بوكاشيو فائضاً من الأحداث، وحشداً من الشخصيات التي ظل معظمها غائماً وغير واضح المعالم، بينما سكب المؤلف كل عواطفه في رسم ردود أفعال وسلوك شخصيات أخرى لأنه يشعر نحوها بتعاطف حقيقي.

الحكاية في «**فيلوكولو**» كانت متداولة على شفاه الناس في ذلك العصر، لأنها تشكل جزءاً من قصيدة «**فلوريس وبلانكافلور**» *Flores y Blancaflor*؛ وكانت قد وردت في كتابين فرنسيين مفقودين. وقد بدأ بوكاشيو كتابتها وفق صيغة معروفة سابقاً، وذلك باصطناع قصة تمهيدية مساعدة، تكون ذريعة لرواية قصته. وهو أسلوب سيلجأ إليه في عمله الخالد «**الديكاميرون**» فيما بعد. ذلك أنه لم يكن قد حان بعد زمن الراوي المباشر الذي ينتزع قطعة من الحياة ويغرسها في روح القارئ، دون حاجة إلى تمهيد مسبق. وذلك بسبب التأثير العظيم للآداب الشرقية، وخاصة «**ألف ليلة وليلة**» على الآداب الأوروبية على امتداد العصور الوسطى. وهكذا إذاً، يصطنع بوكاشيو ذريعة لرواية القصة، فيبدأ بالحديث عن التقائه، مرة ثانية، في «معبد أمير عصافير السماء»، بسيدة بارعة الجمال، كان قد تعرف إليها قبل بضعة أيام في معبد آخر. وتوافق السيدة، مالكة قلبه منذ اللحظة الأولى، على مرافقته، وترجوه أن يشرح لها قصة غراميات فلوريس وبلانكافلور، وأن يكتب لها القصة باللغة العامية المحكية «lingua vulgare» حول هذا الموضوع. هذه هي الذريعة التي يصطنعها بوكاشيو لعرض القصة. ونتبين أن السيدة الجميلة هي ماريا دي أكينو التي خلّدها بوكشيو في أعماله باسم فياميتا. ويربط الكاتب نسب هذه السيدة، على طريقة آلهة الميثولوجيا الإغريقية ــ الرومانية، بالإلهة جونون[1] تحديداً. وتكلم جونون البابا وتحثه على سحق قوة السويف Suevs وتدمير ما بقي من روما القياصرة. وبعد سلسلة من الأحداث التاريخية المعاصرة للمؤلف، يتمكن «كاهن جونون» ــ أي البابا ــ، بفضل مساعدة الفرنسي شارل دي آنجو، من هزيمة الطاغية مانفريد وفرض سلالة حاكمة جديدة في نابولي، يكون من نسلها الملك روبرتو دي آنجو؛ حاكم نابولي ووالد ماريا «أي فياميتا» التي صرنا نعرفها.

الحبكة الحقيقة في «**فيلوكولو**» (أو فيلوبونو Filoponpo، حسب ما يرد العنوان في

---

[1] جونون Jonon : من آلهات الرومان، هي زوجة جوبيتر كبير الآلهة وحامية المرأة وإلهة السماء. وتقول الأسطورة إن لكل امرأة «جونون» خاصة بها ترافقها منذ ولادتها حتى وفاتها.

طبعة صدرت في فينسيا في القرن السادس عشر. وفيلوبونو تعني «آلام الحب» لم يكن فيها، لولا ما أُدخل إليها من عناصر شخصية، أي قدر من التعقيد. ففلوريس وبلانكافلور يترعرعان معاً، منذ المهد، في بلاط الملك فيلكس الإسباني. ذلك أن أبا بلانكافلور، المدعو كينتو ليليو أفريكانو، يموت عندما يهاجمه ــ بطريق الخطأ ــ جنود الملك فيلكس، بينما هو يحاول النزول إلى البر مع زوجته الحبلى. وكانا قد ركبا البحر قادمين إلى إسبانيا لوفاء نذر نذراه للقديس سنتياغو. يحزن الملك فيلكس لما حدث، وينقل المرأة الحبلى إلى قصره. وفي اليوم نفسه الذي تنجب فيه الملكة طفلاً، تولد في القصر نفسه الطفلة بلانكافلور. يُطلق على الأمير الوليد اسم فلوريس، ولا يستطيع القصر الاحتفال بميلاده بكل الأبهة والسعادة المطلوبة، لأن حدثاً مشؤوماً يحول دون الاحتفال السعيد: فأم الطفلة بلانكافلور قد ماتت بعد قليل من وضع ابنتها. عندئذ يقرر الملك فيلكس، وقد غلبه التأثر، أن يحتفظ بالطفلة ويربيها مع ابنه.

وسرعان ما يلاحظ أبوا الفتى أن ابنهما يميل إلى بلانكافلور التي تميل إليه بدورها، ولأن الأبوين لا يعرفان حقيقة أصل بلانكافلور وسلالتها، يقرران الفصل بين الفتى والفتاة. وهنا تبدأ رواية مغامرات حقيقية؛ إذ يرحل فلوريس بحثاً عن حبيبته، ويعاني ظروفاً وصروفاً قاسية بعيداً عن أترابه وزملائه في اللعب.

تلقي عاصفة هوجاء بفلوريس على رمال نابولي، ويتعرف في بلاط الملك روبرتو على فياميتا الجميلة وعشيقها، وهنا يجد المؤلف الفرصه مواتية للعودة إلى الحدث الواقعي والدراسة الشخصية للطباع، ذلك أن عشيق فياميتا ليس إلا بوكاشيو، كاتب القصة نفسه.

وتنتهي الرواية برحلة الزوجين الشابين فلوريس وبلانكافلور إلى إسبانيا. فبعد اتضاح الألغاز الغامضة، يتزوج الشابان في مصر، حيث قيض لهما أن يلتقيا. وبعد وصولهما إلى إسبانيا يقرران تكريس نفسيهما لنشر تعاليم الكنيسة الحقيقية.

لا يمكننا تصور حبكة أكثر تقليدية ومحافظة على الأساليب القديمة ما لم نتفحص مضمون «**الديكاميرون**» وعالمه الواقعي. ولكننا قلنا من قبل إننا نجد في أعمال بوكاشيو كل منهج رواية عصر النهضة، ونجد في هذه الأخيرة منهج الرواية المعاصرة. غير أن «**فيلوكولو**» السابقة على «**الديكاميرون**»، هي خليط غريب من قصيدة ملحمية

لاتينية كُتبت نثراً، ورواية عواطف ومغامرات، هي سابقة لما ستكون عليه الرواية النفسية. وهذه الأخيرة تجد تجسيدها الكامل، أول مرة، في رواية أخرى لكاتبنا: **«فياميتا»**، أو **«مرثاة مادونا فياميتا»**، إذا أردنا الدقة في العنوان.

إننا في عام 1343، وقد انتهى الأمر ببوكاشيو إلى أن يجد نفسه وحيداً بعد أن هجرته ماريا أو فياميتا «اللهب المتقلب»، ولكنه لا يستسلم. ويبتدع في عمله هذا حبكة جديدة، مبدلاً الأدوار، فنجد أن حبيب **فياميتا** ــ المدعو بانفيلو في الرواية ــ هو الذي يهجرها؛ فتقع فياميتا في حالة من اليأس توشك أن تصل معها إلى الانتحار. وتستذكر بدقة وتفصيل شبابها الذي أمضته بسعادة إلى جانب بانفيلو، وقد انقطع بمرارة بعد رحيل الحبيب إلى فلورنسا. وتحلل عواطفها بكل تفصيل منذ بدايتها إلى أن تبلغ ذروتها بالغيرة، عندما تعلم أن بانفيلو، الجاحد، مولع بحب حسناء فلورنسية.

لقد قلب بوكاشيو الأدوار، ربما لينتقم من ماريا دي أكينو «فياميتا»، أو ربما ليزود القصة بمزيد من عناصر التخييل. وهكذا تتغير حقيقة الواقعة متحولة إلى إبداع فني: إنه الوصول إلى الرواية المعاصرة، المحكمة في مضمونها وشكلها.

وننتقل الآن إلى عالم سترفعه النهضة إلى أعلى درجات الجمال، إنه عالم الأدب الرعوي. وقد قدم بوكاشيو في هذا الميدان رؤية لما سيتحول، بعد وقت قصير، إلى صرعة أدبية. فغنائيته الرعوية **«كوميديا الحورية فلورينتينا»** *Comedia della ninfa Florentine* أو في **«نينفالي دي آميتو»** *Ninfale d'Ametto*، التي كتبها في حوالي 1342، نثراً، وضمنها العديد من الثلاثيات الشعرية، تقع في جانب منها ضمن ما كان يمثل بهجة العصور الوسطى، ولكنها في جانب آخر، تستبق وتمهد لما سيُعرف بعد قليل بالرواية الرعوية، والتي ستكون «أركاديا» *La Arrcadia* لسانازارو[1] نموذجها الأسمى. فالطبيعة كنمط أسلوبي، مثلما نراها في لوحات بوتشيللي Botticelli، تصبح عنصراً أساسياً من حبكة القصة. بل أكثر من ذلك، تتحول **الطبيعة إلى شخصية**؛ وشخصية ذات أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أبطال العمل أنفسهم، ذلك أن هؤلاء إنما ولدوا بفضلها، وفيها يعيشون، ومعها يموتون. ويضج المشهد بالحيوية متخذاً تلونات جديدة في خدمة الحالة

---

[1] سانازارو Jacobo Sannazzaro : شاعر إيطالي (1456 . 1530) مؤلف الرواية الرعوية «أركاديا» المكتوبة بمزيج من النثر والشعر. وله كذلك أشعار كثيرة باللاتينية.

النفسية لأولئك الرعاة الأدبيين الذين يهيمون على وجوههم، نهاراً وليلاً، على الصخور والمروج، ويكتبون قصائد حب على لحاء الأشجار، دون أدنى اهتمام بقطعانهم الحالمة. وبهذا تكون الرواية، على يد بوكاشيو، قد صارت على بعد خطوات من الأدب الرعوي الذي أنجبه عصر النهضة.

وفي تناقض مفاجئ مع رهافة **«نينفالي دي آميتو»** وعذوبتها، يظهر لدى بوكاشيو، من جديد، عنصر واقعي قريب من بعض قصص **«الديكاميرون»**، وهو أمر نلحظه في عمل على علاقة بالأدب الكاره للنساء، ونعني به «كورباشيو» *Corbaccio* أو **«متاهة الحب»**. ويكون بوكاشيو قد تجاوز في هذا الوقت الأربعين من عمره؛ وتوصل إلى ما يشبه استبعاد ذكرى فياميتا، وركنها في إحدى زوايا قلبه بعد أن تعلق بحب امرأة أخرى، ليست تخيلاً رعوياً زائفاً، وإنما امرأة حقيقية من لحم وعظم: إنها أرملة فلورنسية نبيلة. لكن الأرملة، وهي امرأة واسعة التجارب الغرامية، تتكشف على أنها، مثل كل النساء، مخادعة ومتغنجة، وهما خصلتان إذا ما بلغتا أوجهما تؤديان إلى القسوة.

يتعرض بوكاشيو لخداع دنيء من جانب أرملته المتبرجة. ولكنه الآن معلم في فن القص، إنه في أوج نضوج قدراته الأدبية؛ فيطلق لنفسه العنان في شنّ أشد أشكال التهكم من النساء. ويبدو أدب كره النساء في العصر الوسيط فقيراً وباهتاً أمام السباب والشتم الذي يصبه بوكاشيو بلغة عامية جريئة، تحولت إلى أدب. فالمؤلف يصب جام غضبه، ليس على تلك الأرملة وحدها، وإنما كذلك ضد فياميتا، وضد كل من جعلنه يعاني تباريح الهوى. لقد أوصلته تجاربه الحزينة أخيراً، كرجل ناضج، إلى معرفة الحقيقة: كل النساء سواء...، وهو ما قيل عن بياتريس حبيبة دانتي، وعن لورا حبيبة بتراركا.... ويفكر بوكاشيو في أن كل شيء في الحب والهوى ما هو إلا خداع ينسجه الشعراء حول أسوأ مخلوق في البشرية، وأنه «من المنطقي أن يكون الأمر كذلك! وكم هم الرجال أغبياء، حين يعيشون مخدوعين بهن! فليتبارك الرب...! كيف يمكن للسذج الغافلين، الملتصقين بأذيالهن، ألا ينتبهوا إلى أنهن مجرد دمى لنزواتهن...؟ فإن كانت هذه هي الحقيقة، فإن الشيطان نفسه قد انتبه إلى ضعفه. وهكذا يتبدى أن المرأة هي أخبث دودة في الخليقة».

وهنا، بإيجاز، ما أراده المؤلف من **«كورباشيو»** *Corbaccio*. إنه يتقمص في هذه

الرواية شخصية الزوج المتوفى والمخدوع، ويرى أن واجب التكفير يتطلب منه أن يشرح للغافلين من الرجال الفانين ما هو حقيقي في حب النساء. وهكذا يوفر التخييل موطأ قدم لسيرة رجلنا الشخصية الغرامية، فيتحرر بكل وعي من ضغا ئنه، بالكشف لمعاصريه من الرجال عن التجارب التي كان فيها الضحية. والواقع أنه لا يساوم في أي تفصيل مهين وهو يهاجم الجنس الآخر الذي يخونه.

هذا العمل الذي نال نجاحاً يقارن بنجاح «**الديكاميرون**»، يُظهر للمرة الأولى إلى أي حد كان يمكن للغة العامية التوسكانية التي يتجادل الناس بها بحرارة في الساحات والأسواق، أو يعبّرون بها في أحاديثهم، متحررين من الأفكار المثقفة اللاتينية السابقة، أن تكتسب حالة جمالية لدى انتقالها، دون تزيين، لتشكل جزءاً من الحوار المقحم في رواية الحدث، وسط نسيج بناء نثري محكم يبدعه الكاتب الناضج.

هكذا، عندما يقدم لنا نضوج فن قصة عصر النهضة في فرنسا عبقرياً آخر، وأعني رابليه، سنجد فيه عودة إلى وخزات بوكاشيو العفوية والواقعية المتهكمة. وتنتشر في أوروبا بأسرها، في أثناء ذلك، التسلية برواية قصص كتّاب مختلف بلدانها. فقد طغت موجة بوكاشيو على الجو الأدبي ما قبل النهضوي. ففي إيطاليا نفسها، موطن بوكاشيو، وفي أواخر القرن الرابع عشر، يخرج ساشيتي[1]، مؤلف «**كتاب الثلاثمئة قصة**» *Il libro delle trecente novelle*، المكتوب في حوالي 1393، بمجموعة قصص تعترف بأبوة بوكاشيو الذي كان قد توفي آنذاك... وحتى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ظلت إيطاليا وفية لمؤلف «**الديكاميرون**». ففي أوج عصر النهضة، يطلق ماتيو بانديللو[2] على بوكاشيو لقب «صاحب البلاغة الرفيعة»، ولا يتردد في إعلان أنه تلميذه. ويصل تأثير بوكاشيو أيضاً إلى فرنسا التي تنتج في العام 1664 مجموعة القصص الشهيرة

---

[1] ساشيتي Sacchetti : مؤلف إيطالي (1335 ـ 1400) كتب أكثر من ثلاثمئة رواية قصيرة، ويعترف بتأثره ببوكاشيو.

[2] ماتيو بانديللو Mateo Bandello : (1485 ـ 1561). مع بدايات القرن السادس عشر، استكمل بانديللو إتقان وتحسين منهج القص الذي بدأه بوكاشيو. وكان راصداً لتفاصيل الحياة اليومية أكثر منه رواي «حكايات» وقد أعجب بأسلوبه كتّاب مسرحيون من وزن شكسبير ولوبي دي بيغا، وضمنا أعمالهما المسرحية الكثير من أحداث قصصه وتفاصيلها.

المعنونة «**مئة قصة جديدة**» *Cent nouvelles nouvlles*[1]. كما نجد أثر القصة البوكاشيوية في الكتاب الإنكليزي الخالد «**قصص كانتربيري**» (*The Canterbury Tales*)، الذي كتبه غودوفريد شوسر، المتوفى سنة 1400. فهذا الكاتب الإنكليزي الذي يعتبر أبا اللغة الأدبية الإنكليزية والقصة البريطانية، كتب في حوالي العام 1389 مجموعة القصص المذكورة، وكان مثل بوكاشيو، أحد المبشرين بعصر النهضة، ولكنه أقرب إلى ذهنية العصور الوسطى من المعلم الإيطالي. وقد وضع قصصه هذه في مرحلة كانت اللغة الإنكليزية الأدبية لا تزال بدائية. ومع أنه نظم القصص شعراً، إلا أنه استبق كل قصة منها بتقديم ملخص مماثل للطريقة التي يبدأ بها بوكاشيو قصصه في «**الديكاميرون**». وليس هذا هو المظهر الوحيد الذي يجمع بين شوسر وبوكاشيو، وإنما نجد أنه يتبنى في بعض قصصه شكل ومضمون قصص بوكاشيو، مما يجعلها ابنة حقيقية للديكاميرون، وهو ما يؤكد قراءة شوسر المتأنية لكتاب بوكاشيو وتأثره الشديد به. كما تبرز في «**قصص كانتربيري**» ملامح تأثر واضحة بالكوميديا الإلهية لدانتي، وهكذا يلتقي دانتي وبوكاشيو مرة أخرى في تأثيرهما بعمل آخر سابق لعصر النهضة، بفضل قلم مبشر آخر بالنهضة هو العلامة الإنكليزي غودوفريد شوسر.

الديكاميرون:

الديكاميرون، ومعناها باليونانية: ديكا «10» وهيميرا (يوم)، أي «**الأيام العشرة**»؛ ويتوجه بوكاشيو في هذا الكتاب إلى النساء تحديداً، يريد تسليتهن والترويح عنهن، لأنهن محرومات من وسائل اللهو والتسلية المتاحة للرجال (وربما يفعل ذلك على سبيل الاعتذار من السباب والإساءات التي وجهها إلى الجنس اللطيف في كتابه السابق «**كورباشيو**» الذي تحدثنا عنه). ويضم «**الديكاميرون**» مئة قصة، حكاية، أقصوصة، أو أي تسمية نشاء، تُروى خلال عشرة أيام، على ألسنة عشرة شباب (أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين)، هم سبع نساء وثلاثة رجال؛ يلتقون في كنيسة سانتا ماريا الجديدة. ويتفقون على الهرب من هلع وباء الطاعون الذي اجتاح فلورنسا في العام 1348، ويذهبون للعيش في قصر فخم في الريف على مقربة من المدينة.

---

[1] Cent nouvelles nouvlles : (**مئة قصة جديدة**): كتب في أجواء البلاط البوربوني. لا وجود لمعلومات مؤكدة عن كتابها. والموضوعات التي تعالجها عديدة ومتنوعة مثلما هي قصص الديكاميرون.

يبدأ الكتاب بوصف تفصيلي ودقيق للوباء، حيث «الحياة تنفلت هاربة، ولا تنتظر ساعة واحدة»، كما يقول بتراركا في مطلع سوناتا بعنوان «في الموت» *In morte*، كتبها في عام 1348، في أوج جائحة الطاعون الذي قضت فيه محبوبته لورا. وقد بدأ بوكاشيو كتابة «الديكاميرون» في تلك السنة بالذات ـ 1348 ـ، تدفعه قبل أي شيء آخر، ذكرى ماريا دي أكينو المستغرقة آنذاك في غراميات أخرى.

«الحياة تنفلت هاربة، ولا تنتظر ساعة واحدة» هي ترتيلة الموت عندما تجتمع كل الطبقات الاجتماعية في حفلات الرقص واسعة الانتشار في أدب أواخر القرن الرابع عشر.

«الحياة تهرب...»؛ أجل، فعام 1348 هو عام الموت. رجال ونساء، بغض النظر عن السن، ودون تمييز لوضعهم الاجتماعي، يخلفون شبابهم وثروتهم وينزلون أفواجاً إلى القبور. فالطاعون الأسود، هذا الوباء القروسطي الذي أزهق من الأرواح أكثر من أي حرب، قد دخل بيوت فلورنسا الغنية وعاث بها خراباً. وكان كثيرون قد ماتوا، عندما قررت نساء «الديكاميرون» السبع مغادرة المدينة مع الشبان الثلاثة، والهرب ليبعدوا عن أذهانهم ما عاشوه من أهوال. وهكذا يرفع بوكاشيو سقالات عمله فوق ركيزة حدث واقعي، يعاني منه هو نفسه ويتألم مثل غيره من معاصريه.

صديق آخر لبوكاشيو، أوسع منه شهرة في عالم الأدب آنذاك، يبكي بحرقة ومرارة. إنه بتراركا الذي فقد في الوباء لورا التي أحبها بكل جوارحه حباً أفلاطونياً.

ما إن نفتح صفحات «الديكاميرون» حتى ندرك أننا بحضور لحظة تاريخية مأساوية. فليس فلورنسا وحدها، ولا إيطاليا، وإنما أوروبا بأسرها تحولت إلى مسرح يجتاحه وباء رهيب، قضى على ربع سكان القارة (هناك تقديرات تقول إن الوباء أودى بحياة خمسة وعشرين مليون شخص في أوروبا). ولم تنج من الوباء أي أمة أوروبية، بل كان له تأثير كبير على الأحداث العسكرية والسياسية. ففي المرحلة الأولى من حرب المئة سنة، لم يحترم الوباء أحداً، بما في ذلك حليفته الحرب؛ مما اضطر الملك الإنكليزي إدوارد الثالث، بعد انتصاره الباهر في كاليه، وسيطرته على بريتاني، إلى عقد هدنة مع الفرنسيين، نظراً لما ألحقه الوباء برجاله من خسائر.

ويقدم لنا بوكاشيو، في الصفحات الأولى من «الديكاميرون»، عرضاً لأبعاد المأساة:

«...مع تقدم سنوات التجسد الخصيب لابن الرب وبلوغها العام ألف

وثلاثمئة وثمانية وأربعين، تفشى في مدينة فلورنسا الجليلة، والأروع بين مدن إيطاليا كلها، وباء الطاعون المميت. فعن طريق كائنات سماوية، أو بسبب أعمالنا الجائرة، أصاب غضبُ الرب العادل البشرَ الفانين بهذا الوباء».

ويواصل بوكاشيو القول إن الوباء بدأ في فصل الربيع، ويصف أعراض الداء: ــ دمامل لها شكل حبة لوز، وحجم بيضة، تظهر تحت الإبط، تتلوها بقع سوداء في كل أنحاء الجسم، ومنها يعلم المصابون التعساء أنهم شارفوا على الموت ــ. ولم يكن بمقدور الأطباء أو الأدوية وقف الوباء. ويرى بوكاشيو نفسه، بأم عينه مشاهد مروعة مما يفعله المرض:

«... كانت أسمال رجل بائس، مات بالداء قبل قليل، ملقاة في الطريق العام، واقترب منها خنزيران يتشممان، ومزقاها بأسنانهما مثلما هي عادة الخنازير، وبعد قليل، بعد بعض التشنجات، كما لو أنهما تناولا سماً، سقطا أرضاً ميتين فوق تلك الأسمال الممزقة».

ولهذا هُجر المرضى وتخلى عنهم جيرانهم، وحتى خدمهم أنفسهم.

«... وبالنظر إلى تزايد أعداد الجثث التي كانت تنقل كل يوم، بل كل ساعة، إلى الكنائس، فإن المقابر لم تعد تتسع لدفنهم [...] حُفرت قبور جماعية كبيرة جداً، لدفن مئات الموتى الذين يؤتى بهم؛ وكانت الجثث تُنضد فيها متراصة كما تنضد البضائع...»

ويروي لنا بوكاشيو في مدخل الكتاب هذه الأهوال، واصفاً بدقة كل ما يدور من حوله، دون نسيان أي تفصيل. ولا بد للمرء أن يعتقد، بعد الانتهاء من قراءة كل ذلك البؤس، أن المؤلف سينتقل بنا بعد ذلك إلى تأمل روحاني. وبالفعل، قبل أن يقدم لنا من سيمثلون دور الرواة، ينهي ديباجة اليوم الأول بهذه الكلمات:

«كم من الرجال الشجعان البارزين [...] تناولوا الفطور في الصباح مع أسرهم وأصدقائهم، ليتعشوا في الليلة التالية مع أجدادهم وأسلافهم في العالم الآخر!»

ولكن بوكاشيو يبدل من نبرته في هذه اللحظة، كي يقدم لنا مباشرة من

سيستخدمهم رواة للقصص. فيبدأ في ساعة الصباح الأولى، حيث تجتمع سبع نساء باهرات الجمال، ومن أصول نبيلة؛ ليس بينهن من يزيد عمرها على خمس وعشرين سنة، لحضور القداس في كنيسة سانتا ماريا الجديدة، شبه الخاوية. ويبدو أن رواد الكنيسة القلائل لم يأتوا للصلاة من أجل الأموات، وإنما للتضرع إلى الله من أجل حفظ حياة من ظلوا أحياء... هذه هي الحدود التي بلغتها الكارثة.

بعد أن أنهت نساء قصتنا صلواتهن، انتحين جانباً ليعلقن على ما يرين ويعشن، ويتحسرن لما صارت إليه أحوال المدينة. وتتحدث أكبرهن ــ وتدعى بامبينيا ــ وهي أولى المتحدثات في القصة، راغبة في البحث عن علاج لآلامهن. فتعرض على رفيقاتها فكرة خطرت لها:

> «فلنخرج من هذا المكان مثلما فعل كثيرون قبلنا، هرباً من الموت ومن أنماط الحياة غير الشريفة التي يعيشها آخرون. ولنذهب للإقامة بصورة شريفة في المزارع الريفية [...]. ففي تلك الأماكن يُسمع تغريد الطيور، وتُشاهد هضاب ومروج خضراء، وتتماوج مثل البحر الحقول المترعة بالزرع الوفير، وبألف نوع من الأشجار؛ وهناك السماء الفسيحة، مهما اشتد غضبها، لا تحرمنا من بهائها السرمدي.

وبامبينيا لا تدعوهن إلى الخروج من أجل التأمل والتعبد، وإنما للترفيه عن أنفسهن والاستمتاع بمباهج الحياة. وهي تريد الخروج مع الشخص الوحيد المتبقي معها في البيت ــ خادمتها ــ. وترحب السيدات الأخريات بالاقتراح، غير أن إحداهن ــ المدعوة فيلومينا ــ، وهي شديدة الاتزان والرصانة، أرادت أن تعرف إذا ما كان الرجال يرحبون به أيضاً، «فليس للمرأة أن تتخذ قراراً دون نصيحة ذكورية». وهنا تنتبه بامبينيا إلى أن المصادفة قد وفرت لهن فرصة الاستشارة؛ ففي هذه اللحظة، يظهر في الكنيسة ثلاثة شبان متميزين.

> « أرى أن الحظ يسعف مبتغانا منذ البداية. فقد وضع أمامنا هؤلاء الشبان المتكتمين والشجعان الذين سيوافقون بطيب خاطر على أن يكونوا أدلاء وحماة لنا إذا ما طلبنا منهم ذلك.»

ولأن الشبان الثلاثة (بانفيلو وفيلوستراتو وديونيو) قد جاؤوا إلى الكنيسة بحثاً عن

السلوى كذلك، فإنهم يرحبون بفكرة بامبينيا، ويقررون جميعهم إعداد ما يلزم لمغادرة المدينة في اليوم التالي، وهو يوم الأربعاء. وحتى قبل مغادرة أسوار المدينة التي صارت أشبه بمقبرة، يتبدل الجو تماماً منذ خروج السيدات السبع من الكنيسة من أجل الإعداد للرحلة. فقد قررن دفن الأحزان، وها هن يتوصلن إلى مرادهن. وعند مجيء صباح يوم الأربعاء، نسمع ضحكات الموكب السعيد الذي يغادر مع الخدم، مخلفاً وراءه كآبة المدينة ومراراتها.

في المزرعة البديعة خارج مدينة فلورنسا، لا يبخل علينا المؤلف بتفاصيل الجو المحيط:

> «... رافق الشبانُ السيدات، وتوغلوا بخطى وئيدة في إحدى الحدائق، يتبادلون الأحاديث في موضوعات مبهجة، ويصنعون أكاليل من أزهار متنوعة، ويغنون بمرح وسعادة.»

ويروي لنا كيف يُعدّ الخدم المائدة:

> «... وجدوا موائد مغطاة بشراشف ناصعة البياض، عليها كؤوس لا ريب في أنها من الفضة، وكثير من الزهور. »

ونعرف أنهم قرروا تنصيب ملكة عليهم كل يوم، يكون عليها اختيار أساليب المتع ووسائل التسلية، وتولي تسيير الأمور بوئام. ويتم اختيار بامبينيا ملكة لليوم الأول.

تنتهي قيلولة اليوم الأول، ويتوجه الشبان والسيدات إلى «مرج أعشابه خضراء وطويلة، لا تصله حدة الشمس» ويجلسون جميعهم في دائرة و«قد أنعشتهم نسمات الهواء العليل»، ويستمعون إلى ملكتهم التي تقترح عليهم قضاء بعض ساعات النهار في رواية القصص. وسيواصلون كل يوم، في مثل هذا الوقت، قضاء ساعات الحر في سماع قصص يتناوبون روايتها فيما بينهم. وبهذه الطريقة ينقضي الوقت دون هموم، متجاهلين أجواء الكارثة العامة التي تسود المدينة.

جميعهم يوافقون، بسعادة حقيقية، على خطة رواية القصص بعد القيلولة. وعلى الرغم من التوافق على أن تكون قصص كل يوم حول موضوع تقترحه الملكة، إلا أن الملكة قررت أن يكون موضوع قصص اليوم الأول حراً، بحيث يروي كل شخص قصته في الموضوع الذي يروقه.

ويكون بانفيلو هو من يبدأ مهمة القص المتعة:

« السيد شابليتو، بعد اعتراف زائف، يخدع راهباً طيباً ويموت؛ ومع أنه كان رجلاً خبيثاً في الحياة، إلا أنه يُعامل في مماته كقديس ويُسمى القديس شابليتو.»

وهكذا ننتقل فجأة، وبتصور مبيت، من عالم الرعب والموت والأهوال الذي رسمه لنا بوكاشيو نفسه في مقدمته، إلى عالم النمائم البرجوازية الذي يعيد رسمه لنا في كل واحدة من القصص. هذا هو السر الحقيقي في فن بوكاشيو القصصي: التصوير الواقعي للحياة اليومية.

لقد تبدل كل شيء. ومع توالي القصص، نبتعد أكثر فأكثر عن الوباء، وننسى، مع الرواة، اللحظة المأساوية التي جعلهم المؤلف يعيشونها قبل خروجهم إلى القصر الريفي البديع. إنه الهروب من الألم والموت الجماعيين، والبهجة لأنهما لم يدركا أبطال قصصنا الذين يريدون الاستمتاع بالوقت المتوفر لهم في الحياة قبل أن يختطفهم الموت المترصد بهم. رواية القصص هي وسيلة لتجاهل الموت، مثلما هي قصص شهرزاد وسيلة لاستبعاد شبح الموت يوماً بعد يوم، على أمل النجاة منه.

بوكاشيو يروي، إذاً، من أجل تجاهل الموت، من أجل التسلية، من أجل الإضحاك، دون أية هموم أخلاقية، ودون أي خبث أيضاً. أما إذا وجد القارئ خبثاً، فإنه هو نفسه المسؤول عن ذلك، لأنه لم يتحكم بمخيلته. فبوكاشيو يقتصر على عرض الحدث، دون أن يعلق عليه، يروي في خط سوي ومستقيم، ويعرض لنا في كل قصة قطعة مختلفة من هذا العالم، دون مزيد، ودون تدخل منه، ودون رغبة في استخلاص حكمة أو أمثولة ما، تاركاً للقارئ أمر استخلاص ما يشاء. إنها الانطلاقة الحقيقية للقصة الفنية الواقعية.

والحقيقة أن القارئ المعاصر يستخلص ـ ضمن ما يستخلصه ـ نتيجة واحدة مؤكدة: الظفر بالعيش دون قلق، والاستمتاع بالحياة الخاصة كحق شرعي للإنسان. إننا نشعر في الواقع بغياب أي مسألة جدية؛ لأن المؤلف نفسه لا يحمل ما يرويه، كما هو واضح، على محمل الجد. وهو ما يحدث لنا نحن القراء عند متابعتنا للرواة الذين يعيدون أمامنا إنتاج الحياة اليومية لأنماط بشرية عايشوها، وأحوال مختلفة كانوا شهود عيان عليها. إن بوكاشيو يضحك من الضعف البشري الذي يحكي لنا عنه بتهكم، لأنه لم يكن يهتم

إلا بإبراز الجانب المضحك. وهذا يمكن فهمه تماماً: فلو لم تطغَ السخرية اللاذعة، إلى هذا الحد أو ذاك، على معظم حكايات الكتاب، لخالفت القصص المهمة التي أرادتها لها الملكة الأولى منذ البدء، ــ التسلية والترويح عن النفس خلال الوقت الذي يحول الحر فيه دون الاستمتاع بطريقة أخرى ــ وعندئذ ستجد جماعة الرواة الشبان نفسها مضطرة إلى الخوض في مناقشات جدية قد تكون لها نتائج وخيمة، ويمكن لها أن تبعدهم عن مشاعر الراحة والبهجة التي خرجوا في طلبها، وربما يعودون إلى الحديث عن الكارثة التي خلّفوها وراءهم، وما يعنيه ذلك من العودة، بطريقة ما، إلى إعادة إنتاج المشاهد المأساوية التي عاشوها، وقد يجدون أنفسهم مضطرين إلى التعمق في تقصي أسباب الكارثة ونتائجها.

ومع ذلك، فإن عالم القصص التي يرويها الشبان يوماً بعد يوم لا تبعدنا عن حياتهم وهمومهم ومشاغلهم. فالمقدمة التي أفادت المؤلف في ربط القصص المئة، لم تكن مجرد ذريعة لجمعها في مجموعة متكاملة، كما هي الحال في مقدمة **«ألف ليلة وليلة»** مثلاً. بل هي أكثر من ذلك؛ فشخصية كل واحد من الرواة تتميز بصورة واضحة من خلال سلوكه في سياق الأيام المتتالية، ونأخذ بالتعرف على شخصياتهم من خلال القصص التي يروونها لنا، مثلما نتعرف على ميولهم، ورغباتهم، وأذواقهم. وهكذا يوضح المؤلف ما كان قد مر عليه بسرعة عندما قدمهم في بداية الكتاب. كما أن معظم الرواة هم أشخاص حقيقيون تربطهم روابط حميمة بحياة المؤلف. وخاصة أربعاً من النساء: بامبينيا هي فتاة من نابولي أحبها بوكاشيو، وفياميتا هي ماريا دي أكينو التي تحدثنا عنها من قبل، وإيميليا هي سيدة من فلورنسا أمضى الكاتب معها أياماً لا تنسى، وإليسا هي امرأة من لحم وعظم أيضاً، احتفى بها بوكاشيو في أحد أعماله الشعرية الكبرى، وعنوانه: **«رؤية غرامية»**.

حكاية صغيرة أخرى تُنسج حول المئة قصة، بفضل الحياة التي يقضيها هؤلاء الشباب لمدة أربعة عشر يوماً (الأيام الصالحة لرواية القصص هي عشرة أيام فقط، ذلك أنه احتراماً ليومي الجمعة والسبت، لا يجري اختيار ملكة، ولا تروى قصص في هذين اليومين). هذه الحكاية المختلقة عن الرواة لا تنقطع على امتداد الكتاب، بل على العكس، إنها تشكل إطاراً لقصص كل يوم. فنحن نعرف، عند انتهاء اليوم الأول، أنهم ينسحبون إلى غرفهم ليستريحوا، يقتادهم الخدم الذين يحملون المشاعل المضيئة. فقد حل الليل. وبعد

انتهاء القصص العشر، يحتفي الشبان برقص لوريتا وأغنية إيميليا وديونيو التي تضع حداً للهو والتسلية في اليوم الأول.

ومع توالي الأيام، ندرك أن نيفيلي تحب ديونيو، وهو شاب لعوب، لكنه أشد الرجال الثلاثة جاذبية وحدة ذكاء. ويراودنا الإحساس ـ وهو ما سيتحقق ـ بأن فياميتا ستشكل ثنائياً مع بانفيلو. ونشهد كذلك رحلة خلوية تقوم بها النساء وحدهن في اليوم الخامس، يليها يوم يقضيه الرواة في العراء، في وادي السيدات. كما أننا نسمع الأحاديث التي يتبادلها الرواة السعداء فيما بينهم طوال الأربعة عشر يوماً، ولاسيما قبل البدء بكل قصة.

ثم إن المؤلف يعود لأخذ زمام المبادرة في الحديث، مثلما فعل في بداية الكتاب. ففي مدخل اليوم الرابع يدافع عن نفسه في مواجهة انتقادات قراء مزعومين خبيثي النوايا تجرؤوا على تفسير ملتو للثلاثين قصة التي رويت. لكن خرافة الإوز، التي يعرضها بوكاشيو نفسه، تنسينا مرة أخرى أنه يتكلم بجد.

وفي كل الأيام، باستثناء اليومين الأول والثالث، تفرض الملكة الموضوع الذي ستدور حوله القصص العشر التي ستكون تسلية اليوم. وهكذا يتوصل بوكاشيو، من خلال هذه الوحدة الموضوعية، إلى كشف مختلف زوايا الرؤية عبر عشر شخصيات مختلفة. كل شيء محسوب، إذن، كما سيرى القارئ، كي يبدو العمل بمجمله كلاً متكاملاً.

موضوعات القصص ومصادرها:

موضوع القصص متنوع، تفرضه الملكة في كل يوم، ما عدا حالات استثنائية يُسمح فيها برواية قصص ذات موضوع حر، كما سنرى في المتن.

اليوم الأول يتناول قصصاً حرة، دون موضوع محدد. وملكة هذا اليوم هي بامبينيا. وينسج الرواة حبكات قاسية حول الكهنة، وعبارات تشي بفطنة الراوي وحدة ذكائه، وحكايات تبين كيف كانت حياة البرجوازيين وعاداتهم في القرن الرابع عشر، ومفهومهم للدين والمتدينين الذين يعيشون معهم. ونشير إلى واحدة من أهم قصص هذا اليوم، وهي قصة *التاجر المسيحي والتاجر اليهودي*، وتتحدث عن تخلي هذا الأخير عن ديانته وتحوله إلى النصرانية؛ ولكنها تكشف الفوضى السائدة بين كهنة روما، ومدى الأبهة وانعدام التقشف والصدق في الكنيسة. ومن الملائم أيضاً الإشارة إلى قصة *صلاح الدين*، إذ يعرض بوكاشيو قصة عن ثلاث خواتم ترمز إلى الديانات السماوية الثلاث التي

بعثها الله إلى البشر. ومن المستحيل، في رأي المؤلف، التمييز بصورة واضحة أيها هي الديانة الحقة.

تُنصب فيلومينا ملكة في اليوم الثاني. والموضوع الذي تختاره يجب أن يقتصر على الحديث عمن تثقل عليه أحداث وصروف متنوعة قاسية، ثم يتمكن بعد ذلك من بلوغ نهاية سعيدة في مسعاه، وبهجة أكبر مما كان يأمل به ويصبو إليه. بعض قصص هذا اليوم بالغة الظرف والأصالة، مثلما هي قصة أندريوشيو دي بيترا الذي ذهب لشراء خيول من نابولي ومعه كيس مال ممتلئ. وبعد تعرضه لخدع عديدة، وسرقة نقوده، يرجع إلى بيته ومعه خاتم المطران المتوفى الثمين، فينال بذلك تعويضاً عما فقده، وعن الجهد الذي بذله، والخدع التي تعرض لها. وهي قصة مأخوذة من إحدى الخرافات الفرنسية[1].

وهناك قصص أخرى تختلف عن القصص السابقة، مثل قصة بيريتولا ذات الطابع الخيالي، وقصة المهرج المدعو مارتيلينو. فهذا الشخص يتظاهر بأنه مشلول، ويدعي أنه شفي بمعجزة. وعندما يعلم الناس بالخدعة، يتعرض مارتيلينو للضرب ويحكم عليه بالشنق. وأخيراً، يتمكن من النجاة ويهرع عائداً إلى فلورنسا. ولن تكون هذه القصة هي الأخيرة في موضوع عدم النزاهة الدينية والسخرية من معتقدات المؤمنين.

ونجد في هذا اليوم أيضاً موضوع المآزق الإيروتيكية الحرجة والمتشعبة، كما في قصة ابنة سلطان بابل التي يرسلها للزواج من ملك البرتغال. فعلى امتداد أربع سنوات، تمر بمغامرات متتالية وتتداولها أيدي تسعة رجال، ثم تُعاد بعد ذلك إلى أبيها على أنها عذراء، فيرسلها الأب مجدداً إلى ملك البرتغال لتكون زوجة له. وتنتهي القصة بمثل لاذع يقول: «الشفاه لا تفقد طلاوتها في التقبيل، بل تتجدد كما القمر». وتجتمع في هذه القصة

---

(1) تبدت الحكايات البرجوازية في فرنسا من خلال الخرافات fabliaux التي كانت تُروى منظومة شعراً. وقد نُظمت هذه الخرافات، حسب التقديرات، منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر، وتواصلت في القرن الرابع عشر. معظمها مجهولة المؤلف، وبعضها لكتاب معروفين. كثير من هذه القصص مستقاة من القصص الشرقية التي اتسع انتشارها في أوروبا العصور الوسطى عن طريق الأندلس. غير أن قسماً لا بأس به منها فرنسي المنشأ، وتندرج ضمن الأدب الفولكلوري للعصر.

وقد أثرت هذه الخرافات إلى حد بعيد في عمل بوكاشيو الذي بين أيدينا، ولم يقتصر تأثيرها على بوكاشيو والديكاميرون، وإنما امتد إلى كل الكتاب الإيطاليين ممن كرسوا أقلامهم لفن القصة.

موضوعة الترحال والمغامرات مع ظرافة الحبكة.

وفي اليوم الثالث يتعاظم الموضوع الايروتيكي. إذ تقترح نيفيلي رواية قصص عمن استطاع الحصول على بغيته بالجرأة والحيلة. ويلتقي في هذه القصص بستانيون، وكهنة، ورؤساء أديرة، وتجار، وبرجوازيون؛ وتظهر هذه الشخصيات في مواقف وأحداث لا يستطيع المؤلف التخفيف من سلوك أبطالها الداعر. وهذا ما نجده في قصة ماستو ومغامراته في دير الراهبات، وقصة الملك أغيلولف والسائس، والشاب الذي يحتال ببراعة لنيل بغيته من زوجة رجل بخيل، وفيروندو الذي يقنعه رئيس الدير بأنه قد مات وانبعث حياً، إلخ... ومثل هذه الموضوعات ليست حصراً على بوكاشيو؛ فالقصص الشعبية الإيطالية في ذلك العصر تتناولها وتعالجها بألف طريقة، والناس يعرفونها لأنهم سمعوها تروى بصيغ متنوعة.

ويكون على فيلوستراتو في اليوم الرابع أن يختار موضوع القصص: «عن أولئك الذين انتهت غرامياتهم نهاية مأساوية». والقصص هنا هي أشد تقشفاً، وأكثر بساطة، ما عدا بعض الاستثناءات، والنهاية المأساوية تمنح القصص عظمة تراجيدية لم تتوفر للقصص السابقة. وتظهر قلوب العشاق كموضوع مركزي في عدد من هذه القصص. ففي إحداها يقدم غيليوم دي روسيون الغيور، إلى زوجته، قلب عشيقها لتأكله. وتتواتر هذه الحكاية الشعبية في تنويعات عديدة نثرية ومنظومة، كانت متداولة شفاهاً في ذلك العصر، وتتناقض قسوتها مع السمو العظيم الذي تضفيه جيسموندا، ابنة تانكريدو أمير ساليرنو، على موضوعة قلوب العاشقين. فهذه الأميرة تتلقى من أبيها كأساً من الذهب، فيه قلب حبيبها. فما يكون من الفتاة إلا أن تسكب سائلاً ساماً في الكأس وتشربه لتموت مثلما مات حبيبها.

وخلافاً لمآسي اليوم الرابع، تعمد فياميتا، ملكة اليوم التالي، إلى إخراج المستمعين من الأحزان التي سببتها لهم القصص السابقة. فأبطال قصص الحب في هذا اليوم يخوضون مغامرات تنتهي نهاية سعيدة، بعد خضوعهم لتجارب ومحن قاسية. وتتميز بعض قصص هذا اليوم بشاعرية عالية كما في قصة كونستانزا دي ليباري، وقصة ناستاجيو أونيستي، وكذلك قصة فيدريكو ديلي آلبيرغي. فالقصة الثانية مثيرة بتداخلها مع العالم الآخر ومشاهدها الجحيمية القريبة من أجواء جحيم دانتي «وأعني القصة الثامنة من هذا

اليوم الخامس». فبطل القصة ناستاجيو، يشهد مطاردة جهنمية، حيث تظهر امرأة حُكم عليها بأن تُطارد، لأنها تسببت، بعدم مبالاتها، بموت حبيبها. وعندما يدركها ذلك الحبيب ويقتلها، يقدم أحشاءها وليمة لكلبين. يحاول ناستاجيو، دون جدوى، الدفاع عن المرأة المنكوبة، مظهراً بذلك فروسيته؛ غير أن القدر الذي يحكم مصير المرأة لا سبيل إلى تبديله. ولكن المهم في هذه القصة، أن ناستاجيو يتمكن، بفضل هذه الرؤيا، من إقناع حبيبته غير المبالية، كي لا تنتهي إلى ما انتهت إليه بطلة الرؤيا الجهنمية، وتوافق على الزواج منه.

نصل إلى اليوم السادس، وملكته إليسا التي تقترح قصصاً خفيفة حول «كيف ينجو بعض الأشخاص بفضل جواب ذكي يعتمد سرعة البديهة». وهنا يكشف لنا بوكاشيو عن سيطرته على اللغة، واستخلاصه الحكمة بعبارات ساخرة ينطق بها أشخاص أدخلتهم عبقريتهم عالم الخلود كما هو حال الشاعر جيدو كافالكانتي الذي يأتي دانتي أيضاً على ذكره في «**الكوميديا الإلهية**»، أو الرسام جيوتو. وربما يكون صاحب العبارة الذكية شخص من العامة، مثل الخباز شيستي،أو الطاهي كيكيبيو، أو مادونا فيليبا التي لديها من الحب ما يفيض عن حاجة زوجها؛ وهناك أخيراً شخصية الراهب بصلة التهكمية المضحكة.

وهنا ننتقل إلى اليوم السابع، ويقترح ديونيو، ملك هذا اليوم، رواية قصص يعتبرها البعض داعرة لما تتضمنه من حيل ومشاهد إيروتيكية. إذ اختار ديونيو موضوعاً يسبب بعض الحرج للسيدات المشاركات في رواية القصص، ألا وهو حيل النساء ومكائدهن لخداع أزواجهن. وقصص هذا اليوم، إضافة إلى قصص اليوم الثالث، هي التي منحت «**الديكاميرون**» تلك السمعة التي شاعت بين العامة بأنه عمل غير أخلاقي. والحقيقة أن استعراض هذه القصص يبين أنه ليس فيها ما يستفز مشاعر القارئ المتنور، وإنما هي أقرب إلى القصص الإيروتيكي الساخر. وهذا النوع من التهكم يتواصل على امتداد اليوم التالي، أي اليوم الثامن، إذ تطلب لوريتا، ملكة هذا اليوم، قصصاً عن أشخاص يُخدعون، وتبرز هنا القصة البديعة عن كلاندرينو الأحمق الذي يصدق ما قيل له عن وجود حجر سحري، يُخفي من يحمله عن الأنظار ويجعله غير مرئي. لكن كلاندرينو يختفي، ثم يعود للظهور في مغامرات أخرى مسلية، كما في القصة التي يقنعه أصدقاؤه فيها بأنه حامل.

ونعود في اليوم التاسع إلى قصص حرة، لا تقتصر على موضوع محدد. وأجمل قصتين في هذا اليوم تتميان أيضاً إلى الموضوع الايروتيكي الذي كان بوكاشيو معلماً بارعاً فيه، وأعني بهما قصة الأرملة فرانشيسكا دي لازاري وعشيقيها، ومغامرة دون جياني في تحويل زوجة بيترو إلى فرس.

وأخيرا، يبدل بوكاشيو من إيقاع القصص في اليوم العاشر. ويعود مجدداً إلى القصة المهذبة، وإلى الموضوعات العاطفية، والشاعرية، وموضوعات الشرف والفروسية الموروثة من العصور الوسطى؛ وهكذا ينتهي الكتاب بالإشادة بالمشاعر النبيلة والقيم الحميدة. ويكون أبطال هذه القصص أسمى وأرفع مكانة من شخوص القصص السابقة، فنجد شخصيات الملكين بيدرو وألفونسو، وكذلك السلطان صلاح الدين، في هذه الصفحات التي تنتهي بقصة الزوجة الصابرة جريسيلدا، والتي أحلها بتراركا في مكانة الشرف عندما ترجم الكتاب إلى اللاتينية.

لقد جمع بوكاشيو ولخص بصورة رائعة، في هذه الأيام العشرة، قراءاته لكل أعمال العصور الوسطى التي استهوته منذ شبابه. فالعصور الوسطى التي هي، جزئياً، مصدر هذه المجموعة، تنتقل إلى عصر النهضة بحلة جديدة بفضل ريشة وعبقرية رجل يفتح الأبواب للأزمنة الجديدة، مضفياً على هذه القصص الطابع الواقعي الذي يتطلبه الفن البرجوازي.

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن أسلوب بوكاشيو في «الديكاميرون» لا ينفصل بأي حال عن موضوعات قصصه، وهو ما لا يمكن للترجمة، مهما كانت أمانتها، أن تنقله بدقة، ذلك أن الأسلوب والموضوع في «الديكاميرون» يشكلان كلاً متكاملاً يمنح الحياة لهذا العمل الفني الذي قال عنه بحق هوغو فوسكولو: «بوكاشيو يداعب اللغة كعاشق محب. حتى يمكن القول إن كل كلمة لديه تكتسب حياتها الخاصة، ولا ينقصها شيء سوى بعث الروح فيها بالمخيلة».

عندما ينتهي بوكاشيو من اليوم الأخير، يقدم شكره للرب على طريقة المؤلفين في العصور الوسطى، لأنه أتاح له إنهاء عمله. ويعتذر الكاتب، كما هي عادة كتّاب الأدب البرجوازي، لأنه أورد بعض الأمور غير الشريفة في كتابة. ويرد على منتقديه ردوداً منطقية لا تخلو من التهكم والسخرية، مستكملاً بذلك ردوده التي أوردها في مقدمة اليوم الرابع.

الديكاميرون بالعربية:

على الرغم من انقضاء قرابة سبعة قرون على ظهور هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإيطالية العامية (الآخذة بالانشقاق عن اللاتينية)، إلا أنه لم ينقل إلى العربية كاملاً من قبل. بل ظهر منه في النصف الأول من القرن الماضي عدد من القصص، ضمن مجموعتين قصصيتين، بترجمة كامل كيلاني. الكتاب الأول صدر عام 1929، بعنوان «**مختار القصص**»، وعنيت بنشره «مكتبة الوفد» لصاحبها محمد محمود بشارع الفلكي بباب اللوق بالقاهرة، وضمت قصصاً مصرية وعالمية منها تسع قصص من «الديكاميرون». أما المجموعة الثانية، وكانت بعنوان «**روائع من قصص الغرب**» فصدرت عام 1933 في كتاب «عُنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر»، وضمت مختارات من القصص العالمية، بينها تسع قصص من الديكاميرون، واحدة منها بعنوان «نكبات الغيرة» مكررة في المجموعتين كلتيهما.

وفي خمسينيات القرن الماضي (ربما في العام 1956)، وضمن سلسلة كتابي التي كان يشرف على إصدارها حلمي مراد، صدر الكتاب الثالث عشر من السلسلة بعنوان «**الديكاميرون/ ألف ليلة وليلة الإيطالية**»، بترجمة إسماعيل كامل. وقد تضمن الكتاب اثنتين وعشرين قصة من قصص بوكاشيو، ست منها من تلك التي سبق لكيلاني ترجمتها، ولكن بعناوين مختلفة. فقصة «كل النساء سواء» ترجمها الكيلاني بعنوان «أكلة الفراريج»، والقصة التي أوردها إسماعيل كامل بعنوان «الحب لا يعترف بالإجازات»، ترجمها الكيلاني بعنوان «العجوز وتقويمه السنوي». وهذه العناوين هي من وضع المترجمين في الواقع، لأن قصص «**الديكاميرون**» تخلو من العناوين، وترد في الكتاب مرقمة من الأولى إلى العاشرة في كل يوم من أيام بوكاشيو العشرة.

وقد كانت ترجمة كيلاني أقرب إلى التعريب منها إلى الترجمة، مثلما جرت عليه العادة في مطلع القرن العشرين، حيث يعمد المترجم إلى إعادة صياغة النص بأسلوب إنشائي مزخرف، وبلغة عربية محشوة بالتنميق، يكثر فيها من المحسنات اللفظية التي تثقل أحياناً على القصة، ولا يتورع في أحيان أخرى عن إضافة فقرات مطولة، أو الخروج باستنتاجات أخلاقية لا علاقة لبوكاشيو بها. بينما نجد ترجمة إسماعيل كامل التالية أكثر التزاماً بالنص الأصلي، وتوخياً لأمانة الترجمة ودقتها وفق المفهوم المتعارف عليه

حالياً. إلا أنه يتصرف أحياناً ـ وهو ما يفعله كيلاني كذلك ـ في حذف فقرات لأنه يرى، على ما أظن، أنها غير أخلاقية وتخدش الحياء، كما هي الحال، مثلاً، في القصة الرابعة من اليوم الخامس التي يقدمها المترجمان بعنوان «البلبل»، إذ يعمد كلاهما إلى حذف فقرة تتضمن تلميحاً إيروتيكياً ساخراً، فتفقد القصة جزءاً مهماً من مضمونها، لاسيما أن حبكة القصة تعتمد على تلك المفارقات الإيروتيكية المضحكة. وهو ما يحدث كذلك في القصة الثانية من اليوم السابع، والتي يترجمها إسماعيل كامل بعنوان «البرميل»، بينما يختار لها كيلاني عنواناً طويلاً «فكرة حاضرة أو كيف تخلصت من المأزق»، حيث تحذف إشارة إيروتيكية أخرى.

ومع ذلك، يبقى للمترجمين شرف الريادة في نقل نماذج من قصص «الديكاميرون»، وتعريف القارئ العربي في وقت مبكر بهذا العمل الفني البارع الذي لم تبق لغة في العالم، مهما صغر شأنها، إلا وتُرجم إليها.

ديباجة

هنا يبدأ الكتاب المسمى ديكاميرون، والمسمى أيضاً الأمير غاليوتو، وفيه تُروى مئة قصة يحكيها في عشرة أيام سبع سيدات وثلاثة شبان.

شأن إنساني هو العطف على المحزونين. وإذا كان هذا الشعور مستحسناً من الجميع، فإنه مطلوب أكثر من أولئك الذين احتاجوا يوماً إلى السلوى ووجدوها لدى آخرين. ومن المؤكد أنه إذا كان هناك من كانوا يوماً بحاجة شديدة إلى السلوى، وتلقوها بتقدير ومتعة، فإنني واحد منهم؛ فقد تلظيت منذ شبابي الأول حتى اليوم بنار حب سامٍ ونبيل، لو أقدمتُ على روايته لما بدا حقيقاً بمكانتي الوضيعة. ومع أن أخباراً منه قد بلغت أناساً راجحي العقل، ونلت عليه عظيم الثناء والتقدير، إلا أن ذلك لم يخلصني من إحساسي الكبير بالألم والعناء، ليس لقسوة المرأة المحبوبة، وإنما بسبب النار العارمة التي ولدتها في ذهني الشهوات الجامحة. وهي شهوات لا تحدها حدود، تسببُ لي في أحيان كثيرة أعظم الحزن والعذاب. وقد وجدتُ في محنتي تلك مهدئاً لآلامي في النصائح اللبقة التي يقدمها إليّ صديق طيب، أو في ثنائه المواسي، حتى إنني أعتقد جازماً بأني لم أفارق الحياة بفضلها.

ولكن، إذا كان الخالد المطلق، قد فرض قانوناً ثابتاً بأن تكون ثمة نهاية لكل ما هو دنيوي، فقد طاب له أن يضع حداً لحبي ـ وإن كان حباً متأججاً لم تستطع أن تثنيه أو تحطيمه أي قوة من قوى الشك أو النصح أو العار الجلي، أو الخطر ـ فراح يضعف مع مرور الزمن، إلى أن لم يبق منه سوى تلك المتعة التي تخلفها العاطفة عادة في نفس من لم يجازف بالإبحار في غياهب بحارها القاتمة. وهكذا تغيرت حالي، وحيث كنت أجد الألم

والأسى، صرت اليوم، بعد تخلصي من الهموم، أجد البهجة والسعادة.

لكنني، على الرغم من انتهاء غمي وأحزاني، لم أنس المنافع التي تلقيتها من أولئك الذين كانوا، بعطفهم عليّ، يغتمون لأحزاني؛ ولن أنساها، على ما أظن، إلا بالموت. ولأن الاعتراف بالجميل، في اعتقادي، هو أجدر الفضائل بالمديح والإطراء، ونقيضه هو الأجدر بالاستنكار؛ وكي لا أبدو ناكراً للجميل، فقد قررت أن أقدم مقابل ما تلقيته، بأقصى ما تسمح به قواي، بعض العزاء «وقد صرت قادراً على ذلك الآن»، إن لم يكن لأولئك الذين ساعدوني، ممن شاء حسن الطالع ألا يكونوا بحاجة إلى مساعدتي بفضل حكمتهم، أو حسن حظهم، فإنني أقدمها ـ على الأقل ـ إلى من يحتاجون إليها. ومع أنه يمكن لمساعدتي، أو مواساتي، أو ما تشاؤون من تسميات، أن تكون شيئاً ضئيلاً للمحتاجين، فإن ذلك لا يمنعني من الإيمان بوجوب تقديمها، أولاً وقبل كل شيء، هناك حيث تبدو الحاجة إليها أكبر، لأنها ستكون أعظم نفعاً، وسوف تقابل كذلك بتقدير أكبر.

ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أنه يجب تقديم هذا العون، مهما كان صغيراً، إلى النساء اللطيفات قبل الرجال؟.. فهن يخبئن في صدورهن الرقيقة ـ بخوف وخجل ـ لهيب حب قوته أكبر من الظاهر مثلما يعرف من جربوه ويجربونه. لأن النساء يخضعن، فوق ذلك، لإرادة وأهواء الآباء والأمهات، والأخوة والأزواج، ولا يملكن حرية اختيار متعهن، بل يقضين معظم الوقت معتكفات في حيز حجراتهن الضيق. يعشن في خواء، يرغبن في أشياء لا يلبثن بعد قليل أن يزهدن بها، ويستغرقن في أفكار لا يمكن لها أن تكون سعيدة على الدوام. وإذا ما داهمت عقولهن كآبة ناشئة عن رغبة جامحة، فإنهن سيزددن حزناً وغماً، ما لم تطردها من عقولهن أفكار جديدة. وهن فوق ذلك أقل قوة من الرجال، لأن الرجال المحبين لا يحدث لهم الشيء نفسه، مثلما يمكننا أن نرى بوضوح. فعندما تداهم الكآبة أو الأفكار الحزينة الرجال، يجدون أساليب كثيرة للتسرية أو النسيان، فليس هناك ما يمنعهم من التنزه، ومن سماع ورؤية أشياء كثيرة، ومن الصيد البري والمائي، ومن الرماية أو ركوب الخيل أو اللعب أو الاتجار، وبكل هذه الوسائل يجدون القوة لاسترداد معنوياتهم، كلها أو بعضها، والتحول عن الكآبة، لبعض الوقت على الأقل، ثم يتبع ذلك ارتفاع المعنويات أو تضاؤل حدة الكآبة بطريقة أو بأخرى.

ولهذا، ومن أجل التخفيف بطريقة ما من غياب الحظ، حيث يكون عونه أقل، كما هي الحال لدى النساء، ويكون أشد بخلاً في مواساتهن، فإنني أنوي مدّ يد العون والجميل لأولئك اللواتي يحببن «لأن الأخريات يجدن ما يكفي من السلوى في أشغال الإبرة والمغزل والحياكة» بأن أورد مئة قصة، أو أسطورة، أو أمثولة، أو حكاية، أو ما شئتم من التسميات، رواها في عشرة أيام، في اجتماع شريف، سبع سيدات وثلاثة شبان، في أيام الوباء الفتاك الرهيبة، وبعض الأغنيات التي غنتها السيدات المذكورات لمتعتهن.

وتتبدى في هذه القصص حالات حب سعيدة وأخرى قاسية، وأحداث مفاجئة وغير متوقعة، تجري في أزمنتنا الحالية أو في أزمنة قديمة. ويمكن للنساء اللواتي يقرأن هذه القصص أن يستخلصن المتعة من الأمور المسلية التي تُروى، كما يجدن فيها النصائح النافعة لمعرفة ما يتوجب عليهن العزوف عنه، أو مجاراته ومحاكاته. فإذا تحقق هذا (إن شاء الله) فليشكرن الحب الذي أتاح لي الانكباب على إسعادهن بعد أن حررني من قيوده.



اليوم الأول

هنا يبدأ اليوم الأول من الديكاميرون، وبعد أن يعرض المؤلف فيه السبب الذي دفع الأشخاص الذين يأتي على ذكرهم إلى الاجتماع ليرووا قصصاً، تحت حكم بامبينيا، يكون موضوعها هو ما يروق كل واحد منهم أن يرويه.

كلما فكرتُ، يا سيداتي اللطيفات، في أنكن جميعكن رقيقات القلوب بطبعكن، أدركتُ أن بداية هذا العمل ستبدو لكنّ محزنة ومروعة، مثلما هو محزن ومروع تذكر الوباء المهلك الماضي، ومثلما هو مؤلم لكل من شهده أو عرف بأمره، فإنني أحفظه في ذاكرتي لما أحدثه من ضرر مؤسف ووبيل. ولكنني لا أريد لهذا أن يخيفكن قبل أن تقرأن الكتاب، وإنما أن تتأملن وتُعملن الفكر، وأنتن تقرأن، وسط الزفرات والدموع.

ولن تكون هذه البداية المريعة، إلا مثل جبل وعر وقاحل، يجد السائرون في ما وراءه امتدادات سهل فسيح بديع؛ ويكون هذا السهل أجمل كلما كانت مشقة الصعود والنزول أكبر. وهكذا، مثلما تأتي السعادة الكبيرة بعد الألم والعناء، فإن التعاسة والشقاء يزولان أيضاً وتليهما البهجة والسرور. وبعد هذا الحزن القصير (وأقول إنه قصير لأنه يقتصر على أسطر قليلة)، ستتلوه فوراً الطلاوة والمتعة اللتان أعدكن بهما مسبقاً، لأتجنب ألا تتوقعن وجودهما إذا لم أخبركن بذلك. والحقيقة أنه لو كان بمقدوري أن أوصلكن إلى ما أرغب فيه عبر طريق لائق آخر، وأقل فظاظة من هذا، لكنت فعلت؛ غير أن هذا

الطريق هو السبب في وقوع الأمور التي ستقرؤونها، ولا يمكن عرضها دون هذا التوضيح الذي أجد نفسي مضطراً إلى كتابته.

أقول إذن، إنه مع تقدم سنوات التجسد الخصيب لابن الرب وبلوغها العام ألف وثلاثمئة وثمانية وأربعين، تفشى في مدينة فلورنسا الجليلة، والأروع بين مدن إيطاليا كلها، وباء الطاعون المميت. فعن طريق كائنات سماوية، أو بسبب أعمالنا الجائرة، أصاب غضبُ الرب العادل البشرَ الفانين بهذا الوباء. وكان قد ظهر قبل سنوات من ذلك في أقاليم المشرق، حيث حصد ما لا حصر له من الأرواح، وواصل تقدمه المدمر، وانتشاره المخيف، باتجاه الغرب.

ولم تُجدِ آنذاك أية احتياطات أو عناية بشرية، مثل تنظيف المدينة على يد عاملين معينين لهذا العمل، أو منع دخول أي مريض إلى المدينة، أو تقديم نصائح جمة لحماية الصحة والوقاية، أو القيام بأعمال خير كثيرة ـ وليس عملاً واحداً ـ، أو الابتهال إلى الله في مواكب جماعية، أو بتضرعات الناس الأتقياء.

ومع بداية ربيع السنة السابقة، بدأ الوباء فعله الرهيب، متفشياً بما يشبه المعجزة. ولكن ذلك لم يحدث مثلما حدث في المشرق، حيث كان نزف الدم من الأنف إشارة مؤكدة إلى الموت الوشيك. لأن ما كان يحدث هنا، مع بداية المرض، ظهور دمامل، لدى النساء والرجال على السواء، عند أصل الفخذين، وتحت الإبطين، يصل حجم الدمل منها، أحياناً، قدر حجم تفاحة عادية، أو بيضة، وبعضها أكبر من البعض. وشاعت بين العامة تسميتها بالبثور. وخلال وقت قصير، تظهر تلك الدمامل في أنحاء الجسم كلها، وسرعان ما تتحول إلى بقع سوداء أو بنفسجية، تظهر على الأذرع والسيقان وبقية أنحاء الجسم، كبيرة ومتفرقة، أو صغيرة ومتقاربة. وهكذا كانت الدمل الأولى، ومازالت، تعتبر إشارة إلى الموت الوشيك، ومثلها كان يعتبر انتشار البقع. ولم تكن تنفع في علاج هذا الداء نصيحة الأطباء، ولا فضائل أي دواء، إما لأن طبيعة الداء لا تتأثر بالأدوية، أو بسبب جهل الأطباء «وكانت أعدادهم، فضلا عن رجال العلم منهم، قد تزايدت كثيراً، وبينهم رجال ونساء يفتقرون إلى أدنى المعارف الطبية»، فأفلت منهم أصل الداء وأسلوب العلاج. وهكذا، لم يكن من يشفون قلة نادرة وحسب، وإنما صار الجميع تقريباً، في اليوم الثالث لظهور الأعراض المذكورة، إذا لم يكن قبله، أو بعده بقليل، يموتون دون أن

يصابوا بأي نوع من الحمى أو المظاهر الأخرى.

واكتسب هذا الوباء قوة هائلة؛ فالمرضى ينقلونه إلى الأصحاء حين يتصلون بهم، مثلما تنتقل النار إلى الحطب الجاف حين يكون قريباً منها. وواصل المرض انتشاره باطراد، إلى حد لم يعد معه التحدث أو التعامل مع المرضى وحده ينقل عدوى المرض، والموت عموماً، إلى الأصحاء، وإنما كذلك ملامسة ملابس المرضى أو أي شيء استعمله المصابون أو لمسوه.

وسيبدو مدهشاً تصديق ما أؤكده، لو لم تكن عيون أناس كثيرين، وعيناي أنا بالذات، شاهدة على ذلك، وما كنتُ لأتجرأ على تصديقه، ناهيك عن كتابته، لو لم يره ويسمع به أناس كثيرون جديرون بالثقة.

أقول إن الوباء المذكور كان قوياً وحاداً، بحيث لم يكن ينتقل من إنسان إلى إنسان وحسب، وإنما تعدى الأمر ذلك، فإذا ما لمست أشياءَ الميت أو المريض بالداء حيواناتٌ غريبة عن الجنس البشري، تنتقل العدوى إليها وتموت خلال وقت قصير. ولقد شهدت بأم عيني «مثلما قلت من قبل»، بين ما شهدته، هذه الحالة في أحد الأيام: كانت أسمال رجل بائس، مات بالداء قبل قليل، ملقاة في الطريق العام، واقترب منها خنزيران يتشممان، ومزقاها بأسنانهما مثلما هي عادة الخنازير، وبعد قليل، بعد بعض التشنجات، كما لو أنهما تناولا سماً، سقطا أرضاً ميتين فوق تلك الأسمال الممزقة.

هذه الأمور، وأخرى كثيرة مثلها أو أسوأ منها، أحدثت مخاوف شديدة وتخيلات متنوعة فيمن ظلوا على قيد الحياة. فكانوا جميعهم، تقريباً، يتطلعون إلى هدف وحيد وقاس: تجنب المرضى والهرب منهم ومن أشيائهم؛ معتقدين أنهم بعمل ذلك يحفظون حياتهم. وكان البعض يعتقد أن العيش باعتدال والابتعاد عن كل إفراط لا لزوم له يعينهم على مواجهة تلك المحنة الرهيبة، فراحوا يجتمعون في جماعات، ويعيشون بعيداً عن الآخرين، معتكفين في بيوت لا وجود لأي مريض فيها، يستمتعون بالموسيقى وغيرها من المتع الرصينة التي في متناول أيديهم. وكان لآخرين رأي مخالف، فهم يرون أن الغرق في الملذات، والإكثار من شرب الخمر، والترويح عن النفس، وإشباع كل الرغبات المتوفرة، والضحك والسخرية، هي العلاج الحقيقي لذلك الداء. فكانوا يضعون ما يفكرون فيه موضع التطبيق، حسب إمكاناتهم وما هو متاح لهم من وسائل، فيقضون الليل والنهار متنقلين من حانة إلى أخرى، يشربون دون توقف، ويُفرطون في كل ما يستلذون به

ويستمتعون، مستسلمين إلى ذلك بكل خفة لأنهم جميعهم تركوا أعمالهم وتخلوا عن تجارتهم (كما لو أنهم لن يواصلوا العيش)، وكان معظم البيوت مشاعاً، يستخدمها الغرباء كأنهم أصحابها. وكانوا في سلوكهم الغريب هذا كله، يتحاشون المرضى ويهربون منهم على الدوام.

كان الأسى والبؤس عظيمين في مدينتنا، حتى إن سلطة القانون، سواء الإلهي أو البشري، قد انهارت واختفت تماماً، لأن أحبارها والقائمين عليها قد ماتوا أو أصيبوا بالمرض مثل غيرهم من الناس؛ أو أنهم ابتعدوا بأسرهم، بحيث لم يعد بإمكانهم ممارسة مهامهم، وصار مباح لكل امرئ أن يفعل ما تمليه عليه أهواؤه. فكان هناك صنف من الناس لم يعتكفوا في بيوتهم، مثلما فعل الأولون، ولم يغرقوا كذلك في الإفراط بالشراب والملذات مثلما فعل الآخرون، بل راحوا يستمتعون، وفق رغباتهم، بمقادير معتدلة من المتع، دون أن يحتجزوا أنفسهم، بل يخرجون للمشي وهم يحملون في أيديهم أزهاراً أو أعشاباً عطرة أو أنواعاً من التوابل. ويشمون بين لحظة وأخرى هذه الأشياء، معتقدين أنه من المفيد إنعاش الدماغ بتلك الروائح العطرة، لمكافحة الهواء العابق بنتانة الجثث والمرض والأدوية. وكان هناك آخرون، بمشاعر أشد قسوة «كما لو أن ذلك أكثر أماناً»، يقولون إنه ليس هناك دواء أفضل من الهرب من الداء. وبهذه الذريعة، دون التفكير بأي شيء آخر سوى أنفسهم، غادر كثير من الرجال والنساء مدينتهم، فهجروا بيوتهم، وأملاكهم، وأقرباءهم، باحثين في الريف عن ملاذ لهم، كما لو أن غضب الرب الذي يضرب جور البشر بذلك الوباء، لن يصل إليهم، وإنما سيضرب فقط من هم ضمن أسوار المدينة، وكما لو أنه يجب ألا يبقى أحد فيها كي لا يصل إلى ساعته الأخيرة، ونهايته المحتومة.

ومع أن هؤلاء الذين كانوا يفكرون في طرق مختلفة للنجاة لم يموتوا جميعهم، إلا أنهم لم ينجوا جميعهم كذلك، وإنما مرض كثيرون من أتباع كل طريقة في أماكن مختلفة «وكانوا وهم أصحاء مثلاً يحتذي به من ظلوا أصحاء»، فهجرهم الجميع، ليموتوا متوحدين. ولا حاجة للقول إن كل مواطن كان يتحاشى الآخر، ولم يعد الجار يهتم بجاره، ولا القريب يزور قريبه إلا في حالات نادرة. لقد ملأ الرعب قلوب الرجال والنساء، فهجر الأخ أخاه، والعم ابن أخيه، والأخت أخاها، وكثيراً ما كانت المرأة تهجر زوجها. وما هو أشد خطورة، ولا يكاد يصدق، أن الآباء والأمهات هجروا أبناءهم، كما لو أنهم ليسوا

أبناءهم، وصاروا يتجنبون زيارتهم أو رعايتهم. فكان من يمرضون، وهم أعداد كبيرة من الرجال والنساء، لا يجدون من يلجؤون إليه سوى إحسان الأصدقاء «وهؤلاء قلة قليلة» أو جشع الخدم الذين يطالبون بأجور عالية وشروط متعسفة. ومع ذلك، لم يكن هناك كثيرون منهم، والموجودون هم رجال ونساء أجلاف وغير معتادين على تلك الأعمال، تقتصر خدماتهم في معظم الأحيان على أن يقدموا للمرضى بعض الأشياء التي يطلبونها أو رؤيتهم وهم يموتون؛ ويحدث في بعض الأحيان، وهم في هذه الخدمة، أن يخسروا بدل أن يكسبوا. ولأن المرضى كانوا يُتركون، ويهجرهم جيرانهم وأقرباؤهم وأصدقاؤهم، ولأن الخدم كانوا قليلين جداً، فقد جرت أمور لم يسبق لها مثيل؛ فلم تعد المرأة، مهما كانت مهيبة وجميلة ونبيلة، تجد حرجاً، حين تمرض، من الاستعانة بخادم رجل، شاب أو غير شاب، ومن أن تعرض عليه دون خجل أجزاء من جسمها، كأنها تعرضها على امرأة أخرى، إذا اقتضت ضرورات المرض ذلك. مما ألحق العار في ما بعد بمن شفين منهن.

وقد تواصل، فضلاً عن ذلك، موت كثيرين كان يمكن إنقاذهم لو أنهم وجدوا العناية والمساعدة؛ وما بين معاناة المرضى من انعدام الخدمات الضرورية، وقوة انتشار الوباء، كانت أعداد الموتى في المدينة تتزايد ليلاً ونهاراً إلى حدّ يثير سماعه الذهول، فما بالك برؤيته. وهكذا، وبصورة شبه اضطرارية، نشأت بين المواطنين المتبقين على قيد الحياة عادات مخالفة لعاداتهم السابقة المعهودة. ففي السابق، كان من عادة نساء الجيران والأقارب، مثلما هي الحال اليوم، أن يجتمعن في بيت من يتوفى، ويبكينه هناك مع ذويه الأقربين، بينما يجتمع أمام بيت الميت جيرانه وجمع كبير من رجال المدينة مع ذويه وأقربائه. وبعد ذلك يأتي رجال الدين، حسب مكانة الميت الاجتماعية، ويُحمل من هناك على الأكتاف، في موكب جنائزي مهيب تتخلله التراتيل والشموع، وينقل إلى الكنيسة التي يكون الميت قد اختارها قبل موته. ولكن هذه الأمور توقفت، كلها أو بعضها، منذ أن بدأ الوباء يستفحل، وحلّت محلها عادات جديدة. فلم يعد الناس يموتون دون أن تحيط بهم النساء وحسب، وإنما يموتون دون شهود، وقلة هم الذين ينتقلون من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، ويجدون من يتحسر على فقدانهم أو يبكيهم بمرارة. بل إن الأحياء اعتادوا، بدلاً من ذلك، على الضحك والمزاح وأشكال أخرى من الصخب، وهي عادات تعلمتها معظم النساء بعد أن تخلين عن ورعهن الأنثوي لمصلحة الحفاظ على صحتهن وسلامتهن. ونادراً ما كانت جثامين الموتى تُنقل إلى الكنيسة وبرفقتها أكثر من عشرة أو

اثني عشر من المرافقين، ولا يكون هؤلاء من المحبين أو من المواطنين البارزين، وإنما صنف من الرعاع ذوي المكانة الوضيعة، ممن أطلقوا على أنفسهم تسمية «الحمالين»، يؤتى بهم من بين أشد الناس خسة. وكانوا يتلقون أجراً مقابل خدمتهم في حمل النعش، ونقله بخطوات متعجلة، ليس إلى الكنيسة التي اختارها الميت وهو حي، وإنما إلى أقرب الكنائس في معظم الأحيان. ويمضي وراءهم، بشموع قليلة أو دون شموع، أربعة أو ستة رهبان يعمدون، بمساعدة الحمالين، دون أن يزعجوا أنفسهم بصلوات طويلة ومهيبة، إلى وضع التابوت في أول مدفن فارغ يصادفونه. أما دفن الفقراء، وكثير من متوسطي الحال، فكان أشد بؤساً بكثير، لأن معظمهم يُستبقون في بيوتهم، بدافع الأمل أو البؤس، فينقلون الداء إلى مئات من جيرانهم كل يوم؛ فيموت هؤلاء جميعهم بسرعة لأنهم لا يجدون من يخدمهم أو يرعاهم. ويقضي كثيرون منهم نحبهم، ليلاً ونهاراً، في الطريق العام. وكثيرون آخرون يموتون في بيوتهم، فلا يعلم جيرانهم بموتهم إلى بعد تفسخ أجسادهم وانبعاث روائح النتانة منها. وكانت هناك أعداد كبيرة من هؤلاء ومن أولئك.

وانتشرت بين جيران كثيرين عادة لم يكن الدافع إليها محبة الموتى والإحسان إليهم بقدر ما هو الخوف من الضرر الذي سيلحقه بهم تفسخ الجثث وتعفنها. وكانت تلك العادة تتلخص في قيام الجيران أنفسهم، مع بعض الحمالين، بإخراج جثث الموتى من بيوتهم، ووضعها أمام أبواب تلك البيوت، حيث كان بإمكان من يمرون من هناك في الصباح، رؤية أعداد كبيرة من الجثث. ثم يأتون بعد ذلك بنعوش، أو يضعون بعض الموتى على ألواح خشبية. وكثيراً ما كانوا يحشرون ميتين أو ثلاثة موتى في النعش نفسه. وقد يُستخدم التابوت نفسه أحياناً للمرأة وزوجها، أو لابنين أو ثلاثة أبناء، أو للأب وابنه. وحدث في أحيان كثيرة أن يكون أسقفان ماضيين في جنازة أحد الأشخاص، فتنضم إليهم ثلاثة أو أربعة نعوش أخرى يحملها الحمالون، فيظنون أن في كل واحد منها ميتاً يدفنونه، ولكنهم يجدون فيها ستة أو ثمانية موتى، وربما أكثر من ذلك. ولم يكن هؤلاء الموتى يُكَرَّمون بالبكاء عليهم، أو بالشموع، أو بموكب يرافقهم؛ فضخامة حجم الحدث جعلت الاهتمام بمن يموتون آنذاك أشبه بالاهتمام بموت نعجة في هذه الأيام. وإذا كان سير الأمور الطبيعي لم يستطع، بشروره القليلة والنادرة، أن يبين للحكماء ضرورة التحمل بصبر، فإن ضخامة الشرور توصلت إلى تحقيق ذلك حتى في أشد الناس بساطة، وحولتهم إلى مستهترين وغير مبالين. وبالنظر إلى تزايد أعداد الجثث التي كانت تنقل كل يوم، بل

كل ساعة، إلى الكنائس، فإن المقابر لم تعد تكفي لدفنهم (فما بالك بتأمين أمكنة خاصة لائقة، كما هي العادة سابقاً)، فصار الموتى يوضعون في مقابر المعابد، وقد حفرت فيها قبور جماعية كبيرة جداً، لدفن مئات الموتى الذين يؤتى بهم؛ فتُنضد الجثث فيها متراصة كما تنضد البضائع، وتغطى بطبقة رقيقة من التراب عند سطح الأرض.

وكي لا ندخل في مزيد من تفاصيل هذا البؤس المريع الذي حل بمدينتنا، فإنني أقول إن مرور المدينة بتلك الأزمنة المشؤومة، لم يعفِ منها الريف المحيط بها، ففي مناطق الريف - باستثناء القلاع - كانت تحدث، على صغرها، أمور مشابهة لما يحدث في المدينة. ففي القرى الصغيرة والدساكر المتفرقة، كان الفلاحون الفقراء وأسرهم يفتقرون إلى عون الأطباء ومساعدة الخدم، فيموتون ليلاً ونهاراً دون تمييز، على الدروب، وفي الحقول، وفي البيوت؛ وبصورة أقرب إلى البهائم منهم إلى البشر. فتبدلت عاداتهم، مثل أهل المدن، وتحولوا إلى الاستهتار وعدم الاهتمام بشؤونهم وأعمالهم. كما لو أنهم ينتظرون وصول الموت إليهم في يومهم ذاك؛ فأهملوا ما ستجود به المواشي والأرض، في المستقبل، من ثمرات. وتجاهلوا ما بذلوه من عرق وجهد، وصاروا يستهلكون ما يجدونه في متناول أيديهم. فأهملوا الجواميس، والحمير، والأغنام، والماعز، والخنازير، والدجاج، وحتى الكلاب الوفية للإنسان، وأبعدوها من البيوت؛ فهامت على وجوهها في الحقول، حيث تكثر المحاصيل المهجورة التي لم تُحصد. وكان كثير من تلك البهائم، بعد أن ترتع على هواها طوال النهار، ترجع إلى بيوتها في الليل، كأنها كائنات عاقلة، دون راعٍ يقودها. ولا حاجة بنا إلى مزيد من الكلام (إذا ما تركنا الريف ورجعنا إلى المدينة)، سوى القول إن قسوة السماء كانت عظيمة ورهيبة، وربما كذلك قسوة البشر؛ وإنه ما بين قوة الوباء وترك كثير من المرضى المحتاجين دون عون، أو هجرهم والتخلي عنهم بسبب خوف الأصحاء، انتُزعت حياة أكثر من مئة ألف إنسان، منذ شهر آذار حتى تموز، داخل أسوار مدينة فلورنسا؛ حيث لم يكن يُعتقد، قبل انتشار الوباء، أن فيها مثل هذا العدد من السكان. آه! كم من القصور الفخمة، وكم من البيوت البديعة، وكم من المنازل النبيلة، كانت تعج من قبل بأسر وبسادة وسيدات، تحولت إلى أماكن مقفرة، خلت حتى من آخر خدمها! وكم من الأسر العريقة، وكم من الثروات الطائلة، وكم من الأملاك الشهيرة، ظلت دون ورثة شرعيين! وكم من الرجال الشجعان البارزين، والنساء الجميلات، وكم من الشبان البواسل الذين ما كان لجالينوس وأبوقراط وإسكولابيو إلا أن يتعبروهم مفعمين

بالصحة، تناولوا الفطور في الصباح مع أسرهم وأصدقائهم، ليتعشوا في الليلة التالية مع أجدادهم وأسلافهم في العالم الآخر!.

أنا نفسي أشعر بالاشمئزاز من المضي في التقلب بين تلك المحن ومظاهر البؤس الكثيرة، ولهذا أترك جانباً ذلك الجزء الذي يمكنني تجنبه دون إحساس بالندم، وأقول إنه بينما كانت مدينتنا في ذلك الوضع، شبه مقفرة من السكان، حدث في صباح يوم ثلاثاء، مثلما أخبرني فيما بعد شخص جدير بالثقة، أن اجتمعت في كنيسة سانتا ماريا الجديدة، شبه الخاوية، بعد سماع القداس، سبع سيدات شابات، يرتدين ثياب الحداد، مثلما تتطلب تلك الأزمنة. وكانت تجمع بينهن جميعهن روابط الصداقة أو الجوار أو القرابة. لا يتجاوز عمر أكبرهن الخامسة والعشرين، ولا يقل عمر أصغرهن عن الثامنة عشرة. وجميعهن حصيفات، من أسر نبيلة، وجميلات الهيئة، تزينهن العفة والحسن. يمكن لي أن أورد أسماءهن لولا وجود سبب يسوغ امتناعي عن عمل ذلك. والسبب هو التالي: الأشياء التي تقال وتُسمع في ما يلي من القصص، قد تسبب الخجل والعار لبعض أولئك السيدات في آتي الأزمنة، لاسيما وأن القوانين تتشدد اليوم في أمر الملذات والمسرات أكثر مما كانت عليه آنذاك، حين كان المباح أكثر اتساعاً، بفعل الظروف والأسباب التي ذكرناها سابقاً، ليس لمن هن في سن السيدات الشابات المعنيات، وإنما لمن هن أكبر منهن سناً. كما أنني لا أريد أن أوفر مادة يستغلها الحاسدون المستعدون دوماً لتدنيس أي حياة حميدة، أو التقليل من عفة ونزاهة أولئك السيدات الفاضلات بتقولات غبية بلهاء. ومع ذلك، ومن أجل أن يُفهم ما تقوله كل واحدة منهن دون التباس، فإنني سأطلق عليهن أسماء مناسبة لسمات كل واحدة منهن. فنسمي أولاهن وأكبرهن سناً بامبينيا؛ والثانية فياميتا، والثالثة فيلومينا، والرابعة إيميليا، والخامسة لوريتا، والسادسة نيفيله، ولنُسمِّ الأخيرة، وليس ذلك عبثاً، إليسا. وقد التقت هؤلاء السيدات، لا لهدف معين، وإنما مصادفة، في ركن من الكنيسة، واجتمعن معاً، وبعد كثير من التأوهات والزفرات، توقفن عن ترديد صلاة «أبانا الذي في السماء»، وبدأن الحديث عن تلك الأزمنة وأحداثها، وعن أشياء أخرى؛ وبعد قليل، رأت بامبينيا أن السيدات قد صمتن، فبدأت الكلام قائلة:

ـ لا بد أنكن سمعتن، يا سيداتي العزيزات، مثلما سمعتُ، ما يقال بكثرة من أن من يستخدم حقه وعقله بنزاهة وعفة، لا يمكن أن يُغضب أحداً أو يسيء إليه. وحقٌ طبيعي

لكل من يولد أن يحاول الدفاع عن نفسه وحماية حياته ضمن ما تتيحه له قواه. ويجري تقبل هذا إلى حد أن البعض يتسببون أحياناً، وهم يدافعون عن أنفسهم، في موت آخرين دون أن يُعتبروا مذنبين. فإذا كانت القوانين تتيح ذلك، وتطبيقها يحمل الرفاه إلى البشر، فحري بنا، وبغيرنا، أن نستعين بما لدينا من وسائل شريفة، لحماية حياتنا والحفاظ عليها دون الإساءة إلى أحد. وبإعمالي الفكر في ما عملناه هذا الصباح، وما عملناه في الصباحات السابقة، وإمعاني النظر في ما نفكر فيه، أتوصلُ - مثل كل واحدة منكن - إلى أننا نفكر في حيواتنا والقلق عليها. ولستُ أستغرب ذلك، ولكن ما يثير عجبي هو أن لدينا جميعنا مشاعر نسائية، ولا نحاول البحث عن مخرج مما نخافه ونخشاه. إننا نعيش هنا، على ما أعتقد، لا لسبب سوى أن نكون شهوداً على أعداد الأجساد الميتة التي تُحمل إلى المدافن، أو لنسمع إذا ما كان الرهبان الذين هنا (وعددهم تضاءل إلى أقصى الحدود) يرتلون صلواتهم في مواعيدها المحددة، أو لِنُري أي شخص يظهر هنا، من خلال ثيابنا، مدى تعاستنا ونوعيتها. وإذا ما خرجنا من هنا، فسوف نرى جثثاً ومرضى يُحملون في الشوارع، أو أننا سنرى أولئك الذين سبق أن حكمت عليهم السلطات القضائية بالنفي لجرائم ارتكبوها، وقد عادوا مستهزئين بتلك القوانين بعد أن علموا أن حماتها قد ماتوا أو أصيبوا بالمرض، وهم يجوبون المدينة باندفاع الغزاة الفاتحين. أو أننا نرى حثالة مدينتا، ممن يتغذون على دمائنا بتسمية أنفسهم «حمالين»، ويزدروننا، ويتغلغلون إلى كل الأماكن ويلوثونها، وينتقدون مساوئنا بأغنيات بذيئة. ولا يُسمع هنا إلا القول: «لقد مات هذا» أو «ذاك يحتضر». ونسمع صرخات الأسى وبكاء الحزن، إذا كان هناك من هو قادر على الصراخ والبكاء. وحين أعود إلى بيتي - لست أدري إذا كان يحدث لكنَّ مثلما يحدث لي - لا أجد فيه من عائلتنا كبيرة العدد سوى خادمة؛ فيعتريني خوف شديد ينتصب معه شعر رأسي. وحين أظل في حجرتي، أو أي مكان آخر من البيت، يخيل إليّ أنني أرى أشباح من ماتوا، بوجوه مريعة لا أدري من أين جاؤوا بها، ولكنها ليست وجوههم؛ فيزداد خوفي. لهذا كله، أجد نفسي في حالة مزرية في كل مكان، سواء هنا أو في الخارج أو في البيت؛ وبصورة خاصة الآن، حين أرى أنه لم يبق هنا أحد سوانا ممن مازال في قلوبهم نبض، ولديهم ملاذ يلجؤون إليه. ولقد سمعت ورأيت مرات عديدة، أن من يبقون من الناس، لا يعودون يميزون بين الأمور الشريفة وغير الشريفة، سواء أكانوا متوحدين أو في جماعة، ولا يستجيبون، في الليل والنهار، إلا لرغباتهم وشهواتهم، ويقدمون على عمل ما

يغضبهم. ولستُ أعني بهذا الناس الأحرار وحدهم، وإنما كذلك أولئك الذين في الأديرة، ممن يقنعون أنفسهم بأن ما يمارسه الآخرون مناسب لهم أيضاً. وبانهيار قوانين الطاعة والانضباط، يسلمون أنفسهم للملذات الجسدية، معتقدين أن ذلك ينجيهم، فيتحولون إلى المجون والفسق. فإذا كانت الأمور تجري على هذا النحو، مثلما هو ظاهر بوضوح، فما الذي نفعله نحن هنا؟.. ما الذي ننتظره؟.. وما الذي نحلم به؟.. ولماذا نحن أكسل وأبطأ من بقية مواطنينا حين يتعلق الأمر بسلامتنا ونجاتنا؟.. ترانا نظن أنفسنا أقل قيمة من الآخرين؟.. أم أننا نظن أن الحياة مقيدة إلى أجسادنا بقيود أشد متانة وقوة مما هي لدى المواطنين الآخرين، وليس علينا أن نخشى شيئاً يلحق بنا الأذى؟.. هل نحن مخطئات، أو أننا نخدع أنفسنا، أو ما هي هذه البلاهة التي نحن فيها؟.. عندما نتذكر أعداد الرجال والنساء الغفيرة التي أهلكها الداء، نرى أمامنا أدلة واضحة وواسعة. وكي لا نصل، بسبب إهمال أو تردد، إلى مثل ذلك المصير، أقترح عليكن أن نهرب بطريقة ما، وإن كنت لا أدري إذا كنتن ترين ما أراه، ونخرج من هنا مثلما فعل كثيرون قبلنا، هرباً من الموت ومن أنماط الحياة غير الشريفة التي يعيشها آخرون. ولنذهب للإقامة بصورة شريفة في المزارع الريفية التي نملكها جميعنا بكثرة. ونُغرق أنفسنا هناك في الحفلات واللهو والسعادة، دون تجاوز حدود العقل. ففي تلك الأماكن يُسمع تغريد الطيور، وتُشاهد هضاب ومروج خضراء، وتتماوج مثل البحر الحقول المترعة بالزرع الوفير، وبألف نوع من الأشجار؛ وهناك السماء الفسيحة، مهما اشتد غضبها، لا تحرمنا من بهائها السرمدي. وهذا أجمل بكثير من رؤية جدران مدينتنا المقفرة. كما أن الهواء هناك أكثر برودة ونداوة، وتوجد وفرة أكبر في المواد الضرورية للحياة، وقدر أقل من المنغصات. ومع أن الفلاحين يموتون هناك مثلما يموت أهل المدينة هنا، إلا أن الغم والمرارة يكونان أقل عندما تكون المباني والسكان أقل مما في المدينة. ثم إننا، إذا كنت على صواب، لن نهجر أحداً هنا، بل يمكننا القول إننا نحن من هُجرنا، لأن ذوينا قد ماتوا أو غادروا هاربين من الموت، وتركونا وحيدات وسط هذا الغم الكبير. ولا يمكن بالتالي توجيه أي لوم لنا باتباع هذه النصيحة، بينما يمكن للحزن والغم، وربما الموت، أن يحيق بنا إذا نحن لم نعمل بها. لكل هذا، إذا ما بدا لكنَّ مناسباً، فلنأخذ خادماتنا ومؤونتنا، ولنذهب لنقضي يوماً في مكان، واليوم التالي في مكان آخر، مكرسين وقتنا للمآدب والبهجة التي تتيحها هذه الأزمنة، وأن نبقى على هذه الحال إلى أن نرى «إذا لم يخطفنا الموت قبل ذلك»

ما هي النهاية التي تحتفظ بها السماء لمصيرنا. وتذكّرن أن حالنا بمغادرتنا الشريفة لن تكون أسوأ من حال كثيرين آخرين يظلون هنا بطريقة غير شريفة.

بعد أن استمعت النساء الأخريات إلى ما قالته بامبينيا، لم يُطرين على أقوالها وحسب، وإنما رغبن في مجاراتها، بل إنهن مضين أبعد من ذلك، وبدأن مناقشة الطريقة لعمل ذلك، كما لو أنهن سيتخذن طريق الرحيل فور نهوضهن من هناك. لكن فيلومينا التي تتصف بشدة الحرص والحذر، قالت لهن:

ـ سيداتي، مهما كان ما قالته بامبينيا وجيهاً وعقلانياً، فإن ذلك لا يعني أن نهرع لتنفيذه على الفور. فلا بد من أن تتذكرن أننا جميعنا نساء، وما من امرأة شابة إلا وتعرف أن جماعة من النساء، دون حماية رجل، لن تستطيع حكم نفسها بنفسها وتولي أمورها. فنحن معشر النساء متقلبات، مشوشات، متشككات، رعديدات ومتخوفات، لذا يخامرني الشك في أن جماعتنا، ما لم نأخذ دليلاً من الرجال معنا، ستتفكك بأسرع مما نتوقعه وبصورة غير مشرفة. ولهذا يجب التفكير جيداً قبل أن نحسم أمرنا.

عندئذ قالت إليسا:

ـ صحيح أن الرجال هم رأس النساء، ونادراً ما يصل عمل من أعمالنا إلى نهاية حميدة دون قيادتهم. ولكن، كيف يمكن لنا العثور على هؤلاء الرجال؟.. فجميعنا نعلم أن رجال معظمنا قد ماتوا، وأن من ظلوا أحياء منهم قد تفرقوا هنا وهناك، مع آخرين غيرهم، لا نعرف مستقرهم، هاربين مما نرغب نحن في الهرب منه. وليس من اللائق أن نطلب من رجال غرباء مرافقتنا. ولهذا، إذا ما أردنا السعي للحفاظ على سلامتنا، فمن المناسب إيجاد وسيلة لترتيب أمورنا بحيث لا يلي سوء السمعة والفضيحة ما نسعى إليه من أجل الراحة والمتعة.

وبينما النساء مستغرقات في هذا الحديث، دخل الكنيسة ثلاثة شبان لا يقل عمر أصغرهم عن الخامسة والعشرين. ولم تكن محن الزمن، ولا فقدان الأصدقاء والأهل، ولا الخوف على أنفسهم، قد أثرت فيهم، أو أخمدت مشاعر الحب أو قلصتها لديهم. وكان أحدهم يدعى بانفيلو، والثاني فيلوستراتو، والأخير ديونيو، وجميعهم كانوا لطفاء ومهذبين. وقد جاؤوا يبحثون باهتمام، وسط تلك الفوضى، عن صاحباتهم اللواتي شاءت المصادفة أن يكن بين النساء السبع، كما أن بعضهن كن من أقرباء أولئك الشبان.

ولكن، قبل أن ترى عيونهم النساء، كانت عيون النساء السبع قد رأتهم، فابتسمت بامبينيا وقالت:

ـ أرى أن الحظ يسعف مبتغانا منذ البداية. فقد وضع أمامنا هؤلاء الشبان المتكتمين والشجعان الذين سيوافقون بطيب خاطر أن يكونوا أدلاء وحماة لنا إذا ما طلبنا منهم ذلك.

فقالت نيفيله، وقد احمرت خجلاً، لأنها محبوبة أحد الشبان:

ـ بالله عليك يا بامبينيا، انتبهي لما تقولين! أقر أننا لا نستطيع أن نقول إلا كلاماً طيباً بحق هؤلاء الشبان. وأقدر أنهم قادرون على أمور أكبر بكثير مما نريده، وأظن كذلك أن رفقتهم ستكون ممتعة وشريفة، ليس لنا فقط، وإنما كذلك لأخريات أجمل منا، ومرغوبات أكثر منا أيضاً. ولكن من المعروف أنهم مغرمون ببعض من هن معنا هنا، وأخشى إذا ما أخذناهم معنا أن تلاحقنا الأقاويل والانتقادات دون ذنب منهم أو منا.

فردت فيلومينا على هذه الذريعة بالقول:

ـ لا أهمية لكل هذا. فمادمتُ أعيش حياة شريفة، ولا أشعر بأي تأنيب من ضميري، فإنني لا أعبأ بأن يقول الآخرون ما يشاؤون. فالله والحقيقة سيكونان سلاح الدفاع عني. وإذا كانوا هم مستعدين لمرافقتنا، فسنقول ما قالته بامبينيا من أن الحظ يسعف مبتغانا.

وحين سمعت السيدات الأخريات هذا القول الحصيف، لم يبقين صامتات، وإنما وافقن جميعهن على استدعاء الشبان، وعرض ما ينوين عمله عليهم، والطلب منهم أن يكونوا رفاقاً لهن في الرحلة. وهكذا، ودون مزيد من التعليقات، نهضت بامبينيا، وكانت على صلة قرابة بأحد الشبان، فسلّمت عليهم بمودة، وأفضت لهم بقرارهن، ورجتهم باسم السيدات جميعهن أن يرافقوهن بنوايا طاهرة وأخوية. ظن الشبان في أول الأمر أنها تسخر منهم، ولكنهم عندما رأوا أن السيدة تتكلم بجد، أعربوا عن موافقتهم بكل سرور. ومن أجل عدم التأخير، اتفقوا على الموعد المناسب للرحيل، وأعدوا ورتبوا كل ما يحتاجون من أمور، وأرسلوها إلى المكان الذي سيذهبون إليه. وفي اليوم التالي، وكان يوم أربعاء، خرجت النساء مع بعض خادماتهن، والشبان مع ثلاثة من خدمهم، وغادروا المدينة منطلقين في رحلتهم. وبعد أقل من ميلين، وصلوا إلى المكان المتفق عليه مسبقاً.

كان المكان المذكور يقوم على رابية صغيرة، بعيدة من كل الجهات عن الدروب. تنتشر فيها أنواع وفيرة من الأشجار والنباتات، خضرتها الوارفة تبهج النظر. وعلى قمة الرابية قصر، يتوسطه فناء جميل وفسيح وأروقة وقاعات وغرف كثيرة، جميعها بديعة ومزركشة بنقوش ورسوم مبهجة، ومحوطة بمروج وحدائق غناء، وآبار مياه باردة، وأقبية مملوءة بالأنبذة الفاخرة، من تلك التي تناسب محترفي الشراب الذواقة أكثر مما تناسب سيدات قنوعات وشريفات. ووجد القادمون البيت نظيفاً ومريحاً، والأسرة مرتبة في الحجرات المترعة بكل أنواع الزهور التي يتيحها الفصل، وكذلك بأكاليل السعف.

ولدى اجتماعهم جميعهم معاً، قال ديونيو، وكان أكثر الشبان لطفاً وحدة ذكاء:

ـ سيداتي، حسكن السليم، وليس توقعاتنا، هي التي قادتنا إلى هنا. ولست أدري ما هي الأفكار التي لديكن. أما أنا فتركت أفكاري عند بوابة المدينة التي غادرتها معكن قبل قليل. فإما أن تكن مستعدات للتسلية والمرح والغناء معي «بما يتناسب مع كرامتكن»، وإلا فاسمحن لي أن أرجع إلى أفكاري، وأظل هناك في المدينة المحزونة.

فردت عليه بامبينيا، كما لو أنه قد رصد أفكارها مسبقاً، قائلة بسعادة:

ـ لقد أحسنت القول يا ديونيو؛ علينا أن نعيش بمرح وابتهاج، لأن الأحزان هي التي دفعتنا إلى الهرب. ولكن الأمور غير المنظمة، كما تعلمون، لا يمكن لها أن تستمر طويلاً، ولأنني من بدأت الحديث الذي نتجت عنه هذه الصحبة الطيبة، فقد فكرت في إطالة أمد سعادتنا، وقدرت أنه لا بد لنا من اختيار أحدنا ليكون مسؤولاً عنا، نحترمه ونطيعه باعتباره كبيرنا، وتكون كل أفكاره مكرسة لإسعادنا. ولكي يجرب كل واحد منا عبء المسؤولية ومتعة السلطة، ولا يحسد أحد منا غيره على أي شيء، فإنني أقترح أن يتولى واحد منا في كل يوم هذا العبء والشرف، وأن نتولى جميعنا اختيار أول مسؤول. وعند الغروب، يقوم ذلك المختار (أو تلك المختارة) الذي مارس القيادة، باختيار من سيخلفه، فيأمر هذا الخليفة خلال يوم ولايته وينهى، ويحكم كيف وأين سنقضي ذلك اليوم.

قوبلت هذه الكلمات بالترحيب، وأجمعوا على اختيار بامبينيا ملكة لليوم الأول. وهرعت فيلومينا راكضة إلى شجرة غار، لأنها كانت قد سمعت عن السمو الذي تضفيه

أوراقها، والشجاعة التي تمنحها لمن يُتوج بها، فاختارت بعض الأغصان، وصنعت منها إكليلاً. وظل هذا الإكليل، خلال فترة اجتماعهم، يتوج رأس العاهل اليومي العابر، دليلاً ظاهراً على ممارسته السيادة.

وبعد أن صارت بامبينيا هي الملكة، أمرت الجميع بالصمت، ثم استدعت خدم الشبان الثلاثة، وخادمات السيدات، وكن أربع خادمات، وقالت:

ـ يفترض بي أن أقدم لكم المثل الأول، كي يتحسن كل يوم، بحيث تستمر رفقتنا بنظام وسعادة، وتتواصل مثلما نرغب دون إساءة أو خلل. ولهذا فإنني أبدأ باختيار بارميرو، خادم ديونيو، ليكون قهرماني، وأوكلُ إليه أمر العناية ببيتنا، إضافة إلى كل ما له علاقة بخدمة المائدة. وأريد من سيريسكو، خادم بانفيلو، أن يكون الممون والخازن، وأن يخضع لأوامر بارمينو. وآمر تيندارو أن يكون في خدمة سيده فيلوستراتو ورفيقيه الآخرين، وأن يتولى العناية بغرفهم عندما يكون الخادمان الآخران مشغولين بمهامهما. أما وصيفتي ميسيا، وليسيسكا وصيفة فيلومينا، فتظلان في المطبخ وتعدان الأطعمة التي يأمرهما القهرمان بارمينو بطهوها. وأريد من كيميرا وصيفة لوريتا، وإستراتيليا وصيفة فياميتا أن تتوليا ترتيب غرف نومنا، وتنظيف الأماكن التي سنلتقي فيها. وأقول لهم جميعاً، ولكل واحد منهم على انفراد، بأننا نأمرهم، أينما ذهبوا، وأينما جاؤوا، ومهما سمعوا أو شهدوا، بألا يأتوا إلينا بأي خبر من الخارج، ما لم يكن مفرحاً، إذا كانوا راغبين في البقاء في كنفنا.

وبعد إصدار هذه الأوامر المختزلة، وموافقة الجميع عليها، نهضت هي باسمة وقالت:

ـ توجد هنا حدائق، وتوجد مروج، وأماكن بديعة أخرى، يمكن لكل واحد منا أن يجد فيها ما يمتعه. وعندما تعلن الساعة الثالثة، على الجميع أن يكونوا هنا لتناول الغداء في الهواء الطلق.

وبحصول الجماعة السعيدة على إذن الملكة المتوجة حديثاً، رافق الشبانُ السيدات، وتوغلوا بخطى وئيدة في إحدى الحدائق، يتبادلون الأحاديث في موضوعات مبهجة، ويصنعون أكاليل من أزهار متنوعة، ويغنون بمرح وسعادة. وبعد أن قضوا الوقت الذي منحتهم إياه الملكة كاملاً، رجعوا إلى البيت، ووجدوا بارمينو قد باشر عمله الجديد

بكل مهارة؛ فلدى دخولهم إلى قاعة في الطابق الأرضي، وجدوا موائد مغطاة بشراشف ناصعة البياض، عليها كؤوس لا ريب في أنها من الفضة، وكثير من الزهور. وبعد تقديم ماء غسل الأيدي إليهم، مثلما أرادت الملكة، جلسوا جميعهم في الأماكن التي حددها بارمينو لكل واحد منهم. وجيء بمأكولات شهية متنوعة، وأنبذة فاخرة، قدمها إليهم خدم الشبان الثلاثة. وقد ابتهجوا جميعهم وهم يرون روعة التنظيم ورونقه، ووسط عبارات السعادة والبهجة الغامرة، بدؤوا تناول الطعام. وبعد ذلك رُفعت الموائد. ولأن السيدات جميعهن كن يحسن الرقص والغناء، ويتقن بعضهن العزف، فقد طلبت الملكة إحضار الآلات الموسيقية. وبأمر منها تناول ديونيو العود، وتناولت فياميتا الفيولا، وأخذا يعزفان لحناً راقصاً. وبعد إرسال الخدم لتناول الطعام، بدأت الملكة والسيدات والشابان الآخران الرقص بخطوات بطيئة، وعند انتهاء هذه الرقصة، راحوا يغنون أغنيات مرحة وسعيدة. وظلوا على تلك الحال إلى أن رأت الملكة أن موعد النوم قد حان، وأعطت الإذن للجميع بالانصراف للراحة. فذهب الشبان الثلاثة إلى غرفهم، وكانت منفصلة عن الغرف التي تشغلها النساء. ووجدوا الأسرة مرتبة، والغرف ممتلئة بالزهور، ومثلهم وجدت النساء غرفهن، فخلعن ملابسهن واستسلمن للنوم.

وبعد الضحى بقليل، استيقظت الملكة، وأيقظت الأخريات، وكذلك الشبان، مؤكدة أن إطالة النوم في النهار مؤذية. وهكذا خرجوا إلى مرج أعشابه خضراء وطويلة، لا تصله الشمس، وكانت تهب نسمات خفيفة، فجلسوا جميعهم على العشب حول الملكة، مثلما طلبت منهم، وبدأت هي الكلام قائلة:

ـ ها أنتم ترون أن الشمس قد ارتفعت، وأن الحر قد اشتد؛ ولم يعد يُسمع غير صرير الزيزان على أشجار الزيتون، ولن يكون من الفطنة الآن الذهاب إلى أي مكان آخر. فالمكان هنا جيد وبارد، وتوجد هنا كما ترون رقع دامة وشطرنج، يمكن لكل منا أن يتسلى بها على هواه.

ولكنني أرى ألا نقضي هذا الجزء الحار من النهار في اللعب، حيث لا بد لمعنويات أحد اللاعبين من أن تتكدر، مما يعكر سعادة من يلاعبه ومن يراقبون اللعب؛ والأفضل أن نقضيه في حكاية الحكايات. فهكذا يتكلم واحد منا فقط، بينما يستمتع الآخرون جميعهم بالاستماع إليه. وبعد أن يروي كل واحد منا قصة، تكون الشمس قد مالت نحو

المغيب، وحدة الحر قد خفت، ونستطيع بعد ذلك أن نلهو ونستمتع كما نشاء. فإذا بدا لكم ما أقوله حسناً ، فإنني سأجاري رغبتكم؛ أما إذا رأيتم غير ذلك، فليفعل كل واحد منكم ما يشاء حتى ساعة الغروب.

أطرت النساء، وكذلك الرجال، على فكرة رواية القصص. فقالت الملكة:

- إذا كان الأمر يروقكم، فإنني أريد في يومنا الأول هذا أن يتكلم كل شخص بحرية في الموضوع الذي يريده.

ثم التفتت إلى بانفيلو، وكان جالساً إلى يمينها، وطلبت منه أن يبدأ بقصة منه، مفتتحاً ما اتفقوا عليه. وما إن سمع بانفيلو أمر الملكة، حتى سارع، والجميع يستمعون، إلى بدء قصته على النحو التالي:



القصة الأولى

السيد شابليتو، بعد اعتراف زائف، يخدع راهباً طيباً ويموت؛ ومع أنه كان رجلاً خبيثاً في الحياة، إلا أنه يُعامل في مماته كقديس ويُسمى القديس شابليتو.

ـ من الملائم، سيداتي الغاليات، عند أي عمل يُقدم عليه الإنسان، أن يبدأ بذكر اسم الرب المقدس والجليل، خالق الجميع. وبما أنني سأبدأ ما سنرويه من قصص، فإنني أنوي أن أبدأ بقصة عن إحدى أعاجيب الرب، كيما يترسخ أملنا فيه بعد سماعها، باعتباره شيئاً لا يمكن النفاذ إليه وسبر أغواره، وليظل اسمه مبجلاً إلى أبد الآبدين.

لا ريب في أن كل الأشياء الزمنية فانية وإلى زوال، وأنها في ذاتها، وخارج ذاتها، ملأى بالآلام والهموم والمشقات، ومعرضة لأخطار كثيرة. لهذا السبب لا يمكن لنا، نحن من نعيش محكومين بها، الاستمرار والحفاظ على بقائنا دون نعمة خاصة من الرب الذي يمنحنا القوة والشجاعة. ويجب عدم التفكير في أن هذه النعمة تنزل علينا لميزة خاصة نتمتع بها، وإنما برحمة وتلطف عظيمين من الرب، وبفضل توسلات أولئك القديسين الذين كانوا بشراً فانين مثلنا. ومع أنهم قد اتبعوا أهواءهم وملذاتهم خلال حياتهم، إلا أنهم الآن، بعد أن صاروا إلى جانب الرب، تحولوا إلى خالدين وسعداء. ونحن نذكر هؤلاء لأنهم، كشفعاء لنا، يعرفون ضعفنا من خلال تجربتهم، ويمنحوننا الأشياء التي نعتبرها مناسبة، ولا نجد في أنفسنا الجرأة للتوجه بطلباتنا تلك إلى القاضي الأعلى. ولأننا لا نستطيع، مثل الرب الذي له مطلق الحرية علينا، أن نستشف بنفاذ أعيننا الفانية، سرّ ذهنه الإلهي، يحدث أن ننخدع في الرأي أحياناً، ونطلب الشفاعة أمام جلاله الإلهي من أشخاص حُرموا منها إلى النفي الأبدي. أما هو الذي لا يخفى عليه شيء، فإنه ينظر إلى نقاء المتوسل أكثر مما ينظر إلى جهله أو إلى نفي ذاك الذي تُرجى شفاعته، فيلبي طلب الطالبين كما لو أنهم توسلوا إلى قديس. وهذا يبدو واضحاً في القصة التي أريد أن أقصها عليكم؛ وأقول

«يبدو واضحاً» دون أن أعني بذلك أحكام الرب، وإنما أعني ما يفعله البشر.

يقال إن موسشاتو فرانزاسي، قد تحول من تاجر كبير وغني في فرنسا، إلى سيد من أعيان الحاشية؛ وكان عليه أن يسافر إلى توسكانيا مع السيد شارل سان تر، أخي الملك الفرنسي، عندما استدعاه البابا بونيفيسيو. وقد انتبه فرانزاسي إلى أن تجارته وأعماله، مثلما هي حال التجار في معظم الأحوال، متشابكة وموزعة هنا وهناك بصورة معقدة؛ وأنه لا يستطيع تصفية أموره بالسرعة التي يتطلبها الموقف، فقرر أن يكلف عدة أشخاص بمتابعتها. وقد وجد حلاً لكل شيء، ولم يعيه ويقلقه إلا العثور على شخص مناسب لتحصيل ديونه المستحقة لدى بعض البورغونيين. وكان سبب ذلك القلق معرفته أن البورغونيين قوم مشاغبون ميالون إلى المماطلة، وتجار سيئون، وقليلو الوفاء. ولم يكن يتصور أن هناك شخصاً لديه من الخبث ما يمكّنه من مواجهة ذلك الصنف من البشر. وبعد أن فكر ملياً في هذا الأمر، تذكر شخصاً يدعى السيد شابيريلو دي براتو، كان يتردد بكثرة على بيته في باريس. ولأنه رجل ضئيل الجسم وربَع القامة، ولجهل الفرنسيين بما يعنيه اسمه «شابيريلو»، فقد ظنوا أنه مشتق من كلمة شابليه في لغتهم. ولأنه كان ضئيل الجسم كما أسلفنا، فقد أطلقوا عليه اسم شابليتو «شابيلو الصغير»، وليس شابيلو؛ وصار معروفاً بهذا الاسم في كل مكان.

وقد كان وضع شابليتو هو التالي: في عمله كموثق عقود، كان يشعر بعار كبير إذا ما كانت إحدى وثائقه، على الرغم من قلتها، غير مزيفة. وكان ينجز من هذه الوثائق المزيفة كل ما يُطلب منه مجاناً، وبسعادة أكبر من تلك التي ينجز بها الوثائق الحقيقية المأجورة بسخاء. وكان يجد السعادة والمتعة في شهادة الزور، سواء أطُلب منه ذلك أم لم يطلب. ولأن حلف اليمين كان مسألة يُعتد بها في ذلك الزمن، لاسيما في فرنسا، فإنه لم يكن يجد حرجاً في أن يقسم زوراً، ويشهد في كل مناسبة يُطلب منه أن يقسم اليمين بقول الحق. وكان ذلك يبهجه كثيراً، مثلما تروقه إثارة العداوات والشرور والفضائح بين الأصدقاء والأقارب والناس جميعاً. وتكون سعادته أكبر كلما رأى أنه توصل إلى نتائج أكثر سوءاً. وإذا ما طُلبت منه المساعدة في عملية قتل أو أي جريمة أخرى، لا يرفض أبداً، بل يذهب بكل سعادة. وقد وجد نفسه، مرات عديدة، وهو يجرح أناساً أو يقتلهم بيديه، بمنتهى السعادة. وكان فوق ذلك مجدِّفاً كبيراً على الرب والقديسين، لا يتورع عن فعل

تلك لأتفه الأسباب، لأنه لم يكن هناك من يجاريه في النزق وحدة الطبع. ولم يكن يذهب إلى الكنيسة أبداً، ويرى في كل المقدسات أموراً دنيئة، يهزأ منها بكلمات مقيتة، لكنه يتردد ببهجة بالمقابل على أسوأ الحانات وأماكن الرذيلة والفجور. وكان ولعه بالنساء كولع الكلاب بضربات العصا، ويروقه عكس ذلك مثل أي منحط على شاكلته. كان يسرق ويخدع بنفس مطمئنة كطمأنينة نفس قديس. وكان رجلاً شرهاً فيه نهم إلى الطعام والشراب، يصل أحياناً إلى حالات من الغثيان المقزز. وكان مقامراً كبيراً، يستخدم زهر نرد مغشوش... ولكن، لماذا أطيل في الكلام؟.. فقد كان أسوأ مخلوق في الدنيا. وقد وفرت سلطة موسشاتو، لوقت طويل، الحماية لشرور موثق العقود من أناس عاديين كان يُلحق بهم الضرر، ومن العدالة التي كانت تلاحقه على الدوام.

وحين تذكر السيد موسشاتو ذلك الشخص المدعو شابليتو، وكان يعرف سيرته جيداً، فكر في أنه سيكون الرجل المناسب للتعامل مع خبث البورغونيين. فاستدعاه، وقال له:

ـ أنت تعلم يا سيد شابليتو أنني سأرحل عن هذه البلاد؛ ولأنه لا بد لي من تصفية أعمالي مع أناس كثيرين، ومن بينهم بعض البورغونيين، وهؤلاء قوم شديدو الخداع، وليس هناك من هو خير منك لتحصل ديوني منهم. وبما أنه ليس لديك عمل يشغلك الآن، فإنني سأوفر لك، إذا ما وافقت، توصية من البلاط، وأمنحك نسبة معتبرة مما تستطيع استرداده.

كان السيد شابليتو بلا عمل، وفي ضيق من أمور هذا العالم؛ ورأى الآن أن من يوفر له الدعم والحماية سيغادر، دون تأخير، ففكر وقال، تدفعه الحاجة بكل تأكيد، إنه يوافق بطيب خاطر. وبعد إبرامهما الاتفاق، وتلقيه توكيلاً قانونياً من السيد موسشاتو، ورسائل توصية من الملك، توجه السيد شابليتو إلى بورغونيا، حيث يكاد لا يعرفه أحد؛ وتظاهر هناك أنه من طبيعة أخرى، وحاول بالحسنى وبالطرق الحميدة أن يستعيد كل ما طُلب منه استعادته. وبينما كان يعمل على ذلك النحو، مقيماً في بيت أخوين مرابيين فلورانسيين، استضافاه في بيتهما وكرماه محبة بالسيد موسشاتو، حدث أن أصيب بمرض. استدعى الأخوان المرابيان الأطباء بسرعة، ووفرا له خدماً لخدمته في كل شيء، كي يسترد عافيته. لكن كل ما فعلاه كان دون طائل. ولأنه عاش حياة فجور مضطربة،

كانت حاله تسوء أكثر فأكثر، وتبين أن داءه مميت، وهو ما أصاب الأخوين بالغم. وفي أحد الأيام، بينما هما على مقربة من الفراش الذي يرقد فيه المريض، تبادلا الحديث فيما بينهما كما يلي:

ـ ما الذي سنفعله بهذا الرجل؟.. إننا سنلقى بسببه سوء المصير، لأننا إذا ما طردناه من البيت وهو في هذه الحال، سيكون تصرفنا علامة على انعدام الإحساس، وسيجلب لنا ذلك الاستنكار، وسيتقول الناس عنا حين يرون أننا استضفناه في أول الأمر، وبعد أن عنينا به بحرص في مرضه، نعمد الآن إلى طرده من البيت وهو يموت. غير أنه من المحتمل، من جهة أخرى، وبالنظر إلى أنه كان رجلاً خبيثاً، أن يرفض الاعتراف، أو تلقي أي سر من أسرار الكنيسة؛ فإذا مات دون اعتراف، فلن يرضى أي معبد استقبال جثمانه ودفنه، وسيُلقى به في حفرة كالكلاب. وحتى لو اعترف، فإن خطاياه كثيرة وفظيعة، بحيث لن يوافق، ولن يستطيع، أي كاهن أو قس أن يمنحه الغفران، وسيكون مصيره إلى حفرة كالكلاب أيضاً. وإذا ما حدث هذا، فإن الشعب والناس الذين ينظرون إلينا هنا بغيظ بسبب مهنتنا التي تبدو لهم جائرة ودنيئة، وتجعلهم يتحدثون عنا بالشر طوال الوقت، سيهبون غاضبين للسطو علينا قائلين: «يجب ألا نواصل تحمل هذين الكلبين اللومبارديين اللذين ترفض الكنيسة استقبالهما». وسينقضون على بيوتنا ويستولون على ممتلكاتنا، وربما يعمدون فوق ذلك إلى قتلنا. وهكذا فإن سوء المصير ينتظرنا، في كل الأحوال، إذا ما مات هذا الرجل.

كان السيد شابليتو يرقد، كما قلنا، قريباً من المكان، فسمع كل ما قالاه، فاستدعاهما وقال لهما:

ـ لا أريد لكما أن تعانيا بسببي أو أن يلحق بكما أي ضرر. لقد سمعتُ ما قلتماه، وأنا واثق من أن هذا الذي قلتماه سيحدث. غير أن لدي خطة أخرى مختلفة، ولا وجود لوسيلة أخرى سواها.. اطلبا مجيء كاهن شديد الورع والتقوى، واتركاني أتصرف بنفسي، فأنا سأسوي أموركما وأمري بطريقة تنتهي على ما يرام وبما يرضيكما.

ذهب الأخوان، دون أن يراودهما أمل كبير، إلى أحد الأديرة، وطلبا كاهناً حكيماً وطيباً لتلقي اعترافات رجل لومباردي مريض مرضاً شديداً في بيتهما. وحصلا على كاهن عجوز عاش حياة ورع وطيبة، وكان معلماً كبيراً في الكتابات المقدسة، ورجلاً يحظى

باحترام جميع الأهالي وتقديرهم، لأنهم يرون فيه مثلاً في الورع والتقوى. وأخذاه معهما.

وصل الكاهن إلى الحجرة التي يرقد فيها شابليتو، وجلس إلى جانبه، وبعد أن مسحه برفق، سأله منذ كم من الوقت لم يعترف. فأجابه شابليتو الذي لم يتقدم لأي اعتراف في حياته قط:

ـ من عادتي يا أبتاه أن أعترف مرة كل أسبوع على الأقل، فضلاً عن اعترافات أخرى في أوقات مختلفة. لكنني مذ مرضتُ، قبل ثمانية أيام، لم أعترف، وهذا هو أشد ما أحزنني في هذا المرض.

فقال الكاهن عندئذ:

ـ لقد أحسنت صنعاً يا بني، وهذا ما يتوجب عمله؛ وبما أنك تعترف بكثرة، فلن أتكلف جهداً كبيراً في سماعك أو سؤالك.

فأعلن شابليتو:

ـ لا تتعجل القول يا سيدي الراهب. فأنا لم أعترف من قبل إلا وكنت أرغب في الاعتراف بكل خطاياي التي أتذكرها منذ مولدي وحتى اعترافي الأخير. ولهذا أرجو منك، أيها الأب الطيب، أن تسألني عن كل شيء، كما لو أنني لم أعترف في حياتي قط. ولا تشفق عليّ لأني مريض، فأنا أُفضل أن أنهك جسدي هذا، ولا أتملقه، على أن أقع في ما يمكن له أن يودي بروحي إلى الضياع، بعد أن خلّصها الفادي بدمائه الطاهرة.

أعجب الراهب أيما إعجاب بهذه الكلمات، وبدت له أفكار عقل مستعد ومحصن. وبعد أن أثنى كثيراً على عادات شابليتو تلك، بدأ بسؤاله إذا ما كان قد ارتكب يوماً خطيئة الشبق، بحبه امرأة ما. فرد عليه الآخر وهو يتأوه:

ـ يخجلني، يا أبتاه، قول الحقيقة عن هذا الجانب، خوفاً من أن أقترف بذلك خطيئة الزهو والتكبر.

فقال له الرجل القديس:

ـ قل ما تريد مطمئناً، لأن قول الحقيقة في الاعتراف ليس خطيئة بأي حال.

ـ بما أنك تؤكد لي ذلك، فإنني مخبرك بأني مازلت بكراً مثلما كنتُ يوم خرجت

من بطن أمي.

ـ فلتكن مباركاً ـ قال الراهب ـ، ويا لحسن ما فعلت! فأنت أكثر تميزاً حين تتصرف على هذا النحو، في حين أن لديك، لو شئت، حرية أكبر في عمل ما هو محرم علينا، وعلى آخرين محكومين بقواعد نظام ما.

ثم سأله بعد ذلك إذا ما كان قد أغضب الرب بخطيئة الشراهة. فتنهد شابليتو بقوة وأجاب بنعم، وبأنه فعل ذلك مرات كثيرة؛ لأنه فضلاً عن الصيام الأربعيني الكبير الذي يمارسه الناس الأتقياء كل سنة، اعتاد الصيام، على الخبز والماء، ثلاثة أيام على الأقل في الأسبوع؛ ولكنه كان يشرب الماء بلهفة وتلذذ شديدين، وخاصة عندما يكون مجهداً أو في رحلة حج. وكان يرغب أحياناً في أكل سلطة الخضار التي تصنعها النساء عندما يذهبن إلى الريف، وشعر في أحيان أخرى برغبة في أن يأكل أكثر مما يأكله من يمارسون الصوم بدافع الورع، مثلما هي حاله. فقال له الكاهن:

ـ هذه الخطايا يا ولدي عادية وبسيطة، ويجب ألا تثقل على ضميرك أكثر مما هي جديرة به. فأي إنسان، مهما بلغ ورعه، يشعر بعد الصوم بميل إلى الطعام والشراب.

ـ أبتاه! ـ قال السيد شابليتو ـ، لا تقل لي هذا لمواساتي، فأنا أعرف جيداً أن خدمة الرب يجب أن تؤدى بنزاهة، وألا تشوبها أية شائبة في النية، وإلا صارت خطيئة.

فقال الكاهن وهو منشرح الأسارير:

ـ لشد ما يبهجني أن تحصن روحك على هذا النحو، ويبهجني أكثر أسلوبك في الحفاظ على نقاء ضميرك وطهارته. ولكن أخبرني: هل ارتكبت خطيئة الجشع، فرغبت في أكثر مما هو مناسب، أو في امتلاك أكثر مما هو لك؟..

فجاء رد السيد شابليتو على ذلك بالقول:

ـ لا أريد يا أبتاه أن تسيء الظن بي في هذا الشأن، لأنك تراني في بيت هذين المرابيين. فليس لي ما أفعله هنا، وإنما جئت لأحذرهما، وأؤنبهما، وأنتزعهما من هذه التجارة المقيتة. وأظن أنني كنت سأتوصل إلى ذلك، لو لم يبلوني الرب. ولكن، لا بد لك أن تعرف أن والدي أورثني، عند موته، ثروة طائلة، وقد كرست القسم الأكبر منها للرب، ثم زاولتُ بعد ذلك، من أجل تأمين نفقات حياتي ومساعدة فقراء يسوع، بعض

أعمال التجارة الصغيرة؛ وكنت أرغب في الربح دائماً، وأتقاسم تلك الأرباح مع فقراء الرب، فأعطيهم النصف وأنفق النصف الآخر على حاجاتي الضرورية. وقد ساعدني خالقي كثيراً، فكانت أموري تمضي دائماً على ما يرام.

فقال الراهب:

ـ أحسنت صنعاً. ولكن، هل كنت كثير الغضب؟..

فرد السيد شابليتو:

ـ لقد وقع لي هذا الذي تقوله كثيراً. فمن ذا الذي يستطيع كظم غضبه وهو يرى الناس يفعلون أشياء غير لائقة، ودون أي اعتبار لشريعة الرب أو أي خوف من أحكامه؟.. كثيراً ما تمنيت أن أكون ميتاً وليس حياً، كي لا أرى الشبان يسعون إلى المعاصي، وأسمعهم يحلفون ويحنثون يمينهم، ويذهبون إلى الحانات، ولا يزورون الكنائس أبداً، ويفضلون دروب الدنيا على دروب الرب.

فقال له الراهب:

ـ هذا غضب مبارك وطيب يا بني، ولا يمكنني أن أفرض عليك كفارة عنها. ولكن، ربما دفعك الغضب إلى اقتراف خطيئة، أو التلفظ بإهانة ضد أحد، أو إلى سب الآخرين، أليس الأمر كذلك؟..

وكان رد السيد شابليتو على هذا بالقول:

ـ آه يا سيدي! أنت كما أرى رجل من رجال الله، فكيف يمكن لك أن تقول مثل هذا الكلام؟.... لو أنني فكرت مجرد تفكير في عمل شيء من هذه الأشياء التي تقولها، أوتظن أن الرب كان سيحفظني كل هذا الوقت؟.. تلك يا سيدي هي أفعال الحثالة والأشرار، وكنت كلما رأيت واحداً منهم أقول له: «امض في سبيلك وليهدك الله».

فقال الراهب:

ـ أخبرني إذن يا بني، وليباركك الرب، هل شهدت يوماً شهادة زور ضد أحد، أو اغتبت الآخرين، أو أخذت شيئاً دون إذن صاحبه؟..

ـ أجل، يا سيدي، لقد اغتبت أحدهم ـ أجاب السيد شابليتو ـ فقد كان لي جار،

وخلافاً لكل منطق، لم يكن يفعل شيئاً سوى ضرب زوجته. وفي أحد الأيام تكلمتُ عنه إلى أهل المرأة المنكوبة، وقد كانت تثير في نفسي الكثير من الشفقة.

فقال الراهب عندئذ:

ـ أخبرتني أنك كنت تاجراً. فهل غششت أحداً في يوم من الأيام، مثلما يفعل التجار؟..

ـ بصراحة ياسيدي، أجل ـ قال السيد شابليتو ـ ولكن دون أن أعرف من يكون، ففي أحد الأيام، دُفع لي ثمن قماش بعته، فوضعت النقود في علبة دون أن أعدّها، وبعد مرور شهر وجدت أربعة ريالات زائدة. ولأنني لم أعد أرى الرجل، بالرغم من احتفاظي بها سنة كاملة، لأردها إليه، تصدقت بها.

ـ إنه أمر ضئيل الأهمية، ولكنك أحسنت صنعاً بالتصدق بالنقود.

ثم سأله الكاهن عن أشياء كثيرة أخرى، وكان المريض يجيب عليها بصورة مشابهة. وعندما كان على وشك أن يمنحه الغفران، قال السيد شابليتو:

ـ هناك خطيئة يا سيدي لم أتكلم عنها بعد.

وسأله الكاهن عنها، فقال:

ـ أتذكر أنني في يوم سبت، وبعد قداس الثالثة، أمرت خادماً لي بكنس المنزل، ولم ألتزم بالاحترام المتوجب لقدسية يوم الأحد.

فقال الكاهن:

ـ هذا أمر تافه لا قيمة له.

ـ لا تَهون منه ـ ردّ السيد شابليتو ـ فيوم الأحد جدير بالتوقير، لأن سيدنا المسيح انبعث فيه.

فسأله الكاهن:

ـ وهل هناك شيء آخر فعلته؟..

فقال السيد شابليتو:

ـ في أحد الأيام، وفي لحظة سهو، بصقت في كنيسة الرب.

فابتسم الكاهن وقال:

ـ لا تقلق لهذا يا بني، فنحن رجال الدين نبصق هناك كل يوم.

ـ إنكم تقترفون بهذا خطيئة عظيمة، فليس هناك ما يجب الحفاظ على نظافته أكثر من المعبد المقدس، لأن قرابين الرب تقدم فيه.

وباختصار، ظل يتحدث طويلاً حول هذا الأمر وأمور أخرى مشابهة، ثم أخذ يتأوه ويبكي بحرقة، وهو ما كان قادراً على عمله متى شاء. فقال له الكاهن الطيب:

ـ ما الذي أصابك يا بني؟..

فردّ السيد شابليتو:

ـ آه يا سيدي، لقد اقترفت خطيئة لم أعترف بها قط، لأن خجلي منها كبيرا وحين أتذكرها أبكي خوفاً من أن الرب لن يرأف بي بسبب هذه الخطيئة.

فسأله الراهب الورع:

ـ عن أي خطيئة تتكلم يا بني؟.. رحمة الرب ولطفه كبيران؛ فحتى لو كانت كل الخطايا المقترفة، وكل خطايا الدنيا في رجل واحد، واعترف بها بالندم والتوبة اللذين أراهما فيك، فإن الرب سيغفرها. تكلم إذن وأنت مطمئن.

ودون أن يتوقف السيد شابليتو عن البكاء وذرف الدموع بحرقة، قال:

ـ آه يا أبت! خطيئتي كبيرة، ولا أظن أن الرب سيغفرها لي، ما لم تساعدني بصلواتك.

فقال له الكاهن:

ـ تكلم بكل اطمئنان، وأنا أعدك بأن أصلي من أجلك.

وظل السيد شابليتو يبكي، دون أن يتجرأ على الكلام؛ فراح الكاهن يشجعه كي يعترف. وبعد وقت لا بأس به من تكرار الكلام السابق نفسه، وبعد أن نفد صبر الكاهن، قال له الآخر:

ـ أما وقد وعدتني بالصلاة من أجلي، فسوف أخبرك. اعلم أنني في طفولتي الغضة،

سببت أمي.

وبعد أن قال هذا، عاد للبكاء بحرقة. فقال له الكاهن:

ـ أوترى هذه خطيئة عظيمة يا بني؟.. إذا كان الناس يسبون الرب في كل يوم، وهو يسامحهم، أوتظن أنه لن يسامحك على هذا؟.. لا تبكِ واطمئن، فلو كنتَ واحداً ممن صلبوا المسيح، فإنه سيغفر لك لما تبديه من الندم.

فقال السيد شابليتو عندئذ:

ـ ماذا تقول يا أبتاه؟.. أنا أرى أعظم الخطايا في سب أمي التي حملتني في بطنها تسعة شهور، ليل نهار، وإذا أنت لم تتوسل إلى الرب من أجلي، فأظن أنني لن أجد المغفرة.

أدرك الكاهن أن السيد شابليتو قد قال كل ما لديه، واستعد لمنحه الغفران، معتقداً أنه إنما يفعل ذلك لرجل قديس وطاهر. ومن الذي لن يظن ذلك، وهو يرى رجلاً يتكلم بهذه الطريقة في لحظة الموت؟.. وعندما انتهى كل شيء قال له:

ـ يا سيد شابليتو، بعون الله ستشفى عما قريب، أما إذا ما استدعى الرب روحك الطاهرة والمباركة إليه، فهل يرضيك أن يُدفن جسدك في ديرنا؟..

ـ أجل يا سيدي، لستُ أرغب في أن أُدفن في مكان آخر، لأنك وعدتني بأن تصلي للرب من أجلي؛ ثم إنني كنت طوال حياتي أكنّ احتراماً خاصاً لمذهبكم. وأرجو منك، فور وصولك إلى الدير، أن ترسل لي خبز القربان الذي تباركونه كل صباح على المذبح، لأنني أرغب، وإن كنت لا أستحق ذلك، في أن أتلقاه في لحظة المسح الأخيرة المقدسة، كي أموت مسيحياً، بعد أن عشت حياتي فاسقاً.

فرد عليه رجل الدين الورع بأنه سيرسله إليه بكل سرور، وأنه سيحقق له كل ما يرغب فيه.

أما الأخوان المرابيان اللذان كانا يخشيان أن يخدعهما شابليتو، فكانا يقفان وراء حائط رقيق بجوار غرفته، كي يسمعا حديثه مع الكاهن. وبينما هما يسمعان هذه الأمور، وجدا صعوبة في كبح ضحكهما؛ وتبادلا التعليقات بصوت خافت قائلين: «أي نوع من البشر هذا الرجل؟.. فلا كبر السن، ولا المرض، ولا رهبة الموت، ولا الخوف من الرب

الذي سيتلقى حكمه بعد وقت قصير، تمكنت من إبعاده عن الخبث، ولم تدفعه إلى الندم على ما فعله في حياته». ولكنهما حين سمعا أنه سيُدفن في الدير، لم يعد يهمهما أي شيء.

وبعد بعض الوقت، وكان شابليتو قد تناول خبز القربان، راحت حالته تتردى، فتلقى المسحة الأخيرة ومات عند غروب اليوم نفسه. هيأ الأخوان كل ما يلزم من أجل دفنه بتكريم، مثلما هو مقرر؛ وأرسلا إلى الرهبان يطلبون منهم المجيء للسهر على الميت خلال الليل، وليحملوا جثمانه إلى الدير في الصباح كما هي العادة.

وحين علم الكاهن الورع الذي تلقى اعترافه بموته، توجه إلى رئيس الدير، ثم تكلم إلى الرهبان الآخرين عن أن السيد شابليتو كان رجلاً قديساً، بالنظر إلى الاعتراف الذي قدمه. وأنه يأمل أن يحقق، بفضل الله، معجزات كثيرة. وألح على رئيس الدير كي يُستقبل بتكريم واحترام كبيرين. فوافق رئيس الدير والكهنة جميعهم على ذلك. وفي الليل، ذهبوا جميعاً إلى حيث يسجى جثمانه، فسهروا عليه بأبهة عظيمة. وفي الصباح، ارتدوا غفارات بيضاء وقلنسوات احتفالية، وحملوا الكتب المقدسة في أيديهم، ورفعوا الصليب، وحملوه في طقوس مهيبة إلى الكنيسة. صعد الكاهن الطيب الذي تلقى اعترافه إلى المنبر، وتكلم عن حياة السيد شابليتو، عن صيامه، وعن عذريته، وعن براءته وبساطته. وقال فيما قاله، إن السيد شابليتو قد اعترف، وهو يبكي، بما اعتبره خطيئته الكبرى، وأنه تكلف هو نفسه مشقة في إقناعه بأن الرب سيغفر له. بعد هذا كله التفت إلى جمهور المستمعين، وأنبهم قائلاً:

- أما أنتم بالمقابل، أيها الملعونون من الله، فإنكم إذا ما تعثرتم بحزمة قش، انهلتم بالسباب على المسيح وأمه، وعلى أهل البلاط السماوي قاطبة.

واسترسل في قول أشياء كثيرة عن طيبة المتوفى، وعن طهارته، فأثر ذلك كله في عقول أهل المنطقة. وما إن انتهت خطبته، حتى تقدموا بكل احترام لتقبيل قدمي الميت ويديه؛ وانتُزعت ملابسه وكل واحد منهم يأمل بنتفة منها للتبرك بها. وظل الجثمان مسجى طول النهار، كي يتمكن الجميع من رؤيته وزيارته. ثم دُفن في الليل، وسط تكريم كبير، في مدفن من الرخام داخل الكنيسة. وفي اليوم التالي، بدأ الناس بالتوافد، وصاروا يشعلون الشموع لتوقيره، ويقدمون له النذور لتحقيق رغباتهم. تنامت شهرة قداسته

إلى حدّ أن كل من وجد نفسه في ضائقة، كان يلجأ إليه قبل التوجه إلى أي قديس آخر، ومازال يسمى حتى اليوم القديس شابليتو. ويقال إن الرب حقق من خلاله معجزات كثيرة، وما زال يحققها لمن يطلبها منه بورع.

هذه هي قصة حياة وموت القديس شابليتو دي براتو، وهذه هي الطريقة التي وصل بها إلى القداسة. لا أريد أن أنكر احتمال أن يكون طوباوياً ينعم بسعادة البقاء في حضرة الرب، لأنه مهما بلغ خبثه وشره في حياته، قد يكون أحس بالندم في اللحظة الأخيرة، فغفر الرب له وأدخله في ملكوته. ولكن انعدام الدليل، وبالنظر إلى ظواهر الأمور، فإنني أقول إن الضياع كان أجدر بهذا الميت، وأن يكون مصيره بين يدي الشيطان، وليس في الفردوس. غير أن رحمة الله بنا واسعة، وهو لا ينظر إلى أخطائنا، وإنما إلى نقاء إيماننا، وقد أراد أن يجعل من عدوه شفيعاً لنا، وأن يعتبره صديقاً له. ولهذا، ونحن نعيش سالمين معافين، في المحنة الحالية، ووسط رفقة بهيجة، نبتهل إلى اسمه المقدس الذي بدأنا به هذه القصة، وأطلب أن نوقره ونتوجه إليه بالصلاة لتلبية حاجاتنا، واثقين من أنه يصغي إلينا.

وهنا صمت بانفيلو.

القصة الثانية

اليهودي أبراهام، وبتحريض من جيانوتو دي سيفيغني، يذهب إلى بلاط روما، وحين يرى خبث الكهنة، يعود إلى باريس ويتحول إلى النصرانية.

قوبلت قصة بانفيلو بضحك الجميع، وإطراء النساء. وعند انتهاء القصة، توجهت الملكة التي استمعت إليها، إلى نيفليه، وكانت تجلس على جانب الراوي، وأمرتها بأن تروي شيئاً بدورها، وفق ترتيب التسلية التي بدأت. فأجابت نيفيله بسعادة، وبلباقة لا تقل عن جمالها، إنها ستفعل بطيب خاطر، وبدأت على النحو التالي:

ـ لقد بيّن لنا بانفيلو في قصته مدى رحمة الرب وأريحيته في غفران خطايانا، وأنا أحاول أن أبين في قصتي كم تتحمل هذه الأريحية نفسها بصبر، نقائص وعيوب أولئك الذين عليهم، بأقوالهم وأفعالهم، أن يقدموا عنها شهادة صادقة. ولكنهم يفعلون العكس، فيقدمون لنا بذلك حجة مؤكدة تزيد الإيمان رسوخاً في نفوسنا.

سمعت فيما سمعت يا صديقاتي العزيزات، أنه كان في باريس تاجر كبير وصالح، يدعى جيانوتو دي سيفيغني. وهو رجل مخلص ومستقيم، يتاجر بالأقمشة. وكان على صداقة مع ثري يهودي يدعى أبراهام، وهو تاجر أيضاً ورجل مخلص وصالح. وكان جيانوتو يلحظ ذلك الوفاء وتلك الاستقامة، ويتألم لأجله لأن مصير روحه سيكون الضياع، لأنه على غير الدين المسيحي. فقرر أن يتوسل إليه بمودة كي يتخلى عن خطل ديانته اليهودية ويتحول إلى الحقيقة المسيحية. فرد عليه اليهودي إنه لا يرى ديانة مقدسة وصالحة مثل اليهودية. وبما أنه ولد عليها، فإنه مصمم أن يموت عليها أيضاً. وبعد مرور عدة أيام، عاد جيانوتو للتحدث إليه بكلامه وحججه كتاجر، مضيفاً إن ديانتنا أفضل من اليهودية. ومع أن اليهودي كان معلماً كبيراً في الديانة اليهودية، فقد أثرت فيه صداقته الحميمة لجيانوتو، أو ربما أثرت فيه الكلمات المقنعة التي يضعها الروح القدس على لسان شخص بسيط، فبدأ أبراهام يستحسن كلمات جيانوتو ويهتم بها. ولكنه كان متمسكاً في الحقيقة بديانته، ولا يرغب في التخلي عنها. لكن جيانوتو لم يكن يتوقف عن مسعاه، وظل يلح باستمرار إلى أن اقتنع اليهودي، في نهاية المطاف، من كثرة الإلحاح، وقال له:

ـ انظر يا جيانوتو، أنت تريد لي أن أتحول إلى المسيحية، وقد قررت إرضاءك؛ ورغبتُ في ذلك إلى حدّ أنني أود الذهاب إلى روما، هناك حيث الذي تسميه أنت نائب الرب على الأرض، لكي أدرس أساليبه وعاداته، وأساليب وعادات أخوته الكرادلة. فإذا ما اقتنعتُ بها، فإنه قد يتاح لي، مع شروحاتك، أن أتوصل إلى أن ديانتكم أفضل من دیانتي، مثلما حاولت أن تبين لي، وسأفعل ما وعدتك به. أما إذا حدث العكس، فسأبقى يهودياً، مثلما أنا حتى الآن.

حين سمع جيانوتو هذا الكلام، أحس بحزن شديد، وقال لنفسه: «لقد ضاع سدى كل ما بذلته من جهود، وكنت أظن أنني قد نصَّرته؛ لأنه إذا ما ذهب إلى روما، ورأى حياة المجون والكفر التي يعيشها رجال الكنيسة، فلن يتوقف عند عدم التحول إلى

النصرانية وحسب، بل سيتحول إلى اليهودية لو كان نصرانياً». ثم التفت إلى أبراهام وقال له:

ـ ولماذا يا صديقي تريد أن تتعب نفسك كثيراً، ناهيك عن النفقات التي ستتحملها من أجل الذهاب إلى روما؟.. وهناك في البر والبحر، فوق ذلك، مخاطر كبيرة على رجل ثري مثلك. ألا ترى أنك ستجد هنا من يعمدك؟.. وإذا كانت تواجهك بعض الشكوك في الديانة التي أعرضها عليك، فهل ستجد حكماء ومعلمين أكبر ممن هم هنا، يستطيعون أن يوضحوا لك كل ما تريده وما تسأل عنه؟.. لهذه الأسباب كلها، يبدو لي أن سفرك إلى روما لا لزوم له وغير مناسب. فأحبار الكنيسة هناك هم مثل من رأيتهم هنا، بل إن هؤلاء أفضل منهم، بالرغم من أن أولئك أقرب من الراعي الرئيسي. أنصحك بأن تتجنب هذه المشقة التي يمكن لك أن تتجشمها فيما بعد لنيل غفران ما، وربما سأتمكن أنا من مرافقتك حينذاك.

فردّ عليه اليهودي:

ـ أظن أن الأمر هو ما تقوله يا جيانوتو، ولكن إذا أردت لي أن أفعل ما طلبته مني، فإنني مصمم على الذهاب؛ أما بغير ذلك فلن أتحول إلى النصرانية.

وحين رأى جيانوتو أنه لا يستطيع عمل شيء، لأن إرادة صديقه كانت راسخة، قال له:

ـ فلترافقك السلامة.

وفكر في أن أبراهام لن يتنصر أبداً بعد أن يرى بلاط روما. وحيث أنه لن يخسر شيئاً من ذلك، فقد تركه يذهب.

امتطى اليهودي جواداً، ومضى بأسرع ما يمكن إلى بلاط روما، حيث استقبله يهود تلك المدينة بالحفاوة والتكريم. وبينما هو هناك، دون أن يدري أحد سبب مجيئه، بدأ يراقب بحذر وانتباه سلوك البابا، والكرادلة، والأحبار وحاشية البلاط البابوي كلها. وقد لاحظ على الفور، باعتباره رجلاً نبيهاً، فضلاً عن أشياء أخرى رويت له، أن الجميع هناك، من الكبير إلى الصغير، يرتكبون المعاصي دون حياء. ويُقدمون على خطايا فاحشة، ليس بالطرق الطبيعية وحدها، وإنما بأساليب اللواط أيضاً؛ دون كابح من ضمير أو حياء، إلى

حد أنه لا يمكن الحصول على شيء دون الاستعانة بما للبغايا والغلمان من نفوذ واسع. وعرف بجلاء أيضاً أن الجميع يحبون الأكل والشراب بشراهة، وأنهم سكيرون، يهتمون ببطونهم أكثر من البهائم العجمة. وكلما ازداد تعمقاً، وجدهم أكثر جشعاً وتلهفاً للمال، حتى إنهم يبيعون بالمال دم البشر، وحتى الدم المسيحي، ويتاجرون بالمقدسات وبكل ما له علاقة بالقرابين والغفران، فيبيعونها ويشترونها بالمال، ويعقدون صفقات تجارية ويحققون أرباحاً لا يمكن تحقيق مثلها في باريس من تجارة الأجواخ أو أي تجارة أخرى. وقد أطلقوا على المتاجرة السافرة بالمقدسات تسمية «التوسط» وأطلقوا على الشراهة تسمية «إقامة الأود»، كما لو أن الرب، بصرف النظر عن معنى الكلمات، لا يعرف خبث نواياهم، وأنه يسمح بأن يُخدع، مثل البشر، بتسميات الأشياء.

هذه الأمور كلها، فضلاً عن أشياء أخرى يستحسن الصمت عنها، أغضبت اليهودي كثيراً، لأنه قنوع ومتواضع؛ وبدا له أنه قد عرف الكثير، فقرر العودة إلى باريس. وكان هذا ما فعله. وعندما علم جيانوتو بوصوله، ذهب مسرعاً لزيارته، وإن كان آخر ما ينتظره هو تحوله إلى النصرانية. وبعد أن استراح أبراهام بضعة أيام، سأله جيانوتو عن رأيه بالأب المقدس، والكرادلة، وغيرهم من الحاشية البابوية. فأجابه اليهودي على الفور:

ـ لعنة الله عليهم جميعاً! وأقول لك إنني، إذا لم أكن مخطئاً، لم أجد هناك أي نوع من القداسة أو العمل الصالح أو المثال في الحياة، أو أي شيء آخر، في أي واحد من الكهنة. أما الشبق، والجشع، والشراهة وأشياء أخرى مماثلة أو أسوأ، إذا كان هناك ما هو أسوأ، فبدت لي موجودة بوفرة بين أولئك الناس جميعهم، حتى إنني وجدت ذلك المكان أقرب لأن يكون مقراً للأعمال الشيطانية وليس الإلهية. ويبدو لي أن راعيكم، والآخرين جميعهم، يعملون جاهدين بكل اهتمام، وكل فن، وكل ذكاء، من أجل القضاء على ديانتكم المسيحية، بينما الواجب يقتضي منهم أن يكونوا أساساً ودعامة لها. ولكنني حين أرى أن ديانتكم، بالرغم من ذلك كله، تزداد تعاظماً، وتصبح أكثر صفاء ووضوحاً، فإنه يبدو لي بحق أن الروح القدس هو أساس ودعامة هذه الديانة، وأنها أكثر قداسة وجلالاً من غيرها. ولهذا، إذا كنت قد حافظت في ما مضى على تشددي وتمنعي حيال دعواتك، ولم أشأ التحول إلى النصرانية، فإنني أخبرك الآن بكل صراحة بأنني لن أتخلى عن التحول إلى النصرانية مقابل أي شيء في الدنيا. فهلم بنا إذن إلى الكنيسة،

ليجري تعميدي هناك مثلما هي العادة في دينكم.

حين سمعه جيانوتو يقول ذلك، وهو الذي كان ينتظر نتيجةً مخالفة تماماً، غمرته سعادة لم يعرف بشرٌ مثلها قط. وذهب مع صديقه إلى كنيسة نوتردام دي باريس، وطلب من الكهنة أن يعمدوا أبراهام؛ فسارعوا إلى تلبية طلبه. وأخرج له جيانوتو من قائمة الأسماء المسيحية اسم جيوفاني. وقام الكثير من الرجال الأتقياء بتعليمه أصول الديانة، فتعلمها جيوفاني بسرعة كبيرة، وصار رجلاً صالحاً، جديراً بحياة الورع والتقوى.

القصة الثالثة

يروي اليهودي ميلكياديس قصة ثلاثة خواتم، ينجو بفضلها من شرك خطر نصبه له السلطان.

أطرى الجميع على قصة نيفليه، وعندما انتهت منها، بدأت فيلومينا الكلام، بإذن من الملكة، كما يلي:

ـ قصة نيفليه ذكرتني بوضع حرج تعرض له يهودي منذ زمن طويل.

لقد قيل الكثير عن الرب وعن صحة ديانتنا، ولن يضيرنا النزول الآن إلى أحوال وأفعال البشر كما هي في قصة ربما تجعلكم، بعد أن تسمعوها، أشد حذراً في إجاباتكم على الأسئلة التي توجه إليكم.

يجب أن تعرفن، يا صديقاتي اللطيفات، أن الحماقة التي لا توصل أبداً إلى ما هو ملائم وسعيد، قد تعرّض كثيرين لبؤس شديد، وهو أمر أكدته التجارب مراراً وتكراراً؛ وإن كان المقام لا يسمح لنا بذكرها كلها، لأن ألف مثل منها يتبدى في كل يوم. ولكن أن يكون الحذر هو الخلاص، مثلما قلت لكنّ، سأثبته بإيجاز في هذه الحكاية القصيرة.

صلاح الدين الذي رفعته شجاعته من رجل عادي ليصير سلطان بابل، وأحرز انتصارات كثيرة على ملوك المسلمين والمسيحيين، أنفق ما في خزائنه على حروبه الكثيرة

وبذخه الواسع. واحتاج في أحد الأيام إلى مقدار كبير من المال، ولم يجد طريقة للحصول على المال بالسرعة التي تستدعيها حاجته إليه. فخطر لباله يهودي يدعى ميلكياديس، يُقرض المال بالربا في الإسكندرية. ولكنه كان شديد البخل، لا يمكن له أن يقرض صلاح الدين المال برضاه؛ ولم يكن السلطان راغباً في إكراهه على ذلك. لكنه بدافع الحاجة، فكر في طريقة يتمكن بها من جعل اليهودي يلبي طلبه. فخطر له أن يجبره على تلبية طلبه بذريعة مقبولة في الظاهر. فأرسل يستدعيه، واستقبله بمودة، وأجلسه معه، وقال له:

ـ بلغني من أناس كثيرين، أيها الرجل الطيب، أنك حكيم واسع المعرفة، وأنك متعمق في دراسة الأمور الإلهية؛ ولهذا أريد أن أعرف ما هي الديانة الحقيقية في رأيك: اليهودية أم المسيحية أم الإسلام؟..

وكان اليهودي رجلاً حكيماً بالفعل، فأدرك جيداً أن صلاح الدين يريد أخذه بكلامه ليحصل منه على شيء. وفكر في أنه إذا ما امتدح أياً من الديانات الثلاث، فإن صلاح الدين سيُظهر له خطأه وينال منه. ولأنه لا بد له من تقديم إجابة ما، فقد شحذ ذهنه إلى أن خطر له الجواب التالي:

ـ مولاي، إنه لسؤال في غاية الأهمية هذا الذي وجهتموه، ولكي أجيب عليه لا بد لي من أروي لكم هذه الحكاية القصيرة: أتذكر أنني سمعتُ كلاماً كثيراً، إذا لم أكن مخطئاً، عن رجل واسع النفوذ والثراء، وكان بين جواهره النفيسة خاتم لا تقدر قيمته بثمن. فأراد أن يكرم ذلك الخاتم بما تستحقه قيمته، وأن يخلفه لذريته. وقرر أن يرث الخاتم الابن الذي يكون الخاتم بحوزته، عند موته. وأن يعتبر هذا الابن وريث الأب الذي يتوجب على الأبناء الآخرين احترامه وتوقيره. وقد حافظ من ورثه على النظام نفسه الذي اتبعه أبوه. وباختصار، ظل الخاتم يتنقل من يد إلى يد، حتى وقع أخيراً في يد رجل له ثلاثة أبناء مهذبين وصالحين، ومطيعين جداً لأبيهم في الوقت نفسه؛ فكان الأب يحب الثلاثة على قدم المساواة. وكان كل واحد من الشبان الثلاثة، العارفين بقصة الخاتم، يرغب في البروز بمزاياه على الآخرين، ويطلب من أبيه العجوز أن يورثه الخاتم بعد موته. ولم يستطع الأب المحب أن يختار واحداً منهم يترك له تلك الحلية. ولأنه كان قد وعد كل واحد منهم بذلك الخاتم، فقد قرر إرضاء الثلاثة. وهكذا كلف، في السر، صائغاً ماهراً بصنع نسختين أخريين متقنتين من الخاتم. فكان الخاتمان الجديدان شبيهين بالأول إلى حد لا يمكن معه لمن صنعهما أن يميزهما عنه. وعندما أحس الأب بدنو أجله، سلّم خاتماً لكل

واحد من أبنائه الثلاثة، على انفراد. وبعد موت الأب، أراد كل واحد من الأبناء الاستحواذ على الميراث والشرف كله. وفي أثناء جدالهم، أظهر كلٌ منهم خاتمه، ليُثبت أنه صاحب الاستحقاق. فكانت الخواتم الثلاثة متشابهة، لا يمكن التمييز بينها ومعرفة أيها الحقيقي، وقد ظلت قضية الخاتم الحقيقي معلقة، ومازالت معلقة حتى اليوم. لهذا أقول لكم يا مولاي، بشأن المسألة التي طرحتها عليّ، عن الأديان الثلاثة التي أنزلها الله على الشعوب الثلاثة، بأن كل واحد تلقى ميراثه وشريعته الحقيقية، وعليه الالتزام بتنفيذ تعاليمها؛ لكن القضية لا تزال معلقة، مثلما هي الحال في مسألة الخواتم الثلاثة.

فهم صلاح الدين جيداً تهرب ذلك الرجل من الشرك الذي نُصب له، وقرر أن يطلعه بصورة سافرة على طلبه، ويعرف منه إذا ما كان راغباً في خدمته. وقد فعل ذلك، وكاشفه بما كان ينوي فعله لو لم يجبه إجابة مناسبة. فوافق اليهودي على أن يقدم لصلاح الدين ما يريد، وقد ردّ إليه صلاح الدين دينه في ما بعد، وأضاف إليه هدايا وعطايا كثيرة، واعتبره صديقاً له على الدوام.

القصة الرابعة

ارتكب كاهن خطيئة يستحق عليها عقاباً صارماً، ولكنه نجا من العقاب بحيلة ماكرة، ووبخ رئيس الدير محملاً إياه وزر الخطيئة نفسها.

صمتت فيلومينا بعد أن فرغت من قصتها. ولم ينتظر ديونيو، وكان إلى جوارها، صدور أمر الملكة له، إذ كان يعرف أن دوره في الكلام قد جاء، حسب الترتيب المتفق عليه، فبدأ بالقول:

- سيداتي اللطيفات، لقد فهمت أن نيتكن جميعاً هي أننا هنا لنبتهج ونمتع أنفسنا برواية القصص. ولأنني أرى - ما لم تجر مخالفة هذا الأمر - أنه يتوجب السماح لكل واحد منا، مثلما قالت ملكتنا منذ قليل، أن يروي ما يرى أنه أكثر متعة. لهذا السبب، وبعد أن سمعنا كيف خلّص أبراهام روحه بفضل نصائح جيانوتو دي سيفغيني. وكيف صان

ميلكيـاديس ثروتـه، بحكمتـه وحذره، مـن أحابيـل صـلاح الـدين؛ فـإنني أنـوي أن أروي، بإيجاز، قصة عن الفطنة التي أنقذ بها راهب شاب جسده من عقوبة قاسية.

كـان هنـاك فـي لونجيانـا، وهـي قريـة قريبـة مـن هـذا المكـان، ديـر يعـج بالرهبـان وبالقداسة أكثر مما هـو عليـه الآن. وكـان بين الكهنـة راهـب شـاب، لم يستطع التقشفُ والصيامُ والسهر أن يخمد طاقاته. وفـي أحـد الأيـام، عنـد الظهيرة، بينمـا الرهبـان الآخـرون ينامون القيلولة جميعهم، خرج وحيداً إلى محيط الكنيسة ـ وكـانت فـي موقـع منعـزل ـ، فالتقى بفتاة على قدر من الجمال، هي دون ريب ابنة فلاح من تلك المنطقة، تمضي بحثاً عن أعشاب. وقد أثار مـرأى الفتـاة شـهوة الجسد فـي الراهـب الشـاب، فـاقترب منهـا وبـدأ معهـا حديثاً. ومن كلمة إلى كلمة، توصلا إلى الاتفاق بأن تذهب الفتاة إلى حجرة الراهـب، وهـو ما تحقق دون أن يلحظه أحد. وبينما الراهب مسلوب الإرادة فـي استسـلامه لشهوته المفرطة، يطارح الفتاة الهوى بسعادة، حدث أن نهض رئيس الدير من نومـه، ولـدى مـروره أمـام حجـرة الراهـب، سمـع الجلبـة الـتي يثيرهـا الشـابان. ولكـي يعـرف مـا الـذي يجـري بصـورة أفضـل، اقـترب مـن البـاب متنـصتاً، وتأكـد تمامـاً مـن أن هنـاك امـرأة فـي الـداخل. تـردد فـي أن يأمرهمـا بفـتح البـاب؛ لكنـه فكـر جيـداً، ورجـع إلى حجرتـه بانتظـار أن يخرجـا. ومـع أن الراهب الشاب كـان مشغولاً بمتع عظيمة وبمفاتن الفتاة، إلا أنه ظل قلقاً، وبدا له أنه سمع وقع أقدام فـي الممر. وحين نظر من ثقب القفل، رأى رئيس الدير يتنصت، وأدرك فـي الحـال أن رئيسه قد كشف أمره وعرف بالتأكيد أن ثمة امرأة فـي الـداخل. ولأنـه يعـرف مـا الـذي يمكن أن ينتج عن عمله ذاك، أحس بقلق عميق، وفكر فـي نفسه طويلاً وبأشياء كثيرة، لعله يجد حلاً. وتوصل أخيراً إلى حيلـة بـدت لـه مناسبة لإيصاله إلى النهاية المنشودة. فتوجـه إلى الشابة، متظاهراً بأنه قد أمضى معها وقتاً طويلاً، وقال لها:

ـ سأفكر فـي طريقة لإخراجك دون أن يراكِ أحد. فانتظري هنا إلى أن أعود.

خـرج، وأقفـل البـاب بالمفتـاح، وذهـب مباشـرة إلى حجـرة رئيـس الديـر، فسلمه المفتـاح مثلما هي العادة فـي الدير، وقال له بوجه بشوش:

ـ سيدي، لم أستطع صباح هذا اليوم أن أجلب كل الحطب الذي قطعته، وأريد ـ بعد إذنكم ـ أن أذهب إلى الغابة لجلبه.

ولكـي يتأكـد رئيس الدير، بصورة أفضل، من الخطيئـة الـتي اقترفهـا الراهـب، دون

أن يُبدي أنه عارف بالأمر، ابتهج لهذه الفرصة؛ فأخذ المفتاح بسعادة، ومنحه الإذن بالذهاب. وعندما رآه ينصرف، بدأ يفكر في أفضل ما يمكنه عمله. لكنه تردد بين أن يفتح الحجرة بحضور الرهبان جميعهم، ويكشف الخطيئة أمامهم، بحيث لا تتاح للراهب الخاطئ فرصة التقول عليه عندما يعاقبه؛ أو أن يذهب ويستفسر من الفتاة كيف حدث الأمر. وفكر أيضاً في أن الفتاة قد تكون ابنة أحد معارفه، وهو لا يريد في مثل هذه الحالة أن يُلحق بها عار عرضها على الرهبان جميعاً. ولهذا كله، قرر أخيراً أن يتبين من هي، ثم يقرر ما سيفعله بعد ذلك. انسل بحذر إلى الحجرة، وأغلق الباب. حين رأت الفتاة رئيس الدير، أصابها الهلع، وراحت تبكي من الخوف والخجل. تأملها رئيس الدير ووجد أنها جميلة ومفعمة بالحيوية والنضارة، وبالرغم من أنه عجوز كبير السن، إلا أنه أحس برغبة جسدية لا تقل تأججاً عن شهوة الراهب الشاب، فقال لنفسه: «لماذا لا أمتع نفسي أنا أيضاً بهذه المتعة التي وجدتها؟.. هذه فتاة جميلة، ولا أحد يعرف أنها موجودة هنا؛ ويمكن لي أن أقنعها بأن تقدم لي المتعة. فلماذا لا افعل؟.. ومن سيعلم بالأمر؟.. لا أحد. والخطيئة المكتومة، كما يقال، نصف مغفورة. وربما لن يتاح لي، إلى الأبد، أن أجد نفسي في وضع مشابه. ويبدو لي أنه من الحكمة أن أنعم بالخير الذي وفره لي الرب إلهنا.» وبعد قوله هذا، وتحوله تماماً عن الهدف الذي جاء به إلى هناك، اقترب من الشابة، وراح يواسيها بعذوبة ويطلب منها عدم البكاء. وبكلمة بعد كلمة، انتهى به الأمر إلى أن يعرض عليها رغبته. والفتاة التي لم تكن من حديد ولا الماس، استجابت بسهولة لرغبة رئيس الدير وملذته، فعانقها وقبّلها مراراً. ثم صعد أخيراً إلى فراش الراهب، وربما لأنه فكر في ثقل منصبه الخطير، أو ربما لأنه فكر في طراوة عمر الفتاة، ولخشيته من أن يسبب لها الأذى بضخامة وقاره، قرر ألا يمتطي صدرها، وإنما جعلها هي تمتطيه، واستمتع لوقت طويل بالصبية.

وفي أثناء ذلك، كان الراهب الشاب الذي تظاهر بالذهاب إلى الغابة، قد اختبأ في الممر، ورأى رئيس الدير يدخل الحجرة. فاطمأن حين رأى أن خطته تعطي مفعولها المنشود، وتأكد من ذلك حين أُقفل الباب من الداخل. فخرج من مخبئه ودنا بحذر من الباب، ونظر من الثقب؛ فرأى وسمع ما كان رئيس الدير يقوله ويفعله. وعندما اكتفى رئيس الدير بما أصابه من متعة مع الفتاة، تركها في الحجرة، ورجع إلى غرفته، وظل هناك وقتاً طويلاً ينتظر عودة الراهب. وحين جاء هذا، قرر رئيس الدير أن يوبخه بقسوة ويعاقبه، كي

يتمكن من الاستحواذ على الضحية المرغوبة وحده. فاستدعاه بوجه غاضب وصارم وأنبه وأراد أخذه إلى المحبس. فقال له الراهب:

ـ سيدي، لم يمض عليّ زمن طويل بعد في نظام رهبنة القديس بينيتو، ولم يُتح لي تعلّم كل أصول هذا النظام وقواعده، وحضرتك لم تعلّمني بعد أنه على الرهبان أن يعاملوا النساء بكل هذا التوقير والإجلال الذي يتعاملون به مع صومهم وعباداتهم. ولكنني أعاهدك الآن، بعد أن بيَّنت لي الطريقة، ألا أعود إلى مثل هذا الخطأ أبداً إن أنت سامحتني، وسأفعل ذلك دوماً مثلما رأيتك تفعله.

وكان رئيس الدير رجلاً ذكياً وفطناً، فأدرك أن الراهب قد علم بكل ما جرى، وأنه قد رآه أيضاً وراقبه، فخجل من خطيئته، ولم يعاقب الراهب. فعفا عنه، وأمره بالسكوت عن كل ما جرى، وتعاونا كلاهما على إخراج الفتاة من الدير بتكتم. ولا بد من الظن بأنهما قد جاءا بها مرات عديدة أخرى فيما بعد.

القصة الخامسة

كيف استطاعت مركيزة مونفيراتو، بمأدبة قوامها لحم الدجاج، وبضع كلمات ذكية، أن تكبح حب ملك فرنسا المجنون.

خدشت قصة ديونيو بشيء من الحياء قلوب المستمعات، وتبدى ذلك في حمرة الخجل العفيف في خدودهن. وبينما هن ينظرن إلى وجوه بعضهن، استطعن بصعوبة أن يكبحن ضحكهن، واستمعن إليها مبتسمات. وعند انتهاء القصة، وبعد أن أنبت الملكة الراوي ببضع كلمات رقيقة، لتبين له أنه من غير اللائق رواية مثل هذه القصص بحضور نساء شابات، توجهت إلى فياميتا، وكانت تجلس على العشب إلى جانب ديونيو، وأمرتها بأن تواصل القص حسب الترتيب المقرر، فبدأت هذه بلطف وبوجه باسم، وهي تنظر إليها:

ـ يسعدني أننا أثبتنا بقصصنا مدى قوة الإجابات الذكية والسريعة، ولإدراكي أن الرجال العاقلين يختارون نساء أرفع منهم مقاماً، وأن النساء راجحات العقل، بالمقابل،

يتمكن من الاستحواذ على الضحية المرغوبة وحده. فاستدعاه بوجه غاضب وصارم وأنبه وأراد أخذه إلى المحبس. فقال له الراهب:

ـ سيدي، لم يمض عليّ زمن طويل بعد في نظام رهبنة القديس بينيتو، ولم يُتح لي تعلّم كل أصول هذا النظام وقواعده، وحضرتك لم تعلّمني بعد أنه على الرهبان أن يعاملوا النساء بكل هذا التوقير والإجلال الذي يتعاملون به مع صومهم وعباداتهم. ولكنني أعاهدك الآن، بعد أن بيَّنت لي الطريقة، ألا أعود إلى مثل هذا الخطأ أبداً إن أنت سامحتني، وسأفعل ذلك دوماً مثلما رأيتك تفعله.

وكان رئيس الدير رجلاً ذكياً وفطناً، فأدرك أن الراهب قد علم بكل ما جرى، وأنه قد رآه أيضاً وراقبه، فخجل من خطيئته، ولم يعاقب الراهب. فعفا عنه، وأمره بالسكوت عن كل ما جرى، وتعاونا كلاهما على إخراج الفتاة من الدير بتكتم. ولا بد من الظن بأنهما قد جاءا بها مرات عديدة أخرى فيما بعد.

القصة الخامسة

كيف استطاعت مركيزة مونفيراتو، بمأدبة قوامها لحم الدجاج، وبضع كلمات ذكية، أن تكبح حب ملك فرنسا المجنون.

خدشت قصة ديونيو بشيء من الحياء قلوب المستمعات، وتبدى ذلك في حمرة الخجل العفيف في خدودهن. وبينما هن ينظرن إلى وجوه بعضهن، استطعن بصعوبة أن يكبحن ضحكهن، واستمعن إليها مبتسمات. وعند انتهاء القصة، وبعد أن أنبت الملكة الراوي ببضع كلمات رقيقة، لتبين له أنه من غير اللائق رواية مثل هذه القصص بحضور نساء شابات، توجهت إلى فياميتا، وكانت تجلس على العشب إلى جانب ديونيو، وأمرتها بأن تواصل القص حسب الترتيب المقرر، فبدأت هذه بلطف وبوجه باسم، وهي تنظر إليها:

ـ يسعدني أننا أثبتنا بقصصنا مدى قوة الإجابات الذكية والسريعة، ولإدراكي أن الرجال العاقلين يختارون نساء أرفع منهم مقاماً، وأن النساء راجحات العقل، بالمقابل،

يتوخين الحذر كيلا يستسلمن لرجال أرفع منهن مكانة، فإنني راغبة في أن أثبت لكنَّ، يا صديقاتي، في القصة التي سأرويها، كيف أمكن لامرأة رفيعة النسب أن تحمي نفسها بكلماتها وسلوكها، وتتجنب أموراً أخرى.

كان مركيز مونفيراتو رجلاً تُمتدح شجاعته، يحمل لواء الكنيسة، وكان قد انتقل إلى ما وراء البحر، في حملة شاملة شنها المسيحيون بالسلاح. وكان الحديث يدور عن شجاعته في بلاط ملك فرنسا، فيليب الأعور[1]، الذي كان يستعد بدوره للالتحاق، من فرنسا، بتلك الحملة نفسها، فقال أحد السادة إنه لا وجود تحت النجوم لزوجين مثل المركيز وزوجته، لأن المركيز يبرز بفضائله بين الفرسان، مثلما تبرز امرأته بين النساء، لتمتعها بكل الفضائل. خلفت هذه الكلمات أثراً كبيراً في نفس ملك فرنسا، فهام حباً بتلك المرأة، دون أن يكون قد تعرف إليها، وقرر ألا يركب البحر، في الحملة التي سيتوجه إليها، إلا من جنوا؛ كي يتاح له، بالسفر براً، مسوغ معقول لمقابلة المركيزة. وقد يحدث أن يرى شهوته تتحقق، مادام المركيز غائباً. وبتوصله إلى هذه الفكرة، أمر بوضعها موضع التنفيذ؛ فجعل جميع رجاله يسبقونه، وسافر هو مع فرقة صغيرة وبعض النبلاء متوجهاً إلى أراضي المركيز. وأرسل إلى السيدة، قبل يوم من وصوله، أن تنتظره في اليوم التالي، لتناول الغداء. فأجابت السيدة الحكيمة والحذرة بغبطة بأنها ستنتظره وتحيطه بما يستحقه من حفاوة وترحيب.

وعلى الفور، راحت تفكر في ما يعنيه مجيء هذا الملك لزيارتها، بينما زوجها غائب عن الديار. ولم يخامرها الشك في أن ما اجتذبه هو ذيوع صيت جمالها. ولكنها صممت، كامرأة صالحة، على استقباله وتكريمه. فاستدعت كل من بقي معها هناك من الرجال، وأجرت الاستعدادات المناسبة كلها عملاً بنصائحهم؛ باستثناء المأكولات والأطعمة التي أرادت أن تعدّها بنفسها. فسارعت دون أي تأخير على جمع كل ما في الناحية من إناث الدجاج، ثم أمرت طهاتها بأن يعدوا، من تلك الدجاجات وحدها، أنواعاً متعددة من الأطعمة للوليمة الملكية.

حضر الملك في اليوم التالي، واستقبلته السيدة بحفاوة وتشريف عظيمين. ووجدها هو أفضل مما صورتها له كلمات الإطراء، فقد بدت له بالغة الجمال واللباقة، فاشتدت

---

[1] هو فيليب أغست (1165 ـ 1223): قاد مع فيدريكو باربا روسا وليون قلب الأسد الحملة الصليبية الثالثة (1189 ـ 1192)

دهشته وازداد تقديره لها ، وكانت شهوته تزداد تأججاً وهو يرى السيدة ترد على كل ما يسأل عنه. وبعد أن استراح الملك لبعض الوقت في حجرات مزينة بكل ما يتطلبه استقبال ملك، حان موعد الغداء؛ فجلس الملك والمركيزة إلى مائدة، وكرِّم الضيوف الآخرون حسب مراتبهم ومقاماتهم على موائد أخرى. قُدمت إلى الملك أصناف كثيرة متتالية من الأطعمة والأنبذة الفاخرة والثمينة، وكان ينظر بين حين وآخر إلى السيدة بمتعة، فيشعر بالغبطة والرضا. ولكن مع مجيء الأطباق واحداً فواحداً، بدأت الدهشة تستولي على الملك وهو يلاحظ أنه على الرغم من تنوع أصناف الطعام، إلا أنها جميعها مصنوعة من لحم إناث الدجاج. ولأنه يعرف أن في تلك المناطق تنوع حيوانات برية، وأنه أخبر السيدة مسبقاً بمجيئه مما يوفر لها الوقت الكافي لتأمر باصطيادها، فلم يشأ أن يضيع الفرصة في الحديث عن دجاجاتها؛ فالتفت إليها بوجه مرح، وقال:

ـ سيدتي، هل تولد هنا الدجاجات وحدها، دون وجود أي ديك؟..

قدرت المركيزة، وقد فهمت جيداً ما عناه بالسؤال، إن الرب قد وفر لها اللحظة المناسبة لتكشف للملك نواياها، فالتفتت إليه وأجابت بدقة:

ـ ليس الأمر كذلك يا سيدي؛ لكن النساء، وإن اختلفن بعض الاختلاف بملابسهن ومكانتهن، فإنهن جميعهن هنا كمثيلاتهن في كل مكان.

حين سمع الملك هذه الكلمات، أدرك سبب وليمة الدجاج، والمغزى الذي تنطوي عليه تلك الكلمات، وفهم أن كلامه لن يجدي مع مثل هذه المرأة. وبما أن المقام لا يسمح باستخدام القوة معها، فقد قرر أن يكبح نار شهوته الخبيثة، مثلما أشعلها برعونته. ودون مزيد من المزاح، خوفاً من أجوبتها، تناول الغداء دون أية آمال. وبعد الانتهاء من الطعام، بدا له أن الإسراع بالمغادرة يداري مجيئه المشين، فشكرها لتكريمها إياه، وودعها في رعاية الله، وانطلق إلى جنوا.

القصة السادسة

رجل طيب من العامة، يسخر بعبارة ذكية من نفاق رجال الدين.

كانت إيميليا تجلس إلى جوار فيامينتا، وبعد أن انتهى التعليق والإطراء على كلمات المركيزة الذكية الموجهة إلى ملك فرنسا، بدأت الكلام بإذن من الملكة، وقالت بنفس منفتحة:

ـ لن أكتم أنا أيضاً درساً لقنه رجل علماني طيب لرجل دين جشع، بكلمات ذكية تستثير من الضحك قدر ما تستثير من الإشادة والإطراء.

منذ زمن غير بعيد، كان يعيش في مدينتنا، يا صديقاتي العزيزات، كاهن ضئيل المقام، هو محقق التفتيش في الهرطقات. وعلى الرغم من كل ما يشيعه عن نفسه من أنه ناسك، وورع في إيمانه المسيحي «مثلما يفعلون جميعهم»، إلا أنه كان يبدي اهتماماً بمن يملك كيس نقود ممتلئ، أكثر من اهتمامه بمن يزيغ بهرطقته عن الدين المسيحي. وقد وقع على رجل طيب، لديه من المال أكثر بكثير مما لديه من التعقل، قال في أحد الأيام لرفاقه، ليس عن قلة إيمان، وإنما بتهور سببه الإفراط في الشراب أو رغبة في المزاح، إن لديه نبيذاً جديراً بأن يشربه المسيح نفسه. وعلم كاهن التحقيق بذلك، ولمعرفته بغنى الرجل وبأن كيسه مترع بالمال، صمم cum gladiis et fustibus[1] على أن يوجه إليه تهمة ويحاكمه، مدركاً أن ذلك لن يخفف من زيغ المتهم، إلا أنه سيخلّف الكثير من الفلورينات الذهبية بين يدي المدعي. فاستدعاه وسأله إذا ما كان صحيحاً ما قيل عنه. وهو ما ردّ عليه الرجل العلماني بالإيجاب، وأوضح الظروف التي قال فيها ذلك. فقال الراهب المحقق، وهو من أتباع مذهب القديس جيوفاني ذهبي الفم[2]:

ـ ولماذا حكمت أن المسيح شرِّيب نبيذ ومحب للخمور الفاخرة، كما لو أنه واحد منكم أنتم السكارى ورواد الحانات؟.. وتريد الآن، وأنت تتكلم بتذلل، أن تعتبر ما قلته أمراً تافهاً وغير ذي أهمية؟.. إنه ليس كذلك. وأنت تستحق النار على ما قلته، نوقع عقوبتها عليك عندما نشاء إذا أردنا التصرف معك كما يدعو الواجب.

وكان يقول هذه الكلمات وأموراً أخرى متوعدة، بوجه وقور، كأنه أبيقور ينكر خلود النفس البشرية. فأخاف هذا الحكم رجلنا خوفاً شديداً، وراح يبحث عن الرحمة،

---

[1] عبارة إنجيلية، وردت باللاتينية وتعني «بسيوف وعصي» (إنجيل متى، الإصحاح 26، الآية47).

[2] San Giovanni Baccadoro : القديس جيوفاني ذهبي الفم، هو اسم لا وجود له في سجل القديسين وإنما أريد به الإشارة إلى جشع الكاهن وحبه للذهب. وترد في الكتاب تسميات كثيرة مماثلة يراد منها السخرية في معظم الأحيان.

كانت إيميليا تجلس إلى جوار فيامينتا، وبعد أن انتهى التعليق والإطراء على كلمات المركيزة الذكية الموجهة إلى ملك فرنسا، بدأت الكلام بإذن من الملكة، وقالت بنفس منفتحة:

ـ لن أكتم أنا أيضاً درساً لقنه رجل علماني طيب لرجل دين جشع، بكلمات ذكية تستثير من الضحك قدر ما تستثير من الإشادة والإطراء.

منذ زمن غير بعيد، كان يعيش في مدينتنا، يا صديقاتي العزيزات، كاهن ضئيل المقام، هو محقق التفتيش في الهرطقات. وعلى الرغم من كل ما يشيعه عن نفسه من أنه ناسك، وورع في إيمانه المسيحي «مثلما يفعلون جميعهم»، إلا أنه كان يبدي اهتماماً بمن يملك كيس نقود ممتلئ، أكثر من اهتمامه بمن يزيغ بهرطقته عن الدين المسيحي. وقد وقع على رجل طيب، لديه من المال أكثر بكثير مما لديه من التعقل، قال في أحد الأيام لرفاقه، ليس عن قلة إيمان، وإنما بتهور سببه الإفراط في الشراب أو رغبة في المزاح، إن لديه نبيذاً جديراً بأن يشربه المسيح نفسه. وعلم كاهن التحقيق بذلك، ولمعرفته بغنى الرجل وبأن كيسه مترع بالمال، صمم cum gladiis et fustibus[1] على أن يوجه إليه تهمة ويحاكمه، مدركاً أن ذلك لن يخفف من زيغ المتهم، إلا أنه سيخلّف الكثير من الفلورينات الذهبية بين يدي المدعي. فاستدعاه وسأله إذا ما كان صحيحاً ما قيل عنه. وهو ما ردّ عليه الرجل العلماني بالإيجاب، وأوضح الظروف التي قال فيها ذلك. فقال الراهب المحقق، وهو من أتباع مذهب القديس جيوفاني ذهبي الفم[2]:

ـ ولماذا حكمت أن المسيح شرِّيب نبيذ ومحب للخمور الفاخرة، كما لو أنه واحد منكم أنتم السكارى ورواد الحانات؟.. وتريد الآن، وأنت تتكلم بتذلل، أن تعتبر ما قلته أمراً تافهاً وغير ذي أهمية؟.. إنه ليس كذلك. وأنت تستحق النار على ما قلته، نوقع عقوبتها عليك عندما نشاء إذا أردنا التصرف معك كما يدعو الواجب.

وكان يقول هذه الكلمات وأموراً أخرى متوعدة، بوجه وقور، كأنه أبيقور ينكر خلود النفس البشرية. فأخاف هذا الحكم رجلنا خوفاً شديداً، وراح يبحث عن الرحمة،

---

(1) عبارة إنجيلية، وردت باللاتينية وتعني «بسيوف وعصي» (إنجيل متى، الإصحاح 26، الآية47).

(2) San Giovanni Baccadoro : القديس جيوفاني ذهبي الفم، هو اسم لا وجود له في سجل القديسين وإنما أريد به الإشارة إلى جشع الكاهن وحبه للذهب. وترد في الكتاب تسميات كثيرة مماثلة يراد منها السخرية في معظم الأحيان.

واستعان ببعض الوسطاء، وقدم مقداراً كبيراً من مراهم القديس جيوفاني ذهبي الفم، لدهن يدي الكاهن، وهو مرهم ينفع كثيراً مع داء جشع الكهنة الوبائي. وقد كانت لذلك الدّهن فعالية كبيرة، مع أن جالينوس لم يأت على ذكره قط في أي كتاب من كتبه؛ وأعطى نتائج باهرة أحالت نار التهديد والوعيد إلى صليب كبير على صدره. وكما لو أنه يتوجب على المحكوم أن يذهب في حملة للمشاركة بحرب صليبية في ما وراء البحار، وضع له صليباً أصفر على خلفية سوداء. وبعد أن تلقى الكاهن النقود، استبقى الرجل معه بضعة أيام، فارضاً عليه التكفير عن ذنبه بالاستماع، كل صباح، إلى القداس في كنيسة «سانتا كروشي»، وأن يمثل بين يديه ويقوم على خدمته في موعد تناول الطعام، تاركاً له حرية عمل ما يشاء في بقية يومه.

وبينما الخاطئ ينفذ هذا التكفير، سمع ذات صباح، في القداس، ترتيلاً من الإنجيل بهذه الكلمات: «تتلقون مئة مقابل واحدة، وتحظون بالحياة الأبدية»، فحفظ هذه الكلمات في ذهنه. وعندما مثل عند الظهر بين يدي الكاهن، وكان موعد الغداء، سأله الكاهن إذا كان قد استمع إلى القداس في الصباح. فأجابه باندفاع:

ـ أجل يا سيدي.

فسأله الكاهن:

ـ وهل سمعت شيئاً يخامرك الشك فيه، أو شيئاً تريد الاستفسار عنه؟..

فأجاب الرجل الطيب:

ـ لا يخامرني، في الحقيقة، أي شك في كل ما سمعته؛ بل على العكس، فإيماني به راسخ أشد الرسوخ. لكنني انتبهت إلى أمر جعلني أشفق عليك وعلى الكهنة الآخرين، حين فكرت في الحالة المزرية التي ستجدون أنفسكم فيها في الحياة الأخرى.

عندئذ سأله الكاهن المحقق:

ـ وما هي الكلمات التي استثارت فيك هذه الشفقة علينا؟..

فرد عليه الرجل الطيب:

ـ إنها يا سيدي كلمات الإنجيل القائلة: «تتلقون مئة مقابل واحدة، وتحظون بالحياة الأبدية».

فقال المحقق:

ـ وهذا صحيح. ولكن، لماذا أثرت في نفسك هذه الكلمات؟..

ـ سأخبرك يا سيدي ـ أجابه الرجل ـ منذ وجودي هنا، رأيت أنكم تعطون أناساً فقراء كثيرين قِدراً هائلة من الحساء، وفي بعض الأحيان قدرين اثنتين، تُنتزع منك ومن الرهبان الآخرين في هذا الدير، وإن كانت فائضة عن حاجتكم. فإذا ما قُدمت إليكم، في الآخرة، مئة قدر مقابل كل واحدة منها، فسوف تتلقون مقادير من الحساء تغرقون فيها.

ضحك من كانوا يجلسون إلى المائدة مع المحقق. وأدرك هذا غاضباً ما تكشف عنه صدقات حسائه المخفف بالماء من نفاق، ولولا يقينه من أنه سيتعرض للوم إذا ما أقدم على أي أمر، لكان وجه تهمة أخرى إلى الرجل الطيب، عقاباً له على الكلام المتندر الذي وجهه إليه. ولكنه تركه يذهب ويفعل ما يشاء، ولا يعود إلى هناك أبداً.

القصة السابعة

يروي بيرغامينو قصة عن بريماسو ورئيس دير كلوني، مستنكراً بخل السيد كانيه ديلا سكالا.

حظيت قصة إيميليا الظريفة باستحسان الجميع، وأضحكت الملكة والجماعة كلها، فأطروا على الفكرة الفريدة التي خطرت للرجل العلماني. وعندما خمد صوت الضحك وهدأ الجميع، وبدا أنهم مستعدون لمواصلة القص من جديد، راح فيلوستراتو ـ وكان دوره في رواية القصة ـ يتكلم على هذا النحو:

ـ من المناسب يا سيداتي المحترمات استنكار العيب الذي لا علاج له؛ لكن ما يثير العجب هو أن يظهر أمر مفاجئ وغير متوقع، ويكون هناك من يوجه اللوم إلى صاحبه في الحال. وحياة الرذيلة والإثم التي يعيشها رجال الدين، وهي علامة خبث مؤكدة، تتبدى لنا سافرة في أحيان كثيرة، فنتحدث عنها بما نشاء من الشجب والاستنكار. ولهذا، فقد أحسن القول ذلك الرجل الذي وبخ راهب التحقيق على نفاق صدقات الرهبان الذين يقدمون

للفقراء ما لا ينفع علفاً للخنازير. ولكنني أرى أن الحالة التي سأتحدث عنها «وقد ذكرتني بها القصة السابقة» هي أكثر نموذجية. إنها قصة عن السيد كانيه ديلا سكالا[1]، وهو سيد محترم شفي من بخل مفاجئ ألم به حين سمع قصة طريفة تتحدث عن شخص آخر، ولكنها تعنيه هو. والقصة هي التالية:

بما أن كل الأشياء في هذه الدنيا معروفة، فقد كان معروفاً أن السيد كانيه ديلا سكالا هو رجل ثري، وأحد أبرز السادة وأعظمهم، لم يُعرف له مثيل في إيطاليا منذ أيام الإمبراطور فيدريك الثاني حتى يومنا هذا. وكان قد قرر إقامة وليمة كبرى في فيرونا، دعا إليها أعداداً كبيرة جداً من الضيوف، بمن في ذلك أناس من مناطق أخرى، وبخاصة من رجال البلاط والنبلاء. وفجأة، ومهما كان السبب، تخلى عن عمل كل ما كان قد نوى عمله؛ فانصرف كل من دعاهم، باستثناء واحد منهم، يدعى بيرغامينو. وكان هذا رجلاً محدثاً لبقاً ومتدفق الكلام، أكثر مما يمكن لمن لم يسمعه أن يتصور. ولكنه لم يكن يلقى كثيراً من الاعتبار، ولهذا قرر أن ينال بنفسه ما لم يعطَ له. وحين رأى أن أحداً لم يرسل إليه شيئاً، بقي في المدينة مفكراً في أنهم يعاملونه على هذا النحو لأنهم لا يرون فيه أي فائدة يجنونها منه. وكان رأي السيد كانيه أن أي شيء يُعطى لبيرغامينو هو خسارة ضائعة كأنها تلقى إلى النار. وبعد مرور بضعة أيام، رأى بيرغامينو أن أحداً لم يستدعه أو يكلفه بأي مهمة، وكان يعاني، ومن معه من الخدم في النزل، الضيق والإفلاس. لكنه واصل الانتظار، وغضبه يشتد يوماً بعد يوم. كانت بحوزته ثلاث بدلات ثمينة، أعطاه إياها سادة آخرون كي يظهر في الحفلة بمظهر لائق؛ ولأنه لا بد له من أن يدفع لصاحب النزل، فقد سدد الحساب بإعطائه البدلة الأولى. وبعد ذلك، حين بقي لوقت أطول، أعطاه الثانية، وصار يأكل مقابل البدلة الثالثة، مصمماً على البقاء بقدر ما تتيح له قيمتها البقاء، ثم يغادر بعد ذلك.

وبينما هو يقيم أوده من قيمة البدلة الثالثة، طلب في أحد الأيام مقابلة السيد كانيه، وذهب إليه بمزاج مكتئب. فقال له السيد النبيل وهو يبغي المزاح أكثر مما يرمي إلى الاستمتاع بحديثه:

---

[1] كانيه ديلا سكالا Cane dlla Scala: من أبرز أعيان فيرونا (1291 ـ 1329)، امتدح دانتي كرمه في الكوميديا الإلهية (الفردوس، XVII).

ـ ماذا جرى لك يا بيرغامينو؟.. أراك كئيباً. قل لي شيئاً.

عندئذ لم يتوقف بيرغامينو لحظة واحدة للتفكير ـ ربما لأنه كان قد فكر كثيراً ـ وروى له هذه القصة:

ـ اعلم يا سيد أن بريماسو كان رجلاً ضليعاً في علوم النحو، وكان قبل ذلك كله محدثاً عظيماً، يرتجل الكلام بمنتهى السهولة. وقد جعلته معارفه محبوباً ومشهوراً. ومع أن وجهه لم يكن معروفاً للناس، إلا أن أحداً لم يكن يجهل اسم بريماسو. وحدث أن كان في باريس، ومرّ بوضع عصيب «وهو ما كان يحدث له بكثرة، بسبب من لا يستطيعون تقدير مزاياه»، وسمع كلاماً عن رئيس دير كلوني الذي يُعتقد أنه أغنى أحبار كنيسة الرب بعد البابا. وكانت الأمور التي سمعها عجيبة وعظيمة، مثل الحديث عن كرمه وسخائه، حتى إنه لا يمنع الطعام والشراب في بلاطه قط عن كل من يأتيه ويطلبه. ولأن بريماسو كان يرغب في التعرف على السادة العظام، فقد قرر أن يختبر بنفسه عظمة رئيس الدير ذاك. فاستعلم عن العنوان الدقيق، وعن المسافة التي يبعدها الدير عن باريس، وعرف أنها حوالي ستة أميال. فعزم أن يصل إلى هناك ظهراً، وأن ينطلق إليه في الفجر. طلب أن يدلوه على الطريق، ولكنه لم يجد من يرافقه في الرحلة، مما جعله يخشى أن يضل الطريق، أو أن يصل إلى مكان لا طعام فيه. وليتجنب مثل هذا الاحتمال، قرر أن يأخذ معه ثلاثة أرغفة خبز، مقدراً أنه لن يعدم وجود الماء (وإن كان الماء لا يروقه كثيراً). خبأ الخبز في صدره، وانطلق على الطريق، وحالفه الحظ في الوصول ظهراً إلى حيث رئيس الدير. فدخل هناك وراح ينظر في كل الأنحاء، فرأى عدداً كبيراً من الموائد الموزعة، ومعدات المطبخ الكثيرة، وغيرها من الأدوات الخاصة بالطعام. وحين رأى ذلك كله، قال في نفسه: «الحقيقة أنه رجل عظيم مثلما يقال عنه».

وبعد أن أمضى بعض الوقت في تأمل كل شيء، حان موعد الغداء، فأمر قهرمان رئيس الدير بأن يؤتى بماء غسل الأيدي، وخصص لكل واحد مكانه على المائدة. وشاءت المصادفة أن يكون مكان بريماسو قبالة الباب الذي سيدخل منه رئيس الدير إلى قاعة الطعام.

وكان من عادة ذلك البلاط ألا يوضع على المائدة أي شيء من الخبز أو النبيذ أو الطعام قبل دخول رئيس الدير وجلوسه. وهكذا، بعد أن رتب القهرمان الموائد، أرسل يخبر

رئيس الدير بأنه يستطيع المجيء حين يشاء. وعندما كان رئيس الدير على وشك الدخول، نظر إلى القاعة، وكان أول جالس يراه أمامه هو بريماسو، ورأى رئيس الدير حالته المزرية، ولم يكن يعرفه. فداهمه على الفور خاطر خسيس، فلم يجلس إلى المائدة، وفكر: «أهؤلاء هم الرجال الذين أطعمهم مالي!» وتراجع عن قاعة الطعام، وسأل عمن يكون ذلك الصعلوك الذي تجرأ على الجلوس إلى مائدته. وكان الجواب أن أحداً لا يعرف من يكون. لكن بريماسو الذي قطع طريقاً طويلة، كان يشعر بجوع شديد، وحين رأى أن رئيس الدير لم يأت، أخرج من جرابه قطعة من الخبز وراح يأكلها.

وبعد مرور بعض الوقت، أرسل رئيس الدير أحد أعوانه لينظر إذا ما كان بريماسو قد رحل. فأجابوه:

- لا يا سيدي، بل إنه يأكل خبزاً، ولا بد أنه جلبه معه.

فقال رئيس الدير عندئذ:

- فليأكل خبزه إذن، أما خبزنا فلن يأكل منه اليوم.

كان رئيس الدير راغباً في جعله ينصرف من تلقاء نفسه، لأنه لا يتجرأ على طرده. لكن ما حدث هو عكس ما رغب فيه؛ فبعد أن أنهى بريماسو أكل رغيف الخبز، ورأى أن رئيس الدير لم يأت، بدأ بأكل الرغيف الثاني. وعرف رئيس الدير الأمر من أحد أتباعه بالطريقة السابقة نفسها. وأخيراً عندما رأى بريماسو أنه لم يأت، ولم يكن قد بقي شيء من الرغيف الثاني، بدأ بأكل الثالث؛ وعلم رئيس الدير بذلك أيضاً. فراح هذا الأخير يفكر ويقول لنفسه: «ما هذا الجديد الذي أصاب نفسي اليوم؟.. أهو البخل؟.. أهو الغيظ؟.. ولماذا؟.. منذ سنوات وأنا أقدم الطعام لكل راغب، دون أن أنظر من يكون، سواء أكان نبيلاً أم من العامة، غنياً أم فقيراً، تاجراً كبيراً أم بائعاً جوالاً؛ بل إن بعض الصعاليك هزئوا بي، ولم يدر بخلدي قط ما فكرت فيه اليوم. هذا البخل لم يحل بي بسبب شخص وضيع المقام.. صحيح أنه يبدو محتالاً، لكنه لا بد أن يكون خلاف ذلك». وبينما هو يفكر على هذا النحو، أحس برغبة في التعرف على الغريب. وحين عرف أنه بريماسو، وأن سبب زيارته هو التحقق من السمعة العظيمة التي يتمتع بها رئيس الدير كرجل إحسان وخير، فوجئ أشد المفاجأة؛ ولكي يصلح الضرر، بذل غاية جهده في إكرام الضيف بألف طريقة. فبعد الطعام الوفير، قدم له ثياباً لائقة، ونقوداً وجواداً، وأعطاه حرية البقاء

أو الذهاب متى يشاء.

فقدم إليه بريماسو الشكر ألف مرة، وهو في غاية البهجة، ورجع إلى باريس ممتطياً الجواد، بعد أن كان قد غادرها ماشياً.

كان السيد كانيه رجلاً ذكياً وفطناً، فأدرك في الحال ما الذي أراد بيرغامينو أن يُلمّح إليه، فقال له باسماً:

ـ لقد بينت لي بمكر يا بيرغامينو فضيلتك وبخلي، وما الذي تريده مني. الحقيقة أنني لم أقترف البخل من قبل قط، لكنني ألقيت به الآن عن كاهلي بالعلاج نفسه الذي أشرت أنت إليه.

أمر السيد النبيل بأن يُدفع حساب بيرغامينو لصاحب النزل، وأهدى إلى بيرغامينو إحدى بدلاته الخاصة، وقدم إليه في الوقت نفسه نقوداً وجواداً، تاركاً له حرية البقاء أو الانصراف متى يشاء.

القصة الثامنة

غيليلرمو بورسيري، بكلمات حذرة، ينتقد بخل السيد هيرمينو دي غريمالدي.

كانت لوريتا تجلس إلى جوار فيلوستراتو، وبعد الإطراء على ذكاء بيرغامينو، بدا لها أنه عليها أن تروي شيئاً دون انتظار الأمر بذلك، فبدأت الكلام على هذا النحو:

ـ في القصة التالية يا سيداتي الحبيبات، سترين كيف أن نديماً حذراً، وبطريقة مماثلة لما فعله بيرغامينو، وبنتائج طيبة، أنّب رجلاً واسع الثراء على بخله. وبالرغم من التشابه مع القصة السابقة، فإنكم لن تزدروا هذه القصة التي تنتهي نهاية سعيدة.

كان في جنوا، منذ زمن بعيد، نبيل يدعى السيد هيرمينيو دي غريمالدي، وكان يعتبر، برأي الجميع، لسعة ثرواته وأملاكه، أغنى رجال زمانه في إيطاليا. ومثلما كان

يز جميع مواطنيه في الثراء والغنى، كان يفوقهم كذلك في البخل والتقتير. ولم يكن يتصرف ببخل مع الآخرين وحسب، بل مع أشد الحاجات ضرورة لشخصه كذلك. فعلى خلاف طبع الجنويين العام في اعتيادهم على حسن الملبس، كان هو بائس الثياب. والشيء نفسه يقال عن مأكله ومشربه. ولهذا لم يكن هناك من يدعوه هيرمينيو غريمالدي، وإنما بلقب «هيرمينيو البخيل» الذي يستحقه.

وحدث في هذا الوقت الذي لم يكن ينفق فيه شيئاً، وثرواته تتضاعف، أن جاء إلى جنوا رجل مهم من البلاط، يدعى غيليلمو بورسيري. يختلف عن ندماء هذه الأيام، ممن يرغبون، بالرغم من عاداتهم المشينة والمخجلة، في أن يعتبروا نبلاء وسادة، في حين أنهم أشبه بالجحوش. فأولئك الندماء القدماء كانوا ينشغلون بالسعي إلى السلم في الحروب، وفض النزاعات بين النبلاء والسادة؛ ويركزون جهدهم على عقد الزيجات والقرابات والصداقات، أو يبثون الحماسة في نفوس المتعبين بكلمات طيبة وفطنة، وينشرون المرح والبهجة في البلاطات، أو يعمدون كذلك إلى أساليب زجر قاسية، كأنهم آباء، لانتقاد عيوب الخاطئين وإصلاحها؛ وكل ذلك مقابل مكافآت ضئيلة. أما ندماء هذه الأيام، فيحبون نشر الأقاويل والتكلم بالسوء، وزرع الشقاق. والأدهى أنهم يفعلون ذلك كله بحضور الرجال؛ فينتقدون مساوئ الآخرين وعيوبهم، سواء أكانت حقيقية أم لم تكن، ويجتذبون السادة، بالتملق الزائف، إلى أمور خسيسة وخبيثة. ومن يلقى منهم أكبر محبة وأفضل تقدير هو ذاك الذي يتفوه بأقبح الكلام ويقترف أخبث الأفعال. ولهذا فإن عالمنا الحالي يستحق أشد الاستنكار، حتى يمكن القول، وبكل صدق، إن الفضائل قد طارت هاربة من هنا، وتخلت عن الكائنات البائسة التي تعيش في وحل الرذائل.

ولكن، فلنعد إلى ما بدأنا به، وإلى ما أبعدني الغضب العادل عنه أكثر مما ظننت، وأواصل القول إن غيليلمو المذكور، كان رجلاً نزيهاً وطيب النية. وكانت قد مضت عليه بضعة أيام في المدينة، وسمع كلاماً عن بخل السيد هيرمينيو، فقرر زيارته. وكان السيد هيرمينيو قد علم، بدوره، بأن السيد غيليلمو بورسيري هو رجل عظيم ورفيع المقام. وعلى الرغم من بخله، كانت لا تزال لديه بقية آثار من النبل، فقرر استقباله وتقديم كل التشريفات له. وفي أثناء الحديث معه، أخذه مع جنويين آخرين كانوا هناك، إلى دار جديدة، فائقة الفخامة. وبعد زيارة كل أقسامها، قال له:

ـ بما أنك يا سيد غيليلمو قد رأيت وسمعت أشياء كثيرة، فهل يمكن لك أن تخبرني بشيء لم يُرَ من قبل قط، كي آمر برسمه في قاعة بيتي الرئيسية؟..

ولدى سماع غيليلمو تلك الكلمات غير الحصيفة، قال له:

ـ لا تظن يا سيدي أن بإمكاني إخبارك بشيء استثنائي لم يُرَ من قبل، اللهم إلا العطاس أو أشياء من هذا القبيل؛ ولكن إن أنت شئت، فإنني أقترح شيئاً لم تره من قبل على ما أعتقد.

فقال السيد هيرمينيو:

ـ أرجوك أن تخبرني عنه.

ولم يكن ينتظر الجواب الذي سيتلقاه، ذلك أن غيليلمو أجابه بحزم:

ـ مُر برسم الكَرَم.

حين سمع السيد هيرمينيو هذه الكلمات، أحس بخجل عظيم بدّل مزاجه على الفور، وقال خجلاً مما كان عليه حتى تلك اللحظة:

ـ سيد غيليلمو، سأرسمه بطريقة لا تتيح لك أو لغيرك أن يقول لي، محقاً، إنني لم أره ولم أعرفه.

ومنذ ذلك الحين، كان لكلمات السيد غيليلمو مفعولاً قوياً، تحول البخيل بفضلها إلى أشد الرجال كرماً وعطاء بين السادة. وصار أكثر أهل جنوا سخاء في تكريم الغرباء والمقيمين.

القصة التاسعة

ملك قبرص، وبعد أن تنتقده سيدة من غاسكونيا، يتحول من جبان إلى شجاع.

لم يبق هناك من يتلقى أمر الملكة للتكلم سوى إليسا، فبادرت من تلقاء نفسها إلى

الكلام، قبل أن تتلقى الأمر، وبدأت تقول بعذوبة:

ـ صديقاتي الشابات، كثيراً ما يحدث أن ما لم يتوصل إلى تحقيقه التأنيب والنصائح المتكررة، تحققه في أحيان كثيرة كلمة عابرة تقال مصادفة، ودون نية مسبقة. ومن السهل ملاحظة ذلك في قصة لوريتا، وأنا أفكر في تأكيد ذلك أيضاً، بقصة شديدة الإيجاز. وأفعل هذا لأنه لا بد من سماع جميع الأمور الجيدة والمفيدة، أياً كان قائلها.

تعلمون أنه في عهد أول ملوك قبرص، بعد غزو جودفر دي بويون للأراضي المقدسة، توجهت سيدة من غسكونيا للحج إلى كنيسة المهد المقدس. وفي طريق عودتها، أثناء مرورها في قبرص، تعرضت لإساءة مشينة على يد رجال مجرمين. ففكرت المرأة المتضايقة أن ترفع شكواها إلى الملك؛ ولكنها أدركت، مما نصحها به البعض، أنه لا جدوى من الشكوى، لأن الملك مستغرق تماماً في حياة الاسترخاء والتهاون، ولا قدرة له على إصلاح ما يلحق من أذى بالآخرين، أو به هو نفسه، حتى بلغ الأمر أنه إذا ما غضب أحدهم من شيء، فإنه يُفَرِّج عن نفسه بتوجيه الشتائم والسباب إلى شخص الملك نفسه. وحين علمت المرأة بكل ذلك، ورأت أنه لا علاج ولا عزاء لها في مأساتها، قررت أن تتأكد بنفسها من خراقة ذلك الملك، فمثلت بين يديه باكية، وقالت:

ـ لم أجئك يا سيدي طالبة الانتقام لما ألحقوا بي من أذى، وإنما أطلب منك، كي أتحملها صابرة، أن تعلمني كيف تتحمل جلالتك الإهانات التي توجه إليك، لتكون قدوة لي في التحمل والإذعان.

فبدا كما لو أن الملك الذي كان حتى ذلك الحين كسولاً ومتقاعساً، قد استيقظ من حلم. وتحول إلى ملاحق صارم للإساءات التي كانت تمتهن تاجه ومقامه «بادئاً بمسألة تلك المرأة التي طالبت بإنصافها».

القصة العاشرة

المعلم ألبرتو دي بولونيا، بعبارات ذكية، يُشعر سيدة بالخجل بعد أن أرادت السخرية منه لأنه أحبها.

حين صمتت إيليسا، لم يبق من الرواة إلا الملكة، فبدأت الكلام على هذا النحو:

ـ سيداتي النبيلات: مثلما تزين النجوم السماء في الليالي الصافية، ومثلما تزين الزهور الحقول الخضراء في الربيع، هكذا هي أيضاً العبارات الحصيفة التي تزين العادات الحميدة والأحاديث الممتعة. وكلما كانت هذه العبارات موجزة، تكون مناسبة للنساء أكثر منها للرجال، لأنهن يستأن أكثر منهم من كثرة الكلام، بالرغم من أن قلة من النساء ـ أو لا أحد منهن ـ يستطعن اليوم أن يفهمن بذهن ثاقب، وإذا ما فهمن فإنهن لا يصبن في الرد على ما قيل، وفي هذا إهانة عامة لنا ولكل نساء اليوم. لأن هذه الميزة التي كانت راسخة في نفوس نساء أزمنة أخرى مضت، حوّلتها نساء هذه الأيام إلى زينة الجسد؛ فمن ترتدي اليوم أجمل الملابس وأكثرها زركشة وبرقشة، تظن أنها تصير أكثر احتراماً وشرفاً من الأخريات، كما لو أن وضع زينة أفضل للحمار، تجعله أكثر شرفاً وأعلى مكانة بين الحمير. يخجلني قول هذا، لأنه ليس ثمة شيء مما أقوله عن النساء الأخريات، إلا وينطبق علي أنا بالذات. لكن النساء يكثرن من التزين والتبرج، حتى يبدون مثل أصنام مرمر صماء، لا حس فيها ولا شعور؛ وإذا ما أجبن على سؤال، يأتي كلامهن في غير محله، ويا ليتهن ظللن صامتات. يعتقدن أن عدم معرفة تبادل الحديث فيما بينهن أو مع الرجال، هو نوع من طهارة الروح. وقد أطلقن على عجزهن هذا اسم العفة، كما لو أن العفيفة هي من تقتصر على التكلم مع خادمتها، أو مع الغسالة أو مع طاهيتها. وهذا مستحيل، لأنه لو كان الأمر على هذا النحو الذي يعتقدن، لكانت الطبيعة قد حدّت من قدرتهن على الكلام. والحقيقة أنه في هذا الأمر، كما في غيره من الأمور، لا بد من تحين الفرصة، والمكان، والشخص الذي نتحدث إليه. إذ يحدث أحياناً أن يظن رجل، أو امرأة، أنه سيجعل الآخرين يتوردون خجلاً بعبارة فطنة يقولها، دون أن يقارن قواه بقوى محدثيه، فيرتد إليه الخجل الذي أراد استثارته في الآخرين. ومن أجل أن تحفظن أنفسكن، وكي لا تؤكدن المثل القائل إن المرأة تأخذ دوماً أسوأ ما في كل شيء، أريد لقصة اليوم الأخيرة التي عليّ أن أرويها، أن تُريكن بأنكن إذا كنتن متميزات بنبل الروح، فإنكن تتميزن أيضاً بطيب العادات.

لم تمض بعد سنوات طويلة على الوقت الذي كان فيه، في مدينة بولونيا، طبيب عظيم وواسع الشهرة؛ يكاد يكون معروفاً في العالم بأسره ـ وربما لا يزال حياً إلى الآن ـ ويدعى المعلم ألبرتو. وبالرغم من بلوغه السبعين من عمره، إلا أنه كان سامي الروح، وحتى عندما خبا في جسده كل الدفء الطبيعي وتلاشى منه، لم يتردد في تلقي نداءات الغرام.

وحدث أن رأى في إحدى الحفلات أرملة جميلة، يدعونها مرغريتا دي جيسولينيري، فأعجبته غاية الإعجاب، وتلقى الحب في قلبه الناضج كما لو أنه شاب في مقتبل الشباب، حتى إنه لم يجد في تلك الليلة إلى الراحة سبيلاً إلى أن رأى في اليوم التالي وجه حسنائه الجميل والنبيل. وصار يمر ماشياً، أو على صهوة جواد، حسبما يرتئيه، من أمام بيت تلك المرأة. فأدركت هي، ونساء أخريات، سبب تلك الجولات، وعلّقن في أحيان كثيرة ساخرات من وقوع رجل عجوز، متقدم في السن ورجاحة العقل، في الحب، معتقدات أنها عاطفة لا يمكن لها أن تتسلل وتستقر إلا في قلوب الشبان البلهاء. وهكذا صرن يتابعن جولات المعلم ألبرتو، وحدث في يوم عيد أن كانت تلك المرأة، ومعها نساء أخريات كثيرات، يجلسن عند باب بيتها، ينظرن إلى اقترابِ المعلم ألبرتو من بعيد؛ فاتفقن جميعهن على استقباله، والترحيب به، والتهكم من غرامه؛ وفعلن ذلك. فقد نهضن جميعهن، ودعونه واقتدنه إلى فناء تنتشر البرودة في أرجائه. وأمرن بإحضار أنبذة وحلويات فاخرة. وأخيراً، سألنه بكلمات لبقة وذكية، كيف وقع في حب هذه المرأة الجميلة، وهو يعرف أن شباناً كثيرين، يتمتعون بالوسامة والنبل واللباقة، يهيمون بها حباً.

انتبه المعلم إلى سخريتهن المبطنة منه، فأجاب باسماً:

ـ وقوعي في الحب يا سيدتي، ليس بالأمر المدهش لأي شخص، لاسيما أنني واقع في غرامكِ، وأنت جديرة بهذا الحب. وإذا كانت قد انتُزعت من الرجال المتقدمين في السن القوى التي تتطلبها الممارسات الغرامية، فإن هذا لا يعني أنهم محرومون من الإرادة الطيبة في الحب، ولا من إدراك جدارة أن يكون المرء محبوباً، بل إنهم يعرفون ذلك أكثر بكثير من الشباب، لأنهم يتمتعون بالخبرة والتجربة. والأمل الذي يدفعني، أنا الرجل العجوز، إلى حبك، مع أن شباناً كثيرين يهيمون بك حباً، هو التالي: كثيراً ما كنت في أماكن، ورأيت النساء فيها يأكلن، عند العصر، الترمس والكُرّاث. ومع أنه ليس في الكراث ما هو جيد، فإن أقل ما فيه سوءاً هو الرأس؛ ومع ذلك، فإنكن معشر النساء اعتدتن، في انقياد عام لذوق خاطئ، أن تمسكن الرأس بأيديكن، وتأكلن الأوراق التي لا تقتصر على خلوها من أي فائدة، بل إنها كريهة الطعم أيضاً. وما الذي أدراني أنا، يا سيدتي، إذا كنتن لا تفعلن الشيء نفسه عند اختيار عشيق؟.. فإذا ما فعلتن غير هذا فإنني سأكون المختار، بينما يُصد الآخرون.

فوجئت السيدة النبيلة، ومثلها الأخريات جميعهن، وقالت:

- أيها المعلم، لقد أحسنت النيل من غرورنا. وأقول لك إن حبك لي ثمين مثلما يجب أن يكون حب رجل حكيم ورصين، وستجدني، باستثناء ما يمس كرامتي وشرفي، رهن إشارتك.

نهض المعلم مع رفاقه، وقدم الشكر للمرأة، ثم ودّع وهو يضحك سعيداً، وانصرف.

وهكذا، لأن السيدة لم تتنبه إلى من هو الذي تريد السخرية منه، أرادت الظفر، فلقيت الهزيمة. وأنتن، إذا كنتن حصيفات، فعليكن بالتحفظ والاحتراس.

●●

كانت الشمس تميل للغروب، والحر قد انخفض، عندما بلغت قصص الشابات والشباب نهايتها. فقالت الملكة بابتهاج:

- والآن يا رفاقي الأعزاء، لم يبق لحكمي ما يفعله في هذا اليوم، اللهم إلا تقديم ملكة جديدة لكم، تتولى بحكمتها التصرف بحياتها وحياتنا، في متع شريفة. وخلال ما تبقى من اليوم حتى الليل، ولأن من لا يستبق الوقت لا يمكن له الاستعداد للمستقبل، وكي يكون بالإمكان الإعداد لما ستقرره الملكة الجديدة ليوم غد، فإنني أرى أنه لا بد لليوم التالي من أن يبدأ في هذه الساعة. لهذا، وتكريماً للرب الذي بفضله خلقت كل الأشياء لتكون سلوى لنا، فإن من ستحكم مملكتنا في اليوم التالي هي الشابة الرصينة فيلومينا.

ثم نهضت، ونزعت إكليل الغار عن رأسها، ووضعته على رأس فيلومينا باحترام. وحيّتها هي أولاً، وبعد ذلك السيدات جميعهن، وكذلك الشبان، باعتبارها الملكة، وأعربوا بسعادة عن خضوعهم لحكمها.

تورد وجه فيلومينا من الحياء، وهي ترى نفسها متوجة على تلك المملكة، وتذكرت الكلمات التي قالتها بامبينيا قبل قليل، فاستعادت جسارتها كي لا تبدو خائفة؛ وكان أول ما فعلته هو تقبل المسؤوليات التي أوكلتها إليها بامبينيا، ثم أقرت ما عليهم عمله في الغد، ورتبت أمر العشاء الذي سيتناولونه. وظل الجميع في أثناء ذلك جالسين هناك حيث هم، فبدأت التحدث إليهم على هذا النحو:

- رفيقاتي الغاليات، بالرغم من أن بامبينيا، تفضلاً منها وليس لميزة فيَّ، قد اختارتني

ملكة لكم جميعاً، إلا أنني لن أنفرد برأيي في توجيه أسلوب حياتنا، وإنما سأضم آراءكم جميعاً إلى رأيي؛ ولهذا أريدكم أن تعلموا ما أنوي عمله، فتضيفوا إليه أو تقللوا منه حسب رغبتكم. ولسوف أعرض عليكم ما أريده في كلمات قليلة: إذا كنت قد أمعنتُ النظر جيداً في ما فعلته بامبينيا اليوم، فإنني أرى أن كل شيء كان ممتعاً وجديراً بالثناء؛ ولهذا لا أفكر في تبديل هذا الأسلوب، وأدعو إلى الحفاظ عليه طالما لم يعترنا الضجر منه بسبب التكرار أو أي سبب آخر. وبما أنه علينا ترتيب ما سنفعله، فإنني أرى أن ننهض من هنا، ونتمشى لبعض الوقت، ثم نعود عند غروب الشمس لتناول العشاء في البرودة. وبعد بعض الغناء واللهو، يكون قد حان موعد النوم. وفي الصباح، سننهض مع النداوة، ونذهب للترويح عن أنفسنا مثلما يرغب كل واحد منا، ونعود مثلما فعلنا اليوم في موعد الغداء؛ فنتناول الطعام ونرقص، وبعد القيلولة نجتمع ثانية لرواية القصص التي أرى أن فيها الكثير من المتعة والفائدة. والحقيقة أن ما لم تستطع بامبينيا عمله، لأن تنصيبها ملكة جاء متأخراً، أفكر أنا البدء في عمله، وهو أن نحصر ما سنرويه ضمن حدود موضوع معين، وأن يكون الموضوع معروفاً مسبقاً، بحيث يتمكن كل واحد منا التفكير في قصة ممتعة حول الموضوع المحدد. والموضوع الذي أقترحه لقصص الغد، إذا كان يرضيكم، سيكون التالي: بما أن البشر، منذ بداية العالم، كانوا عرضة لمختلف ضربات الحظ، وسيظلون كذلك حتى آخر الأيام، فإنني أرى أن يتكلم كل واحد منا عن شخص لاحقته المصائب، ثم وصل بعد فقدان كل أمل إلى نهاية سعيدة.

أطرى الرجال والنساء جميعهم على هذا الترتيب، وتعهدوا الالتزام به باستثناء ديونيو الذي قال، بعد أن صمت الجميع:

ـ سيدتي، مثلما قال الجميع الآن، أقول أنا أيضاً إن الأمر الذي أصدرته الآن لطيف وجدير بالثناء؛ غير أنني أطلب منك مكرمة خاصة، وأرجو أن تُمنح لي طوال الوقت الذي سيتواصله اجتماع هذه الصحبة الطيبة. وطلبي هو ألا أُجبر على رواية قصة حول الموضوع المختار، وأن أتمكن من قص ما يحلو لي. وكي لا يظنن أحد أنني أطلب هذا الامتياز لأنه ليس لدي ما أحكيه، فإنني أوافق منذ الآن على أن أكون آخر المتكلمين.

ولأن الملكة كانت تعرف طبع ديونيو المرح، فقد أدركت أنه إنما يقول هذا تحسباً لضجر الجماعة من القصص الأخرى، فيتمكن هو من بعث السعادة بإحدى قصصه

المضحكة. وبعد موافقة الجميع، منحته بكل لطف ما طلبه. ثم نهضوا معاً، وساروا بخطوات وئيدة نحو مسيل مياه صافية، ينحدر من رابية، وسط صخور وأعشاب خضراء، إلى وادٍ كثيف الأشجار.

وهناك خلعوا أحذيتهم، وغمسوا أقدامهم وأذرعهم العارية في الماء، وراحوا يلهون معاً بأساليب شتى. وعندما اقترب موعد العشاء، رجعوا إلى القصر، فتناولوا الطعام بسعادة ومتعة؛ ثم جاؤوا بعد ذلك بآلاتهم الموسيقية، وأمرت الملكة ببدء إحدى الرقصات، على أن تقودها لوريتا، بينما تتولى إيميليا غناء أغنية، ويرافقها ديونيو على العود. فبدأت لوريتا على الفور رقصة وقادتها، وراحت إيميليا تغني بعاطفة هذه الأغنية:

إنني مغرمة بجمالي،
ولا يمكن لحب آخر
أن يوقظ لهفتي.
أتأمل جمالي في المرآة،
فأُسعد عيني وعقلي.
ولا يمكن لحدث جدي ولا لفكرة قديمة
أن تحرمني من هذه السعادة.
فأي شيء أكثر بهاء
أمتع ناظري به
ويوقظ في قلبي لهفة حب جديدة؟..

لا أريد لهذا الحسن أن يهرب
لا أريد له أن يبتعد
حين أرغب في السلوى برؤيته؛
أريده أن يأتيني كلما طلبته،
عذباً، لا يمكن للكلمات
التعبير عنه.
وهل يمكن لأي بشر فانٍ

ألا يحترق لهفة
أمام مرأى هذا الحسن النبيل؟..

أما أنا، فأزداد اشتعالاً في كل لحظة،
كلما أمعنت النظر فيه،
أسلم نفسي له، أستسلم بالكامل.
مستمتعة بوعده الحبيب،
وبمتعة وسعادة أنه لن يكون هناك
جمال مثله إلى الأبد.

بانتهاء هذه الأغنية التي شارك فيها الجميع بسعادة، مع أن كثيرين منهم تأملوا في كلماتها، فقد رددوا بعد ذلك بعض الأغنيات الأخرى. ولكن شطراً لا بأس به من الليل كان قد انقضى، فاقترحت الملكة وضع حد لليوم الأول، ثم أمرت بإشعال المشاعل، وطلبت من الجميع الذهاب للراحة حتى اليوم التالي، وأن يمضي كل واحد إلى غرفته، وهذا ما فعلوه.

وهنا ينتهي اليوم الأول

اليوم الثاني

انتهى اليوم الأول من الديكاميرون ويبدأ هنا اليوم الثاني، وفيه يدور الحديث، تحت حكم فيلومينا، حول أولئك الذين تلاحقهم نكبات متعددة، ويتوصلون، بعد فقدان كل أمل، إلى نهاية سعيدة.

ولد النهار الجديد، وكانت العصافير تقدم إلى الآذان دليلاً على ذلك، بشدوها على الأغصان الخضراء؛ فنهضت السيدات جميعهن معاً، وكذلك الشبان الثلاثة، واتجهوا نحو الحدائق، يمشون الهوينى على العشب المخضل بالندى. فتنقلوا من مكان إلى آخر لوقت طويل، وهم يصنعون في أثناء ذلك أكاليل من الزهر. ومثلما فعلوا في اليوم السابق، فعلوا في هذا اليوم. تناولوا الغداء على العشب، ثم رقصوا قليلاً، وذهبوا بعد ذلك للراحة. واستيقظوا من القيلولة بعد العصر، فتوجهوا بإذن من الملكة إلى مرج رطب، وجلسوا متحلقين حولها. كانت الملكة باهرة الجمال بإكليل الغار الذي يتوج رأسها، وكانت الجماعة كلها تنظر إليها؛ فوجهت أمرها إلى نيفيله لتبدأ قصتها، فبدأت الشابة الكلام بسعادة، ودون إبداء أي اعتذار:

القصة الأولى

يتظاهر مارتيلينو بأنه مشلول، ويدعي أنه شفـي عند قبر القديس أريكو؛ لكن حيلته تُكتشف، ويتعرض للضرب. وبعد أن يُسجن، ويُحكم عليه بالشنق، يتمكن أخيراً من النجاة.

ـ كثيراً ما يحدث، يا سيداتي الغاليات، أن من يريد خداع الآخرين، وخاصة في الأمور التي تستوجب الاحترام والتوقير، يجد نفسه مخدوعاً. وإذا ما تمكن من الهرب فإنه يهرب وقد أصابه الأذى. ولأنني، انصياعاً لأوامر الملكة، سأفتتح بقصتي هذه الموضوع المقترح لقصص اليوم، فإنني سأروي لكنّ ما بدأ بنكبة لأحد أبناء مدينتنا، وانتهى بعد ذلك (وهو ما لم يخطر له على بال) نهاية سعيدة.

كان يعيش في تريفيسو، منذ زمن غير بعيد، تودسكي فقير الحال يدعى أريكو، يعمل في حمل أحمال الآخرين، مقابل أجر يعطونه إياه. ومع ذلك، كان يُعتبر رجلاً نزيهاً وقديساً. وقد حدث في أثناء احتضاره (وهو ما يؤكده أهالي تريفيسو، دون أن نتوقف عند صحة تأكيدهم أو عدم صحته)، أن راحت نواقيس كنيسة البلدة تدوي دون أن يقرعها أحد. فاعتُبر الحدث معجزة، وقال الجميع إن أريكو هذا قديس، وهرع أهالي المدينة إلى البيت الذي كان يرقد فيه جسده، وحملوه إلى الكنيسة الكبرى. وجاء إلى هناك العرجان والكُسح، والعميان وذوو كل أنواع الأمراض والعاهات الجسدية الأخرى، جاؤوا على أمل الشفاء بلمس ذلك الجسد.

ووسط ذلك الهرج والمرج، حدث أن وصل إلى تريفيسو ثلاثة من مواطنينا، أحدهم يدعى ستيكي، والآخر مارتيلينو، والثالث ماركيسي. وكان من عادة هؤلاء الذهاب إلى قصور كبار السادة، والعمل على تسلية الناس بالتهريج. وكانوا بارعين فوق ذلك في فنون التقليد والمحاكاة. ولأنهم لم يزوروا تلك البلدة من قبل، فقد أدهشتهم الحالة العامة التي

وجدوها فيها. وحين عرفوا السبب، قرروا الذهاب لرؤية ذلك الجسد. فتركوا أشياءهم في النزل، وقال ماركيسي:

ـ نريد الذهاب لرؤية جسد هذا القديس، ولكنني لا أدري كيف يمكننا الوصول، فالبلدية نشرت الحراس لمنع الشغب والفوضى، والكنيسة مزدحمة تغص بالناس.

عندئذ قال مارتيلينو، وكان راغباً في رؤية ذلك الجثمان:

ـ لن يعوقنا ذلك، ولسوف أجد حلاً من أجل الوصول إلى الجسد المقدس.

فقال ماركيسي:

ـ وكيف ذلك؟..

وأجابه مارتيلينو:

ـ سأخبرك: أنا سأتظاهر بأنني كسيح، ولا أستطيع المشي. وتمضي أنت من جانب وستيكي من الجانب الآخر لتسنداني، وتقتاداني كي يشفيني القديس. وهكذا لن يوقفنا أحد، بل على العكس من ذلك، سيفسحون لنا الطريق ويسمحون لنا بالمرور.

أعجبت الحيلة كلاً من ماركيسي وستيكي. ودون مزيد من التفكير، خرجوا من النزل. وحين وصلوا إلى مكان منعزل، تصنع مارتيلينو اعوجاجاً في أصابعه، وذراعيه، وساقيه، وكذلك في فمه وعينيه ووجهه كله؛ فصار منظره مرعباً، لا يمكن لمن يراه أن يرتاب لحظة بعجزه وشلله. وهكذا اتجه إلى الكنيسة يقتاده ماركيسي وستيكي. وكانوا وهم بهذا المظهر المفعم بالشفقة، يتوسلون إلى الناس بتذلل أن يفسحوا لهم الطريق؛ ويتوصلون إلى ذلك بسهولة. بهذه الطريقة، بمساعدة الجميع، وبترديد عبارة: «أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق!»، وصلوا إلى جسد القديس أريكو؛ وقام شبان كانوا هناك برمي مارتيلينو على الجثة، كي يسترد عافيته.

انتبه مارتيلينو إلى أنه قد تحول إلى مركز اهتمام الناس، فبدأ يتظاهر ـ بالبراعة التي تميزه ـ بأنه تمكن من تحريك أحد أصابعه، ثم يده، وذراعه، وأخيراً جسده كله. وحين رأى الناس ذلك، تعالى التهليل للقديس أريكو بأصوات مدوية.

وكان هناك بالمصادفة فلورنسي، هو جار مارتيلينو ويعرفه جيداً، مع أنه لم يتعرف

عليه في البدء حين كان يتظاهر بالشلل. لكنه حين رآه ينتصب، تعرف عليه، وبدأ يضحك ويقول:

ـ رباه، يا للحيلة! من الذي لم يكن ليصدق، وهو يراه قادماً، أنه غير مشلول حقاً؟..

وسمع هذه الكلمات بعض أهالي تريفيسو، فسألوه على الفور:

ـ ماذا! ألم يكن هذا الرجل مشلولاً؟..

فرد عليهم الفلورنسي:

ـ لا قدر الله! فقد كان سليماً على الدوام مثل أي واحد منا، ولكنه مثلما رأيتم، معلمٌ في فنون محاكاة ما يشاء من الأوضاع.

وحين سمعوا منه هذه الكلمات، لم يكن بحاجة لقول المزيد، لأن الآخرين شقوا طريقهم بالقوة، وبدؤوا يصرخون:

ـ اقبضوا على هذا الخائن الذي يسخر من الرب ومن القديسين! إنه غير مشلول، وإنما يتظاهر بذلك ليسخر من قديسنا ومنا.

وبهذه الحجج، قبضوا عليه وأخرجوه من هناك وهم يجرونه من شعره. وبينما هم يركلونه، مزقوا ثيابه؛ ومن لم يشارك في ذلك لم يُعتبر رجلاً. وكان مارتيلينو يصرخ: «المغفرة، بالله عليكم!» ويدافع عن نفسه قدر استطاعته؛ وإن يكن دفاعه دون جدوى، لأن الجموع كانت تتكاثر عليه بازدياد. وحين رأى ستيكي وماركيسي ذلك، قدرا أن الأمور تمضي من سيئ إلى أسوأ؛ فخافا على نفسيهما، ولم يتجرأا على تقديم أدنى عون لصديقهما؛ بل راحا، على العكس من ذلك، يصرخان مع الآخرين بأن يقتلوه، ويفكران في الوقت نفسه بطريقة لإنقاذه من أيدي الشعب.

وكان الناس سيقضون عليه بكل تأكيد، لو لم تخطر ببال ماركيسي حيلة مفاجئة. فقد حدث أن رأى نفسه بمنجى من كل حراس البلدة، فهرع بأسرع ما يستطيع إلى ممثل الحاكم، وقال له:

ـ الرحمة، بالله عليك! ذلك الرجل الشرير سلبني كيس نقودي وفيه مئة فلورين ذهبي؛ فأرجوك أن تقبض عليه كي أسترد مالي.

ولدى سماع كلامه، أسرع حوالي عشرة حراس مسلحين إلى حيث كان السيد مارتيلينو يُعذب، وتمكنوا بمشقة من إبعاد الجموع. واقتادوه إلى قصر الحاكم، مهشماً ومنهكاً بأيدي الغاضبين. ولحق به كثيرون ممن أحسوا أنه قد خدعهم، وحين رأوا أنه قد اعتقل كلص سارق، وجدوا أنها تهمة مناسبة لتوريطه أكثر، وبدؤوا جميعهم يقولون إنه قد سرق منهم أكياس نقودهم. فاقتيد إلى القاضي، وهو رجل صارم ومتصلب، فأخذه وبدأ باستجوابه.

ولكن مارتيلينو كان يرد مازحاً، وكأن تلك المحنة ليست شيئاً يستحق الذكر. فغضب القاضي وأمر بأن يجلدوه، كي يجبره على الاعتراف بما يقال عنه، ويرسله بعد ذلك إلى المشنقة. عندئذ أدرك مارتيلينو خطورة وضعه، وحين عاد القاضي يسأله عن صحة الاتهامات الموجهة إليه، قال:

ـ إنني مستعد، يا سيدي، للاعتراف لكم بالحقيقة، ولكن أجبر كل واحد ممن يتهمونني بأن يخبرك أين ومتى سرقت كيس نقوده، وأنا سأخبرك إذا ما كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح.

فقال له القاضي:

ـ لا بأس في هذا.

وعندما استدعى جماعة منهم وسألهم، حصل منهم على أجوبة مختلفة: أحدهم ادعى أنه سرقه قبل ثمانية أيام، وآخر قبل ستة، وآخر قبل ثلاثة، وأكد بعضهم أنهم سُرقوا هناك بالذات. وبعد أن سمعهم مارتيلينو، أجاب:

ـ سيدي القاضي، إنهم لا يقولون الحقيقة. ويمكنني أن أثبت ذلك؛ فأنا لم أزر هذه البلدة من قبل قط، وقد وصلت إليها قبل قليل فقط، وذهبت فور وصولي ـ لسوء حظي ـ لرؤية ذلك الجثمان. ويمكن لكم التأكد من صدق كلماتي من الضابط الذي سجل دخولي، وكذلك من صاحب النزل. فإذا ثبتت لكم صحة ما قلته، فلا تتركوني تحت رحمة هؤلاء الأشرار الذين أساؤوا إليّ وضربوني.

وبينما الأمور تسير على هذا النحو، علم كل من ماركيسي وستيكي أن قاضي المدينة يتصرف بصرامة ضد صديقهما، وأنه أمر بجلده. فداخلهما خوف كبير، وقال

أحدهما للآخر:

ـ لقد وقعنا في ورطة سيئة؛ فقد أخرجناه من المقلاة لنلقي به إلى النار.

وسارعا في الذهاب إلى النزل، وشرحا لصاحبه ما جرى. فأخذهما هذا، وهو يضحك، لمقابلة شخص يدعى ساندرو أغولانتي، يعيش في تريفيسو وتربطه صداقة حميمة بحاكم المدينة. وبعد إخباره بكل ما حدث بالتفصيل، توسلوا إليه التدخل من أجل مارتيلينو. فضحك ساندرو كثيراً، وذهب إلى الحاكم وطلب منه إطلاق سراح مارتيلينو. وكان هذا ما حدث.

وعندما ذهبوا لإحضاره، وجدوه لا يزال أمام القاضي بقميصه الممزق وهو يرتعد من الخوف، لأن القاضي لم يشأ سماع شيء من دفاعه عن نفسه، بل كان مستعداً لإرساله إلى المشنقة، لأن لديه شيئاً من الكراهية ضد الفلورنسيين. ولم يشأ تسليمه إلى الحاكم، إلى أن أجبر على ذلك رغم أنفه.

وحين وجد مارتيلينو نفسه في حضرة حاكم المدينة، طلب منه، بلطف شديد، أن يسمح له بالمغادرة، لأنه لن يشعر بالخلاص، وبتحرره من حبل المشنقة، قبل أن يصل إلى فلورنسا. فضحك الحاكم كثيراً من هذه المغامرة، وأمر بأن تُعطى ثياب جديدة للثلاثة الذين خرجوا، خلافاً لكل أمل، من خطر كبير. وعادوا سالمين معافين إلى مدينتهم.

القصة الثانية

بعد أن يُجرد رينالدو دي آستي من ممتلكاته، يصل إلى قلعة جيجليلمو؛ فتؤويه سيدة أرملة إلى أن يعود سليماً معافى إلى بيته، بعد تعويض ما لحق به من ضرر.

ضحكت السيدات بصخب من نكبات مارتيلينو التي روتها نيفيله، ولأن فيلوستراتو كان أكثر الشبان بهجة، وكان يجلس إلى جوار نيفيله، فقد أمرته الملكة بأن يروي القصة التالية. فبدأ الكلام فوراً:

ـ سيداتي الجميلات، أرغب في أن أروي لكنّ قصة عن أمور ورعة وكاثوليكية، تختلط بالغراميات وبالنوائب، وسيكون سماعها مفيداً، لا سيما لمن يمضون تائهين في دروب الحب الوعرة، حيث سيلقى، كل من لم يقدم الكثير من الصلوات للقديس جوليانو، خبث المأوى حتى وإن وجد فراشاً جيداً.

حدث في أزمنة المركيز أزو فيرارا، أن ذهب تاجر يدعى رينالدو دي آستي، لشأن من شؤون تجارته، إلى مدينة بولونيا. وبعد إنجاز مهامه، وبينما هو عائد إلى بيته، حدث له لدى الخروج من فيرارا، ومسيره باتجاه فيرونا، أن التقى بأشخاص بدا عليهم أنهم تجار، لكنهم كانوا في الحقيقة قطاع طرق وأناساً أشراراً. فصادقهم وانضم إليهم بلا حذر.

وحين رأى هؤلاء أنه تاجر، قدروا أنه يحمل معه مالاً. وقرروا فيما بينهم أن يسلبوه ماله في أول فرصة تسنح لهم. ومن أجل ذلك، وكي لا تخامره أية شكوك، راحوا يتحدثون إليه كما لو أنهم أناس مسالمون وطيبون. لا يتكلمون معه إلا عن النزاهة والوفاء، متظاهرين بأنهم من أكثر الناس لطفاً ووداعة. ولأن رينالدو كان يسافر وليس معه من رفقة إلا خادمه وحصانه، فقد ابتهج للقائه بمثل تلك الرفقة الطيبة. وهكذا راحوا يتنقلون في الحديث من موضوع إلى آخر، مثلما يحدث عادة في مثل هذه الحالات. وانتهى بهم الأمر إلى الحديث عن الصلوات التي يتوجه بها الناس إلى الله. فقال أحد اللصوص:

ـ وحضرتك، أيها الرجل الصالح، أي صلاة تتلوها وأنت مسافر؟..

فأجابه رينالدو بالقول:

ـ أنا في الحقيقة رجل جاهل وفظ، أهتم بالأمور المادية، ولا أحفظ إلا القليل من الصلوات؛ وأعيش على الطريقة القديمة، فأجعل من القرشين أربعاً وعشرين. ولكنني اعتدت عند السفر، مع ذلك، ولدى مغادرتي النزل في الصباح، أن أتلو صلاة «أبانا الذي في السماء» وصلاة «يا قديسة مريم»، لروح أب القديس جوليانو وروح أمه، متضرعاً إلى الله وإليه أن يوفرا لي مأوى طيباً في الليل. وقد تعرضت مرات كثيرة لأخطار كبيرة، فنجوت منها جميعها، ووجدت نفسي أوفق في الليل بالعثور على مأوى آمن. وأنا، لهذا السبب، أؤمن إيماناً راسخاً بالقديس جوليانو، وعلى شرفه أقول إنني حصلت على هذا

الفضل من الله؛ ولا أظن أنه يمكنني السفر نهاراً، ولا الوصول آمناً إلى الليلة التالية، إذا أنا لم أصلِ هذه الصلاة في الصباح.

فقال له الذي سأله:

ـ وهل تلوت صلاتك صباح هذا اليوم؟..

فأجاب رينالدو:

ـ بكل تأكيد.

فقال ذاك في نفسه، وهو يعرف ما الذي سيحدث له: «لن تنفعك صلاتك في شيء، لأن مأواك سيكون سيئاً هذه الليلة إذا لم تخالفنا الظروف». ثم أضاف قائلاً له:

ـ أنا أيضاً سافرت كثيراً، ولكنني لم أتل هذه الصلاة قط، مع أنني سمعت كثيرين يمتدحونها؛ ولم يحدث أن كان ذلك سبباً في ألا أوفق بمأوى مريح. وسترى أينا سيكون مأواه أفضل هذه الليلة، أنت الذي صليت هذه الصلاة أم أنا الذي لم أتلُها. ولكنني أتلو بالمقابل «الدروبستي» أو «الإنتميراتا» أو «من الأعماق»، وهي أفضل بكثير على حد قول جدة لي.

وواصلوا طريقهم وهم يتحدثون على هذا المنوال، عن أمور كثيرة. وبينما اللصوص يتحينون الفرصة والمكان المناسبين لتنفيذ نواياهم الخبيثة، حدث أن وصلوا في وقت متأخر إلى الجانب الآخر من قلعة جيجليلمو، وفي أثناء عبورهم نهراً، رأى أولئك الثلاثة أن الوقت قد تأخر، وأن المكان مقفر وبعيد عن الأنظار، فانقضوا على التاجر وسلبوه كل ما لديه. وتركوه عارياً إلا من قميص، قائلين له:

ـ اذهب لترى إذا كان قديسك جوليانو سيوفر لك مأوى جيداً هذه الليلة، أما قديسنا فسوف يوفره لنا. ثم عبروا النهر وانصرفوا. أما خادم رينالدو، فمثل أي وغد، لم يفعل شيئاً لمساعدة سيده عندما رآهم يسلبونه، بل هرب مرعوباً على متن الحصان، ولم يتوقف عن الجري حتى بلغ قلعة جيجليلمو؛ فدخل إليها ووجد فيها مأوى. وكان الليل قد تقدم، فلم يكلف نفسه مزيداً من عناء الاهتمام بالأمر. أما رينالدو الذي ظل حافياً وبالقميص فقط، فلم يدر ماذا يفعل، وهو يرى البرد يشتد، والثلج يهطل بشدة. ولأن الليل كان يتقدم، وكان هو يرتجف من البرد، وأسنانه تصطك، فقد بحث في ما حوله عن ملاذ يأوي إليه

كي لا يموت من البرد. ولكنه لم يجد شيئاً، لأن تلك البلاد شهدت حرباً، قبل بعض الوقت، وكان كل شيء فيها مدمراً. فتوجه مدفوعاً بشدة البرد القارس، نحو قلعة جيجليلمو، وهو يجهل إذا ما خادمه قد هرب إليها أو إلى مكان آخر. وكان يفكر في أنه إذا استطاع الدخول إليها، فسوف يوفر له الله عوناً ما.

غير أن ظلمة الليل أدركته وهو على بعد ميل من القلعة، فوصل متأخراً جداً، ووجد أبوابها مغلقة، وجسورها مرفوعة، ولم يستطع الدخول. راح يبكي من الألم والقنوط، وينظر في ما حوله باحثاً عن ملجأ يقيه، على الأقل، من سقوط الثلج عليه. فلمح بيتاً على سور القلعة، يبرز قليلاً إلى الخارج، ففكر في البقاء تحت بروزه إلى أن يطلع الصباح. وحين وصل إلى هناك، وجد باباً مغلقاً تحت ذلك البروز، فجمع بعض القش الذي وجده هناك، وجلس عليه متألماً ومحزوناً، يشكو نكبته مراراً وتكراراً للقديس جوليانو، قائلاً له إنه لا يستحق الثقة التي عقدها عليه. ولكن القديس جوليانو كان يحبه كثيراً، فوفر له دون تأخير مأوى جيداً. فقد كانت تعيش في تلك القلعة سيدة أرملة، ذات جسد بارع الجمال، أحبها المركيز أزو حبه لحياته، وكان كلما أراد اللقاء بها، يأتي إليها في البيت الذي لاذ رينالدو بالاحتماء تحت بروزه. وكان المركيز ينوي الحضور في ذلك اليوم للنوم معها، فأرسل يطلب منها، سراً، أن تعد له حماماً جيداً وعشاء فاخراً.

وإذ كان كل شيء جاهزاً، ولم يعد هناك ما تنتظره المرأة إلا مجيء المركيز، جاء خادم إلى الباب يحمل أخباراً من المركيز يقول فيها إنه اضطر إلى السفر بصورة مفاجئة؛ ويطلب منها ألا تنتظره، ورحل في الحال. فلم تدر السيدة، وقد تضايقت كثيراً، ما الذي ستفعله. وقررت أخيراً، أن تستحم بالحمام المهيأ للمركيز، ثم تتناول العشاء وتأوي إلى فراشها، وهكذا دخلت إلى الحمام. وكان هذا الحمام قريباً من الباب حيث ينام رينالدو المسكين خارج المدينة. وبينما المرأة في الحمام، سمعت بكاء رينالدو وارتجافه، فاستدعت خادمتها وقالت لها:

ـ أطلي خارج السور، عند هذا الباب، وانظري من هناك وما الذي يفعله.

أطلت الخادمة من نافذة، ورأت على بياض الثلج رجلاً يقبع حافياً وليس عليه سوى قميص ويرتجف من البرد؛ فسألته من يكون. كان رينالدو يكاد لا يقوى على نطق الكلام من شدة البرد، فقال لها متلعثماً من يكون ولماذا هو في ذلك الوضع، متوسلاً

إليها ألا تتركه يموت من البرد. أحست الخادمة بالشفقة عليه، ورجعت إلى سيدتها وأخبرتها بكل شيء. فأشفقت السيدة عليه أيضاً، وتذكرت أن لديها مفتاحاً لذلك الباب الذي يُستخدم أحياناً لإدخال المركيز خفية، فقالت:

- اذهبي وافتحي الباب دون ضجة؛ فهنا لدينا هذا العشاء الذي لا يوجد من يأكله، أما بشأن إيوائه فلدينا متسع كبير.

أطرت الخادمة كثيراً على إنسانية سيدتها. وذهبت وفتحت الباب للرجل وأدخلته. وحين رأته السيدة يدخل وهو على وشك أن يتجمد، قالت له:

- أسرع أيها الرجل الطيب، وادخل ذلك الحمام، فهو لا يزال دافئاً.

ودون أن ينتظر الرجل أن تكرر عليه القول، انصاع لطلبها وأحس بالانتعاش في ذلك الدفء، وبدا له أنه يعود من الموت إلى الحياة. وأرسلت إليه السيدة بعد ذلك بعض ثياب زوجها، المتوفى قبل وقت قصير، فكانت كما لو أنها قد صُنعت على مقاسه. وبانتظار ما ستأمره به السيدة، راح رينالدو يحمد الله والقديس جوليانو لأنهما أنقذاه من ليلة مشؤومة كالتي كانت بانتظاره، ولأنهما اقتاداه إلى مأوى طيب، كما يبدو. بعد ذلك، وكانت السيدة قد استراحت قليلاً، وأمرت بإشعال نار كبيرة في المدفأة، ثم جاءت وسألت الخادمة عما جرى لذلك الرجل الطيب. فأجابتها الخادمة:

- لقد ارتدى الملابس ياسيدتي؛ وهو رجل وسيم، ويبدو أنه شخص رفيع المقام ومهذب.

- اذهبي إذن واستدعيه - قالت السيدة - واطلبي منه أن يأتي إلى هنا قرب المدفأة، وأخبريه أنه سيتعشى معي، لأني لم أتناول عشائي بعد.

عندما دخل رينالدو إلى الصالون، ورأى السيدة التي بدت له رفيعة المقام، واعتبرها باهرة الجمال؛ انحنى لها انحناءة احترام، وشكرها على كرم ضيافتها بأفضل ما وجده من كلمات. رأته السيدة وسمعته، فبدا لها مثلما أخبرتها الخادمة، فاستقبلته بسعادة وألفة، وأجلسته إلى جانبها، بجوار المدفأة، ثم سألته عن المحنة التي أوصلته إلى هناك، فروى لها رينالدو كل شيء بالتفصيل. كانت المرأة قد سمعت شيئاً عن وصول خادم رينالدو إلى القلعة. فصدقت كل ما رواه لها التاجر، وأخبرته كذلك بما تعرفه عن خادمه، وكيف يمكنه العثور عليه بسهولة في الصباح.

وبعد أن أُعدت المائدة مثلما رغبت السيدة، كان رينالدو قد غسل يديه، وجلسا كلاهما لتناول العشاء. كان طويل القامة، وسيماً وجميل الوجه، مهذباً، ورجلاً متوسط العمر. تأملته المرأة عدة مرات بكثير من الافتتان، وبما أن مشروع النوم مع المركيز كان قد أيقظ فيها شهوة الجسد في تلك الليلة، فقد عمدت بعد العشاء، ورفع المائدة، إلى التشاور مع خادمتها عما إذا كان من المناسب ـ وقد خيب المركيز ظنها ـ أن تستغل هي الفرصة التي وفرتها لها المصادفة. وحين أدركت الخادمة رغبة سيدتها، شجعتها على ذلك، فرجعت السيدة إلى جوار النار، وكانت قد تركت رينالدو وحيداً هناك، وبدأت ترمقه بنظرات ولهٍ، وقالت له:

ـ آه يا رينالدو! لماذا أنت مستغرق في التفكير؟.. أتظن أنك لن تستعيد حصانك وبعض الملابس التي فقدتها؟.. دع عنك الهموم، وابتهج، فأنت في بيتك. بل أقول لك أكثر من هذا، فحين أراك بثياب زوجي المتوفى هذه، تراودني مئة رغبة في ضمك وتقبيلك. ولولا خشيتي من أن يضايقك ذلك، لأقدمت عليه.

وحين سمع رينالدو هذه الكلمات، ولاحظ بريق عينيها المتألقتين، ولم يكن بالشخص الغبي، توجه إليها فاتحاً ذراعيه، وقال:

ـ يمكنني أن أؤكد يا سيدتي، أنني مازلت حياً بفضل الله وفضلك. وحين أتذكر المأزق الذي أخرجتني منه، أرى أنني سأكون جاحداً وناكراً للجميل ما لم أسعَ جاهداً لعمل كل ما يسعدك. فضميني وقبليني مثلما ترغبين، وسأفعل أنا ذلك بسعادة لا تقل عن سعادتك.

ولم يحتاجا بعد ذلك إلى مزيد من الكلام. فالمرأة التي كانت تتأجج بالشهوة، سارعت إلى إلقاء نفسها بين ذراعيه، وراحت تضمه وتقبله ألف مرة، وقبّلها هو مثل ذلك؛ ثم نهضا من هناك، وانتقلا إلى المخدع. واستلقيا من فورهما لتبادل الغرام، وفعلا ذلك عدة مرات خلال تلك الليلة. وعندما طلع الصباح، نهضا بناء على طلب السيدة. وكي لا يثير ذلك شكوك أحد، قدمت له السيدة بعض الثياب القديمة، وملأت كيسه بالنقود، وأرشدته إلى المكان الذي سيجد فيه خادمه. ثم طلبت منه أن يُبقي ما حدث سراً. وأخرجته من الباب الصغير الذي دخل منه.

وما إن انتشر ضياء الصباح، حتى تظاهر بأنه آت من بعيد، فدخل إلى القلعة عندما

فُتحت أبوابها، ووجد هناك خادمه. وعندما انتهى من ارتداء ثيابه التي كانت في أمتعته، وهمّ بركوب حصان الخادم، ظهر ـ بما يشبه المعجزة ـ الأشرار الثلاثة الذين سطوا عليه في اليوم السابق. وكان قد أُلقي القبض عليهم، وجرى اقتيادهم إلى القلعة، لجريمة أخرى اقترفوها. وقد اعترفوا هم أنفسهم بكل ما فعلوه، فأعيد إليه جواده، وثيابه، ونقوده، ولم يفقد سوى أربطة جوربيه التي كان الأشرار يجهلون ما فعلوه بها.

لهذا كله، حمد رينالدو الله والقديس جوليانو مجدداً، وامتطى جواده، وعاد سالماً ومعافى إلى بيته. أما الأشرار الثلاثة، فقد اقتيدوا في اليوم التالي، لتتدلى أقدامهم في الهواء.

القصة الثالثة

يبدد ثلاثة شبان ثروتهم، ويحل بهم الإفلاس. وبينما ابن أخت لهم يعود يائساً إلى دياره، يلتقي برئيس دير، ثم يتبين له أنه ابنة ملك إنكلترا. فيتزوجان، ويتمكن الشاب من إنقاذ أخواله من الإفلاس، ويعيدهم إلى وضع لائق.

استمعت النساء، وكذلك الرجال، بتقدير كبير إلى مغامرات رينالدو دي آستي، وأشادوا بورعه، وحمدوا الله والقديس جوليان لتقديمهما العون إليه عندما احتاجه. ولم تُتهم السيدة بالفجور، وإن قيل ذلك خفية، لأنها استغلت الهبة التي أرسلها الله إلى بيتها. وبينما السيدات الخبيثات يتداولن حول تلك الليلة السعيدة التي أمضاها الرجل، أدركت بامبينيا التي كانت إلى جانب فيلوستراتو أن دورها في القص قد حلّ، فراحت تفكر في ما سترويه، وبعد أن تلقت أمر الملكة، بدأت الكلام بجرأة لا تقل عن سعادتها، قائلة:

ـ سيداتي الغاليات، مهما جرى الحديث عن شؤون الثروة، فإنه يبقى هناك ما يقال لمن يهتم بهذه الأمور. ولا يستغربن أحد من هذا، إذا ما كان يفكر بفطنة في أن كل الأشياء التي نقول ببلاهة إنها «لنا»، إنما هي في يد القدر، وبترتيب من أحكامه الخفية، تنتقل

باستمرار من شخص إلى آخر، ومن هذا إلى ذاك، بلا نظام معروف. وهذا مثبت بوضوح في كل الأمور وفي كل الأيام، بل إنه تأكد كذلك في بعض هذه القصص. ولسوف أضيف قصة أخرى ستروقكم، على ما أظن، وربما هي لا تخلو من فائدة للمستمعين.

كان هناك في مدينتنا نبيل يدعى السيد تيبالدو، يتحدر على حد زعم البعض من آل لامبيرتي، بينما يزعم آخرون أنه من آل أغولانتي؛ وربما كان الأخيرون على خطأ، لاسيما أن أسلوب حياة أبناء ذلك النبيل، كانت تتفق مع ما فعله آل أغولانتي على الدوام.

ولكن الحقيقة، ودون التعمق في مسألة إلى أي البيتين ينتمي، أنه كان أحد أغنى السادة في زمنه. وكان له ثلاثة أبناء، أكبرهم يدعى لامبيرتو، والثاني تيدالدو، والثالث أغولانتي. وكان هؤلاء الشبان الثلاثة متأنقين ومهذبين، بالرغم من أن أكبرهم لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره بعد، عندما مات والدهم السيد تيبالدو مخلفاً لهم ميراثاً يضم كل ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة. وحين وجدوا أنفسهم، فجأة، وسط كل ذلك الثراء، دون ضابط آخر سوى متعتهم الخاصة، راحوا ينفقون دون كابح، ويستعينون لخدمتهم بأعداد كبيرة من الخدم. ويقتنون الكثير من الخيول، والكلاب والصقور. ويقيمون الحفلات باستمرار، وصاروا لا يكتفون بعمل ما يليق بالسادة فقط، بل انغمسوا كذلك في كل ما ترغب فيه نزواتهم الشبابية.

ولم ينقض وقت طويل، حتى تناقص الكنز الذي خلّفه لهم أبوهم. ولأن الإيرادات لم تعد تكفي لتغطية النفقات، لم يجدوا مفراً من رهن أو بيع ممتلكاتهم. وهو ما راحوا يفعلونه بالتدريج؛ فاليوم يبيعون قطعة من الأرض، وفي الغد أخرى، إلى أن انتبهوا عندما لم يكد يبقى لديهم شيء. عندئذ فتح لهم الفقر عيونهم، ولكن الوقت كان قد فات. فاستدعى لامبيرتو في أحد الأيام أخويه، وأوضح لهما أحوال حساباتهم، مشيراً إلى ما كانوا قد ورثوه، وإلى كل ما أنفقوه. ونصحهما أخيراً بأن يبيعوا القليل المتبقي لديهم، ويغادروا المكان حيث سيكون لفقرهم مظهراً فاقعاً. وكان هذا ما فعلوه، وتوجهوا إلى إنكلترا دون أن يودعوا أحداً. وعاشوا هناك في بيت صغير، مقترين في الإنفاق، وعملوا في الربا، متقاضين فوائد باهظة. فتوصلوا بذلك إلى استعادة مكانتهم، وحالفهم الحظ في جمع مال كثير خلال زمن قصير. عندئذ رجعوا، واحداً بعد الآخر، إلى فلورنسا، حيث استعادوا قسماً كبيراً من أملاكهم، فضلاً عن أملاك كثيرة أخرى، وتزوجوا.

ولمواصلة تجارة القروض في إنكلترا، أرسلوا إلى هناك ابن أخت لهم، يدعى أليساندرو. وظلوا هم الثلاثة في فلورنسا، ينفقون دون حساب، متجاهلين ما تعنيه النقود، وأنهم صاروا أرباب أسر. وكانوا يحصلون من التجار ومن أناس آخرين على قروض كبيرة.

وكانت نفقاتهم تلك تستمد التعزيز من النقود التي يرسلها إليهم أليساندرو الذي صار يقدم قروضاً للبارونات مقابل قلاعهم وأملاكهم التي تدر عليه أموالاً كثيرة. وبينما الأخوة الثلاثة ينفقون ببذخ، ويحصلون على قروض كلما نفدت منهم النقود، معلقين آمالهم دائماً على ما سيأتيهم من إنكلترا، حدث رغم إرادة الجميع أن اندلعت حرب في تلك البلاد، بين الملك وابنه، فانقسمت الجزيرة البريطانية إلى فريقين. وصارت قصور البارونات ـ وهي مصدر إيرادات قروض ابن الأخت ـ بعيدة عن متناول يده، ولم يعد لديه دخل آخر. وبانتظار أن يحل السلام بين الأب وابنه، بقي الشاب في الجزيرة. وكان الأخوة الثلاثة من جانبهم، يواصلون الإنفاق في فلورنسا دون اقتصاد، ودون كابح.

وبعد عدة سنوات، كانت الأمور لا تزال على حالها؛ وفقد الأخوة الثلاثة ثقة الدائنين بهم؛ ولأن ديونهم تراكمت، فقد سجنوا وصُودرت ممتلكاتهم، ولم يعد لهم أمل بإطلاق سراحهم إلا بتسديد ديونهم كلها. وتفرقت زوجاتهم وأبناؤهم في الأرياف، يعيشون حياة البؤس والفقر، دون أدنى أمل في المستقبل. أما أليساندرو من جهته، فحين رأى أن الحرب في إنكلترا لا تنتهي، بدأ يخشى على حياته، وقرر العودة إلى إيطاليا. وفي الطريق، لدى خروجه من بروجيس، شاء له الحظ أن يلتقي برئيس دير يرتدي مسوحاً بيضاء، يرافقه عدد كبير من الكهنة وحاشية، وتتقدم موكبه أمتعة كثيرة. وعلى جانبيه يمضي فارسان مسنان من أقرباء الملك، ولأنهما كانا يعرفان أليساندرو، فقد عرضا عليه أن يرافقهما في الرحلة. وبعد مسيرة قصيرة، سألهما عن الموكب الغريب الذي يمضي معهم، وعن الوجهة التي يذهبون إليها. فأجاباه:

ـ من يمضي على جواده في المقدمة هو شاب من أقربائنا، جرى اختياره، منذ وقت قريب، ليكون رئيس دير في أحد أفضل أديرة إنكلترا. وبما أن سنه لا تتناسب مع متطلبات المنصب، فإننا ذاهبون إلى روما لنطلب من البابا أن يصدر له إذناً خاصاً ويثبته في المنصب. ولكننا نريد الحفاظ على سرية مهمتنا.

وكان رئيس الدير الشاب يمضي في المقدمة حيناً، وفي مؤخرة حاشيته حيناً آخر،

وهو ما يفعله السادة في السفر عادة. وفي إحدى تنقلاته تلك، انتبه إلى وجود أليساندرو، فأمعن النظر في فتوته، وأعجب بتهذبه ووسامته، فتعاطف معه أكثر من تعاطفه مع أي شخص آخر، ودعاه إلى جانبه. وتبادل معه الحديث، وأبدى رئيس الدير اهتماماً بمعرفة وجهته وخططه ومشاريعه. فأجابه أليساندرو بكل صراحة، وعرّفه بنفسه بقدر ما يستطيع. وحين تأمل رئيس الدير في أجوبته الصريحة واللبقة، وأُعجب بتهذبه ورأى فيه سيداً شهماً، ازداد تعاطفه معه. فأشفق عليه لسوء طالعه، وواساه ومنحه الأمل قائلاً له إنه إذا كان رجل خير، فإن الله سيرأف به، وسيعيده إلى حالته السابقة. شكره أليساندرو على اهتمامه، وعلى كلماته المواسية، واضعاً نفسه من جديد في خدمته. وفي أثناء المسير، كانت تعتمل في صدر رئيس الدير أمور أكثر فأكثر بشأن أليساندرو. وحدث بعد أيام أن وصلوا إلى بلدة لم يكن فيها ما يكفي من النزل، حيث قرر رئيس الدير التوقف. وبناء على نصيحة أليساندرو الذي كان يعرف صاحب نزل هناك، قرروا النزول فيه. وكان الشاب قد توصل إلى أن يكون أشبه بقهرمان رئيس الدير. ولأنه كان بارعاً في هذا الشأن، فقد وزع الحاشية في البلدة بأفضل صورة ممكنة. وبعد أن تناول رئيس الدير عشاءه، ومضى شطر لا بأس به من الليل، وكان الجميع قد ناموا، سأل أليساندرو صاحب النزل عن المكان الذي سينام فيه، فأجابه على ذلك:

ـ الحقيقة أنني أجهل أين ستنام. فالمكان بكامله ممتلئ، كما ترى، وسننام أنا وأسرتي على المقاعد. ولكن حجرة رئيس الدير تؤدي إلى مستودع مؤونة صغير، يمكنني أن أهيئ لك فيه سريراً. فإذا رغبت، يمكنك أن تقضي الليل هناك.

فرد عليه أليساندرو:

ـ وكيف سأدخل إلى حجرة رئيس الدير، وهي صغيرة جداً، ولشدة ضيقها لم يستطع النوم فيها أي واحد من الكهنة؟.. ولو أنني عرفت بوجود متسع هناك لكنت وضعت ستارة كي ينام أحد الكهنة في مستودع المؤونة، ويخدم رئيس الدير إذا ما احتاج شيئاً.

فأجاب صاحب النزل:

ـ هكذا هي الحال، وإذا أنت شئت يمكنك النوم هناك. فرئيس الدير قد نام، والستائر قد أسدلت. وسأضع أنا لك، بكل حذر، فراشاً هناك كي تنام عليه.

وحين رأى أليساندرو أنه يمكن عمل كل ذلك دون إزعاج رئيس الدير، أعطى موافقته، وقبع هناك بأقصى ما استطاعه من صمت. ولكن ما حدث هو أن رئيس الدير لم يكن نائماً، وإنما كان يفكر بشدة في رغباته الغريبة، فسمع الحديث بين صاحب النزل وأليساندرو. وأحس كذلك بدخول أليساندرو لينام، فأسعده ذلك وقال في نفسه: «لقد منحني الله الفرصة لإشباع رغباتي؛ وعليّ أن انتهز الفرصة، لأنها قد لا تعود». وصمم على استغلال الوضع، مقدراً أن جميع من في النزل قد ناموا، فنادى أليساندرو بصوت خافت جداً، طالباً منه أن يأتي لينام معه. وقد فعل الشاب ذلك، بعد إبداء كثير من الرفض. عندئذ وضع رئيس الدير يداً على صدر الشاب، وداعبه مثلما تفعل الفتيات المولعات مع عشاقهن؛ فاستغرب أليساندرو ذلك أشد الاستغراب، وخشي من أن رئيس الدير يفعل ذلك مدفوعاً بحب مشين. وحدس هذا الأخير شكوك أليساندرو، ففتح قميصه الذي يرتديه مبتسماً؛ وأمسك يد أليساندرو ووضعها على صدره قائلاً:

ـ أبعد عنك هذه الفكرة البلهاء يا أليساندرو، وابحث هنا تحت القميص لترى ما الذي أخبئه.

وحين وضع الشاب يده في صدر رئيس الدير، وجد نهدين مدورين، متينين وناعمين، كأنهما من العاج؛ عندئذ أدرك أنه مع امرأة، ودون مزيد من الانتظار، احتضنها وحاول تقبيلها. فقالت له:

ـ قبل أن تقترب أكثر، اسمع ما سأقوله لك. أنا امرأة، كما ترى، ولستُ رجلاً. وقد خرجت عذراء من بيتي لأذهب إلى البابا كي يزوجني. وعندما تعرفتُ عليك قبل أيام، إما لحسن حظك، أو لسوء حظي، أو لأي سبب آخر، وقعتُ في حبك مثلما لم تحب امرأة رجلاً قط. ولهذا رغبت في أن أتخذك زوجاً لي، بدلاً من أي رجل آخر. أما إذا كنتَ لا ترغب في، فارجع إلى فراشك.

ومع أن أليساندرو لم يكن يعرف من تكون، إلا أنه قدر من الموكب الذي يرافقها أنها لا بد أن تكون امرأة غنية ونبيلة، فضلاً عن أنها باهرة الجمال. لهذا كله، ودون مزيد من التفكير، أجاب بأنه يوافق بكل سعادة على الزواج منها. عندئذ نهضت هي، وجثت أمام صورة منقوشة لسيدنا يسوع المسيح، ثم وضعت خاتماً في إصبع أليساندرو، وزوجت نفسها له بحضور الرب. وبعد ذلك ناما معاً متعانقين بمتعة كبيرة لكليهما، وأمضيا على

تلك الحال ما تبقى من الليل. وفي الصباح، اتفقا على ما سيفعلانه، ثم نهض أليساندرو، وغادر الغرفة دون أن يدري أحد أين أمضى ليلته. وبسعادة كبيرة، انطلق في الطريق مع رئيس الدير ومعيته. وبعد مسير أيام عديدة، وصلوا إلى روما. فاستراحوا هناك عدة أيام، ثم ذهب رئيس الدير والفارسان وأليساندرو وحدهم لمقابلة البابا، وبعد طقوس تقديم الاحترام الصارمة، بدأ رئيس الدير الكلام على النحو التالي:

ـ أيها الأب المقدس، لا أحد يعرف خيراً منكم أن من يريد العيش الشريف، عليه تجنب الفرص التي يمكن لها أن تؤدي به إلى سلوك آخر. ولأنني أرغب في العيش بصورة شريفة، إذا أمكن لي ذلك، فقد هربت ومعي قسم كبير من خزينة ملك إنكلترا الذي هو أبي. لقد أراد أن يزوجني من ملك اسكتلندا، وهو سيد عجوز. ومن أجل المجيء إلى هنا، كي تتولى قداستك تزويجي، انطلقتُ في طريق السفر. ولم أهرب لأن ملك اسكتلندا عجوز هرم وحسب، وإنما كذلك خوفاً من أن يدفعني شبابي، إذا ما تزوجت منه، إلى اقتراف عمل مناف للشرائع الإلهية، أو مخالف لنبل دماء أبي الملكية. والرب الذي يعرف وحده ما يناسبنا، أحاطني برحمته ووضع في طريقي من سيكون زوجي ـ وأشارت إلى أليساندرو ـ، من يملك المزايا الكافية ليكون زوجاً لسيدة عظيمة المقام، وإن لم يكن نبل دمائه بنقاء الدماء الملكية. وقد اخترته وأريده هو، ولن أقبل بأحد سواه، حتى لو وقف أبي والآخرون ضدي. وهكذا فإن السبب الذي قادني إلى هنا قد انتفى، ولكنني سعدت بالطريق الذي قطعته، ولأنني استطعت أن أزور الأماكن المقدسة في هذه المدينة، مثلما سعدت بزواجي الذي عقدته على أليساندرو أمام الرب. وأنا أرغب الآن في إشهاره أمامكم وأمام الحاضرين. وأطلب منكم متوسلة أن يكون ما أرضى الله وأرضاني، موضع رضاكم أيضاً، فتمنحني مباركتكم التي ستتيح لنا العيش معاً، والموت في نهاية المطاف.

ذهل أليساندرو حين عرف أنها ابنة ملك إنكلترا، وأحس بسعادة كبيرة وخفية. ولكن ذهول الفارسين كان أعظم، ولولا أنهما في حضرة البابا، لكانا ألحقا بأليساندرو، وربما بالمرأة، أذى ما.

وذهل البابا من جانبه للمسوح التي ترتديها المرأة، ومن اختيارها للزوج بنفسها، لكنه أدرك أنه ليس من مخرج آخر للوضع، فتنازل عند طلبها؛ ثم هدأ من غضب مرافقيها، وصالحهما مع أليساندرو والمرأة. وعندما حلّ اليوم التالي، وبحضور كثير من الرجال

البارزين والكردينالات، استدعى البابا المرأة؛ وكانت ترتدي ملابس ملكية، فبدت باهرة الجمال، وراق مرآها الجميع. وكان أليساندرو بدوره يرتدي ثياباً أنيقة، لا يبدو معها مرابياً، وإنما من سلالة ملكية. وحضر كذلك المرافقان، وأقيمت عندئذ مراسم الزفاف. وبعد الانتهاء، ودعهم البابا مقدماً مباركته. ولدى مغادرة روما، قرر أليساندرو وزوجته الذهاب إلى فلورنسا، حيث كان الخبر قد انتشر، فقوبلا بالترحاب. وأمرت المرأة بإطلاق سراح الإخوة الثلاثة، بعد أن سددت ديونهم كلها لجميع الدائنين، وأعيدت إليهم بذلك، وإلى زوجاتهم، ممتلكاتهم المصادرة. وأخيراً، ووسط تمنيات الجميع، سافر أليساندرو وزوجته، وأخذا معهما أغولانتي، من فلورنسا إلى باريس، حيث استقبلهما ملك فرنسا بالحفاوة والتكريم. وغادر الفارسان إلى إنكلترا، ليتوسطا لدى العاهل الإنكليزي. وقد بذلا جهوداً كبيرة تكللت بعفو الملك عن ابنته، واستُقبل العروسان في احتفالات كبيرة، فجعل صهره فارساً، ومنحه كونتية كورنيلس. وقد عمل أليساندرو بحكمة توصل معها إلى مصالحة الملك وابنه، ونشر السلام في الجزيرة، ما أكسبه محبة جميع أهل البلاد. واسترد أغولانتي كل ديونه هناك. وبعد أن صار ثرياً بذلك، وسُمي فارساً، رجع إلى فلورنسا. وعاش الكونت سعيداً مع زوجته، ويقول البعض، إنه بحكمته وشجاعته، وبمساعدة حميه، غزا اسكوتلندا وفتحها، وصار ملكاً على تلك البلاد.

القصة الرابعة

تحول لاندولفو روفولو إلى قرصان حين حلّ به الفقر، وبعد اعتقاله على يد الجنويين، تغرق السفينة وينجو على صندوق خشبي مملوء بجواهر ثمينة، فتلتقطه امرأة في غورفو، ويعود ثرياً إلى بيته.

إلى جوار بامبينيا كانت تجلس لوريتا، فرأت أن القصة قد بلغت نهايتها، ودون أي انتظار بدأت الكلام على هذا النحو:

ـ الصديقات العزيزات، أرى أنه لا يمكن لضرب من ضروب الحظ أن يكون أفضل من رفع أحدهم من قيعان البؤس إلى مكانة الملوك. وهذا ما أكدته لنا قصة بامبينيا، من خلال ما جرى لأليساندرو. ولأنه لا بد لأي قصة نرويها من أن تتفق مع هذه الحدود، فسوف أروي قصة، وإن كانت تضم قدراً أكبر من البؤس، إلا أنها لا تصل إلى مثل هذه النهاية المبهرة. فبالمقارنة مع القصة السابقة، لن تُسمع قصتي بمثل ذلك الاهتمام، ولسوف أُعذر لأني لن أبلغ ذلك الحد.

يقال إن شاطئ البحر من ريجيو حتى غايتا هو الأجمل في إيطاليا كلها. وتوجد هناك، بالقرب من ساليرنو، منطقة متوغلة في البحر، يدعوها أهلها شاطئ العاج، حيث تكثر القرى الصغيرة، والحدائق والينابيع، والرجال الأغنياء المبادرون في أعمال التجارة. وبين تلك المدن الصغيرة تبرز واحدة تدعى رافيللو، وفيها أيضاً رجال أغنياء. وقد كان هناك، قبل زمن، رجل واسع الثراء، يدعى لاندولفو روفولو. ولم يكن هذا الرجل راضياً مع ذلك عن ثروته، ورغب في مضاعفتها، فأوشك أن يفقدها كلها، بل وأن يفقد معها حياته أيضاً.

فبعد أن فكر ملياً، مثلما يليق بالتجار، قرر أن يشتري سفينة ضخمة، وأنفق كل أمواله في ملئها ببضائع متنوعة، واتجه بها إلى قبرص. وحين وصل إلى هناك، وجد فيها سفناً كثيرة محملة بالبضائع نفسها التي جاء بها. فاضطر إلى أن يهدي ما لديه من بضائع، كي يتخلص منها، وهو في يأس شديد. وحين رأى نفسه وقد افتقر فجأة، أحس بغضب عظيم، ووجد أن الحل له هو الموت، أو أن يسرق لكي يستعيد اعتباره ولا يعود فقيراً إلى المكان الذي خرج منه غنياً. فوجد من يشتري منه سفينته الكبيرة، وبهذه النقود وبما باعه من تجارته، اشترى سفينة صغيرة وخفيفة، مناسبة لأعمال القرصنة، وسلّحها جيداً بما يتطلبه ذلك الاستخدام لها. وراح يعترض سفن الآخرين، وخاصة الأتراك، ويستولي عليها.

وجاءه الثراء عن هذا الطريق أوفر من التجارة. فقد تمكن، خلال سنة، من سلب الكثير من السفن التركية، فاستعاد بذلك كل ما خسره في تجارته، بل إنه ضاعف ثرواته. ولأنه أخذ العبرة من خسارته الأولى، وخشي أن يتعرض لأخرى جديدة، فقد قرر وضع حد لذلك النمط من الحياة والعودة إلى بلاده ثانية. ولخوفه من التجارة، لم يعمل على استثمار أمواله، بل حملها معه في سفينته الصغيرة التي كسب بها تلك الأموال، وبدأ

رحلة العودة.

وحين وصل إلى الأرخبيل، تعالت في الليل رياح الشلوق الهائلة، فحرفته عن طريقه، وهيجت البحر بطريقة لم تستطع معها السفينة الصغيرة مقاومة الموج. ولم يجد من وسيلة سوى اللجوء إلى خليج صغير، فيه جزيرة صغيرة محمية من الريح. وما كاد يمضي عليه سوى وقت قصير في ذلك المكان، حتى وصلت سفينتان جنويتان كبيرتان، هاربتان مما هرب منه لاندولفو. وما إن رأى من فيهما السفينة الصغيرة، وعرفوا صاحبها المشهور بثرائه؛ ولأنهم كانوا من الكواسر الطامعين في المال، قرروا أن ينتزعوا منه كل ما يملكه. فأغلقوا عليه طريق الخروج من الخليج، ثم أنزلوا بعد ذلك قوة من بحارتهما، مسلحين بأسلحة نارية ووزعوهم بحيث لا يمكن لأحد أن يغادر السفينة دون أن يتعرض للهجوم. واقتربوا من سفينة لاندولفو، وسيطروا بسرعة على بحارتها. ثم نقلوا لاندولفو إلى إحدى سفينتيهم، وأخرجوا كل ما في سفينته، وأغرقوها على الفور.

وفي اليوم التالي، تبدلت الريح، وواصلت السفينتان رحلتهما تدفعهما ريح غربية مواتية طوال ذلك اليوم. لكن ريحاً عاتية هبت في الليل، وأبعدت إحدى السفينتين عن الأخرى. وارتطمت السفينة التي كان فيها لاندولفو، ارتطاماً قوياً، برصيف صخري قريب من جزيرة سيفالونيا، فانشقت وتشظت كما يتشظى الزجاج عند ضربه بجدار. وحين امتلأت السفينة بالماء، ومثلما يحدث في مثل هذه الحالات، طفت الصناديق والأمتعة والألواح الخشبية. وكان الوقت ليلاً حالك السواد، فحاول البحارة السباحة بكل السبل ـ إذا استطاعوا السباحة ـ بحثاً عن لوح خشبي يستعينون به. أما عاثر الحظ لاندولفو، وإن يكن قد طلب الموت مرات ومرات، مفضلاً إياه على العودة فقيراً إلى بيته، غير أنه أحس بخوف شديد حين رأى الموت قريباً منه، وخشي منه مثل الآخرين. فعثر على قطعة خشب، وتمسك بها جيداً، لعل الله يشاء له النجاة عليها. وظل على تلك الحال، متشبثاً كيفما اتفق له، والريح تطوح به في كل اتجاه، حتى الصباح. ومع ميلاد اليوم الجديد، نظر لاندولفو في ما حوله، فلم ير شيئاً سوى البحر والغيوم، وصندوق يطفو فوق الأمواج، ويدنو منه أحياناً، فيبعث فيه الخوف من صدمة قوية تُغرقه. وكلما اقترب الصندوق منه كثيراً، يبذل لاندولفو جهداً جباراً، بما تبقى له من قوة، ليبعده بيده.

وفجأة حدثت زوبعة، وطوحت ضربة قوية من البحر بالصندوق، وألقت به على لوح

لاندولفو الخشبي؛ فسقط الرجل في الماء. وعندما تمكن من الخروج إلى السطح سابحاً، يدفعه الخوف أكثر مما تدفعه قواه، رأى أن اللوح الخشبي قد ابتعد كثيراً. ولخوفه من ألا يتمكن من الوصول إليه، دنا من الصندوق، وكان قريباً منه، وانبطح فوق غطائه كيفما استطاع، وحاول الإبقاء عليه مستوياً بمساعدة ذراعيه. وبهذه الطريقة، يتقاذفه البحر من جانب إلى آخر، دون أي طعام، وشارباً أكثر مما يرغب فيه، دون أن يدري أين هو، ودون أن يرى سوى الأمواج، أمضى ذلك النهار والليلة التالية.

بعد ذلك، بفضل إرادة إلهية أو بقوة الريح، وبينما الناجي من الغرق الذي تحول إلى إسفنجة، يتشبث بكلتا يديه بحافة الصندوق، وصل إلى شاطئ جزيرة كورفو، حيث كانت امرأة تغسل ثيابها بالملح والرمل على الشاطئ. وحين رأت لاندولفو يقترب، تراجعت خائفة وهي تصرخ. فلم يقل شيئاً لأنه كان عاجزاً عن الكلام، ولا يكاد يرى. ولكنه حين وصل إلى اليابسة، أمعنت المرأة النظر في الصندوق، وبدأت تميز ذراعي الرجل ووجهه، واستطاعت أن تتخيل عندئذ حقيقته. ومدفوعة بالشفقة، تقدمت قليلاً في البحر، وكان قد هدأ، وأمسكت الناجي من الغرق من شعره وسحبته مع الصندوق، إلى أن أخرجته من الماء. وراحت تفصل يديه عن الصندوق بصعوبة كبيرة. وطلبت من ابنتها أن تتولى سحب الصندوق، ووضعت لاندولفو، كما لو أنه طفل صغير، في حوض ماء ساخن، وراحت تغسله وتفركه إلى أن أعادت إليه الدفء وشيئاً من قواه المستنفدة. وعندما رأت أن الوقت صار ملائماً، جعلته يأكل بعض الحلوى، ويشرب بعض النبيذ، واعتنت به بضعة أيام أخرى على أحسن وجه، إلى أن وجد نفسه في أفضل حال. عندئذ قررت المرأة أن تسلمه الصندوق الذي كان سبب نجاته. ولم يكن لاندولفو يتذكره، لكنه أخذه حين قدمته المرأة إليه؛ فوجده خفيفاً جداً لا يؤمل أن يكون فيه إلا شيء ضئيل القيمة. وقد أراد بعد ذلك أن يعرف ما فيه، وعندما فتحه في غياب المرأة، وجد بداخله كمية كبيرة من الأحجار النفيسة، بعضها مفلتة وبعضها مرصعة. ولأنه كان عليماً بهذه الأمور، فقد عرف قيمتها الكبيرة؛ فحمد الله على ذلك، ووجد لنفسه العزاء.

ولكنه كان قد نُكب مرتين من قبل، ولخشيته من نكبة ثالثة، عمل بحذر كي يرجع إلى بيته ومعه ذلك الكنز. فلفه ببعض الخرق، على خير ما استطاع، وأعطى الصندوق للمرأة، طالباً منها مقابل ذلك كيساً. فاستجابت لطلبه وقدمت له ما أراد،

وشكرها هو من أعماق قلبه، وانطلق مسافراً والكيس على كتفه. انتقل إلى برنديسي في مركب، ومن هناك إلى تراني. وفيها التقى ببعض رفاقه، فأعطوه ملابس، بعد أن سمعوا ما واجهه من مشقات، باستثناء أمر الصندوق. وأعطوه فوق ذلك جواداً وخادماً ليرافقه حتى رافيللو، وهي هدف سفره. وعندما وصل إلى هناك، بدا له أنه صار في مكان آمن، فحمد الله، ثم راح يتفحص الأحجار الكريمة التي يحملها في الكيس بدقة أكبر، فقدر أنها من نوعية جيدة. ورأى أنه إذا ما تمكن من بيعها بسعر مناسب، فسوف يضاعف الثروة التي كان يملكها قبل سفره. وبعد أن أنجز عملية البيع، أرسل إلى كورفو، مبلغاً محترماً من المال، مكافأة للمرأة الطيبة التي تلقى منها المساعدة؛ وتذكر أيضاً رفاقه في تراني الذي قدموا له الملابس. واحتفظ لنفسه بما تبقى؛ ولكنه لم يرغب في العودة إلى التجارة، وظل يعيش حياة شريفة حتى النهاية.

القصة الخامسة

سافر أندريوشيو من بيروسا إلى نابولي لشراء خيول، فتعرض في إحدى الليالي لثلاثة أخطار كبيرة، نجا منها جميعها. وعاد في النهاية إلى بيته ومعه ياقوتة.

جاء دور فياميتا في الكلام، فقالت إن مسألة صندوق الأحجار الثمينة ذكّرتها بقصة أخرى، أحداثها بمثل تلك الخطورة أو تزيد، على الرغم من اختلافها؛ فهي بدل أن تحدث خلال عدة سنوات، وقعت في ليلة واحدة، وبدأت حديثها كما يلي:

- كان يعيش في بيروسا، كما روي لي، شاب يدعى أندريوشيو دي بربيتو، يعمل في تجارة الخيول. وحين علم أن هناك في نابولي سوقاً جيدة، وضع في جرابه خمسمئة فلورين ذهباً، وسافر إلى هناك مع تجار آخرين. ولا بد من التنبيه إلى أنه لم يكن قد قام قط من قبل بمثل هذه الرحلة. وصل إلى نابولي مساء يوم أحد، وفي اليوم التالي، بعد أن حصل على معلومات من صاحب النزل، توجه إلى السوق، حيث رأى الكثير من الخيول.

وتحمس لكثير منها، ودخل في مساومات حول العديد من الخيول، ولكنه لم يبرم أية صفقة. وعندئذ، كي يُثبت أنه يريد الشراء وقادر على ذلك، أخرج جراب النقود أمام الجميع. وكانت هناك آنذاك شابة صقليّة، بالغة الجمال ومستعدة لإرضاء رغبات أي رجل مقابل القليل. مرت بجانبه، دون أن يراها، إلا أنها أمعنت النظر إلى جرابه، وفكرت: «وما الذي سيكون أفضل من أن تكون هذه النقود كلها لي؟..» وواصلت طريقها. وكانت تمضي معها عجوز صقليّة أيضاً، نظرت إلى أندريوشيو، واقتربت منه وعانقته بمودة. وحين انتبهت الشابة إلى ذلك، بدأت تراقب دون أن تقول شيئاً. وكان أندريوشيو يعرف العجوز، فصافحها بحرارة، ووعدته هي بأن تذهب لتراه في النزل، وانصرفت. وقد واصل أندريوشيو مساوماته بعد ذلك، ولكنه لم يشتر في ذلك اليوم شيئاً.

الفتاة التي رأت ما يحمله الشاب من نقود أولاً، ثم رأت العلاقة الحميمة في تعامله مع العجوز، قررت الاستيلاء على تلك النقود، أو على أكبر قدر تستطيعه منها؛ ولأجل ذلك سألت العجوز عن أصل الشاب وعمله، وهو ما أجابت عليه العجوز بكل تفصيل، قائلة إنها تعرفت على أبيه في صقلية، ثم بعد ذلك في بيروسا. وأخبرتها كذلك من أين هو آت، وأسباب مجيئه إلى هناك.

وبعد أن حصلت الشابة على معلومات كاملة عن نسب أندريوشيو، وعن أسماء أفراد أسرته، وضعت خطة خبيثة لتحقق مطمعها، بالاستناد إلى المعلومات التي حصلت عليها. ولدى عودتها إلى البيت، أوكلت إلى العجوز أعمالاً تبقيها مشغولة لأطول وقت ممكن، بحيث لا تتمكن من زيارة أندريوشيو. وأرسلت إلى نزل الشاب خادمة كانت قد دربتها جيداً على مثل تلك الخدمات. وعندما وصلت إلى هناك، حالفها الحظ بالعثور عليه وحيداً إلى جانب الباب. فسألت عن اسمه، وحين أجابها بأنه هو نفسه الشخص المعني، قالت له:

ـ سيدي، هناك سيدة من هذه المدينة تريد التحدث إليكم، إذا كان ذلك يرضيكم.

وأندريوشيو الذي كان يرى نفسه شاباً وسيماً، ظن أن تلك السيدة قد أغرمت به، لأنه لا وجود في نابولي لمن هو مثله. فأجابها بأنه مستعد للذهاب، وسألها أين ومتى يمكنه لقاؤها. فأجابت الخادمة:

ـ عندما ترغب يا سيدي، لأنها تنتظرك في بيتها.

فقال لها أندريوشيو، دون أن يخبر صاحب النزل بأي شيء:

- هلمي بنا. امضي أمامي وأنا سأتبعك.

قادته الخادمة إلى بيت سيدتها، وكان البيت في حي يدعى مالبيرتوجيو؛ اسم يدل على مدى شرف المكان. لكن الشاب لم يكن يعرف شيئاً من ذلك، ولم يخامره أي شك، وإنما كان يظن أنه ذاهب إلى مكان بالغ النبل، لزيارة سيدة محترمة. دخل إلى البيت وراء الخادمة. وعندما صعد الدرج، كانت الفتاة قد نادت سيدتها قائلة: «هاهوذا أندريوشيو قد حضر»؛ فرأى سيدة تنتظره في أعلى الدرج. كانت شابة، ممشوقة القوام وباهرة الجمال، ترتدي ثوباً وافر الزركشة. عندما اقترب منها أندريوشيو، نزلت ثلاث درجات وهي تفتح ذراعيها، وألقت بهما حول عنقه. ظلت تعانقه لبعض الوقت غير قادرة على قول شيء، كما لو أن انفعالاً قوياً يثقل عليها ويمنعها من الكلام. وبعد ذلك، قبّلت جبهته وهي تبكي، وقالت بصوت مرتعش:

- حللت أهلاً يا حبيبي أندريوشو.

استولى عليه الذهول والدهشة لتلك المداعبات، وأجاب:

- أرجو يا سيدتي أن تكوني في أحسن حال!

أمسكت الشابة بيده واقتادته إلى صالة، ثم أدخلته من هناك، دون أن تقول شيئاً، إلى مخدعها المعطر بالورد وزهر البرتقال وروائح أخرى. رأى أندريوشيو سريراً حسن الزينة، مع ستائر كثيرة معلقة، كما هي العادة الشائعة هناك. فظن حين رأى كل هذه الأشياء أنه مع سيدة رفيعة الشأن. جلسا كلاهما على صندوق، إلى جوار الفراش، وقالت له:

- أنا واثقة يا أندريوشيو أنك قد دُهشت لمعانقاتي لك، وكذلك لدموعي، فأنت لا تعرفني، وربما لم تسمع بذكر اسمي من قبل قط. ولكنك ستسمع الآن شيئاً يدهشك أكثر من كل ما سبق: أنا أختك. وبعد أن أنعم الله عليّ بالتعرف إلى واحد من أخوتي (وأنا راغبة في التعرف إليهم جميعاً)، يمكنني الآن أن أموت مطمئنة. ولأنك ربما لا تعرف ما الذي أكلمك عنه، فسوف أروي لك كل شيء... قد تكون علمت بأن بيترو، أعني أبانا، قد عاش طويلاً في باليرمو. وكان هناك، لشدة طيبته، محبوباً من الجميع. وبين الكثيرين الذين أحبوه، لم يحبه أحد مثلما أحبته أمي، وهي امرأة نبيلة، وكانت أرملة

آنذاك. كان حبها قوياً إلى حد تجاوزت معه احترامها لأبويها وأخوتها، وتجاوزت العفة والحشمة، ونسيت نفسها بالذات. ومن ذلك الحب ولدتُ أنا. وبعد بعض الوقت، اضطر بيترو إلى السفر إلى بيروسا، تاركاً إياي، وأنا بعد صغيرة جداً، مع أمي؛ ولم يعد يتذكر شيئاً عنها أو عني. ولولا أنه أبي لكنت أغلظت في ذمه لما أبداه من جحود تجاه أمي «ودع جانباً الحب الذي كان عليه أن يحيطني به باعتباري ابنته، ولستُ مولودة من امرأة وضيعة أو منحطة». ولكن إصلاح الوقائع السيئة يصير أصعب كلما مرّ عليها مزيد من الزمن. وباختصار، تخلى أبي عني وأنا طفلة في باليرمو، وحين كبرت إلى ما صرتُ عليه الآن تقريباً، زوجتني أمي، وهي امرأة غنية، من رجل نبيل من أغريجنتو، يدعى سيرجينتي. ولشدة حبه لي ولأمي، انتقل للعيش معنا في باليرمو. ولأنه رجل متنفذ وشديد السطوة، بدأ يدبر الاتفاقات مع ملكنا كارلوس. وحين علم بذلك الملك فيدريكو، اضطررنا إلى الهرب من صقلية، في وقت كنتُ آمل فيه أن أكون السيدة الأولى في الجزيرة. عندئذ أخذنا بعض الأشياء القليلة التي استطعنا حملها «وأقول قليلة بالنظر إلى الأشياء الكثيرة التي كانت لدينا»، وهجرنا الأراضي والقصور، والتجأنا إلى هذه البلاد. وكان الملك كارلوس ممتناً لنا، فأعاد إلينا الاعتبار، وعوضنا عن بعض ما فقدناه، ومنح زوجي – أي صهرك – أملاكاً مناسبة، ونحن بفضل ذلك لا نعيش حياة بائسة، كما ترى. وهكذا تجدني هنا، حيث قيض لي أن أراك بفضل نعمة ربانية، وليس بفضلك يا أخي الحبيب.

وما إن انتهت من الكلام، حتى عانقته وهي تبكي، وقبّلت جبهته.

حين سمع أندريوشيو هذه القصة المتقنة والمرتبة جيداً، دون أن تتلعثم المرأة ولو مرة واحدة، ولأنه تذكر أن أباه قد أمضى فترة في باليرمو، ولأنه يعرف، من جهة أخرى، عادات الشبان العازبين وميلهم إلى الحب في شبابهم؛ ولرؤيته الدموع الرقيقة والمعانقات والقبلات العفيفة، صدق كل ما قيل له. وعندما انتهت السيدة من حديثها، قال لها:

ـ لا تستغربي يا سيدتي شدة دهشتي، لأن أبي لم يأت مطلقاً، ولا بأي حال، على ذكرك؛ وإذا كان قد فعل ذلك، فأنا لا علم لي به، ولم أعرف أي شيء عنكِ. ولكم يسعدني أن ألتقي بأخت لي، بينما أنا وحيد هنا. وليس هناك من رجل، مهما علا مقامه، لا تكونين جديرة بتقديره. ولكنني أرجو منك أن توضحي لي أمراً واحداً: كيف عرفتِ من أكون؟..

فأجابت على سؤاله بالقول:

ـ لقد أخبرتني بذلك، صباح اليوم، امرأة بائسة تعمل لدي في أحيان كثيرة، وقد كانت تعرف أبانا، كما أخبرتني، منذ زمن طويل في باليرمو أولاً، ثم في بيروسا بعد ذلك. ولو أنني لم أر أنه من الأفضل أن تأتي أنت إليّ لا أن أذهب أنا إليك، لكنتُ ذهبت منذ وقت بعيد إليك.

وبعد هذه الكلمات، بدأت تسأل عن الأقارب، وتذكر أسماء الجميع، فرداً فرداً، وأندريوشيو يجيب على كل شيء، ويقتنع أكثر فأكثر بما لا يلائمه الاقتناع به.

ولأن حديثهما امتد طويلاً، وكان اشتداد الحر منهكاً، فقد أمرت بإحضار نبيذ يوناني وحلوى، وقدمت الشراب إلى أندريوشيو. وقد أراد هو الذهاب، لأن موعد عشائه قد حان، لكنها لم تسمح له بالمغادرة، وأبدت أقصى ما تستطيعه من التصنع، وقالت له وهي تعانقه:

ـ يا لي من تعسة! وكم هو قليل حبك لي! كيف يمكن لك أن تفكر بهذا وأنت في بيت أختك التي لم تكن تعرفها، حيث كان عليك أن تنزل منذ وصولك، وتريد مغادرتها والذهاب إلى النزل! غير ممكن، ستتعشى اليوم معي! ومع أن زوجي غائب عن البيت، إلا أنني أعرف جيداً، كامرأة، كيف أكرمك. فلم يجد أندريوشيو ما يرد به على كلامها، وقال:

ـ إنني أحبك مثلما يتوجب أن تُحب الأخت، ولكنني إذا لم أذهب لحضور العشاء، فسأجعل الناس هناك ينتظرون، وأتسبب في حدوث بلبلة.

فردت عليه عندئذ:

ـ تبارك الرب! أتظن أنه ليس لدي خدم في البيت فأرسلهم ليقولوا لهم ألا ينتظروك؟.. وإن كان أكثر لباقة أن تذهب أنت بنفسك لتخبر رفاقك وتدعوهم للعشاء هنا، ثم تغادرون جميعكم معاً.

فرد عليها أندريوشيو بأنه غير راغب في العشاء مع رفاقه هذه الليلة، وأنه قرر إرضاءها. وتظاهرت هي بدورها بأنها قد أرسلت تخبر النزل بألا ينتظروه على العشاء. وبعد أحاديث طويلة وكثيرة، جلسا لتناول أطعمة لذيذة ومتنوعة، إلى أن اشتد ظلام الليل.

عندئذ نهض أندريوشيو وقرر الانصراف، فاعترضت هي متذرعة بأن نابولي ليست بالبلاد التي يمكن التجول فيها في ظلام الليل، وخاصة إذا كان المرء غريباً؛ ومثلما أرسلت من قبل إشعاراً بالا ينتظروه على العشاء، أضافت إليه إشعاراً آخر بأنه لن يذهب للنوم هناك أيضاً. وصدق هو كل ذلك، ومتورطاً في اعتقاده الزائف، ظل سعيداً إلى جانبها.

وقد واصلا تبادل الحديث بعد العشاء، وبعد مضي وقت طويل، أبقته في مخدعها، ومعه صبي يقوم على خدمته، ومضت مع نساء أخريات إلى غرفة أخرى.

كان الحر شديداً، وعندما ظل أندريوشيو وحيداً، خلع ملابسه ووضعها على حافة السرير. ولأنه أحس بحاجة طبيعية لإفراغ بطنه، سأل الصبي أين يمكنه عمل ذلك. فأشار الخادم إلى باب في الركن، وقال:

ـ ادخل هناك.

دخل أندريوشيو واثقاً، ووضع قدمه على لوح خشبي، وكان ذلك اللوح غير مثبت من الطرف المقابل، فاختل توازنه عندما ارتفع اللوح، وهوى إلى القاع. لكن رحمة الله قضت بألا يتأذى من السقوط، وإن يكن قد تلوث بالبراز الذي يملأ المكان. ولكي تعرفوا حقيقة ذلك المكان، سأصفه لكم.

إنه زقاق ضيق، كتلك المعهودة بكثرة بين بيتين متقابلين، وعلى عارضتين تصلان بين البيتين، كانت هناك بضعة ألواح خشبية، وفيها فتحة للجلوس فوقها. وواحد من تلك الألواح الخشبية هو الذي أدى إلى سقوط أندريوشيو، فصرخ بخوف شديد منادياً الخادم، لكن الخادم كان قد ذهب لاستدعاء السيدة عندما سمعه يسقط. فهرعت المرأة إلى المخدع، وبحثت عن ملابس أندريوشيو، فوجدتها وفيها النقود التي كان يحملها معه ببلاهة، لشدة حرصه عليها. وحين صار بين يديها ما خططت للحصول عليه بخبث، أغلقت الباب الذي سقط منه أندريوشيو، ولم تعد تولي مصيره أي اهتمام.

عندما لاحظ هذا الأخير أن الخادم لا يستجيب لندائه، صرخ بكل ما يستطيع من قوة، ولكن دون جدوى. فدفعه ذلك أخيراً إلى الشك بوجود خدعة، فتسلق جداراً يفصل ذلك المكان عن الشارع، وخرج وراح يطرق باب البيت الذي يعرفه جيداً. طرقه بإلحاح، ولكن ذلك كله لم يُجدِ نفعاً، وحين أدرك مدى نكبته، راح يقول باكياً:

ـ يا لي من تعس، فقد أضعت في برهة خمسمئة فلورين وأختاً!

وبعد كلام كثير آخر، بدأ يضرب الباب برأسه ويصرخ، وحدث أن كثيراً من الجيران كانوا مستيقظين، فنهضوا متضايقين. وقالت إحدى خادمات السيدة وهي تتظاهر بالنعاس:

ـ من الذي يطرق الباب على هذا النحو؟..

فرد أندريوشيو:

ـ ألا تعرفينني. أنا أندريوشيو، أخو السيدة فلورديليس.

فكان رد الخادمة على ذلك:

ـ إذا كنت سكران أيها الرجل الطيب، فاذهب لتنام، وارجع غداً؛ فأنا لا أعرف أندريوشيو ولا البلاهات التي تقولها. انصرف ودعني أنم إذا كان هذا يرضيك.

ـ ماذا تقولين؟.. ـ صاح أندريوشيو ـ لا تعرفين ما أقوله؟.. أنت تعرفين بالطبع. أما إذا كانت القرابة في صقلية على هذا النحو، وتنتهي بهذه السرعة، فأعيدي إليّ على الأقل ملابسي التي تركتها عندكم، وسأذهب بأمان الله.

فردت على ذلك وهي تكاد تضحك:

ـ أرى أنك تحلم أيها الرجل الطيب.

وحين قالت هذا، دخلت داخلاً وأغلقت النافذة في الوقت نفسه. واقتنع أندريوشيو بخبثها، فتبدل حزنه إلى غضب، وصمم على أن يستعيد بالقوة ما لم يستطع استعادته بالكلام. تناول حجراً كبيراً، وراح يطرق الباب بضربات غاضبة أقوى من السابق. فاعتبره بعض الجيران المستيقظين شخصاً خبيثاً يتصنع تلك الكلمات كي يزعج المرأة، فتضايقوا من ضرباته على الباب، وأطلوا من النوافذ، ومثل كلاب تنبح على غريب، بدؤوا يقولون له معاً:

ـ أنت سفيه بمجيئك في مثل هذا الوقت إلى بيت امرأة طيبة، لتتكلم بهذه الحماقات! فانصرف بأمان الله، ودعنا ننم أيها الرجل الطيب! وإذا كان هناك ما ترغب في تسويته، فارجع غداً في الصبح، ولا تسبب لنا مزيداً من الإزعاج هذه الليلة.

شجعت هذه الكلمات الرجل الذي كان في داخل البيت، وهو قواد تلك المرأة. ودون أن يكون قد رأى أو سمع شيئاً، راح يصرخ من النافذة:

ـ من هناك في الأسفل؟..

فرفع أندريوشيو رأسه لدى سماع ذلك الصوت، ورأى رجلاً لا بد أن يكون، من هيئته، خليلاً للمرأة المحتالة، له لحية سوداء كثة؛ ويبدو كما لو أنه قد خرج من الفراش لتوه، لأنه كان يفرك عينيه. فرد عليه خائفاً:

ـ أنا أخو المرأة التي تسكن هنا.

ودون أن يتيح له الآخر أن يكمل كلامه، قال له بصوت أشد صرامة من السابق:

ـ لا أدري لماذا لم أنزل وأشبعك ضرباً، أيها الحمار المزعج والسكير، لأنك لن تتركنا ننام هذه الليلة.

والتفت إلى الداخل وأغلق النافذة.

وكان بعض الجيران يعرفون ذلك الشخص جيداً، فنصحوا أندريوشيو قائلين:

ـ انصرف بالله عليك، أيها الرجل الطيب، ولا تجعله يقتلك هذه الليلة؛ انصرف، فهذا خير لك.

وارتعب أندريوشيو من صوت ذلك الرجل وهيئته، ومدفوعاً بنصيحة أولئك الذين يبدو أن الشفقة عليه قد حركتهم للتحدث إليه، قرر وهو متعب ويائس من استعادة نقوده، أن يعود إلى النزل. ولكنه لم يكن يعرف من أين يمضي إليه بالضبط.

ولضيقه من نفسه بسبب النتانة التي تفوح منه، رغب في الوصول إلى البحر ليغتسل؛ فانحرف إلى اليسار، ومضى في شارع روغا كاتالانا. وبينما هو متوجه إلى الحي العلوي من المدينة، رأى رجلين قادمين باتجاهه وهما يحملان مصباحاً. ولخشيته من أن يكونا من حراس العدالة، أو أن يكونوا رجالاً آخرين يمكن أن يلحقوا به الأذى، اختبأ في بيت خرب وجده هناك. لكن الرجلين، كما لو أنهما يفعلان ذلك عن قصد، دخلا إلى المكان نفسه، وأنزل أحدهما بعض الأدوات التي كان يحملها وراح ينظر إليها ويتحدث عنها مع الآخر. وبينما هما يتبادلان الحديث، قال أحدهما:

ـ ما هذا؟.. إنني أشم أنتن رائحة شممتها في حياتي.

ورفع المصباح قليلاً، فظهر له أندريوشيو التعس. فسأله مستغرباً:

ـ من هناك؟..

ظل أندريوشيو صامتاً، ولكنهما اقتربا منه ومعهما الضوء، وسألاه عما يفعله هناك، ولماذا هو نتن إلى هذا الحد. فروى لهما كل ما جرى له. فتصورا أين يمكن أن يكون قد حدث له ذلك، وقال أحدهما للآخر:

ـ لا بد أن يكون الأمر قد جرى في بيت القواد القاتل بوتافويكو، ثم التفت إلى الشاب وقال له:

ـ مع أنك فقدت نقودك أيها الرجل الطيب، عليك أن تحمد الله كثيراً، لأنك بسقوطك حيث سقطت، أمكن لك أن تخرج حياً. ولو أنك نمت هناك، لكانوا قتلوك. ولكن، ماذا يفيدك التحسر؟.. فأنت لن تستطيع استعادة نقودك، لأن نيل نجوم السماء سيكون أسهل، كما أنهم قد يقتلونك إذا ما علموا أنك تتحدث في الأمر.

وبعد هذا القول، تبادل الرجلان الكلام فيما بينهما، وقالا له:

ـ انظر، لقد أشفقنا عليك، ويمكنك المجيء معنا لإنجاز عمل ننوي القيام به، وسيكون نصيبك أكبر مما فقدته.

فوافق أندريوشيو، وهو يائس، على العرض.

كان قد دُفن في ذلك اليوم أسقف نابولي، فيليبو مينوتولو؛ وقد حمل معه إلى القبر مجموعة من الحلي النفيسة، وياقوتة تساوي أكثر من خمسمئة فلورين ذهبي. وكانت خطة الرجلين تقضي بتجريد الميت من كل شيء، وهذا ما أوضحاه لأندريوشيو. فأحس هذا بالطمع، وانطلق معهما إلى الكنيسة الكبرى. ولأن رائحة نتانته كانت قوية جداً، فقد قال أحدهما:

ـ ألا يمكننا أن نجد طريقة يغتسل بها قليلاً، لأن رائحته كريهة جداً؟..

فرد الآخر:

ـ بلى، فنحن قريبون من بئر تبقى البكرة معلقة فيه، ومعها دلو كبير؛ فلنذهب، وليغتسل هناك جيداً.

ولدى وصولهم إلى البئر، وجدوا الحبل، ولكنهم لم يجدوا الدلو، فقررا ربط أندريوشيو بالحبل، وإنزاله إلى البئر؛ وعندما ينتهي من الاغتسال، يشدان الحبل ويخرجانه.

وكان هذا ما فعلاه.

وحدث بعد أن أنزلاه في البئر، أن بعض حراس سيد المدينة أحسوا بالعطش، إما بسبب إنهاكهم من الحر، وإما لأنهم ركضوا كثيراً متعقبين أحدهم، فجاؤوا إلى هناك ليشربوا. وعندما رآهما الرجلان، سارعا إلى الهرب. فلم يهتم لهما الحراس الآتين للشرب. وفي تلك الأثناء، كان أندريوشيو قد استحم، فحرك الحبل. وبدأ الحراس الظمأى بسحب الحبل، معتقدين أن الدلو المملوء بالماء معلق في نهايته. ولكن أندريوتي، حين وجد نفسه عند مستوى حافة البئر، تمسك بها بكلتا يديه كي يخرج. فخاف الآخرون، وأفلتوا الحبل وانطلقوا راكضين. فاستغرب أندريوشيو كثيراً، ولو لم يكن قد تمسك جيداً بالحافة، لسقط ثانية في البئر، وربما كان قد تأذى أو مات. ولكنه خرج من هناك، ووجد عند البئر أسلحة، يعلم أن رفيقيه ما كانا يحملانها. فخاف وشكا سوء طالعه، دون أن يلمس شيئاً، وبدأ يمشي دون وجهة محددة. وبينما هو يمشي عاد للالتقاء برفيقيه، وكانا راجعين لإخراجه من البئر؛ وحين رأياه استولت عليهما الدهشة، وسألاه كيف خرج من هناك. فأجابهما بأنه لا يعرف، وشرح لهما ما جرى بالترتيب الذي عرفه، وبما وجده خارج البئر. فضحك الآخران وأخبراه بهروبهما، ومن هم الذين أخرجوه. ودون مزيد من الكلام، لأن الليل كان قد انتصف، انطلقوا نحو الكنيسة الكبرى. وبعد دخولهم إليها، توجهوا إلى المدفن، وكان كبيراً ومن المرمر. وبالأدوات التي معهم، رفعوا اللوحة الرخامية الكبيرة بحيث يمكن لشخص واحد أن ينسلّ تحتها، وثبتوها. وعندئذ قال أحد الرجلين:

ـ من الذي سيدخل هنا؟....

فرد الآخر:

ـ ليس أنا.

ـ ولا أنا ـ قال رفيقه، ثم أضاف: ـ فليدخل أندريوشيو.

ـ لن أفعل هذا ـ قال أندريوشيو.

فتوجه إليه الآخران، وقالا له:

ـ كيف لن تدخل؟.. إذا لم تفعل فسوف نضربك على رأسك بهذه الحدائد إلى أن تسقط ميتاً.

خاف أندريوشيو، وانسل إلى المدفن. وعندما صار في الداخل، فكر: «لقد جعلاني أدخل كي يخدعاني، وعندما أعطيهما كل شيء وأحاول الخروج من المدفن، سيذهبان بالغنيمة ويتركاني بلا شيء». فقرر الاحتفاظ بنصيبه، وتذكر الخاتم الذي سمعهما يتكلمان عنه، فانتزعه من إصبع الأسقف عندما عثر عليه، ووضعه في إصبعه؛ ثم تناول بعد ذلك عصا الكاهن، وتاجه، وقفازيه، ورداءه، وأعطى كل ذلك للآخرين قائلاً لهما إنه لا وجود لمزيد. فراحا يؤكدان أنه لا بد أن يكون الخاتم هناك، ويلحان عليه أن يبحث. فكان يتظاهر بأنه يفعل ذلك، ولأنهما كانا يبيتان النية الخبيثة كذلك، فقد رفعا دعامة الصفيحة الرخامية وهربا، تاركين أندريوشيو حبيساً.

حين رأى أندريوشيو ما حدث، حاول أن يرفع صفيحة الرخام بكتفيه وبرأسه، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. أخيراً، سقط مغمياً عليه فوق الأسقف، بحيث يمكن لمن يراه أن يتشكك حول أيهما أشد موتاً من الآخر. وعندما استعاد وعيه، بدأ يبكي بيأس، متخيلاً النهاية التي تنتظره؛ فإما أنه سيموت من الجوع في المدفن، وسط عفونة الجثة وديدانها، أو أنه سيُشنق كلص، إذا ما اكتشف وجوده أحد. ووسط هذه الأفكار المحزنة، سمع وقع أقدام عدة أشخاص في الكنيسة، وكان هؤلاء آتين ليحاولوا عمل ما فعله رفيقاه. وعندما فتحوا المدفن، وأسندوا اللوحة الرخامية إلى دعامة، راحوا يتجادلون حول من سيدخل، إلى أن قال كاهن منهم:

ـ أأنتم خائفون؟.. أتخشون أن يأكلكم؟.. الموتى لا يأكلون الأحياء. أنا سأنزل.

أسند صدره إلى حافة المدفن، ورأسه نحو الخارج، ودلى ساقيه إلى الداخل. فنهض أندريوشيو، وأمسك بإحدى قدمي الكاهن وحاول شده إلى أسفل. وحين أحس الكاهن بذلك، أطلق صرخة مدوية، وخرج من المدفن. فخاف الآخرون، وهربوا مذعورين كما لو أن مئة ألف شيطان يلحقون بهم، وتركوا المدفن مفتوحاً. فخرج أندريوشيو على الفور، سعيداً سعادة لم يكن يأمل بها، وغادر الكنيسة.

وعند الفجر، وبينما هو يتسكع على غير هدى، والخاتم في إصبعه، وصل إلى شاطئ البحر، ومن هناك توجه إلى النزل، فوجد رفاقه وصاحب النزل في قلق عظيم عليه. أخبرهم بما جرى، وبناء على نصيحة صاحب النزل، قرر مغادرة نابولي. ورجع إلى بيروسا كي يشتري خيولاً.

القصة السادسة

يُعثر على السيدة بيريتولا في جزيرة ومعها جديان اثنان، بعد أن تكون قد فقدت ابنين. ثم تسافر إلى لونيجيانا. وهناك يكون أحد ابنيها قد وجد عملاً في خدمة سيد وأحب ابنة سيده، فسجن لذلك. وعندما تتمرد صقلية ضد الملك كارلوس، تتعرف الأم على ابنها، فيتزوج من ابنة سيده، وحين يعثر على أخيه، يعينه في منصب رفيع.

ضحكت السيدات والشبان كثيراً للنوائب التي حلت بأندريوشيو، مثلما روتها فياميتا؛ وحين رأت إيميليا أن القصة قد انتهت، بدأت الكلام، بأمر من الملكة، على النحو التالي:

تبدلات الحظ المتعددة تؤدي إلى أحوال خطرة ومثيرة للغضب. ولكن كلما جرى الحديث عنها، يبدو كما لو أنها توقظ أذهاننا التي تغفو عندما يجاملها الحظ. لهذا يجب ألا يُغضب هذا النوع من القصص السعداء ولا التعساء، ذلك أنه ينبه الأولين ويمنح العزاء للآخرين. وهكذا، وبالرغم من أنه جرى الحديث كثيراً عن هذه الحالات، فسوف أروي قصة أخرى حزينة بقدر ما هي حقيقية، غير أنها تنتهي نهاية سعيدة؛ وهي تتضمن مرارات كبيرة، أشك معها أن تحلّيها السعادة التالية.

لا بد أنكن تعلمن، يا سيداتي الغاليات، أنه بعد موت الإمبراطور فيدريكو الثاني، جرى تتويج مانفريدو ملكاً على صقلية. وكان هناك نبيل من نابولي، يدعى أريغيتو كابيسي، يحظى بتقدير كبير من الملك، وكانت له زوجة جميلة ونبيلة، ومثله من نابولي، تدعى بيريتولا كاراشولا. وبينما كان أريغيتو يتولى حكم الجزيرة، علم أن الملك كارلوس الأول قد انتصر في بينيفينتو على مانفريدو وقتله، ووضع المملكة كلها تحت وصايته. ولأن ثقته قليلة بوفاء الصقليين، ولا يريد أن يتحول إلى تابع لعدو سيده، فقد قرر

الهرب. غير أنه جرى اعتقال كثيرين من أصدقاء الملك مانفريدو وأتباعه، وتسليمهم أسرى إلى الملك كارلوس، عندما سيطر هذا الأخير على الجزيرة فيما بعد. ووسط كل تلك الفوضى، لم تعد بيريتولا تعرف ما الذي حلّ بزوجها أريغيتو، ولخشيتها من وقوع امتهانات أخرى في ظل ذلك الوضع، هجرت كل ممتلكاتها؛ وصعدت إلى سفينة مع ابن لها في الثامنة من عمره، يدعى غودوفريدو، وهي حبلى بآخر وفقيرة معدمة، وهربت إلى ليباري، حيث وضعت مولودها الآخر وأسمته سكاشياتو (الطريد)، وبعد أن وجدت له مرضعاً، أبحرت في سفينة صغيرة لتذهب إلى نابولي وتلتحق بأهلها. لكن الأمور لم تجر مثلما اشتهت، إذ حرفت ريح قويه مسار السفينة، وبدلاً من أن تتوجه إلى نابولي، دفعتها إلى جزيرة بونزا، حيث دخلوا في خليج صغير، بانتظار أن تهدأ العاصفة. نزلت السيدة بيريتولا مع الآخرين إلى البر، ووجدت في الجزيرة مكاناً منعزلاً وبعيداً، فجلست تفكر في مصير زوجها أريغيتو. وصارت تفعل ذلك كل يوم، وبينما هي مستغرقة في أحزانها في أحد تلك الأيام، ودون أن ينتبه البحارة أو أي شخص آخر، حدث أن وصلت سفينة قراصنة استولوا على كل شيء، ومضوا متوغلين في البحر.

وعندما انتهت بيريتولا من حسراتها وأحزانها اليومية، رجعت إلى الشاطئ لترى ابنيها، كما هي عادتها، ولكنها لم تجد أحداً.

استغربت في أول الأمر، ثم تخيلت ما الذي لا بد أن يكون قد حدث، فتطلعت إلى البحر ورأت سفينة القراصنة، وكانت لا تزال غير بعيدة، وهي تمخر البحر وتقطر معها سفينة صغيرة. فأدركت أنها فقدت ابنيها، فضلاً عن فقدانها زوجها. وحين رأت نفسها هناك، وحيدة وفقيرة، لا تستطيع الوصول إلى أحد، أغمي عليها على الشاطئ وهي تنادي زوجها وابنيها. ولم يكن هناك من يعالج غيبوبتها بماء بارد أو علاج آخر، فظلت على تلك الحال لوقت طويل، هامت خلاله حيوية روحها على هواها. ولكن، عندما عادت قواها إلى جسدها التعس، راحت تنادي ابنيها بالنحيب والدموع، دون طائل، ومضت تبحث عنهما في الكهوف المجاورة، وحين أدركت أنه لا طائل من عملها ذاك، وأن الليل بدأ يخيم، أولت نفسها بعض الاهتمام. فابتعدت عن الشاطئ، وآوت إلى المغارة التي اعتادت التفريج عن همومها فيها.

وعندما انقضى الليل وسط خوف وحزن لا يوصفان، وبزغ الفجر، وانقضى موعد

صلاة الضحى، ولأنها لم تكن قد تناولت عشاء في الليلة السابقة، لم تجد مفراً، وقد عضها الجوع، من أن تأكل من الأعشاب التي تجدها. وبعد أن أكلت ما استطاعت، راحت تفكر في الحياة التي تنتظرها هناك. وبينما هي مستغرقة في هذه الأفكار، رأت عنزة تدخل مغارة قريبة منها، ثم رأتها تخرج وتتوغل في الغابة. توجهت المرأة إلى حيث دخلت العنزة، فوجدت هناك جديين صغيرين، ربما يكونان قد ولدا في ذلك اليوم بالذات؛ فبديا لها بديعين. ولأن حليبها من ولادتها الأخيرة لم يكن قد انقطع بعد، فقد احتضنتهما بحنان وأرضعتهما. لم يرفض الجديان ذلك، بل رضعا منها كما لو أنها أمهما؛ ولم يعودا يفرقان منذ ذلك الوقت بين الاثنتين. وبدا للسيدة أنها قد وجدت فيهما من يرافقها، فكانت تأكل العشب وتشرب الماء؛ وتبكي كلما تذكرت زوجها وابنيها، وما ينتظرها في المستقبل. وكانت مستعدة للحياة والموت هناك، بعد أن تآلفت مع العنزة وجدييها.

اعتادت المرأة على الحياة الوحشية، وكانت تمضي أيامها على هذا المنوال، عندما وصلت، بعد عدة شهور، سفينة لأناس من بيزا، إلى المكان الذي وصلته هي من قبل. وتوقفت السفينة هناك بضعة أيام. وكان فيها نبيل يدعى كورّادو، هو مركيز مالاسبينا، ومعه زوجته، امرأة طيبة وورعة، وكانا عائدين إلى ديارهما من حج قاما به إلى الأماكن المقدسة في أبوليا. ومن أجل تسليته، قرر المركيز القيام بجولة في الجزيرة، مع زوجته وبعض الخدم والكلاب. وقريباً من المكان الذي كانت فيه السيدة بيريتولا، بدأت الكلاب بمطاردة الجديين اللذين ظهرا في المكان، وكانا قد كبرا. فهرب الجديان من الكلاب إلى المغارة التي فيها بيريتولا، فتناولت السيدة عصا وراحت تصد الكلاب. وحين وصل كورّادو وزوجته، رأيا السيدة التي كانت قد تحولت إلى امرأة سمراء نحيلة وكثيفة الشعر، فتعجبا أشد العجب، ولم تكن دهشتها أقل منهما حين رأتهما.

وبعد أن كبح كورّادو الكلاب، سألاها من تكون وما الذي تفعله هناك. فشرحت لهما وضعها بكل وضوح. فبكى كورّادو من الأسى، لأنه كان يعرف زوجها أريغيتو كابيسي. وسعى جاهداً لإقناعها بأن تتخلى عن تلك الحال وتأتي معه ليوصلها إلى بيت ذويها، أو إلى بيته لتعيش فيه بكرامة أخت له، وتبقى هناك إلى أن يوفر لها الله حظاً أفضل. لكن بيريتولا لم توافق؛ فترك كورّادو زوجته معها، وكلفها بأن تقدم لها طعاماً، وتلبسها من ثيابها بدل الأسمال التي عليها، وأن تحاول في الوقت نفسه إقناعها بالذهاب

معهما. وبعد أن بكت السيدة النبيلة مع بيريتولا سوء طالعها، أمرت بإحضار ملابس وأطعمة. وتمكنت بعد جهود هائلة من جعلها تلبس الثياب وتأكل. وبعد ذلك، وبإلحاح شديد، أغرتها بالذهاب معهما إلى لونيجيانا، وبأن تأخذ معها الجديين والعنزة التي كانت تداعب بيريتولا بحنان أمام ذهول السيدة.

وعندما تحسن الجو، أبحرت بيريتولا مع كورّادو وزوجته في السفينة، ومعها العنزة والجديان. ولأن اسمها لم يكن معروفاً للجميع، فقد سموها «عنيزة». وكانت الريح مواتية، فوصلوا إلى مصب نهر ماغرا، حيث نزلوا من السفينة كي يصعدوا إلى قلعة المركيز. وهناك عاشت بيريتولا مع كورّادو وزوجته، كأرملة وسيدة. وكانت شريفة ومطيعة على الدوام، تحب جدييها وتهتم بشؤونهما.

أما القراصنة الذين استولوا، في بونزا، على السفينة التي كانت تسافر فيها بيريتولا، فبعد أن تركوا هذه السيدة وحيدة على البر، لأنهم لم يروها، توجهوا بالآخرين إلى جنوا، وتقاسم مالكو السفينة الغنيمة. وكانت المرضع وابنا بيريتولا، فضلاً عن أشياء أخرى، من نصيب شخص يدعى غاسبارينو. فأرسل المرضع مع الطفلين للخدمة في منزله. بكت الخادمة بمرارة، حزناً على مصير سيدتها ومصيرها هي نفسها. ولكنها أدركت أن الدموع لن تفيدها في شيء، ولن تنقذها من العبودية. ومع أنها امرأة فقيرة، إلا أنها كانت فطنة ومجربة، فواست الطفلين بأفضل ما استطاعت، وقدرت أنه سيكون من الخطر على الطفلين اكتشاف هويتهما. ولأنه يمكن للقدر أن يتبدل وأن يعودا إلى وضعهما السابق، رأت أنه من الأفضل عدم إخبار أحد بحقيقة أمرهما، وكانت تؤكد لكل من يسألها بأنهما ابناها. وأطلقت على الكبير منهما اسم جيانوتو دي بروسيديا، بدلاً من غودوفريدو، أما اسم الصغير فلم تبدّله؛ وأوضحت لغودوفريدو سبب استبدالها اسمه، وما سيتعرض له من أخطار إذا ما تم التعرف عليه. وصارت تذكره بهذا بين حين وآخر، وكان الصبي ذكياً، ينفذ تعليمات المرضع بحذافيرها.

ولم يجد الصبيان، بملابسهما السيئة، ونعالهما الأسوأ، مفراً من العمل في أشد الأعمال وضاعة، فأمضيا عدة سنوات في بيت السيد غاسبارينو، ومعهما الخادمة. وعندما بلغ جيانوتو السادسة عشرة من عمره، وكانت له روح غير مألوفة بين الخدم، ولم يعد يستطيع تحمل ذلك الوضع أكثر، أبحر في سفينة إلى الإسكندرية، متخلياً عن خدمة

السيد غاسبارينو. فتجول في بلدان عديدة دون أن يحقق نجاحاً يذكر، إلى أن علم أخيراً، بعد سنتين أو ثلاث سنوات من سفره، أن أباه الذي كان يظنه ميتاً، ما زال حياً وأسيراً لدى الملك كارلوس. رثى لحاله، وتجول في أماكن كثيرة، حتى وصل إلى لونيجيانا، واستقر هناك للعمل لدى كورّادو مالاسبينا، وكان يخدمه بسعادة خالصة. وقد رأى هناك، مرات عديدة، أمه التي كانت مع زوجة كورّادو، لكنه لم يتعرف إليها قط. كما أنها لم تتعرف عليه أيضاً، لأن الزمن بدّل ملامحهما بصورة كبيرة.

وبينما جيانوتو في ذلك العمل، حدث أن ابنة لكورّادو، تدعى سبينا، ترملت من زوجها المدعو نيكولو دي غريغنانو، وعادت إلى بيت أبيها. كانت جميلة، لطيفة، وشابة لم تتجاوز السابعة عشرة. وعندما تعرفت على جيانوتو، أحب كل منهما الآخر حباً جارفاً. وقد ظل ذلك الحب سراً عدة شهور، دون أن يلحظه أحد. ولشدة اطمئنانهما بعد ذلك، لم يعودا يتصرفان بحذر. وبينما هما في أحد الأيام في غابة بديعة، ابتعدت الشابة مع جيانوتو عن بقية رفاقهما، واعتقدا أنهما صارا بعيدين عن الآخرين، فاستسلما لمتعة الحب وملذاته. وظلا على تلك الحال وقتاً طويلاً، وإن بدا لهما قصيراً، إلى أن فوجئا بأم الشابة أولاً، ثم بكورّادو. فاغتاظ هذا وأمر خدمه، دون تقديم تفسيرات، بأن يعتقلوهما ويقتادوهما مقيدين إلى قلعته. كان غاضباً إلى حدّ قرر معه أن يقتلهما دون تأخير.

ومع أن أم الشابة كانت مستاءة، وترى أن ابنتها تستحق عقاباً قاسياً، إلا أنها عندما عرفت من كلمات كورّادو ما هو المصير الذي ينتظرهما، لم تستطع التحمل. وتوجهت إلى زوجها المتأجج غضباً كي تتوسل إليه الإبقاء على حياة ابنتها والخادم، مقترحة عليه أساليب أخرى لإخماد غضبه؛ كأن يحبسهما في سجن للتكفير عن خطاياهما. وقد عرضت تلك المرأة التقية الكثير من الحجج حتى أقنعت زوجها، فأمر بأن يحبسا في مكانين مختلفين، وأن يقدم لهما القليل من الطعام والكثير من إقلاق الراحة، إلى أن يتخذ قراراً حول مصيرهما. ومن السهل تصور الحياة التي صار إليها الشابان؛ فكلاهما كان يبكي طوال الوقت، معانياً من الصيام الذي يفوق ما يتحملانه.

انقضت سنة على عيش جيانوتو وسبينا في الغم والآلام، حتى إن كورّادو نسيهما. وحدث أن الملك بيدرو دي اراغون، بالتعاون مع السيد جوان دي بروسيدا، أثار تمرداً في صقلية، وانتزعها من الملك كارلوس. فأسعد هذا الحدث كورّادو، لأنه كان مناهضاً للملك كارلوس. وعندما علم جيانوتو بالخبر، قال وهو في سجنه:

ـ آه لحالي، لقد أمضيت أربع عشرة سنة متشرداً في العالم، بانتظار هذه اللحظة، وحين حلّت الآن، أجد نفسي في هذا السجن الذي لا أمل لي في الخروج منه إلا ميتاً!

فسأله السجان:

ـ ما هذا الذي تقوله! وما تعنيك أنت شؤون الملوك الكبار؟.. وما الذي خسرته في صقلية؟..

فأجابه جيانوتو:

ـ قلبي يتمزق وأنا أفكر في ما كان على أبي أن يتحمله. فمع أنني كنت صغيراً عندما هربت، إلا أنني أتذكره كسيد نبيل في حياة الملك مانفريدو.

فواصل السجان استجوابه:

ـ ومن هو أبوك؟..

ـ أبي!.. أجاب جيانوتو ـ يمكنني أن أقول ذلك دون مواراة، فقد زال الخطر الآن، وأبي كان يدعى، وهو يدعى إذا كان لا يزال حياً، أريغيتو كابيسي، وأنا لا أدعى جيانوتو، وإنما غودوفريدو. لا ريب في أنني إذا استطعت الخروج من هنا، فسوف أعيش في صقلية كسيد عظيم.

ودون مزيد من الأسئلة، انتظر السجان اللحظة المناسبة لينقل ذلك إلى كورّادو. ومع أن هذا لم يبدِ أي اهتمام بالأمر أمام السجان، إلا أنه بحث عن بيريتولا وسألها إذا ما كانت قد أنجبت من أريغيتو ابناً يدعى غودوفريدو. فردت وهي تبكي بأن ابنها الكبير يدعى بهذا الاسم، ولو أنه حي الآن لكان عمره اثنتين وعشرين سنة. وبهذا أدرك كورّادو أنه الشاب السجين، فأشفق عليه، وقرر أن يزوجه كريمته، كي يمحو بذلك الإهانة.

ومصمماً على ذلك، دعا إليه جيانوتو سراً، واستجوبه بالتفصيل عن ماضيه. وعندما تأكد من شخصيته، وتبين أنه غودوفريدو حقاً، ابن أريغيتو كابيسي، قال له:

ـ أنت تعرف جيداً يا جياموتو الإهانة التي ألحقتها بي في شخص ابنتي، بينما كنت أعاملك معاملة جيدة ومحترمة، كما هو لائق في معاملة الخدم، وكان عليك أن تحترم شرف بيتي. وكان يمكن لكثيرين غيري، تعرضوا لما تعرضتُ له، أن يذيقوا الخادم الموت الزؤام، وهو ما لم أفعله أنا بدافع الرحمة. ولكن، بعد أن تبين الآن أنك نبيل، فإنني أريد

إخراجك من بؤس الحبس الذي أنت فيه، وأن أعيد شرفك وشرفي إلى مكانهما اللائق. ومثلما تعرف، فإن ابنتي سبينا التي أقمت معها صداقة حب، إنما هي أرملة وتملك دوطة جيدة. وأنت تعرف عاداتها وعادات أبويها. وعن وضعك الراهن لا يوجد لدي أي اعتراض. لهذا كله، أنا مستعد عندما تشاء، لأن أوافق على عقد قرانك على من كانت صديقتك بصورة غير شريفة، لتصير زوجتك بصورة شريفة. ولسوف اعتبرك ابناً لي، مثلها، ويمكنك العيش معي إذا أنت رغبت في ذلك.

كان الحبس قد ذهب بلحم جيانوتو وأصابه بالهزال، لكن حمية أصله النبيل ظلت سليمة لم تضعف، ولم يفتر كذلك حبه لابنة كورّادو. وبالرغم من أنه كان يتحرق لهفة إلى ما عُرض عليه، إلا أنه قرر التكلم بهذه الطريقة:

ـ لستُ راغباً في النبالة يا كورّادو، ولست طامعاً بالمال، وليس هناك ما يدعوني لأن أتصرف في بيتك بالخديعة أو الخيانة. لقد أحببت، ومازلت، وسأبقى أحب ابنتك إلى الأبد، لأنني أجدها جديرة بحبي. وإذا كنت قد تصرفت معها بصورة غير شريفة، كما يرى عامة الناس، فإنني لم ارتكب من الخطيئة إلا ما يعنيه الشباب في ذاته. ولمحو هذه الخطيئة لا بد من محو الشباب نفسه. ولو أن كبار السن يتذكرون ما كانوا عليه وهم شباب، وقدروا أفعال الآخرين قياساً بأفعالهم، وأفعالهم قياساً بأفعال الآخرين، لما كان الضرر كبيراً مثلما تزعم أنت وآخرون كثيرون، وإنما كنت ستنظر إلى ما فعلته بعين الصديق وليس العدو. ما تعرضه عليّ الآن، هو ما رغبتُ فيه على الدوام، ولو أنني كنت أعرف أنك ستمنحني إياه، لكنت طلبته منك منذ زمن؛ ورغبتي فيه الآن أكبر، لأن الأمل قد تضاءل. فإذا كنتَ غير شاعر بما تقوله، فلا تعرض عليّ آمالاً زائفة، بل أعدني إلى سجني، وضايقني هناك كما تشاء. فمادمتُ أحبها، سأحبك من أجلها وأحترمك، مهما كان ما تفعله بي.

أُعجب كورّادو بسماع هذه الكلمات، واعتبر الشاب رجلاً نزيهاً. ورأى أن حبه شديد التأجج، ما زاد من تقديره له. فنهض وعانق الشاب وقبّله، وأرسل طالباً إحضار سبينا دون تأخير.

وكانت هذه شديدة النحول والشحوب والضعف إلى حد تبدو معه كأنها امرأة أخرى، ومع أن جيانوتو كان يبدو، بدوره، كأنه رجل آخر، إلا أنهما وافقا كلاهما على الزواج، بحضور كورّادو، وتم ذلك حسب طقوسنا. وبعد انقضاء عدة أيام، دون أن يعلم

أحد بما حدث، قُدم لهما خلالها كل ما يحتاجانه ويسعدهما. وعندما قدر كورّادو أن الوقت قد حان لإسعاد الأُمّين، استدعى زوجته والعنيزة، وقال لهذه:

- ما قولك يا سيدتي، إذا ما عدتِ لرؤية ابنك الكبير، وقد تزوج، وزوجته هي ابنتي؟..

فردت العنيزة على ذلك بالقول:

- لا يمكنني أن أقول إلا أنني سأكون وفية لكم، إذا كان بإمكاني أن أكون أكثر وفاء مما أنا عليه، إن أعدتم إلي من أحبه أكثر من حياتي. ولسوف أستعيد، إذا ما كان هذا صحيحاً، آمالي الضائعة.

ثم صمتت العنيزة وانخرطت بالبكاء، فقال كورّادو لزوجته:

- وما رأيك أنت في أن أقدم لك صهراً؟..

فأجابت على ذلك:

- وحتى لو كان شخصاً بائساً، وليس رجلاً نبيلاً، فإنه سيرضيني إذا كان يرضيك.

عندئذ قال كونرادو:

- آمل أن أسعدكما قريباً جداً.

وحين رأى أن الشابين قد استعادا عافيتهما، ويرتديان ثياباً بديعة، سأل غودوفريدو:

- أتحب أن ترى أمك حية؟..

فقال غودوفريدو:

- أشك في أن تكون النكبات قد أبقتها حية؛ ولكن إذا ما حدث ذلك، فسوف تكون فرحتي هائلة، ولسوف تساعدني بنصائحها على استعادة مكانتي، وبعض ممتلكاتي، في صقلية.

استدعى كونرادو عندئذ المرأتين. فهنأتا العروسين، وقدرتا طيبة كورّادو الذي سمح لهما بالزواج. وتذكرت بيريتولا كلمات كورّادو، فأمعنت النظر إلى الشاب، وتذكرت بعض الملامح من طفولته، فألقت بنفسها دون مزيد من الانتظار بين ذراعيه. وحال حبها الأمومي دون قدرتها على الكلام، وأغمي عليها بين ذراعي ابنها. فدهش هذا أعظم الدهشة. ومع أنه كان قد رأى المرأة كثيراً في القلعة، إلا أنه لم يكن يحس بأجواء

الأمومة، ولام نفسه على إهماله وانعدام بصيرته، فراح يقبلها بحنان. وعندما استعادت بيريتولا وعيها بمساعدة زوجة كورّادو وسبينا، قبّلته طويلاً، وعانقها هو باحترام كبير.

وتكررت هذه الملاطفات عدة مرات، وسط سعادة الجميع. وروى كل منهما للآخر ما مرّ به من نكبات. وكان كورّادو قد أخبر أصدقاءه، ببهجة كبيرة، بخبر الزفاف الجديد، وأمر بإقامة حفلة كبرى. فقال عندئذ غودوفريدو:

ـ لقد أسعدتني في أمور كثيرة يا كورّادو، وكرّمت أمي لوقت طويل. وكي لا يبقى هناك شيء يقال إنك لم تفعله، فإنني أرجوك أن تضيف إلى هذه الحفلة حضور أخي الذي أسره القراصنة معي، وهو يعمل خادماً في بيت السيد غاسبارينو دي أوريا. وأتمنى كذلك أن ترسل أحداً إلى صقلية للتقصي عن مصير والدي.

بادر كورّادو إلى تلبية رغبة غودوفريدو، فأرسل على الفور أشخاصاً متخفين إلى صقلية وجنوا.

من ذهب إلى جنوا بحث عن السيد غاسبارينو، وطلب منه باسم كورّادو أن يسلمه سكاشياتو والمرضع، موضحاً له القصة كلها. فأصاب الذهول السيد غاسبارينو وقال:

ـ سأفعل من أجل كورّادو كل ما يطلبه مني. ولدي في الحقيقة هذا الشاب الذي تطلبه مني وأمه، ولسوف أرسلهما إليه بكل سرور. ولكن، قل له أن يكون حذراً من الخرافات التي يرويها جياناتو الذي تقول إنه يسمي نفسه الآن غودوفريدو، لأنه أسوأ بكثير مما يظنه كورّادو.

وبعد هذا، أمر بتكريم الرسول، واستدعى المرضع سراً، واستجوبها. وكانت قد علمت بأخبار التمرد في صقلية، وأن أريغيتو مازال حياً، فلم تعد تخشى شيئاً، وروت كل ما حدث. وحين تأكد السيد غاسبارينو من أن كلام المرضع يتفق مع ما رواه مبعوث كورّادو، اقتنع بالقصة، وبدأ التقصي في أماكن أخرى؛ فكان يجد في كل مكان مزيداً من الأدلة التي تؤكد القصة. فندم على المعاملة التي عامل بها ابن أريغيتو. وكانت له ابنة في الحادية عشرة من عمرها، فزوجه إياها. وبعد حفلة كبيرة، أبحر الشاب والمرضع ورسول كورّادو إلى ليريشي، حيث كان كورّادو بانتظاره. وتوجهوا من هناك إلى قلعة المركيز، وكانت قد أُعدت هناك حفلة كبيرة.

كانت سعادة الأم والأخوين لا توصف. مثلما كانت سعادتهم جميعاً بالعودة للقاء مع

المرضع. وكان اللقاء بينهم جميعاً مؤثراً.

وبتحقيق هذا كله، شاء الرب أن تصل أخبار طيبة من أريغيتو كابيسي. فبينما هم في منتصف الحفلة، حضر المبعوث الذي أُرسل إلى صقلية، وقال إن أريغيتو الذي أسره الملك كارلوس، أخرجه الناس من سجنه، حين انتفض الشعب وقتل حراس السجن، ونصّبوه قائداً، وواصلوا طرد الفرنسيين وقتلهم، مما أسعد الملك بيدرو الذي أعاد إليه كل ممتلكاته وألقابه. وأضاف الرسول إنه استقبله بتكريم شديد، وأقام له مأدبة لا توصف، ابتهاجاً بأخبار زوجته وابنيه وسلامتهم، وهو الذي لم يعرف شيئاً عنهم منذ سجنه.

فكانت فرحة عظيمة، وخرج كورّادو من فوره، مع بعض أصدقائه، لاستقبال السادة المبعوثين إلى السيدة بيريتولا وابنيها، فاستقبلوهم ببهجة، ودعوهم إلى وليمتهم التي لم تكن قد انتهت بعد. ولكنهم قبل أن يبدؤوا الأكل، نقلوا بأحسن ما استطاعوا امتنان أريغيتو وشكره لكورّادو. ثم توجهوا بعد ذلك إلى السيد غاسبارينو، ولم تكن أخبار صنيعه قد بلغتهم، وأكدوا له بأن أريغيتو، لو كان يعلم بما فعله من أجل ابنه سكاشياتو، لكان أرسل إليه الشكر نفسه. ثم أكلوا بسعادة كبيرة.

كرم كورّادو صهره وذويه ومرافقيهم وآخرين كثيرين. وبعد احتفالات وولائم استمرت أياماً كثيرة، قررت السيدة بيريتولا وابنها غودوفريدو الرحيل، وأخذا سبينا معهما؛ فصعدوا إلى السفينة، وسط بكاء كورّادو وزوجته. وبعد رحلة طيبة، كانت الرياح فيها مواتية، وصلوا إلى صقلية. ولا يمكن وصف البهجة التي استُقبلوا بها، وعاشوا هناك سعداء لوقت طويل، مقدرين فضل السماء عليهم، يحمدون طوال الوقت ربنا الله.

القصة السابعة

يبعث سلطان بابل ابنته زوجةً إلى ملك البرتغال، فتتداولها خلال أربع سنوات، بفعل نكبات متعددة، أيدي تسعة رجال في أماكن مختلفة، وأخيراً تعاد إلى أبيها على أنها عذراء، فيعيدها بدوره إلى ملك البرتغال كزوجة، مثلما ذهبت في أول الأمر.

ما إن انتهت القصة، حتى كلفت الملكة بانفيلو برواية القصة الجديدة، فبدأ الكلام على النحو التالي:

حكم بابل منذ زمن بعيد، سلطان يدعى بيمنيداب. كان كل مشروع بدأ به، خلال حكمه، ينتهي نهاية سعيدة. وكان له أبناء كثيرون، بينهم ابنة تدعى أليسيل، على قدر من الجمال يصيب بالكسوف أي جمال آخر في عصرها. وقد أحبها ملك الغرب لكثرة ما سمع من الثناء على شخصها، فطلبها للزواج. ووافق السلطان الذي كان قد تلقى مساعدة ملك الغرب في مواجهة غزو لبلاده، وأبدى سعادته لأنه وجد طريقة يشكر بها ذلك الملك. وبعد أن هيأ سفينة حربية جيدة التسليح، وقدم لابنته دوطة ثمينة، أرسلها برفقة عدد كبير من الرجال والنساء، موكلاً أمرها إلى الله، مالك أمر الخليقة كلها. كان الجو بديعاً، والرياح مواتية، عندما خرجت الأميرة من ميناء الإسكندرية؛ وكان سفرها ميموناً طوال عدة أيام. ولكن، ما إن تجاوزت السفينة سواحل سردينيا، حتى هبت عاصفة هوجاء. فكانت السفينة تترنح على الأمواج إلى حدّ ظنت معه أليسيل ومن معها بأن ساعتهم الأخيرة قد أزفت. ولكن السفينة الخفيفة، بفضل مهارة ملاحيها، ظلت متماسكة في مواجهة العاصفة يومين آخرين. غير أن العاصفة ما لبثت أن ازدادت هياجاً وشدة، وما إن حلّت الليلة الثالثة، حتى لم يعد البحارة يعرفون أين هم. فقد كانت السماء مشحونة بسحب هائلة وقاتمة، نشرت ظلاماً دامساً. وانقادت السفينة، وهي تحت رحمة الرياح، باتجاه جزيرة مايوركا، وعندئذ اكتشف البحارة تسرب مياه كبير إلى السفينة. وحيال هذا الخطر، لم يعد هناك من يهتم إلا بنفسه ونجاته. فأُلقي قارب إلى الماء، وسارع القادة والبحارة إلى ركوبه ظناً منهم أنهم سيكونون هناك أقل عرضةً للخطر. ثم اندفع من بقي من الملاحين مجتمعين إلى الزورق، دون أن يأبهوا بسيوف من كانوا فيه. لكن أولئك التعساء الذين ظنوا أنهم قد نجوا من الموت، وجدوا المنية بانتظارهم في القارب الذي لم يتحمل كل تلك الحمولة، فغرق ومات كل من فيه.

لم يبق في السفينة المهجورة إلا أليسيل وخدمها الذين لم يهتم أحد بمساعدتهم. وكان خوفهم شديداً في ذلك الوضع، لا ينتظرون معه إلا اللحظة التي ستبتلعهم الأمواج فيها؛ بينما كانت السفينة، رغم الشروخ التي فيها، وتسرب الماء إلى كل أنحائها، تنساق مع الريح حتى بلغت رصيفاً رملياً على مقربة من شاطئ مايوركا؛ فاصطدمت به بقوة

جعلتها تنغرس كسهم رُمي بشدة. وظلت طوال الليل تحت رحمة الريح والموج، دون أن تتحرك من مكانها.

ومع بزوغ الفجر، هدأت العاصفة. وكانت الشمس قد طلعت عندما استعادت الأميرة وعيها من الغيبوبة التي سببها لها وضعها الرهيب. ودون أن تعرف أين هي، وبجسم هدّه الإنهاك، تكاد لا تصدق أنها على قيد الحياة، فتحت عينيها. وعلى الرغم من خوار قواها، راحت تنادي على مرافقيها، ولكن دون طائل. فقد ماتوا جميعهم. ولدهشتها من عدم وجود أحد، وقعت ضحية الرعب من جديد؛ وبذلت جهوداً كبيرة لتذكّر ما حدث. وحين رأت أنها لا تزال في السفينة، استجمعت كل ما تبقى لديها من قوى لتخرج منها، وتُخرج معها بضع نساء مازلن على قيد الحياة. ونظراً لخطورة الوضع الذي هن فيه، شجعت النساء الأخريات بكل ما تستطيع كي ينهضن. وعندما انتبهن إلى أنه لا يوجد معهن أي رجل، وأن الوضع يزداد خطورة، استولى القنوط على النساء جميعهن وانخرطن في البكاء. وحتى ساعة الضحى، لم يرين على الشاطئ أو في أي مكان من يمد لهن يد المساعدة. ولكن، بعد قليل من ذلك، مرَّ من هناك نبيل يدعى بيريكون دي فيسالغو، ومعه أتباع كثيرون على الخيول. وحين رأى السفينة، تخيل المأساة، وأرسل أحد مرافقيه ليستطلع ما يجرى فيها. فصعد الرجل بمشقة، ووجد المرأة النبيلة مختبئة مع رفيقاتها القليلات تحت سطح مقدمة السفينة. توسلت إليه النساء أن يشفق عليهن، غير أنهن انتبهن إلى أنه لا يفهم لغتهن، فحاولن إفهامه بالإشارات. وعندئذ رجع التابع وروى لبيريكون كل ما استطاع فهمه؛ فسارع هذا إلى إصدار الأمر بإخراج النساء ونقلهن، مع ما في السفينة من أشياء ثمينة، إلى قلعته؛ حيث جرى إنعاشهن بالطعام والراحة. وقدر من ملابس المرأة أنها لا بد أن تكون من سلالة نبيلة، وهو ما لاحظته أليسيل حين رأت أنه لا يكرم أحداً سواها. وقد وجدها بيريكون باهرة الجمال، بالرغم من شحوبها ونحولها بسبب ما جرى، وقرر الزواج منها، إذا هي لم تكن متزوجة. أما إذا كانت متزوجة، فسوف يسعى لنيل صداقتها وحسب. وقد كان بيريكون رجلاً قوياً وفظ الطباع. وعندما استعادت المرأة قواها، بدت أكثر جمالاً مما كانت عليه، مما جعل بيريكون يأسف لأنه لا يستطيع التفاهم معها ومعرفة أصلها. ولأنه صُعق بجمالها، فقد ألح بإيماءات التودد والغزل كي تستجيب أليسيل لرغباته؛ لكنها تجاهلت ذلك كله، مما زاد من تسعير نيران الرجل وشهوته.

أدركت الأميرة الوضع، وانتبهت إلى أنها بين أناس مسيحيين، وأن كشفها عن حقيقتها لن يفيدها كثيراً. ورأت أنها ستضطر عاجلاً أو آجلاً، بالرفق أو الإكراه، إلى الاستجابة لرغبات بيريكون؛ فحاولت عندئذ أن تستفيد من الوضع بأقصى ما تستطيع، وطلبت من النساء الثلاث اللواتي بقين معها ألا يكشفن حقيقة أصلها، إلا عندما يكنّ بين أناس يعرفن أنهم سيساعدونهن لنيل حريتهن. وطلبت منهن أن يحافظن على عفتهن، مؤكدة أنها قد صممت على عدم السماح لأحد بالتمتع بها ما لم يكن زوجها. فأثنت النساء على موقفها، وعاهدنها على أن يقتدين بها ويفعلن مثلها.

وكان بيريكون يزداد تأججاً في كل يوم، لا سيما حينما يرى كم هي قريبة منه، وكم هي بعيدة في الوقت نفسه عن رغباته. وعندما لم يستطع تحقيق شيء بالتملق والتودد، قرر اللجوء إلى الحيلة والذكاء، مؤجلاً استخدام القوة لتكون الوسيلة الأخيرة. ولأنه كان قد انتبه، في أحد الأيام، إلى أن المرأة تحب النبيذ، وهي غير معتادة على تناوله لأنه محرّم في شريعتها، فقد قرر أن يوقعها به.

أظهر لها أنه غير متأثر بسلوكها المتهرب، وأعد عشاء فاخراً، قدم فيه للسيدة نبيذاً ممزوجاً من أصناف متنوعة. ولم تنتبه هي إلى ذلك، وبالغت في تناول الشراب أكثر مما يتناسب مع عفتها، فانتشت وقامت ترقص على الطريقة الإسكندرية حين رأت بعض النساء يرقصن على طريقة أهل مايوركا. وعندئذ رأى بيريكون أن ساعته قد اقتربت، فأطال وقت العشاء، مع مزيد من الطعام والشراب، إلى أن تقدم الليل كثيراً. وبعد أن ودّع ضيوفه، دخل معها إلى حجرتها. وبينما هي تتوهج حمرة من النبيذ، راحت تخلع ثيابها، دون حياء، بحضور بيريكون، كما لو أنها تفعل ذلك أمام واحدة من خادماتها؛ ثم اندست في الفراش. وحذا بيريكون حذوها، فأطفأ الأنوار، واستلقى إلى جانب الأميرة، واحتضنها بين ذراعيه دون أن تبدي أية مقاومة، وبدأا يستمتعان بالغرام. وكانت أليسيل تجهل حتى ذلك الوقت كيف يضاجع الرجال، فندمت لأنها لم تستجب لبيريكون من قبل. ولم تعد تنتظر مزيداً من الدعوات، بل أصبحت تبادر بنفسها. وإذ كانت غير قادرة على التفاهم بالكلام، فقد صارت تحسن التفاهم بالممارسة. ولكن القدر شاء أن يبلوها بمحنة جديدة.

كان لبيريكون أخ في العشرين من عمره، وسيم الطلعة ونضر مثل وردة، يدعى

ماراتو. وكان قد رأى المرأة وأعجبته غاية الإعجاب، ولاحظ من حركاتها أنها لا تنفر منه، بل على العكس تماماً، وأن المانع الوحيد لديها هو الرقابة الصارمة التي يفرضها عليها بيريكون، فقرر الإقدام على عمل مشين. وكانت هناك في ميناء المدينة سفينة محمّلة بالبضائع، تستعد للإبحار إلى كيارينزا في رومانيا. وكان صاحبا السفينة شابين جنويين، ينتظران هبوب رياح مواتية للإقلاع؛ فاتفقا مع ماراتو على استقباله في الليلة التالية مع امرأته. وعند الغروب، ذهب ماراتو إلى بيت أخيه الذي لم يكن يرتاب به، وأخذ معه بعض رفاقه المقربين، وكانوا على اتفاق معه؛ فدخل دون أن يراه أحد، وانتظر مختبئاً. وبعد انقضاء شطر من الليل، أدخل رفاقه إلى البيت، وفتح باب حجرة بيريكون، وكانت السيدة معه في الحجرة. فقتلوه وهو نائم، وأخذوا المرأة المفجوعة وهم يهددونها بالقتل إذا ما أحدثت أي ضجة. وحملوا معهم كذلك أفضل ممتلكات بيريكون، وخرجوا بصمت دون أن ينتبه إليهم أحد. وذهبوا إلى المرفأ، حيث أبحر ماراتو مع السيدة، ورجع رفاقه الآخرون.

رفع البحارة القلوع، وانطلقوا في البحر، مستغلين الريح المواتية. وكانت المرأة محزونة لما حلّ بها في محنتيها الأولى والثانية؛ غير أن ماراتو، بالطلسم المقدس الذي منحه الله إياه، استطاع مواساتها بطريقة أنستها بيريكون فوراً. وكانت راضية تماماً في المحنة الجديدة التي أمدها بها القدر، كما لو أن ما لاقته في السابقتين ليس كافياً. ولأنها جميلة الهيئة والطباع بصورة جديرة بالثناء، أُغرم بها قبطانا السفينة؛ فنسيا كل شيء، وانهمكا في إرضائها وخدمتها، متوخيين الحذر كي لا ينتبه ماراتو إلى نواياهما. وتوافق الاثنان، وقررا نيل ذلك الغرام شراكة، كمثل اشتراكهما بالبضائع والأرباح. لكن نواياهما كانت تواجه بالعراقيل، لشدة حرص ماراتو على المرأة ومراقبته لها. فاستغلا يوماً كانت الريح تدفع فيه السفينة بسرعة كبيرة، وكان ماراتو يقف في المؤخرة يراقب البحر، فأمسكاه من ظهره وألقيا به إلى الماء. وعندما انتبه الآخرون إلى اختفاء ماراتو، كانوا قد ابتعدوا ميلاً عن المكان. وحين رأت المرأة أن استرجاعه غير ممكن، بكت محنتها الجديدة بتفجع. فحاولا مواساتها بالكلمات التي لم تكن تفهم إلا القليل منها. وعندما بدا لهما أنهما قد أشرفا على التفريج عن كربها، أرادا أن يقررا من منهما سيضاجعها أولاً. ورغب كل منهما أن يكون هو الأول، ولم يتوصلا إلى اتفاق. فأغلظا في الكلام، واستلا الخناجر، في سورة غضبهما، واندفع كل منهما لمهاجمة الآخر. ولم

يستطع أحد الفصل بينهما، فسقط أحدهما قتيلاً، وأصيب الآخر بجراح خطرة. أثار ذلك استياء المرأة التي رأت نفسها وحيدة وبلا سند. وخافت أن يقع عليها غضب أقرباء الرجلين. ولكن، مع توسلات الجريح، والوصول إلى كيارينزا، تبدلت الأمور. فقد نزلت أليسيل إلى البر، وذهبت مع الجريح إلى نزل هناك. وشاع خبر جمالها في المدينة حتى بلغ مسامع أمير مورينا، وكان في ذلك المكان. فصمم على رؤيتها، وهام بها في الحال. وحين علم كيف وصلت إلى هناك، قرر الحصول عليها. وكان أقرباء الجريح قد علموا بما حدث، وقرروا إبعادها عن المدينة بأسرع ما يمكن، مما أثلج صدر الأمير والسيدة. وقد انتبه الأمير إلى الثياب الثمينة التي ترتديها، ولأنه لا يعرف أصلها، فقد قدر أنها سيدة نبيلة. وخُيل لأليسيل أن محنتها قد انتهت، وأنها ستعيش مطمئنة مع الأمير.

كان الحديث يدور عن جمالها في كل أنحاء رومانيا، فقرر دوق أثينا، وهو شاب وسيم، ومتكبر بطبعه، أن يذهب لرؤيتها. وتوصل إلى ذلك من خلال الصداقة والقرابة التي تربطه بالأمير؛ فتظاهر بأنه يود زيارته، مثلما يفعل بين حين وآخر، وتوجه برفقة معية من النبلاء إلى كيارينزا، واستُقبل هناك بحفلة ووليمة كبيرة. وفي أثناء الحديث، انتقل الكلام إلى التحدث عن السيدة، فسأله إذا ما كانت جميلة حقاً كما يشاع. فرد عليه الأمير:

- بل أكثر مما يقال بكثير، ولسوف تصادق عيناك على ما أقوله.

وتوجها معاً إلى حيث كانت السيدة، فاستقبلتهما باحترام وبوجه باسم. أجلساها بينهما، مع أنهما يكادان لا يستطيعان تبادل أي حوار معها، لأنهما لا يفهمان لغتها. فكانا ينظران إليها مفتونين، لاسيما الدوق الذي ظن أنها ليست من البشر. ودون أن ينتبه إلى سمّ الغرام الذي كان يشربه بعينيه وهو ينظر إليها، انتهى به الأمر إلى الوقوع في حب متأجج. وعندما خرج مع الأمير، ووجد متسعاً للتفكير بينه وبين نفسه، حسد رفيقه على حسن طالعه. ودفعه طول التفكير إلى تغليب الحب الملتهب على شرفه، وقرر الاستحواذ على تلك الفاتنة. وبتجاهله كل عدالة وحس سليم، ركّز كل تفكيره على الحيلة والخداع، فاتفق سراً مع حاجب لدى الأمير، يدعى شيورياشي، وأعد كل شيء للرحيل في الليل.

وعندما خيم الظلام، دخل شيورياشي مع الدوق ورفيق له إلى مخدع الأمير. ووجدوه عارياً، يتأمل البحر من النافذة وهو يبترد في اشتداد الحر؛ وكانت المرأة نائمة. فدنا الدوق

منه بحذر، وطعنه بخنجر اخترق جسده من جانب إلى آخر، ثم حمله بسرعة، وألقى به من النافذة إلى البحر.

كان القصر عالياً جداً، ويطل على البحر، غير أن النافذة التي أُلقي منها جسد الأمير، كانت تطل على بعض البيوت التي قوضها اندفاع البحر، فلم ينتبه أحد إلى ذلك. وعندما رأى صديق الدوق أن العمل قد أُنجز، تظاهر بالتحدث بمودة إلى شيورياشي؛ ثم انقض عليه، وطوق عنقه بحبل وخنقه به، ثم ألقيا بجسده إلى المكان نفسه الذي أُلقي فيه جسد الأمير. ولأن أحداً لم يسمع ولم يعلم بشيء مما حدث، فقد اقترب الدوق، وهو يحمل مشعلاً في يده، من المرأة المستغرقة في النوم، وكشف عنها. تفحصها، وأدرك أنها تروقه أكثر أيضاً وهي عارية. وأحس بالرغبة تنهشه، فنام معها ويداه لا تزالان ملطختان بالدم. وقد ظنت أليسيل أنه الأمير، فاستقبلته أحسن استقبال. وبعد أن أشبع الدوق رغباته، نهض واستدعى بعض أعوانه، وأمر بأن تُحمل دون أن تصدر عنها أي ضجة. ثم خرجوا من باب سري، وتمكنوا من الرجوع إلى أثينا بأسرع ما يمكن. كان الدوق متزوجاً، فلم يستطع حمل الشابة المحزونة إلى أثينا بالذات، وإنما اضطر إلى تركها في منزل يملكه على مقربة من المدينة، إلى جوار البحر، وأبقاها هناك سراً. ولكنه كان يقدم لها كل ما تحتاجه.

في اليوم التالي، انتظر ندماء الأمير في موريا حضوره. وبسبب طول تأخره، دخلوا إلى الحجرة، وعندما لم يجدوا أحداً ظنوا أنه ذهب سراً لقضاء بضعة أيام ممتعة خارج المدينة مع تلك السيدة الحسناء، ولم يشعروا بأي قلق. وبعد بعض الوقت، كان هناك مجنون يتسكع بين البيوت المهدمة، فوجد جسدي الأمير وشيورياشي، فأخرج جسد الثاني، وراح يجرجره وراءه؛ فتعرف كثيرون على الجثة، وعملوا على إقناع المجنون إلى أن قادهم إلى حيث وجده. وهناك عثروا أيضاً على جثمان الأمير. بحثوا عن مرتكبي الجريمة الشنعاء، وحين علموا بسفر دوق أثينا المفاجئ، توقعوا أن يكون هو المذنب، وأنه حمل معه المرأة أيضاً.

ورث العرشَ أخو الأمير المقتول، وبتحريض من الناس، قرر الانتقام لأخيه. فجمع أعداداً كبيرة من الجنود، وأعلن الحرب على دوق أثينا. ولم يجد الدوق بداً من الدفاع عن نفسه، بمساعدة من هرعوا لمساعدته. وكان بينهم كونستانزو، ابن إمبراطور

القسطنطينية، موفداً من أبيه، وابن أخ الإمبراطور مانوفيلو، وقد استقبلهما الدوق بالترحاب، وكذلك الدوقة، وهي أخت كونستانزو. ومع الاقتراب السريع لموعد الحرب، أرسلت الدوقة تستدعي قريبيها إلى حجرتها، وبينت لهما، وسط دموعها الغزيرة، سبب تلك الحرب. وكان الشابان قد سمعا شيئاً من التعليقات عن أليسيل، فلم يوجها الكثير من الأسئلة، وواسيا الدوقة كيفما استطاعا، ووعداها بأن يذهبا إلى حيث تقيم المرأة، ويحلا القضية على أحسن وجه ممكن. ولأنهما كانا قد سمعا عن جمال أليسيل، فقد طلبا من الدوق أن يريهما إياها، فوافق على ذلك، ناسياً ما حلّ بالأمير عندما أراه إياها. أمر الدوق بإقامة مأدبة فاخرة في حديقة بديعة، وأحضر السيدة إلى هناك ومعه رفقة قليلة. وجلس كونستانزو إلى جوار أليسيل، وقدّر أنه لم ير مثل ذلك الجمال قط، ووجد عذراً لكل أفعال الدوق.

وعندما حان وقت الحرب، وخرج الجميع من أثينا، تظاهر كونستانزو الذي أمضه الغرام بالمرض، كي يرجع إلى أثينا إلى جوار أخته الدوقة، فوافق الدوق على ذلك. وبعد بضعة أيام، فتح الحديث عن أليسيل كي يدفع الدوقة إلى الحديث عن الإهانة التي تشعر بها بسبب الدوق والمرأة التي يصادقها؛ ثم واساها بعد ذلك قائلاً إنه سيعمل على إبعاد تلك المرأة من هناك. فظنت الدوقة أنه يتصرف حباً بها، وليس بالمرأة، ووافقت بسعادة، وسمحت له بأن يتصرف مثلما يشاء. وعندئذ أمر بتهيئة سفينة خفيفة وسريعة، أوقفها في مكان قريب من القصر الذي تقيم فيه السيدة. واقترب بعد ذلك مع بعض أعوانه من القصر، فاستقبله الخدم والمرأة بترحاب. ثم خرج معها إلى الحديقة، متظاهراً بأنه يريد أن يتكلم معها على انفراد عن الدوق، فاقتادها إلى مكان منعزل، باتجاه باب يؤدي إلى البحر. وعندئذ فتح أحد أصدقائه الباب، وبإشارة متفق عليها، أمسك كونستانزو المرأة، وأمرها بالصعود إلى السفينة. ثم توجه إلى الخدم قائلاً:

ـ لا يتحركن أحد منكم. فأنا لا أريد انتزاع هذه المرأة من الدوق، وإنما أريد محو الإهانة التي ألحقها بأختي.

وهكذا لم يتجرأ أحد منهم على الرد عليه، فصعد كونستانزو إلى السفينة. وجلس إلى جوار المرأة الباكية، وأمر بالتوجه إلى جزيرة في بحر إيجة. وقد وصلوا إليها في اليوم التالي، ونزلوا إلى البر، وروّح عن نفسه مع السيدة التي كانت لا تزال تبكي سوء طالع

جمالها. ثم أبحروا من جديد باتجاه كيوس، إذ أنه كان يخشى أن يعاقبه أبوه وينتزع المرأة منه. ولأنه قدر في الوقت نفسه أن كيوس ستكون مكاناً آمناً. أما السيدة التي أمضت أياماً وهي تبكي محنتها، فقد راحت تجد العزاء في كونستانزو، مثلما فعلت في المرات السابقة، وبدأت ترضى بما اختاره لها القدر.

وفي أثناء ذلك، بلغ مسامع أوزبك، ملك الأتراك الذي كان في حرب دائمة ضد الإمبراطور، أن كونستانزو يعيش مع امرأة اختطفها، وأنه يقيم في كيوس دون أي حراسة تقريباً. فتوجه إلى هناك ليلاً، في سفن مسلحة، وفاجأهم نياماً. ومن أتيح له منهم حمل سلاحه، قُتل في الحال. وقام بعد ذلك بإحراق البلدة، واقتياد الأسرى وحمل الغنائم إلى أزمير. وحين استعرض أوزبك الغنائم، وكان رجلاً شاباً، ابتهج لوجود المرأة الجميلة، فتزوج منها في الحال. وأقيم حفل الزفاف بأبهة كبيرة، وعاشت أليسيل عدة شهور بسلام.

قبل وقوع هذه الأحداث، كان الإمبراطور قد عقد اتفاقاً مع باسانو، ملك كابادوسيا، لشن هجوم على أوزبك، بحيث ينقض عليه أحدهما بقواته من جانب، بينما ينقض عليه الآخر من الجهة المقابلة. ولكنهما لم يتمكنا من إبرام الاتفاق، لأن باسانو كان يطالب بأمور لم يقبل بها الإمبراطور. ولكنه حين علم بما حدث لابنه، سارع إلى الموافقة على خطة ملك كابادوسيا بكاملها، واستعدا للهجوم من نقطتين متقابلتين. وعندما وصلت تلك الأنباء إلى أوزبك، جمع جيشه واستعد لمواجهة ملك كابادوسيا، تاركاً امرأته الجميلة في رعاية قريب يثق به في إزمير. ثم خاض المعركة وقُتل فيها. ودخل باسانو المنتصر إلى أزمير، وانصاع له الجميع. وكان أنتيوكو، قريب أوزبك وصديقه الذي تُركت المرأة في رعايته، قد وقع في هواها. وكان يعرف لغة أليسيل، وهو أمر أعجبها كثيراً، لأنها أمضت سنوات وهي تعيش كأنها صماء بكماء. وعندما ازدادت الألفة بينهما، تجاهلا كل احترام لسيدهما الذي كان مشغولاً في الحرب، واستسلما لملذات الغرام. وما لبثا أن علما بموت أوزبك، ودخول باسانو إلى المدينة، فقررا عدم انتظاره هناك، وإنما أخذ جزءاً من أثمن ممتلكات أوزبك، والهرب بأسرع ما يمكن إلى رودس. وبعد أن أمضيا هناك بعض الوقت، أصيب أنتيوكو بمرض مميت. وكان قد استقبل خلال مرضه صديقاً مقرباً إليه، هو تاجر من قبرص، فقرر أن يورثه المرأة وأملاكه. وعندما حانت ساعة موته، استدعى صديقه والمرأة، وتكلم إليهما كما يلي:

ـ أرى أنني أموت، ويحزنني أن أغادر الحياة الآن، لأنني لم أرغب في الحياة قط مثلما أرغب فيها الآن. وبالرغم من ذلك، فإنني أغادر سعيداً وأنا بين أذرع أحب شخصين إلى قلبي. ويحزنني أن أليسيل لن تجد من يساعدها ويقدم لها النصح كونها غريبة. وآمل منك يا صديقي أن تعنى بها كما لو أنك تعنى بي شخصياً. وأنتِ أيتها المرأة المحبوبة، أرجوكِ ألا تنسني، كي أسعد وأنا في عالم الغيب بكوني محبوباً من سيدة بمثل هذا الجمال. إذا وعدتماني بتلبية هذين الطلبين، فسوف أموت سعيداً.

استمع إليه التاجر وأليسيل باكيين، وكانا يشجعانه، ووعداه بتنفيذ كل ما يطلبه. ثم مات بعد قليل من ذلك، وقاما بدفنه. وبعد مرور عدة أيام، اضطر التاجر إلى السفر إلى قبرص، منتهزاً وجود سفينة كتلانية متوجهة إلى هناك، فسأل المرأة عما تود عمله. فقالت إنها تريد الذهاب معه، وإنها واثقة من أن صداقته لأنتيوكو ستجعله يعاملها كأخت له. وافق التاجر على ذلك، ولكي يتجنب الأقاويل، قدمها على أنها زوجته.

وفي السفينة، كانا ينامان في السرير نفسه، كي لا يثيرا الشكوك، فأدى ذلك إلى نتيجة مخالفة لما اتفقا عليه في رودس. فقد هيجتهما الظلمة والراحة ودفء الفراش، فنسيا صداقة أنتيوكو المتوفى وحبه، وبدآا المرح معاً قبل الوصول إلى بافوس. وواصلت أليسيل هناك العيش مع التاجر لوقت طويل. وفي أحد الأيام جاء تاجر يدعى أنتيغونو، وكانت سنه كبيرة، لكن حكمته أكبر، وثروته أقل، لأن الحظ لم يحالفه في شؤون كثيرة طلبها منه ملك قبرص. وقد مرّ أنتيغونو في أحد الأيام أمام البيت الذي تعيش فيه المرأة الجميلة، وحين رآها على النافذة، خيل إليه أنه يعرفها، لكنه لم يتذكر أين ومتى رآها. أما المرأة التي كانت تصل إلى آخر محنها، فتذكرت أنها رأته في الإسكندرية، وأنه كان يعمل في خدمة أبيها. فاستدعته إليها وسألته إذا ما كان يدعى أنتيغونو دي فاماغوستا، فرد عليها بالإيجاب، وأضاف قائلاً:

ـ وأنا أيضاً، يخيل إليّ يا سيدتي أنني أعرفك، ولكنني لا أدري أين التقيتك، فأرجو أن تساعديني على التذكر.

انفجرت المرأة في البكاء، وألقت بنفسها بين ذراعيه، وسألته إذا كان لم يرها في الإسكندرية. عندئذ تعرف الرجل على أليسيل، ابنة السلطان التي ظنوا أنها غرقت في البحر. فانحنى ليقدم لها فروض الاحترام، لكنها لم تقبل بذلك وطلبت منه أن يجلس إلى

جانبها، وهو ما فعله أنتيغونو بخجل. وراح يسألها باحترام كيف جاءت إلى هنا، ومتى ومن أين، لأن الجميع في مصر موقنون بأنها غرقت في البحر، فقالت المرأة:

ـ ليتني غرقت قبل أن أعيش هذه الحياة التي عشتها. وأظن أن أبي سيرى الرأي نفسه إذا علم يوماً بما جرى لي.

وراحت تبكي بحرقة، فقال لها أنتيغونو:

ـ لا تبكِ يا سيدتي؛ وحدثيني أولاً عن محنك وعن الحياة التي عشتها. ولسوف نجد مخرجاً بعون الله.

وقالت له أليسيل:

ـ عندما رايتك يا انتيغونو، خيل إليّ أنني أرى أبي. ولأنني تذكرته سأفتح لك قلبي وأحكي لك ما كان يتوجب عليّ الصمت عنه. يسعدني جداً أنني التقيت بك، وسوف أروي لك وقائع نكبتي كما لو أنك أبي. فإذا بدا لك بعد ذلك أنه يمكن لي أن أعود إلى موطني، فأتوسل إليك أن تساعدني في العودة؛ أما إذا كان ذلك غير ممكن، فلا تخبر أحداً بأي شيء، ولا تقل إنك قد رأيتني.

ودون أن تتوقف عن البكاء، راحت تروي كل ما حدث لها منذ وصولها إلى مايوركا حتى هذه اللحظة. تأثر أنتيغونو بشدة، وراح يبكي، ثم قال لها بعد أن فكر ملياً:

ـ بما إن اسمك، يا سيدتي، لم يُعرف قط، وظل مكتوماً خلال محنك تلك كلها، فسوف أعيدك بكل تأكيد إلى أبيك؛ ثم إلى ملك الغرب بعد ذلك.

فسألته كيف سيفعل ذلك، فأوضح لها ما سيفعله خطوة فخطوة. ثم توجه في الحال إلى فاماغوستا لمقابلة ملك قبرص، وهناك قال له:

ـ مولاي، إذا أنت رغبت، يمكنك أن تقوم بعمل عظيم يشرفك، ويشرفني (أنا الذي حلّ بي الفقر في خدمتك)، دون أن يكلفك ذلك الكثير.

فسأله الملك عن الموضوع. وعندئذ قال له أنتيغونو:

ـ لقد وصلت إلى بافوس شابة جميلة، هي ابنة السلطان، وهم يظنون هناك أنها ماتت غرقاً. وقد تعرضت الفتاة لمشقات كبيرة كي تحافظ على شرفها؛ وهي الآن وحيدة وراغبة

في العودة إلى أبيها. فإذا رغبتَ في أن ترسلها تحت رعايتي، فسيكون في ذلك شرف كبير لك، وفائدة كبيرة لي. ولا أظن أن السلطان سينسى لك مثل هذا الجميل.

حين رأى الملك نزاهته، أعرب عن موافقته، وأمر بإحضار الشابة إلى فاماغوستا، واستقبلها بكل حفاوة وتكريم. سألها الملك والملكة عن المحن التي تعرضت لها، فراحت تجيب على كل شيء بمساعدة أنتيغونو. وبعد انقضاء عدة أيام، ومع رفقة جيدة من النساء والرجال، أرسلها الملك إلى أبيها السلطان برعاية أنتيغونو. وقد استقبلها أبوها، هي وأنتيغونو بحرارة. وبعد ذلك، أراد السلطان أن يعرف كل شيء عن ابنته. وكانت هي قد فهمت جيداً تعاليم أنتيغونو، فقالت لأبيها:

ـ أبتاه، بعد عشرين يوماً من الرحيل، تحطمت السفينة في عاصفة عاتية؛ ووصلت إلى شاطئ في الغرب، بالقرب من بحر المياه الميتة. لم أعرف شيئاً عمن كانوا معي في السفينة؛ وما أتذكره فقط، هو أن القرويين هرعوا عند الفجر من كل الأنحاء لنهب السفينة. بينما جرى اقتيادي، مع امرأتين أخريين، إلى الشاطئ. وهناك أخذ بعض الشبان خادمتيّ، ولم أعد أعرف عنهما شيئاً. أما أنا، وبعد أن قاومت، سحبني اثنان من الشبان من جدائل شعري، وجرجروني إلى غابة قريبة وأنا أبكي بحرقة. وحدث أن مرّ من هناك في تلك اللحظة أربعة رجال على الخيول. وبدا لي من مظهرهم أنهم من رجال السلطة، لأن الشابين سارعا إلى الهرب. وتوجه أولئك الفرسان إليّ، بوجوه صارمة، وسألوني أسئلة كثيرة، وقلت أنا أشياء كثيرة، ولكنهم لم يفهموا ما قلته، ولم أفهم ما قالوه. فتداولوا طويلاً فيما بينهم، وأردفوني على أحد أحصنتهم، وأخذوني إلى دير نساء متدينات، على شريعتهم ودينهم. فقالوا لهن شيئاً، استقبلتني نساء الدير على أثره بترحاب وكرم، وعملتُ هناك معهن، بورع شديد، على خدمة «القديس الذي يكبر ويتعاظم في المغارة» وهو قديس يحظى باحترام وتوقير نساء تلك البلاد. وعندما استطعت تعلم شيء من لغتهم، قلت لهن، وأنا خائفة من قول الحقيقة، إنني ابنة سيد من قبرص، وإن أبي أرسلني إلى كريت للزواج، وشاء الحظ أن تغرق سفينتنا على شاطئهم. وكان علي في مرات كثيرة أن أمارس طقوسهن، كي لا أتعرض لأخطار أسوأ. وقد سألتني أكبر أولئك السيدات مقاماً، ويسمونها «رئيسة الدير»، إذا ما كنتُ راغبة في العودة إلى قبرص، فقلت لها إنه ليس هناك شيء يسعدني أكثر من ذلك؛ لكنها كانت خائفة على شرفي، فلم توافق على

إرسالي مع أحد آت إلى قبرص، إلا قبل شهرين، عندما جاء بعض الرجال الأخيار من فرنسا، ومعهم زوجاتهم، إحداهن قريبة رئيسة الدير. وكانوا ذاهبين إلى الأراضي المقدسة، لزيارة قبر ذلك الذي يسمونه الرب، حيث دُفن هناك بعد أن قتله اليهود، فأرسلتني رئيسة الدير معهم وأوصتهم بأن يوصلوني إلى أبي. وسيكون طويلاً الحديث عن تكريمهم لي وضمي إلى نسائهم.. ولكننا أبحرنا، وبعد بضعة أيام وصلنا إلى بافوس. ولم أكن أعرف أحداً هناك، ولا أدري ما الذي أقوله لأولئك الناس الذين أرادوا أن يوصلوني إلى أبي، مثلما أوصتهم السيدة رئيسة الدير. ولكن الله الذي لا بد أن يكون قد رأف بحالي، أظهر لي أنتيغونو على الشاطئ، في اللحظة نفسها التي نزلنا فيها إلى البر؛ فناديته وتكلمت إليه بلغتنا طالبة منه أن يتظاهر بأنه أبي، وهو كلام لم يفهمه الآخرون. وقد تصرف أنتيغونو بما تمليه عليه موارده الضئيلة، فأخذني إلى ملك قبرص الذي استقبلني بتكريم، ثم أرسلني إليك أخيراً. وإذا كنتُ قد نسيت أي تفصيل، فسوف يتولى أنتيغونو استكماله.

فاقترب هذا من السلطان، وقال له:

ـ مولاي، ما روته لك هو ما روته لي مرات عديدة، وما أخبرني به أولئك السادة الذين جاءت معهم إلى قبرص. ولكنها سكتت عن أمر واحد فقط، لا يليق بها التحدث عنه. إنه المديح الذي كاله لها جميع من تعرفوا عليها، وتقديرهم لعفتها وفضيلتها، وقد بكى من سلموني إياها وهم يودعونها. وسيكون تكرار كل ما قالوه عملاً بلا نهاية؛ وكي أختصر، سأكتفي بالقول لك إن لديك ابنة هي أجمل وأشرف وأطهر بنات أيامنا.

أحس السلطان بالرضا والبهجة وهو يسمع هذا الكلام، وتضرع إلى الله أن يتمكن من ردّ الجميل إلى كل من كرم ابنته، وخاصة ملك قبرص الذي أعادها إليه بكامل شرفها. وبعد بضعة أيام، أمر خلالها بإعداد هدايا وعطايا كثيرة لأنتيغونو، أذن له بالعودة إلى قبرص، محملاً إياه رسائل إلى ملكها. وأرسل معه سفراء خاصين لتقديم الشكر إلى ذلك الملك. ثم قرر بعد ذلك أن يعود إلى ما بدأ به، وأن يحقق ما لم يتحقق، أي أن تكون ابنته زوجة لملك البرتغال، فأرسل إليه يخبره بكل شيء، وأنه إذا كان لا يزال راغباً فيها، فما عليه إلا أن يرسل لأخذها. ابتهج ملك البرتغال كثيراً بهذه الأخبار، ووافق شاكراً على الزواج من ابنة السلطان، فأرسل حاشية كبيرة لمرافقتها. واستقبلها بكل ترحاب. أما هي

التي ضاجعت ثمانية رجال، لأكثر من عشرة آلاف مرة، فنامت إلى جانبه كعذراء، وجعلته يصدق أنها كذلك، وعاشت معه بعد ذلك بسعادة كملكة. وهذا يؤكد المثل القائل: «الفم لا يفقد شيئاً في التقبيل، بل يتجدد كما القمر».

القصة الثامنة

كونت أنغريس، يُتهم زوراً بتهمة شائنة، ويغادر إلى المنفى؛ فيترك ابنين له في مكانين مختلفين من إنكلترا. وعندما يعود إلى اسكتلندا، دون أن يعرفه أحد، يجدهما في حالة جيدة. يعمل سائساً في جيش ملك فرنسا، وبعد الاعتراف ببراءته، يعاد إلى وضعه الأول.

تنهدت السيدات كثيراً للمحن التي تعرضت لها المرأة الحسناء. ولكن، من يدري ما سبب تلك التنهدات؟.. ربما كانت بينهن من تتنهد لهفة وحسرة إلى مثل تلك الزيجات المتكررة. ولكن لنترك هذا الآن، فبعد أن ضحكت بعضهن لكلمات بانفيلو الأخيرة، ورأت الملكة أنه قد أنهى قصته، التفتت إلى إليسا، وأمرتها بأن تروي قصتها؛ فبدأت هذه القول بسعادة:

ــ بعد انتقال الإمبراطورية الرومانية من أيدي الفرنسيين إلى أيدي الألمان التوديسكيين، ساد بين الأمتين عداء مستحكم، وكانتا في حرب دائمة. ولم يقتصر أمر ملك فرنسا على الدفاع عن أراضيه، وإنما حاول أن يوسع نطاق ملكه. ومن أجل هذا الهدف، جمع قوات دوله كلها وقوات أصدقائه وأنصاره، وانطلق مع ابنه ضد العدو، على رأس جيش جرار. وقبل أن يبدأ تلك الحملة، رأى أنه من المناسب أن يكلف أحدهم بمهام حكم مملكته، ليحول دون إغراءات التآمر والفتن. ووقع اختياره لهذه المهمة على غوتييه، كونت أنغريس، وكان رجلاً نبيلاً وحكيماً، وصديقاً وخادماً وفياً للملك. وعلى الرغم من براعة هذا الرجل في الشؤون العسكرية، إلا أن الملك كان يثق بإخلاصه أكثر من أي شخص آخر من رعاياه، ويرى أنه أكثر استعداداً لتقبل متع السلام من استعداده لتحمل

مشقات الحرب، فأوكل إليه الإدارة المدنية، مخلفاً إياه في باريس كنائب عام له في حكم دوله.

بدأ الكونت تولي المهام الشاقة الموكلة إليه بحذر شديد. وبالرغم من تمتعه بصلاحيات مطلقة، ومن عدم اضطراره إلى استشارة أحد، إلا أنه لم يتخلَ عن طلب نصيحة الملكة الأم وكنتها زوجة ابنها ولي العهد. وكانت الاثنتان تحت رعايته، ولكنه واظب على معاملتهما على أنهما سيدتاه، ولم يسمح بسريان السلطات الممنوحة له عليهما. كان غوتييه في الأربعين من عمره؛ وكان وسيم الهيئة، وجهه من ألطف ما يمكن تخيله، طويل القامة، بالغ النبل واللباقة؛ يعتبر أكثر رجال عصره لطفاً، وأشدهم تأنقاً في ملبسه.

وحدث، بعد قليل من تنصيبه حاكماً على المملكة، أن نُكب بفقدان زوجته، وكان له منها ابن وابنة في عمر الورود.

كانت مهام الحكم تتيح له فرصة اللقاء بكثرة مع الملكة وكنتها؛ وكانت هذه الأخيرة تستمتع برفقته، وتعامله باحترام شديد. ولكثرة اللقاء به، أحست الأميرة بشيء من الميل نحو الحاكم. وكلما تأملته أكثر وأتيحت لها فرصة التمعن فيه، كان ميلها إليه يزداد. وانتهى بها الأمر أخيراً إلى الوقوع في حبه، دون أن تتمكن من مقاومة ذلك. ورأت أن شبابها، ومكانتها، ومزاياها الأخرى، فضلاً عن موت زوجة الكونت، ستتيح لها تحقيق رغبتها، وإيقاعه في حبها بكل سهولة. وكان العائق الوحيد أمامها هو مصارحتها له بعاطفتها، لكنها سرعان ما تجاوزت تلك العقبة، متجاهلة شرفها، ومدفوعة بالحب الذي ينهش أعماقها.

وفي أحد الأيام، وجدت نفسها وحيدة، فأمرت باستدعاء الكونت، كما لو أنها تريد أن تخبره بشأن من شؤون الحكم. فوافاها على الفور، دون أن تخامره أية شكوك في نوايا السيدة. دعته الأميرة للجلوس على السرير، وجلست هي إلى جانبه. سألها الكونت عن سبب استدعائه، فلم تجبه. فكرر غوتييه السؤال، لكن السيدة التي احمر وجهها من الحب والخجل، واغرورقت عيناها بالدموع، وكان جسمها كله يرتعش، لم تجبه إلا بزفرات وكلمات متقطعة جعلت الشكوك تساور الكونت. وأخيراً، قالت له وقد أكسبتها عواطفها الحماسة:

- أيها الصديق الغالي والرقيق؛ أنت رجل مجرب ورصين يا سيدي، وتستطيع أن تقدر

بسهولة المدى الذي تصل إليه هشاشة الرجال والنساء، وأنت لا تجهل أن ضعف إحدى النساء، لأسباب متعددة، يكون أكبر من غيرها. وأمام أي قاض عادل، يُنظر إلى الخطيئة نفسها على أنها أكبر أو أصغر حسب مكانة الشخص الذي يقترفها، فلا تكون العقوبة المفروضة هي نفسها. فمن يستطيع أن ينكر، على سبيل المثال، أن ذنب امرأة لا تملك سوى عمل يديها لكسب قوتها، وتلتفت إلى أمور الحب أو تتبع أهواءها، هو أكبر من ذنب امرأة غنية لاهية تنال كل ما ترغب فيه؟.. لا أحد ينكر ذلك بكل تأكيد. ولهذا أرى أن أعظم الأعذار يجب أن توضع في خدمة سعادة تلك التي تمتلك إمكانيات السعادة؛ وإذا ما شاء لها الحظ أن تستمتع بالحب، فإن الأعذار تكتمل إذا كان الشخص الذي اختارته رجلاً فاضلاً وحكيماً. إن هذه المسوغات وغيرها، فضلاً عن سنوات عمري وزهوة شبابي، وبُعاد زوجي، جعلتني أُغرم بك وأقع في حبك. وأنا أرى في ذلك كله مسوغاً لحبي. لا شك أن الإقدام على مثل هذا الاعتراف هو أمر غير لائق، غير أن العاطفة القوية التي أكنها لك، تطيح بكل المظاهر. فالأشخاص الذين مثلي، يظلون شهداء مدى الحياة، إذا ما انحرفوا عن عاداتهم وتقاليدهم المعهودة. لستُ أخشى الاعتراف لك يا صديقي؛ فوسط القلق الذي يسببه لي غياب زوجي، جاء شيطان الحب هذا الذي أخضع ويُخضع كل يوم، ليس النساء الضعيفات فقط، وإنما كذلك أشد الرجال قوة وجبروتاً. لقد جاء هذا الشيطان الصغير، أكرر، فجرح قلبي بسهم صائب، موقظاً في شخصي أرق العواطف وأشدها توقداً نحوك. لست أجهل أن ذلك سيكون مشيناً إذا ما جرى اكتشافه؛ ولكن لن يكون فيه أي جرم إذا ما أخفي تحت ستار السرية. فشخصيتك، وفضائلك، ومزاياك، هي أكثر من كافية لإيجاد عذر لي؛ لأن حرماني وتلهفي الشديد لم يحملاني إلى إساءة الاختيار. فأنت في أعين كل من يعرفونك، أكثر الرجال الذين يطؤون أرض فرنسا لطفاً وتأنقاً وحكمة. فكر في أنني أعيش منذ بعض الوقت دون زوج، وفكر في أنك أنت أيضاً بلا امرأة؛ وفكر في الخطوة التي أقدمتُ عليها مدفوعة بالحب الذي أيقظته أنت في قلبي، ولا تصدني. ارحم امرأة شابه تموت من الضنى والحرمان، ولا يمكن لأحد سواك أن يسعدها.

الدموع التي تدفقت من عينيها، منعتها من مواصلة الكلام. وعبثاً حاولت العودة لمواصلة خطبتها، فقد أخمدت فرط العاطفة صوتها المرتعش، ولم تستطع في يأسها إلا أن تسند رأسها إلى صدر الكونت.

فوجئ الرجل النبيل بذلك الكلام الغريب الذي سمعه، وأحس بالإهانة، فما كان منه إلا أن صرخ بصوت قوي وهو يزيحها بعيداً عنه:

ـ ما الذي تفكرين فيه يا سيدتي، ومن تظنينني؟.. شرفي ثمين جداً، وأعرف ما الذي يمليه عليّ. لا يمكن لي أن أتورط في مثل هذا الحب الشاذ. وأفضل أن أموت ألف مرة، قبل أن أُلحق مثل هذه الإهانة بسيدي ومولاي.

وحيال هذا الرد غير المنتظر، تحولت الأميرة فجأة من الوله إلى الغضب، وقالت له:

ـ يا لك من جاحد! ألم يكفِ أنني تحملت عار البوح لك بحبي، بل تريد مني أن أعاني، فوق ذلك، مهانة الصد؟.. أتراك تبغي موتي؟.. يا لك من همجي! لا بأس، بما أنك لا تولي اهتماماً لتعرضي للموت غيظاً ويأساً، فسوف تكون أنت الضحية. وسأجعل حكماً بالموت يصدر ضدك، ولسوف تدفع الثمن في مهانة النفي.

قالت هذه الكلمات، ثم مدت يديها إلى شعرها فشعثته، وإلى ثوبها فمزقته، وصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

ـ النجدة! النجدة! كونت أنغريس يريد الاعتداء على شرفي!

فكر الكونت غوتييه في أن نجمه النحس جعل له أعداء كثيرين في البلاط، وأن منهم من سيُفرحهم استغلال تلك الفرية للمس بشرفه. وخشي، على الرغم من طمأنينة ضميره، ألا يتمكن من إحباط مكيدة الأميرة، فغادر القصر فوراً، ووصل إلى بيته. ووضع ابنيه على جواد دون مزيد من التروي، وهرب إلى كالايس.

هرع كثيرون على صرخات الأميرة، وعند رؤيتهم لها مستحمة بالدموع ومضطربة تماماً، لم يخامرهم الشك في تصديق روايتها. وعندئذ بدؤوا يرون الأمر بوضوح، معتقدين أن الكونت كان يتعمد التأنق في ملبسه وفي إبداء لطفه كي يغوي الأميرة، وينال مآربه. وتوجهوا فوراً نحو بيته للقبض عليه، وحين لم يجدوه، تكاثرت جموع الرعاع، ودخلوا البيت عنوة ونهبوا كل ما رغبوا في نهبه، ثم قوضوا البيت من أساسه.

سرعان ما تلقى الملك وابنه الخبر وهما في معسكرهما، وقد أضيفت إلى الخبر كل الافتراءات الممكنة ضد الكونت. فغضبا أشد الغضب، وشملا بالعقاب ابني المذنب المزعوم، وحكما عليهما وعلى ذريتهما بالنفي المؤبد. وعُرضت مكافأة لمن يسلّم أباهما

حياً أو ميتاً.

أما غوتييه الشريف، وعلى الرغم من براءته، إلا أنه أكد إدانته بهروبه، فنزل في كالايس مع ابنيه، دون أن يعرّف بنفسه. ثم انتقل فوراً إلى لندن، متنكراً كمتسول. وكان أول ما فعله أن أوصى ابنيه بأن يذعنا لتقبل البؤس الذي ألحقه بهما القدر، وألا يُعرّفا بنفسيهما أمام أحد قط، إذا أرادا عدم التعرض للموت. وألا يخبرا أحداً من أين جاءا، ولا من هو أبوهما.

كان اسم الابن لوجي، وعمره حوالي تسع سنوات. وكان اسم الطفلة فيولانت، وعمرها سبع سنوات. وقد احتفظ كلاهما في ذهنه، بقدر ما يسمح به سنهما، بتعليمات أبيهما، وهو ما سيظهرانه في أعمالهما كما سنرى في سياق القصة. ثم بدّل لهما اسميهما زيادة في المداراة، فجعل اسم الصبي بيروتو، واسم الطفلة جانيت.

وصلوا إلى مدينة لندن بثياب بالية، وعاشوا في فقر مدقع، وبعد أن أنفقوا النقود القليلة التي لديهم، اضطروا إلى طلب الصدقات، مثل من نراهم من المتسولين الفرنسيين. وفي صباح أحد الأيام، بينما هم عند باب إحدى الكنائس، في موعد خروج المؤمنين من القداس، رأت زوجة أحد وزراء الملك الكونتَ وابنيه يطلبون الصدقات؛ فسألت الأب من أين هو، وإذا ما كان الطفلان ابنيه. فأجاب غوتييه أنه من بيكارديا، وأن محنة قد ألمت بابنه البكر اضطرته إلى مغادرة موطنه مع ابنيه الآخرين. فأمعنت السيدة النظر، وهي مشفقة بطبعها، إلى الطفلة، ورأتها جميلة جداً وأعجبتها، فقالت للكونت:

ـ أيها الرجل الطيب، إذا رضيت بترك هذه البنية معي، لأن مظهرها يروقني، فسوف أتولى تربيتها بكل سعادة؛ وإذا هي أحسنت التصرف، فبإمكاني أن أزوجها فيما بعد ممن يُسعدها.

ابتهج الأب لهذا الاقتراح، ورد بالإيجاب على السيدة. ثم ودع ابنته، وسلّمها إليها وهو يوصيها كثيراً بها.

بعد أن وفر مأوى لابنته، حاول الكونت الذهاب ليجرب حظه في مكان آخر. فاجتاز الجزيرة برفقة بيروتو، ووصلا وهما يتسولان الخبز إلى إمارة الغال، لكن ذلك تطلب منهما جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، لأنهما غير معتادين على السفر مشياً على الأقدام.

كان يقطن في تلك المقاطعة مارشال من قواد ملك إنكلترا، يتولى حكمها، وكان ينفق بإسراف، ولديه الكثير من الخدم. ولأن الكونت وابنه كانا يعيشان في تلك المدينة، فقد كانا يذهبان في أحيان كثيرة إلى قصره، ويدخلان إلى الفناء أحياناً ليطلبا صدقة. وكثيراً ما كانا يريان ابن المارشال وهو يلهو هناك مع أترابه من أبناء النبلاء. وفي أحد الأيام اختلط بيروتو بهم، ولعب معهم بمهارة تفوق مهارة الجميع. انتبه إليه المارشال، وفُتن بأساليب ذلك الصبي، فسأل ابن من هو. فقيل له إنه ابن رجل فقير، يأتي إلى القصر أحياناً لطلب صدقة. فأمر الحاكم بإحضار الأب، وطلب منه أن يتنازل له عن الطفل، وقال إنه سيرعاه بكل حنان. ولم يكن الكونت يتمنى شيئاً أكثر من ذلك، فسلّمه ابنه دون تردد، وإن كان ذلك الفراق محزناً لقلبه كأب.

وبعد توفر ذلك المأوى الموفق لابنه وابنته، قرر مغادرة إنكلترا، والسفر إلى ايرلندا. وحين وصل إلى ستانفورد، دخل في خدمة سيد من تلك البلاد، ومع أن وضعه لم يكن مرضياً جداً، إلا أنه ظل هناك لوقت طويل يعمل خادماً.

الطفلة فيولانت التي لم تعد تُعرف إلا باسم جانيت، ترعرعت وكبرت، وعرفت بذكائها المتوقد كيف تكسب محبة السيدة التي أحسنت إليها، كما أكسبها حسن سلوكها محبة زوج السيدة، وجميع من في البيت؛ بل إن كل من كان يتعرف عليها، كان يحبها. ولم يكن بإمكان أحد أن يراها إلا ويحبها، بالنظر إلى تصرفاتها وسلوكها الجدير بفتاة واسعة الثراء وسامية المقام. ومع أن السيدة لم تستطع اكتشاف أصلها، إلا أنها كانت تقدر أنها بنت جديرة بالخير، وصارت تفكر في تزويجها من حرفي غني وحسن العادات. ولكن الرب الذي نادراً ما يتخلى عن مكافأة الفضيلة، لم يشأ أن يُحمل الفتاة جريرة جريمة لم تقترفها، فقدّر الأمور بطريقة أخرى، ولم يسمح بتزويجها من رجل من الطبقة المتوسطة وغير جدير بنُبل أصلها.

لم يكن للسيدة المحسنة وزوجها سوى ابن وحيد، يحبانه بشغف شديد، وهو جدير بحبهما لفضائله وسمو أخلاقه. وكان حسن الوجه، ممشوق القامة، طيب الطبع، مهذباً وشجاعاً، ومتميزاً عن الشبان الذين في مثل سنه. وكان الفتى، وهو يكبر جانيت بست سنوات، يجدها لطيفة وجميلة، ويعاملها على الدوام بكثير من اللباقة. وكان يستمتع بمرافقتها إلى أن وقع في حب الفتاة، دون أن يلحظ ذلك، حتى إنه لم يعد يشعر بالسعادة

إلا عندما يكون إلى جوارها. لكنه لم يجرؤ على الطلب من أبويه أن يزوجاه منها، لاعتقاده بأنها من أصل وضيع، بل إنه لم يجرؤ على الكشف عن مشاعره تجاهها، معتقداً أن مثل ذلك الحب سيُنكر عليه، لأنه لا يليق بمكانته. فكان يخفي عاطفته بحرص شديد، فيضاعف ذلك من تأججها في قلبه.

استنفد الحزن والغم الفتى، فخارت قواه وسقط طريح الفراش في حالة حرجة. ولم يستطع الأطباء معرفة أعراض الداء وأسبابه، فيئسوا من علاجه. وأصاب الغم أباه وأمه وهما يريان تردي حالة ابنهما، فكانا يتوسلان إليه باكيين أن يخبرهما بسبب مرضه. فلم يكن الفتى يقول لهما شيئاً سوى أنه مستنفد القوى، ويرفق ذلك الجواب بزفرات عميقة. ومن أجل إرضاء الأب والأم، كانت جانيت توليه عناية خاصة. وقد دخلت في أحد الأيام إلى حجرته في الوقت الذي كان فيه طبيب شاب، لكنه بارع، يجس نبضه. وما إن رآها الفتى حتى تأثر قلبه، وخفق في نبضات قوية مفاجئة، أحدثت تسرعاً كبيراً في نبضه. ومع أن المريض لم ينطق بأية كلمة، ولم يشِ وجهه بأي تأثر، إلا أن الطبيب أحس بوقع النبضات، وخامره الشك في أن شيئاً ما قد حدث؛ فلم يتحرك، كي يعرف كم من الوقت ستدوم تلك الحالة. ولاحظ أن النبض قد عاد إلى إيقاعه المعهود بعد خروج جانيت من الحجرة. عندئذ ظن الطبيب البارع أنه قد اكتشف، جزئياً، سبب ذلك الداء. ولكي يتأكد بصورة أفضل، وبذريعة طلب شيء ما، أمر باستدعاء جانيت ثانية؛ وظل يجس طول ذلك الوقت نبض المريض. وحين ظهرت الفتاة من جديد، عاد النبض إلى التسرع، ولم يهدأ إلا عندما غادرت الحجرة. لم يعد يخامر الطبيب أي شك في أنه قد اكتشف السبب الحقيقي للمرض، فأخذ أبا الشاب وأمه جانباً، وقال لهما على انفراد:

ـ علاج ابنكما لا يعتمد على فنون الطب التي أمارسها، وإنما هو بين يدي جانيت. لقد عرفتُ ذلك من إشارات مؤكدة، فالشاب يحبها بلوعة، بالرغم من أن الفتاة تجهل الأمر تماماً، وهو ما تأكدتُ منه؛ أو أنها تتظاهر بالجهل. فانظرا الآن في ما عليكما عمله. ما عليّ أن أقوله لكما فقط، هو أنه عليكما، إذا كنتما تحرصان على حياة ابنكما، أن تعالجا مرضه بأسرع ما يمكن، وإلا لن أكون مسؤولاً عن علاجه. لأنه إذا ازداد نحوله أكثر، فلن يكون هناك علاج قادر على شفائه.

ذهل الأب والأم لسماع كلام ذلك الطبيب البارع. ومع ذلك، فقد أسعدهما كثيراً أن

يعرفا أن هناك علاجاً لداء ابنهما، وكانا يأملان بألا يكون من المحتم، لعلاجه، تزويجه من جانيت. ذهبا لرؤيته بعد انصراف الطبيب، وتحدثت إليه الأم بهذه الطريقة:

ـ بني، ما كنتُ لأصدق قط أنك تخفي عني سرّ رغباتك، وخاصة عندما تكون حياتك رهناً بها. عليك أن تعلم أنه لا وجود في الدنيا لما لا يمكن صنعه، إلا وأُقدم على عمله من أجلك ـ طالما كان لا يحط من الاحترام ـ. ومع ذلك، أنت لم تفتح لي قلبك، غير أن الرب المتألم من حالتك، وغير الراغب في موتك، عرفني بسبب دائك، وهو ليس سوى داء الحب. لماذا تخشى الاعتراف لي؟.. أوتظنني لا أعرف ما هو الضعف الشائع بين الشبان في مثل سنك؟.. وهل يمكن لك أن تظن أن يكون ذلك سبباً في نقص حبي لك؟.. بالعكس يا حبيبي، فحبي لك أقوى الآن؛ لأن هذه الحاجة التي تمنحنا إياها الطبيعة، تؤكد لي أنك لست متبلد الأحاسيس. أبعد عنك كل تحفظ يا بني، وأظهر لي كل مشاعرك، واعتمد على تسامح أم تحبك إلى أبعد الحدود. أزح عنك هذه الكآبة التي تستنفد قواك، وركز كل جهدك على الشفاء وحسب؛ وستجدني مستعدة لعمل كل ما يسعدك ويرضيك. فلا تسمح للشك بأن يخامرك في هذا الشأن. أزح عن روحك كل خوف أو خجل، وكلمني دون خشية أو حذر. هل يمكنني أن أؤثر في شيء على الفتاة التي تحبها؟.. سأشعر بأنك تعتبرني أقسى الأمهات إذا لم ترَ لديّ كل الرغبة في مساعدتك.

أحس الشاب، حيال هذه الكلمات، بشيء من الحياء في أول الأمر؛ لكن إلحاح أمه وتوسلاتها شجعته. وفكر في أنه ليس هناك من هو قادر خيراً منها على بلوغ مرام أشواقه الثمين؛ فتخلى عن الحياء والخجل. وكلمها بهذه الكلمات:

ـ ما دفعني يا سيدتي إلى إخفاء حبي، هو رؤية معظم البشر لا يرغبون، حين يكبرون وينضجون، في رؤية أو تذكر ما كانوا عليه في شبابهم. لكنني وأنا أرى أنك متفهمة ومستعدة للاحترام، لن أقتصر على تأكيد ملاحظاتك وحسب، وإنما سأطلعك على سبب أحزاني، إذا ما وعدتني بتمكيني من التوصل إليها. وبهذا فقط تعيدينني إلى الحياة، وسأكون مديناً لك بسعادتي.

وربما لأن الأم كانت واثقة من موافقة جانيت، ولم يخطر لبالها أن فضيلة الفتاة ستكون عائقاً أمام مشروعها، أجابته بأنه يستطيع أن يطلعها بكل ثقة على اسم من يحبها.

ـ اعلمي إذن يا سيدتي أن من أوصلتني إلى الحال التي ترينني عليها هي ربيبتك جانيت؛ ولم أستطع التخلي عن حبها وأنا أرى جمالها وخصالها المميزة التي تتحلى بها. ولأنني كنت أخشى ألا تستجيب لعاطفتي، ولأنني من جهة أخرى، كنت أظن أنكِ لن توافقي على أن تكون زوجة لي، لم أتجرأ على البوح بحبي لأحد، بمن في ذلك هي نفسها؛ وهذا هو مصدر عنائي وآلامي. ولكنني أنبهكِ إلى أن عدم تحقيق ما وعدتِني به، لسبب أو لآخر، سيعني أنني لن أعيش لوقت طويل.

رأت الأم أن الشاب بحاجة إلى نوع من السلوى، وأن اللحظة ليست مناسبة لتوجيه أي ملاحظة إليه، فقالت له باسمة:

ـ أي بني! إذا كان هذا هو السبب الوحيد لمرضك، فيمكنك أن تطمئن. فكر فقط في استرداد عافيتك، ودعني أتصرف. وأؤكد لك أنك سترضى عني.

وسرعان ما بدأت تظهر على الفتى المفعم بالآمال أمارات استرداد العافية؛ واستعدت الأم بدورها، وهي سعيدة لهذه النتائج، لإنجاز ما وعدت به. لم تدر في أول الأمر كيف تبدأ؛ فهي تحسن الظن كثيراً بجانيت، ولكنها عقدت العزم في نهاية المطاف على سبر أغوار قلبها، فسألتها مازحة إذا كان لها حبيب. فردت عليها جانيت وقد كست وجهها حمرة الحياء، إنها لا تجد ضرورة لذلك، وأضافت إنه لا يليق بفتاة فقيرة، مطرودة من بلادها وتعيش على نفقة شخص غريب، أن تفكر في شؤون الحب.

فقالت لها السيدة:

ـ ومع ذلك، لست أفهم كيف يمكن لشابة في مثل لطفك وجمالك أن تظل دون حبيب، وأظن أنك ستبتهجين بمن اخترته لكِ.

فأجابتها جانيت:

ـ أدرك يا سيدتي، أنه بعد أن أنقذتني من حياة التسول التي ربما لا يزال أبي يعيشها وبعد أن ربيتني في بيتك كابنة لك، أدرك أنه علي أن أخضع خضوعاً أعمى لكل ما يمكن أن يرضيكِ، ولكنني أرجو منك أن تعفيني من الانصياع لك في هذا الشأن، إلا إذا كنت تريدين لي الزواج ممن تختارينه أنتِ لي. في هذه الحالة يمكن للزوج أن يلقى كل ما لدي من حنان. أما الشرف، وأنت لا تجهلين ذلك، فهو الثروة الوحيدة التي ورثتها عن

أبويّ، وعليّ بالتالي أن أحافظ عليها دون أن تلطخها شائبة حتى مفارقتي هذه الحياة.

لم ترق هذه الكلمات للسيدة التي لا ترمي إلا إلى تنفيذ وعدها لابنها. ولكنها قدّرتها، مع ذلك، في أعماق قلبها. غير أن المصلحة التي تدفع روحها، كانت أقوى من أن تستسلم بهذه السرعة، فألحت من جديد قائلة بنبرة تشير إلى استغرابها:

- ولكن، إذا ما أغرم الملك الشاب بجمالك يا جانيت، وطلب الاستمتاع بحبك، هل ستجرئين على صده؟..

فأجابتها جانيت على الفور:

- يمكن للملك أن يستخدم القوة، أما بمشيئتي فلن أقبل بشيء يلطخ كرامتي.

قدرت السيدة عالياً فضيلة الفتاة وتصميمها، فتخلت عن الإلحاح عليها. ولكنها رغبت في وضعها على محك التجربة، فقالت لابنها إنها سوف تعمل، ريثما يستعيد عافيته، على ترتيب انفراده بها ليتمكن من استمالتها ونيل متعته منها، لأنه من المشين أن تكون بمقام القوادة، وأن تتحدث عن ابنها وتتوسل إلى محبوبته. استاء الشاب من هذا الاقتراح، وتردت حالته بصورة مفاجئة حين رأى عدم الوفاء بما وُعد به. ورأت أمه تدهور صحته، وخشيت من الأسوأ، فتجاوزت كل شيء وكشفت نواياها لجانيت. وحين وجدتها أشد تصلباً من قبل، أخبرت زوجها، واتفقا معاً على تزويجها من ابنهما. وقد كان قراراً توصلا إليه بغم شديد، لكنهما فضلاه على رؤية ابنهما يموت من الشجن. حمدت جانيت الرب لأنه لم ينسها. ولكنها لم توافق مع ذلك على إعلان اسمها الحقيقي، مكتفية بالقول إنها ابنة رجل بيكاردي. وشيئاً فشيئاً، راح الشاب العليل يسترد قواه المفقودة وسعادته، حتى صار في نهاية الأمر أسعد رجل على وجه الأرض.

أما بيروتو الخادم عند مارشال إمارة الغال، فقد كبر. وكان يعرف، مثل أخته، كيف يكسب تقدير سيده. وكان السيد يبتهج بلطفه، وحكمته، ومحاسنه الشخصية. فقد كان ماهراً في استخدام الأسلحة، ويتمتع ببراعة كبيرة في مهارات ذلك العصر العسكرية؛ أي أنه كان يلقى تقدير الجميع. وكانوا يدعونه بيروتو البيكاردي، واشتهر بهذا الاسم وصار محط امتداح الجزيرة بأسرها. ومثلما لم ينس الرب الأخت، لم ينس الأخ أيضاً. فحفظه من مرض معدٍ عصف بالناحية، وقضى على نصف السكان؛ وانتقل الباقون

إلى المناطق المجاورة، وظلت البلاد شبه مقفرة. وقد مات المارشال وزوجته وابنه وبقية أقربائه في تلك الجائحة، باستثناء ابنة له. وكانت تلك الفتاة الوارثة في سن الزواج، ولأنها كانت تشعر بالاحترام والامتنان لبيروتو، فقد قررت الزواج منه. وهكذا صار وارثاً وغنياً وسيداً. ولا بد أن نضيف إلى ذلك أن ملك إنكلترا، وبعد أن علم بمزايا بيروتو وفضائله، أوكل إليه مهام الوظائف التي كان يقوم بها حموه من قبل.

كان قد انقضى ثمانية عشر عاماً منذ أن هرب الأب عاثر الحظ من باريس. وكان هذا الأب قد مرّ بمحن كثيرة ومريرة. وبعد أن صار عجوزاً طاعناً في السن، رغب في أن يعرف المصير الذي آل إليه ابناه. كانت النكبات وكبر السن قد بدّلت ملامح وجهه. أما جسده، وبفضل حركته الدائمة، فكان لا يزال رشيقاً ومتيناً؛ وهكذا غادر أيرلندا حيث كان يقيم، متوجهاً إلى أقليم الغال مع متاعه الضئيل الذي يملكه. ووصل بحالة جيدة إلى المكان الذي يقيم فيه المارشال بيروتو. ولكنه قرر عدم الكشف عن نفسه إلى أن يعرف ما صارت إليه أحوال جانيت. فواصل سيره إلى لندن، وتقصى سراً عن السيدة التي ترك عندها جانيت، وعلم بأمر زواج ابنته، ولكنه ابتهج أكثر بأخبار ابنه. فكانت الأخبار الطيبة سلوى له مما عاناه من نكبات. كان راغباً في رؤية ابنته، ولم يكن يتوقف عن التجوال حول القصر الذي تقيم فيه. وفي أحد الأيام، أشفق جاكوب لامينز، زوج جانيت، على العجوز الفقير، وأمر خدمه بإدخاله إلى البيت وتقديم الطعام له.

كانت جانيت قد أنجبت من جاكوب عدة أبناء، أكبرهم يزيد عمره على الثماني سنوات. وعندما رأى الأطفال الكونت السابق وهو يأكل، أحاطوا به وراحوا يداعبونه، كما لو أنهم أحسوا، بقدرة خفية، أنه جدهم. أما هو فعرف أنهم أحفاده، فراح يتحدث إليهم ويظهر لهم المحبة، حتى كسب صداقتهم ولم يعد الأطفال يرغبون في الابتعاد عنه، ولا في الذهاب مع المؤدب. فجاءت الأم غاضبة، وهددتهم بالعقاب إذا هم لم يذهبوا مع المعلم. فأخذ الأطفال يبكون ويقولون إنهم يفضلون صحبة العجوز الطيب، لأنه يحبهم أكثر من المؤدب. فابتسمت السيدة من قولهم، وابتسم الكونت مثلها، ثم نهض ليسلم على جانيت، ليس كابنة له وإنما كسيدة، وليس كأب لها وإنما كمتسول. ولم تتعرف هي عليه. وسمحت لأبنائها بالبقاء لمزيد من الوقت معه، وانصرفت على الفور. بعد ذلك جاء حموها، وعلم من المؤدب بما حدث، فأبدى ازدراءه لنسب المرأة، وقال بعجرفة:

ـ دعهم على ميولهم، فهم صورة عن وضاعة أصل الأم المتشردة التي أنجبتهم، ولا عجب أن يروقهم البقاء مع المتشردين.

سمع الكونت هذا الكلام وغضب غضباً شديداً، ولكنه لم يجب بشيء، لأنه اعتاد على تلقي الإهانات. أما جاكوب الذي سمع باحتفاء أبنائه بالرجل الفقير، أي الكونت، فقد استاء من ذلك، لكن حبه لهم كان عظيماً، فقرر أن يمنح حماه عملاً في البيت. ووافق هذا على العمل، لكنه قال إنه لا يتقن أي عمل آخر سوى العناية بالخيول، وهي شغل أولئك الأطفال الشاغل. وهكذا كلفوه بالعمل، فقام بمهامه على أحسن وجه. وبعد الانتهاء من عمله، كان يعكف على اللعب مع أحفاده وتسليتهم.

بينما كانت هذه الأمور تحدث لكونت أنغريس، توفي ملك فرنسا. وبعد هدنات متتالية مع الألمان، اعتلى العرش ابنه الذي كانت زوجته هي السبب في نفي الكونت. وبعد الهدنة الأخيرة، تجددت الحرب باحتدام أشد من كل ما سبق. فطلب الملك الجديد المساعدة من ملك إنكلترا، وهو قريب له؛ فأرسل له قوات تحت أمرة بيروتو وجاكوب لامينز. وقرر الكونت أن يضع نفسه تحت تصرفهما كسائس خيل، وظل في المعسكر دون أن يتعرف عليه أحد. وعلى الرغم من ضآلة شأن عمله، إلا أن معرفته الواسعة بفنون الحرب، مكنته من تقديم خدمات كبيرة.

لم تستمتع ملكة فرنسا الجديدة مطولاً بالحكم، فقد سقطت مريضة، وماتت بعد قليل من ذلك. وبينما هي تحتضر، أحست بالندم، واستدعت أسقف روان، وهو رجل شديد الورع، واعترفت له بكل شيء، مشيرة إلى براءة كونت أنغريس. ولم تُخفِ المحتضرة أي تفصيل وهي تقدم اعترافها أمام شهود من النبلاء، كي تمنح اعترافها صدقية أكبر. وطلبت من الجميع أخيراً أن يعيدوا الاعتبار إلى الكونت وابنيه إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

عندما علم الملك بالأمر، تألم للظلم الذي لحق بالكونت، وعرض في كل الأنحاء مكافأة لمن يقدم أخباراً عنه بعد أن ظهرت براءته. وأضاف إنه على استعداد لإعادة الكونت إلى وضعه السابق، بل وتحسينه، كي يجعله ينسى ما لحق بسمعته من تشويه كبير.

أثار هذا الخبر الكثير من الصخب. عندئذ ذهب الكونت بحثاً عن جاكوب، ورجاه

الاجتماع به، ومعه بيروتو، لأنه سيعرض عليهما الشخص الذي يبحث الملك عنه. وعندما اجتمع الثلاثة، قال الكونت لبيروتو الذي كان قد فكر في أن يكشف عن نفسه للملك:

ـ بيروتو، ألا تعرف أن جاكوب هو زوج أختك، وأنه قد تزوج منها دون أن يحصل على أية دوطة؟.. وبما أنه لا بد من تقديم دوطة له، فإن هذه المكافأة التي يعرضها الملك ستكون لمن يُعَرِّف بك. وأريده أيضاً أن يستفيد من المكافأة التي تقدم للتعريف بأختك فيولانت، زوجته، ليحصلا معاً على المكافأة المخصصة لمن يعرِّف بي أنا، كونت أنغريس، وأبوك.

أصاب الذهول بيروتو وهو يسمع هذا الكلام، ونظر إليه بإمعان إلى أن تعرف على ملامح أبيه. فألقى بنفسه عند قدميه باكياً، وهتف:

ـ أبتاه! أبي الحبيب، كم أنا سعيد برؤيتك من جديد!

كان وقع المفاجأة شديداً على جاكوب حيال ذلك الحدث، فلم يدر ما يمكنه قوله أو التفكير فيه. تذكر سوء معاملته للعجوز، فألقى بنفسه عند قدميه، طالباً منه الصفح؛ غير أن الكونت أنهضه وعانقه. وبعد تبادل الأحاديث والتعليقات، أرادا إلباس الكونت ثياباً تليق بمرتبته، لكنه رفض ذلك؛ ورغب في أن يمثل أمام الملك وهو على تلك الحال. ذهب جاكوب لإخبار الملك، كي يقدم إليه الكونت وابنيه. فهيأ العاهل هدايا ثمينة لتقديمها إليهم عندما يحضرون. ورافق جاكوب حماه الذي كان يرتدي ثياب سائس خيل.

ـ مولاي، هذا هو الكونت، وهذا هو ابنه ـ قال جاكوب مشيراً إلى بيروتو، وأضاف ـ أما ابنته فهي زوجتي، وستتمكنون من رؤيتها بعد أيام.

أمعن الملك النظر في الكونت، وعرفه على الرغم من التبدل الذي طرأ عليه. فبكى الملك وهو يراه يجثو على ركبتيه، وطلب منه النهوض وعانقه بعاطفة ومودة، وداعب بيروتو وهو يخبر جاكوب بالسعادة الكبيرة التي منحه إياها. وسأله عن السبب الذي جعل حماه يعمل سائساً، فأخبر جاكوب العاهل بكل ما أراد معرفته. فأمر الملك بإحضار ملابس وزينات للكونت تليق بمنصبه. وعندما تلقى جاكوب المكافآت الكبيرة لأنه عرّف على الكونت وابنيه، قال له الكونت:

ـ خذ هذه الهبات من جلالة الملك، وتذكر أن تقول لأبيك إن أبناءك ليسوا من أصل وضيع من جهة أمهم.

كتب جاكوب إلى إنكلترا، طالباً من زوجته المجيء. كما أرسل بيروتو يستدعي زوجته. وبعد إقامة قصيرة في المدينة، رجعوا إلى بلادهم بإذن من العاهل. وقد ذرفوا دموعاً غزيرة وهم يودعون كونت أنغريس الذي بقي في فرنسا، حيث عاش بعد استعادته ثرواته ومناصبه سنوات طويلة، مكرماً ومحبوباً مثلما لم يكن من قبل.

القصة التاسعة

يقع بيرنابيه دي جنوا ضحية خداع أمبروجيولو، فيأمر بقتل زوجته البريئة. لكنها تنجو، وترتدي ملابس الرجال لتعمل في خدمة السلطان. تلتقي بالمخادع، فتأتي ببيرنابيه إلى الإسكندرية. وبعد أن تعاقب المذنب، ترتدي مجدداً ثياب النساء وتعود، بثروة طائلة، مع زوجها إلى جنوا.

الملكة فيلومينا الجميلة وممشوقة القوام، وأكثرهن لطفاً وإشراقة محيا، بدأت الكلام بعد أن أنهت إليسا قصتها المؤثرة، وقالت:

ـ لا بد من احترام الاتفاق مع ديونيو. وبما أنه لم يبق أحد لم يروِ قصة إلا هو وأنا، فسوف أروي قصتي أولاً، وسيكون هو الأخير، مثلما طلب.

قالت هذا، وبدأت قصتها على النحو التالي:

ـ هناك مثل شائع يقول إن الخادع ينتهي به المطاف لأن يكون مخدوعاً، وهو ما لا يمكن إثبات صحته، كما يبدو، بأي نوع من الشرح والتفسير، وإنما بالوقائع التي تحدث. ولهذا، ودون الابتعاد عن موضوعنا، راودتني الرغبة في إثبات ذلك بالوقائع، فضلاً عن الحجج. ولن يزعجكم سماعها، يا صديقاتي العزيزات، لأنكن ستتعلمن الاحتراس من المخادعين.

التقى بعض التجار الإيطاليين في نزل بباريس. وبعد أن تناولوا العشاء في إحدى الليالي، راحوا يتبادلون الحديث بمرح في أمور مختلفة. فتنقلوا من موضوع إلى آخر، حتى

انتهوا إلى موضوع زوجاتهم اللواتي خلّفوهن في بيوتهم. فقال أحدهم مازحاً:

ـ أنا لا أدري ما الذي تفعله زوجتي في غيابي، لكنني أعرف جيداً أنني إذا ما التقيت بشابة حسناء تعجبني، أنسى حبي لزوجتي، وأستسلم للشابة.

فرد عليه آخر:

ـ وأنا أفعل الشيء نفسه. لكنني أظن أن زوجتي تفعل ذلك أيضاً. وكما يقول المثل: مثلما تدين تدان.

وكان للثالث الرأي نفسه، فقال إن زوجاتهم، وهن وحيدات، ينتهزن الفرصة ولا يضيعن وقتهن. لكن واحداً منهم، ويدعى بيرنابو لوملين، من جنوا، أبدى رأياً مخالفاً. وقال إنه تزوج، بنعمة من الله، امرأة هي من أكثر النساء، وحتى الرجال، كمالاً في الفضائل كلها، وربما لا وجود في إيطاليا لأخرى مثلها؛ فهي جميلة القوام، ولا تزال شابة فتية، وشديدة البراعة في أشغال النساء، مثل تطريز الحرير وما شابه ذلك. وقال إنها تتمتع، فوق ذلك، بمزايا أخرى، كتقديم مائدة عامرة بكل لباقة وحكمة وعناية. وأطرى على براعتها في ركوب الخيل، وسيطرتها على الصقر عند الصيد بالصقور، وإتقانها الحساب خيراً من التجار. وبعد كثير من المديح، انتهى إلى القول مؤكداً إنها أكثر النساء عفة وحشمة، وإنه واثق من أنها لن تكلم رجلاً سواه مهما طال غيابه عنها.

وكان بين الحاضرين تاجر شاب يدعى امبروجيولو من بياشنز، راح يضحك بصخب حين سمع كلام بيرنابو، وسأل ساخراً عما إذا كان الإمبراطور قد أنعم عليه بهذا الامتياز دون سواه من الرجال. فأجابه برنابو، بشيء من الغضب، بأنه مدين بهذه النعمة إلى الله الذي يفوق الإمبراطور سلطاناً.

فقال له امبروجيولو:

ـ لست أشك في أنك تظن أن ما تقوله هو الحقيقة، ولكنني أعتقد أنك لا تعرف طبيعة الأمور، وهذا هو ما يدفعك إلى قول مثل هذه الترهات. ولكي تدرك أن ما قلناه عن زوجاتنا، إنما قلناه بتعقل طبيعي، أريد أن أناقشك في الموضوع. فالرجل هو أنبل الكائنات التي خلقها الله، وهو شبيه بالمرأة، لكنه أكثر منها كمالاً. وكماله يستند إلى شدة الحزم، بينما النساء مترددات. فإذا كان الرجل، بالرغم من حزمه، غير قادر على مقاومة

إغراء امرأة تستهويه «وهذا لا يحدث مرة في الشهر، وإنما ألف مرة في اليوم»، فكيف تقاوم المرأة ـ وهي أشد ضعفاً ـ الحيل والوسائل التي يلجأ إليها رجل يعشقها؟.. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أصدق أنك تفكر عكس ذلك. فما عليك إلا أن تعترف بأن زوجتك من لحم ودم، مثل غيرها من النساء. ولأنها كذلك، فمن المحتمل، وإن كانت عفيفة، أن تفعل مثلما تفعل الأخريات. أما عكس ذلك، فهو مما يصعب إنكاره أو إثباته.

فرد عليه بيرنابو قائلاً:

ـ أنا تاجر، ولست فيلسوفاً. وهذا الذي تقوله قد يحدث للنساء الغافلات أو المتهتكات، ولكن ليس للعاقلات الفطنات؛ فهؤلاء عندما يدافعن عن شرفهن، يصرن أشد قوة من الرجال. وزوجتي من هذا النوع من النساء.

فقال أمبروجيولو:

ـ انظر، لو أنهن كلما ارتكبن مثل تلك الأمور، ظهر لهن قرن في جباههن، لكانت قلة منهن من يفعلن ذلك. ولأن الأمر ليس على هذا النحو، فإنهن لا يرين الشر إلا في انكشاف أمرهن؛ أما إذا أتيحت لهن الفرصة لفعل ذلك خفية، فسيفعلنه. وخذ عني هذه الحقيقة: المرأة العفيفة الوحيدة هي تلك التي لم يراودها رجل قط، أو أنها من راودت رجلاً ولم يستجب لها. إنني عارف بالأمر، وقد تأكدت منه بالتجربة مع نساء كثيرات. ولو أنني كنت على مقربة من زوجتك العفيفة، لنلت منها ـ على ما أعتقد ـ ما نلته من أخريات.

فقال بيرنابو وقد ثارت حفيظته:

ـ يمكن لجدالنا هذا أن يستمر طويلاً. ولن يوصلنا الكلام إلى اتفاق. ولكن، إذا كانت كل النساء سواء، كما تقول، وأنك تتمتع بسعة الحيلة، وأنا واثق من عفة زوجتي، فإنني أراهنك على قطع رأسي إذا ما تمكنتَ من إغواء زوجتي. أما إذا خسرت أنت الرهان، فسأكتفي بألف فلورين ذهبي منك.

فرد عليه أمبروجيولو متحمساً:

ـ لستُ أدري أي فائدة سأجنيها من هدر دمك إذا أنا كسبت؛ فإذا كنت تريد الرهان حقاً، فليكن رهانك بخمسة آلاف فلورين ذهبي، وهي أقل قيمة من رأسك، مقابل ألف فلورين مني. وأنا أتعهد بأن أذهب إلى جنوا، وفي أقل من ثلاثة أشهر سأجعل زوجتك

تستجيب لمشيئتي. وسأقدم لك الدليل من أشد أشيائها حميمية، بحيث لا يكون أمامك سوى الاعتراف بنجاحي. ولكن، عليك أن تتعهد لي بألا تذهب إلى هناك، وألا تُطلع زوجتك على هذه المسألة.

وافق بيرنابو على الرهان، بالرغم من أن التجار الآخرين حاولوا ثنيه عن ذلك، لمعرفتهم بأن شراً عظيماً قد ينتج عنه. ولكنهم حيال حماسة الرجلين، لم يجدوا بداً من أن يكونوا شهوداً ويمهروا بتوقيعهم شروط الرهان. وظل بيرنابو في باريس، بينما توجه امبروجيولو، بأسرع وقت، إلى جنوا، حيث أمضى بضعة أيام للتقصي، بمنتهى الحذر، ما يحتاج إليه من معلومات عن عنوان المرأة وعاداتها. وقد تأكد له، من المعلومات التي تلقاها، صحة كلام بيرنابو، مما أشعره بخيبة الأمل. لكنه كان قد تعرف، مع ذلك، على امرأة بائسة تتردد على البيت، وتحبها زوجة بيرنابو كثيراً؛ فأفسدها بالنقود ليتمكن من الدخول، في صندوق صُنع على مقاسه، ليس إلى البيت فقط، بل إلى مخدع السيدة بالذات. وهناك ادعت المرأة المسكينة أنها تنوي الرحيل إلى مكان ما، مثلما أمرها أمبرجيولو، وطلبت من السيدة أن تُبقي الصندوق عندها عدة أيام، ريثما تعود. وهكذا ظل الصندوق في الحجرة. وعندما حلّ الليل، وبدا لأمبروجيولو أن السيدة قد نامت، فتح غطاء الصندوق وخرج منه بحذر. تفحص الغرفة جيداً، وما فيها من لوحات معلقة على الجدران، وكل ما يمكنه تذكره. ثم اقترب من السرير، حيث كانت السيدة ومعها صبية صغيرة السن تخدمها، مستغرقتين في نوم عميق، فكشف عنها الغطاء ببطء، فبدت له باهرة الجمال في عريها. وأمعن النظر في شامة على نهدها الأيسر، تحيط بها شعيرات شقراء كأنها من الذهب. ثم غطاها ثانية بحذر شديد، بالرغم من أن رغبة راودته، وهو يرى جمالها، في أن ينام معها، لكنه لم يشأ المجازفة. ثم أخذ جراب نقود، ومشداً، وثوباً، وبعض الخواتم مما لدى السيدة، وعاد إلى الصندوق ومعه كل تلك الأشياء.

وكرر الشيء نفسه ليلتين أخريين، بانتظار أن تأتي المرأة الفقيرة في اليوم الثالث لتأخذ الصندوق، حسب اتفاقه معها؛ وكان هذا ما حدث. ورجع بعدها أمبروجيولو مسرعاً إلى باريس. وهناك جمع التجار ليكونوا شهوداً، وقال لبيرنابو إنه قد كسب الرهان. وليثبت ذلك وصف له الحجرة، وما فيها من لوحات، وعرض عليه أخيراً الأشياء التي أخذها من الحجرة، زاعماً أنها هي من أعطته إياها.

لم يجد بيرنابو مفراً من الاعتراف بأن الحجرة تتفق مع وصف أمبروجيولو، لكنه تعلل بأنه يستطيع معرفة ذلك من معلومات يتلقاها من أحد الخدم في البيت. ويمكن أن يكون قد حصل بالطريقة نفسها على الأمتعة التي عرضها.

فأضاف أمبروجيولو:

- إذا لم يكفك هذا فسوف أقدم لك المزيد. فلزوجتك السيدة زينيفرا شامة كبيرة تحت ثديها الأيسر، محاطة بست شعيرات شقراء كأنها من الذهب.

حين سمع بيرنابو ذلك، أحس كما لو أن خنجراً ينغرس في قلبه، وامتقع وجهه وسيطر عليه الغم، ولم يقل شيئاً. غير أن مظهره أكد صحة ما ذكره أمبروجيولو. وأخيراً قال بيرنابو:

- أيها السادة، أؤكد ما قاله أمبروجيولو. ويمكنه أن يأتني متى يشاء ليقبض قيمة الرهان.

وفي اليوم التالي، دفع كل ما عليه أن يدفعه وغادر باريس متوجهاً إلى جنوا بنوايا قاسية ضد زوجته. وقبل أن يدخل المدينة، قرر قضاء الليل في بيت ريفي، في إحدى ضياعه، على بعد عشرين ميلاً من المدينة. وبعث خادماً يثق به، وأرسل معه جوادين ورسالة كتبها لزوجته يخبرها فيها بعودته، ويطلب منها أن تأتي إليه. لكنه أمر الخادم بأن يجد مكاناً مناسباً، في منتصف الطريق، فيقتلها ويعود إليه.

حين وصل الخادم إلى جنوا، ذهب لينفذ ما أُمر به. فسلم الرسالة، وفرحت بها السيدة فرحاً عظيماً. وفي صباح اليوم التالي، وعملاً بأمر زوجها، انطلقت مع الخادم على الجوادين نحو أملاكها. وكانا يتبادلان الحديث في الطريق، إلى أن وصلا إلى واد منعزل، محاط بصخور عالية وأشجار كثيفة، بدا مناسباً للخادم. فتناول السكين، وأمسك بذراع المرأة قائلاً:

- أسلمي أمرك إلى الله يا سيدتي، لأنك ستموتين هنا.

فقالت المرأة مذعورة وهي ترى السكين وتسمع تلك الكلمات:

- الرحمة، بالله عليك! أخبرني أولاً ما الذي يدفعك إلى قتلي.

ـ سيدتي ـ قال لها الخادم ـ أنت لم تسيئي إليّ في شيء، ولست أدري أيضاً ما الذي فعلتِه لزوجك، لكنني أنفذ ما أمرني به، وقد هددني بالشنق إذا أنا لم أفعل. وأنا مطيع لسيدي، ولا يمكنني عصيان أوامره. والله يعلم كم أنا مشفق عليك، لكنني لا أستطيع عمل شيء آخر.

فقالت له السيدة وهي تبكي:

ـ آه، بالله عليك ارحمني! لا تصر قاتلاً لخدمة شخص آخر. والله يعلم أنني لم أسئ لزوجي بشيء أستحق عليه مثل هذه المعاملة. ومع ذلك، يمكنك أن تُرضي الله وسيدك، وترضيني أنا أيضاً بالطريقة التالية: خذ ثيابي هذه، وأعطني معطفك وقلنسوتك فقط. واذهب إلى سيدك وقل له إنك نفذت أمره. وأقسم لك إنني سأذهب إلى حيث لا يعرفني أحد.

الخادم الذي لم يكن راغباً في قتلها، وافق على ذلك، وفعل ما طلبته منه، فأخذ ملابسها وأعطاها معطفه وقلنسوته، ورجاها أن تغادر تلك البلاد. ثم تركها ومضى إلى سيده، وقال له إنه ألقى بجثتها للذئاب.

بعد مرور بعض الوقت، رجع بيرنابو إلى جنوا، وتعرض هناك لكثير من اللوم. أما السيدة من جهتها، فقد وصلت كيفما استطاعت إلى قرية قريبة من المكان، حيث آوتها امرأة عجوز، ساعدتها في تحويل ملابسها على شاكلة ملابس البحارة، ثم توجهت بعد ذلك إلى البحر.

وجدت على شاطئ البحر سيداً كتلانياً يدعى السنيور إين كارارك، ترسو سفينته في مكان قريب، وكان قد نزل منها إلى آلبا، ليبترد في ينبوع هناك. فتبادلت الحديث معه، واتفقت معه للعمل في خدمته، وصعدت إلى السفينة متخذة لنفسها اسم سيكورانو دي فينالي. وهناك حصلت على ملابس أفضل، زادت من إظهارها كرجل، وصارت تخدم السيد على أحسن وجه، مما أكسبها ثقته بسرعة. وحدث أن سافر الكتلاني بحمولة إلى الإسكندرية، وأهدى إلى السلطان هناك بعض الصقور. فدعاه السلطان لتناول الطعام معه، وانتبه في أثناء ذلك إلى مدى اهتمام خادمه برعايته، فطلب منه أن يعطيه ذلك الخادم. وسرعان ما كسب سيكورانو رضا السلطان وعطفه.

كانت تقام في مدينة عكا، وهي تحت حكم السلطان، سوق كبيرة للتجار المسيحيين والمسلمين؛ ومن أجل ذلك، وكي لا يحدث ما يخل بالأمن، اعتاد السلطان أن يرسل إلى هناك، فضلاً عن ضباطه، بعض الأعيان مع حراسه. ففكر في إرسال خادمه سيكورانو لأنه يتقن اللغة جيداً. واختاره فعلاً للذهاب إلى عكا. وهكذا وصل إلى هناك كقائد للشرطة المكلفين بحراسة التجار. وقد مارس مهامه على أحسن وجه. وتبادل الحديث مع تجار من صقلية، وبيزا، وفنسيا، وجنوا، وإيطاليين آخرين يشعر نحوهم بحنين كبير.

وفي أحد الأيام، بينما هو في موقع لتجار من فنسيا، رأى بين مجموعة من التحف، كيس نقود ومشداً تعرّف عليهما فوراً، لأنهما كانا له. ودون أن يبدي أي اهتمام خاص، سأل لمن هما، وإذا ما كانا معروضين للبيع. كان أمبروجيولو هناك، وحين سمعه، قال:

- إنهما لي يا سيدي، ولن أبيعهما، ولكن إذا كانا يروقان لك، فإنني أهديك إياهما.

وحين رآه سيكورانو يضحك، خشي أن يكون قد تعرف عليه من إيماءة ما، فقال له بصرامة:

- أتضحك لأني رجل سلاح وحرب، أسأل عن أشياء نسائية مثل هذه؟..

فأجاب أمبروجيولو:

- لست أضحك لهذا يا سيدي، وإنما للطريقة التي حصلتُ بها على هذه الأشياء.

فقالت:

- إذا كان بإمكانك أن تخبرني بذلك، فسوف تُضحكني معك أيضاً.

- سيدي - قال أمبروجيولو - لقد قدمتهما لي سيدة من جنوا، تدعى زنيفرا، هي زوجة بيرنابو لوميلين، بعد أن ضاجعتها في إحدى الليالي، وطلبت مني أن أحتفظ بهما كذكرى. وأنا أضحك حين أتذكر غباء زوجها بيرنابو الذي راهنني على خمسة آلاف فلورين ذهبي مقابل ألف مني، مؤكداً أن زوجته لن تُقدم على فعل ذلك. وقد كسبتُ الرهان، أما هو، فقد أمر بقتلها كما سمعت، وكان أولى به أن يعاقب نفسه على غبائه في الاعتقاد بأن زوجته لا تفعل مثل غيرها من النساء.

وحين سمعت سيكورانو هذا الكلام، أدركت سبب غضب بيرنابو منها، وصممت على عدم بقاء تلك الجريمة دون عقاب. فتظاهرت أمام أمبروجيولو بأنها أُعجبت بتلك القصة، وواصلت الحوار معه إلى أن ساد بينهما نوع من الألفة. فدعته، بعد انتهاء المهرجان، للسفر معها إلى الإسكندرية، حيث أرسلت توصي بتهيئة بيت له، وأقرضته نقوداً، مما أبقى التاجر هناك لوقت طويل.

أرادت هي أن تثبت براءتها لزوجها، فلم يهدأ لها بال إلى أن أقنعته، من خلال بعض التجار، بالمجيء إلى الإسكندرية. وكان بيرنابو قد صار فقيراً، فصدق أن هناك صديقاً سيقوم بمساعدته. وكانت المرأة قد توصلت، من جهة أخرى، إلى حمل أمبروجيولو على رواية قصته للسلطان، فأمتعته القصة كثيراً. وعندما وصل زوجها، لم تشأ أن تؤخر القضية لمزيد من الوقت، فطلبت من السلطان على أن يستدعي بيرنابو وأمبروجيولو ليمثلا بين يديه، وأن يجبر هذا الأخير على رواية قصته كلها بحضور بيرنابو، وأن يجعل أمبروجيولو يعترف بحقيقة ما حدث في تلك القصة التي يتبجح بها عن امرأة بيرنابو.

وهكذا جيء بأمبروجيولو وبيرنابو للمثول أمام السلطان، فتوجه السلطان بوجه عابس إلى أمبروجيولو، بحضور جمع كبير، وأمره بأن يروي حقيقة ما فعل كي يربح خمسة آلاف فلورين ذهبي من بيرنابو. وكان سيكورانو حاضراً هناك، وهو أكثر من يثق به أمبروجيولو؛ لكنه كان غاضباً ويهدده بتعذيب قاس إذا لم يروِ الحقيقة. ولخوفه من سيكورانو ومن السلطان، واضطراره إلى الكلام بحضور بيرنابو وآخرين كثيرين، توقع ألا تكون عقوبته أكثر من إعادة مبلغ الخمسة آلاف فلورين ذهبي، والأشياء التي استولى عليها. فروى تفاصيل القضية بكل وضوح. وبعد أن انتهى أمبروجيولو من روايته، التفت سيكوران، بوصفه مندوب السلطان، إلى بيرنابو وسأله:

- وما الذي فعلته أنت بتلك المرأة؟..

فأجاب على ذلك:

- لشدة غضبي على فقدان المال، وبسبب العار الذي ألحقته بي زوجتي، أمرت خادماً بقتلها، وهو ما أكد لي أنه قد أنجزه.

لقد قيل كل هذا أمام السلطان، ولأنه لم يكن يدري حقيقة نوايا سيكورانو، فقد

سأله عن ذلك، فأجابه:

ـ لقد صار بوسعك يا سيدي أن ترى ما تعرضت له تلك المرأة على يد مثل هذا العشيق الزائف وهذا الزوج. أحدهما لطخ شرفها بأكاذيبه، وتسبب في إفلاس زوجها، هذا الزوج الذي وثق بدعاوى الغريب الزائفة أكثر من ثقته بما يعرفه من تجربته، فأمر بقتل المرأة وتركها طعاماً للذئاب. ولأنكم تعرفون جيداً ما يستحقه كلاهما، فإنني أطلب منكم التكرم بالسماح لي بأن أتولى أنا معاقبتهما؛ وبهذا سأحكم على الخادع وأصفح عن المخدوع، كما أنني سآتي بتلك المرأة للمثول أمامكم.

وافق السلطان على كل ذلك. وذهل بيرنابو الذي كان يحسب زوجته ميتة. وخشي أمبروجيولو من حدوث ما هو أسوأ، ولم يعد يعرف ما الذي ينتظره. عندئذ جثت أمام السلطان، وتخلت عن صوتها الرجولي، وقالت باكية:

ـ أنا يا مولاي زنيفرا الشقية، التي ترتدي زي الرجال منذ ست سنوات؛ ومن ذاقت الهوان بسبب هذا الوغد، وأُسلمت للذئاب بسبب هذا الزوج القاسي.

وشقت ثوبها كاشفة عن صدرها. وتوجهت إلى أمبروجيولو بعبارات مهينة، وسألته متى نام معها. فلم يقل هذا شيئاً وهو يشعر بالخزي. وكان السلطان مذهولاً من كل ما يجري. لكنه تمالك نفسه من وقع المفاجأة، وأطرى على سيرة زنيفرا المعروفة باسم سيكورانو وعاداتها الحميدة. وأمر بإعطائها ملابس نسائية جيدة، وعفا عن بيرنابو، بناء على رغبتها، من عقوبة الإعدام التي كان يستحقها. وحين تعرف بيرنابو عليها، ارتمى عند قدميها طالباً منها المغفرة، فمنحته إياها. ثم أنهضته وقبّلته بعذوبة.

وأمر السلطان بأن يقيد أمبروجيولو إلى عمود، وأن يطلى جسده بالعسل، ولا يلمسه أحد إلى أن يقتله الذباب والزنابير. وأمر بأن تنقل ثروته، وهي عشرة آلاف دوبلون فقط، إلى المرأة. وأمر أخيراً بأن تقام وليمة كبرى، وقدم للزوجين الكثير من الهدايا الثمينة. وعندما انتهت الحفلة، منحهما الإذن بالعودة إلى جنوا ووفر لهما سفينة. وقد رجعا ثريين وسعيدين؛ واستُقبلا بتشريف كبير، وخاصة السيدة زنيفرا التي كانوا يظنونها ميتة، وظلت حسنة السمعة طوال ما تبقى من حياتها.

أما امبروجيولو المقيد إلى العمود، فقد انقض عليه الهوام والذباب والزنابير. فلم يمت فقط، وإنما التُهم حتى العظم. وظلت عظامه البيضاء المعروقة، معروضة هناك لتكون شاهداً على خبثه. وهكذا خُدع المخادع.

القصة العاشرة

باغانينو الذي من موناكو، يخطف زوجة السيد ريكاردو دي تشينزيكا، فيعرف هذا بمكان وجودها؛ فيذهب ليصادق باغانينو، ويطلب منه أن يعيدها إليه، فيوافق هذا على ردّها إليه إذا كانت هي نفسها توافق على ذلك، وهو ما لم تقبل به المرأة. وبعد موت السيد ريكاردو، تتزوج من باغانينو.

أثنى المستمعون جميعهم على القصة التي روتها الملكة، وصفقوا لها، وخاصة ديونيو، آخر الرواة في ذلك اليوم، والذي بدأ كما يلي:

ـ سيداتي الجميلات، قصة الملكة دفعتني إلى التحول عن القصة التي كنت سأرويها. لكنني سأروي قصة أخرى مختلفة، من أجل إثبات بلاهة بيرنابو وجميع أولئك الذين يفكرون مثله. أي أنهم يجوبون العالم ويستسلمون لأول امرأة تعجبهم، اليوم هذه وغداً تلك، معتقدين أن زوجاتهم، حين يبقين وحيدات، يجلسن مكتوفات الأيدي، لأنهم لا يعرفون ميولهن. وسأثبت لكن كم هم بلهاء أولئك الرجال الذين يظنون أنهم أقوى من الطبيعة، ويحسبون أنهم قادرون على ما يشاؤون، ويريدون فوق ذلك أن يقنعوا الآخرين بقدرتهم تلك.

كان يعيش في بيزا قاض، يفوق ذكاؤه العقلي قوته البدنية، اسمه ريكاردو دي كينتسيكا. وكان يظن أنه قادر على إرضاء امرأة بإمكانياته الجسدية نفسها التي يكرسها لدراسة القضاء؛ ولكونه واسع الثراء، وتطلباته ليست قليلة، فقد بحث عن امرأة جميلة وشابة يتزوجها. ولو أنه عرف كيف ينصح نفسه، مثلما ينصح الآخرين،

لكان عليه أن يتحاشى الجمال والشباب. ولكنه حصل على مراده، إذ قدم له السيد لوتو غالندي ابنته الشابة والجميلة لتكون زوجةً له، وكان اسمها بارتولوميا، وهي واحدة من أكثر فتيات بيزا جمالاً واعتداداً بنفسها، بالرغم من أن قليلات هناك لا يبدون مثل السحالي أو الديدان. وأمر القاضي بإعداد حفلة زفاف كبرى، واستقبالها بأبهة بالغة. واستطاع في الليلة الأولى أن ينالها مرة واحدة فقط، لإنجاز الزواج، ثم اضطر إلى تركها كي لا يصيبه الإنهاك بمكروه. وفي الصباح التالي، ولأنه كان منهوكاً وجافاً، فقد اضطر إلى تنشيط بدنه بالنبيذ وأصناف الحلويات. وحين قدر حقيقة وضعه وأدرك عجزه، قرر أن يعلّم عروسه تقويماً من تلك المناسبة لتعليم الأطفال القراءة في رافينا. فلم تكن هناك في كل يوم، حسب تعاليمه، مناسبة واحدة يُحتفل بها، وإنما عدة مناسبات. وعلمها أن توقير تلك المناسبات يفرض على الرجل والمرأة الامتناع عن الجماع. ثم أضاف إلى تلك الأيام أياماً أخرى تُكرس لياليها للسهر في ذكرى الرسل وألف قديس آخر، فضلاً عن أيام الجمع والسبوت والآحاد المكرسة لعبادة الرب، وأيام الصوم الكبير، وبعض مراحل القمر، واستثناءات أخرى كثيرة، مفكراً في أنه من الملائم الاستراحة من النساء في الفراش، كالاستراحات التي يمنحها لنفسه بعد دعاويه القضائية. وبهذه الطريقة، على الرغم من استياء الزوجة، اختُزل كل شيء إلى مرة واحدة في الشهر، وعاشا على تلك الحال زمناً طويلاً. وكان يحرسها جيداً كي لا يأتي شخص آخر ويعلّمها جيداً أيام العمل مثلما علّمها هو أيام العطل والأعياد. وحدث في أثناء ذلك أن بدأ الحر يشتد، وشعر السيد ريكاردو بالرغبة في الذهاب للاستجمام بضعة أيام في مزرعة بديعة يملكها في الجبل الأسود. فرافقته زوجته الجميلة، ورأى هو أن يُروح عنها بتنظيم حفلة لصيد السمك. فهيأ زورقين، استقل هو والصيادون أحدهما، بينما صعدت هي والنساء إلى الزورق الآخر.

وقد استمتعوا كثيراً، وتوغلوا عميقاً في البحر، دون ينتبهوا إلى ذلك. وعندئذ فوجئوا بسفينة باغانينو دي موناكو، وهو قرصان مشهور، ما إن رأى تلك الغنيمة حتى اتجه نحوها. واستطاع الاستيلاء على زورق النساء، لأن سرعته أبطأ. فأعجبته المرأة الجميلة، وأمر بنقلها إلى سفينته على مرأى من زوجها الذي كان قد بلغ البر. وبالإمكان تقدير ما أصاب السيد القاضي وهو يرى ذلك، خاصة أنه غيور يخشى عليها من الهواء نفسه. فقد راح يتذمر في بيزا وأماكن أخرى، من نذالة القراصنة، دون أن يعرف من الذي خطف امرأته أو أين ذهب بها. أما باغانينو، فقد راقه جمال المرأة الباهر، وبدا له أنه أنجز عملية

موفقة، ولأنه لم يكن متزوجاً، فقد فكر في الاحتفاظ بها، وراح يسري عنها ويلاطفها لتتوقف عن البكاء. وعندما خيم الليل، ولأنه لم تكن له تقاويم خاصة بالامتناع عن النساء، فقد واصل التسرية عنها، بصورة عملية في هذه المرة، إذ بدا له أن التسرية بالكلام لم تعطِ فائدة في النهار. وقد فعل ذلك بطريقة جعلت المرأة الشابة تنسى القاضي وقوانينه بسرعة. وعند وصولهما إلى موناكو، واصل معاملتها بكل تكريم، سواء في النهار أو الليل. وبعد مرور بعض الوقت، عرف السيد ريكاردو مكان وجود زوجته، فذهب بحثاً عنها، مصمماً على دفع أي فدية تُطلب منه. اجتاز البحر، ووصل إلى موناكو ورأى زوجته. ولأنها رأته أيضاً، فقد سارعت إلى إخبار باغانينو. وفي اليوم التالي، ذهب السيد ريكاردو للقاء باغانينو، ونشأت صداقة بين الاثنين. وكان الأخير مستعداً لما سيطلبه الزوج. وهذا ما حدث في أول فرصة بدت مناسبة للسيد ريكاردو، إذ طلب منه أن يعيد إليه زوجته، عارضاً عليه الفدية التي يريدها. فرد عليه باغانينو باطمئنان:

ـ أنت هنا على الرحب والسعة، يا سيدي، ولكي أجيب باختصار، أقول لك ما يلي: صحيح أن لدي في بيتي امرأة شابة، لا أعرف إذا كانت زوجتك أو زوجة أحد غيرك، لأنني لم أكن أعرفك، ولم أعرفها هي كذلك إلا مذ بدأت تعيش معي منذ بعض الوقت. فإذا كنتَ زوجها، كما تقول، ولأنك رجل نبيل كما يبدو لي، فسوف آخذك إليها، فإذا صح أنها تعرفك، وقالت إنها زوجتك مثلما تزعم، وإنها تريد الذهاب معك، فإنني سألبي طلبك، وأكتفي بأخذ الفدية التي تقدمها إلي؛ أما إذا كان الأمر غير ذلك، فسيكون من الدناءة انتزاع تلك المرأة مني، لأنني شاب، وأستطيع أكثر من أي شخص آخر إرضاء رغبات زوجة، وخاصة هذه المرأة التي أجدها أشهى من كل من عرفتُ من النساء.

عندئذ قال السيد ريكاردو:

ـ إنها زوجتي بكل تأكيد، وإذا ما أخذتني إليها، سيظهر لك ذلك على الفور، لأنها ستهرع لمعانقتي، ولهذا أريد للأمور أن تجري مثلما اقترحت أنت.

ـ هلم بنا إذن ـ قال باغانينو.

انطلقا إلى بيته، وبينما هما جالسان في الصالة، أمر باغانينو باستدعاء الشابة، فجاءت بهندام ومظهر جيدين، واقتربت إلى حيث كان يجلس السيد ريكاردو مع باغانينو، ولكنها لم تقل للأول أكثر مما تقوله لأي غريب يأتي بصحبة باغانينو. كان

القاضي يتوقع أن يُستقبل بفرح عظيم، فاستولت عليه الدهشة، وبدأ يفكر: «ربما غيّر الحزن والغم ملامحي كثيراً، فلم تتعرف عليّ». ثم قال لها:

ـ كم كلفني غالياً، يا زوجتي، اصطحابك لصيد السمك، لأنني لم أشعر قط بحزن عظيم مثل حزني حين فقدتك، وأنت فوق ذلك تكلمينني بفتور شديد أخشى معه أنك لم تعرفيني. ألا ترين أنني زوجك ريكاردو، وقد جئت لأدفع ما يريده هذا السيد، الذي أنا في بيته، لاستعادتك وأخذك معي، وقد رضي بشهامة قبول أي مبلغ أدفعه له.؟..

فنظرت إليه المرأة وقالت مبتسمة:

ـ أتحدثني أنا يا سيدي؟.. تأكد من أنك لست مخطئاً، لأنني لا أتذكر أني رأيتك من قبل قط.

فأجابها السيد ريكاردو:

ـ انتبهي إلى ما تقولين، وانظري إليّ جيداً؛ تذكري وسترين أنني زوجك ريكاردو دي كينتسيكا.

فردت المرأة:

ـ المعذرة يا سيدي. ربما كان النظر إليك لا يليق بعفتي ويسيء إلى شرفي، لكنني أمعنت النظر إليك بما يكفي للتأكد من أني لا أعرفك.

وظن أنها تقول تلك الكلمات منصاعة لخوفها من باغانينو، فأمل أن يلتقي بها على انفراد ليعيد المحاولة. وطلب من باغانينو أن يسمح له بالتحدث إليها في غرفة على انفراد. فقال باغانينو إنه يرحب بذلك، شريطة ألا يعمد إلى تقبيلها على الرغم منها، ثم أمر المرأة بأن تذهب معه إلى إحدى الحجرات لتسمع ما يريد قوله، وأن ترد عليه كما تشاء. وعندما صارا وحدهما، قال لها:

ـ يا قلب جسدي، يا روحي العذبة وأملي، ألم تتعرفي على زوجك ريكاردو الذي يحبك بجنون؟.. ما الذي جرى لكِ؟.. أتغيرت ملامحي إلى هذا الحد؟.. آه أيتها العينان البديعتان، انظراني جيداً!

فغلب المرأة الضحك، وقالت:

ـ أنت تعلم أنني لم أفقد ذاكرتي إلى حد عدم التعرف فيك على ريكاردو دي كينتسيكا، زوجي. ولكنك لم تعرف، عندما كنتُ عندك، كيف تقدر شبابي وجمالي، ولا كيف تلبي رغباتي واحتياجاتي الأخرى، بعيداً عن الطعام والثياب. وإذا كانت دراسة القوانين تروقك أكثر من المرأة، ما كان عليك أن تتزوج. مع أنني أرى، في الواقع، أنك لست قاضياً بقدر ما أنت داعية أعياد وعطل؛ وأؤكد لك أنك إذا ما منحت حقولك وفلاحيك كل تلك العطل والأعياد التي منحتها لحديقتي الصغيرة، لما جنيت حبة قمح واحدة أبداً. أما هذا الرجل الذي منحني الله إياه فيرضيني تماماً. فمن هذا الباب لا تدخل أيام سبت أو أحد أو جمعة، ولا أيام امتناع ديني أو صيام، بل على العكس تماماً، فنَدفُ الصوف يجري ليلاً ونهاراً هنا. ولهذا أريد البقاء والعمل معه ما دمت شابة؛ أما العطل والغفران والصيام، فسأؤجلها حتى الشيخوخة. فانصرف إذن، وواصل رصد أيام أعيادك وصومك من دوني.

سمع السيد ريكاردو كلماتها بحزن شديد، وعندما انتهت قال لها:

ـ آه يا روحي العذبة، ما هذا الكلام الذي تقولين! ألا تفكرين في شرفك؟.. أتفضلين البقاء هنا في الخطيئة، كعشيقة لهذا الرجل، على العيش في بيزا زوجة لي؟.. إنه سيلقي بك جانباً عندما يمل منك؛ أما معي فستكونين محبوبة ومصونة على الدوام. هل ستتخلين عن شرفك من أجل نزوة جامحة؟.. لا تقولي هذا يا حبيبتي، وعودي معي، وسأبذل جهدي لتلبية رغبتك.

وردت الشابة قائلة:

ـ لا أظن أن هناك من يهتم سواي بشرفي، وأقل الجميع اهتماماً هم أهلي الذين زوجوني منك. وعندما لم يهتموا آنذاك بشرفي، فلن أهتم بشرفهم الآن. وإذا كنتُ أعيش الآن في الخطيئة، فسيأتي يوم أعيش فيه في التكفير. وأنا أشعر هنا بأنني زوجة لباغانينو، أما هناك، في بيزا، فكنت أشعر بأنني خليلتك؛ كان الوقت يمضي في التفكير بأنه علينا، أنا وأنت، الصيام حسب مراحل القمر، وحركة الكواكب، أما باغانينو فيحتضنني طول الليل بذراعيه، ويضمني ويعضني. وها أنتذا تعدني بأن تبذل جهدك، فبأي شيء ستبذل الجهد؟.. إنك تتكلم كما لو أنك قد صرت رجلاً فجأة. ابذل جهدك كي تبقى على قيد الحياة، لأنك تبدو لي شديد الشحوب والنحول. وأريد أن أقول

لك شيئاً آخر: إذا ما ملني وهجرني، وهو ما لن يفعله كما أرى، فسوف أذهب إلى أي مكان، على أن لا أعود إليك. وأحب أن أقول لك إنه لا وجود هنا، حيث سأبقى، لأيام عطل أو صيام؛ فسارع في الانصراف من هنا، وليكن الله معك، وإلا فإنني سأصرخ بأنك تحاول إكراهي على ما لا أريده.

أدرك السيد ريكاردو كم كان مجنوناً حين تزوج من امرأة شابة، وغادر الغرفة محزوناً ومتألماً. رجع إلى بيزا، وأمضى آخر أيامه مشوش الذهن من الكآبة. فإذا ما حياه أحدهم، يقول له: «لا توجد لدى ذلك الخبيث إجازات».

ومات بعد مرور وقت قصير. وعندما علم باغانينو بذلك، قرر الزواج منها. ولم يعرفا أيام صوم أو عطل، بل عاشا سعيدين، وواصلا العمل طوال ما بقيت أرجلهما تحملهما.

●●

أثارت القصة الكثير من ضحك المستمعين، وأيدوا جميعهم ما ذهب إليه ديونيو. وعندما انتهى الضحك، قدرت الملكة أن الوقت قد تأخر، وأن الجميع قد رووا قصصهم، وأن نهاية ملكها قد أزفت، فنزعت إكليل الغار عن رأسها، وتوجت به نيفيله قائلة:

ـ أعهد إليك يا صديقتي العزيزة بحكم هذا الشعب.

فغضت نيفيله بصرها حياء، وتورد وجهها من الخجل؛ ثم قالت بعد ذلك، وقد استعادت حماستها:

ـ بما أنني سأكون ملكتكم، فإنني سأعرض عليكم خطتي بإيجاز. يوم غد كما تعلمون هو الجمعة، والذي يليه هو السبت؛ ولا حاجة إلى القول إنه علينا أن نكرس يوم الجمعة إلى ذاك الذي عانى من أجل حيواتنا وتألم على الصليب؛ ويسعدني أن نشغل أنفسنا غداً بالصلوات وبتكريم الرب أكثر من انشغالنا بالقصص. أما في يوم السبت، فمن عادة النساء غسل شعورهن، وتنظيفها من الغبار المتراكم طوال الأسبوع؛ كما أن كثيرات منهن اعتدن الصوم في هذا اليوم، تكريماً للسيدة العذراء، والدة ابن الرب. أما في يوم الأحد، فعلينا أن نستريح. ولهذا، ستتوقف حكاية القصص في هذه الأيام. ومن المناسب أيضاً أن ننتقل إلى مكان آخر، إذا كنا نريد تجنب مجيء أناس جدد، بعد أن أمضينا أربعة أيام هنا. وأقترح أن يكون موضوعنا، عند العودة لرواية القصص، هو ضربات

الحظ، أي بلوغ المرء غاية منشودة، أو استعادته ما كان قد فقده. وأظن أنه يمكن لكل منا أن يروي شيئاً يكون مفيداً للجماعة، أو ممتعاً على الأقل، مع الحفاظ على امتياز ديونيو بأن يكون آخر الرواة. فأطرى الجميع على ما قالته الملكة وتصورته، وأقروه.

وبموافقة الجميع، استدعت الملكة قهرمانها، وأخبرته أين ستوضع الموائد من أجل العشاء، وأوضحت له كل التفاصيل التي تريدها. ثم نهضت أخيراً، وأذنت لهم بأن يفعل كل واحد منهم ما يحلو له. فتوجهت النساء ومعهن الرجال إلى حديقة للعب واللهو فيها، وعندما حان موعد العشاء، تناولوا العشاء بمرح وانشراح؛ وأخيراً، قادت إيميليا إيقاع الجوقة، وغنى الباقون أغنية بامبينيا التالية:

من التي يطيب لها الغناء أكثر مني
وأنا التي حققت كل ما أشتهي؟..
هلم معي إذن أيها الحب، يا أصل سعادتي،
ويا أملي، وكل بهجتي؛
تعال معي ولنغن،
لا غناء زفرات وأحزان مريرة،
- فما كان احتضاراً صار في فمي حلاوة -
وإنما غناء ألق هذه النار
التي أريد العيش في أوارها سعيدة
أصلي لك مثلما أصلي لإله.

أنت أيها الحب من وضعت أمام عيني،
قبل أن أدخل نيرانك المتأججة،
شاباً وسيماً لا يفضله أحد،
بل لا مثيل له
بالنبل والشجاعة والإصرار.
أصبتني بنار هواه، فأحرقتني
وهأنذا أغني لك الآن سعيدة يا سيدي.

أعظم بهجتي يا سيدي،
أنه يحبني قدر ما أحبه،
وكل هذا بفضلك يا سيدي الحب.
فما تمنيته في هذه الدنيا نلته
وأحلم أن أنعم بالسلام في الحياة الأخرى،
لأنني أؤمن بالله، وأثق بأنه
سيجمعنا بعطفه معاً
في ملكوته.

بعد هذه الأغنية، غنوا ورقصوا الكثير من الأغنيات والرقصات، وعزفوا أنواعاً مختلفة من الموسيقى، إلى أن رأت الملكة أن الوقت قد حان للنوم والراحة، فذهب كل واحد منهم إلى حجرته وهو يحمل شعلة تنير طريقه. وكرسوا اليومين التاليين للأمور التي تحدثت عنها الملكة، وهم ينتظرون بلهفة مجيء يوم الأحد.

وهنا ينتهي اليوم الثاني

اليوم الثالث

انتهى اليوم الثاني من الديكاميرون، وبدأ اليوم الثالث، وفيه تدور القصص، تحت حكم نيفيله، حول من استطاع الحصول، بحيلة ما، على شيء راغب فيه، أو استعاد شيئاً مفقوداً.

كان فجر يوم الأحد قد بدأ بالبزوغ، عندما استيقظت الملكة، وأيقظت الجميع، وأمرتهم بالتوجه إلى الحقل. كانت تمضي في المقدمة والآخرون يتبعونها متوجهين نحو الغرب، على درب مغطى بالعشب والأزهار. كانوا يمضون مبتهجين وهم يغنون ويضحكون، إلى أن وصلوا إلى قصر يقوم في أعلى رابية. فدخلوا إلى المنزل، تتقدمهم الملكة، مبدين إعجابهم بالقاعات الفسيحة، والحجرات النظيفة المرتبة، وأشادوا بصاحب ذلك المكان. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى فناء فيه جرار من النبيذ. فجلسوا في ظل شجرة، إلى أن جاء القهرمان، فقدم لهم أصنافاً من الحلوى والنبيذ. ثم تمشوا في الحديقة، متفحصين كل شيء بالتفصيل.

كانت تقطع الحديقة ممرات فسيحة، مغطاة بعرائش اللبلاب ودوالي الكرمة. وكانت أشجار الكرمة مزهرة ينبئ مظهرها بأن محصول نبيذها سيكون وافراً في تلك السنة. وكانت الروائح زكية، حتى ليخيل إليهم أنهم في الشرق. كانت الأشجار كثيرة، وكذلك الزهور؛ فهناك ورود بيضاء ممتلئة، وياسمين. وفي منتصف الحديقة مرج صغير أخضر، تنمو فيه، مبعثرة، أنواع من الزهور، ويحيط به سياج من أشجار الأرز وأشجار البرتقال بثمارها وأزهارها.

مرأى تلك الحديقة بعث في نفوس الجماعة متعة كبيرة. وكانوا جميعهم سعداء راضين، يصنعون أكاليل من أغصان الزهر، ويستمعون إلى تغريد الطيور.

وبعد أن مشوا كثيراً، نصبوا بعض الموائد، وأوصت الملكة بإحضار الطعام، وأمرت الجميع بأن يتذوقوا أصنافه المتنوعة.

وفي ما بعد، عندما انتهوا من تناول الطعام، تركوا المائدة، وجددوا الغناء إلى أن اضطرتهم شدة الحر إلى الانسحاب لنوم القيلولة. لكن بعضهم فضل البقاء للاستمتاع بجمال المناظر، وراح بعض هؤلاء يقرؤون قصص الفروسية، وغيرهم يلعبون الدامة والشطرنج.

وبعد الظهر، نهض من ذهبوا للنوم، واجتمع الجميع، كما هي عادتهم، حول الملكة، مستعدين لحكاية قصصهم حول الموضوع الذي اقترحته الملكة. وكان أول من كلفته الملكة بالكلام هو فيلوستراتو الذي بدأ كما يلي:

القصة الأولى

يتظاهر ماسيتو دي لامبوريشيو بأنه ابكم، ويعمل بستانياً في دير راهبات، فيتنافسن على النوم معه.

ـ أيتها الصديقات، هناك كثير من الرجال والنساء البلهاء، ممن يرون أن المرأة، لمجرد أن يضعن لها على رأسها قلنسوة بيضاء، ويُلبسنها رداء الرهبنة الأسود، لا تعود تشعر بالرغبات الأنثوية، كما لو أن تحولها إلى راهبة يحولها كذلك إلى حجر. وعندما يسمعون شيئاً مخالفاً لهذا الاعتقاد، يتكدرون ويغضبون كأن خطيئة كبيرة قد اقتُرفت. ويظن هؤلاء أيضاً أن أعمال الحقل، والتقشف بأكل الخضار وحدها، والعمل المنهك، تُلغي تماماً شهوات الجسد. ولكنهم مخطئون في ظنهم، وهو ما أريد أن أثبته لكم في هذه القصة.

ـ هناك في بلادنا هذه دير راهبات مشهور بقداسته، ولن أقول أي دير هو، كي لا أتسبب في إفقاده سمعته. ومنذ زمن غير بعيد، كانت تعيش هناك ثماني نساء ورئيسة الدير، جميعهن شابات، وبستاني يعنى بالحديقة. ولم يكن هذا راضياً عن الأجر الذي يُدفع له، فطلب حسابه ورجع إلى قريته، في لامبوريشيو. وكان هناك فلاح شاب، قوي البنية وصلب العود، يدعى ماسيتو أراد أن يستعلم عن عمل ذاك في الدير، فقال الآخر:

ـ كنت أشتغل في حديقة بديعة وكبيرة؛ وأذهب بحثاً عن الحطب في الغابة، وأجلب الماء، وأقوم بأعمال أخرى مشابهة، لكن الأجر قليل جداً، يكاد لا يكفي لشراء حذاء. والراهبات، فوق هذا كله، شابات جميعهن، ويبدو كما لو أن الشيطان قد تلبسهن، فلم يكن شيء مما أفعله يحظى برضاهن. ويمضين النهار في القول: «ضع هذا هنا»، و«وضع هذا هناك»، ثم يقلن بعد ذلك: «هذا ليس في مكانه المناسب». فأتعبني ذلك كله، وتركت العمل. وقد طلب مني القهرمان الذي يحرس بوابة الدير، أن أنظر إذا ما كان هناك من يحسن هذا العمل، وأرسله إليه. فوعدته بذلك، ولكنني لا أفكر في إرسال أحد إليه.

حين سمع ماسيتو هذا، رغب في ذلك العمل ليحقق هناك رغباته. ولكنه اتخذ جانب الحذر، وقال لصديقه:

- لقد أحسنت صنعاً بالمجيء. فما الذي يمكن لرجل أن يفعله بين النساء؟.. العيش مع الشيطان أفضل منهن، لأنهن ست مرات من كل سبع لا يعرفن ما الذي يردنه.

بعد هذا الحديث، أعد ماسيتو خطة للذهاب إلى الدير. كان يتقن حرفة صديقه نوتو، لكنه خشي ألا يقبلوه لأنه شاب ووسيم. ففكر على النحو التالي: «المكان بعيد، ولا أحد يعرفني هناك. سأتظاهر بأنني أبكم، فيقبلونني». ذهب إلى الدير كرجل فقير، والتقى بالقهرمان المشرف، وطلب منه كيفما استطاع، بالإشارات، أن يعطيه صدقة، عارضاً عليه تقطيع الحطب. فقدم له القهرمان طعاماً، ثم أشار إلى جذوع حطب لم يستطع نوتو تقطيعها، ففعل هو ذلك في الحال. ثم أخذه بعد ذلك إلى الغابة ليقطع مزيداً من الحطب؛ وطلب منه بعد ذلك أن يحمل ما قطعه على جحش، وأرسله مع البهيمة إلى الدير. استبقاه القهرمان معه بضعة أيام ليساعده في إنجاز بعض الأعمال. وفي هذه الأثناء، رأته رئيسة الدير، وسألته عنه. فقال القهرمان:

- إنه أصم أبكم فقير يا سيدتي؛ طلب مني صدقة، فكلفته ببعض الأعمال. ويمكن له البقاء هنا إذا كان يتقن أعمال البستنة؛ فهو قوي البنية، وأظن أنه سينفعنا. ولن يكون ثمة خطر في وجوده، لأنه لا يستطيع التحدث إلى راهباتك.

وافقت رئيسة الدير وقالت:

- معك حق؛ حاول أن تقنعه بالبقاء. أعطه حذاء وثوباً قديماً، وأطعمه جيداً.

وعدها الرجل بعمل ذلك. وكان ماسيتو قد سمع كل شيء، وقال لنفسه: «سأفلح بستانكن مثلما لم يفلحه أحد من قبل».

كان القهرمان سعيداً بالطريقة التي يشتغل بها ماسيتو، فسأله بالإيماء إذا ما كان يرغب في البقاء هناك. فرد عليه هذا بهز رأسه بالإيجاب، وكُلف بالعمل في العناية بالبستان إضافة إلى واجبات أخرى.

بعد بضعة أيام من العمل هناك، بدأت الراهبات بمضايقته، ولاعتقادهن بأنه أبكم، كن يقلن له الكثير من الكلمات المشينة. وفي أحد الأيام، بينما هو يستريح، بعد أن عمل

طويلاً، ظنت راهبتان أنه نائم، فقالت إحداهن للأخرى:

ـ إذا أنت لم تخبري أحداً، فسوف أعترف لك بفكرة تخطر لي أحياناً؛ ويمكن لكِ أنت أيضاً الاستفادة منها.

فقالت الأخرى:

ـ أخبريني، ولن أقول شيئاً لأحد.

عندئذ قالت الجريئة:

ـ لستُ أدري إذا ما كنتِ قد فكرتِ في حياة التقشف التي نعيشها، فهنا لا يمكن دخول أي رجل، باستثناء القهرمان، لأنه عجوز جداً؛ وهذا البستاني، لأنه أبكم. وقد سمعتُ نساءً يقلن إن أعظم المتع كلها هي متعة الرجل والمرأة. وقد فكرت في أن أجرب مع الأبكم، لأني لا أستطيع عمل ذلك مع آخرين، ثم إن الأمر سيكون بمنتهى الحرص، لأن الأبكم لن يستطيع أن يقول شيئاً. ما رأيك؟..

ـ ما هذا الذي تقولينه ـ قالت الأخرى ـ. لقد نذرنا عذريتنا للرب!

فردت الأولى:

ـ وكم من النذور تنذر له كل يوم ولا توفى!

ـ وماذا لو حبلنا؟.. ـ استفسرت أكثرهما حذراً.

فردت عليها صديقتها:

ـ تفكرين بالشر قبل وقوعه. عندما يحدث ذلك، سنفكر في الأمر. ولسوف نجد ألف حل، ولن يعلم بذلك أحد.

عندما سمعت الأخرى هذا الكلام، أحست برغبة أكثر من الأولى في تجريب هذا الحيوان المدعو رجلاً. وقالت:

ـ حسن، وكيف سنفعل ذلك؟..

ـ إنها ساعة العصر الآن، ولا بد أن الراهبات جميعهن نائمات. فلنتأكد من عدم وجود أحد في الحديقة. وعندئذ، ماذا سنفعل سوى الإمساك بهذا الرجل، وأخذه إلى الكوخ

الذي بجانب الينبوع؟.. وبينما تكون إحدانا معه، تقوم الأخرى بالحراسة. وبما أنه مغفل، فسوف يفعل ما نريد.

كان ماسيتو يسمع كل شيء، ومستعداً للانصياع. وعندما نظرتا في كل الاتجاهات، وتأكدتا من أنه ليس هناك من يراهما، توجهت الجريئة منهما إلى ماسيتو وأيقظته بالمداهنة، ثم أمسكت بيده بينما هو يضحك ببلاهة. وقادته إلى الكوخ، حيث أنجز ماسيتو ما أرادته منه، دون دفعها إلى التوسل. ولأن الراهبة رفيقة مخلصة، فقد سارعت بعد ذلك إلى استدعاء رفيقتها. وأدى ماسيتو واجبه تجاهها أيضاً. وقبل أن تغادرا، عاودتا تجريب الأخرس مرة أخرى، واتفقت الاثنتان على أنه أحلى ما في الوجود. ومنذ ذلك الحين، صارتا تتحينان الفرص المناسبة، وتذهبان للتقلب مع البستاني.

وفي أحد الأيام، رأتهما إحدى الراهبات من نافذة حجرتها، وأرتهما إلى رفيقتين أخريين لها. فقررن في أول الأمر الذهاب إلى رئيسة الدير وإخبارها بأمرهما. ولكنهن سرعان ما غيرن رأيهن واتفقن مع الأخريين، وصرن شريكات يتقاسمن معهن قدرات ماسيتو؛ وما لبثت الثلاث الأخريات أن وصلن إليه أيضاً في ظروف متنوعة. وأخيراً، بينما كانت رئيسة الدير، وهي جاهلة بما يجري، تتمشى في الحديقة ذات يوم قائظ، التقت بماسيتو مستلقياً تحت شجرة، لكثرة ما ينهك نفسه بالامتطاء في الليل. وكانت الريح قد رفعت ثيابه وكشفت كل شيء؛ فأصاب رئيسة الدير من الإغواء ما أصاب راهباتها. فأيقظت ماسيتو واقتادته إلى غرفتها، واستبقته هناك عدة أيام، وسط غم راهباتها الشديد وتذمرهن، لأن البستاني لم يعد يخرج ليفلح حديقتهن. أما رئيسة الدير من جانبها، فكانت تتذوق الحلاوة التي كانت تستنكرها من قبل أمام الأخريات. وأخيراً أرسلته إلى حجرته، وصارت تكثر من استدعائه، وكذلك تفعل الراهبات؛ فلم يعد ماسيتو قادراً على إرضائهن جميعهن. وفكر في أن استمراره على بكمه سيودي به إلى ضرر كبير، فقال في إحدى الليالي لرئيسة الدير:

ـ لقد سمعت يا سيدتي أن ديكاً واحداً يكفي لعشر دجاجات، ولكن لا يمكن لعشرة رجال أن يشبعوا امرأة واحدة، وقد قُدر لي أن أقوم على خدمة تسع، وهو ما لم أعد قادراً على تحمله؛ ولهذا، إما أن تسمحن بالذهاب، أو تجدن حلاً لهذا الأمر.

وحين سمعته يتكلم، قالت مذهولة:

ـ ما هذا؟.. كنت أظن أنك أبكم.

فقال لها ماسيتو:

ـ سيدتي، لقد كنت أبكم، ولكن ليس بالولادة، وإنما بسبب مرض أصابني وأفقدني النطق، وقد استعدته هذه الليلة، وهو ما أحمد الله عليه.

فصدقته رئيسة الدير، وسألته ما الذي يعنيه بقيامه على خدمة تسع نساء. فأخبرها ماسيتو بكل شيء، وأدركت رئيسة الدير أنه ليس هناك راهبة لا تفوقها حكمة، فلم تسمح لماسيتو بالذهاب، بل قررت أن تتوصل إلى تفاهم مع راهباتها في هذا الأمر كي لا يذهب ماسيتو ويشوه سمعة الدير. وكان القهرمان قد توفي في تلك الأيام، فأوضحت الراهبات للناس بأن صلواتهن وفضائل القديس شفيع الدير قد أعادت النطق إلى البستاني. وجعلن منه بعد ذلك قهرماناً. ثم نظمن عمله فيما بينهن، بحيث صار بإمكان الرجل تحملهن. ومع أنهن أنجبن الكثير من الرهبان الصغار، إلا أن أحداً لم يعرف شيئاً عن ذلك حتى موت رئيسة الدير. عندئذ كان ماسيتو قد صار عجوزاً وغنياً وأباً لأبناء لم ينشغل بأمر إعالتهم والإنفاق عليهم، فعاد إلى دياره التي لم يكن معه، حين خرج منها، سوى فأس يحمله على كتفه، ليؤكد أن المسيح يعامل على هذا النحو كل من يركّب له قروناً.

القصة الثانية

سائس خيل يضاجع زوجة الملك أغيلولف، فيكتشف الملك ذلك. ويبحث عن الرجل في الليل، ويقص شعره، ولكن السائس يقص شعور الجميع وينجو من العقاب.

عندما أنهى فيلوستراتو قصته التي جعلت وجوه النساء تحمر خجلاً حيناً، وأضحكتهن حيناً آخر، توجهت الملكة إلى بامبينيا وأمرتها بأن تواصل القص، فبدأت هذه الكلام بوجه باسم:

ـ هناك من يفتقرون إلى الفطنة حين يريدون إثبات أنهم يعرفون ما لا يناسبهم أن

يعرفوه، وهم بهذا، حين يعاقبون الآخرين على أخطائهم التي لم ينتبه إليها أحد، يظنون أن عارهم يتضاءل، بينما هم في الحقيقة يضخمونه كثيراً. ومع أن هذا صحيح، فإنني سأثبته من خلال مكر ملك أقل شجاعة من ماسيتو.

كان أغيلولف، ملك اللونغوباردين، مثله في ذلك مثل أسلافه، قد أقام مقر مملكته في مدينة بافيا اللومباردية، وتزوج من تيندينلينجا، أرملة أنتاري الذي كان ملكاً على اللونغوباردين قبله. وقد كانت امرأة باهرة الجمال، حصيفة وعفيفة، لكنها غير محظوظة في الغرام. وبينما كانت أحوال اللونغوبارديين تزدهر ويعيشون بسلام، بفضل شجاعة الملك أغيلولف وحكمته، حدث أن أحد سائسي خيول تلك الملكة، وهو رجل وضيع المقام، لكنه متفوق في عمله ومتكبر في سلوكه، قد هام بها حباً؛ غير أنه لم يكن قادراً، بسبب مكانته، على البوح بذلك الحب. فقرر مواراته، والعيش دون أدنى أمل في بلوغ مراده. وكان يعزي نفسه مع ذلك، بالتباهي بأنه وضع عينه على محبوبة سامية. وباستثناء ذلك، كان يسعى جاهداً لإرضائها بما هو في متناول يده؛ وكانت هي تفضل سائسها على كل الخدم الآخرين، فيشعر هو بالسعادة إذا ما لمس أثوابها يوماً.

ولكن ما يحدث في أغلب الأحيان، هو أنه كلما تضاءلت الآمال، ازدادت نار الحب تأججاً. وهذا ما حدث للسائس المسكين، حتى صار يفكر في أن الموت هو الحل، وقرر الإقدام على ذلك بطريقة تعلم منها أنها السبب في هلاكه. ولكنه فكر أولاً في أن يتدبر حيلة للنوم معها قبل أن يموت. ولم يجد مع ذلك طريقة للحلول محل الملك، فراقبه كيف يدخل إليها، كي يقلده. وصار يختبئ كل ليلة وراء ستارة، إلى أن رأى الملك في إحدى الليالي ملتفاً بعباءة كبيرة، يحمل مشعلاً مضاء في إحدى يديه، وعصا في اليد الأخرى. ولدى وصول العاهل إلى مخدع الملكة، طرق الباب بالعصا، فانفتح الباب على الفور، وأُخذ المشعل من يده.

تكرر حدوث هذا عدة مرات، فتكونت لدى السائس فكرة عن الطريقة التي عليه اتباعها؛ فأوصى على صنع عباءة مشابهة، وحصل على مشعل وعصا، واستحم جيداً كي يزيل عن جسمه روائح الروث، وانتظر في الصالة. وعندما تأكد من أن الجميع قد ناموا، قرر التصرف؛ فأشعل المشعل، ثم ذهب وطرق الباب مرتين بالعصا وهو متدثر بالعباءة. ففتحت الباب خادمة تغالب النعاس، فقدم لها المشعل. واقترب من سرير الملكة ونام عليه.

احتضنها بين ذراعيه بشغف، دون أن يقول لها أو تقول له شيئاً، وجامع المرأة عدة مرات. لم يكن راغباً بالمغادرة، لكنه حين فكر بتعقل، نهض من السرير، وارتدى العباءة، وتناول المشعل ورجع إلى فراشه مسرعاً.

بعد قليل من ذلك، نهض الملك وذهب إلى مخدع الملكة. فذهلت المرأة وقالت له:

ـ ما الذي جرى لك الليلة يا مولاي؟.. لقد غادرتني منذ قليل، بعد أن أمتعتك أكثر من المعهود، وها أنتذا تعود الآن من جديد. فتأمل في ما تفعله.

أدرك الملك أنها خُدعت، وأن هناك من انتحل شخصيته؛ ولكنه حين رأى أن الملكة لم تفطن إلى ذلك، أخفى الأمر كي لا يضايق المرأة. وقال لها:

ـ ألا ترين أني قادر على أن أكون معك، ثم أعود إليك ثانية يا امرأة؟..

ـ بلى يا مولاي، ولكن عليك مراعاة صحتك.

عندئذ قال الملك:

ـ سأستجيب لنصيحتك، وسأغادر كي لا أسبب لك مزيداً من الإزعاج.

وتناول عباءته، وغادر المخدع وقد سيطر عليه الغضب وتعكر المزاج، وقرر أن يبحث، بتكتم، عن المذنب، متخيلاً أنه لا بد أن يكون ممن يعيشون في القصر، وأنه لن يكون قد خرج منه.

فأشعل عندئذ قنديلاً، وتوجه إلى قاعة كبيرة تقع فوق حظائر الخيل، حيث ينام الخدم جميعاً. وفكر في أن نبض الفاعل وقلبه لا بد أن يكونا مضطربين، لقصر الوقت المنقضي على الواقعة. وبكل تكتم، راح يلمس صدور الجميع ليكتشفه. وكانوا جميعهم مستغرقين في النوم، باستثناء السائس الذي ارتعب كثيراً حين رأى الملك، وازدادت شدة نبضات قلبه. فقرر أن يتظاهر بالنوم، وينتظر ما سيحدث. وعندما وصل الملك إليه، ولاحظ اضطراب نبضه، قال لنفسه: «هذا هو». ولأنه لم يشأ أن يثير أية فضيحة، فقد تناول مقصاً حمله معه، وقص جانباً من شعر الرجل. وكان الرجال في ذلك العصر يطيلون شعورهم. وقرر العودة إلى حجرته، موقناً من أنه سيتعرف على الفاعل في اليوم التالي. لكن السائس كان بالغ المكر، وأدرك سبب قص شعره، فلم ينتظر طويلاً، بل نهض من فراشه، وقص

شعور جميع من كانوا هناك بالطريقة نفسها، فوق آذانهم، وعاد للنوم في فراشه.

وفي صباح اليوم التالي، أمر الملك بمثول الجميع أمامه. وكانت مفاجأته كبيرة حين رآهم جميعهم مقصوصي الشعر بالطريقة نفسها، فقال لنفسه: «يمكن أن يكون من أبحث عنه وضيع المكانة، ولكنه شديد الذكاء». ورأى أنه لن يستطيع اكتشاف الفاعل دون إثارة فضيحة، فقرر أن يبيّن له، بكلمات قليلة، أنه قد كشف أمره؛ فقال:

ـ على الفاعل ألا يعود إلى فعلته. وانصرفوا برعاية الله.

لم يجرِ تعذيبهم ولا استجوابهم، كي لا يساء إلى شرف المرأة. ومن كانوا لا يعرفون شيئاً مما حدث، عجبوا وتبادلوا الحديث فيما بينهم عما عناه الملك بقوله. ولم يفهم أحد منهم شيئاً من ذلك، باستثناء صاحب الشأن. فلم يقل شيئاً طوال حياة الملك، ولم يعد ثانية إلى تعريض نفسه لذلك الخطر.

القصة الثالثة

امرأة مدلهة بحب سيد، تتلاعب براهب، تحت سر الاعتراف، دون أن يلحظ ذلك، لتحقق نزوتها.

انتهت بامبينيا من رواية قصتها عن مكر السائس وجرأته، فالتفت الملكة إلى فيلومينا وأمرتها بأن تواصل، فبدأت على هذا النحو:

ـ سأحكي لكم عن تلاعبٍ براهب أقدمت عليه امرأة، وهو ما سيبهج العلمانيين أكثر مما يبهج أولئك الذين هم في الغالب أغبياء وقليلو الذوق، لكنهم يظنون أنهم أفضل من الآخرين؛ ومع أنهم أدنى، فإنه ليس لديهم ما يستمتعون به كغيرهم من الرجال، سوى الانكباب على الطعام، إذا استطاعوا، مثلهم مثل الخنازير. وهذا يا صديقاتي العزيزات، يبين لكنَّ أن رجال الدين الذين نوليهم ثقة كبيرة، يمكن أن يكونوا ألعوبة، ليس بيد الرجال وحدهم، وإنما النساء أيضاً.

في مدينتنا المفعمة بالخداع أكثر من الحب والوفاء، كانت تعيش منذ سنوات سيدة جميلة وطيبة العادات، ولكنها في الوقت نفسه شديدة المكر والدهاء. لن أذكر اسمها ولا أسماء غيرها، لأن بعضهم ما زال حياً وسوف يغضب، في حين أنه بالضحك أجدر. وكانت تلك المرأة رفيعة النسب متزوجة من صانع حرفي، لكنه واسع الثراء، يكثر من الاستخفاف بها. ولأنه لا يفهم في شيء سوى الأقمشة، فقد صممت على تجنب معاشرته والبحث عمن يرضيها ويكون جديراً بها. فاستهوت رجلاً رفيع النسب، متوسط السن، أُغرمت به واستبد حبه بقلبها، فصارت لا تجد سبيلاً إلى الراحة في الليل، إذا هي لم تره في النهار. ولم يكن الرجل يعرف شيئاً من ذلك، ولكنها صممت، بحرصها وحذرها، على ألا ترسل إليه خادمة أو رسالة للتواصل معه. وقد لاحظت أن الرجل يرتبط بعلاقة صداقة مع أحد رجال الدين، فقررت أن تجعل من الكاهن وسيطاً بينها وبينه. فذهبت إلى الكنيسة، وطلبت استدعاءه لتفضي إليه بالاعتراف. فجاء الكاهن، ورأى أنها سيدة نبيلة؛ فأصغى إليها بارتياح. وقالت له بعد اعترافها:

- أبتاه، لقد جئت إليك طلباً للنصح والمساعدة. أنت تعرف أسرتي وزوجي الذي يحبني، ويقدم لي كل ما أشاء. ولهذا أحبه أكثر من حبي لنفسي، وأشعر نحوه بالامتنان. وإذا ما فكرتُ في غير إرضائه، فليس هناك خاطئة جديرة بالنار أكثر مني. غير أن هناك شخصاً، أجهل اسمه في الحقيقة، لكنه يبدو لي سيداً وجيهاً، ويتردد عليك بكثرة إذا لم أكن مخطئة. وهو متأنق طويل القامة، يرتدي ملابس سوداء فاخرة. ويبدو أنه يريد إغوائي، حتى إنني لا أستطيع أن أطل من النافذة أو الباب إلا وأجده أمامي. الوضع مؤلم، لأنه قد يشوه سمعتي. وقد فكرت في إخبار إخوتي، لكن الرجال سرعان ما يتحولون، عادة، من الكلام إلى الأفعال. ولتجنب الفضائح، قررت أن أخبرك أنت يا أبتِ. ولأنه صديقك، أتوسل إليك أن تلفت نظره، وأن تنزع هذه الفكرة من رأسه. ربما يمكنه العثور على نساء أخريات يقبلن بهذه الأمور، أما أنا فيسبب لي أشد الحنق والغضب.

وما إن انتهت من كلامها هذا حتى أطرقت رأسها، كأنها على وشك البكاء. صدق الراهب كل ما قالته بحذافيره، وعرف على الفور من هو الشخص الذي تحدثت عنه. وبعد أن امتدح المرأة على عفتها، وعدها مؤكداً أنه سيقوم بعمل ما هو واجب كي لا يعود ذلك الرجل لإزعاجها. ولأنه كان يعرف أنها امرأة غنية، فقد ذكّرها بأعمال الخير وما تتطلبه

من احتياجات. فقالت له السيدة:

- أتوسل إليك؛ إذا ما أنكر هذا الرجل ما أخبرتك به فلا تصدقه، وقل له إنني أنا من أخبرتك بنفسي، وإنني غاضبة مما يفعله.

بعد انتهاء الاعتراف، ونيلها المغفرة، تذكرت المرأة ما قاله الكاهن عن الصدقات، فملأت يده بالنقود، راجية منه أن يصلي لأرواح موتاها. وعادت بعد ذلك إلى بيتها.

ذهب الرجل المعني لزيارة الكاهن، فلفت هذا نظره حول سلوكه مع المرأة. فاستغرب الأمر بالطبع، لأنه لم ينظر إليها قط، ونادراً ما مرّ من أمام بيتها. لكن الكاهن لم يفسح له المجال للكلام، بل أضاف قائلاً:

- دعك من التجاهل وإضاعة الوقت في الإنكار، فليس الجيران هم الذين أخبروني بالأمر، وإنما المرأة نفسها. وهذا غير لائق، والمرأة تتحاشى مثل هذه الأمور. أرجوك أن تبتعد عنها وتتركها بسلام.

كان الرجل أشد مكراً من الراهب، فأدرك ألعوبة المرأة؛ فتظاهر بالخجل أمام الراهب، ووعده بعدم العودة إلى النظر إليها؛ ثم ذهب إلى بيت السيدة التي كانت تطل من نافذتها. وحين رأته أشرقت أَساريرها. وعرف هو عندئذ أن ظنه بمكرها كان صحيحاً.

ومنذ ذلك اليوم، واصل المرور من الطريق نفسها عدة مرات، كما لو أنه ذاهب إلى شأن آخر. ولكي تؤكد المرأة على الأمر، ذهبت إلى الكاهن مرة أخرى، وراحت تبكي أمامه قائلة:

- أبتاه، ذلك الرجل الذي حدثتك عنه قبل أيام، مازال يلح عليّ بطريقة لو استجبت معها إلى ما يريده، لما عاد بإمكاني النظر إلى وجه أحد من الناس.

فقال الراهب:

- أولم يتوقف عن مسعاه؟....

- لا، لم يتوقف يا أبتِ - أجابت المرأة - بل إنه غضب جداً بعد أن أخبرتك، وصار يمر من أمام بيتي أكثر مما كان يفعل من قبل. وبلغت به الوقاحة أن أرسل لي يوم أمس امرأة لتحدثني عنه، وتسلمني كيس نقود وحزاماً منه. فأعدتهما إلى المرأة وطردتها من البيت،

لكنني خشيت أن يحتفظ بهما ويقول إنني أنا من أرسلتهما إليه، وهي أمور يفعلونها كما يشاع. فناديتها ثانية واختطفت الهدايا من يدها وأنا غاضبة. وها هي معي، كي تعيدها بنفسك إليه. وأود أن أنبهك يا أبتِ، إذا هو لم يتوقف عن مسعاه، فسوف أخبر زوجي؛ لأنني أفضل أن يصاب هو بالأذى، على ألا تتلطخ سمعتي.

وأرفقت أقوالها هذه بكثير من الدموع، ثم أخرجت من تحت ثوبها كيس نقود بديع وحزاماً ثميناً، وألقت بهما إلى حضن الراهب. فصدق كل ما قالته المرأة، وأجابها:

ـ لست أستغرب يا بنتي غضبك من هذه الأمور، ولا ألومك على ذلك، وأمتدح اتباعك نصائحي. لقد حذرتُ ذلك الرجل، لكنني أرى أنه لم يطعني. ولسوف أوبخه الآن بطريقة ستضطره دون شك إلى الإقلاع عن مضايقتك. إنني أباركك، فلا تستسلمي للغضب وتخبري ذويك بالأمر. وأنا سأكون شاهداً، أمام الله والبشر، على عفتك.

فتظاهرت المرأة بأنها رضيت بذلك، وتركت الحديث في الموضوع لتقول، وهي تعرف جشع الكاهن:

ـ لقد ظهر لي هذه الليلة موتاي، وكان بعضهم في حزن شديد ويطلبون صدقات، لاسيما أمي. أظن أنها تتألم لرؤيتي في هذا الوضع الذي أدخلني فيه عدو الله، وأريد منك أن تتلو على روحها صلوات القديس جورجيو الأربعين وأدعيتك، عسى الله أن يخرجها من الغم الذي هي فيه.

وبينما هي تقول هذا، وضعت في يده فلوريناً ذهبياً. فأسعد ذلك الراهب الذي باركها، وودعها بكلمات كثيرة طيبة وإطراء على ورعها. ودون أن ينتبه إلى الخدعة، استدعى صديقه ثانية، وأنبه بغضب. فأنكر الرجل مسألة الحزام، فقال له الراهب:

ـ كيف يمكنك الإنكار أيها الخبيث؟.. انظر ما أعطتني إياه المرأة نفسها وهي تبكي.

فتظاهر الرجل الطيب بالخجل الشديد، وقال:

ـ اعترف بذنبي، وبأنني أسأت التصرف، وأقسم لك إنك لن تسمع كلمة في هذا الأمر بعد اليوم.

وبعد حديث طويل، سلّمه الراهب كيس النقود والحزام. أما الرجل الذي تأكد تماماً من حب السيدة له، فتوجه إلى مكان يستطيع منه أن يريها، خفية، أن الهدايا معه. فابتهجت المرأة بذلك، ولأن خطتها تمضي من جيد إلى أفضل. ولم تعد تنتظر سوى غياب زوجها، وهو ما تحقق بعد قليل من ذلك، عندما اضطر الزوج إلى السفر إلى جنوا. وما إن ابتعد، حتى ذهبت إلى الراهب، وقالت له باكية:

ـ لقد نفد صبري ولم أعد أستطيع تحمل المزيد يا أبتاه، وسأخبرك بما فعله صديقك، أو شيطان الجحيم، في صباح هذا اليوم بالذات. لقد علم أن زوجي قد سافر إلى جنوا، فدخل عند الفجر إلى حديقة بيتي، وتسلق إحدى الأشجار، وأراد الدخول إلى مخدعي. لكنني نهضت على الفور، متأهبة للصراخ لاعتقادي أنه لص. لكنه طلب مني الصفح عنه، وتوسل بالرب وبك كي لا أصرخ، معلناً عن نفسه ومُعرّفاً من يكون، فامتنعت عن الصراخ إكراماً لك يا أبتاه. وهرعت وأنا عارية مثلما ولدتني أمي، وأغلقت النافذة في وجهه، فانصرف عني. لا يمكنني مواصلة تحمل هذا الوضع، فقد عانيت ما يكفي منه.

لم يعد الراهب يدري ما يمكنه قوله، سوى سؤالها إن كانت واثقة من أن ذلك الدخيل هو الرجل نفسه، فردت المرأة:

ـ تبارك الرب! وكيف لي ألا أميزه عن أي رجل آخر؟.. أقول إنني رأيته هو، وإذا ما أنكر فلا تصدقه.

فقال الراهب عندئذ:

ـ لم يعد لدي ما أقوله لك يا بنتي سوى أنك فعلت كل ما يتوجب عليك فعله. وأرجوكِ أن تواصلي هذا السلوك ولا تخبري أحداً. ودعيني أتصرف بنفسي، كي أكبح هذا الشيطان. فإذا لم أتمكن، سأمنحك مباركتي لتفعلي ما يمليه عليك عقلك.

ـ إنني موافقة ـ قالت المرأة ـ ولا أريد إغضابك وعدم الانصياع لما تريده هذه المرة؛ لكنه إذا ما ألح على ملاحقتي، فلن أعود لاستشارتك ثانية، وإنما سأخبر زوجي وإخوتي.

وانصرفت دون أن تضيف شيئاً آخر. وما كادت تغادر الكنيسة، حتى جاء ذلك الرجل الطيب، فاستدعاه الراهب، وأخذه جانباً، ووجه إليه أقبح اللعنات. وكان الرجل يعرف سبب غضب الكاهن وتأنيبه، فاجتهد في دفعه إلى الكلام، وسأله:

ـ لماذا تصب غضبك عليّ يا أبتاه؟.. أتراني صلبتُ المسيح؟..

فأجابه الكاهن:

ـ ما الذي تقوله يا عديم الحياء؟.. ولماذا خرجت هذا الصباح لاقتراف المخازي؟.. وأين كنت عند الفجر؟..

فرد عليه الرجل الطيب:

ـ لست أدري أين كنت، فأخباري تصلك سريعاً.

ـ صحيح ـ قال الكاهن ـ وقد أُخبرت بأنك ظننت أن المرأة سترمي بنفسها بين ذراعيك لأن زوجها غائب عن البيت. لقد تحولتَ إلى متسكع ليلي، تدخل الحدائق وتتسلق الأشجار. أوتظن أنك ستتغلب بهذه الأساليب، وبالدخول من النوافذ، على عفة هذه المرأة الطاهرة؟.. إنها تمقتك. أما أنت، فأهملت كل كلامي وتأنيبي لك. ولم تقل هي شيئاً لأحد، استجابة لطلبي، وواصلت الصمت. ولكن، ما الذي ستفعله أنت إذا ما أخبرت المرأة إخوتها؟..

ومن هذا الكلام، عرف الرجل الطيب جيداً ما هو المطلوب منه؛ فهدأ من روع الكاهن بوعود جديدة وانصرف. وفي فجر اليوم التالي، دخل إلى الحديقة، وتسلق الشجرة ووجد النافذة مفتوحة. فدخل منها ووجد نفسه بين ذراعي السيدة التي استقبلته بسعادة وهي تقول:

ـ فلنشكر السيد الكاهن الذي علمك طريقة المجيء على خير ما يرام.

وبعد أن نال كل منهما متعه، تبادلا الحديث وضحكا كثيراً من سذاجة الراهب. ثم رتبا أمورهما، بحيث لا يحتاجان إلى الاستعانة مرة أخرى بالسيد الكاهن في لقاءات ملذاتهما التي أتوسل إلى الرب، برحمته القدسية، أن يوصلني سريعاً إليها، ويوصل كل الأرواح المسيحية الراغبة فيها.

القصة الرابعة

دون فيلكس يعلم الأخ بوشيو أن التكفير يطهره ويكسبه الغبطة؛ فيبدأ هذا بممارسة التكفير، بينما دون فيلكس يستمتع بامرأة من يسمي نفسه راهباً.

عندما أنهت فيلومينا قصتها، أطرى عليها ديونيو بكلمات متوددة، فتوجهت الملكة إلى بانفيلو، وقالت له:

ـ واصل أنت وارو لنا شيئاً ممتعاً.

فوافق بانفيلو على الفور، وبدأ الكلام:

ـ هناك أناس كثيرون، بالرغم من أنهم لا يذهبون إلى الفردوس، إلا أنهم يرسلون غيرهم إليه. وهو ما حدث، منذ زمن غير بعيد، لواحد من جيراننا.

كان يعيش في سان برانكاسيو رجل صالح وغني يدعى بوشيو دي رينيري، أخضع نفسه طوعاً لقوانين الرهبنة الخاصة بطائفة القديس فرانشيسكو، وصار يسمى الأخ بوشيو. وبعد أن أسلم نفسه تماماً للحياة الروحية، لم يعد يدخل إلى بيته من النساء سوى زوجته وخادمة له. ولأنه شخص بدائي المخيلة، شديد التقليدية، فإنه صلاته كانت تقتصر على ترديد «أبانا الذي في السماء»، وحضور المواعظ والقداديس، وترتيل التسابيح مع العلمانيين، وممارسة الصيام وأعمال تقشف أخرى لقهر النفس. أما زوجته، السيدة إسابيتا، وهي شابة في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمرها؛ فكانت جميلة ومكورة مثل تفاحة. وبسبب تقشف زوجها وتدينه، وربما بسبب تقدمه في السن، كانت تعاني من حمية مفروضة عليها أطول مما تستطيع تحمله؛ فإذا ما رغبت في النوم معه أو مداعبته، راح يحدثها عن حياة المسيح أو مواعظ الراهب أناستاسيو أو بكاء المجدلية، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وفي تلك الأثناء، جاء من باريس كاهن يدعى دون فيلكس. وكان شاباً وسيماً، وشديد المكر والذكاء. وقد ربطته صداقة حميمة مع الأخ بوشيو الذي رأى فيه رجلاً ورعاً وقادراً على إيجاد حل لكل ما يراوده من شكوك. وصار يأتي به إلى بيته، ويدعوه أحياناً إلى الغداء أو العشاء. وحذت الزوجة حذو زوجها، وصارت تعامله كما لو كان من الأسرة. تواصلت الزيارات، وبدأ دون فيلكس يمعن النظر في شباب المرأة وتكورها، وأدرك ما هو الشيء الذي تفتقده. ولكي يخفف من أعباء الأخ بوشيو، قرر أن يحل محله. بدأ ينظر إلى المرأة بخبث، مرة بعد أخرى، إلى أن أشعل فيها الرغبة نفسها التي يشعر بها. وفي أول فرصة أتيحت لدون فيلكس، أعرب لها عن نواياه، ووافقت هي في الحال. غير أن الصعوبة تبدت في تحقيق ذلك، لأنها أرادت أن يتم الأمر في بيتها، لعدم ثقتها بأي مكان آخر في العالم. ولم يكن عمل ذلك ممكناً، لأن الأخ بوشيو لا

يغادر البلدة أبداً. ففكر دون فيلكس في طريقة لا يثير معها الشبهات، وقال في أحد الأيام للأخ بوشيو:

ـ أظن أنك تصبو إلى أن تصير قديساً، وأرى أنك اتخذت أطول الدروب إلى ذلك؛ مع أن هناك درباً أقصر بكثير، يعرفه البابا وكبار أعوانه ويمارسونه، ولا يريدون له أن ينتشر، لأنه سرّ كنسي عظيم. ولكن، بما إنك صديقي فسوف أخبرك به، إذا ما وعدتني بألا تطلع أحداً في هذه الدنيا عليه.

افتتن الأخ بوشيو بالأمر، وطلب منه عدة مرات أن يخبره بتلك الطريقة، وهو يقسم بأنه لن يطلع عليها أحداً.

فقال له الراهب:

ـ بما أنك أقسمت، فسوف أخبرك. يرى أحبار الكنيسة أن بلوغ القداسة يتطلب القيام بالتكفير التالي: قبل البدء في التكفير يتوجب عليك الاعتراف، ثم تُتبع ذلك بصيام وامتناع عن النساء مدة أربعين يوماً. لا يمكنك خلال هذه الفترة لمس أي امرأة، بمن في ذلك زوجتك نفسها. ويجب أن تمكث، في الليل، في حجرة من بيتك تستطيع رؤية السماء منها؛ تذهب إليها في موعد صلاة النوم. وتكون لك فيها منضدة كبيرة، تتمكن وأنت واقف من إسناد كليتيك إليها، ومدّ ذراعيك على شكل صليب. ويمكن لك إذا رغبت أن تتمسك بمسامير، وتظل في هذا الوضع، ناظراً إلى السماء، دون حراك، حتى بزوغ الفجر. وإذا كنت تعرف القراءة، فمن المناسب لك في هذا الوقت أن ترتل بعض الأدعية التي سأعطيها لك، أما إذا كنت لا تعرف، فعليك أن تردد «أبانا الذي في السماء» ثلاثمئة مرة، و«يا قديسة مريم» ثلاثمئة مرة تكريماً للثالوث. ودون أن تتوقف عن النظر إلى السماء، عليك أن تفكر في الرب، خالق السماء والأرض. وعندما يبزغ الفجر، يمكنك النهوض، والذهاب إلى فراشك للنوم. وحين تستيقظ في الصباح، تذهب إلى الكنيسة، فتستمع هناك إلى ثلاثة قداديس على الأقل، وتصلي «أبانا الذي في السماء» خمسين مرة، ومثلها صلاة «يا قديسة مريم»، ثم تنصرف بعد ذلك إلى شؤونك الخاصة. وبعد أن تتناول الغداء، تعود بعد الظهر إلى الكنيسة لترتل بعض الصلوات التي سأعطيك إياها. وفي موعد صلاة النوم، تعيد السيرة نفسها. إذا ما فعلت هذا، فإنني آمل أن تشعر، قبل انتهاء التكفير، بأحاسيس عجائب القداسة.

عندئذ قال الأخ بوشيو:

- هذا ليس بالأمر الشاق والطويل، ويمكن القيام به على أحسن وجه. أريد البدء به يوم الأحد إنشاء الله.

افترقا، وذهب الأخ بوشيو إلى بيته، حيث أخبر زوجته بكل شيء، وكان قد حصل على إذن دون فيلكس بذلك؛ فأدركت المرأة ما الذي أراده الراهب من بقاء زوجها ساكناً دون حراك حتى الفجر؛ فقالت لزوجها إنها ستكون سعيدة بكل ما يفعله لتطهير روحه، وإنها ستساعده كي يتقبل الرب كفارته، فتشاركه في الصيام، ولكن ليس في بقية الأمور الأخرى.

وبهذا الاتفاق، بدأ الأخ بوشيو طقوس التكفير في يوم الأحد التالي. أما دون فيلكس، من جانبه، فصار يزور المرأة في الموعد المحدد، فيتناولان العشاء، وينامان معاً حتى الفجر، ثم يغادرها قبيل مجيء الأخ بوشيو إلى الفراش. وكان المكان الذي اختاره بوشيو لكفارته قريباً من الحجرة التي تنام فيها المرأة، لا يفصلها عنه إلا جدار رقيق؛ ولأن الراهب كان يتقلب باندفاع شديد مع المرأة، فقد أحس الأخ بوشيو، في إحدى الليالي، كما لو أن الأرض تهتز؛ فنادى زوجته دون أن يتحرك من مكانه، وسألها عما تفعله. فردت صارخة من حجرتها، ربما وهي تمتطي دابة القديس بينيديتو، أو دابة القديس جيوفاني جوالبيرتو:

- الحقيقة يا زوجي أن بدني كله يرتعش بقوة.

فقال لها:

- ترتعشين؟.. ولماذا ترتعشين؟..

فضحكت المرأة النبيهة والجريئة، ربما لأن لديها سبباً للضحك، وأجابت:

- كيف تسأل عن السبب؟.. لقد سمعت الناس ألف مرة يقولون: «من ينام دون عشاء، يقضي الليل في الارتعاش».

فظن الأخ بوشيو أن الصيام الذي تتظاهر بأنها تمارسه معه، هو السبب في عدم قدرتها على النوم، وأنها ترتعش في السرير لهذا السبب؛ فقال لها بثقة:

ـ لقد نبهتك إلى وجوب عدم الصيام، وبما أنك مصرة على الصوم، فلا تفكري في الجوع، وإنما فكري في النوم والراحة، لأن تقلبك هذا في الفراش، جعل كل شيء في البيت يهتز.

فقالت المرأة:

ـ لا تقلق بشأني، فأنا أعرف ما الذي أفعله؛ قم أنت بما عليك عمله جيداً، وأنا سأفعل ما عليّ على أحسن وجه.

واصل الأخ بوشيو ترتيل «أبانا الذي في السماء»، وعمدت المرأة والسيد الكاهن، منذ تلك الليلة، إلى وضع سرير في مكان آخر من البيت، كي لا يُسمع ما يفعلانه. وواصلا هناك احتفالاتهما الليلية إلى أن انتهت طقوس تكفير الأخ بوشيو. فكانت المرأة تقول للكاهن مازحة في بعض الأحيان:

ـ أنت وصفت التكفير للأخ بوشيو، ونحن كسبنا الجنة.

وقد راقت تلك الحال للمرأة كثيراً، حتى إنها، بعد انتهاء طقوس التكفير، وجدت طريقة لمواصلة اللقاء بالكاهن في أماكن أخرى. وهكذا، بينما كان الأخ بوشيو مستغرقاً في التكفير، ومعتقداً أنه يكسب الفردوس، أوصل إليه الكاهن «الذي علمه من قبل طريقة الوصول إليه» وزوجته التي كانت تعيش معه في عوز كبير، فأشبعها الكاهن بإحسان عظيم.

القصة الخامسة

يعطي «المتأنق»، جواداً للسيد فرانشيسكو فيرجيليزي؛ ويتحدث، بإذن منه، مع زوجته. ولأنها تظل صامتة، فإنه يتولى الرد على كلامه بدلاً منها، ويُتبع الأقوال بالأفعال.

أنهى بانفيلو قصة الأخ بوشيو، وسط ضحك النساء. فتوجهت الملكة إلى إليسا

وأمرتها بالمواصلة. فبدأت هذه القول، بكثير من المكر، ولكن دون خبث:

ـ يظن كثيرون، لأنهم يعرفون الكثير، أن الآخرين لا يعرفون شيئاً. ويخيل إليهم، في أحيان كثيرة، أنهم سيخدعون الآخرين؛ فيجدون أنهم هم الذين خُدعوا. ولهذا أرى جنوناً عظيماً في من يعمدون، غير مضطرين، إلى اختبار قوة ذكاء غيرهم. ولأن رأيي هذا قد لا يكون مقبولاً من الجميع، فإنني أريد أن أروي لكم، لأؤكد صحة كلامي، ما جرى لشاب بيستوييّ.

كان يعيش في مدينة بستويا، شاب يدعى فرانشيسكو، من أسرة فيرجيليزي. وكان غنياً جداً، فضلاً عن أنه حكيم ومتيقظ، غير أنه بخيل إلى أبعد الحدود. وقد قيض له أن يُنصب عمدة لمدينة ميلانو. ومن أجل السفر إلى موقعه الجديد، أعدّ كل ما يحتاج إليه، باستثناء الجواد. فهو لم يجد حصاناً يروقه. وكان يعيش في المدينة نفسها آنذاك، شاب متواضع الأصول، لكنه ثري، يدعى ريكاردو. وكان ريكاردو هذا شديد الاهتمام بهندامه وتجمّله، حتى أُطلق عليه لقب «المتأنق». وكان مغرماً بزوجة فرانشيسكو، يتودد إليها دون طائل، لأنها امرأة فاضلة وباهرة الجمال. كان ريكاردو يملك واحداً من أثمن جياد توسكانيا، ولأن الجميع كانوا يعرفون ما يكنه من إعجاب بزوجة السيد فرانشيسكو، فقد قالوا إنه قد يتمكن من الوصول إليها مقابل الجواد. وعلم السيد فرانشيسكو بذلك، فحركه الجشع، وأرسل إلى ريكاردو يستدعيه كي يشتري منه الجواد، مفكراً في أن الآخر سيقدمه هدية إليه. ولكن «المتأنق» قال له:

ـ لن أبيعك جوادي يا سيدي لو دفعت لي مقابله ذهب العالم كله، ولكنني سأقدمه هدية لك بشرط واحد: أن أتمكن من التحدث إلى زوجتك، بحضورك، ولكن على أن تقف بعيداً، بحيث لا يسمع أحد سواها ما سأقوله لها.

أمل السيد الجشع بأن يهزأ من ريكاردو، فوافق على الاقتراح. ثم تركه في قاعة قصره، ومضى إلى مخدع زوجته؛ فأمرها بأن تصغي إلى «المتأنق»، ولكن دون أن ترد عليه بأية كلمة، للحصول على الجواد بأرخص الطرق وأسهلها. استنكرت الزوجة ذلك وعارضته، ولكنها اضطرت في آخر الأمر إلى الانصياع لرغبة زوجها، وخرجت لتستمع إلى ما سيقوله لها ريكاردو. فجلس هذا معها في أقصى القاعة، وقال لها على مبعدة من الجميع:

ـ أظن أنك تعرفين منذ زمن، يا سيدتي، مدى هيامي بجمالك الذي يفوق جمال كل من رأيت من النساء، فضلاً عن تقديري لفضائلك وعاداتك التي تكفي لدفع أي رجل إلى الوقوع في حبك. لكنني أؤكد لك أن حبي هو أحر حب أحس به رجل، وسيظل متأججاً ما ظلت حياتي البائسة تحافظ على تماسك أعضاء جسدي مجتمعة. وإذا ما كان هناك حب فيما وراء هذا العالم، فسوف أحبك هناك إلى الأبد. ومهما كان ما ترغبين في الحصول عليه في هذا الدنيا، يمكنك أن تعتمدي عليّ في تحقيقه. ولأثبت لك ذلك، أطلب منك أن تخبريني بما تريدينه من خدمات يمكنني القيام بها، لأنني سأحققها أو سآمر بتحقيقها. إنني خادمك، وأتوسل إليك بتذلل أن تليني من قسوتك، وأن تتسع رحمتك لأنعم بالقول كم أنا مغرم بجمالك. فإذا لم تحرك توسلاتي مشاعر الرحمة فيكِ، فإنني سأموت حزناً وغماً. ولسوف يثقل موتي على ضميرك يوماً ما، وستفكرين: «آه، لقد أسأت التصرف مع "متأنقي"». ولن ينفع ذلك في شيء، لأن الوقت سيكون قد فات، وسيزداد عندئذ شعورك بالندم والأسى. ولهذا، وقبل أن أموت، امنحيني السلوى. هذا ما أنتظره من حضرتك، كي تنعشي روحي. فأنت وحدك من تستطيعين جعلي أسعد إنسان أو أشقى إنسان في هذه الحياة.

وصمت بعد ذلك وهو يتأوه وبعض الدموع تسيل من عينيه، منتظراً إجابة على كلامه. أما المرأة التي كانت تبدي عدم تأثرها بمغازلات «المتأنق»، فقد رق قلبها للكلمات المؤثرة التي قالها. وبدأت تشعر بما لم تشعر به من قبل قط، وكان هذا هو الحب. لكنها، انصياعاً لأمر زوجها، ظلت صامتة، وإن وشت زفرة حرى بحقيقة مشاعرها. وحين رأى ريكاردو أنها لا تجيب بشيء، استغرب الأمر، ثم أدرك الخدعة التي عمد إليها الزوج. وقد منحته زفرات المرأة المكتومة شيئاً من الأمل، فخطرت له فكرة غريبة: تصنع صوت المرأة، وأجاب بنفسه، بصوت خافت، على ما كان قد قاله:

ـ لقد انتبهتُ منذ زمن طويل، أيها «المتأنق» العزيز، إلى حبك لي؛ ورأيته حباً عظيماً وكاملاً. وقد أثرت بي كلماتك الآن وأسعدتني كثيراً. لكنني إذا بدوت لك قاسية وجافية، وإذا ما شوشك موقفي، فإنما ذلك حرص مني على حفظ سمعتي وشرفي. ويمكنني الآن أن أثبت لك أنني أحبك، وأن أجزيك على حبك. فانتظر بضعة أيام، ريثما يرحل زوجي لتولي مهام منصبه في ميلان، وعندئذ أعدك، أنت الذي أعطيته جوادك حباً

بي، بأن أسلم نفسي لحبك. وكي لا تتكلم مرة أخرى في هذا الموضوع، أقول لك منذ الآن إنك يوم تجد منشفتين منشورتين على نافذة غرفتي المطلة على الحديقة، فهذا يعني أن زوجي قد سافر. فاحضر في الليل إلى حديقتي، محتاطاً ألا يراك أحد، وستجدني في انتظارك، وسنقضي الليل معاً كما نشتهي.

ثم استعاد ريكاردو صوته، متصنعاً الرد عليها:

- سيدتي الغالية، لا يمكنك تصور السعادة التي منحتني إياها، ولست أدري كيف أستطيع أن أشكرك. لا يمكنني أن أعبر الآن عن شكري كما أرغب، وأنتظر أن تدركي مدى امتناني. وأعدك من جانبي أن أفعل ما أشرتِ به عليّ، وسأنتهز عندئذ الفرصة لأشكرك على مشاعرك نحوي. فإلى اللقاء قريباً يا حبيبتي، وليباركك الرب، ويمنحك ما هو أفضل.

وبعد كل هذا، لم تنطق السيدة بكلمة واحدة. فنهض ريكاردو، واتجه إلى الزوج الذي قال له ضاحكاً:

- ألم أفِ بوعدي على أكمل وجه؟..

فأجابه «المتأنق»:

ـ لا يا سيدي؛ فقد وعدتني بالسماح لي بالتحدث إلى زوجتك، ولكنك تركتني أتحدث إلى تمثال من المرمر.

أسعد كلامه السيد، وازداد حسن ظنه بزوجته، وإن كان رأيه بها جيداً من قبل، وردّ عليه:

- لقد صار الجواد لي.

- أوافقك الرأي يا سيدي. ولكنني لو علمت أنني سأجني هذه النتيجة، لكنت أهديت إليك الحصان دون أن أطلب شيئاً.

فضحك السيد. وبعد أن امتلك الجواد، سارع في السفر إلى ميلان. وبتحرر المرأة منه، فكرت في كلمات ريكاردو وحبه، وراحت تقول لنفسها كلما رأته يمر قرب بيتها: «ما الذي أفعله؟.. ولماذا أضيع شبابي؟.. زوجي في ميلان، ولن يعود قبل ستة أشهر، فمتى يسدد

لي ديوني؟.. عندما أشيخ؟.. وفوق هذا، متى سألتقي بعاشق مثل ريكاردو؟.. إنني وحيدة، وعلي أن أعيش الحياة الطيبة ما دامت متاحة لي. ومثل هذه الفرصة لن تتكرر، ولن يعلم بذلك أحد، وحتى لو انكشف الأمر، فإن الإقدام على عمل شيء والندم بعد ذلك، لهو أفضل من عدم الإقدام والتحسر فيما بعد».

وإذ عقدت العزم على هذا الأمر، علقت في أحد الأيام منشفتين على الشرفة، مثلما قال لها «المتأنق»؛ وحين رآهما غمرته البهجة، ومضى في تلك الليلة، متكتماً ووحيداً، إلى باب الحديقة، فوجده مفتوحاً. ومن هناك توجه إلى باب آخر يفضي إلى الداخل، حيث وجد السيدة النبيلة في انتظاره. وحين رأته قادماً، نهضت لاستقباله، واحتفلت بلقائه احتفالاً عظيماً، فتعانقا وتبادلا مئة ألف قبلة، ولحق بها صاعداً الدرج، وناما معاً دون تأخير، حيث عرفا أقصى حدود الحب. ولكنها لم تكن المرة الأخيرة، فقد تكرر ذلك طوال فترة غياب السيد في ميلان، وحتى بعد عودته، وفي كل مرة وجدا السبيل إلى اللقاء.

القصة السادسة

يقع ريكاردو مينوتولو في حب زوجة فيليبو سيغنولفو. ويكتشف أنها شديدة الغيرة، فيعرض عليها ريكاردو أن يريها زوجها مع امرأة في أحد الحمامات. فتذهب إلى هناك، وتحسب أنها مع زوجها، فتكتشف أنها إنما كانت مع ريكاردو.

أطرت الملكة على حدة ذكاء «المتأنق»، ثم أمرت فياميتا بأن تروي قصة أخرى، فاستجابت لها باسمة، وبدأت الكلام على هذا النحو:

ـ من المناسب الخروج أحياناً من مدينتنا؛ وإن يكن فيها نماذج من كل نوع، ولسوف أحذو حذو إليسا وأروي قصصاً تدور في أماكن أخرى. فأنتقل إلى نابولي، وأروي قصة امرأة عفيفة من أولئك اللواتي يبدين تهربهن من الحب، ولكنها اقتيدت بمكر العاشق إلى معرفة ثمار الحب قبل أن تعرف أزهاره. وستجدن يا صديقاتي في هذه القصة دعوة إلى

الحذر من الأشياء المفاجئة، ومتعة بالحوادث التي تقع.

كان يعيش في مدينة نابولي العريقة شاب نبيل وثري، اسمه ريكاردو مينوتولو. وكان متزوجاً من امرأة شابة وجميلة، لكنه وقع في حب امرأة أخرى، يبدو حسب رأي الجميع أنها تفوق بجمالها نساء نابولي جميعهن. كان اسمها كاتيلا، ومتزوجة من شاب نبيل أيضاً يدعى فيليبو سيغينولفو، تحبه أكثر من حبها لأي شخص آخر. غير أن ريكاردو الذي أُغرم بكاتيلا، سعى بكل السبل إلى كسب حبها، ولأنه لم يتوصل إلى ذلك، أصابه اليأس والغم.

وفي أحد الأيام، نصحته نساء من أقربائه بأن يتخلى عن ذلك الحب، لأن كاتيلا مغرمة بفيليبو وحده ولا أحد سواه، وهي فوق ذلك زوجة شديدة الغيرة، تغار حتى من الطيور التي تحلق فوق زوجها. فأوحى كلامهن هذا إلى ريكاردو بفكرة بارعة؛ فصار منذ ذلك الحين يبدي يأسه من حب كاتيلا. وتظاهر بأنه أحب سيدة نبيلة أخرى، وراح يتصنع التودد إليها مثلما كان يتودد إلى كاتيلا. وسرعان ما شاع الخبر في نابولي، ووصل إلى مسامع كاتيلا، فلم تعد تتحاشاه مثلما كانت تفعل من قبل، وصارت في آخر الأمر تسلّم عليه، كواحد من جيرانها، كلما التقت به. وفي أثناء ذلك كان الصيف قد حلّ بحره، وصار أناس كثيرون يذهبون إلى الحمامات، مثلما هي عادة أهالي نابولي. وعلم ريكاردو أن كاتيلا قد ذهبت إلى هناك، فتوجه هو أيضاً إلى حيث كانت هي ورفيقاتها، فاستقبلنه ودعونه لمرافقتهن، لكنه تظاهر بعدم الرغبة في ذلك. وبدأت النساء، ومعهن كاتيلا، بالمزاح معه عن حبه الجديد. وعندما وجد اللحظة المناسبة، تكلم إلى كاتيلا، مرفقاً ذلك بابتسامة، عن وقوع زوجها فيليبو أيضاً بالغرام. وتوصل إلى استثارة غيرتها، وملأتها الرغبة في التقصي، فطلبت من ريكاردو أن يخبرها أين هي المرأة التي أحبها زوجها، وحلفته بحب المرأة التي يحبها. فردّ عليها:

ـ لقد طلبتِ مني ذلك، وحلفتني بمن لا يمكنني أن أرفض من أجلها أي طلب تطلبين، ولهذا سأخبرك، على أن تعديني بألا تتحدثي في الأمر حتى مع فيليبو نفسه، اللهم إلا عندما تجدين أنك قادرة على إثبات ذلك بنفسك.

فوافقت المرأة على ذلك، وأقسمت إنها لن تقول شيئاً. ابتعدا قليلاً كي لا تسمعهن الأخريات، وقال لها ريكاردو:

ـ سيدتي، لو أنني ما زلت أحبك مثلما كنتُ من قبل، لما أخبرتك بشيء يمكن له أن يسبب لك الحزن، ولكنني أستطيع الآن أن أكلمك بكل وضوح. لست أدري إذا ما كان فيليبو قد علم شيئاً عن حبي السابق لك، ولكنه لم يقل لي أي شيء عن الأمر قط. غير أنه يريد الآن أن ينتقم كما يبدو، أي أنه يسعى لمغازلة زوجتي. وهذا ما علمتُ به منها بالذات؛ وقد جعلتُ زوجتي ترد عليه حسب تعليماتي لها. وما حدث أنني وجدت في بيتنا صباح اليوم صديقة لزوجتي، وكانتا تتبادلان الحديث همساً، وعندما انصرفت المرأة، سألتُ زوجتي عن سبب زيارتها، فأجابتني: «إنها مبعوثة من فيليبو، وقد أرسل لي الآن أنه يريد قراري النهائي بأسرع ما يمكن، فإذا كنت أرغب فيه، فيمكنني الذهاب للقاء به سراً في أحد الحمامات. ولو لم تجبرني أنت على السير في هذا الطريق ومعاملته على هذا النحو، لسبب لا أدريه، لكنت حطمت وجهه».

ثم أضاف ريكاردو قائلاً:

ـ وقد بدا لي أن الأمر قد تطور كثيراً، ووجدت أن أخبرك لكي تعرفي الجزاء الذي تلقينه مقابل وفائك وإخلاصك اللذين كادا يوديان بي إلى الموت. وكي أثبت لك الأمر، ولا تحسبي أنه مجرد تَقَوّل أو خرافه، فقد جعلت زوجتي ترسل إليه أنها ستذهب يوم غد إلى الحمامات، حيث يمكنهما اللقاء في الساعة الثالثة، عندما يكون الناس نائمين. أنا لن أسمح لها بالذهاب طبعاً، ولكنني أقترح عليك أن تذهبي أنت بدلاً منها إلى المكان نفسه. وأظن أننا ننتقم منه بذلك، للإهانة التي أراد إلحاقها بي وبكِ.

حين سمعت كاتيلا هذا الكلام، ازدادت غيرتها، وصدقت كل ما قاله لها، وراحت تربط بين أمور سابقة وهذا الأمر. وأجابت غاضبة بأنها ستفعل ذلك كي تُشعر زوجها بالعار.

ابتهج ريكاردو لما حققه، ثم أضاف بعض التفاصيل، كي يزيد من قناعتها. ووعدته هي بألا تكلم أحداً بالأمر، وهذا ما كان يريده منها بالضبط. وفي اليوم التالي، أوضح ريكاردو للمرأة المشرفة على الحمامات عن نيته، كي تساعده. وكانت هذه المرأة تقدره كثيراً، فقالت له إنه يمكنه الاعتماد على مساعدتها في كل شيء. واتفقت معه على ما يتوجب عليها قوله وعمله. وكانت هناك في المكان حجرة مظلمة، لا وجود فيها لأي نافذة يدخل منها الضوء. وبتعليمات من ريكاردو، وضعت المرأة سريراً في الغرفة،

واستلقى عليه ريكاردو بانتظار مجيء كاتيلا.

كانت السيدة قد رجعت غاضبة إلى بيتها، بعد أن أطلعها ريكاردو على تلك المعلومات، وحين رأت أن زوجها لا يستسلم لها كعادته، تفاقمت غيرتها، وقالت لنفسها: «إنه يفكر في المرأة التي ستقدم له المتعة في الغد؛ ولكنه لن يحصل على ذلك». وعند الساعة الثالثة، توجهت كاتيلا إلى المكان المتفق عليه، وسألت المرأة المسؤولة إذا ما كان فيليبو هناك. فردت عليها المرأة:

ـ أأنت المرأة التي ستأتي للتكلم إليه؟..

فأجابتها كاتيلا:

ـ أجل، أنا هي.

فقالت لها الأخرى:

ـ تفضلي.

اقتيدت كاتيلا إلى الحجرة المظلمة، ودخلت إليها وهي تغطي وجهها. فنهض ريكاردو وعانقها وهو يقول، متصنعاً في صوته:

ـ أهلاً بحبيبة روحي.

وتظاهرت كاتيلا بأنها زوجة ريكاردو، فعانقته، وقبّلته وداعبته كثيراً، معتقدة أنه زوجها فيليبو. ولم تنطق بكلمة واحدة، خشية أن يتعرف عليها. وبسبب ظلمة الغرفة، لم يكن بالإمكانِ رؤية شيء. واقتادها ريكاردو إلى السرير وناما معاً دون أن يقول أي منهما شيئاً، وظلا يتبادلان الملذات على تلك الحال لوقت طويل، إلى أن تأججت كاتيلا بالغضب، وبدأت تقول:

ـ يا لسوء حظ النساء! ويا لبؤس مآل حبهن لأزواجهن! ويا لتعاستي أنا التي أحببتك طوال ثماني سنوات أكثر من حبي لنفسي، بينما أنت تهيم حباً بامرأة غريبة. مع من تظن نفسك أيها الرجل الخاطئ والخبيث؟.. إنك مع من تخدعها متظاهراً بحبها، بينما أنت تحب امرأة أخرى. إنني كاتيلا، ولستُ زوجة ريكاردو أيها الخائن عديم الوفاء. إنك تتعرف على صوتي الآن، وتعلم أنه لو قُدّر لنا أن نعيش ألف سنة، فلن أتمكن من أن أُلحق بك من

الخزي والعار ما تستحقه. يا لي من تعسة بائسة! لمن منحت حبي طوال السنوات الثماني الماضية؟.. لك أيها الكلب الذي يبدي القوة والحنان هنا، بينما هو في البيت ضعيف وعاجز! لكن نعمة الرب شاءت أن تفلح حقلك وليس حقلاً آخر. ولستُ أستغرب أنك لم تشأ الاقتراب مني في الليلة الماضية، لأنك كنت تأمل بالارتواء في فراش آخر، وأردت المجيء فارساً قوياً إلى المعركة؛ لكن المياه سارت، بفضل الله، في اتجاه مخالف لما أردت. لماذا لا ترد أيها الخاطئ؟.. والله لا أدري لماذا لا أقلع عينيك بأصابعي! كل شخص يعرف ما يعرفه الآخرون، وقد علمتُ بنواياك وخابت ظنونك.

كان ريكاردو يستمتع بسماع هذه الكلمات، فلا يرد عليها إلا بالمعانقات والقبلات والمداعبات. فواصلت هي القول:

إذا كنت تظن الآن أنك ترضيني بمداعباتك الزائفة، فإنك مخطئ. فأنا لن أجد السلوى إلا بعد أن أفضحك أمام الأهل والأصدقاء والجيران. ألستُ جميلة، أيها الخبيث، مثل زوجة ريكاردو؟.. لماذا لا تجيب أيها الكلب؟.. ألست نبيلة مثلها؟.. وما الذي تملكه هي ولا أملكه؟.. ابتعد عني، ولا تلمسني، فقد فعلتَ ما يكفي. كنت تظن أنني زوجته، فإذا ما تفاهمت أنا معه الآن، فلن يكون لك أي حق في لومي.

وتواصل كلامها طويلاً على هذا النحو من المرارة، إلى أن فكر ريكاردو، أخيراً، في أنه إذا ما تركها تذهب وهي على تلك الحال، فسوف يؤدي ذلك إلى أخطار كثيرة. وقرر أن يخرجها من غضبها، فاحتضنها بين ذراعيه، وقال لها:

ـ لا تغضبي يا حبيبة روحي العذبة، فما لم أستطع الحصول عليه بالحب، علمني الحب أن أناله منك بالخداع. فأنا ريكاردو، ولست زوجك.

حين سمعت كاتيلا ذلك وتعرفت على صوته، أرادت مغادرة الفراش، ولكنها لم تستطع؛ فحاولت الصراخ، ولكن دون طائل، لأنه أطبق فمها وقال لها:

ـ ما حدث بيننا، يا سيدتي، لا سبيل إلى إبطاله؛ وإذا ما واصلتِ الصراخ، أو علم أحد بما جرى، فسوف يقع أمران، أولهما فقدانك شرفك وسمعتك، لأنني سأنكر وقوع الخديعة، وسأقول إنني جئت بك بمال وعدتك به وهدايا، وإنك غضبت لأني لم أقدم ما وعدتك به، فرحت تتكلمين وتصرخين؛ وأنت تعرفين أن لدى الناس استعداداً لتصديق

الشر أكثر مما يصدقون الخير، ولسوف يصدقونني قبل أن يصدقوا أقوالك. وبعد هذا، سيقع عداء شديد بيني وبين زوجك، وقد يصل الأمر إلى أن يقتل أحدنا الآخر، ولن تشعري بعدئذ بالسعادة أبداً. ولهذا، أرى أنه من الأفضل أن تتكتمي على الأمر؛ ولستِ أول امرأة تُخدع، ولن تكوني الأخيرة. وأنا لم أخدعك لأستولي على شيء، وإنما لفرط حبي لك.

كانت كاتيلا تبكي بيأس، ولكنها أدركت صحة ما يقوله ريكاردو، فقالت:

ـ لا أدري كيف سيتيح لي الرب تحمل هذه الإهانة والخديعة. ولستُ أريد أن أصرخ هنا، في هذا المكان الذي اقتادتني إليه غيرتي الغبية. ولكنني لن أعيش مطمئنة إلا بعد الانتقام منك. فدعني، ولا تلمسني، فقد حصلت على ما رغبت فيه، وحان الوقت لأن تتركني. فدعني، أرجوك.

لم يشأ ريكاردو ترك المرأة وهي في تلك الحالة من الغضب، فعاد يتودد إليها بأعذب الكلام والتوسلات، إلى أن تمكن من إعادة الوئام بينهما، واستمتعا معاً لمزيد من الوقت. وأدركت السيدة عندئذ كم هي لذيذة قبلات العشيق، وتحول حقدها وغضبها إلى حب رقيق. وقد تبادلا الحب بعد ذلك مرات كثيرة، متصرفين بحذر وتكتم. وأرجو من الله أن يمتعنا نحن أيضاً بغرامياتنا.

القصة السابعة

تخدع امرأةٌ تيدالدو، فيذهب إلى فلورنسا، ولكنه يرجع فيما بعد وهو يرتدي مسوح حاج. فيعرّف المرأة على خطئها، ويُخلّص من الموت زوجها الذي اتهم بأنه قتله، ويصالحه مع إخوته. ومن أجل هذا كله، يستمتع بالسيدة.

حين انتهت فياميتا من قصتها، سارعت الملكة، كي لا تضيع الوقت، إلى الطلب من إيميليا أن تواصل القص، فبدأت هذه كما يلي:

ـ أُفضلُ العودة إلى شؤون مدينتنا، لأن القصتين السابقتين ابتعدتا عنها، وأبين لكنَّ

ما فعله أحد مواطنينا ليسترد سيدة أضاعها.

كان يعيش في فلورنسا شاب يدعى تيدالدو ديلي إيليسي، وقد أُغرم بامرأة تدعى إيرميليندا، متزوجة من ألدوبراندينو باليرميني. وكانت المرأة تتمتع بخصال كثيرة، مما جعل حب تيدالدو لها يزداد يوماً إثر يوم، إلى أن تمكن من نيل مراده، ولكن الحظ، عدو السعداء، كان يقف له بالمرصاد، فرفضت المرأة مواصلة إمتاعه، ولم تعد تريد رؤيته بأي حال. فعانى ألماً وغماً عظيمين، دون أن يدري أحد سبب ما يعانيه، وجاهد ليسترد الحب الذي رأى أنه خسره دون اقتراف أي ذنب. ولأن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح، قرر هجر عالمه والابتعاد عن الجميع. فجمع كل ما لديه من أموال، ودون أن يخبر أحداً بأي شيء، باستثناء صديق يعرف عنه كل شيء، رحل إلى أنكونا، حيث صار يُعرف باسم فيليبو دي سان لوديشيو. وعمل في خدمة تاجر غني، وسافر معه إلى قبرص. وقد أعجب التاجر بسلوك فيليبو المهذب، فلم يكتف بدفع أجر جيد له، بل جعله شريكه؛ وربطت بينهما صداقة حميمة. وخلال سنوات قليلة تحول تيدالدو إلى تاجر غني. وكان لا يني يتذكر المرأة القاسية، ويرغب في العودة لرؤيتها، لكنه استطاع أن يكبح رغباته تلك طوال سبع سنوات. وفي أحد الأيام، بينما هو في قبرص، سمع أغنية كان هو نفسه قد نظمها، ويتحدث فيها عن حبه للمرأة. فدفعه سماع الأغنية إلى التفكير في الأمر، والعودة إلى فلورنسا. فرتب كل أموره، ورجع مع خادم وحيد إلى أنكونا، وكانت تجارته وأملاكه قد سبقته إليها، فأرسلها من هناك إلى صديقه وشريكه في فلورنسا. ثم انتقل هو نفسه، سراً، إلى فلورنسا، متنكراً كحاج آت من الديار المقدسة؛ ونزل في نُزل بائس يملكه أخوان، على مقربة من بيت السيدة. وكان أول ما فعله أن ذهب إلى بيتها ليراها، ولكنه وجد الأبواب والنوافذ وكل شيء فيه مغلقاً، فخشي أن تكون قد ماتت أو رحلت من هناك. وذهب إلى بيت إخوته فوجدهم يرتدون ثياب الحداد السوداء. فسأل عندئذ إسكافياً عن سبب ذلك الحداد، فردّ عليه:

ـ سبب حدادهم هو أن أخاً لهم يدعى تيدالدو، غادر قبل سنوات طويلة، قد مات قبل خمسة عشر يوماً. وقد ثبت للمحكمة أن ألدوبراندينو باليرميني هو الذي قتله، لأن الشاب رجع سراً إلى هنا، وأقام علاقة مع زوجته.

فوجئ تيدالدو كثيراً، وعجب من أن يكون هناك من يشبهه إلى حد الظن أنه هو

نفسه. وعلم أن المرأة مازالت تعيش سليمة ومعافاة. وكان الوقت قد صار ليلاً، فرجع إلى المنزل، وتناول العشاء مع خادمه، ثم ذهب بعد العشاء إلى الفراش. وبسبب الأفكار الكثيرة التي داهمته من جهة، وخشونة الفراش من جهة أخرى، وربما أيضاً بسبب العشاء الشحيح، لم يجد تيدالدو إلى النوم سبيلاً. وعند منتصف الليل، بدا له أنه سمع أشخاصاً ينزلون من السطح، فنهض ونظر من خلال الباب، فرأى ضوءاً يدنو منه. فاقترب بصمت وأمعن النظر، فكانت هناك فتاة جميلة تحمل مصباحاً، وثلاثة رجال يتقدمون نحوها، هم الذين نزلوا من السطح. وبعد أن تبادلوا التحية، قال أحدهم للفتاة:

ـ فليتبارك الرب! بإمكاننا الاطمئنان لأننا نعرف أن إخوة تيدالدو قد ألصقوا تهمة قتله بألدوبراندينو باليرميني، وقد اعترف هو بالجريمة، وصدر عليه الحكم. ولكن علينا أن نحافظ على صمتنا، لأنه إذا ما عُرف أننا الفاعلون، فسوف نتعرض للخطر الذي يتعرض له الآن ألدوبراندينو.

وبهذا القول، أبدت المرأة ابتهاجها، ثم افترقوا وذهبوا للنوم. أما تيدالدو فظل يفكر في الأخطاء التي يمكن أن يتسع لها العقل البشري؛ ففكر أولاً بإخوته الذين بكوا غريباً ودفنوه على أنه أخوهم، ثم اتهموا بريئاً، وحُكم عليه بالموت بناء على شهادات زور. ورأى صرامة القوانين العمياء وجور القائمين عليها، ممن يسمون، في أحيان كثيرة، أحبار العدالة أو الرب بينما هم جلادو الظلم والشيطان. ثم ركز تفكيره بعد ذلك على إنقاذ ألدوبراندينو، وقدّر بينه وبين نفسه ما يتوجب عليه عمله. وفي الصباح، ترك خادمه، عندما بدا له الوقت مناسباً، وذهب وحيداً إلى بيت السيدة. وشاءت المصادفة أن يكون الباب مفتوحاً، فدخل ووجد السيدة جالسة على الأرض تبكي بمرارة؛ فكاد يبكي شفقة عليها، وقال لها:

ـ لا تقلقي يا سيدتي، فهناك حل لكل شيء، وستجدين الطمأنينة عما قريب.

فنظرت إليه وقالت باكية:

ـ يبدو لي أنك رجل طيب، أيها الحاج والغريب. ولكن، ما الذي تعرفه أنت عن أحزاني؟..

فردّ عليها الحاج عندئذ:

ـ أنا من القسطنطينية يا سيدتي، وقد أرسلني الله لأحول دموعك إلى سعادة، ولأخلص من الموت زوجك.

ـ ماذا تقول؟.. ـ قالت السيدة ـ إذا كنت غريباً من القسطنطينية، ووصلت إلى هنا للتو، فكيف لك أن تعرف من هو زوجي وما الذي جرى لي؟..

فبدأ الحاج يروي لها، من البداية، قصة زوجها وقصتها، وأخبرها بأنه يعرف من هي، ومنذ متى تزوجت، وأشياء أخرى كثيرة يعرفها من حياتها؛ فذهلت المرأة، واعتبرته نبياً، وجثت عند قدميه متوسلة إليه أن يسرع في إنجاز مهمة إنقاذ ألدوبراندينو، لأن الوقت المتبقي قليل جداً. فقال لها الحاج مبدياً وجه قديس:

ـ انهضي يا سيدتي، وتوقفي عن البكاء. وما سأقوله لك لا تخبري به أحداً. لقد كشف لي الرب أن سبب محنتك هي خطيئة كبيرة ارتكبتِها منذ زمن، ويريد الرب منك أن تصلحي تلك الخطيئة.

وردت المرأة قائلة:

ـ لقد ارتكبتُ كثيراً من الخطايا، ولست أدري أيها التي يريد الرب مني أن أصلحها، فإذا كنت تعرفها، أخبرني بها وسأفعل كل ما أستطيع لإصلاحها.

فقال لها الحاج:

ـ إنني أعرف الخطيئة المعنية جيداً يا سيدتي، ولست أسألك كي أعرفها، وإنما كي تشعري أنت نفسك، عند ذكرها، بمزيد من تأنيب الضمير. أخبريني: ألا تتذكرين عشيقاً لكِ؟..

أطلقت المرأة زفرة عظيمة حين سمعت هذا الكلام، وعجبت أشد العجب، وقالت له:

ـ أرى أن الرب يطلعك على كل أسرار البشر. والحقيقة أنني أحببت في شبابي الفتى عاثر الحظ الذي حُمّل زوجي جريمة مقتله، وقد بكيت موته وحزنت له بعمق، لأنني كنت قاسية معه، ولم يستطع رحيله، وغيابه الطويل، وموته إبعاده عن قلبي.

فقال لها الحاج:

ـ أنت لم تحبي القتيل عاثر الحظ قط، وإنما أحببت تيدالدو. ولكن، أخبريني، لماذا

صددته؟.. هل أغضبكِ في شيء؟..

وأجابت المرأة:

ـ الحقيقة أنه لم يغضبني قط، لكن سبب صدي له هي كلمات كاهن اعتراف ملعون، اعترفتُ أمامه يوماً، فاستنكر غرامياتنا تلك، وقال لي إن استمراري على ذلك النحو سيودي بي إلى الجحيم والنار الأبدية. فخفت أشد الخوف وقطعت علاقتي بحبيبي، ورفضت تلقي رسائله أو رسله. ولكنني كنت سأرجع عن قراري لو أنه كان أشد مثابرة وتصميماً، بدل أن يرحل مثلما فعل.

فقال الحاج عندئذ:

ـ هذه هي، يا سيدتي، الخطيئة الوحيدة المنسوبة إليك. فأنا أعرف أن تيدالدو لم يجبرك على شيء في غرامياتك معه، وأن كل ما حدث كان بمشيئتك. فلماذا صددته؟.. هذا أمر يجب التفكير فيه ملياً، وعدم التصرف بتسرع وتهور. فقد كنتِ له مثلما كان هو لكِ. ولأنه كان لكِ، فقد كان بإمكانك أن تفعلي به ما تشائين، لأنك سيدته. أما أن تنتزعي نفسك منه، وأنت له، فهي سرقة وأمر غير مقبول ما لم يكن بإرادته. وأنا أعرف، ككاهن، كل عادات الكهنة، ولهذا أريد منك أن تسمعيني جيداً. سأخبرك بأمور كنتِ تجهلينها من قبل. ففي ما مضى، كان هناك كهنة شديدو الورع وقديسون، أما من يسمون كهنة اليوم، فيريدون أن يُنظر إليهم على أنهم كذلك، ولكن ليس لهم من الكهنة إلا المسوح، وحتى هذه المسوح لم تعد مثلما كانت في السابق. فثياب الكهنة الآن فضفاضة زاهية، وليست بائسة ومن أقمشة خشنة، وصناعتها متقنة ومبهرجة. ومثل الصياد الذي يريد أن يصطاد بشبكته من الأنهار أسماكاً كثيرة دفعة واحدة، يريدون هم أن يلفوا بأثوابهم الكثير من المتدينات، والأرامل، والنساء الغبيات، بل ومن الرجال أيضاً. كان الكهنة من قبل يرغبون في خلاص البشر، أما كهنة هذه الأيام فيرغبون في النساء والثراء، وكي يحصلوا عليهما يستخدمون ثرثرتهم لإخافة العقول الغبية. ويعلمون الناس أن تقديم الصدقات يُطهرهم من الخطايا، حتى يتنعم أولئك الذين دخلوا سلك الكهنوت بدافع الجشع «وليس الورع»، دون أن يمارسوا أي عمل؛ فهذا يرسل إليهم الخبز، وذاك يرسل إليهم النبيذ، وآخر يقدم إليهم المال من أجل راحة أرواح موتاه. يعظون ضد المجون، كي يستبقوا لأنفسهم النساء اللواتي يبتعد الآخرون عنهن. ويستنكرون الجشع

والربا كي تقدم إليهم الأموال المكتسبة بأساليب غير مشروعة. فإذا ما حاول أن يلومهم أحد على أفعالهم الكثيرة المستنكرة، يقولون: «اقتدوا بأقوالنا وليس بأفعالنا». الكهنة يريدون منكم أن تتخلوا عن المال، ويرغبون في معرفة دخيلتكم وأسراركم، ويريدون منكم أن تُحافظوا على العفة، وأن تغفروا الإساءات. وكل هذا حسن وشريف، لكن هدفهم هو التوصل بسهولة أكبر إلى ما يبتغون: فهم يريدون مالاً ليظلوا كسالى متبطلين؛ ويطالبون الآخرين بالعفة ليستحوذوا على النساء، ويطلبون غفران الإساءات كي يسيئوا باطمئنان. وباختصار، إذا كانوا يريدون القداسة حقاً، فلماذا لا يتبعون كلمات الإنجيل المقدسة القائلة: «وبدأ يسوع يعمل ويُعلّم»؟.. فيعملوا أولاً ثم يعلّموا الآخرين بعد ذلك. لقد رأيتُ في حياتي كثيراً من الكهنة المتوددين إلى النساء، ومحبي النساء، ممن لا يقتصرون على التردد على النساء العلمانيات، وإنما كذلك على راهبات الأديرة. فهل نتبع أمثال هؤلاء؟.. ولو فرضنا أن الزنا خطيئة حقاً، كما قال لك ذلك الكاهن، أليس أسوأ منها سرقة رجل؟.. صحيح أن العلاقة الحميمة بين رجل وامرأة هي خطيئة طبيعية، ولكن سرقته، أو قتله أو نفيه هي خبائث كبرى. وقد بينتُ لكِ أنك قد سرقتِ تيدالدو، وكنتِ السبب في نفيه، وهذا خطيئة أكبر من غيرها. أكان يستحق منك مثل هذه المعاملة؟.. أنتِ نفسك تقرين أن لا، أضيفي إلى ذلك أنه يحبك كثيراً. لقد كان نبيلاً وشريفاً. ولستُ أدري كيف انصعتِ إلى ذلك الكاهن القاسي والحاسد. على النساء أن يفكرن في ما هن عليه، وفي النبل والمكانة السامية التي منحها الله للإنسان، وعندما يشعرن بأنهن محبوبات من الرجل، عليهن أن يقدرنه وأن يبذلن كل طاقتهن في عدم فقدانه. أما أنتِ فلم تتصرفي على هذا النحو، وشاءت العدالة الإلهية أن تعاقبك على ذلك، فصار زوجك الآن في خطر عظيم، وأنت في غم شديد. ولكي تخرجي من هذا الوضع، عليك أن تعدي بقبول تيدالدو إذا ما عاد إليك من جديد.

عندما انتهى الحاج من الكلام، فكرت المرأة، ووجدت أنه محق في كل ما ذكره، فقالت:

ـ لقد أدركتُ من كلامك، يا صديق الرب، سبب كل ما جرى لي، وصرت أرى كل شيء بوضوح أشد، وأشعر بالندم لما جرى لتيدالدو. ولكن، كيف يمكن لي إصلاح الضرر؟.. فتيدالدو لا يستطيع الرجوع، لأنه مات.

وردّ عليها الحاج:

ـ تيدالدو لم يمت يا سيدتي، لقد كشف لي الرب ذلك، بل إنه حي وعلى أحسن حال.

فردت المرأة:

ـ حذار مما تقول. أنا رأيته ميتاً طعناً بالسكين أمام البيت. وبكيت بمرارة على جثمانه؛ وربما كان بكائي هو السبب الذي دفع الناس للتحدث عني بالسوء والطعن في شرفي.

عندئذ قال الحاج مؤكداً:

ـ سيدتي، أؤكد لك أن تيدالدو حيّ، وآمل أن تلتقي به عما قريب.

فقالت المرأة:

ـ أكبر سعادة أصبو إليها الآن هي رؤية زوجي طليقاً، ورؤية تيدالدو حياً.

عندئذ بدا لتيدالدو أن الوقت قد حان للكشف عن حقيقته ومواساة السيدة بشيء من الأمل عن زوجها، فقال لها:

ـ سيدتي، قبل أن أقدم إليك أخباراً عن زوجك، سأقدم لك مفاجأة، على ألا تخبري أحداً بشيء.

كانا وحدهما على انفراد، فأخرج تيدالدو خاتماً يحتفظ به بحرص، لأنه تذكار قدمته إليه السيدة في الليلة الأخيرة التي التقيا فيها، وقال لها:

ـ أتتذكرين هذا الخاتم يا سيدتي؟..

فأجابت وقد تعرفت عليه:

ـ أجل، أنا أعطيته لتيدالدو.

عندئذ نهض الحاج، وانتزع عنه الكتفية والقبعة، وقال باللهجة الفلورنسية:

ـ وأنا، هل تعرَّفتِ عليّ؟..

وحين عرفت السيدة أنه تيدالدو، كادت أن تهرب خوفاً، كما لو أنها ترى ميتاً يخرج من قبره. فقال لها:

ـ لا تخافي يا سيدتي، إنني حبيبك تيدالدو، حي وسليم، فأنا لم أمت قط، ولم يقتلني أحد.

اطمأنت المرأة بعض الشيء، وألقت بنفسها إليه مطوقة عنقه، وقالت وهي تقبله:

ـ أهلاً بك يا تيدالدو الحبيب.

وبعد أن عانقها وقبّلها، قال لها:

ـ فلنترك المداعبات جانباً الآن يا سيدتي، فليس هذا وقتها المناسب، ولنهتم بقضية ألدوبراندينو. وآمل أن آتيكِ غداً بأخبار طيبة.

أعاد ارتداء ثياب الحاج التي كان يرتديها، وغادر السيدة ليذهب إلى السجن الذي يقبع فيه ألدوبراندينو. كان السجين خائفاً من الموت الوشيك، واستقبل تيدالدو على أنه شخص آت لمواساته، فأعلن له هذا:

ـ أنا يا الدوبراندينو صديق أرسله لك الرب الذي أشفق على براءتك. فإذا ما قدمت لي جميلاً سأطلبه منك، فسوف تنال حريتك في الغد بكل تأكيد.

فردّ عليه ألدوبراندينو:

ـ إذا كانت نجاتي تهمك، فلا بد أن تكون صديقاً لي، وإن كنت لا أعرفك. أنا لم أفعل قط عملاً خبيثاً أستحق عليه الموت. وسأفعل كل ما تريده إذا ما نجوتُ من هذا الذي أنا فيه.

فقال الحاج عندئذ:

ـ أريد منك أن تصفح عن إخوة تيدالدو الذين أوصلوك إلى هذا المأزق. فهم يظنونك مذنباً في موت أخيهم، وأريدك أن تكون صديقاً لهم إذا ما طلبوا منك الصفح.

ـ المُساء إليه هو وحده من يعرف لذة الانتقام. ولكنني إذا ما خرجت من هذا المأزق، فسوف أسامحهم بكل سعادة.

ابتهج الحاج بهذه النتيجة، وغادره مقدماً الوعود بحلّ كل المشاكل. ثم توجه إلى منزل سيد المدينة، فقابله وقال له:

ـ علينا جميعنا، وخاصة من هم في مناصب رفيعة، مثلك يا سيدي، أن نعمل على إظهار الحقيقة. ومن أجل تحقيق ذلك، جئت إليك. فاعلم أنك قد تصرفت بقسوة وظلم مع ألدوبراندينو باليرميني. فالاتهام ضده مزور وزائف، وسأثبت لكم ذلك بتسليمكم المذنبين الحقيقيين.

استمع السيد الشهم إلى كلام الحاج؛ وبعد حديث طويل، أمر بإلقاء القبض على الأخوين صاحبي النزل وخادمتهما. وتحت التهديد بالتعذيب، تكلموا واعترفوا بأنهم من قتلوا تيدالدو ديلي إيليسي، دون أن يعرفوه. وعند سؤالهم عن السبب، أجابوا بأن القتيل ضايق زوجة أحدهما كثيراً، وهما خارج النزل، وأراد إجبارها على الاستجابة لرغبته. عندئذ ذهب الحاج إلى بيت السيدة إرميلينا، فوجدها بانتظاره متلهفة لمعرفة أخبار زوجها، وقال لها مبتسماً:

ـ أبشري يا سيدتي، فغداً صباحاً ستستردين زوجك ألدوبراندين سليماً معافى.

ولكي يزيد في طمأنتها، شرح لها كل ما جرى. وكانت هي سعيدة، فألقت بنفسها بين ذراعيه وقبلته، ثم ذهبا معاً إلى الفراش وتطارحا الغرام بكل سعادة. وفي الصباح التالي، خرج تيدالدو من البيت بمسوح الحاج. وأطلق سيد المدينة سراح ألدوبراندينو، وأمر بقطع رؤوس الجناة الحقيقيين. وبعد أن تحرر ألدوبراندينو، أخبر زوجته وأقاربه وأصدقاءه بأن الفضل في خلاصه يعود إلى الحاج، وعرض عليه أن يقيم في بيته طوال الوقت الذي سيقضيه في المدينة؛ وقام الجميع هناك بتكريمه، وخاصة المرأة التي كانت تعرف من الذي تكرمه. وبعد مرور بضعة أيام، ذكّر ألدوبراندينو بأن ينجز وعده بمصالحة أخوة تيدالدو، فوافق الآخر على ذلك، ودعا الإخوة الأربعة وزوجاتهم إلى وليمة كبيرة.

وهكذا تحققت المصالحة، واستعيدت الصداقة. فألقيت الأسلحة أرضاً، وطلبوا منه الصفح. وسارت الحفلة في جو بهيج لا يعكره سوى الحداد والحزن العام على موت تيدالدو. وعندما حان موعد تقديم التحلية، قال لهم:

ـ الشيء الوحيد الذي ينقص هذه الوليمة هو حضور تيدالدو الذي كان بينكم طوال الوقت دون أن تعرفوه، ولكنني أريدكم أن تروه الآن.

وألقى عن نفسه ثياب الحاج التي كان يرتديها، وظهر مرتدياً رداء أخضر. وليزيح

كل أثر للشكوك، أخبرهم ببعض تفاصيل أحداث أسرية جرت قبل رحيله، إلى أن أقنعهم. فسارعت النساء إلى معانقته، باستثناء إرميلينا. فقال لها ألدوبراندينو حين رأى ذلك:

ـ ما هذا يا إرميلينا؟.. لماذا لا تحتفي أنت أيضاً بتيدالدو مثل الأخريات؟..

عندئذ قالت المرأة بصوت يسمعه الجميع:

ـ كنت أود ذلك بكل سعادة، لأني أكثرهن امتناناً له، بعد أن استعدتك بفضله؛ ولكنني لا أريد أن تتكرر الأقاويل المشينة التي انتشرت عندما بكيتُ موت من ظنناه تيدالدو.

فرد عليها زوجها:

ـ هيا، هيا! أتظنين أنني أصدق نباح المسيئين؟.. لقد تبين أن كل ذلك كذب وبهتان، فضلاً عن أنني لم أصدق كلمة منه قط. فانهضي وعانقيه.

ولم تكن السيدة ترغب في شيء أكثر من ذلك، فلم تتباطأ في الانصياع لمشيئة زوجها، وهرعت لمعانقته. وبهذا التصرف تلاشت أي فكرة مضادة لعفة إرميلينا. وبعد ذلك بدأ الرقص، وكان الجميع سعداء، وواصلوا الاحتفال عدة أيام. ومع أن الفلورنسيين احتفوا بانبعاث تيدالدو كأعجوبة، إلا أن شكوكاً خفيفة ظلت تراود الكثيرين، بمن فيهم بعض إخوته، حول حقيقة شخصيته، إلى أن حدث أمر أوضح حقيقة الرجل الذي مات. ففي أحد الأيام، مرّ بعض الجنود الآتين من لنيجيانا قبالة بيت تيدالدو، وحين رأوه تقدموا منه وقالوا له:

ـ ها قد وجدناك وقد تحسنت أحوالك يا فازينولو!

فرد عليهم تيدالدو وهو بين إخوته:

ـ أظنكم تحسبونني شخصاً آخر.

فاعتذر الآخرون وقالوا له:

ـ إنك تشبه إلى حدّ كبير صديقاً لنا يدعى فازينولو دي بونتريمولي؛ جاء إلى هنا قبل خمسة عشر يوماً، ولم نعد نراه. وقد استغربنا في الحقيقة أبهة ملابسك، لأنه كان جندياً

مثلنا.

عندئذ تقدم أخو تيدالدو الأكبر وسألهم ما الذي كان يرتديه. وعندما وصفوه، انكشفت حقيقة ما حدث كاملة؛ فالقتيل هو فازينولو وليس تيدالدو. وهكذا زالت كل الشكوك من نفوس إخوته والآخرين جميعهم، وحافظ على حبه للمرأة، واستمتع طويلاً بحبها. فليمنحنا الله السعادة في حبنا.

القصة الثامنة

يتناول فيروندو مسحوقاً، فيعتقد أنه قد مات ويدفن؛ ولكن رئيس دير يستمتع بزوجته، ينبش عنه ويُخرجه من القبر، ويقنعه بأنه في المطهر، ثم يبعثه حياً بعد ذلك كي يعنى بابن أنجبته زوجته من رئيس الدير نفسه.

عندما أنهت إيميليا قصتها، أومأت الملكة إلى لوريتا إيماءة خفيفة كي تواصل، فبدأت هذه القول:

ـ صديقاتي العزيزات، سأروي لكنّ حقيقة تبدو غير قابلة للتصديق؛ وقد ذكرتني بها القصة السابقة، حين روت عن البكاء على ميت خاطئ. وسأروي الآن عن حي دُفن على أنه ميت، ثم أُقنع بعد ذلك بأنه إنما انبعث من القبر، وأنه ليس حياً، فأحيط بتوقير القداسة من كان يجب أن يدان كمذنب.

كان هناك في توسكانا «ومازال موجوداً» ديرٌ يقع في مكان بعيد عن الناس؛ رئيسه كاهن شديد الورع في كل الأمور، باستثناء ضعفه تجاه النساء. وكان يفعل ذلك بتكتم كبير، حتى إن أحداً لم يكتشف قط شيئاً من سلوكه ذاك. وقد ارتبط قروي ثري، يدعى فيروندو، بصداقة متينة معه، وكان شخصاً جاهلاً وجلفاً، له زوجة باهرة الجمال، أُغرم بها رئيس الدير إلى حد الضياع، ولم يعد يفكر في أي شيء آخر سواها. لكنه كان قانطاً من الوصول إليها، لأن فيروندو يحرسها بحرص وغيرة. غير أن الكاهن

الماكر تمكن من إقناعه بمجيء زوجته إلى الدير لتعترف بين حين وآخر، كي تنال الغبطة الأبدية. وقد تمكن من جعل المرأة تهتم بتلك الأمور، فحصلت على إذن زوجها كي تذهب وتعترف أمام رئيس الدير، وهناك قالت له:

ـ لو لم يكن لي زوج يا سيدي، لكنت ولجت بفضل تعاليمكم طريق الحياة الأبدية. لكنني أعتبر نفسي أرملة مع البليد فيروندو، دون أن أتمكن من اتخاذ زوج آخر. وهو فوق ذلك شديد الغيرة، يُضيق عليّ ولا يتيح لي العيش. ولهذا أطلب منكم، قبل أن أعترف، أن تنصحوني حول هذا الأمر.

أثلجت كلماتها روح رئيس الدير، وبدا له أن الحظ قد فتح له الطريق إلى ما يشتهيه، فقال لها:

ـ بنيتي، أدرك كم هو مزعج أن يكون لسيدة جميلة ورقيقة مثلك زوج غبي، وأن يكون فوق ذلك غيوراً. ولست أرى سوى حل واحد، يمكن له أن يخلص فيروندو من غيرته. فهناك دواء يمكن أن يشفي فيروندو، ولكن عليك أن تحفظي السر ولا تبوحي بما سأقوله لك.

فردت المرأة:

ـ أبتاه، لن أقول شيئاً بكل تأكيد؛ وأفضل الموت على البوح بكلمة مما تقوله لأحد. ولكن كيف التوصل إلى ذلك؟..

فقال رئيس الدير:

ـ إذا أردنا له الشفاء، فلا بد من أن يذهب إلى المطهر.

ـ وكيف يمكنه الذهاب إلى هناك وهو حي؟.. ـ قالت المرأة.

ـ لا بد أن يموت أولاً، وعندما يتطهر من غيرته، نصلي للرب كي يعيده إلينا، فيتحقق ذلك.

فاستفسرت المرأة:

ـ وأصير أرملة؟..

ـ لبعض الوقت فقط، ولا يمكنك الزواج من أحد خلال هذه الفترة، لأن الرب يستاء

من ذلك؛ وسيكون عليك أن تعودي إلى فيروندو، عندما يرجع من الموات، وعندئذ ستزداد غيرته أكثر من السابق.

فقالت المرأة:

ـ إذا كان سيشفى، فأنا مستعدة لعمل أي شيء. فافعل ما بدا لك.

ـ سوف أفعل؛ ولكن كيف ستكافئين خدماتي؟.. ـ ردّ عليها رئيس الدير.

ـ سأفعل ما تريده يا أبتاه؛ ولكن ما الذي يمكن لامرأة مثلي أن تقدمه لك؟..

ـ ما يمكنك تقديمه لي لا يقل عما سأقدمه لك، فما سأفعله سيوفر لك الراحة والسلوى، وأنت تستطيعين أن تقدمي ما يكون فيه منفعة لي وإنقاذ لحياتي.

فردت المرأة:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافقة.

ـ ستمنحينني حبك إذن ـ قال رئيس الدير ـ لأنني أتحرق وأتلهف إليه.

ذهلت المرأة حين سمعت هذا الكلام، وردت:

ـ أبتاه، ما هذا الذي تطلبه مني؟.. أنا أرى فيك قديساً. فهل يليق بالقديسين أن يغازلوا النساء اللواتي يطلبن عونهم.

فقال لها رئيس الدير:

ـ لا تستغربي الأمر يا روحي الجميلة؛ فالقداسة لا تُنتقص، لأنها في الروح، وما أطلبه منك هو خطيئة جسد. لقد أسرني جمالك، واضطرني الحب إلى هذا السلوك. ويمكن لك أن تفخري بجمالك، لأنه يلقى إعجاب القديسين المعتادين على رؤية الجمال السماوي. ومع أنني رئيس دير، إلا أنني لا أزال رجلاً مثل الآخرين، وأنا لست مسناً جداً كما ترين. ويجب ألا يضايقك هذا، وإنما يسعدك، لأنك ستظلين برفقتي طالما بقي فيروندو في المطهر، ولن يعلم أحد بذلك. فلا ترفضي نعمة الله إليك، فكثيرات يتمنين الحصول على ما هو في متناول يدك. وإذا ما عملتِ بنصيحتي بتكتم، سيكون لك ما لدي من مجوهرات. فردي لي يا حبي الجميل الذي سأقدمه لك.

كانت تستمع إليه بصمت، ولم تدر كيف ترفض ما يطلبه، لأنها لا ترى القبول به لائقاً. فاستغل رئيس الدير ترددها، وواصل الإلحاح في إقناعها إلى أن توصل إلى مبتغاه. فانتهت إلى القول بخجل إنها موافقة، على ألا يتم ذلك إلا بعد انتقال فيروندو إلى المطهر. فرد عليها رئيس الدير بسعادة:

ـ سنسعى لإرساله إلى هناك فوراً. أخبريه أن يأتي للقائي غداً أو بعد غد.

وبعد قوله هذا، قدم للمرأة خاتماً بديعاً، وودّعها. وقد فرحت المرأة بالهدية، ومنت نفسها بهدايا أخرى جديدة؛ فرجعت إلى بيتها وصارت تروي أموراً كثيرة عن نزاهة رئيس الدير وعفته. وبعد أيام ذهب فيروندو إلى رئيس الدير، وكان هذا مستعداً لإرساله إلى المطهر. فقد كان لديه مسحوق أهداه إليه أمير من مناطق الشرق، يتسبب في نوم من يتناوله. فأخذ كمية من المسحوق تكفي لتنويم فيروندو يومين أو ثلاثة أيام، وأذابها في كأس نبيذ. وما إن تناولها فيروندو، حتى داهمه النعاس، وسقط خامداً بلا حراك. تظاهر رئيس الدير بالقلق والدهشة أمام الرهبان، وعامله كما لو كان مغمى عليه، وطلب إحضار ماء بارد ورشه على وجهه، وجرب وسائل علاج أخرى لإنعاشه. ولكن ذلك كله لم يُجدِ نفعاً، إذ توقف نبضه، واعتبروه ميتاً. نقل الرهبان الخبر إلى زوجته وأقربائه، ثم وضعوه في تابوت. وبعد أن بكت المرأة على الجثمان، رجعت إلى بيتها لتعتني بطفلها وبثروة فيروندو. وفي الليل، ذهب رئيس الدير مع راهب بولوني يثق به، وكان قد جاء من بولونيا في ذلك اليوم بالذات، فأخرجا فيروندو من القبر وأخذاه إلى غرفة مظلمة، تستخدم سجناً لمعاقبة الرهبان المذنبين. وهناك عرياه، وألبساه مسوح راهب، وتركاه إلى أن يصحو ويستعيد الوعي. وفي اليوم التالي ذهب رئيس الدير مع بعض الرهبان لزيارة المرأة ومواساتها، فوجدها ترتدي ثياب الحداد السوداء، فعزاها وذكّرها في الوقت نفسه بالوعد الذي قطعته.

وحين وجدت المرأة نفسها وقد تحررت من فيروندو، ورأت في يد رئيس الدير خاتماً آخر بديعاً، اتفقت معه على اللقاء في تلك الليلة. وعندما جاء رئيس الدير، نام معها بمتعة عظيمة حتى صباح اليوم التالي؛ ثم رجع إلى الدير، وكرر مجيئه إليها مرات كثيرة. وكان يرتدي ثياب فيروندو، حتى إذا ما لمحه أحد في ذهابه وإيابه، ظن أنه فيروندو الذي يقوم بالتكفير عن خطاياه في ذلك الحي بعد موته. وقد انتشرت قصص كثيرة عنه بين أهالي

المنطقة، ووصلت أخبار بعضها إلى المرأة التي كانت تعرف حقيقة ما يجري. أما فيروندو من جهته، فبعد أن استعاد رشده، ودون أن يدري أين هو، دخل عليه الراهب البولوني حاملاً بعض العصي، وأمسك به وأشبعه ضرباً. فراح فيروندو يبكي ويصرخ، ويسأل:

ـ أين أنا؟..

فيرد عليه الراهب:

ـ إنك في المطهر.

ـ وهل أنا ميت؟..

ـ أجل.

فراح فيروندو يبكي على نفسه وعلى زوجته وابنه. وأحضر له الراهب طعاماً وشراباً، فقال فيروندو مستغرباً:

ـ وهل يأكل الموتى؟..

فأجابه الراهب:

ـ أجل، بالطبع. وهذا الطعام الذي جئتك به هو ما أحضرته امرأتك إلى الكنيسة صباح اليوم، من أجل إقامة قداس لراحة روحك، وقد شاء الله أن يُقدم إليك.

عندئذ قال فيروندو:

ـ باركها أيها المعلم! لقد كنت أحبها كثيراً قبل موتي، وأبقيها طوال الليل بين ذراعي، ولا أتوقف عن تقبيلها، وعن عمل أشياء أخرى كذلك عندما تأتيني الرغبة.

ولأنه كان يشعر بجوع شديد، فقد راح يأكل ويشرب، فوجد طعم النبيذ سيئاً، فقال:

ـ إنه نبيذ سيئ يا معلم، فهي لم ترسل إلى الكنيسة، بكل تأكيد، من الدن الذي بجوار الجدار.

وعندما انتهى من تناول الطعام، ضربه الراهب مرة أخرى ضرباً شديداً، فسأله صارخاً:

ـ آي! لماذا تضربني؟....

فقال الراهب:

ـ لأن الرب إلهنا أمر أن تُضرب مرتين كل يوم.

ـ وما السبب؟..

ـ لأنك كنت غيوراً في تعاملك مع أفضل زوجة في المدينة.

ـ كم أنت محق في ما تقوله ـ أجاب الزوج ـ إنها أعذب امرأة، بل إنها أحلى من السكاكر. ولكنني لم أكن أعرف أن الرب إلهنا يعاقب الرجل الغيور؛ ولو عرفتُ من قبل لما كنت كذلك.

ـ كان عليك أن تعرف ذلك وأنت هناك، وأن تندم عليه؛ وإذا ما حدث أن رجعت يوماً، فتذكر ما أفعله بك الآن كي لا تكون غيوراً أبداً.

فقال فيروندو:

ـ وهل يمكن للموتى أن يعودوا؟..

ـ أجل، عندما يشاء الرب ذلك.

ـ آي، ـ قال فيروندو ـ إذا ما رجعت فسوف أكون أفضل زوج في العالم! لن أضرب زوجتي أبداً، ولن أوجه لها أية إهانات، إلا بسبب النبيذ الذي أرسلته هذا الصباح، ولأنها لم تحضر شموعاً لإنارة هذا المكان.

فأعلن الراهب:

ـ لقد أحضرت شموعاً، ولكنها استُهلكت في القداس.

ـ إذا ما رجعتُ فسوف أتركها تفعل ما تشاء. ولكن أخبرني، من أنت؟.. وكيف تعرف أنت كل هذا؟..

فقال الراهب:

ـ إنني ميت أيضاً، وأنا من سردينيا. وكنت أمتدح سيدي كثيراً لأنه غيور، فحكم عليّ الرب بأن أقدم لك الطعام والشراب، وأن أضربك أيضاً، إلى أن يقرر الرب أمراً آخر

بشأنك وبشأني.

وقال فيروندو:

ـ ألا يوجد أحد سوانا نحن الاثنين هنا؟..

ـ بل هناك الملايين، ولكنك لا تستطيع رؤيتهم أو سماعهم، مثلما لا يستطيعون هم رؤيتك أو سماعك.

فسأله فيروندو عندئذ:

ـ وكم نحن بعيدون عن موطننا؟..

ـ آواه! ـ أجاب الراهب ـ إننا على بعد أميال كثيرة جداً.

ـ مثل هذا البعد يعني أننا خارج العالم.

وفي مثل هذه الأحاديث، فضلاً عن تناول الطعام والشراب والضرب، انقضت عشرة شهور؛ وكان رئيس الدير في أثناء ذلك يتردد على المرأة الجميلة، ويستمتع بها على هواه. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ حبلت المرأة، وأخبرت رئيس الدير بذلك في الحال. فرأى أن أفضل حلّ هو إعادة فيروندو من المطهر إلى الحياة، وأن يرجع إلى امرأته، فتقول له هي بأنها حامل منه. وفي الليلة التالية، ذهب رئيس الدير إلى حجرة الحبس، وتصنع صوتاً مختلفاً، وقال لفيروندو:

ـ ابتهج يا فيروندو، فقد شاءت إرادة الله أن ترجع إلى الدنيا، وتعود إلى زوجتك، فيكون لك ابن منها تسميه بينديتو، لأن هذه النعمة جاءتك بفضل صلوات رئيس الدير المقدس وصلوات امرأتك، وبفضل محبة القديس بينديتو.

حين سمع فيروندو هذا الكلام ابتهج أشد الابتهاج، وقال:

ـ يا لسعادتي، وليبارك الرب رئيس الدير والقديس بينديتو وامرأتي الحلوة اللذيذة.

أمر رئيس الدير بأن يوضع له في النبيذ قليل من ذلك المسحوق، بما يكفي لتنويمه بضع ساعات. وعندئذ ألبسوه ثيابه وأعادوه إلى المدفن الذي دُفن فيه. وعندما بزغ ضوء الصباح، رأى أنواراً من شقوق المدفن، وهو ما لم يره منذ عشرة شهور، فأدرك أنه حي، وبدأ يصرخ:

ـ افتحوا لي، أخرجوني! أريد الخروج!

وراح يضرب برأسه غطاء المدفن بقوة، فحركه من مكانه، وبدأ يفتحه وهو يواصل الصراخ. عندئذ سمعه الرهبان، فهرعوا فزعين إلى رئيس الدير الذي تظاهر بأنه توقف عن صلاته، وقال لهم:

ـ لا تفزعوا يا أبنائي، احملوا الصليب والماء المقدس وتعالوا ورائي، وسنرى ما الذي تريد سلطة الرب إظهاره لنا.

خرج فيروندو شاحباً جداً لأنه لم ير الشمس منذ وقت طويل، وألقى بنفسه عند قدمي رئيس الدير قائلاً:

ـ أبتاه، لقد كُشف لي أن صلواتك وصلوات زوجتي ومباركة القديس بينديتو هي التي أخرجتني من عذاب المطهر وأعادتني إلى الحياة من جديد؛ فأدعو الله أن يطيب أيامك وشهورك الآن وإلى الأبد.

فقال رئيس الدير:

ـ فلتتبارك سلطة الرب وقدرته. امض يا بني لمواساة امرأتك، بعد أن أعادك الله، فهي لم تتوقف عن البكاء منذ ذهابك. وكن من الآن فصاعداً صديقاً وعبداً للرب.

وقال فيروندو:

ـ أعرف ذلك يا سيدي لأنه قيل لي. أريد الذهاب إليها الآن فوراً، لأراها وأقبّلها وأبيّن لها مقدار حبي.

بقي رئيس الدير مع رهبانه، متظاهراً بتقدير إعجاز ما حدث، وطلب منهم إنشاد «ارحمني يا رب» بورع. أما فيروندو فذهب إلى بيته، وكان كل من يراه يهرب منه، فيناديهم مؤكداً لهم أنه قد انبعث من الموت. بل إن امرأته نفسها خافت منه. ولكن بعد أن بدأ الناس يطمئنون إليه شيئاً فشيئاً، ويرون أنه حي حقاً، راحوا يسألونه عن أشياء كثيرة. وتحول إلى حكيم، يجيب على كل الأسئلة، ويقدم لهم الأخبار عن أرواح أقربائهم الموتى، ويصنع بنفسه أجمل أسطورة في الدنيا عن وقائع المطهر. وروى أمام الجميع النبوءة التي كشف له عنها الملاك جبرائيل قبل انبعاثه بقليل. ثم عاد بعد ذلك إلى زوجته وإلى إدارة

بيته، معتقداً أنه هو الذي تسبب في حبل زوجته. وشاءت المصادفة أن تنجب ابناً ذكراً بعد تسعة شهور، فسمي بينديتو فيروندو. وأدت هذه الوقائع إلى زيادة سمعة القداسة والورع التي يتمتع بها رئيس الدير، وإلى شفاء فيروندو من غيرته. وهكذا صارت المرأة تعيش معه، ولكنها إذا ما سنحت لها الفرصة، تلتقي برئيس الدير القديس، شاكرة له أنه وفر لها أشد حاجاتها بحرص وفطنة.

القصة التاسعة

تُشفي جيليتا دي ناربونا ملكَ فرنسا من ورم في صدره أصيب به، وتطلب منه أن يزوجها من بيلتران دي روسيّون الذي يرى أنه تزوجها رغم إرادته، فيرحل غاضباً إلى فلورنسا. وهناك يتودد إلى فتاة، فتعمد جيليتا إلى النوم معه بدلاً من الفتاة، وتنجب منه ابنين، فيميل إليها ويعلق بحبها، ويتخذها زوجة له.

بعد أن أنهت لوريتا قصتها، لم يبق من المتكلمين سوى ديونيو والملكة؛ ولأن الملكة لم تشأ أن تتكر على ديونيو امتيازه في أن يكون آخر المتكلمين، فقد بدأت الكلام كما يلي:

ـ من الذي يمكنه أن يروي الآن قصة تبدو جميلة، بعد سماع قصة لوريتا؟.. ولحسن الحظ أنها لم تكن أول من بدأ من الرواة، وإلا لما أعجبتنا أي قصة أخرى، وهو ما سيحدث للقصتين المتبقيتين. ولكنني سأبدأ على أي حال رواية القصة التي تذكرتها ورأيت أنها مناسبة لموضوعنا الحالي.

كان يعيش في مملكة فرنسا سيد يدعى ايسنار، هو كونت روسيون، وكان عليلاً يعاني من مرض دائم، مما اضطره إلى الإبقاء على طبيب يلازمه يدعى جيرار دي ناربونا. وكان للكونت المذكور ابن وحيد صغير اسمه بيلتران، وكان الطفل جميلاً ولطيفاً، يلعب دائماً مع أقران في مثل سنه، بينهم طفلة تدعى جيليتا، هي ابنة الطبيب. وعلى الرغم من صغر سنها، فقد أحبت بيلتران حباً لا حدود له. وكان يأسها عظيماً حين مات الكونت

فيما بعد، وتولى الملك رعاية بيلتران، فاضطر هذا إلى الانتقال إلى باريس. وحين مات أبوها بعد وقت قصير من ذلك، ودّت لو أنها تجد مسوغاً لائقاً لتذهب إلى باريس وتلتقي بيلتران؛ ولكنها كانت مراقبة بصرامة، لأنها غنية ووحيدة، فلم تجد وسيلة كريمة للذهاب. وكانت قد بلغت سن الزواج، ولكنها لم تستطع نسيان بيلتران؛ وصارت ترفض كل من أراد أقرباؤها تزويجها منه، دون أن تبدي سبباً لرفضها.

وبينما حبها لبيلتران يزداد تأججاً، علمت أن ملك فرنسا قد أصيب بقرحة في صدره نتيجة ورم لم يعالج جيداً، وأن تلك القرحة تسبب للملك غماً عظيماً. ولم يكن هناك، من جهة أخرى، طبيب قادر على علاجه، بالرغم من أن أطباء كثيرين حاولوا ذلك، ولم يوفقوا في العلاج، وإنما زادوا الأمر سوءاً. ابتهجت الفتاة لهذا الخبر، واستعادت الأمل ليس بالذهاب إلى باريس وحسب، وإنما الظفر ببيلتران زوجاً لها كذلك. وكانت قد تعلمت من أبيها الكثير من معارفه الطبية، فحضَّرت دواء من أعشاب رأت أنها مفيدة لعلاج ذلك الداء، وامتطت حصاناً وتوجهت إلى باريس. وقبل أن تقدم على أي شيء، سعت للقاء بيلتران، ثم مثلت بين يدي الملك، وطلبت منه أن يتكرم ويريها داءه. ولم يستطع رفض طلبها وهو يرى جاذبيتها وجرأتها. ثم قالت له يحدوها الأمل في القدرة على علاجه:

ـ آمل، بقدرة الله، يا صاحب الجلالة أن أتمكن من علاج هذا الداء، خلال ثمانية أيام، دون أن أسبب أي إزعاج أو مشقة لجلالتك.

لم يولِ الملك اهتماماً لكلامها، وقال في نفسه ساخراً منها: «أيمكن لهذه الصبية أن تعرف ما لم يعرفه أعظم الأطباء؟..» لكنه شكرها بلطف على طيب نواياها، وأجابها بأنه صمم على عدم الانصياع لنصيحة أحد من الأطباء. فقالت له:

ـ أنت تستخف بي يا صاحب الجلالة لأنني امرأة، وصغيرة السن. ولكنني أود تذكيركم بأنني أعتمد في العلاج على عون الله وعلم المعلم جيرار دي ناربونا الذي كان أبي وأشهر أطباء عصره.

ففكر الملك عندئذ: «لعل الله هو من أرسل لي هذه المرأة. فلماذا لا أجرب ما تعرف عمله ما دامت تقول إنها ستشفيني خلال وقت قصير، ودون أي إزعاج؟..» وبعد أن قرر تجربة علاجها، قال لها:

ـ وإذا لم تفلحي في شفائي، بعد أن تكسري قراري في التخلي عن العلاج، ما الذي تريدين أن أفعله بك؟.. لقاء تحولي عما كنت اعتزمت من انصراف عن العلاج؟..

فأجابت الفتاة:

ـ افرض حراسةً عليّ يا مولاي، فإذا لم أنجز ما وعدتُ به خلال ثمانية أيام، فأرسلني إلى المحرقة. ولكن، ما الذي ستقدمه لي إذا ما أشفيتك؟..

ـ أرى أنكِ لا تزالين عازبة. ولسوف أوفر لكِ، إذا ما شفيت، زيجة محترمة وكريمة.

فقالت الفتاة:

ـ يسعدني حقاً يا مولاي أن تتولى جلالتك تزويجي، ولكنني أنا من ستختار الزوج، على ألا يكون من أختار واحداً من أبنائك أو من الأسرة المالكة.

وافق الملك على هذا الطلب. وبدأت الفتاة من جهتها ممارسة العلاج، وتمكنت خلال ثمانية أيام من شفاء الملك. فقال لها:

ـ لقد كسبت بكل جدارة أيتها الشابة الزوج الذي تريدين، فأخبريني من هو.

فأجابت:

ـ من أريده يا مولاي هو كونت روسيون، الذي أحببته منذ طفولتي، وما زلت على حبه.

رأى الملك أنها بالغت كثيراً في طلبها، ولكنه لم يشأ أن ينكث في وعده لها، فاستدعى الكونت وقال له:

ـ لقد صرت رجلاً يا بيلتران. ونريد منك أن تعود إلى حكم كونتيتك، وأن تصطحب معك المرأة التي اخترتها زوجةً لك.

ـ ومن هي هذه السيدة يا مولاي؟.. ـ سأل بيلتران.

فأجاب الملك:

ـ إنها من أعادت لي الصحة بدوائها.

كان بيلتران يعرفها، ومع أنه يراها جميلة جداً، إلا أنه لا يعتبرها بمثل نجابة سلالته،

فرد مستاء:

- أتريد أن تزوجني يا صاحب الجلالة من مداوية؟.. لن يرضى الرب عن زواجي من مثل هذه المرأة.

فقال له الملك:

- أتريدني أن أتراجع عن وعد قطعته؟..

- مولاي - قال بيلتران - لك أن تنتزع مني ما أملك، وأن تعطيني ما تشاء، لأني رجلك يا سيدي؛ ولكن هذا الزواج لن يسعدني أبداً.

- بل سيسعدك، فهي فتاة شريفة وجميلة، كما أنها تحبك كثيراً. وأعتقد أنك ستكون معها أسعد مما تكونه مع أي سيدة أخرى من سلالة أرفع شأناً.

صمت بيلتران ولم يقل شيئاً. وأمر الملك بإعداد احتفالات مهيبة للزفاف. وفي اليوم المحدد عُقد، بحضور الملك، قران بيلتران المتضايق على من تحبه أكثر من نفسها. وبعد انتهاء مراسم الزفاف، وتنفيذ أمر الملك، استأذنه بيلتران في الرحيل إلى مقاطعته، كي ينجز زواجه عملياً هناك. لكن الكونت لم يتوجه، بعد الرحيل، مع زوجته ومرافقيه إلى مقاطعتهم، وإنما ذهب إلى توسكانيا. وكانت قد نشبت حرب بين الفلورنسيين والسيينيين، فانضم إلى الفلورنسيين الذين استقبلوه بابتهاج، وعينوه قائداً على قوة منهم، وبقي في خدمتهم لوقت طويل.

أما العروس المستاءة من هذا المصير، والراغبة في أن يعود زوجها إلى مقاطعته، فذهبت إلى روسيون، حيث استقبلها الجميع كسيدة لهم. ووجدت الخراب والاضطراب منتشرين هناك لطول غياب الكونت عن أملاكه، فأعادت تنظيم الأمور، وكسبت مودة رعيتها وتقديرهم، بل إنهم صاروا يلومون الكونت لإهماله إياها. وأخيراً، أرسلت جيليتا رسولين من نبلاء المقاطعة إلى الكونت، وطلبت منه أن يخبرها إذا كان لا يريد العودة بسببها، فإنها ستغادر إرضاء له. فرد على الرسولين:

- فلتفعل ما يحلو لها. أما أنا فلن أعود إليها هناك، إلا إذا كان هذا الخاتم في إصبعها، وكانت تحمل بين ذراعيها ابناً تنجبه مني.

كان الكونت يعتز بذلك الخاتم كثيراً، ولا يخلعه من إصبعه أبداً، فأدرك السيدان قسوة شرطه المستحيل الذي يطالب به. فرجعا إلى المرأة وأطلعاها على كل شيء. ومع أنها تألمت كثيراً، إلا أنها راحت تبحث عن طريقة تتوصل بها إلى الأمرين كليهما، كي تتمكن من استعادة زوجها. وبعد أن فكرت في ما ستفعله، جمعت أكبر رجال المقاطعة وأبرزهم، وروت لهم بكلمات وقورة ومؤثرة كل ما فعلته حباً بالكونت، ثم قالت لهم أخيراً إنها لا تريد له أن يظل بعيداً عن مقاطعته بسببها، ولهذا قررت أن تقضي ما بقي من عمرها في الحج وعمل الخير من أجل خلاص روحها. وطلبت منهم أن يتولوا إدارة كل شؤون المقاطعة بأنفسهم.

وبينما أولئك الرجال يسمعون، راحت الدموع تسيل من عيونهم؛ فطلبوا منها أن تعدل عن قرارها وتبقى، لكنها لم تستجب. واستودعتهم الله، وارتدت ملابس الحج مع قريب لها وخادمة، وتزودت جيداً بالمال وبمجوهرات ثمينة، وانطلقت دون أن يدري أحد إلى أين، ولم تتوقف إلا بعد أن بلغت فلورنسا، حيث استقرت لتعيش حياة بسيطة، في نزل صغير تملكه أرملة طيبة، بانتظار الحصول على أخبار عن زوجها.

وحدث في اليوم التالي أن رأت بيلتران يمر أمام النزل، ممتطياً جواداً مع جنوده، فتظاهرت بعدم معرفته، وسألت عنه صاحبة النزل، فقالت المرأة لها:

- إنه سيد غريب يدعى الكونت بيلتران، طيب ودمث، ومحبوب جداً في هذه المدينة. وهو مغرم بجارة لنا، امرأة نبيلة ولكنها فقيرة. والحقيقة أنها شابة عفيفة جداً، إلا أنها لم تتزوج حتى الآن بسبب فقرها، وتعيش مع أمها الطيبة، ولولا أمها لكانت الفتاة استجابت لنزوات الكونت.

حين سمعت الكونتيسة هذا الكلام، فكرت فيه جيداً، واستقصت عن كل التفاصيل، ثم اتخذت قرارها.

بحثت واستفسرت عن اسم السيدة وابنتها، ثم ذهبت إليهما بمسوح الحاجة، فوجدت المرأتين تعيشان في فقر مدقع. حيتهما وأشارت إلى الأم بأنها تريد التحدث إليها، فذهبتا معاً إلى غرفة في البيت، وبدأت الكونتيسة الكلام قائلة:

- يبدو لي يا سيدتي أن الحظ تخلى عنكما مثلما تخلى عني؛ ولم يكن معك أكرم

منه معي. ولكنني أظن أن بإمكاننا تبادل المساعدة.

استحسنت المرأة الفكرة، وطلبت من الكونتيسة أن تخبرها بما لديها. فأجابتها جيليتا قائلة:

ـ أريد كلمة عهد منك، فإذا لم تكوني وفية في وعدك، فسوف تسوء أموركما وأموري.

وردّت عليها المرأة:

ـ تكلمي بثقة ودون خوف، فلن أخونك أبداً

فأخبرتها الكونتيسة عن حبها، وعن كل ما جرى حتى تلك اللحظة، فأثارت في نفس المرأة مشاعر التأثر والشفقة. ثم انتهت إلى القول:

ـ لقد عرفتِ الآن محنتي، وما أحتاج إليه كي أسترد زوجي. وليس هناك سواكما من يمكنه مساعدتي، لأن الكونت مغرم بابنتك.

ـ أجهل إن كان مغرماً بها حقاً ـ أجابت الأم ـ وإن كان هذا ما يبديه. ولكن، ما الذي يمكنني عمله من أجلكِ؟..

ـ اسمعي. سأخبرك أولاً بالمنافع التي ستجنيها ابنتك إذا ما ساعدتماني. سأوفر لها زيجة لائقة، وسأمنحها من أموالي الدوطة التي تريانها مناسبة.

اهتمت المرأة، وهي فقيرة ومحتاجة، بهذا العرض؛ ولكن طبعها النبيل دفعها إلى القول:

ـ أخبريني يا سيدتي بما تريدين مني أن أفعله، فإذا كان شريفاً، فسأفعله عن طيب خاطر، وتقدمين أنت لي بعد ذلك ما تشائين.

فأجابت الكونتيسة عندئذ:

ـ أريد منك أن تخبري زوجي الكونت، عن طريق شخص تثقين به، بأن ابنتك ستوافق على إرضاء رغباته كما يشاء، إذا ما قدم لها دليلاً حقيقياً على حبه لها. وليثبت ذلك، عليه أن يرسل إليها الخاتم الثمين الذي يضعه في إصبعه. فإذا أرسله، تعطينني إياه. وتقولين له بعد ذلك إن ابنتك تنتظره؛ وأكون أنا مختبئة هنا، أرقد في فراش ابنتك بدلاً منها. ولعلني

أحمل منه بعد ذلك بعون الله، وهكذا امتلك الشيئين اللذين أحتاج إليهما لأسترد زوجي، وتكونين أنت الوسيلة إلى ذلك.

ترددت السيدة في القبول، وخشيت أن يلحق ذلك سوء السمعة بابنتها. ولكنها فكرت أيضاً في أنه من الإنصاف مساعدة المرأة المنكوبة، ووعدتها بأن تلبي رغبتها. وفعلت ما اتفقتا عليه، وبعد الحصول على الخاتم «الذي تخلى عنه الكونت مكرهاً»، وفي ليلة النوم مع الكونت، أدخلت جيليتا في فراش ابنتها. ومنذ اللقاءات الأولى مع الكونت المتلهف، شاء الله أن تحبل بتوءمين ذكرين، مثلما تبين عندما حان موعد وضع الحمل. وقد تكررت اللقاءات، دون أن يخامر الشك الكونت في أنه ينام مع زوجته وليس مع تلك الفتاة التي وقع في حبها. وكلما افترقا في الصباح، كان الكونت يقدم لها الكثير من الحلي والجواهر، فتحتفظ بها. وعندما تأكدت من حملها، قالت لصديقتها:

ـ إنني شاكرة لك يا سيدتي، فقد حصلت على ما أريده. وعليّ الآن أن أكافئك.

فشكرتها السيدة على كلماتها، ولكنها أوضحت لها أنها إنما أقدمت على عمل ذلك لأنه بدا لها منصفاً وعادلاً.

ـ أنا شاكرة لك يا سيدتي، ولكن تقديم المكافأة إليك صارت واجباً علي.

فطلبت منها السيدة الشريفة، بخجل كبير، أن تعطيها مئة لير كي تتمكن من تزويج ابنتها. وانتبهت الكونتيسة إلى خجلها وإلى طلبها المتواضع، فأعطتها خمسمئة لير، وكمية من الحلي والجواهر الثمينة قيمتها تساوي ذلك المبلغ. ابتهجت السيدة كثيراً، وشكرت الكونتيسة على كرمها. ثم رحلت مع ابنتها إلى بيت أقرباء لها في الريف، لتبتعد عن أنظار الكونت بيلتران. وبعد قليل من ذلك، طلب منه رجاله أن يعود إلى موطنه، وكان قد علم أن الكونتيسة قد غادرت روسيون، فرجع إلى مقاطعته.

وعندما علمت الكونتيسة أنه قد غادر فلورنسا وعاد إلى مقاطعته، فرحت فرحاً عظيماً. ولكنها ظلت مقيمة في فلورنسا إلى أن حان موعد وضع حملها، فوضعت طفلين توءمين شديدي الشبه بأبيهما. وحين رأت أن اللحظة المناسبة قد أزفت، توجهت سراً إلى مونبلييه، وهناك علمت أن حفلة كبرى ستقام في روسيون في يوم عيد جميع القديسين. فذهبت إلى هناك وهي بثياب الحج التي خرجت بها، واستقصت عن السيدات والسادة

الذين سيحضرون المأدبة. ودون أن تبدل ثيابها، دخلت إلى القاعة وهي تحمل طفليها، وألقت بنفسها عند قدمي الكونت، وقالت له باكية:

- إنني زوجتك يا سيدي، وقد جئت أطلب منك الوفاء بوعدك. وأرجو من الله أن تكون محافظاً على الشرطين اللذين فرضتهما على الرسولين. فلدي هنا ابنان، وليس ابناً واحداً منك؛ وبحوزتي خاتمك أيضاً. وأظن أنني أستحق أن أكون زوجة لك، وفق ما تعهدت به.

أصاب الذهول الكونت حين رأى الخاتم، وتبين له الشبه الكبير بين الطفلين وبينه، فقال:

- كيف حدث هذا؟..

فروت الكونتيسة ما جرى، وأدهشت الحاضرين جميعهم. واستطاع الكونت أن يتبين حقيقتها وصدقها، كما أعجب بابنيه الصغيرين. وحركته رغبة كل رعيته، فأنهض الكونتيسة عن الأرض وقبلها، معترفاً بها زوجة له. ثم ارتدت هي ملابس لائقة، وتواصلت الحفلات والولائم لعدة أيام أخرى. وعاشا منذ ذلك الحين في سعادة وهناء.

القصة العاشرة

تتحول الشابة أليبيش إلى ناسكة، وتعيش مع الراهب روستيكو. فيعلمها إدخال الشيطان في الجحيم. وبعد تخليها عن هذه الحياة، تتزوج من نيربالي.

استمع ديونيو بتمعن إلى قصة الملكة، وعندما انتهت وجاء دوره، لم ينتظر إلى أن تأمره، بل بدأ الكلام مبتسماً:

- سيداتي اللطيفات، ربما لا تعرفن كيف يجري إدخال الشيطان إلى جهنم، ولهذا سأروي لكنَّ كيف ذلك؛ فربما لا يزال أمامكن متسع لإنقاذ أرواحكن. ولا بد أنكن تعرفن أن الحب يعيش في القصور السعيدة والحجرات الوثيرة أكثر مما يعيش في أكواخ

الذين سيحضرون المأدبة. ودون أن تبدل ثيابها، دخلت إلى القاعة وهي تحمل طفليها، وألقت بنفسها عند قدمي الكونت، وقالت له باكية:

ـ إنني زوجتك يا سيدي، وقد جئت أطلب منك الوفاء بوعدك. وأرجو من الله أن تكون محافظاً على الشرطين اللذين فرضتهما على الرسولين. فلدي هنا ابنان، وليس ابناً واحداً منك؛ وبحوزتي خاتمك أيضاً. وأظن أنني أستحق أن أكون زوجة لك، وفق ما تعهدت به.

أصاب الذهول الكونت حين رأى الخاتم، وتبين له الشبه الكبير بين الطفلين وبينه، فقال:

ـ كيف حدث هذا؟..

فروت الكونتيسة ما جرى، وأدهشت الحاضرين جميعهم. واستطاع الكونت أن يتبين حقيقتها وصدقها، كما أعجب بابنيه الصغيرين. وحركته رغبة كل رعيته، فأنهض الكونتيسة عن الأرض وقبلها، معترفاً بها زوجة له. ثم ارتدت هي ملابس لائقة، وتواصلت الحفلات والولائم لعدة أيام أخرى. وعاشا منذ ذلك الحين في سعادة وهناء.

القصة العاشرة

تتحول الشابة أليبيش إلى ناسكة، وتعيش مع الراهب روستيكو. فيعلمها إدخال الشيطان في الجحيم. وبعد تخليها عن هذه الحياة، تتزوج من نيربالي.

استمع ديونيو بتمعن إلى قصة الملكة، وعندما انتهت وجاء دوره، لم ينتظر إلى أن تأمره، بل بدأ الكلام مبتسماً:

ـ سيداتي اللطيفات، ربما لا تعرفن كيف يجري إدخال الشيطان إلى جهنم، ولهذا سأروي لكنَّ كيف ذلك؛ فربما لا يزال أمامكن متسع لإنقاذ أرواحكن. ولا بد أنكن تعرفن أن الحب يعيش في القصور السعيدة والحجرات الوثيرة أكثر مما يعيش في أكواخ

الفقراء، ولكن هذا لا يحول دون الشعور بقوته وجبروته وسط الغابات الكثيفة، وفي الجبال الوعرة، وفي الصحارى والكهوف؛ وهذا يحدث لأن كل شيء، كما يبدو، مرتبط بقوته.

ولكنني أعود إلى الحالة التي سأرويها، فأقول إنه في مدينة قفصة، في بلاد البربر، كان يعيش رجل واسع الثراء، له أبناء عديدون، بينهم ابنة جميلة ولطيفة اسمها أليبيش. لم تكن مسيحية، ولكنها كانت ترى في المدينة الكثير من النصارى يطرون على ديانتهم المسيحية وعلى خدمة الرب، فسألت أحدهم يوماً عن أفضل طريقة يمكنها اتباعها لخدمة الرب. فأجابها بأن أفضل من يخدمون الرب هم أولئك الذين يبتعدون عن أمور الدنيا، مثلما يفعل من يذهبون إلى صحراء تيبايدا. وكانت الفتاة ساذجة، لا يزيد عمرها عن أربعة عشر عاماً، فانطلقت في صباح اليوم التالي، سراً ووحيدة، دون أن تخبر أحداً، إلى صحراء تيبايدا، لا تدفعها رغبة واعية، وإنما نزوة صبيانية. وعلى الرغم مما أصابها من إنهاك، فقد واصلت المسير مدفوعة برغبتها. وبعد بضعة أيام في تلك القفار، رأت من بعيد كوخاً صغيراً؛ فتوجهت إليه، ووجدت عند الباب راهباً قديساً، فعجب لرؤيتها وسألها ما الذي تبحث عنه. فردت عليه بأنها، بوحي من الرب، تريد أن تضع نفسها في خدمته. ورأى الرجل الصالح أنها فتاة شابة وجميلة، وخشي أن يغويه الشيطان إذا ما استبقاها معه، فأثنى على نيتها، وقدم لها ماء تشربه، وبعض التمر والجذور والأعشاب البرية لتأكلها، وقال لها:

- بنيتي، على مسافة غير بعيدة من هنا، يوجد رجل قديس، وهو أعلم مني بكثير في ما تبحثين عنه. فاذهبي إليه.

أشار لها إلى الطريق، وبعد أن وصلت إلى ذلك الناسك، واستمع هو إلى ما تريده، حدث ما جرى لها مع الأول. فسارت مسافة أخرى حتى وصلت إلى كوخ ناسك شاب، وهو شخص ورع وطيب، يدعى روستيكو، فسألها مثلما سألها الآخران. ولكي يظهر هذا الناسك مدى عفته وثبات إيمانه، لم يصرفها عنه مثلما فعل سابقاه، بل استبقاها في كوخه. وعندما حلّ الليل، أعد لها فراشاً من جريد النخل وطلب منها أن تنام عليه. وبعد أن فعلت، بدأت الغواية صراعها مع قوى الناسك، ووجد أنه كان مخدوعاً جداً بقوة إرادته.

وبعد هجمات عديدة من الغواية، أدار ظهره معترفاً بهزيمته. أزاح جانباً أفكاره الصالحة وصلواته وانضباطه، ولم يعد يهتم إلا بشباب الفتاة وجمالها، ولا يفكر إلا في التوصل إليها، دون أن تدرك هي ذلك، ودون أن تفطن إلى ما يبتغيه منها كرجل. فتأكد في أول الأمر، ببعض الأسئلة الحذرة، من أنها لم تعرف رجلاً من قبل، وأنها ساذجة مثلما تبدو حقاً. ففكر في جلبها لمشيئته تحت ذريعة خدمة الرب. وراح يعلمها أولاً، بكثير من الكلام، مدى عداوة الشيطان للرب، قائلاً لها إن أعظم خدمة تقدم إلى الرب هي في وضع الشيطان في الجحيم، حيث حكم عليه الرب أن يقيم. فسألته الفتاة عن كيفية عمل ذلك، وقال لها روستيكو:

- ستعرفين الآن، ولكن افعلي ما ترينني أفعله.

وبدأ بخلع ملابسه إلى أن صار عارياً تماماً؛ وفعلت هي الشيء نفسه، وجثا هو عندئذ على ركبتيه متظاهراً بأنه يصلي، وأحضرها إلى جواره. وأحس روستيكو حينئذ بتأجج شهوته كما لم يحدث له من قبل، وأدى ذلك إلى انبعاث اللحم؛ فرأت الفتاة ذلك بذهول، وقالت له:

- روستيكو، ما هذا الشيء الذي أراه يبرز منك خارجاً، وليس لدي مثله؟..

فأجابها الراهب:

- بنيتي، إنه الشيطان الذي حدثتكِ عنه، وهو يسبب لي من الإزعاج ما لا أطيق تحمله.

قالت الشابة:

- فليتبارك الرب! أرى الآن أنني أفضل حالاً منك، فأنا لا يوجد لدي شيطان.

فقال روستيكو:

- ما تقولينه صحيح، ولكن لديك شيء آخر لا أملكه أنا.

- وما هو؟.. - سألته.

فكان رد روستيكو عليها:

- لديك الجحيم، وأظن أن الرب قد أرسلك لتنقذي روحي، فكلما عذبني الشيطان، يمكن لك إذا أنت أشفقتِ عليّ أن تضعيه في جهنم. وبهذا نرضي الرب ونعمل في خدمته.

فأجابت الفتاة بكل براءة:

- إذا كان الجحيم موجوداً لدي، فليكن ما تريده يا أبتاه.

- فليباركك الرب يا بنتي. هلمي بنا لنُدخل الشيطان في جهنم، كي لا يواصل مضايقتي.

قال ذلك واقتاد الشابة إلى أحد الفراشين، وعلّمها كيف يجب عليها أن ترقد من أجل حبس ذلك الكائن الذي لعنه الله. أما الفتاة التي لم تكن قد أدخلت الشيطان إلى الجحيم من قبل قط، فقد أحست في المرة الأولى بقليل من الألم، وقالت لروستيكو:

- لا بد أن الشيطان شيء خبيث فعلاً، ولا بد أنه عدو الله حقاً؛ فحتى وهو في جهنم، يسبب لي الألم عند دخوله، فما بالك حين يكون في مكان آخر.

- هذا الألم لا يحدث دائماً يا بنتي - أجابها روستيكو.

وكي لا يتكرر ذلك، أعادا إدخاله ست مرات قبل أن ينهضا من الفراش، وهكذا انتزعا الغطرسة من رأس الشيطان وأبقياه خامداً. ولكن الغطرسة ما لبثت أن رجعت إليه، وتوالت مرات عديدة، فكانت الفتاة تبدي استعدادها على الدوام لانتزاعها منه، إلى أن بدأت اللعبة تروقها، وقالت لروستيكو:

- الآن أرى صحة ما يقوله رجال قفصة الحكماء الطيبون عن أن خدمة الرب هي عمل جيد. فأنا لا أتذكر أنني فعلت شيئاً أكثر متعة من إدخال الشيطان إلى جهنم، ويبدو لي أن أي شخص يهتم بأمر آخر غير خدمة الرب هو مجرد حيوان.

وكثيراً ما كانت تأتي إلى روستيكو لتقول له:

- لقد جئت إلى هنا كي أخدم الرب يا أبتاه، لا لأظل خاملة؛ هلم بنا لندخل الشيطان في جهنم.

وبينما هما يفعلان ذلك كانت تقول:

- لست أفهم يا روستيكو لماذا يهرب الشيطان من جهنم، لأنه إذا كان يستمتع فيها مثلما تستمتع جهنم وهي تستقبله، لما كان عليه أن يخرج منها أبداً.

وهكذا صارت الشابة تدعو روستيكو وتجبره على خدمة الرب، إلى أن بلغ الأمر حداً

صار يشعر معه بأنه يفقد قواه. عندئذ أوضح للفتاة أنه يجب عدم إدخال الشيطان إلى جهنم إلا عندما تدفعه الغطرسة إلى رفع رأسه، وقال:

ـ نحن، بفضل الله، عاقبناه كثيراً، حتى إنه صار يتوسل إلى الرب أن يتركه بسلام.

وبهذا هدأ قليلاً من اندفاع الفتاة، ولكنها حين رأت أن روستيكو لم يعد يطلب منها إدخال الشيطان في جهنم، قالت له في أحد الأيام:

ـ لقد عوقب شيطانك يا روستيكو ولم يعد يضايقك، ولكن جهنمي لا تتركني أعيش بسلام، وتحسن صنعاً إذا ما ساعدتني بشيطانك لتهدئة جهنمي، مثلما ساعدتك بجهنمي على انتزاع الغطرسة من شيطانك.

أما روستيكو الذي كان يتغذى على الجذور والأعشاب والماء، فلم يستطع مجاراة حاجتها تلك؛ فقال لها إن هناك شياطين كثر لإشباع جهنمها تلك. وصار يرضيها بين حين وآخر، ولكن في أوقات متباعدة ومرات قليلة؛ فكان ذلك مثل من يلقي حبة فول في فم أسد. وظنت هي أن روستيكو لم يعد يخدم الرب، وأسفت لذلك.

وحدث في تلك الأثناء، في قفصة، حريق كبير، مات فيه كل أفراد أسرتها، ولم يبق أحد سوى إليبيش كوريثة وحيدة. عندئذ عرف شاب يدعى نيربالي أنها لا تزال على قيد الحياة، فراح يبحث عنها ليتزوجها قبل أن يصادر القضاء كل ثروتها. وقد أثلج صدر روستيكو أن نيربالي أخذها معه إلى قفصة، وتزوج منها هناك، وورث معها الثروة الطائلة. وحين سألتها النساء (قبل أن ينام نيربالي معها) عن الطريقة التي خدمت بها الرب في الصحراء، أوضحت لهن أنها كانت تضع الشيطان في الجحيم، وأن نيربالي قد ارتكب خطيئة كبرى بانتزاعها من تلك المهمة. فسألنها عندئذ:

ـ وكيف يوضع الشيطان في جهنم؟..

فأوضحت لهن الشابة ذلك بالكلام والإشارات، مما أضحكهن كثيراً، حتى إنهن ما زلن يضحكن، وقلن لها:

ـ لا تقلقي يا بنية، فهذا ما يفعلونه هنا أيضاً، وعلى أحسن وجه، ولسوف يخدم نيربالي الرب معك جيداً في هذا الشأن.

وتناقلت الألسنة الخبر حتى انتشر في المدينة كلها، وشاع القول إنه لا توجد طريقة لخدمة الرب أفضل من إدخال الشيطان إلى جهنم. ولهذا، عليكن أنتن يا سيداتي الشابات أن تنلن نعمة الله، وتتعلمن إدخال الشيطان في جهنم، لأن في ذلك سعادة الرب، ومتعة الطرفين، ويمكن أن ينتج عنه خير وفير.

●●

أضحكت قصة ديونيو السيدات المحترمات؛ وحين رأت الملكة أنها بلغت نهاية ملكها، نزعت عن رأسها إكليل الغار، ووضعته على رأس فيلوستراتو قائلة:

ـ سنرى الآن إذا ما كان الذئب يحسن قيادة النعاج خيراً مما قادت النعاج الذئاب.

وما إن سمع فيلوستراتو هذه الكلمات، حتى قال ضاحكاً:

ـ لو أنكن تعملن بنصيحتي، لقامت الذئاب بتعليم النعاج طريقة إدخال الشيطان في جهنم، وليس بطريقة أسوأ مما فعله روستيكو مع أليبيش. وخير لكنّ ألا تدعوننا ذئاباً، لأنكن لم تكنَّ نعاجاً قط. ولكنني سأحكم هذه المملكة بالطريقة نفسها التي حُكمت بها قبل أن أُوَلى عليها.

وهنا ردت عليه نيفيله:

ـ اسمع يا فيلوستراتو، لو أنك أردت تعليمنا، لكان بإمكانك أن تتعلم مثلما تعلم ماسيتو من الراهبات.

أدرك فيلوستراتو أنه لن يستطيع إفحامهن، وأنهن سيجدن رداً على أي قول يقوله، فتوقف عن المزاح، وأولى اهتمامه إلى حكم المملكة التي عُهد بها إليه. فأمر باستدعاء القهرمان، وأراد أن يعرف منه وضع كل الأمور، ثم عرض بعد ذلك ما سيكون عليه الحال لإسعاد الجماعة خلال حكمه، وقال للسيدات:

ـ سيداتي اللطيفات، من سوء حظي أنني عانيت آلاماً كثيرة، لأنني كنت على الدوام مشدوداً بالحب إلى جمال واحدة من بنات جنسكن، ولم يفدني في شيء تواضعي وطاعتي وتعاوني سوى أن أجد نفسي أعاني الهجر، والتردي من سيئ إلى أسوأ. وأظن أنني سأظل على هذه الحال حتى الممات. ولهذا لا يرضيني أي موضوع آخر للحديث في الغد إلا بما

يتوافق مع حالتي، وهذا يعني الحديث عن أولئك الذين وصلت غرامياتهم إلى نهاية تعسة، لأنني أنا نفسي لم أعد أنتظر إلا نهاية بالغة التعاسة، وليس عبثاً أن الاسم الذي تنادونني به، وأنتن تعرفن ما يعنيه، قد أُطلق عليّ. لأن من أسماني كان يعرف ما الذي يفعله.

بعد قوله هذا، نهض واقفاً ومنح الجميع الإذن بعمل ما يشاؤون حتى موعد العشاء.

كانت الحديقة جميلة وبديعة، فلم يشأ أي منهم الخروج منها والذهاب إلى مكان آخر؛ ولم تكن الشمس التي مالت للغروب تسبب أي إزعاج، فراح البعض يلهو بمطاردة الحملان والأرانب وغيرها من الحيوانات الموجودة في الحديقة، والتي كانت تتقافز بينهم أثناء جلوسهم. وبدأ ديونيو وفياميتا بغناء أغنيات عن السيد جوليلمو والسيدة فيرجيل. واستغرقت فيلوميتا في لعب الشطرنج مع بانفيلو. وظلوا على هذه الحال، بعضهم يلهو هنا وبعضهم هناك، إلى أن حلّ موعد العشاء؛ فرُتبت الموائد حول نافورة جميلة، وتناولوا عشاءهم هناك بمتعة وشهية مع بداية الليل. ولم يخرج فيلوستراتو عن الطريق الذي سلكته ملكات الأيام السابقة؛ فبعد رفع الموائد، أمر لوريتا أن ترقص وتغني أغنية، فقالت:

ـ لستُ أعرف يا مولاي أغنيات تناسب اجتماعنا السعيد؛ فإذا رضيتم بما أعرفه من أغنيات، فسوف أغنيها بكل سرور.

فقال لها الملك:

ـ لا يمكن لأي شيء منك إلا أن يكون جميلاً وممتعاً؛ فغنِ لنا مما تعرفين.

وبدأت لوريتا الغناء بصوت رقيق، ونبرة حزينة، يرافقها الآخرون بهذه الأغنية:

لا وجود لمحزونة
تشكو بمثل كآبتي،
وتتنهد بمثل أساي في حبي.

فمن يحرك السماء والنجوم كلها
شكّلني على هواه
جميلة، جذابة، لطيفة، حسناء،
لأكون هنا، في الأسفل، لذوي العقل

علامة ودليلاً على جماله غير المرئي.
لكن الضعف البشري الفاني،
سيئ التقدير،
لم يعرف قيمتي؛ فأجدني مزدراة.

هناك من أحبني، بمحض إرادته،
أخذني فتية، وبذراعيه
ضمني إلى صدره وحمايته،
انبهرت عيناه بنور عينيّ.
وأمضى الوقت ـ والوقت متهرب، يطير مسرعاً ـ
في التغزل والاحتفاء بي،
ولأنني مهذبة،
تلقيته سيداً لي.
لكنني، آه لحالي! حُرمت اليوم من ذلك الحب.

جاءني بعدها شاب قاس،
يتصنع النبل والكرم،
فكنت أسيرة له، لكن المخادع الكبير،
تحول اليوم إلى غيور،
فجزعت وتحسرت، حين أدركت متأخرة
حقيقة أنني جئت إلى هذه الدنيا
لخير كثيرين، وليس لواحد يقتنيني.

ألعن سوء طالعي،
لأنني من أجل تبديل لبوسي
قلت «نعم».
فترينني جميلة وسعيدة من الخارج

لكنني أجرجر حياة قاسية في أعماقي.
دون أن أنعم بالشرف.
فآهٍ أيتها اللذة المؤلمة،
لكم تمنيت الموت قبل أن أعرفك.
آه أيها الوجه الحبيب، يا من كنت أولاً
ومعك عرفت السعادة أكثر من الجميع.
أنت الآن في السماء، أمامه..
أمام الخالق الحقيقي،
فانظر إليّ بعين رحمتك
لأنني لم أستطع نسيانك
وأنا مع الآخرين؛
فاجعل لهيب حبك يتأجج في، أنا المتلهفة،
وتوسل إلى الخالق أن يرفعني إلى جوارك.

أنهت لوريتا أغنيتها، وسمعها الجميع، وفهمها كل منهم على هواه. فكان منهم من فهمها على طريقة أبناء ميلانو، بأن خنزيراً سميناً هو أفضل من شابة جميلة؛ وكان آخرون أكثر سمواً في فهمهم، وهو ما لا يناسبنا ذكره الآن. وبعد الأغنية، أمر الملك بإشعال شموع مزدوجة على العشب وبين الأزهار، وطلب غناء أغنيات أخرى إلى أن تقدم الليل كثيراً، وبدا له أن الوقت قد حان للنوم؛ فتمنى لهم أحلاماً سعيدة، وأمر كل واحد بالذهاب إلى حجرته.

وهنا ينتهي اليوم الثالث

اليوم الرابع

ينتهي اليوم الثالث من الديكاميرون، ويبدأ اليوم الرابع، ويدور الحديث فيه، تحت حكم الملك فيلوستراتو، عن الغراميات ذات النهايات التعسة.

سيداتي العزيزات، سواء من خلال كلام الرجال الحكماء، أو من خلال الأشياء الكثيرة التي رأيتها وسمعت عنها، كنت أقدّر أن ريح الحسد المندفعة والحارقة لا تصفع إلا الأبراج العالية أو قمم الأشجار الشامخة. ولكنني أجد نفسي مخطئاً في رأيي؛ فأنا الذي هربت، وسعيت جاهداً على الدوام للهرب من أمام الاندفاع الضاري لتلك الروح المسعورة، ليس في السهول وحدها، وإنما كذلك في بطون الأودية العميقة كنت أمضي صامتاً ومتخفياً. وهو ما يمكن أن يبدو جلياً لمن يقرأ هذه القصص، المكتوبة بالفلورنسية العامية وحدها، وبلغة النثر، ودون عناوين، وبهذا الأسلوب العادي المتواضع والمحايد قدر ما استطعت. ولكن ذلك كله لم يحل دون تعرضي لهجمة ضارية «بل لما يشبه الاجتثاث» من جانب تلك الريح الهوجاء، ولم يحل دون أن يمزقني العض بأنياب الحسد. فاستطعت أن أدرك بجلاء صحة ما اعتاد أن يقوله الحكماء من أن البؤس وحده هو الذي ينجو من الحسد في هذا العالم.

لقد كان هناك، يا سيداتي الرصينات، بعض من قرأ هذه القصص، وقال إنني معجب بكنّ أشد الإعجاب، وإنه ليس من الشرف أن أهتم كل هذا الاهتمام في إرضائكن والتسرية عنكن، أو في ما هو أسوأ من ذلك كما قال بعضهم: امتداحكن مثلما أفعل. وهناك آخرون، أرادوا الظهور بأنهم أعمق تأملاً وتفكيراً، فقالوا إن سني لم تعد مناسبة لمثل هذه الأمور؛ ويعنون بذلك التحدث عن النساء وإرضائهن. وأبدى كثيرون

قلقهم الشديد على سمعتي، فقالوا إنني سأحسن صنعاً لو التفتُ إلى ربات الشعر في البرناس بدل هذه الثرثرة معكن. وهناك من كان الغيظ في كلامهم أكبر من الحكمة، فقالوا إن التفكير السليم يستدعي مني أن أسعى إلى كسب لقمة عيشي، وليس محاولة القبض على الريح بالسير وراء هذه الترهات. وقال آخرون إن الأمور جرت في الواقع بصورة مختلفة عما أقصه عليكن، وعكفوا جاهدين على إثبات ذلك. وهكذا أجد نفسي يا سيداتي المحترمات، مضطراً إلى تحمل مثل هذه الهبّات، وكل تلك الأنياب المريعة، مادمت أعمل مناضلاً في خدمتكن. وسأظل أتعرض ما دمت حياً للجلد والمضايقة، بل وللصلب أيضاً. ولكن الله يعلم أنني أسمع كل تلك الأمور بنفس هادئة ومطمئنة. ومع أن الدفاع عني هو واجب عليكن، إلا أنني لن أدخر جهداً في الرد رداً خفيفاً عندما يحين الوقت، كي أزيح كل هذه الأقوال عن مسمعي. ولا بد لي من عمل ذلك دون تأخير، لأن هؤلاء المنتقدين تكاثروا ولما أنجز ثلث عملي بعد، وأظن أنهم سيتكاثرون «حين لا يجدون رادعاً» بحيث يتمكنون، بجهد بسيط، من إغراقي قبل أن أصل إلى النهاية، وعندئذ لن تتمكن قواكن يا سيداتي، مهما عظمت، أن تقاوم وتصمد.

ولكنني قبل أن أبدأ الرد عليهم، يسعدني أن أروي لكنّ ما لا يمكن اعتباره قصة كاملة، وإنما هو جزء من قصة، كي لا يبدو الأمر كما لو أنني أريد حشر قصصي بين قصص جماعة الرواة الجديرة بالثناء؛ وكي يظهر من عدم اكتمالها أنها ليست واحدة من تلك القصص. فأتحدث إلى من ينتقدونني وأقول:

كان يعيش في مدينتنا، منذ زمن بعيد، مواطن يدعى فيليبو بالدوشي، رجل من أسرة وضيعة، لكنه ثري وبارع في الأمور التي يستدعيها وضعه. ويحب زوجته إلى حد الجنون، مثلما تحبه هي أيضاً، فكانا يعيشان حياة سعيدة وهانئة، لا يهتمان بشيء قدر اهتمامهما بأن يُسعد كل منهما الآخر. وحدث، مثلما يحدث للجميع، أن ماتت الزوجة الطيبة، وخلفت لزوجها فيليبو ابناً وحيداً أنجبته منه، لا يزيد عمره عن سنتين. وأصاب فيليبو من الأسى ما لم يصب أحداً فقد كائناً عزيزاً. وحين رأى أنه فقد رفيقته المحبوبة، قرر أن يهجر الدنيا نهائياً، ويكرس نفسه لخدمة الرب. فوهب كل ما يملكه ووزعه صدقات، وصعد من فوره إلى أعالي جبل سينريو، وأوى هناك مع ابنه في كوخ صغير، وعاش على الصدقات والمساعدات، يصلي ويتعبد ويصوم، محاولاً نسيان الشؤون الدنيوية؛

فكان لا يحدث ابنه إلا عن المجد الإلهي والحياة الأبدية، وعن الرب وقديسيه؛ ولا يعلمه شيئاً سوى الصلوات والتراتيل. وعاشا على تلك الحال سنوات عديدة، دون أن يسمح الأب لابنه بالخروج من الكوخ أو التحدث في غير الأمور الإلهية، أو رؤية شيء آخر سواها.

وكان من عادة الرجل الطيب المجيء بين حين وآخر إلى فلورنسا، ليجمع الصدقات التي يحتاج إليها من محبي الله، ثم يرجع إلى كوخه. وحدث في أحد الأيام، عندما صار عمر الابن ثمانية عشر عاماً، وصار فيليبو شيخاً عجوزاً، أن سأل الابن أباه إلى أين يذهب. وبعد أن أخبره فيليبو بأمر ذهابه إلى مكان يسمى فلورنسا، قال له الفتى:

ـ أبتاه، لقد صرتَ عجوزاً، وأنت تتعب كثيراً، فلماذا لا تأخذني معك يوماً إلى فلورنسا كي أتعرف على أصدقاء الله وأصدقائك هناك، فأذهب بعد ذلك أنا الشاب القوي إلى فلورنسا لقضاء حاجاتك عندما تشاء؟..

قدر الرجل الطيب أن ابنه صار في سن مناسبة، وهو حسن التربية ومعتاد على خدمة الرب، بحيث يصعب أن تجتذبه أشياء الدنيا. فقال له: لقد أحسنت القول.

وعندما حان موعد ذهابه، أخذه معه. وذهل الفتى برؤية الأبنية والقصور والكنائس، وراح يسأل أباه عن تلك الأشياء وأسمائها. وكان الأب يجيبه، لكن الفتى واصل السؤال بإلحاح. وفي أثناء ذلك التقيا جماعة من الفتيات الجميلات، واستفسر الفتى عن ذلك الشيء. فقال له الأب:

ـ غض بصرك يا بني، ولا تنظر إلى هذا الشيء لأنه خبيث.

فألح الابن:

ـ ولكن ما اسمه؟..

وكي لا يوقظ الأب أية رغبات شهوانية غير ملائمة في الفتى، لم يشأ ذكر اسمهن الحقيقي، أي «نساء»، بل قال له:

ـ اسمه إوز.

تعجب الفتى مما سمعه. ولم يعد ذاك الذي لم ير في حياته واحدة منهن، يبدي أي اهتمام بالقصور، أو بالجواميس، أو الخيول، أو الحمير، أو النقود، أو أي شيء آخر مما

يراه، وقال فجأة:

ـ أرجوك يا أبي أن تحاول إحضار إوزة من هذا الإوز لي!

فقال الأب:

ـ اصمت يا بني، إنه شيء خبيث.

عندئذ سأله الابن مجدداً:

ـ أهكذا هي الأشياء الخبيثة؟..

ـ أجل ـ أجاب الأب.

فقال الابن عندئذ:

ـ لا أدري لماذا تقول إنه شيء خبيث، فأنا لم أر ما هو أجمل من هذا الشيء. بل إنه أجمل من أولئك الملائكة المرسومين الذين أريتني إياهم. أرجوك أن توافق على أخذ واحدة من هذا الإوز معنا إلى الجبل، وأنا بنفسي سأتولى أخذها للرعي.

فقال الأب:

ـ لا أريد ذلك، فأنت لا تعرف أين يرعى هذا الإوز.

أدرك الأب أن الطبيعة أقوى من الذكاء، وأن الغرائز تغلب الوعظ، وندم لأنه جاء بابنه إلى فلورنسا. ولكنني بعد أن وصلت إلى هذا الحد في رواية القصة، أكتفي بهذا القدر منها، وأتوجه إلى من رويتها لهم.

يقول بعض من ينتقدونني، يا سيداتي الشابات، إنني أسيء التصرف عندما أسعى جاهداً لإسعادكن، وإنني شديد الإعجاب بكنّ. وهما أمران أعترف بهما صراحة؛ وأعني إعجابي بكن، وسعيي لإسعادكن. ولكنني أسأل أولئك المنتقدين إذا كانوا يستهجنون هذا، مع الافتراض بأنني لم أعرف القبلات المحبة، والمعانقات الممتعة، واللقاءات اللذيذة معكن يا سيداتي المحببات، وإنما رأيت وأرى فقط أساليبكن وعاداتكن الرقيقة، ومحاسنكن الفاتنة، ورشاقتكن الأنيقة، وفوق كل هذا عفتكن النبيلة؛ فماذا سيقولون بذلك الفتى الذي عاش حياة التوحد والوحشة، في جنبات كوخ لا يرافقه فيه أحد سوى أبيه، وما إن رآكن، حتى لم يعد يرغب في شيء سواكن، ولم يعد يريد أن يتبع أحداً غيركن.

أيؤنبني هؤلاء، ويعظونني، ويعاقبونني وأنا الذي خَلَقَتْ السماءُ جسدَه مؤهلاً لحبكن؛ ومن كرستُ لكنَّ روحي منذ نعومة أظفاري وإحساسي بقوة النور في عيونكن، وبعذوبة كلامكن الرقيق، وباللهب المستعر في تنهداتكن المشفقة؛ فإذا ما أُعجبتُ بكن، وسعيتُ جاهداً لنيل إعجابكن؛ فإنني أضع في اعتباري، بصورة خاصة، أنكن استثرتن إعجاب ناسك، فتى بلا مشاعر، أشبه بحيوان بري. الحقيقة أن من لا يحبكن، ولا يرغب في أن يكون محبوباً من جانبكن، هو شخص لا يحس بالملذات ولا بفضيلة المشاعر الطبيعية؛ ولهذا لا يهمني أمره بأي حال. أما من يتكلمون عن سني فإنهم يؤكدون جهلهم بأن بياض رأس الكراث لا يعني أن أوراقه ليست خضراء. ولكنني أترك المزاح جانباً، وأرد عليهم بأنني لن أشعر بالخجل حتى آخر يوم في حياتي، لأني أسعى إلى إسعاد أولئك اللواتي كرمهن الشاعران جيدو كافالكانتي ودانتي أليجيري وهما عجوزان، وكذلك السيد جينو دي بيستويا وهو عجوز وهرم جداً، وسعوا لإمتاعهن. ولولا أنني لا أريد أن أبتعد عن موضوع الحديث، لأخرجت من التاريخ قصص رجال مسنين ولامعين، سعوا جاهدين في سنواتهم الأخيرة لإسعاد السيدات، ومن لا يعرفون ذلك فليذهبوا ويتعلموا. أما من يطلبون مني البقاء إلى جانب ربات الشعر في البرناس، فإنني أقول لهم إن نصيحتهم جيدة؛ ولكننا لا نستطيع البقاء طوال الوقت مع ربات الإلهام، مثلما لا يستطعن هنّ البقاء معنا. وإذا ما ابتعد الرجل عنهن، فليس من اللائق تأنيبه لأنه يسعد برؤية شبيهات لهن؛ فربات الشعر إناث أيضاً، ومع أن النساء لا ينفعن في ما تنفع فيه ربات الشعر، إلا أنهن متشابهات في المظهر، وحتى لو لم يكنّ محط إعجابي لأسباب أخرى، فلا بد من الإعجاب بهن لهذا السبب؛ دون ذكر أن النساء كنّ المناسبة التي أتاحت لي نظم ألف بيت من الشعر، بينما لم تمثل لي ربات الشعر أي مناسبة، وإن كنّ قد ساعدنني وكشفن لي كيف أنظم تلك الأبيات؛ وربما جئن إليّ في بعض الأحيان أيضاً، كي أكتب هذه القصص التي أكتبها، بالرغم من بؤسها، تكريماً للتشابه بينهن وبين النساء. ولهذا أجد أني لم ابتعد، وأنا أكتب هذه الأشياء، لا عن البرناس ولا عن ربات الإلهام، وإن كان كثيرون يعتقدون غير ذلك.

ولكن، ماذا نقول لأولئك الذين يشفقون على جوعي، وينصحونني بأن أسعى وراء لقمة عيشي؟.. الحقيقة أنني لا أعرف. ولكنني أريد أن أخمن كيف سيكون ردهم إذا ما اضطرتني الحاجة إلى طلب الخبز منهم، وأظن أنهم سيقولون: «اذهب وابحث عنه في

أساطيرك!». لقد وجده الشعراء في أساطيرهم أكثر بكثير مما وجده الأغنياء في كنوزهم، وقد أزهرت أعمار كثيرين ممن اقتفوا أثر أساطيرهم، بينما مات بالمقابل، دون نضج، كثيرون ممن بحثوا عما يزيد عن حاجتهم من الخبز. ماذا يمكنني أن أقول أكثر من هذا؟.. فليطردني هؤلاء شر طرد عندما أطلب العون منهم، مع أنني ـ بفضل الله ـ غير محتاج إلى عون أحد. أما إذا حدث وأثقلت عليّ الحاجة، فإنني أعرف، كما بولس الرسول، كيف أعيش في الوفرة مثلما أعرف كيف أتحمل معاناة البؤس؛ ولهذا لا أريد لأحد سواي أن يهتم بأمر معيشتي.

أما من يقولون بعدم صحة قصصي، وبأن وقائعها لم تكن على هذا النحو الذي أرويه، فإنني أرغب إليهم أن يجدوا لي أصولها المخالفة لما كتبته كي أتأكد من التهمة، وعندئذ سأعترف بصحة دعواهم، وسأسعى إلى إصلاح نفسي. ولكن طالما لم يثبتوا أي شيء، واقتصروا على الكلام، فإنني أتركهم على رأيهم، وأظل على رأيي، وأقول عنهم ما يقولونه عني. والآن، أظن أنني قد رددت بما يكفي في هذه المرة؛ وسوف أواصل المضي قدماً، مسلحاً بعون الله وعونكن يا سيداتي العزيزات، وموليا ظهري لتلك الريح لتهب مثلما تشاء، لأني أرى أن ما قد يحدث لي لن يتجاوز ما يحدث للغبار الناعم، فهو إما أن يبقى ثابتاً على الأرض عندما تهب الريح، أو أنها تحركه فيرتفع إلى أعلى، أعلى من رؤوس البشر، ومن تيجان الملوك والأباطرة؛ بل إنه يرتفع في بعض الأحيان فوق القصور العالية، والأبراج السامية ويحط عليها؛ وإذا ما سقط عنها، فإنه لن ينزل إلى ما هو أدنى من المكان الذي حملته الريح منه.

وإذا كنت قد كرست ذات مرة قواي كلها لإسعادكن في أمر، فإنني الآن أكثر تصميماً على ما أردت؛ لأني أعرف أنه لا يمكن لأحد أن يتهمني صادقاً بأي شيء، إلا بأنني أنا والآخرون نحبكن، ونحن بهذا نستجيب لقوانين الطبيعة. أما معارضة الطبيعة وقوانينها فتتطلب قوة كبيرة، وأنا أعترف بأنني لا أمتلك مثل تلك القوة، ولا أرغب في امتلاكها. ولو قيض لي أن أمتلكها، لاستخدمتها في مصلحتي بدل أن أقدمها لآخرين. فليصمت المعيبون، وإذا كانوا غير قادرين على التحمية، فليعيشوا متجمدين، وليظلوا على متعهم «أو بالأصح شهواتهم الفاسدة» مقيمين، وليتركوني بسلام بما هو لي في هذه الحياة القصيرة الممنوحة لنا.

ولكن، علينا الآن أن نعود إلى شأننا، فقد تكلمنا وابتعدنا كثيراً يا سيداتي الجميلات عما بدأنا به.

كانت الشمس قد أزاحت النجومَ كلها من السماء، وشتت شمل ظلمة الليل الرطبة عن الأرض، عندما استيقظ فيلوستراتو وأيقظ الجميع، فخرجوا إلى الحديقة الغناء ليتجولوا في جنباتها. وعندما حان موعد الغداء، جلسوا لتناول الطعام في المكان نفسه الذي تناولوا فيه العشاء في الليلة السابقة. ثم ذهبوا لنوم القيلولة عندما صارت الشمس ذروة حدتها، واستيقظوا كعادتهم عند الأصيل، ليجتمعوا حول النافورة البديعة. وعندئذ توجه فيلوستراتو إلى فياميتا وأمرها بأن تبدأ القصص، فلم تنتظر أن يكرر الطلب منها، وبدأت الكلام برصانة:



القصة الأولى

تانكريدو، أمير ساليرنو، يقتل عشيق ابنته، ويقدم لها قلب حبيبها في كأس من الذهب. فتسكب فوقه شراباً ساماً، تشربه وتموت.

ـ موضوع قاس هذا الذي فرض علينا ملكنا الحديث فيه. وخاصة إذا فكرنا في أننا إنما جئنا إلى هنا لنرفه عن أنفسنا، لا للحديث عن دموع الغير، وهو ما لا يمكن الحديث عنه دون أن يشعر الراوي أو المستمعون بالحزن والشفقة. وربما عمد الملك إلى ذلك ليخفف من سعادة الأيام الماضية. ولكن، أياً كان السبب، سأروي لكم حادثة محزنة، تستحق منكم ذرف الدموع.

كان تانكريدو، أمير ساليرنو، سيداً عادلاً، لطخ يديه في نهاية حياته بدماءٍ عاشقة. فقد كانت له ابنة وحيدة، لو أنه لم ينجبها لكان أكثر سعادة. كان أبوها يحبها ويحنو عليها مثلما لم تحظ ابنةٌ من أبيها قط، حتى إنه لم يزوجها كي يبقيها قريبة منه، على الرغم من مرور سنوات على تجاوزها سن الزواج. ثم زوجها أخيراً لأحد أبناء دوق كابوا، لكنها سرعان ما ترملت وعادت إلى أبيها. وكانت شابة جميلة، وذكية أكثر مما يناسب امرأة. وكان أبوها يحبها إلى حد لم يهتم معه بأمر تزويجها مرة أخرى، ولم يكن يليق بشرفها أن تطلب منه ذلك، ففكرت في اتخاذ عشيق، في السر، إذا ما تمكنت من العثور على شخص جدير بها.

وكان في بلاط الأمير كثير من الرجال النبلاء وغير النبلاء، فدققت النظر في كل واحد منهم، وكان بينهم شاب هو وصيف أبيها الخاص، اسمه جيسكاردو، من أصل وضيع، ولكنه نبيل العادات والأخلاق؛ فأُغرمت به، ولاحظ الفتى ذلك، فتجاوب مع حبها حتى لم يعد يفكر في شيء سواها.

صار كل منهما يحب الآخر سراً، ولم تكن الفتاة ترغب في شيء أكثر من رغبتها في اللقاء به، لكنها لا تستطيع ائتمان أحد على سرها. ولكي تطلعه على حبها، دبرت

حيلة غريبة. فقد كتبت له رسالة تواعده فيها على اللقاء في اليوم التالي، وأرته إياها من بعيد، ثم دستها في قصبة؛ وقدمتها إلى جيسكاردو وهي تضحك قائلة:

ـ يمكنك أن تصنع من هذه القصبة منفاخاً يستخدمه خادمك في إذكاء نار الموقد.

أخذ جيسكاردو القصبة، وتفحصها في بيته حتى عثر على الرسالة. فقرأها، وفرح بذلك أشد الفرح، واستعد للقاء السيدة بالطريقة التي أشارت إليها في الرسالة.

كان هناك، إلى جانب قصر الأمير، كهف مظلم لا ينفذ إليه الضوء إلا من خلال فتحة في الصخر. وكانت تلك الفتحة شبه مسدودة بالعوسج والأعشاب البرية. ولا يمكن الوصول إلى الكهف إلا عبر درج يخرج من حجرة في القصر، تقيم فيها ابنة الأمير. وكان الباب المؤدي إلى الدرج مغلقاً ومنسياً، لم يستخدمه أحد منذ وقت طويل، ولكن الحب يوحي بكل شيء. وحصلت هي بكل تكتم على بعض الأدوات، وعالجت الباب حتى فتحته، فنزلت السلم، وعرفت الطريق إلى الكهف، ثم أشارت إلى جيسكاردو كيف يمكنه الوصول إلى الكهف عبر الفتحة الصخرية. فكان عليه أن يستعين بحبل فيه بعض العقد، ربطه إلى جذع شجرة ضخمة هناك، كي يتمكن من الدخول إلى الكهف والخروج منه. وارتدى فوق ذلك رداء من الجلد يحميه من الشوك والعوسج.

ومن جهتها، صرفت الشابة وصيفاتها بحجة أنها تريد النوم؛ ثم نزلت الأدراج، ووصلت إلى الكهف. وهناك التقيا وتعانقا ثم اقتادته إلى مخدعها عبر الدرج وقضيا معاً شطراً كبيراً من ذلك اليوم في سعادة ومتعة. وبعد أن وضعا نظاماً متكتماً لغرامياتهما كي تظل سرية، رجع جيسكاردو إلى الكهف، وأغلقت هي بوابة الدهليز، وخرجت إلى وصيفاتها.

انتظر جيسكاردو في الكهف إلى أن حلّ الليل، فصعد مستعيناً بالحبل وغادر الكهف مثلما نزل إليه. وبعد أن تعلم هذا الطريق، تكررت لقاءاتهما، وظلا على تلك الحال لوقت طويل. ولكن الحظ لم يحالفهما، إذ حوّل سعادتهما إلى حزن وبكاء مرير. فقد كان الأمير تانكريدو معتاداً على الدخول إلى مخدع ابنته بين حين وآخر، ليتبادل معها الحديث لبعض الوقت. وفي أحد الأيام، نزل الأمير هناك بعد الغداء، فوجد جيسموندا، وهذا هو اسم الشابة، تلهو في حديقة جناحها مع وصيفاتها، ولأن أحداً لم يره أو يسمعه، ولأنه لم يشأ انتزاعها من لهوها، وكانت نوافذ الحجرة مغلقة وستائر السرير مسدلة، فقد جلس هناك على طنفسة، وأسند رأسه إلى حافة السرير، وغطى نفسه

بستارته كأنه يتعمد التخفي ليفاجئ ابنته، فغلبه النعاس وهو على تلك الحال. وبينما هو نائم، تركت جيسموندا وصيفاتها في الحديقة، ودخلت بصمت إلى مخدعها، وكانت قد طلبت من جيسكاردو ـ لسوء حظها ـ المجيء في ذلك اليوم؛ ففتحت له الباب دون أن تدري أن هناك أحداً في الغرفة. وذهبا معاً إلى الفراش كعادتهما وراحا يتبادلان المداعبات. وحدث أن استيقظ تانكريدو، فسمع ورأى ما كان يفعله جيسكاردو وابنته، فتألم أشد الألم، وأراد أن يصرخ بهما في أول الأمر، لكنه تمالك نفسه وقرر الانتقام بحذر أكبر، وبأقل قدر ممكن من الخزي.

بقي العاشقان معاً، دون أن يفطنا إلى وجود تانكريدو، إلى أن بدا لهما أن الوقت قد حان لمغادرة الغرفة. عندئذ انسل تانكريدو خارجاً بدوره من النافذة، ورجع إلى حجرته. وبأمر منه، ألقى رجلان القبض في الليل على جيسكاردو وهو يصعد من الكهف، واقتاداه إلى تانكريدو الذي قال له وهو يكاد يبكي:

ـ معاملتي لك يا جيسكاردو لا تستحق الإهانة التي ألحقتها بي والعار الذي رأيته اليوم بأم عيني.

فأجابه الشاب:

ـ الحب أقوى منك ومني يا مولاي.

أمر تانكريدو بحبسه هناك بكل سرية، وفرض حراسة مشددة عليه. وفي اليوم التالي، ذهب الأب لزيارة ابنته، وكانت تجهل ما جرى، فقال لها وهو يبكي:

ـ كنت أظن يا بنتي أنك عفيفة وشريفة. ولو أنني لم أر بعينيّ، لما صدقت أبداً أن لك عشيقاً. ولسوف يؤلمني هذا طوال البقية القليلة المتبقية لي في الحياة. وليتك اخترت رجلاً نبيلاً! لكنك لم تختاري من بين الجميع سوى جيسكاردو ذي الأصل الوضيع، الذي آويته منذ طفولته وربيته على سبيل الإحسان. لقد أمرتُ باعتقال جيسكاردو عند خروجه من الكهف ليلاً، وهو سجين الآن. وقد اتخذت قراراً بشأن ما سأفعله به. أما أنتِ، فإنني في يأس لا أدري معه ما الذي أفعله بك. فحبي لك يكبحني، ولكن الغضب يدفعني. أولهما يغفر لك، والآخر يدعوني لمعاقبتك. لكنني أريد سماع رأيك قبل أن أتخذ قراراً نهائياً.

أنهى كلامه وانخرط بالبكاء كطفل. وحين رأت الفتاة ركام الظروف غير المواتية،

بستارته كأنه يتعمد التخفي ليفاجئ ابنته، فغلبه النعاس وهو على تلك الحال. وبينما هو نائم، تركت جيسموندا وصيفاتها في الحديقة، ودخلت بصمت إلى مخدعها، وكانت قد طلبت من جيسكاردو ـ لسوء حظها ـ المجيء في ذلك اليوم؛ ففتحت له الباب دون أن تدري أن هناك أحداً في الغرفة. وذهبا معاً إلى الفراش كعادتهما وراحا يتبادلان المداعبات. وحدث أن استيقظ تانكريدو، فسمع ورأى ما كان يفعله جيسكاردو وابنته، فتألم أشد الألم، وأراد أن يصرخ بهما في أول الأمر، لكنه تمالك نفسه وقرر الانتقام بحذر أكبر، وبأقل قدر ممكن من الخزي.

بقي العاشقان معاً، دون أن يفطنا إلى وجود تانكريدو، إلى أن بدا لهما أن الوقت قد حان لمغادرة الغرفة. عندئذ انسل تانكريدو خارجاً بدوره من النافذة، ورجع إلى حجرته. وبأمر منه، ألقى رجلان القبض في الليل على جيسكاردو وهو يصعد من الكهف، واقتاداه إلى تانكريدو الذي قال له وهو يكاد يبكي:

ـ معاملتي لك يا جيسكاردو لا تستحق الإهانة التي ألحقتها بي والعار الذي رأيته اليوم بأم عيني.

فأجابه الشاب:

ـ الحب أقوى منك ومني يا مولاي.

أمر تانكريدو بحبسه هناك بكل سرية، وفرض حراسة مشددة عليه. وفي اليوم التالي، ذهب الأب لزيارة ابنته، وكانت تجهل ما جرى، فقال لها وهو يبكي:

ـ كنت أظن يا بنتي أنك عفيفة وشريفة. ولو أنني لم أر بعينيّ، لما صدقت أبداً أن لك عشيقاً. ولسوف يؤلمني هذا طوال البقية القليلة المتبقية لي في الحياة. وليتك اخترت رجلاً نبيلاً! لكنك لم تختاري من بين الجميع سوى جيسكاردو ذي الأصل الوضيع، الذي آويته منذ طفولته وربيته على سبيل الإحسان. لقد أمرتُ باعتقال جيسكاردو عند خروجه من الكهف ليلاً، وهو سجين الآن. وقد اتخذت قراراً بشأن ما سأفعله به. أما أنتِ، فإنني في يأس لا أدري معه ما الذي أفعله بك. فحبي لك يكبحني، ولكن الغضب يدفعني. أولهما يغفر لك، والآخر يدعوني لمعاقبتك. لكنني أريد سماع رأيك قبل أن أتخذ قراراً نهائياً.

أنهى كلامه وانخرط بالبكاء كطفل. وحين رأت الفتاة ركام الظروف غير المواتية،

اعترتها رغبة في البكاء، مثلما تفعل النساء عادة. لكنها سرعان ما تغلبت على ذلك الضعف؛ فأبدت ملامح الحزم، وقالت بلا اضطراب أو ارتباك:

ـ لن أنكر شيئاً مما تقوله يا تانكريدو، ولست مستعدة كذلك لتوسل المغفرة منك، ولكنني أعترف أمامك بالحقيقة. لقد أحببت جيسكاردو، وما زلت أحبه، وسأظل أحبه ما حييت. وإذا ما كان الحب بعد الموت ممكناً، فسوف أبقى على حبه بعد موتي أيضاً. لم يدفعني إلى هذا السلوك ضعفي الأنثوي، وإنما مزايا جيسكاردو وخصاله، وقلة اهتمامك بأن تزوجني مرة أخرى. ولا بد أنك تدرك يا تانكريدو أنك من لحم ودم، وقد أنجبت ابنة من لحم ودم، لا من حجر أو حديد. ولا بد أنك تتذكر، حتى وأنت شيخ هرم، كيف هي قوة قوانين الشباب. وأنا ما زلت في ريعان الشباب، ومازلتُ لهذا السبب ممتلئة بالعواطف والشهوات، ولاسيما أنني كنت متزوجة. لقد سعيت جاهدة كي لا أُلحق الإهانة بشرفك، لكن الحب دلني على طريقة لإشباع رغباتي، دون أن تدري أنت بذلك. ولم أختر جيسكاردو مصادفة، وإنما بعد تأمل وتفكير. ثم إنك تؤنبني بمرارة لأنني أخطأت مع رجل وضيع المكانة، ويبدو أنك ما كنت لتغضب لو أنني اخترت رجلاً نبيلاً. فلنترك كل هذا جانباً ولنعد إلى أصل الأشياء، وسنرى عندئذ أننا جميعنا خلقتنا يد الخالق نفسه. والفضيلة هي التي ميزت بعضنا عن بعض، فمن يعمل ويتصرف بفضيلة هو النبيل. وإذا ما راقبت حاشيتك من النبلاء، وقارنت بينهم وبين جيسكاردو، فسوف تجد أنه أنبل النبلاء، وأن الآخرين رعاع. وأنا لم أؤمن بفضيلة جيسكاردو وشجاعته بناء على آراء آخرين، وإنما استناداً إلى كلامك عنه، وإلى ما رأته عيناي منه. ولهذا لا يمكنك القول إنني اتفقت مع رجل وضيع المقام. أما إذا اعتبرته فقيراً، فالذنب ذنبك، لأنك لم تعرف أن تمنح خادماً جيداً ومخلصاً المكانة التي يستحقها. ومع ذلك، فإن الفقر لا يجرد أحداً من كرامته ونبله، لكنه يجرده من الممتلكات والمال. هناك ملوك وأمراء كثيرون كانوا فقراء، وآخرون كثيرون يعملون في حفر الأرض، وكانوا من قبل أغنياء. أما فيما يتعلق بي، فإذا أردت أن تكون قاسياً معي وأنت في هذه السن، فاستخدم قسوتك لأنني لا أريد التوسل إليك. ولكنني أنبهك إلى أنك إذا ما فعلت بجسكاردو ما تنوي فعله، ولم تفعل بي الشيء نفسه، فسوف أتولى فعل ذلك بيدي. فاذهب للبكاء مع النساء الآن، وانزل غضبك عليه وعليّ.

أدرك الأب عظمة ابنته، ولكنه لم يصدق أنها مستعدة لتنفيذ ما قالته. عندئذ

غادرها مظهراً أنه لن يتصرف معها بقسوة، وأمر الحارسين بأن يخنقا جيسكاردو. وينتزعا قلبه، ويأتياه به. ففعلا ما أمرهما به. وفي اليوم التالي، أمر الأب بأن يأتوه بكأس ذهبية، وضع فيها قلب جيسكاردو، ثم أمر خادماً يثق به بأن يحمل الكأس إلى ابنته، ويبلغها هذه الكلمات: «يبعث إليك أبوكِ بهذا ليرضيك، مثلما أرضيتِه أنتِ بأعز من تحبين».

لم تكن جيسموندا قد تخلت عما عزمت عليه، بل عمدت، عندما غادرها أبوها، إلى إحضار أعشاب وجذور سامة، فقطرتها وحولتها إلى مادة سائلة. وعندما جاءها الخادم بالهدية في الكأس، وأخبرها بكلمات الأمير، تناولت منه الكأس بكل هدوء. وحين رأت القلب، أدركت أنه قلب جيسكاردو. فقالت للخادم:

- لا يليق سوى الذهب مدفناً لمثل هذا القلب النبيل.

قالت ذلك، وقرّبت الكأس من فمها وقبّلته، ثم أضافت:

- لقد حظيت طيلة حياتي بحب أبي الحاني، ولكنني لم أجد نفسي ممتنة له مثلما أنا الآن، فأبلغه شكري الأخير له على هذه الهدية.

أعادت النظر إلى الكأس التي كانت تمسك بها بين يديها وتشدها بقوة، وقالت:

- آه يا ملاذ كل متعي! اللعنة على قسوة ذاك الذي جعل عينيّ وجهي تريانك في هذه الحال! لقد أكملتَ المسار الذي خطه لك القدر؛ وخلّفت وراءك بؤس هذه الدنيا وتعبها، وتلقيت من عدوك اللحد الذي استحققته، ولم يعد ينقصك لاكتمال المأتم اللائق سوى دموع من أحببتها. إليك أقدم هذه الدموع، مع أنني كنت مصممة على الموت بعينين جافتين، لتتحد روحي بعد ذلك بروحك.

وانحنت من فورها على الكأس، وراحت تبكي ساكبة فيه دموعها، ومقبّلة في الوقت نفسه القلب الخامد.

لم تدرك الوصيفات المحيطات بها ما الذي يعنيه ذلك القلب، لكنهن جميعهن بكين متأوهات وسألنها، دون جدوى، عن سبب بكائها. وعندما بدا لها أنها بكت وذرفت ما يكفي من الدموع، مسحت عينيها وقالت:

ـ آه أيها القلب الحبيب، لم يبق لي إلا أن أجعل روحي تنضم إلى روحك وتتحد بها.

قالت هذا ثم طلبت أن يأتوها بالإناء الذي أعدت فيه السائل في اليوم السابق، فسكبت ذلك الماء في الكأس التي تضم القلب المستحم بدموعها، ورفعته إلى فمها وشربت ما فيه، ثم استلقت على فراشها والكأس لا تزال في يدها، تضم إلى قلبها قلب حبيبها الميت. وانتظرت الموت دون أن تقول شيئاً.

حين رأت وصيفاتها تلك الأمور، أرسلن إلى تانكريدو يبلغنه. فخشي الأب مما يمكن أن يحدث، ونزل مسرعاً إلى مخدع ابنته، يريد مواساتها، ولكن الوقت كان قد فات. فراح يبكي بحرقة. عندئذ قالت له وهي تحتضر:

ـ وفر هذه الدموع لمناسبة أخرى، ولا تقدمها إليّ، فلستُ أريدها. أما إذا كانت لا تزال في قلبك بقية من حب، فامنحني جميلاً أخيراً بدفن جسدي إلى جانب جسده، أينما دفنته.

لم يتح له بكاؤه المغموم قدرة الرد عليها. وحين أحست هي بدنو أجلها، ضمت القلب الميت بشدة إلى صدرها، وقالت لأبيها:

ـ أستودعك الله، فأنا ذاهبة.

ثم غامت عيناها وفقدت كل إحساس، وفارقت الحياة.

هذه هي النهاية التعسة التي انتهى إليها حب جيسموندا وجيسكاردو. أما الأب، وبعد كثير من البكاء، ندم على قسوته، وأمر بأن يدفنا، بكل توقير، في مدفن واحد.

القصة الثانية

يقنع الأخ ألبرتو امرأةً بأن الملاك جبرائيل مغرم بها؛ ثم يتظاهر بأنه الملاك، وينام معها. ولخوفه من أقربائها، يهرب من بيتها ويلتجئ في بيت رجل فقير. فيأخذه هذا الرجل إلى الساحة العامة، متخفياً بزي فلاح؛ غير أن زملاءه الرهبان يتعرفون عليه، فيمسكون به ويحبسونه.

استثارت قصة فياميتا بكاء رفيقاتها عدة مرات؛ ولكنها عندما انتهت، قال الملك بصرامة:

ـ يبدو لي، يا سيداتي، أن تقديم حياتي سيكون ثمناً زهيداً مقابل نصف ما تمتع به جيسكاردو مع جيسموندا، ويجب ألا تستهجن أي منكن ذلك، فأنا أعاني في حياتي ألف ميتة كل ساعة، دون أن أتلقى أي شيء من المتعة. ولكن، لنترك أموري الخاصة جانباً الآن، لأني أريد أن تواصل بامبينيا الحديث عن مثل هذه الحالات القاسية، فإذا فعلت ذلك مثلما فعلته فياميتا، فلسوف أشعر دون ريب ببعض الندى يهطل على ناري المتأججة.

سمعت بامبينيا الأمر، فأدركت ما يتوجب عليها أن ترويه، بالنظر إلى حالة رفيقاتها المعنوية، وليس بالنظر إلى النبرة التي يضفيها الملك على كلماته، وقدرت أنه من الأفضل أن تروي ما يبهجهن، وقررت أن تقص عليهن قصة مضحكة، وبدأت كما يلي:

ـ من عادة عامة الشعب ترديد المثل الشائع: «الخاطئ الذي يظنه الناس طيباً، يمكنه اقتراف أسوأ الشرور دون أن يصدق أفعاله أحد». هذا المثل يقدم مادة وفيرة للحديث، كما أنه يدفعني إلى كشف نفاق رجال الدين الذين يمضون بمسوح طويلة سابغة، ووجوه يتصنعون شحوبها، ويتكلمون بأصوات وديعة متذللة عندما يريدون طلب شيء، وبأصوات عالية وفظة عندما يريدون تأنيب الآخرين على ما هم أنفسهم فيه من نقائص وعيوب، مؤكدين لهم أنهم حين يأخذون، وحين يدفع لهم الآخرون فإنهم يوفرون لهم النجاة والخلاص. وهم لا يتصرفون فوق ذلك على أنهم بشر، يتوجب عليهم العمل لكسب الفردوس مثلنا، وإنما باعتبارهم سادة الفردوس ومالكيه؛ يقدمون لكل من يموت، وفق كمية الأموال التي يخلّفها لهم، مكاناً على هذا القدر من الجودة أو ذاك في الفردوس؛ ويسعون جاهدين لخداع من يصدق كلامهم. ولكن، عسى أن يكشف الله كذبهم جميعاً، ويحدث لهم ما حدث لراهب صغير، ولكنه ليس شاباً بأي حال، وإنما من أولئك الذين كانوا يعتبرون قديسين في فينسيا. ويسعدني أن أحدثكم عنه، فربما ترتفع بذلك معنوياتكم المنهارة.

كان هناك في إيمولا، يا صديقاتي العزيزات، رجل فاسد يعيش حياة خبيثة، ويدعى بيرتو دي لامازا. كان كذوباً لا يصدقه الناس حتى عندما يقول الصدق. وحين رأى أنه لم يعد بإمكانه خداع أحد، قرر أن يغادر إيموﻻ وينتقل إلى فينسيا؛ وفكر هناك في البحث

عن طريقة أخرى لممارسة شروره. فتصنع الندم عن أفعاله، وأبدى الكثير من التذلل والمسكنة، وتحول إلى راهب صغير الشأن، متخذاً لنفسه اسم الأخ ألبرتو دي إيمولا. وتظاهر بأنه يعيش حياة تقشف صارمة، وراح ينصح بالتوبة والامتناع عن المعاصي. وهكذا، تحول فجأة من لص وقواد ومزيف وقاتل، إلى واعظ كبير يدعو إلى العادات الحميدة، دون أن يتخلى عن رذائله كلما أتيح له ممارستها سراً. بل إنه تحول فوق ذلك إلى كاهن، وكلما وجد نفسه أمام المذبح، وكان هناك حشد من الناس في القداس، يتصنع البكاء لآلام المسيح، خاصة أن الدموع تطاوعه كلما أرادها. وسرعان ما تمكن من خداع الفينسيين بمواعظه ودموعه، حتى صار كثيرون منهم يأتمنونه على أموالهم، ويعترف الرجال والنساء أمامه، ويطلبون النصح منه.

اتسعت شهرة قداسته في تلك النواحي حتى فاقت سمعة القديس فرانشيسكو دي أسيس. وحدث أن امرأة جميلة، لكنها غبية، تدعى ليسيتا دي كـ كيريني، زوجة تاجر غني مسافر في تجارة إلى الفلاندر، جاءت للاعتراف لدى هذا الكاهن. وقد عرف منها أنها فينسية، وهؤلاء أناس شهوانيون؛ فسألها عندما انتهت من الاعتراف عما إذا كان لها عشيق. فأبدت الاستياء وردت عليه:

- آه يا سيدي الكاهن، ألا توجد عينان في وجهك؟.. أوتظن أن جمالي ومفاتني هي مثل جمال ومفاتن الأخريات؟.. لو أنني شئت لكان لي عشاق كثيرون، ولكنني لست ممن يقبلن الوقوع في حب أي رجل. هل رأيت في حياتك جمالاً كجمالي؟.. ولسوف أظل جميلة حتى في الفردوس.

وظلت تتكلم عن جمالها إلى حد يثير سماعه السخط. فدفع ذلك الأخ ألبرتو إلى التفكير في أنه أمام امرأة حمقاء، لكنه وقع في غرامها فجأة. وكي لا يوقظ الشكوك، أنبها على تباهيها بنفسها. ففوجئت هي بذلك، وقالت له إنه بهيمة لا يستطيع التمييز بين جمال وآخر. وكي لا يزداد غضبها، سارع الأخ ألبرتو إلى مباركتها وصرفها. وبعد بضعة أيام، ذهب الراهب إلى بيت السيدة ليزيتا مع صديق يثق به، وانفرد بها في إحدى قاعات البيت، حيث لا يراه أحد، فركع أمامها وقال لها:

ـ سيدتي، جئت إليك متوسلاً الصفح، لأنني لم أستطع في يوم اعترافك أن أقدر جمالك حق قدره، وقد عوقبت بقسوة على ذلك في تلك الليلة، ولم أستطع النهوض من

الفراش حتى اليوم.

فقالت المغرورة:

ـ ومن الذي عاقبك هكذا؟..

وأجابها الأخ ألبرتو:

ـ سأخبرك بكل شيء. بينما كنت أصلي ليلاً، مثلما اعتدت أن أفعل، رأيت فجأة بريقاً عظيماً يسطع في حجرتي، وقبل أن أتمكن من الالتفات لرؤية ما يكون، وجدت فتى باهر الجمال ينقض عليّ وفي يده هراوة غليظة. أمسك بي من ثيابي وأنهضني، وراح يضربني بالهراوة إلى أن أشرفت على الموت. سألته لماذا فعل بي ذلك، فأجابني: «لأنك تجرأت اليوم على انتقاد المفاتن السماوية لمادونا ليزيتا التي أحبها، بعد الله، أكثر من أي شيء». فسألته عندئذ: «ومن تكون أنت؟..». فأجابني بأنه كبير الملائكة جبرائيل. فقلت له: «آه يا سيدي، أرجوك أن تغفر لي». فقال: «سأعفو عنك شريطة أن تذهب إليها فور تمكنك من ذلك، وتعتذر منها. وإذا لم تسامحك هي، فسوف أرجع إليك لأضربك ضرباً لن تنساه ما حييت». ولستُ أتجرأ على إخباركِ بما قاله لي بعد ذلك، إلا إذا أنت غفرتِ لي وسامحتني أولاً.

كانت السيدة ذات الرأس الفارغ، بالغة الحماقة، تستمتع بسماع ذلك الكلام، وتصدق كل شيء على أنه الحقيقة، فقالت له:

ـ لقد قلت لك أيها الأخ ألبرتو إن مفاتني سماوية؛ وقد أعانني الرب على إثبات ذلك. ولكنني أشفق عليك، وأسامحك إذا ما أخبرتني حقاً بكل ما قاله لك الملاك بعد ذلك.

عندئذ قال لها الأخ ألبرتو:

ـ بما أنني نلت مغفرتك يا سيدتي، فسوف أخبرك بكل سعادة. ولكنني أريد أن أذكرك بأمر واحد: أن تحافظي على كل ما أقوله لك سراً، ولا تخبري به أحداً في الدنيا، إذا كنت لا تريدين إفساد أمورك؛ فأنت أوفر النساء حظاً في هذا العالم. لقد طلب مني الملاك جبرائيل أن أخبرك بأنك تروقينه كثيراً، وقال لي إنه رغب مرات كثيرة في المجيء لقضاء الليل معك، لولا أنه يخشى أن يخيفك. وهو يخبرك الآن، عن طريقي، بأنه يريد أن يأتي في إحدى الليالي، ويقضي معك وقتاً طيباً؛ ولأنه ملاك ولا يمكن لك

لمسه وهو في هيئته الملائكية، فإنه يريد من أجل متعتك أن يجيء إليك على هيئة بشر. ويريد أن تخبريه متى تريدينه أن يأتي، وهيئة من يتخذ عندما يجيء، وسوف يفعل ذلك. وستكونين أسعد من أي امرأة أخرى في هذه الحياة.

فقالت «السيدة غبية» عندئذ إنها سعيدة جداً لكون الملاك جبرائيل مغرم بها، لأنها تحبه أيضاً، وتشعل له الشموع أحياناً. وقالت أيضاً إنها مستعدة لاستقباله بكل ترحيب عندما يأتي لزيارتها، وسوف يجدها وحيدة في مخدعها، على ألا يتركها بعد قليل ليذهب إلى مريم العذراء التي يحبها كثيراً كما قيل لها، وهي تظن ذلك أيضاً، لأنها تراه جاثياً أمامها في كل مكان يظهر فيه. وقالت أخيراً إنه يستطيع المجيء بأي هيئة يشاء، على ألا يسبب لها الخوف.

فقال لها الأخ ألبرتو عندئذ:

- إنك تتكلمين بحكمة يا سيدتي، ولسوف أخبره بكل ما قلتِه. ولكنني أرجو منك أن تقدمي لي جميلاً عظيماً لن يكلفك شيئاً: أن تطلبي منه المجيء بجسدي وباتخاذ هيئتي. واسمعي مني لماذا ستقدمين لي جميلاً بذلك: عندما يتخذ هيئتي سوف يُخرج روحي من جسدي ويضعها في الفردوس، وستبقى روحي في النعيم طوال الوقت الذي سيقضيه معك.

فقالت «السيدة بلاهة» عندئذ:

- أوافق على ذلك بطيب خاطر؛ وأريد أن أعوضك بذلك عن الضرب الذي تلقيته بسببي.

فأجابها:

- تدبري الأمر إذن كي يجد باب بيتك مفتوحاً الليلة ويتمكن من الدخول، لأنه سيأتي في جسد بشر، ولن يستطيع الدخول إلا من الباب.

أكدت المرأة أنها ستفعل ذلك. فغادرها الأخ ألبرتو، وظلت هي وحدها سعيدة، لا تتسع لها ثيابها من البهجة. وراحت تنتظر بفارغ الصبر مجيء الملاك جبرائيل. أما الأخ ألبرتو، فقد فكر في أنه سيكون فارساً في هذه الليلة وليس ملاكاً، فراح يتناول الحلوى وغيرها من الطيبات كي يقوي جسده ولا يزلّ بسهولة عن مطيته؛ ثم حصل بعد ذلك على إذن من رئيسه. وعندما حلّ الليل، ذهب مع رفيق له إلى بيت صديقة اعتاد الخروج منه في مرات

سابقة لامتطاء المهرات. وحين رأى أن الوقت صار مناسباً، ذهب من هناك متنكراً بجناحي ملاك إلى بيت ليزيتا، فدخله وصعد إلى الطابق العلوي، ودخل إلى حجرتها. وما إن رأت هي ذلك الشيء الأبيض حتى جثت راكعة أمامه، فباركها الملاك وأنهضها، ثم أشار لها أن تذهب إلى الفراش؛ ففعلت ذلك لأنها كانت تتحرق للانصياع له، ونام الملاك إلى جانب المرأة المؤمنة به.

كان الأخ ألبرتو رجلاً جميل الجسم وقوي البنية، وحين وجد نفسه مع مادونا ليزيتا الفتية المسترخية، ضاجعها بطريقة مختلفة عما يفعله زوجها، وحلق في تلك الليلة مرات كثيرة دون أجنحة. وحدثها أيضاً عن المجد السماوي، فكانت هي سعيدة جداً بذلك. وعند الفجر، تدبر أمر الخروج بأدوات تنكره، وعاد إلى رفيقه الذي كانت الصديقة صاحبة البيت قد نامت معه كي لا يشعر بالخوف. أما السيدة ليزيتا، فقد ذهبت بعد الغداء إلى الأخ ألبرتو، وأخبرته بزيارة الملاك جبرائيل لها، وبحديثه إليها عن المجد السماوي والحياة الأبدية، مضيفة إلى ذلك كله بعض الغرائب من اختراعها. فقال لها الأخ ألبرتو:

- أنا لا أعرف كيف تفاهمتِ معه يا سيدتي؛ ولكن ما أعرفه هو أنه عندما رآني وأخبرته بما طلبتِه مني، حمل روحي فجأة إلى مكان بديع، تملؤه ورود وأزهار لم أر هنا مثلها قط، وظللت في ذلك المكان الرائع حتى الصباح. أما جسدي فلست أدري ما حدث له.

فقالت السيدة:

- أولم أخبرك؟.. لقد كان جسدك طوال الليل بين ذراعي مع الملاك جبرائيل، وإذا لم تصدقني، فانظر تحت ثديك الأيسر، فقد قبّلتُ الملاك قبلة عظيمة في ذلك الموضع، لا بد أن أثرها سيبقى عدة أيام.

عندئذ قال الأخ ألبرتو:

- سأفعل اليوم شيئاً لم أفعله منذ زمن بعيد، سأتعرى فيما بعد لأتأكد من صحة ما تقولين.

وبعد حديث طويل، رجعت المرأة إلى بيتها الذي صار الأخ ألبرتو يتردد عليه بكثرة على أنه الملاك جبرائيل، دون أن يواجه أية عقبات. ولكن، حدث ذات يوم أن كانت دونا ليزيتا

مع إحدى صديقاتها، وتبادلتا الحديث عن الجمال. وكي تبرز جمالها على أي جمال آخر، قالت:

ـ لو أنك تعرفين من هو المعجب بجمالي لما تحدثتِ بكلمة عن الأخريات.

فأرادت الصديقة، وكانت تعرفها جيداً، أن تسمع منها المزيد، فقالت لها:

ـ ربما كان ما تقولينه صحيحاً، ولكن لا يمكن لأحد تصديق ذلك بسهولة ما لم يعرف من يكون المعني.

عند ذلك قالت المرأة قليلة العقل:

ـ يجب ألا أتحدث عن ذلك أيتها الصديقة. ولكن الملاك جبرائيل هو من يحبني أكثر مما يحب نفسه، لأنني كما يقول، أجمل امرأة وجدت في البر والبحر.

أحست الصديقة عندئذ برغبة جامحة في الضحك، لكنها كبحت نفسها لتدفعها إلى مزيد من الكلام، وقالت لها:

ـ الحقيقة يا صديقتي أنه إذا كان الملاك جبرائيل هو من يحبك، ويقول لك هذا الكلام، فلا بد أن يكون الأمر صحيحاً. ولكنني لم أكن أظن أن الملائكة يفعلون هذه الأشياء.

فردت عليها ليزيتا:

ـ أقسم بقروح المسيح إنك مخطئة يا صديقتي؛ فهو يفعل ذلك أفضل من زوجي، ويقول إنهم يفعلونه أيضاً هناك في الأعالي. لكنه أحبني لأنه يراني أجمل من أي واحدة ممن في السماء، وهو يتردد عليّ بكثرة؛ فهل فهمتِ الآن؟..

وما إن غادرت الصديقة بيت ليزيتا، حتى بدأت تتحرق للوصول إلى مكان تستطيع أن تروي فيه تلك الأمور. والتقت في حفلة مع جماعة كبيرة من النساء، وراحت تروي لهن القصة بكل تفاصيلها. ونقلت النسوة الخبر إلى أزواجهن وإلى نساء أخريات، وهؤلاء بدورهن لأخريات؛ فكانت فينسيا كلها، في أقل من يومين، قد عرفت الخبر. وكان إخوة زوج ليزيتا بين من بلغ الخبر مسامعهم، فقرروا، دون أن يقولوا لها شيئاً، أن يقبضوا على ذلك الملاك ليروا إن كان قادراً على الطيران. وظلوا ليالي عديدة يتربصون به. وحدث أن شيئاً من هذه الأخبار بلغ مسامع الأخ ألبرتو، فذهب ذات ليلة ليؤنب المرأة. ولم يكد

يخلع ثيابه حتى كان إخوة زوجها الذين رأوه قادماً، قد صاروا عند باب الحجرة يريدون فتحه. وحين سمع الأخ ألبرتو ذلك، عرف حقيقة ما يحدث، فنهض ولم يجد أي ملجأ. ففتح نافذة تطل على القناة الكبرى، وألقى بنفسه من هناك إلى الماء. وكان عمق الماء كافياً، كما أنه كان يحسن السباحة جيداً، فلم يُصب بأي أذى. وسبح حتى الجانب الآخر من القناة، ودخل بسرعة إلى بيت وجده مفتوحاً هناك، وتوسل إلى رجل طيب كان في البيت أن ينقذ حياته، حباً بالرب. واختلق حكاية خيالية عن سبب وجوده عارياً هناك في مثل هذا الوقت. أشفق الرجل الطيب عليه، لكنه كان مضطراً إلى الخروج لقضاء بعض شؤونه الخاصة، فوضعه في سريره وقال له إن عليه أن يبقى هناك حتى عودته، ثم أوصد عليه الباب ومضى إلى أعماله. وحين دخل إخوة زوج السيدة إلى مخدعها، وجدوا أن الملاك جبرائيل قد طار، لكنه ترك جناحيه هناك، فأحسوا بأنهم قد تعرضوا للسخرية. وتوجهوا إلى المرأة بالكثير من السباب والعبارات المهينة، ثم تركوها أخيراً في حالة يرثى لها، وعادوا إلى بيتهم بمعدات الملاك.

وفي أثناء ذلك، طلع الصباح. وبينما الرجل الطيب في ريالتو، سمع كيف أن الملاك جبرائيل قد ذهب في الليل ليضاجع مادونا ليزيتا، وكيف دفعه الخوف إلى أن يلقي بنفسه إلى القناة حين اكتشف أمره إخوة زوجها، ولم يُعرف ما الذي حلّ به. وسرعان ما خمن الرجل الطيب بأن الشخص الموجود في بيته هو المعني؛ فرجع إليه وتعرف عليه، ثم توصلا بعد حديث طويل إلى الاتفاق على أن يعطيه خمسين دوقية إذا كان لا يريد أن يسلمه إلى إخوة زوج المرأة؛ فأعطاه إياها. وعندما أراد الراهب أن ينصرف، قال له الرجل الطيب:

ـ لا توجد إلا طريقة واحدة لخروجك من هنا. فنحن نقيم اليوم حفلة، يأخذ فيها البعض معهم رجلاً متنكراً بهيئة دب، ويأخذ آخرون رجلاً متنكراً بهيئة إنسان متوحش. وتقام حفلة صيد في ساحة القديس ماركوس، وبانتهاء حفلة الصيد ينتهي الاحتفال، ويذهب كل امرئ مع من جاء به متنكراً إلى حيث يشاء. فإذا أنت أردت، قبل أن يُكتشف أمر وجودك هنا، يمكنني أن آخذك معي بواحدة من هاتين الهيئتين، ثم أوصلك بعد ذلك إلى حيث تشاء. ولست أرى طريقة أخرى يمكنك الخروج بها دون أن يُكتشف أمرك، لأن إخوة زوج المرأة يعتقدون أنك مختبئ في أحد الأمكنة هنا، وقد نشروا حراساً في كل مكان للقبض عليك.

بدا للأخ ألبرتو أن خروجه متنكراً بتلك الطريقة سيكون قاسياً عليه، لكن الخوف

من أقرباء المرأة دفعه إلى الموافقة، وأخبر الآخر بالمكان الذي يريد أن يوصله إليه. وهكذا عمد هذا إلى دهن جسم الأخ ألبرتو كله بالعسل، ثم غطاه تماماً بريش الطيور، ووضع سلسلة حول عنقه، وقناعاً على وجهه، وجعله يمسك بإحدى يديه عكازاً كبيراً، وباليد الأخرى كلبين ضخمين جاء بهما من المسلخ. وأرسل شخصاً إلى ريالتو لينادي بين الناس بأن من يرغب في رؤية الملاك جبرائيل، فليذهب إلى ميدان القديس ماركوس. وكان ذلك هو الوفاء الفينيسي.

وبعد قليل من ذلك، أخرجه خارجاً ودفعه أمامه. ومشى هو وراءه ممسكاً به من السلسلة التي تحيط بعنقه، فاجتمع حشد كبير، وكان الجميع يقولون بفضول: «ما هذا؟.. ومن يكون؟..»، فاقتاده إلى الميدان، واجتمع هناك من جاؤوا خلفه ومن استجابوا لدعوات المنادي وأتوا من ريالتو؛ فكان هناك حشد عظيم من الناس. وفي مكان بارز ومرتفع، ربط رجله المتوحش إلى عمود، متظاهراً بأنه ينتظر بدء حفلة الصيد، فراح الذباب يضايقه لأنه مطلي بالعسل. وعندما امتلأت الساحة بالناس، قام بحركة كأنه يريد فك وثاق رجله المتوحش، ولكنه نزع القناع عن وجه الأخ ألبرتو قائلاً:

ـ أيها السادة، بما أن الخنزير البري لم يأت إلى حفلة الصيد، وكي لا يكون مجيئكم بلا جدوى، سأريكم الملاك جبرائيل الذي ينزل من السماء إلى الأرض ليلاً ليواسي نساء فينسيا.

وحين نزع القناع عن وجهه تعرف الجميع على الأخ ألبرتو، وتعالت صرخات الجميع ضده، موجهين إليه أقذع الشتائم والإهانات التي لم يُسمع مثلها من قبل، بل راحوا يرمونه كذلك بالقمامة على وجهه. وظلوا على تلك الحال لوقت طويل، إلى أن وصل الخبر إلى الرهبان، فجاء ستة منهم، وستروا جسده بعباءة، وفكوا وثاقه، ثم اقتادوه والناس في صخب حولهم، وأخذوه إلى سجنهم. ويُعتقد أنه مات بعد حياة بؤس عاشها في السجن. وهكذا فإن من اعتبره الناس صالحاً ولم يكونوا ليصدقوا أنه يقدم على عمل خبيث، تجرأ على أن يجعل من نفسه الملاك جبرائيل، فتحول إلى الرجل المتوحش، مثلما يستحق. وكان عليه أن يبكي، دون جدوى، ما ارتكبه من خطايا. ونرجو الله أن يحل بالآخرين جميعهم مثل ما حلّ به.

القصة الثالثة

ثلاثة شبان يغرمون بثلاث أخوات ويهربون معهن إلى كريت. تدفع الغيرة أكبرهن إلى قتل عشيقها، وتسلم الثانية نفسها لدوق كريت، لتنقذ الأولى من الموت؛ فيقتلها رجلها ويهرب مع الأولى. وتتهم الأخت الثالثة وعشيقها بارتكاب الجريمة، فيعترفان خوفاً من الموت؛ ولكنهما يرشوان الحارس بالمال، ويهربان فقيرين إلى رودس.

بعد أن سمع فيلوستراتو نهاية قصة بامبينيا، انتظر قليلاً ثم التفت إليها وقال:

ـ كان هناك شيئاً ممتعاً في نهاية قصتك، ولكنني وجدت نفسي، قبل ذلك، أضحك أكثر مما هو مطلوب.

ثم قال متوجهاً إلى لوريتا:

ـ واصلي بقصة جديدة.

فردت لاوريتا باسمة:

ـ إنك أيها الملك قاس جداً مع العاشقين، لا تريد لهم إلا نهاية مشؤومة، وكي أرضيك سأروي قصة ثلاثة أشخاص انتهوا نهاية تعسة دون أن ينعموا إلا قليلاً بحبهم.

قالت هذا وبدأت على النحو التالي:

ـ أنتم تعلمون يا أصدقائي أن الرذائل تنتهي بصاحبها، وبآخرين، نهاية خبيثة. وأسوأ الشرور، في رأيي، هو الغضب كما أظن؛ لأنه حركة مفاجئة وغير متروية، تحجب العقل وتلهب نفوسنا بسخط عظيم. هذا يحدث للرجال، ولكنه يصيب في بعض الأحيان النساء أيضاً، وإن كان ما يُحدثه من ضرر أكبر بكثير!. وإذا ما تأملنا ملياً، فسوف نرى أن نيران الغضب تشتعل أول الأمر في الأشياء الرقيقة أكثر منها في الأشياء القاسية

والثقيلة، ولكننا نحن النساء حساسات ومتقلبات. ونحن، بطبعنا، أكثر ميلاً إلى هذا، وتشكل وداعتنا ورقتنا راحة كبيرة للرجال. ولأن الغضب أمر جد خطير، فسوف أحكي لكم عن غراميات ثلاثة شبان وثلاث سيدات، فقدوا السعادة كلها بسبب غضب واحدة منهن.

أنتم تعلمون أن مدينة مرسيليا تقع في منطقة بروفانس، على شاطئ البحر؛ وهي مدينة قديمة ونبيلة، يقطنها رجال أغنياء وتجار كبار. وكان بين هؤلاء شخص يدعى نارنال كافاد، رجل وضيع المولد، ولكنه نزيه في الأعمال التجارية، مما أكسبه ثروة كبيرة من الأموال والأطيان.

أنجبت له زوجته كثيراً من الأبناء، من بينهم ثلاث بنات كبيرات، والآخرون من الذكور. وكانت اثنتان من البنات توءمين، في الخامسة عشرة من عمريهما، أما الثالثة ففي الرابعة عشرة. وكان الجميع ينتظرون عودة نارنال من تجارة له في إسبانيا، لتزويج البنات. وكان اسما التوءمين نينيتا ومدلين، أما الصغرى فتدعى بيرتيل. وقد أحب نينيتا شاب نبيل، لكنه مفتقر، يدعى رستيون، وبادلته الفتاة حبه بحب، فكانا يستمتعان بحبهما سراً دون أن يدري أحد بذلك. وبعد وقت طويل من استمتاعهما بتلك الطريقة، وقع شابان شقيقان يدعى أحدهما فولك والآخر أُغيت في حب الأختين الأخريين، وكان أبوا الشابين قد توفيا وورثا عنهما ثروة طائلة. وحين علم رستيون بذلك، أراد انتهاز الفرصة للانتفاع بالأمر، فأقام صداقة معهما، وصار يذهب معهما للقاء حبيبتيهما. وعندما رأى أن الثقة بينه وبينهما صارت كبيرة، دعاهما في أحد الأيام إلى بيته، وقال لهما:

- صديقي العزيزين، إنني أحبكما كثيراً، ومستعد لعمل أي شيء من أجلكما. وإذا كنتما لا تكذبان، فإنكما مولعان بحب خطيبتيكما، مثلما أنا مولع بحب أختهما. فإذا ما شاركتماني في ثروتكما، فإنني سأفكر في مكان من العالم يمكننا الذهاب إليه والعيش معهن بسعادة. ويحدثني قلبي بأنني سأتمكن من جعلهن يوافقن على الذهاب معنا، وأن يأتين كذلك بجزء من ثروة أبيهن الطائلة، وهكذا سنكون أسعد رجال في الدنيا. والكلمة في هذا الشأن لكما.

وافق الشابان على الفكرة، شريطة أن تكون الفتيات مستعدات للذهاب معهم. فتحدث رستيون إلى نينيتا، فأعجبتها الفكرة، ووعدته بأن تقنع أختيها وتُعد العدة لكل

شيء.

عندئذ رجع رستنيون إلى الشابين المتلهفين وأخبرهما بموافقة الفتيات. فتناقشوا فيما بينهم، وقرروا الذهاب إلى كريت. ثم باع الشابان بعض ممتلكاتهما بحجة الذهاب للمتاجرة بتلك الأموال، فحولا كل ما يملكانه إلى نقود، واشتريا سفينة شراعية سريعة، وجهزاها سراً بانتظار الوقت المناسب للإقلاع بها. وكانت نينيتا من جهتها، وهي تعرف جيداً مدى لهفة أختيها، قد تمكنت من إقناعهما بسرعة بكلماتها العذبة، إذ كانتا تتحرقان إلى ذلك. وحين حلّت الليلة التي سيصعدون فيها إلى السفينة، فتحت الفتيات الثلاث صندوق أبيهن الكبير، وأخرجن منه كمية كبيرة من النقود والحلي، وغادرن البيت خفية متوجهات، حسبما اتُفق عليه، إلى عشاقهن الثلاثة الذين ينتظرونهن. فصعدن معهم إلى السفينة دون تأخير؛ وأبحروا دون توقف حتى وصلوا في مساء اليوم التالي إلى جنوا، حيث استمتع المحبون المستجدون أول مرة بملذات الحب.

وغادروا جنوا بعد أن تزودوا منها بكل ما يحتاجون إليه، وواصلوا طريقهم متنقلين من مكان إلى آخر، دون أن تعترضهم أية عقبات، إلى أن بلغوا كريت قبل أن يطلع عليهم صباح اليوم الثامن. واشتروا هناك أملاكاً وعقارات بديعة وفسيحة، وشيدوا على مقربة من مدينة كانديه بيوتاً فخمة وجميلة؛ وعاشوا هناك حياة احتفالات وولائم مترفة، تحيط بهم أعداد كبيرة من الخدم، وكلاب وصقور الصيد والخيول الأصيلة. وبينما هم يعيشون تلك الحياة السعيدة، حدث ما نشهد حدوثه كل يوم، من ضجر المرء من الأشياء المحببة إذا ما توفرت بإفراط. فعندما رأى رستنيون المتيم بحب نينيتا، أنه قادر على مضاجعتها دون أي خوف عندما يشاء، بدأ يملها، وصار حبه لها يتضاءل. وحدث أن تعرف في إحدى الحفلات على فتاة جميلة ونبيلة من أهل البلاد، فراح يغازلها بكل إلحاح. وصار ينفق عليها بسخاء ويقيم لها الحفلات، فلاحظت نينيتا ذلك، وملأتها الغيرة حتى صارت لا تسمح له بالتحرك خطوة واحدة دون علمها، ثم بدأت تؤنبه وتعنفه. وكما يؤدي الإفراط في الملذات إلى الضجر منها، فإن الشح بها يضاعف الرغبة فيها، وهكذا كان تأنيب نينيتا يزيد من تأجيج لهيب حب رستنيون الجديد، ومع مرور الوقت، ودون معرفة إذا ما كان رستنيون قد أقام علاقة حميمة مع المرأة المحبوبة أم لا، اعتبرت نينيتا حدوث ذلك أمراً مؤكداً، وأصابها غم شديد، ما لبث أن تحول إلى سخط، ثم تحول فجأة إلى غضب عارم. وهكذا

انقلب حبها السابق لرستيون إلى حقد مرير، فأعمى الغضب بصيرتها، وفكرت في قتل رستيون انتقاماً منه للعار الذي بدا لها أنه ألحقه بها. استدعت إليها عجوزاً يونانية خبيرة في تركيب السموم، فاستمالتها بالوعود والأموال، وطلبت منها أن تصنع لها سماً قاتلاً. وفي إحدى الليالي، قدمت ذلك الشراب في حمى غضبها إلى رستيون، دون أن تستشير أحداً. وكان مفعول السم قوياً، قضى عليه قبل طلوع الصباح. علم فولك وأُغيت وامرأتيهما بموته، دون أن يدريا سبب ذلك الموت المفاجئ، فبكوه مع نينيتا بمرارة، ودفنوه بكل احترام وتكريم. وحدث بعد أيام قليلة أن أُلقي القبض، لعمل خبيث آخر، على العجوز التي أعدت السم لنينيتا، فاعترفت تحت التعذيب بجرائمها، ومن بينها قضية نينيتا. فذهب دوق كريت سراً في إحدى الليالي، وتجول حول قصر فولك، ودون أي ضجة أو مقاومة، اعتقل نينيتا التي سارعت، دون تعذيب، إلى إخباره بما أراد معرفته عن موت رستيون.

وعلم فولك وأُغيت من الدوق بما حدث، وعملا كل ما بوسعهما، مع امرأتيهما، لإنقاذ نينيتا من المحرقة التي بدا أنها ستنتهي إليها دون ريب، لما عُرف عن الدوق من تصلب في أمور العدالة. وكانت الأخت الصغرى مادلين باهرة الجمال، وقد غازلها الدوق مرات عديدة من قبل، لكنها لم تستجب لرغباته. فخيل إليها أنها ستتمكن من إنقاذ أختها من النار إذا ما أرضته بالاستجابة له، فأخبرته عبر رسول حذر بأنها ستكون مستعدة لكل ما يريد، ولكن بشرطين: أن تستعيد أختها سليمة وحرة، وأن يظل الأمر سراً لا يعلم به أحد. وحين سمع الدوق كلام الرسول، فكر في ما تطلبه ملياً، ثم وافق في آخر الأمر. وردّ بأنه يريد تحقيق ذلك بسرعة. ولكي يبقى الأمر سراً، أمر الدوق باعتقال فولك وأُغيت في إحدى الليالي، كما لو أنه يريد التحقيق معهما في القضية، ليبقى سراً مع مادلين. وكان قد وضع نينيتا قبل ذلك في كيس، متظاهراً بأنه سيلقي بها إلى البحر في تلك الليلة بالذات، بعد ربطها بحجر ثقيل. لكنه حملها معه وقدمها إلى أختها ثمناً لقضاء تلك الليلة معها. ورجاها وهو يغادرها في الصباح بألا تكون ليلة حبهما الأولى تلك هي الأخيرة، وأمرها كذلك بأن تُرحّل المرأة المذنبة من هناك كي لا يراها الناس ويضطر إلى معاقبتها من جديد. وفي صباح اليوم التالي، أطلق سراح فولك وأُغيت، وسمعا أنه قد تم رمي نينيتا إلى البحر ليلاً، فصدقا ذلك، ورجعا إلى البيت ليواسيا زوجتيهما على فقدان أختهما. وبالرغم من محاولة مدلين إخفاء أختها عنهما، إلا أن فولك رآها هناك، فاستغرب الأمر، وخامرته الشكوك حول ما جرى، خاصة أنه كان قد سمع بأن الدوق قد غازل مادلين،

فسألها عن الطريقة التي وصلت بها نينيتا إلى هناك. فنسجت مادلين حكاية طويلة ملفقة كي تفسر الأمر، وحين لم يصدقها زوجها، لم تجد مفراً من قول الحقيقة.

استولى الحزن على فولك، فاستل في سورة الغضب سيفه وقتل امرأته، دون أن يصغي لتوسلاتها بالصفح عنها. ولخوفه من غضب الدوق وعدالته، تركها ميتة في الحجرة، وذهب إلى حيث كانت نينيتا، وقال لها مبدياً البشر والسعادة:

- هلمي بنا، سآخذك إلى مكان أخبرتني به أختك كي لا تقعي ثانية في يد الدوق.

فصدقت نينيتا كلامه. ولأنها كانت خائفة، وراغبة في الذهاب، فقد مضت مع فولك دون أن تقول شيئاً، ودون أن تودع أختها، لأن الوقت كان ليلاً. ولم يكن معهما إلا النقود التي استطاع فولك الاستيلاء عليها، وكانت قليلة جداً. ذهبا إلى المرفأ، وأبحرا في سفينة وجداها هناك، ولم يُعرف شيء عما آل إليه مصيرهما بعد ذلك.

وفي اليوم التالي، عُثر على مادلين ميتة، وكان هناك من يحسدون أُغيت ويحقدون عليه، فسارعوا إلى إخبار الدوق. فهرع الدوق الذي كان مغرماً بمادلين إلى البيت، وألقى القبض على أُغيت وزوجته، ولم يكونا قد علما بعد بموت مادلين. لكن الكونت أجبرهما، تحت التعذيب، على الاعتراف بأنهما قتلا مادلين. ولخوفهما من الموت بسبب اعترافهما، تمكنا بالحيلة من رشوة الحراس بما تبقى لديهما من مال مخبئ في البيت، وهربا مع الحراس إلى رودس، دون أن يتمكنا من أخذ شيء من ممتلكاتهما، حيث عاشا حياة فقر وبؤس، لم تطل كثيراً. وكانت هذه هي النهاية الحزينة لحب رستيون المجنون، والدمار الذي ألحقه غضب نينيتا وحقدها بالجميع.

القصة الرابعة

يحنث جيربينو بما وعد به جده، الملك غيليلمو، فيحارب سفينة تابعة لملك تونس كي يختطف ابنته؛ ويرى كيف يقتلها من هم في السفينة، فيقتلهم بدوره، ولكنه يفقد رأسه أخيراً.

أنهت لوريتا قصتها، والتزمت الصمت، بينما الجماعة تبدي أساها لنكبة العاشقين، أو تستنكر غضب نينيتا؛ عندئذ نظر الملك إلى إليسا، كأنه يخرج من تفكير عميق، وأشار لها كي تتكلم؛ فبدأت القول بعذوبة:

ـ صديقاتي العزيزات، يظن كثيرون أن الحب لا يرسل سهامه إلا من خلال العيون ونظراتها الملتهبة، ويسخرون ممن يحاول القول إنه يمكن للحب أن يصل من خلال الأذن وسمعها. وسيظهر خطأ هؤلاء واضحاً في القصة التي سأرويها، حيث لم يؤد السمع إلى وقوع محبين في الغرام وحسب، وإنما قاد كل منهما كذلك إلى نهاية تعسة.

كان لملك صقلية غيليلمو الثاني، كما يقول الصقليون، ابنان اثنان، أحدهما ذكر يدعى روجر، وابنة أنثى تدعى كونستاز. وقد مات الابن الذكر قبل موت أبيه، مخلفاً ابناً اسمه جيربينو؛ فتولى جده الملك رعايته وتربيته بعناية، إلى أن صار شاباً وسيماً، مشهوراً بالشجاعة واللباقة. ولم تبق شهرته محصورة ضمن حدود صقلية، بل تجاوزتها وبلغت أصداؤها مناطق أخرى من العالم، وخاصة بلاد البربر التي كانت تدفع الجزية في ذلك العهد لملك صقلية. وكان بين من بلغت مسامعهم الشهرة الواسعة لفضائل جيربينو ولباقته ابنة ملك تونس، وكانت في نظر كل من رآها واحدة من أجمل المخلوقات التي أبدعتها الطبيعة على الإطلاق، وأكثر النساء تهذباً ونبلاً. كانت تحب سماع الأحاديث عن الرجال الشجعان، وقد احتفظت في ذاكرتها بأخبار شجاعة جيربينو التي يرويها الناس؛ فأعجبت به كثيراً، وصارت تقلّب مخيلتها لتتصور كيف يجب أن تكون هيئته؛ فهامت به حباً، وصار يبهجها التحدث عنه أكثر من الحديث عن أي شخص آخر، مثلما يسعدها سماع أخبار عنه.

ومن جهة أخرى، كانت قد وصلت إلى صقلية، مثلما وصلت إلى غيرها من الأماكن، شهرة جمالها الباهر وأهمية مكانتها، وبلغت مسامع جيربينو بغير قليل من الفتنة، وليس دون حق. ومثلما هامت هي في حبه، هام هو أيضاً في حبها. وراح ينتظر العثور على سبب يتيح له أن يطلب من جده الذهاب إلى تونس، راغباً أشد الرغبة في رؤيتها. وكان يأمر كل صديق يذهب إلى هناك أن ينقل إليها سراً، إذا استطاع، خبر حبه الكبير لها ويأتيه بأخبارها. وقد تمكن أحد أولئك الأصدقاء من التحدث إليها، متظاهراً بأنه تاجر لديه مجوهرات وحلي نسائية يريدها أن تراها، مثلما يفعل التجار. فأخبرها عن حب جيربينو لها،

وقال إنه يضع نفسه وكل ما لديه تحت تصرفها. فأحسنت هي استقبال السفير، وردّت بأنها تتأجج بحب مماثل، وأرسلت معه واحدة من أثمن مجوهراتها هدية إليه. فتلقاها جيربينو بمنتهى السعادة، وأرسل إليها هدايا ثمينة، متمنياً أن يتيح لهما الحظ الفرصة للقاء ورؤية كل منهما الآخر. لكن الأمور استمرت على هذا النحو، والشابة تتأجج شوقاً في جانب وجيربينو في الجانب الآخر. وحدث أن زوَّج ملك تونس ابنته إلى ملك غرناطة، فحزنت الفتاة أشد الحزن وهي ترى أنها لن تكون بعيدة عن حبيبها وحسب، وإنما ستُنتزع منه إلى الأبد. ولو وجدت طريقة لمنعت حدوث ذلك، ولكانت هربت من أبيها لتلتحق بجيربينو. وعاش جيربينو بدوره حزيناً مغموماً حين علم بالأمر، وراح يفكر في طريقة لاختطافها بالقوة، إذا ما كانت ستُنقل إلى عريسها بحراً. وكان ملك تونس قد سمع بعض الأقاويل عن ذلك الحب، وعن تصميم جيربينو على اختطافها، فخشي من جرأته وسلطته. وعندما حان موعد إرسال ابنته، أطلع غيليلمو ملك صقلية على نوايا جيربينو، وطلب منه ضمانات بعدم إقدام جيربينو على اعتراض رحلة ابنته إلى غرناطة. وكان الملك غيليلمو عجوزاً، لم يسمع شيئاً عن حب جيربينو وهيامه بالفتاة، ولم يتخيل السبب الحقيقي لذلك الطلب، فمنحه الضمانات المطلوبة بكل طيبة خاطر، وأرسل قفازه إلى ملك تونس ليؤكد ذلك. وعندما تأكد ملك تونس من وصول الضمانات إليه، أمر بتجهيز سفينة كبيرة وبديعة في ميناء قرطاج، وزودها بكل المؤن الضرورية، وزينها وأعدها لسفر ابنته إلى غرناطة، ولم يعد ينتظر إلا الأجواء المناسبة والرياح المواتية للإقلاع.

وكانت الشابة مطلعة على ذلك كله، فأرسلت سراً إلى باليرمو خادماً لديها، وأمرته بأن ينقل تحياتها إلى جيربينو، ويخبره بأنها ستغادر إلى غرناطة بعد أيام قليلة، وعليه أن يُظهر الآن إذا ما كان رجلاً شجاعاً مثلما يقال عنه، وإذا ما كان يحبها مثلما أرسل إليها مرات كثيرة. أنجز ذلك الخادم المهمة الموكلة إليه ورجع إلى تونس. أما جيربينو، فقد تردد في اتخاذ القرار، ولم يدر ماذا سيفعل بعد أن علم بذلك، لأنه كان يعرف أيضاً بأمر الضمانات التي قدمها جده الملك جيليلمو إلى ملك تونس. ولكنه مدفوعاً بالحب، وكي لا يبدو نذلاً في نظر فتاته، توجه إلى ميسينا، وأمر هناك بتجهيز سفينتين حربيتين سريعتين، أقلع بهما مع فريق من الرجال الشجعان متوجهاً إلى سردينيا، مفكراً في أنه لا بد لسفينة محبوبته من المرور من هناك. ولم يمض وقت طويل حتى وصلت تلك السفينة. وحين رآها، قال لرفاقه:

ـ أيها الأصدقاء، إذا كنتم شجعاناً مثلما أظنكم، وإذا كنتم قد أحببتم يوماً، فسوف تدركون بسهولة ما ابتغيه. إنني محب، ومحبوبتي في هذه السفينة. ولكن السفينة مملوءة بالكثير من النفائس والأشياء الثمينة، ويمكن لنا، إذا كنتم شجعاناً، أن نستولي عليها بسهولة. أنا لا أريد شيئاً لي سوى المرأة التي حملتُ السلاح من أجلها؛ أما بقية الأشياء الأخرى فستكون لكم منذ الآن. فهلموا بنا، ولسوف نتمكن بعون الله من إنجاز مهمتنا.

لم يحتج جيربينو إلى كثير من الكلام، لأن الرجال الذين معه كانوا متلهفين إلى الغنيمة، وكانوا مستعدين لتحقيق ما دعاهم إليه جيربينو وحثهم عليه بكلماته. فنفخوا في الأبواق، وامتشقوا الأسلحة، وراحوا يجدفون باتجاه السفينة. دافع من هم في السفينة عن أنفسهم قدر استطاعتهم، وعندما عرفوا أن من يهاجمهم هو جيربينو، عرضوا عليه قفاز التحالف مع الملك غيليلمو، ورفضوا الاستسلام وإعطاءه أي شيء مما في السفينة. لكن جيربينو الذي رأى المرأة، ووجدها أجمل بكثير من كل ما تخيله، لم يعد يولي أي اهتمام للقفاز أو العهود، وطلب منهم أن يسلموه المرأة أو يستعدوا للمعركة. وسرعان ما انقض كل جانب على الآخر بالسهام والأحجار، ودارت بينهما معركة طويلة وحامية الوطيس.

وحين رأى جيربينو أن الصراع قد طال كثيراً، وأن رجاله لم يستطيعوا الوصول إلى السفينة، أشعل النار بزورق أحضره معه من سردينيا، ووجهه إلى السفينة. وما إن رأى المسلمون ذلك حتى أدركوا أنه لم يعد أمامهم سوى الاستسلام أو الموت، فحملوا ابنة مليكهم إلى مقدمة السفينة، ونادوا على جيربينو، وذبحوها أمام عينيه، وألقوا بها إلى البحر قائلين له:

ـ خذها، إننا نقدمها إليك مثلما نستطيع، ومثلما يستحقه وفاؤك.

عندما رأى جيربينو تلك القسوة، اندفع إلى السفينة وهو راغب في الموت، وغير عابئ بالسهام أو الأحجار، وراح يُعمل السيف بهم ذات اليمين وذات اليسار وهو يزمجر كأسد. وفي أثناء ذلك، كانت النار تتعاظم في السفينة، فأمر رجاله بأن يستولوا على ما يستطيعون الاستيلاء عليه. ثم أمر بإخراج جسد المرأة الجميلة من البحر، وبكى عليها بمرارة؛ وتوجه بعد ذلك إلى صقلية، فدفنها في أوستيكا، وهي جزيرة صغيرة جداً قريبة

من تراباني. وحين رجع إلى بيته، كان يشعر بأنه أشد الرجال تعاسة.

علم ملك تونس بما حدث، فأمر بإرسال سفراء بملابس الحداد للاحتجاج على خرق العهد. ولم يجد الملك غيليلمو مفراً من معاقبة جيربينو، فأمر بحبسه، وحكم عليه بالموت بالرغم من عدم وجود وريث له؛ وجرى قطع رأسه بحضوره، مفضلاً بذلك رؤية موت حفيده، على أن يخلفه ملك بلا شرف.

وهكذا، خلال أيام قصيرة، لقي العاشقان شر ميتة مثلما رويت لكم، دون أن يستمتعا بأي ثمرة من ثمار حبهما.

القصة الخامسة

أخوة ليزابيتا يقتلون عشيقها. فيظهر لها في الحلم، ويدلها على المكان الذي دُفن فيه. فتنبش هي القبر سراً، وتأخذ رأسه وتضعه في أصيص ريحان، وتبكي عليه كل يوم، إلى أن ينتزع إخوتها الأصيص منها. وشيئاً فشيئاً تموت هي حزناً وكمداً أيضاً.

انتهت قصة إليسا، فأطرى عليها الملك، ثم أمر فيلومينا بالمتابعة. ولحزنها من المصير الذي آل إليه جيربينو ومحبوبته، بدأت القول بعد زفرة عميقة:

ـ قصتي، يا سيداتي اللطيفات، لن تكون عن أناس رفيعي المقام مثلما هم أولئك الذين حدثتنا عنهم إليسا، ولكنها لن تكون أقل مدعاة للحزن. وقد تذكرتها قبل قليل بسبب الحديث عن ميسينا، لأن أحداث قصتي تدور فيها.

كان يعيش في ميسينا ثلاثة إخوة تجار، ورثوا ثروة كبيرة بعد موت أبيهم الذي كان من سان جيمينيانو. وكانت لهم أخت تدعى ليزابيتا، وهي شابة جميلة ولطيفة، لم تكن قد تزوجت بعد. وكان يعمل لدى الإخوة الثلاثة، في متجر لهم، شاب وسيم يدعى لورنزو؛ وحدث أن ليزابيتا أُعجبت به، بعد أن رأته مرات عديدة، وانتبه لورنزو إلى ذلك، فتخلى عن كل غرامياته وصار يميل إليها. وسارت الأمور على هذا النحو، فلم يمض وقت طويل حتى

تجرأ الاثنان على الوصول إلى ما يرغبان فيه. واستمرا فيه وأمضيا الكثير من اللحظات السعيدة. ولكنهما لم يعرفا كيف يفعلان ذلك بسرية؛ ففي إحدى الليالي، وبينما ليزابيتا ذاهبة بصمت إلى حيث ينام لورنزو، لمحها أكبر الإخوة دون أن تراه. ولأنه كان رجلاً حذراً، وعلى الرغم مما سببه له ذلك من آلام، فقد قلّب الأمر في ذهنه وفكر فيه، وقرر الانتظار إلى اليوم التالي. وعندما طلع النهار، أخبر أخويه بما حدث، وبعد التشاور معهما، قرروا معاً أن يتصرفوا بما لا يُلحق العار بأختهم، وأن يحافظوا على الصمت إلى أن تحين الفرصة ليغسلوا تلك الإهانة. وبتوصلهم إلى هذا الاتفاق، راحوا يتحدثون إلى لورنزو ضاحكين، كما هي عادتهم، وتظاهروا بأنهم سيخرجون من المدينة للترويح عن أنفسهم، وأخذوا لورنزو معهم. وحين وصلوا إلى مكان ناءٍ ومنعزل، وجدوا الفرصة مناسبة، فانقضوا على لورنزو وقتلوه، ثم دفنوه وأخفوا القبر، بحيث لا يمكن لأحد أن يتبين مكانه. ولدى عودتهم إلى ميسينا، أعلنوا أنهم أرسلوا لورنزو في عمل إلى مكان آخر، وهو ما صدقه الجميع بسهولة، لأنها لم تكن المرة الأولى التي يبعثون به في رحلة عمل.

وعندما تأخرت عودة لورنزو، صارت ليزابيتا تكثر من سؤال إخوتها عنه، واشتد إلحاحها في السؤال إلى حدّ رد عليها معه أحد إخوتها:

ـ ما هذا؟.. وما علاقتك بلورنزو حتى تسألي عنه بهذا الإلحاح؟.. إذا ما عدتِ للسؤال عنه فسوف نعطيك الجواب الذي تستحقين.

حزنت الفتاة حزناً شديداً، وخافت دون أن تدري سبب خوفها، وصارت تقضي الليالي في البكاء، طالبة من حبيبها أن يعود من غيابه الطويل، ولم تعد تعيش إلا في انتظار عودته. وحدث في إحدى الليالي أن غلبها النوم، بعد أن بكت كثيراً، فظهر لها لورنزو في الحلم، شاحباً ومشعثاً، ثيابه ممزقة، وبدا لها أنه يقول:

ـ آه يا ليزابيتا، أنت لا تتوقفين عن البكاء، وغيابي الطويل يحزنك. اعلمي أنني لن أستطيع الرجوع؛ ففي آخر يوم رأيتني فيه، قتلني إخوتك.

ثم وصف لها المكان الذي دفنوه فيه، وطلب منها ألا تنتظره ولا تعود للبكاء عليه. وعندما استيقظت الفتاة في اليوم التالي، آمنت بالرؤيا، وبكت بمرارة. ودون أن تجرؤ على قول أي شيء لإخوتها، قررت الذهاب إلى المكان الذي أشار إليه لورنزو في المنام. حصلت على إذن أخوتها بالخروج من المدينة للتنزه مع خادمة لها، وتوجهت إلى المكان بأسرع ما

يمكن، فأزاحت جانباً الأوراق الجافة عن الأرض، وراحت تحفر الأرض التي بدت لها أقل صلابة. وسرعان ما وجدت جثة حبيبها عاثر الحظ، ولم تكن قد تفسخت بعد؛ فتعرف عليه بوضوح، وعرفت الحقيقة القاسية. أدركت حينئذ أن الدموع لن تفيدها في شيء، وودت لو أنها تستطيع أخذ الجسد لتدفنه بصورة لائقة. ولكنها رأت أن ذلك غير ممكن، فأخذت سكيناً وفصلت رأس الحبيب عن جسده، ثم لفت الرأس بمنديل. وأعادت دفن بقية الجسد تحت التراب، وعادت مع خادمتها إلى البيت.

وهناك، اعتكفت في مخدعها ومعها الرأس، وبكت عليه طويلاً وبمرارة إلى أن غسلته بدموعها، وقبّلته ألف مرة في كل جزء منه. وأخذت بعد ذلك أصيصاً كبيراً، وضعت الرأس فيه ملفوفاً بمنديل بديع؛ ثم غطته بالتراب، وزرعت فيه نبتة ريحان رائعة، ولم تكن تسقيها بأي ماء سوى دموعها، أو بماء الورد أو زهر البرتقال. وصار من عادتها الجلوس إلى جانب ذلك الأصيص، والبكاء طوال الوقت، إلى أن تبتل أوراق نبتة الريحان، وتبكي بدورها. وربما بسبب الرعاية البالغة، أو بسبب خصوبة التربة من تفسخ الرأس فيها، نمت النبتة وتعاظمت وملأت رائحتها المكان. وقد انتبه الجيران إلى تلك الحال، ونقلوا إلى إخوتها عجبهم من ذبول جمالها، ومن رؤية عينيها تكادان تخرجان من وجهها، وقالوا لهم: «لقد لاحظنا أنها تتصرف بهذه الطريقة كل يوم». وحين سمع إخوتها ذلك، وتأكدوا منه، أنبوها مرة بعد أخرى، لكن ذلك لم ينفع في شيء؛ فعمدوا إلى انتزاع الأصيص خفية. وعندما تبينت اختفاءه، طالبت به بإلحاح، ولم تعد تتوقف عن البكاء والنحيب، فمرضت ولم تتخل في مرضها عن المطالبة بذلك الأصيص. تعجب الإخوة من إلحاحها، وقرروا رؤية ما فيه، فقلبوه على الأرض، ووجدوا المنديل وفيه الرأس الذي لم يتفسخ نهائياً بعد، وعرفوا من الشعر المجعَّد أنه رأس لورنزو. ولخوفهم من انكشاف أمر الجريمة، قرروا دفنه من جديد؛ ثم خرجوا سراً من ميسينا متوجهين إلى نابولي.

أما الفتاة، فلم تتوقف عن البكاء وطلب الأصيص إلى أن ماتت، وبهذا انتهى حبها التعس. ولم يلبث، بعد وقت قصير، أن علم كثيرون بحقيقة الأمر، وخرجت من ذلك تلك الأغنية التي مازالت تُغنى إلى اليوم، وتقول:

من هو المسيحي الخبيث،

الذي سرق لي أصيص الريحان؟..

القصة السادسة

تقع أندريولا في حب غابريوتو. تروي له حلماً، ويروي لها حلماً آخر. وفجأة، يموت بين ذراعيها، وبينما هي تنقله إلى بيته بمساعدة خادمة لها، يعتقلهما أعوان الحاكم، فتوضح هي ما حدث. ويحاول الحاكم أن يغتصبها، ولكنها تصده بحزم. ويعلم أبوها بما جرى، فيعمل على إطلاق سراحها لأنها بريئة. وتأبى هي مواصلة العيش في العالم، وتتحول إلى راهبة.

أعجبت قصة فيلومينا النساء جميعهن، لأنهن كن قد سمعن تلك الأغنية مرات ومرات دون أن يعرفن سبب نظمها. وعندما رأى الملك أن القصة قد انتهت، أمر بانفيلو بالمواصلة، فقال هذا:

ـ الحلم في القصة السابقة ذكّرني بقصة حلمين اثنين تنبأا بما بدأ يحدث بعد الانتهاء من روايتهما. وهكذا يا سيداتي المحببات، قد يبدو للمرء أحياناً، وهو يحلم، بأن ما يراه حقيقياً. ولكنه حين يستيقظ بعد ذلك، تبدو له بعض الأمور محتملة الحدوث، وتبدو له أمور أخرى غير ممكنة الحدوث بأي حال. ولكن كثيراً منها يحدث في الواقع، ولهذا فإن هناك كثيرين ممن يؤمنون بالأحلام، فيحزنون أو يفرحون، كما لو أنهم يرون ما يخشونه أو ما يأملون فيه؛ غير أن آخرين لا يؤمنون بشيء من ذلك إلا بعد أن يجدوا أنفسهم وقد وقعوا في الخطر الذي تبدى لهم في الحلم. وأنا لا أريد الإطراء هنا على هؤلاء أو أولئك، لأن الأحلام قد تكون حقيقة أحياناً، وقد تكون زيفاً في أحيان أخرى. وقد تأكد لنا مرات ومرات أنه لا يمكن للأحلام جميعها أن تكون حقيقية، مثلما لا يمكن لها أن تكون جميعها زيفاً؛ وهذا ما رأيناه في قصة فيلومينا من قبل، وما أنوي إثباته في قصتي. ولكنني أرى أن من يعيش حياة فاضلة، ويتصرف بفضيلة، لا يمكن له أن يخشى أي نوع من الأحلام، وعليه ألا يتخلى عن المسالك الحميدة، وألا يتوجه إلى المخازي والخبائث، حتى لو بدت له في الأحلام جيدة ومفيدة. ولننتقل الآن إلى قصتي.

كان يعيش في مدينة بريسزيا رجل نبيل يدعى السيد نيغرو دي بونتيكاراتو، وبين أبنائه الكثيرين، كانت له ابنة تدعى أندريولا، شابة جميلة وغير متزوجة. أحبت جاراً لها يدعى غابريوتو، وهو شاب من أصل وضيع؛ ولكنه حسن الأخلاق والعادات. وبمساعدة من خادمتها، لم يعلم غابريوتو بحب أندريولا له وحسب، بل كان يُقتاد للقائها في حديقة بديعة لأبيها. وبعد لقاءات كثيرة، قررا الزواج سراً. وواصلا اللقاء خفية معززين حبهما. وحدث في إحدى الليالي، بينما الفتاة نائمة، أن رأت نفسها في الحديقة مع غابريوتو، وأنه كان يحتضنها بين ذراعيه. وبينما هما على تلك الحال، بدا للفتاة أنها رأت شيئاً أسود ورهيباً، لم تتبين حقيقته، يخرج من جسم حبيبها، وبدا لها أن ذلك الشيء الفظيع شدّ غابريوتو بقوة رهيبة وانتزعه منها؛ واختفى معه تحت التراب، دون أن تتمكن هي من الحيلولة دون حدوث ذلك.

أحست الفتاة بحزن وألم شديدين، واستيقظت في الحال؛ وعند استيقاظها أحست بالطمأنينة حين رأت أن ذلك كله ليس سوى حلم. ولكنها ظلت تشعر مع ذلك بشيء من القلق. وهكذا، بذلت كل ما لديها من جهود لتحول دون مجيء غابريوتو إليها في تلك الليلة، رغم إلحاحه الشديد. غير أنها وافقت على استقباله في الليلة التالية، كي لا تخامره الشكوك. ولأن الفصل كان ربيعاً، فقد جمعت كثيراً من الزهور البيضاء والحمراء، وجلسا معاً عند حافة ينبوع، مياهه رقراقة صافية، وبعد أن استمتعا لوقت طويل بالمداعبات، سألها غابريوتو عن سبب عدم رغبتها في اللقاء به في الليلة السابقة. وعندما أخبرته الفتاة بحلمها وبالخوف الذي أحست به، ضحك غابريوتو مما سمعه، وقال لها إنه من الغباء تصديق الأحلام، لأنها تأتي بسبب الإفراط في الطعام أو الإقلال منه، وأنها جميعها تأتي الناس كل ليلة دون طائل؛ ثم أضاف بعد ذلك:

ـ لو أنني أوليت الأحلام اهتماماً، لما جئت أنا أيضاً إليك. فقد حلمت في الليلة الماضية بأنني كنت أتصيد في غابة بديعة، وأنني أمسكت عنزة صغيرة لم أر قط عنزة بمثل جمالها وبياضها؛ وسرعان ما صرنا صديقين، ولم تعد تبتعد عني لحظة واحدة. وقد أحببتها أنا أيضاً، وكي لا تبتعد عني، وضعت حول عنقها طوقاً من الذهب ومعه سلسلة ذهبية أيضاً، أمسكها بيدي. وبينما العنزة البيضاء تستريح في أحد الأيام، وهي تضع رأسها في حضني، ظهرت من حيث لا أدري كلبةٌ ضخمة سوداء كأنها الفحم، تبدو جائعة ورهيبة

المظهر، انقضت عليّ دون أن أتمكن من إبداء أي مقاومة، وغرست أنيابها في صدري كما لو أنها تريد انتزاع قلبي وأخذه. وقد أحسست في الحلم بألم شديد، واستيقظت فزعاً وسارعت إلى تلمس صدري؛ غير أنني سخرت من نفسي حين لم أجد فيه أي سوء. ولكن، ما الذي يعنيه هذا؟.. فقد حلمت بمثل هذه الأشياء وأخرى أشد هولاً منها، ولم يحدث لي أي شيء بسببها. فدعك من هذه الأمور ولنفكر في متعتنا.

أما الفتاة التي كانت خائفة من حلمها، فقد ازداد خوفها حين سمعت هذا الحلم الثاني. ولكنها قررت إخفاء خوفها، قدر ما تستطيع، كي لا تُغضب غابريوتو. وبالرغم من استسلامهما للمداعبات والقبلات، إلا أنها ظلت خائفة في أعماقها، فكانت تكثر من النظر إلى وجهه، دون أن تدري السبب، أو تتلفت وتنظر إلى أنحاء الحديقة لترى إذا ما كان هناك شيء أسود يأتي من إحدى الجهات. وبينما هي على تلك الحال، أطلق غابريوتو زفرة عميقة، واحتضنها صارخاً:

ـ آه يا حبيبتي، ساعديني، إنني أموت!

قال ذلك وهوى مطروحاً على العشب، فاحتضنته الفتاة وراحت تقبله وتقول له:

ـ ما الذي أصابك يا حبيبي؟..

لم يستطع غابريوتو الرد عليها، فقد كان يلهث بقوة و يتعرق، وما لبث أن فارق الحياة بعد قليل. مزق الألم الفتاة، وراحت تبكي بحرقة إلى أن انتبهت إلى أن جسده كله قد برد. فصرخت بصوت مغموم منادية خادمتها، وبينت لها غمها وبؤسها. وبعد أن بكتا معاً فوق وجه غابريوتو الميت، قالت الفتاة للخادمة:

ـ بما أن مشيئة الله اختطفته مني، فإنني لا أريد العيش بعده. ولكنني قبل أن أقتل نفسي، أريد البحث عن طريقة للحفاظ على شرفي، وإبقاء الحب الذي كان بيننا سراً، ودفن هذا الجسد الذي فارقته الروح المحبوبة.

فردت عليها الخادمة:

ـ لا تتكلمي عن موتك يا بنيتي، لأنك إذا فقدت حبيبك في هذه الحياة، فإنك سوف تفقدينه، إذا ما قتلت نفسك، في الحياة الأخرى أيضاً؛ وستذهبين عندئذ إلى الجحيم. وأرى من الأفضل أن تواصلي الحياة، وأن تقدمي العون لروحه بالصلوات وأعمال الخير. أما

دفنه، فمن السهل عمل ذلك في هذه الحديقة. ولن يعلم أحد بشيء، لأنه ليس هناك من يعرف أنه كان يأتي إلى هذا المكان. وإذا كنت ترين غير ذلك، فيمكننا إخراجه ووضعه خارج الحديقة: فيجدونه في صباح الغد، ويحملونه إلى بيته ويتولى ذووه دفنه.

وبالرغم من حزن الفتاة وبكائها المرير، فقد كانت تصغي إلى خادمتها؛ وردت عليها بالقول:

ـ لا قدر الله أن أرضى لشاب أحببته، وكان زوجي، أن يدفن في الحديقة أو يترك مهجوراً على قارعة الطريق مثل كلب. أريد له أن يتلقى دموع ذويه مثلما تلقى دموعي. وقد صرت أعرف الآن ما علينا عمله.

أرسلت الخادمة لتأتيها بقطعة حرير مخبأة في صندوقها، ثم فرشتها على الأرض، ووضعتا عليها جسد غابريوتو، وأسندتا رأسه إلى وسادة. وأطبقت عينيه وفمه وهي تبكي مرّ البكاء، ثم صنعت له إكليلاً من الزهر، ووضعت حوله الأزهار التي كانا قد قطفاها معاً، وقالت للخادمة:

ـ الطريق من هنا إلى بيته قصير، وبإمكاننا أنا وأنت أن نحمله من هنا ونضعه أمام باب بيته. ولن يتأخروا في العثور عليه لأن الفجر يوشك أن يبزغ. ومع أن أهله لن يجدوا العزاء بهذا الصنيع، إلا أنني سأشعر بالرضا أنا التي كنتُ بين ذراعيه عند موته.

وبينما هي تقول ذلك وتذرف الدمع الغزير، انحنت على وجهه وواصلت البكاء لوقت طويل، فعاتبتها الخادمة لأن الصباح يكاد يطلع. عندئذ نزعت من إصبعها خاتم زواجهما، ووضعته في إصبع غابريوتو قائلة:

ـ حبيبي الغالي، إذا كانت روحك ترى دموعي، فلتتقبل هذه الهدية الأخيرة ممن أحببتها كل الحب وأنت حي.

قالت ذلك وهوت فوقه مغمى عليها. وحين استفاقت، بعد بعض الوقت، نهضت واقفة، ورفعت مع الخادمة قطعة الحرير التي يرقد الجسد فوقها، وخرجتا من الحديقة باتجاه بيت الشاب.

وبينما هما في طريقهما، شاءت المصادفة أن يمر عسس الحاكم من هناك، فاعتُقلت المرأتان ومعهما الجثمان. وحين تعرفت أندريولا على رجال الحرس، وكانت راغبة في الموت

أكثر من رغبتها في الحياة، قالت لهم:

ـ أعرف من تكونون، وأعرف أن الهرب لن يفيدني في شيء؛ وأنا مستعدة للذهاب إلى مقر الحاكم، وسأروي كل ما حدث. ولكنني لا أريد أن يمسني أحد منكم، ولا أن تلمسوا شيئاً مما هو على هذا الجثمان.

وهكذا وصلت إلى قصر الحاكم دون أن يزعجها أحد. وما إن علم الحاكم بالأمر، حتى أمر بأن يفحص الأطباء الجثة ليروا إذا ما كان الرجل قد مات مسموماً أو بطريقة أخرى، فأكدوا جميعهم أن سبب الوفاة هو تمزق شريان قريب من القلب أدى إلى اختناقه. وحين سمع الحاكم ذلك، وتأكد من براءة الفتاة، تظاهر بأنه سيمنحها ما لا يمكنها الحصول عليه، وقال لها إنه سيطلق سراحها إذا ما استجابت لرغباته. وعندما لم يستطع إقناعها بالكلام، حاول استخدام القوة، لكن أندريولا الممتلئة بالازدراء نحوه، أوتيت قوة هائلة، فدافعت عن نفسها بكل تصميم. وعند الصباح، أُطلع السيد نيغرو على ما جرى، فذهب مغموماً مع حشد من أهله وأصدقائه إلى قصر الحاكم وطالب بابنته. امتدح الحاكم الفتاة، وأوضح ما عرضه عليها، وقال إنه أحبها لما رأى من عفتها ومتانة خلقها، وإنه سيكون سعيداً إذا ما وافقت على الزواج منه. عندئذ جثت أندريولا أمام أبيها باكية وقالت له:

ـ أبتاه، لا أرى حاجة لأن أقص عليك تفاصيل مأساتي، فأنا واثقة من أنك قد سمعت وعرفت كل شيء؛ لكنني أتوسل إليك أن تصفح عن خطيئتي بزواجي، دون علمك، ممن أسعدني اتخاذه زوجاً لي. ولست أتوسل الصفح منك للحفاظ على حياتي، وإنما لأنني أريد أن أموت كابنة لك، وليس كعدوة.

حين رآها السيد نيغرو تبكي عند قدميه وتقول هذه الكلمات، لم يستطع بطيبة قلبه ومحبته الطبيعية إلا أن ينخرط بالبكاء، فأوقف ابنته على قدميها وهو يقول لها:

ـ بنيتي، كم كنت أرغب في أن يكون لك زوج بمثل مقامك ومكانتك؛ ولكنك لو اخترت رجلاً ينال إعجابك، لنال إعجابي أنا أيضاً. غير أن ما يؤلمني هو أنك فعلتِ ذلك سراً، وهذا يبين لي أنك لا تثقين بي. وما يزيد في ألمي أن أراك تفقدينه قبل أن أتعرف إليه. أما وقد حدث كل ذلك، فإن ما أريده الآن هو تكريمه في موته مثلما يليق بصهر لي.

وتوجه إلى أبنائه وأقربائه وأمرهم بأن يعدوا لغابريوتو مأتماً مهيباً وفخماً. وكان ذوو الشاب الذين علموا بالأمر قد بدؤوا بالتوافد، مثلما توافد كل من في المدينة من نساء ورجال. ووضع الجثمان في الفناء فوق قطعة حرير أندريولا ومعه كل زهورها، ولم تبكه هي وأقرباؤه فقط، وإنما المدينة بأسرها. وحُمل من الساحة العامة إلى مدفنه، ليس كواحد من الرعاع، وإنما كسيد عظيم، مرفوعاً على أكتاف أنبل المواطنين وأرفعهم مكانة. وبعد أيام من ذلك، واصل الحاكم الإلحاح في طلب الزواج من أندريولا، فعرض السيد نيغرو الأمر على ابنته، فلم تشأ سماع أي شيء من ذلك. ولكنها أرادت أن ترضي أباها، فطلبت الإذن منه، وذهبت مع خادمتها إلى دير مشهور بقداسته، حيث تحولتا إلى راهبتين، وعاشتا هناك زمناً طويلاً بكرامة وشرف.

القصة السابعة

تقع سيمونا في حب باسكينو، وبينما هما معاً في بستان، يفرك باسكينو أسنانه بورقة مريمية فيموت. تُعتقل سيمونا، وكي تبين للقاضي كيف مات حبيبها، تفرك أسنانها أيضاً بواحدة من تلك الأوراق، فتفارق الحياة.

أنهى بانفيلو قصته، ودون أن يبدي الملك أي نوع من الشفقة على أندريولا، نظر إلى إيميليا وأومأ إليها بإشارة عنى بها أنه يريدها أن تواصل القص، فبدأت دون تأخير بالقول:

ـ صديقاتي العزيزات، القصة التي رواها بانفيلو توفر لي مدخلاً لرواية قصة أخرى لا تشبه قصته إلا في أن من سأتحدث عنها قد فقدت حبيبها، مثل أندريولا، في حديقة، وقد اعتُقلت كذلك مثلما اعتقلت أندريولا. ولكنها لم تفلت من العدالة بفعل الفضيلة أو القوة، وإنما بالموت. ومع أن الحب، كما قلنا مرات عديدة من قبل، يقيم بكل سعادة في بيوت النبلاء، إلا أن ذلك لا يمنعه من سكن بيوت الفقراء، ومن إظهار قوته في بعض الأحيان بصورة تجعل أغنى الأغنياء يرتعشون رهبة. وهذا شيء مما يحدث في قصتي التي سأرويها، والتي يسعدني أن أعود بها إلى أجواء مدينتنا، بعد أن رأيت أننا قد ابتعدنا عنها

كثيراً اليوم، متجولين في أنحاء مختلفة من العالم.

منذ زمن غير بعيد، كانت تعيش في فلورنسا فتاة جميلة وجذابة بالنسبة لمكانتها، فهي ابنة رجل فقير، اسمها سيمونا. وكان عليها أن تعمل في غزل الصوف لكي تكسب قوتها، لكن ذلك لم يمنعها من التفكير في الحب. وقد تلقته من كلمات لطيفة يوجهها إليها شاب لا يفوقها مكانة، ويتولى توزيع صوف أحد التجار على النساء لغزله، وكان يدعى باسكينو. ومع أنها كانت راغبة فيه رغبة شديدة، إلا أنها لم تتجرأ على إظهار ذلك إلا بإطلاق زفرات وتنهدات أشد حرارة من النار بينما هي تغزل، مفكرة في ذاك الذي يأتيها بالصوف لتغزله.

وكان الشاب بدوره يسعى إلى تزويد سيمونا بصوف معلمه أكثر مما يزود به الأخريات، وكأنها أفضل من تغزل الصوف بينهن. وهكذا، كان يكثر من التردد عليها، فصار أكثر جرأة في الحديث معها، بينما تخلصت هي من الخوف والخجل في حديثها إليه، إلى أن استسلما إلى متعة مشتركة. وقد استمتعا كثيراً، وكررا ذلك مرات عديدة، وبمزيد من التأجج في كل مرة. وفي أحد الأيام، قال باسكينو لسيمونا إنه راغب في أخذها إلى حديقة، حيث يمكنهما أن يكونا معاً بطمأنينة أكبر ودون خوف، فوافقت هي على ذلك. وفي يوم الأحد، بعد الغداء، قالت لأبيها إنها تريد الذهاب للتبرك بالقديس غالو. ومع صديقة لها تدعى لاجينا، ذهبت إلى الحديقة التي حددها لها باسكينو، فوجدته ينتظرها هناك مع صديق له اسمه بوشينو، ولكنه مشهور بلقب الأعور. وبينما بدأ حديث حب بين لاجينا والأعور، ابتعد باسكينو وسيمونا إلى مكان منعزل من الحديقة ليستمتعا بحبهما. وكانت في المكان الذي اختاراه نبتة مريمية ضخمة؛ جلسا إلى جوارها، وأمضيا وقتاً طويلاً في تبادل الغزل، ثم تحدثا عن وجبة خفيفة يفكران في تناولها في تلك الحديقة. والتفت باسكينو إلى نبتة المريمية وقطف بضع أوراق منها، وراح يفرك بها أسنانه ولثته، قائلاً إن أوراق هذه النبتة تنظف الأسنان من كل ما يعلق بها بعد الطعام. ثم واصل بعد ذلك الحديث عن الوجبة الخفيفة التي كان يتكلم عنها من قبل؛ وسرعان ما شحب لون وجهه، ثم فقد البصر والنطق، وما لبث أن مات بعد قليل. وحين رأت سيمونا ما حدث، بدأت تبكي وتصرخ منادية الأعور ولاجينا، فهرعا إليها راكضين ورأيا باسكينو الذي لم يكن ميتاً وحسب، بل كان قد انتفخ وملأت وجهه وجسده بقع قاتمة، فصرخ الأعور في الحال:

ـ لقد سممتِه أيتها المرأة الشريرة!

وسمع صراخه وصخبه أناس كثيرون، فاجتمع هناك حشد كبير، وعند رؤيتهم الميت المنتفخ، وسماعهم تفجع الأعور واتهامه لسيمونا بأنها سممته ـ دون أن تتمكن هي من الدفاع عن نفسها، لما أحست به من حزن وألم للحادث المفاجئ الذي اختطف منها حبيبها ـ، أساء الجميع فهم ما حدث، وظنوا أن الأمر جرى مثلما يقول الأعور؛ فأمسكوا بها، وهي تبكي مرّ البكاء، واقتادوها إلى قصر الحاكم. وهناك جرى استجوابها، ولم يستطع القاضي أن يفهم من أقوالها حقيقة ما جرى، والسبب الذي دفعها إلى ذلك التصرف الخبيث؛ فرغب في رؤية الجثة ومكان الواقعة دون تأجيل للقضية. فاقتيدت إلى هناك دون تأخير، حيث كانت جثة باسكينو لا تزال مطروحة، وسألها كيف حدث الأمر.

فاقتربت هي من النبتة، وروت القصة مثلما جرت. ولكي تجعله يفهم جيداً ما حدث، تناولت أوراقاً من النبتة، وفركت بها أسنانها مثلما فعل باسكينو. وفي أثناء ذلك، كان الأعور والمتجمعون هناك يصرون على اتهام سيمونا، ويطلبون من القاضي إدانة فعلها الشرير، وإحراقها؛ لأن النار هي العقوبة المناسبة لخبثها. أما الفتاة الحزينة لفقدان حبيبها، والخائفة من العقوبة التي يطلبونها لها، فقد راح لونها يشحب بعد أن فركت أسنانها بتلك الأوراق، ثم تهاوت على الأرض مصابة بمثل ما أصيب به حبيبها، أمام ذهول جميع الحاضرين. آه للأرواح السعيدة التي تحقق حبها وتنهي حياتها في اليوم نفسه! وستكون سعادتها أكبر إذا ما كان هناك حب في الحياة الأخرى، وتبادل الحب مثلما أحبت في هذه الحياة!

أصاب الذهول القاضي مما رآه، فظل صامتاً لبعض الوقت، ثم قال:

ـ لا بد أن هذه النبتة سامة، وهذا ليس من خصائص المريمية. ولكن، كي لا تسبب الأذى لآخرين، اقتلعوها من جذورها وألقوا بها إلى النار.

فسارع حارس الحديقة إلى تنفيذ ذلك بحضور القاضي، وما إن اقتلع النبتة الضخمة حتى ظهر سبب موت العاشقين التعسين. فقد خرجت من تحت النبتة ضفدع هائلة الحجم، يبدو أن أنفاسها النتنة هي التي سممت نبتة المريمية. لم يتجرأ أحد على الاقتراب من تلك الضفدع، بل وضعوا حولها أكواماً من الحطب، وأحرقوها هناك مع نبتة المريمية، وبهذا انتهت تحقيقات القاضي في موت باسكينو البائس. أما باسكينو وسيمونا، وكانا

منتفخين كثيراً، فقام الأعور ورفاقه بدفنهما معاً في كنيسة القديس باولو، وقد كانا من رعيتها.

القصة الثامنة

يقع جيرونيمو في حب سيلفسترا، ولكنه يذهب إلى باريس، مدفوعاً بتوسلات أمه. ولدى عودته يجدها قد تزوجت؛ فيدخل خفية إلى بيتها، ويموت إلى جانبها. وبعد نقله إلى الكنيسة، تموت سيلفسترا إلى جانبه.

بعد انتهاء قصة إيميليا، بدأت نيفيله قصتها منصاعةً لأمر الملك.

ـ يخيل إليّ، يا صديقاتي العزيزات، أن البعض يظنون أنهم يعرفون أكثر من الآخرين، بينما هم في الواقع أقل معرفة، ولهذا لا يسعون إلى معارضة نصائح البشر فقط، وإنما إلى فرض آرائهم كذلك على الأمور الطبيعية. وهو ما يؤدي إلى شرور عظيمة، دون أن يأتي قط بأي خير أو منفعة. ولأن الحب، بين الأمور الطبيعية، هو الأقل تقبلاً للنصائح أو المعارضة، ولأنه يمكن لطبيعته أن تجعله يخمد ويتلاشى من تلقاء نفسه، بينما تعجز النصائح عن انتزاعه، فقد خطر لي أن أروي قصة سيدة أرادت أن تكون عليمة أكثر مما هي عليه، فظنت أنها قادرة على انتزاع الحب من قلب عاشق؛ فتوصلت، في الوقت نفسه، إلى انتزاع الحب والروح من جسد ابنها.

كان يعيش في مدينتنا، كما يقول المسنون، تاجر كبير وغني يدعى ليوناردو سيغيري، رُزق من زوجته ابناً اسمه جيرونيمو. وبعد قليل من ولادة الابن، فارق أبوه هذه الحياة. فأشرف الأوصياء والأم على إدارة ممتلكاته والسهر عليها بكل إخلاص. وفي أثناء ذلك كان الطفل ينمو ويكبر وهو يلعب مع أترابه من أبناء الجيران، وقد تآلف بصورة خاصة مع طفلة في مثل سنه، هي ابنة خياط. ومع مرور الوقت، تحول ذلك التآلف إلى حب جارف، فلم يعد جيرونيمو يشعر بالراحة ما لم يرها. والحقيقة أن حبها له لم يكن يقل عن

حبه لها. وحين انتبهت أم الفتى إلى ذلك الحب، أنبته عدة مرات، بل إنها عاقبته أيضاً؛ ولكن دون جدوى. عندئذ تحدثت في الأمر إلى الأوصياء عليه، وقالت لهم:

ـ ابني هذا لم يبلغ الرابعة عشرة بعد، وهو مولع بحب ابنة خياط من الجيران، اسمها سيلفسترا، وإذا لم نبعدها عن طريقه ونعالج الوضع، فقد يتخذها زوجة له في أحد الأيام دون أن يخبر أحداً بالأمر، وأنا لن أرضى بذلك أبداً. أما إذا لم يتزوج منها، فيمكن لها أن تتزوج من رجل آخر، وسيموت هو حينئذ غماً وكمداً. ويبدو لي أن أفضل ما يمكننا عمله هو إرساله إلى مكان بعيد، كي يتسنى له نسيان الفتاة.

وافق الأوصياء على ذلك، واستدعوا الفتى إلى المكتب، وبدأ أحدهم بالقول له، بكل تودد:

ـ لقد صرت كبيراً يا بني، ومن المستحسن أن تبدأ أنت بإدارة أعمالك، ويسعدنا أشد السعادة أن تذهب لبعض الوقت إلى باريس، لترى كيف تجري المتاجرة هناك بجزء كبير من ثرواتك. وستتاح لك الفرصة فوق ذلك لتعلم أرقى أساليب اللباقة برؤية السادة والبارونات «وهم كثيرون هناك» وتعلم عاداتهم، ثم تعود بعد ذلك إلى هنا.

استمع الفتى إلى الاقتراح باستياء، وردّ عليهم بأنه لا يريد الذهاب لأنه يفضل البقاء، مثل الآخرين، في فلورنسا. وحين سمع السادة المحترمون ذلك، ألحوا عليه بالكلام، ولكنهم لم يستطيعوا انتزاع جواب آخر منه؛ فلم يجدوا بداً عندئذ من إخبار أمه. وقد أنبته الأم بقسوة، ليس لأنه لا يريد الذهاب إلى باريس، وإنما بسبب حبه؛ ثم هدأت بعد ذلك، واستمالته بكلمات عذبة، وتوسلت إليه بحنان أن يوافق على ما أراده الأوصياء. وقد أحسنت الكلام إلى حد وافق معه على السفر، على أن يبقى هناك سنة واحدة فقط وليس أكثر. وهكذا ذهب جيرونيمو إلى باريس وهو متيم بالحب، واستبقوه هناك سنتين وهم يقولون له اليوم لا، وغداً يمكنك الذهاب، فرجع وهو أشد شغفاً بمحبوبته. لكنه فوجئ بأن سيلفسترا قد تزوجت من حرفي شاب يصنع الخيام، فأحزنه ذلك أشد الحزن. وعندما رأى أنه لا مهرب من ذلك، بذل كل ما في طاقته لتهدئة نفسه. وصار يتمشى أمام بيتها، مثلما هي عادة الشبان العاشقين، يدفعه الأمل في ألا تكون قد نسيته مثلما لم ينسها هو. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فهي لا تتذكره، وتبدو كما لو أنها لم تره من قبل قط، وإذا كانت تتذكره، فإنها تتظاهر بعكس ذلك. عندما تكشفت الأمور للشاب على هذا النحو، صمم على التحدث إليها، ولو كلفه ذلك حياته. فاستعلم من أحد الجيران عن

ترتيب بيت المرأة؛ وفي إحدى الليالي، حين رآها تخرج مع زوجها من البيت للسهر في بيت بعض الجيران، دخل دون أن يراه أحد، واختبأ خلف بعض ستائر المخدع. انتظر هناك طويلاً إلى أن رجعا وناما، وعندما أحس بأن الزوج قد استغرق في النوم، ذهب إلى حيث رأى سيلفسترا تنام؛ فوضع يده على صدرها، وقال لها بصوت خافت:

- آه يا حبيبتي، هل أنت نائمة؟..

كانت الشابة مستيقظة، وأرادت أن تصرخ، لكن الفتى سارع إلى القول:

- بالله عليك لا تصرخي، أنا حبيبك جيرونيمو.

ارتعدت المرأة لسماعه وقالت:

- آه، بالله عليك يا جيرونيمو، انصرف من هنا. لقد انقضى الوقت الذي كنا فيه صغيرين ومتحابين. وأنا الآن متزوجة، ولا يليق بي الاستجابة لرجل آخر غير زوجي. أتوسل إليك أن تنصرف قبل أن يستيقظ زوجي، فهو يحبني وأعيش معه بأمن واطمئنان.

حين سمع الشاب هذه الكلمات، أحس بحزن رهيب، وراح يُذكّرها بالماضي وبأن البعاد لم يقلل من حبه لها. لكن التوسل والوعود لم تُجدِهِ نفعاً. وفي نهاية الأمر، لم يعد يرغب في شيء سوى الموت، فطلب منها أن تسمح له بالاستلقاء برهة إلى جوارها ليتدفأ قليلاً، لأنه كاد يتجمد وهو ينتظرها. ووعدها بأنه لن يقول لها شيئاً ولن يلمسها، وأنه سيغادر بعد أن ينال قليلاً من الدفء. أشفقت سيلفسترا عليه، فوافقت على ما طلبه شريطة أن يلتزم بما وعد به. استلقى الشاب إلى جانبها دون أن يلمسها، ولم يكن يفكر إلا في حبه لها، وبالقسوة التي تعامله بها، وفقدانه الأمل؛ وعندئذ قرر أن يموت. ضغط قبضتيه، وحبس أنفاسه إلى أن فارق الحياة. وبعد برهة، عجبت الفتاة من بقائه، وخشيت أن يستيقظ زوجها، فقالت له:

- لماذا لا تنصرف يا جيرونيمو؟..

وعندما لم تتلق جواباً، ظنت أنه قد نام، فمدت يدها لتهزه وتوقظه، ولكنها وجدته بارداً كالجليد عندما لمسته، فأذهلها ذلك، وراحت تهزه بقوة أكبر؛ لكنه لم يتحرك. فأدركت عندئذ أنه قد مات، وظلت مغمومة لوقت طويل، لا تدري ما تفعله. وأخيراً، قررت إيقاظ زوجها، وأخبرته بما جرى لها على أنه قد جرى لصديقة لها، وطلبت منه أن يجد حلاً

لذلك الوضع، وما الذي سيفعله لو أن ذلك جرى له. فأجابها الرجل الطيب بأنه يرى أن الحل الأمثل هو حمل الميت إلى بيته خفية، وتركه هناك أمام الباب، دون تأنيب المرأة لأنها لم ترتكب أية خطيئة.

فقالت له امرأته عندئذ:

ـ هذا الذي تقوله هو ما علينا عمله الآن.

ثم أمسكت يده وجعلته يلمس الشاب الميت، فأصابه الذعر، ونهض واقفاً وأشعل النور. لم يحاول الدخول في أي جدل مع زوجته، بل ألبس الجسد الميت الثياب بيديه. ودون أي تأخير، تساعده في ذلك براءته، حمل الميت على كاهله ووصل به إلى باب بيته، ووضعه هناك.

وفي الصباح، عُثر على الشاب ميتاً عند باب بيته، فحدث اضطراب شديد، لاسيما من جانب أمه. وعندما فحص الأطباء الجسد، ولم يجدوا فيه جراحاً ولا آثار ضرب، ساد الاعتقاد بأنه إنما مات غماً، مثلما هو الأمر فعلاً. وهكذا نُقل الجثمان إلى كنيسة قريبة، وهناك بكت عليه الأم الثكلى وتحسرت، ومعها الكثير من نساء الأقارب والجيران، مثلما هي عاداتنا. ووسط ذلك الحداد العظيم، قال الرجل الطيب الذي جرى الحدث في بيته لزوجته سيلفسترا:

ـ ضعي طرحة على رأسك واذهبي إلى الكنيسة، واختلطي بالنساء هناك، واسمعي ما يقلنه عن الأمر. أما أنا فسأفعل ذلك بين الرجال، لنرى إذا ما كان يقال أي شيء عنا.

استحسنت المرأة الفكرة، وكانت قد بدأت تشفق على الميت؛ فذهبت كمن هي راغبة في رؤية جثمان من لم تُنعم عليه بقبلة واحدة وهو حي. ويا للعجائب التي تتكشف عنها قوة الحب! فذلك القلب الذي لم يستطع حب جيرونيمو أن يفتحه، فتحته محنته ومنيته. فقد تأجج في قلب المرأة، فجأة، كل اللهيب القديم حين رأت الجثة؛ وأحست بألم عظيم وهي مغطاة بطرحتها، فشقت طريقها بين النساء، ولم تتوقف إلى أن وصلت إلى الجثمان؛ فأطلقت صرخة مروعة، وألقت بنفسها فوق الميت الشاب، ولم تغسله بدموعها لأن الحزن قضى على حياتها فوراً، مثلما أجهز عليه. وبعد قليل، حاولت النساء مواساتها، طالبين منها النهوض دون أن يعرفن من هي. وعندما لم تنهض، حاولن رفعها فوجدنها

متيبسة. وعندما قلبنها تبين لهن، في الوقت نفسه، أنها سيلفسترا وأنها ميتة؛ فتضاعف حزن النساء وازداد بكاؤهن. خرج الخبر من الكنيسة، وانتشر بين الرجال في الخارج، ووصل إلى مسامع زوجها الذي كان بينهم، فانخرط في البكاء غير عابئ بمواساة الآخرين له ومحاولاتهم التخفيف عنه؛ ثم روى لكثيرين ممن كانوا هناك ما جرى في تلك الليلة بين ذلك الشاب وتلك المرأة. وهكذا عرف الناس سبب موت كل منهما، وتألم الجميع لذلك.

أخذوا جثمان الميتة الشابة، فزينوه مثلما تزين أجساد الموتى، ومددوها إلى جانب الشاب. وبعد البكاء عليهما طويلاً، دُفنا معاً في القبر نفسه. وهكذا فإن لم يجمعهما الحب في الحياة، جمعهما الموت معاً إلى الأبد.

القصة التاسعة

السيد غيليوم دي روسيّون يُطعم زوجته قلب السيد غيليوم غاردستان بعد قتله، لأنها كانت تحبه. وحين تعلم الزوجة، تلقي بنفسها من نافذة عالية وتموت؛ فتدفن مع عشيقها.

انتهت نيفيله من رواية قصتها، مثيرة في نفوس جميع صديقاتها إحساساً بالشفقة، ولم يبق أحد سوى الملك الذي لم يشأ إلغاء امتياز ديونيو بأن يكون آخر المتكلمين، فبدأ بالقول:

ـ سيداتي الرحيمات، أرى أنكن تتأثرن بشدة وتحزنّ لسماع أخبار الغراميات التعسة، والقصة التي سأرويها لكنَّ ستبكيكنّ وتحزنكن كما القصص السابقة، أو أكثر منها، لأن النكبات أشد قسوة، ومن جرت لهم الوقائع هم أعلى مكانة ومقاماً.

حسب ما يرويه أهالي بروفانس، كان يعيش هناك فارسان نبيلان، لكل منهما قلعته وكثير من الأعوان والخدم، اسم أحدهما غيليوم دي روسيون واسم الآخر غيليوم غاردستان. وكلاهما كان بارعاً في فنون القتال، ويحظى كل منهما بمحبة الآخر

وتقديره. يهرعان معاً إلى المبارزات ومباريات الترامح والتطاعن وغيرها من منافسات السلاح؛ ويحملان الراية نفسها، مع أن كلاً منهما كان يعيش في قلعته التي تبعد عن القلعة الأخرى أكثر من عشرة أميال. وقد كانت لغيليوم دي روسيون زوجة جميلة وجذابة، وقع غيليوم غاردستان في حبها، بالرغم من روابط الصداقة والمحبة التي تربطه بزوجها. وبلغ هيامه بها أن راح يبدي ذلك في نظراته، إلى أن انتبهت السيدة إلى ذلك. ولأنها كانت تعرف أنه فارس شجاع، فقد أعجبها وبدأت تهيم في حبه إلى أن لم تعد تحب شيئاً مثل حبها له، ولا تنتظر إلا دعوة منه؛ وهو ما تحقق بعد وقت قصير. وهكذا صارا يلتقيان ويتبادلان الحب مرة بعد أخرى.

ولأنهما لم يحرصا على السرية والتكتم، فقد اكتشف الزوج أمرهما، وتحولت الصداقة إلى غضب وحقد قاتلين. لكنه تمكن من كبح غضبه، وكتم الأمر أكثر مما فعل العاشقان في إخفاء حبهما، وصمم بينه وبين نفسه على قتل خصمه. وحدث أن أُعلن في تلك الأثناء عن مبارزة كبرى تقام في فرنسا، فأرسل روسيون إلى غاردستان يخبره بذلك، ويطلب منه المجيء إليه ليبحثا معاً في شروط المبارزة وكيفية المشاركة فيها. فرد عليه غاردستان، بسعادة، بأنه سيوافيه بكل تأكيد في اليوم التالي، وسيتناول العشاء معه. وحين سمع روسيون ذلك، فكر في أن الوقت قد حان لقتله.

وفي اليوم التالي، ارتدى دروعه وتسلح بأسلحته، ثم امتطى جواده وانطلق مع بعض خدمه إلى مسافة ميل عن قلعته، وكمن مترصداً في غابة لا بد لغاردستان من المرور منها. وبعد مرور بعض الوقت، رآه يقترب دون سلاح مع رجلين من أعوانه غير مسلحين مثله، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى الحذر. وما إن وصل غاردستان إلى ذلك المكان الذي يكمن له فيه، حتى خرج له روسيون بقسوة وحقد، شاهراً رمحه، واعترض طريقه صارخاً:

ـ الموت للخائن!

قال ذلك وبادره بطعنة من الرمح في صدره؛ فلم يستطع غاردستان الدفاع عن نفسه أو النطق بكلمة واحدة. فقد اخترقه الرمح، وخرّ على الأرض، وما لبث أن فارق الحياة بعد قليل. أما الخادمان اللذان لم يعرفا من الذي فعل ذلك بسيدهما، فقد أدارا جواديهما وهربا بأسرع ما يستطيعان باتجاه قلعة سيدهما. عند ذلك نزل روسيون عن صهوة جواده، وشق صدر غاردستان بسكين، ثم انتزع قلبه بيده، ولفه براية الرمح، وأمر خادماً من أتباعه

بحمله. وطلب من الجميع الصمت وعدم التكلم بكلمة واحدة عما حدث، ثم امتطى جواده، وعاد تحت جنح الظلام إلى قلعته.

كانت السيدة قد علمت بأن غاردستان سيأتي للعشاء في تلك الليلة، فراحت تنتظر قدومه بفارغ الصبر، ولكنها فوجئت حين رأت أنه لم يأت، فسألت زوجها:

ـ ما الذي حدث يا سيدي وجعل غاردستان يتخلف عن المجيء؟..

فأجابها الزوج:

ـ لقد بعث يخبرني بأنه لن يستطيع المجيء حتى الغد.

أحست السيدة باستياء شديد لسماع ذلك.

ونزل روسيون عن جواده، ونادى الطاهي وقال له:

ـ خذ قلب الخنزير البري هذا، وأعدّ لنا منه أفضل وجبة تستطيع إعدادها، ثم أحضره في طبق من الفضة.

أخذ الطاهي القلب ونفذ أمر سيده، فتبله بأفضل أنواع التوابل، وبذل في طهوه كل خبرته ومعارفه، جاعلاً منه ألذ طبق يمكن تصوره. وعندما حان موعد العشاء، جلس السيد غيليوم دي روسيون إلى المائدة مع زوجته، وجيء بالطعام؛ ولكنه لم يستطع أن يأكل إلا قليلاً، لانشغال فكره بالجريمة الشنيعة التي أقدم على ارتكابها. وعندما جاء الطاهي بذلك الطبق الخاص، تظاهر السيد بأنه ليس جائعاً، وقدم الطبق إلى زوجته، وهو يطري عليه. فراحت تأكله بتلذذ ونهم إلى أن أتت عليه بكامله. عندئذ سألها روسيون:

ـ هل أعجبك هذا الطعام؟..

فأجابت السيدة:

ـ بصراحة يا سيدي، لقد أعجبني كثيراً.

ـ فليساعدني الرب ـ قال الفارس ـ ولست أعجب أن يروقك ميتاً ما كان يروقك حياً.

أصاب الذعر المرأة حين سمعت قوله، فسألته:

ـ ما الذي تعنيه؟.. وما هو هذا الطعام الذي قدمته لي؟..

فأجابها الفارس:

ـ ما أكلتِه في الحقيقة هو قلب السيد غاردستان الذي أحببته لأنك امرأة خائنة. وأؤكد لك أنه قلبه لأنني انتزعته بيدي من صدره.

حين سمعت المرأة ذلك الكلام عمن كانت تحبه أكثر من أي شيء في الوجود، أحست بألم لا يمكن وصفه. ثم قالت بعد بعض الوقت بشيء من الهدوء:

ـ لقد قمت بما يقوم به فارس خائن وخسيس، فأنا من استسلمت له وجعلته ملك حبي دون إكراه منه أو قسر؛ وكنت أنا الجديرة بالعقاب وليس هو. ولن يُرضي الرب أن ينزل طعام آخر بعد الآن، حيث نزل أنبل طعام متمثلاً بقلب أشجع الفرسان وأكرمهم، قلب السيد غيليوم غاردستان.

نهضت منتصبة، ودون أن تتردد لحظة واحدة، ألقت بنفسها من نافذة وراءها. كان الارتفاع كبيراً، فلم تمت السيدة لدى سقوطها وحسب، بل تمزق جسدها أشلاء. وحين رأى السيد غيليوم ذلك أحس بالندم، وأدرك سوء صنيعه. ولخوفه من غضب الفلاحين وكونت بروفانس، أمر بسرج الخيول، وهرب من المكان. وفي صباح اليوم التالي، علم الجميع بما حدث. وببكاء وألم شديدين، حمل الناس الجسدين إلى قلعة غيليوم غاردستان، ودفنا هناك في القبر نفسه. وكُتبت على لوحة القبر أشعار تتحدث عن المدفونين في القبر، وعن سبب وكيفية موتهما.

القصة العاشرة

تعتقد زوجة طبيب أن عشيقها قد مات، فتضعه في صندوق يحمله مرابيان إلى بيتهما. يستعيد الرجل وعيه ويستيقظ، فيلقى عليه القبض على أنه لص. فتخبر خادمة السيدة الحاكم بأنها هي من وضعته في الصندوق الذي سرقه المرابيان، فينجو العشيق من المشنقة، ويُحكم على المرابيين بدفع غرامة لأنهما سرقا الصندوق.

بعد أن أنهى الملك قصته، لم يبق أحد من الرواة سوى ديونيو، ولأنه عرف أن دوره قد

جاء، فقد بدأ بالقول:

ـ نكبات هذه الغراميات المأساوية لم تحزنكن وحدكن أيتها السيدات، وإنما أثرت بي وأحزنتني أنا أيضاً. والحمد لله أنها انتهت، وسأواصل أنا الآن بموضوع أكثر مرحاً.

منذ زمن غير بعيد يا سيداتي، كان في ساليرنو طبيب جراح مشهور يدعى المعلم مازيو ديلا مونتانا. وكان عجوزاً تقدمت به السن عندما فكر في الزواج؛ فتزوج من فتاة جميلة ونبيلة من المدينة، وقدم لها من الملابس الثمينة الفاخرة والمجوهرات النفيسة ما يمكن لأي امرأة أن تتمناه. والحقيقة أن تلك الزوجة ظلت تعاني البرد في معظم الأوقات، لأن المعلم نادراً ما كان يوفر لها الدفء في الفراش. وكان هذا الزوج، مثل السيد ريكاردو دي شينزيكا الذي سبق أن تحدثنا عنه، يقول لزوجته إن النوم مع المرأة مرة واحدة، يتطلب أياماً طويلة من الخلود للراحة؛ لكن ذلك لم يرضها، وكانت تعيش في استياء دائم. وقد قررت بينها وبين نفسها أن تبحث بين الرجال الآخرين عن شخص تستنزفه، كي تحافظ على صحة زوجها ولا تلحق به الأذى. أمعنت النظر في رجال كثيرين وتأملتهم إلى أن أُغرمت أخيراً بواحد منهم، فعلّقت عليه كل آمالها، وكل اندفاعها، وكل ثروتها. وقد انتبه الشاب إلى ذلك، وأعجبته المرأة كثيراً، وصارت حبه كله أيضاً. كان اسمه روجيري دي إيرولي، وهو شاب نبيل الأصل؛ لكنه يعيش حياة خبيثة ومضطربة، لم يعد لديه معها صديق أو قريب يحبه أو يرغب في رؤيته. وكان جميع من في ساليرنو يتهمونه بالسرقة وبكل أنواع المخازي، لكن المرأة لم تحفل بكل ذلك، لأنها أعجبت به لأسباب أخرى. وبمساعدة خادمة لها، بعد كثير من التحضير، تمكن العاشقان من اللقاء. وبعد أن استمتعا ببعض الملذات، راحت المرأة تنتقد حياته السابقة، وترجوه أن يبتعد عن السرقات وغيرها من الأمور الخبيثة، ويعود إلى جادة الصواب إذا كان يحبها. وكي تساعده على ذلك، صارت تقدم له مبلغاً من المال بين حين وآخر. واستمرا على تلك الحال من التكتم الشديد.

وحدث في أثناء ذلك أن جيء إلى الطبيب بمريض أصيب عظم ساقه بالتهاب خطير، وعندما رأى المعلم سوء حالته، قال لذويه إن وجود عظم متعفن في الساق يستدعي استخراجه، وإلا أدى ذلك إلى بتر الساق كلها أو موت المريض. ولهذا لا بد من إخراج ذلك

العظم، فإذا رفضوا فإنه سيعتبره ميتاً، ولن يعالجه. فوافق أهل المريض على ذلك بعد أن تشاوروا في الأمر، وسلموه المصاب. فقدر الطبيب أن المريض لن يتحمل الألم دون تخدير، ولن يمكنه من إجراء المداخلة، ولا بد بالتالي من الانتظار حتى مساء اليوم التالي كي يقوم بذلك العمل. وفي الصباح، أمر بتقطير مادة سائلة تنوم المريض طوال الوقت المقدر لعلاجه، وجاء بها إلى البيت في إناء وضعه على نافذة غرفة النوم، دون أن يخبر أحداً بذلك. وعند الغروب، عندما كان المعلم يتأهب للذهاب إلى المريض، جاءه رسول بعثه أصدقاء مقربون يطلبون منه الذهاب فوراً إلى أمالفي، لأن شجاراً كبيراً جرى هناك، وسقط فيه عدد من الجرحى. فأجَّل الطبيب علاج ساق المصاب إلى اليوم التالي، وركب زورقاً وذهب إلى أمالفي. وعندما علمت المرأة أن زوجها سيقضي تلك الليلة خارج البيت، طلبت من روجيري المجيء إلى بيتها، وأدخلته إلى المخدع، وحبسته فيه ريثما ينام من في البيت. وبينما هو ينتظرها في الحجرة، أحس بظمأ شديد «إما لأنه أجهد نفسه خلال النهار، أو لأنه أكل طعاماً مالحاً، أو لأنها عادة لديه»، فرأى على النافذة إناء السائل المنوِّم الذي أعده الطبيب لمريضه، فرفع الإناء إلى فمه وهو يحسب ما فيها ماء، وشربه كله. ولم يمض وقت طويل حتى شعر بالنعاس، وغرق في نوم عميق.

عادت المرأة إلى المخدع بأسرع ما استطاعت، وحين وجدت روجيري نائماً، بدأت تهزه وتطلب منه بصوت خافت أن ينهض، ولكن دون جدوى. وعندما ألحت، لم يجبها ولم يتحرك، فغضبت المرأة وراحت تهزه بقوة أكبر قائلة له:

ـ انهض أيها النؤوم. إذا كنت تريد النوم، فاذهب للنوم في بيتك وليس هنا.

وبينما هي تدفع روجيري على ذلك النحو، وقع من فوق الصندوق الذي ينام عليه إلى الأرض، دون أن يبدي ما يشير إلى أنه حي؛ فأخاف ذلك المرأة، وحاولت حمله على النهوض، وأخذت تهزه بقوة أكبر، وتشد أنفه ولحيته، لكن ذلك لم ينفعها في شيء. عندئذ بدأ القلق يساورها في أن يكون قد مات، فراحت تقرصه بشدة، وتحرقه بشمعة مشتعلة. ولأنها ليست طبيبة، وإنما زوجها هو الطبيب، فقد ظنت أنه قد مات. ولأنها تحبه كثيراً، فلا حاجة للسؤال عن مدى حزنها عليه. ولكنها لم تتجرأ على الصراخ، وراحت تبكي فوق رأسه بصمت. وبعد بعض الوقت، ولخشيتها من أن تضيف الفضيحة إلى عارها، فكرت في أنه عليها أن تجد، بأسرع ما يمكن، طريقة لإخراج الميت من بيتها. ولعجزها

عن التوصل إلى طريقة بنفسها، استدعت خادمتها سراً، وأطلعتها على نكبتها طالبة منها النصح.

أدهش ذلك الخادمة، فراحت تهزه بدورها وتدفعه، وعندما رأت أنه لا يحس بشيء، أيدت قول سيدتها بأنه قد مات حقاً، ونصحتها بإخراجه من البيت.

فقالت السيدة:

- وأين سنضعه بحيث لا يرتاب أحد في الغد أنه أُخرج من هنا؟..

وردت عليها الخادمة:

- سيدتي، لقد رأيت مساء اليوم أمام حانوت جارنا النجار صندوقاً كبيراً جداً، فإذا هو لم يُدخله إلى بيته، سيكون مناسباً جداً لما نحن بحاجة إليه، لأننا نستطيع وضعه فيه، وتركه هناك. ومن سيجده في الصباح، لن يعرف من أين خرج. وبما أنه سيئ السمعة، فسوف يظنون أن أحد أعدائه هو الذي قتله؛ ومن أجل تأكيد ذلك يمكن لنا أن نطعنه طعنتين أو ثلاث طعنات.

وافقت المرأة على خطة الخادمة، باستثناء طعنه، قائلة إنها لا تتحمل فعل ذلك به مقابل أي شيء في الدنيا. ثم أمرت خادمتها بالخروج لترى إذا ما كان الصندوق موجوداً، فأكدت لها هذه لدى عودتها إنه مازال موجوداً في الخارج. كانت الخادمة شابة وقوية، فحملت روجيري على ظهرها بمساعدة السيدة التي سارت أمامها لترى إذا ما كان هناك أحد، فوصلتا إلى الصندوق، ووضعتاه فيه وأغلقتاه، ثم انصرفتا.

وقريباً من المكان، كان يسكن، منذ بضعة أيام، شابان ممن يعملون في الربا وإقراض المال، ولأنهما كانا يتلهفان إلى كسب الكثير وإنفاق القليل، وكانا بحاجة إلى أثاث، فقد رأيا ذلك الصندوق في اليوم السابق، واتفقا على حمله إلى بيتهما إذا ما ظل هناك في الليل. وعند انتصاف الليل، خرجا من البيت، ووجدا الصندوق في مكانه. ومع أنه بدا لهما ثقيلاً، إلا أنهما حملاه إلى بيتهما دون أن يتأكدا مما في داخله، ووضعاه إلى جانب حجرة تنام فيها زوجتاهما، دون أن يهتما بوضعه ثابتاً، ثم تركاه وذهبا للنوم.

استيقظ روجيري عند الفجر، بعد أن انتهى مفعول المخدر، ومع أنه استعاد حواسه وقوته، إلا أن عقله ظل مشوشاً بعض الشيء، ليس في تلك الليلة وحسب، وإنما طوال عدة

أيام تالية. وحين فتح عينيه ولم ير شيئاً، مد يده بهذا الاتجاه وذاك، فوجد نفسه في صندوق، فراح يتساءل مذعوراً: «ما هذا؟.. أين أنا؟.. أأنا نائم أم مستيقظ؟.. أتذكر أنني دخلت إلى مخدع عشيقتي هذه الليلة، ويبدو أنني الآن في صندوق. ما الذي حدث؟.. وما الذي يعنيه هذا؟.. أيكون زوجها قد رجع واضطرت إلى إخفائي هنا؟.. هذا ما أظنه، ولا بد أن الأمر كذلك». أشعره ذلك بالقلق، وأصاخ السمع ليرى إن كان يسمع شيئاً، وحين لم يسمع شيئاً بعد بعض الوقت، وكان يحس بألم في خاصرته التي يستند إليها، أراد أن ينقلب على جانبه الآخر، ففعل ذلك ببراعة. ولكن كليته ارتطمت بأحد جوانب الصندوق الذي كان موضوعاً على أرض غير مستوية، مما جعله يتلوى ثم يسقط. أحدث سقوط الصندوق دوياً كبيراً، أيقظ المرأتين اللتين في الحجرة المجاورة، ولكنهما ظلتا صامتتين من الخوف. أما روجيري، فقد خاف كثيراً لدى سقوط الصندوق، لكنه رأى أن الصندوق قد انفتح بعد سقوطه، ووجد أن من الخير له أن يكون خارج الصندوق، إذا ما حدث شيء، وليس في داخله. ولأنه في مكان مظلم لا يعرفه، راح يمشي في البيت متلمساً طريقه، لعله يجد سلّماً أو باباً يخرج منه. أحست بحركته المرأتان اللتان استيقظتا، فبدأتا القول:

- من هناك؟..

لم يتعرف روجيري على الصوت، فظل صامتا. وأخذت المرأتان تناديان زوجيهما الشابين المستغرقين في النوم بعد سهرهما الطويل. عندئذ نهضت المرأتان وأطلتا من النافذة، وراحتا تصرخان:

- إلى اللص! إلى اللص!

فهرع الجيران من كل مكان مثيرين الهرج والمرج، واستيقظ المرابيان الشابان على الجلبة. وأُلقي القبض على روجيري الذي لم يعد يدري ماذا يفعل أو أين يذهب، واقتيد إلى حاكم المدينة. ولأن الجميع كانوا يعرفون شرور روجيري وخبثه، فقد بُدئ بتعذيبه فوراً، فاعترف بأنه دخل بيت المرابيين كي يسرق، ولهذا قرر الحاكم أنه لا بد من شنقه فوراً.

وفي الصباح انتشر في كل أنحاء ساليرنو خبر اعتقال روجيري متلبساً بالسرقة في بيت المرابيين، وذهلت السيدة زوجة الطبيب وخادمتها حين سمعتا الخبر، حتى حسبتا أن ما فعلتاه في الليل كان حلماً. ولكن السيدة أحست بالجزع للخطر الذي يتهدد روجيري،

وكادت تفقد عقلها.

وبعد قليل من ذلك رجع الطبيب من أمالفي، وبحث عن السائل الذي سيعطيه للمريض؛ لكنه وجد الإناء فارغاً، فأحدث جلبة مريعة وهو يصرخ أن لا شيء يبقى في هذا البيت في مكانه.

فردت عليه المرأة المغمومة من الأسى:

ـ ما الذي كنت ستفعله لو أن الأمر خطير، ما دمت تثير كل هذه الجلبة من أجل بعض الماء؟.. ألا يوجد ماء سواه في الدنيا؟..

وهنا قال المعلم:

ـ أنت تظنين أنه ماء عادي يا امرأة، إنه ليس كذلك؛ بل هو ماء معدّ للتنويم. وأخبرها بسبب تحضيره ذلك السائل.

عندما سمعت المرأة كلامه، أدركت أن روجيري هو الذي شرب ذلك السائل، ولهذا بدا لها ميتاً، فقالت:

ـ لم نكن نعرف ذلك أيها المعلم، وما عليك إلا أن تقطر بدلاً منه.

لم يجد الطبيب حلاً آخر، فراح يركب كمية جديدة من الشراب. وبعد قليل، رجعت الخادمة من الشارع، حيث بعثتها سيدتها لترى ما الذي يقال عن روجيري، وقالت للسيدة:

ـ سيدتي، الجميع يتكلمون بالسوء عن روجيري، وليس هناك قريب أو صديق يدافع عنه؛ ولهذا سوف يُشنق غداً. وأريد أن أخبرك بشيء آخر غريب.. يبدو لي أنني فهمت منه كيف وصل روجيري إلى بيت المرابيين. فقد سمعت جارنا النجار يتشاجر مع شخص يطلب منه أن يعيد إليه نقوده، ويبدو أنه من أوصى على الصندوق، وكان النجار يقول إنه لم ير الصندوق منذ الصباح، ولا بد أن يكون قد سرقه أحدهم في الليل. فرد عليه ذلك الشخص: «ليس هذا صحيحاً، وإنما أنت بعته إلى الشابين المرابيين، وقد أخبراني بذلك حين رأيت الصندوق في بيتهما، أثناء اعتقال روجيري». فقال له النجار: «إنهما يكذبان، فأنا لم أبع لهما الصندوق، ولا بد أنهما سرقاه في الليل، هلم بنا إلى بيتهما». وقد ذهبا معاً إلى بيت المرابيين، وجئت أنا إلى هنا. وكما ترين، فإنني أظن أن روجيري قد حُمل مع

الصندوق عند سرقته. ولكنني لا أفهم كيف انبعث حياً.

عندئذ أخبرتها السيدة بكل ما قاله زوجها، وتوسلت إليها أن تساعدها في إنقاذ روجيري، لأنها راغبة في إنقاذه والحفاظ على شرفها في الوقت نفسه.

فقالت لها الخادمة:

ـ أخبريني بالطريقة يا سيدتي، وأنا مستعدة لمساعدتك بكل طاقتي.

وكانت السيدة قد فكرت بسرعة في ما يجب عمله، وأطلعت الخادمة على خطتها كاملة. فذهبت الخادمة في أول الأمر إلى الطبيب، وقالت له وهي تبكي:

ـ أرجوك أن تسامحني يا سيدي على الذنب الذي اقترفته بحقك.

فاستفهم الطبيب:

ـ أي ذنب تعنين؟..

ولم تتوقف الخادمة عن البكاء وهي تقول:

ـ سيدي، أنت تعرف من هو الشاب روجيري دي أييرولي. لقد أحبني هذا الشاب يا سيدي منذ سنة، وقد حملني بالتهديد والحب إلى أن أكون عشيقته؛ وحين علم مساء أمس أنك غير موجود في البيت، راح يتودد إليَّ كي أُدخله حجرتي لينام معي، وهذا ما فعلته. وفجأة أحس بظمأ شديد، فلم أستطع أن آتيه بماء أو نبيذ خوفاً من أن تراني زوجتك التي كانت في الصالة. وعندئذ تذكرت أنني رأيت في مخدعكما إناء ماء، فهرعت لإحضاره وقدمته إليه. وبعد أن شرب، أعدتُ الإناء فارغاً إلى مكانه. وقد علمت أن ذلك أغضبك كثيراً. أنا أعترف بأنني قد أسأت التصرف، ولكن من منا لم يسئ التصرف ولو مرة يا سيدي؟.. إنني نادمة على ما فعلت، لاسيما أن روجيري على وشك أن يفقد حياته، بسبب تناوله ذلك الشراب وما تلاه من أحداث، فأرجو منك أن تصفح عني، وأن تسمح لي بالذهاب لمساعدة روجيري قدر ما أستطيع.

ومع أن الطبيب كان غاضباً، فإنه لم يستطع سوى الرد عليها مازحاً:

ـ لقد عاقبتِ نفسك بنفسك، فبدلاً من أن تقضي الليلة في الملذات مع الشاب، وجدتِ نفسك مع رجل نؤوم. أما الآن، فاذهبي وحاولي إنقاذه، ولكن إياك أن تعودي إلى إدخاله

ثانية إلى البيت، لأنك ستدفعين ثمن ذلك غالياً.

تحمست الخادمة حين رأت ما حققته من نجاح في خطوتها الأولى، فأسرعت إلى السجن حيث يقبع روجيري، وتملقت السجان طويلاً إلى أن سمح لها بالتكلم إلى السجين. وبعد أن أخبرت روجيري بكل ما عليه أن يقوله للحاكم كي ينجو بحياته، بذلت كل ما في وسعها للمثول بين يدي الحاكم. ولكن هذا رآها جميلة وطازجة، فلم يشأ الاستماع إلى أقوالها قبل أن تمكنه من نفسها، فأتاحت له ذلك دون كثير من المقاومة. وما إن نهضت من المعمعة، حتى بدأت بالقول له:

- سيدي، سجينكم روجيري دي أيبرولي بريء من التهمة الموجهة إليه.

وبدأت تروي ما جرى لحبيبها، من البداية حتى النهاية، وكيف أدخلته إلى بيت الطبيب، وأعطته الشراب المخدر، وهي لا تعرف حقيقته، وكيف وضعته في الصندوق لاعتقادها أنه قد مات؛ ثم أخبرته بعد ذلك بما سمعته من النجار وصاحب الصندوق، موضحة بذلك كيف أُدخل روجيري إلى بيت المرابيين. حين سمع الحاكم كلامها، وجد أنه من السهل عليه التأكد من صحته؛ فسأل الطبيب أولاً عن حقيقة الشراب الذي كان في الإناء، فأكد الطبيب صحة أقوالها. ثم استدعى النجار وصاحب الصندوق والمرابيين، وبعد تحقيق طويل، تبين له أن المرابيين قد سرقا الصندوق في الليلة السابقة. وأخيراً، جيء إليه بروجيري، وسأله عما جرى له في الليلة السابقة، فقال إنه لا يعرف كل ما جرى له، لكنه يتذكر جيداً أنه دخل إلى حجرة خادمة الطبيب مازيو، وشرب هناك ماء لأنه أحس بظمأ شديد؛ أما ما حدث له بعد ذلك فلا يعرف عنه أي شيء، اللهم إلا أنه وجد نفسه، عندما استيقظ، داخل صندوق في بيت المرابيين.

حين سمع الحاكم هذه القصة المضحكة، طلب من الجميع، عدة مرات، أن يعيدوا رواية ما حدث. وأخيراً، وبعد أن تبين له أن روجيري بريء، حكم على المرابيين بدفع غرامة مقدارها عشر أوقيات من الفضة، وأطلق سراح الشاب. وقد احتفل روجيري بخلاصه بعد ذلك مع السيدة والخادمة التي كانت قد اقترحت طعنه بضع طعنات، وضحكا من ذلك طويلاً. وواصل هو والسيدة غرامياتهما التي كانت تتحسن أكثر فأكثر، وهو ما أتمنى أن ألاقيه أنا أيضاً، ولكن دون أن أُحشر في أي صندوق.

●●

إذا كانت القصص الأولى قد أحزنت قلوب السيدات المرهفات، فإن قصة ديونيو الأخيرة هذه أضحكتهن كثيراً، وشعرن بأنهن كوفئن عن الأحزان التي غمرتهن في القصص الأخرى. ولكن الملك رأى أن الشمس آخذة بالغروب، وأن يوم حكمه قد بلغ منتهاه، فاعتذر من السيدات الجميلات بكلمات مهذبة عما فعله، وهو يعني الموضوع القاسي الذي اختاره عن تعاسة العاشقين، ثم نزع إكليل الغار عن رأسه. انتظرت السيدات ليرين على رأس من سيضعه، فاقترب من فياميتا ووضعه على رأسها شديد الشقرة قائلاً:

ـ أضع هذا التاج على رأسك لأنك ستعرفين، خيراً من الجميع، التسرية في الغد عن صديقاتنا هؤلاء، ليجدن العزاء عما لقينه اليوم.

كان لفياميتا شعر طويل ذهبي الشقرة، ينسدل على كتفيها الحساسين البريئين، ووجه مدور بديع هو مزيج من بياض الزنبق وحمرة الورد، وعينان كأنهما عينا نسر جوال، وفم صغير تبدو شفتاه كياقوتتين؛ فردت عليه وهي تبتسم:

ـ إنني أتقبله منك بكل سرور يا فيلستراتو، ومن أجل تحسين رؤية ما فعلته اليوم، فإنني آمر الجميع منذ الآن بأن يهيئوا أنفسهم كي يرووا لنا غداً عن الصروف والنكبات القاسية التي يتعرض لها بعض العشاق، على أن تكون النهاية التي ينتهون إليها سعيدة.

أرضى اقتراحها الجميع. فاستدعت القهرمان ورتبت معه كل ما هو ضروري، ثم أمرت الجماعة بالنهوض ومنحتهم الإذن بعمل ما يشاؤون حتى موعد العشاء. فذهب بعضهم إلى الحديقة التي لا يمكن الملل من رونقها وبهائها، وذهب آخرون إلى الطواحين التي لا تكف عن الدوران خارج الحديقة، وانتشر بعضهم هنا وبعضهم هناك، كل حسب رغبته ومشيئته إلى أن حان موعد العشاء. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، التأم شمل الجميع، كما هي عادتهم، إلى جانب النافورة البديعة، وراحوا يرقصون ويغنون. وكانت فيلومينا هي التي تقود الرقص؛ فقالت الملكة لفيلوستراتو:

ـ لا أريد يا فيلوستراتو أن أخالف ما سار عليه من سبقوني، ولهذا أريد منك أن تطيعني وتغني أغنية؛ ولأنني واثقة من أن أغنياتك كئيبة مثل قصصك، أريدك أن تغني لنا واحدة منها، ليكون هذا هو آخر الأيام المعكرة بتعاساتك. فرد فيلوستراتو بأنه سيلبي

طلبها راضياً، وبدأ الغناء على هذا النحو:

بدموعي أُبيِّن لك
أيها الحب، مرارة وألم
قلبي المخدوع بالخيانة.
عندما أسكنتَ أنت فيه، أولاً،
يا حب، مَنْ أذرف الدموع عليها
دون أمل بالخلاص،
أظهرتها لي مفعمة بفضيلة
استسهلتُ معها كل انكسار
يأباه عقلي
ووقعتُ في العذاب والأسى،
لكنني الآن، أيها الحب،
وبغير قليل من الحزن،
أعرف كم كنت مخدوعاً.

أظهرت لي خطئي،
عندما وجدت نفسي وقد هجرتني
تلك التي حسبتُ أنني خادمها،
وأنني سعيد في كنفها،
لكنها لم تلتفت لشقائي
حين ضمت إليها عشيقاً آخر
ورمت بي من قلبها.

عندما وجدت نفسي طريداً،
فاض قلبي بدموع الأسى،
وما زلت أبكيها،
ألعن اليوم والساعة

اللذين رأيت فيهما الوجه الحبيب
يزينه بهاء الفجر،
فتتأجج روحي بغضب لم تعرفه قط،
وتلعن ثقتي بها، وأملي، وحبي لها.

ليس لآلامي عزاء،
وأنت عارف بذلك يا سيدي،
لأنني أدعوك دوماً بصوت حزين؛
وأخبرك بما أنا فيه من شقاء
يبدو الموت أمامه شر ضئيل.
فليته يأتي إليّ،
ويضع، بضربة واحدة، حداً لبكائي،
ويجعل غضبي أخف.

لم يبق طريق آخر ولا خلاص
لحياتي الحزينة سوى الموت،
فاعطني الموت سريعاً أيها الحب
لتنتهي به عذابي
وخلّص قلبي من هذه الحياة.
وأسعدها بموتي أيها الحب،
مثلما أسعدتها بحب آخر جديد.
آه يا أغنيتي،
إذا لم يفهمك الآخرون
فلست أبالي، لأن أحداً لن يستطيع
أن يغنيك مثلي.
ولست أريد منك يا أغنيتي
سوى أن تلتقي الحب وتخبريه

كم هي مريرة حياتي الحزينة،
وتوسلي إليه أن ينقلني إلى مكـن أفضل،
وأقل قسوة.

أظهرت كلمات هذه الأغنية بوضوح حال فيلوستراتو وروحه؛ وبما كان يمكن لوجه سيدة كانت ترقص هناك أن يكشف ذلك بصورة أوضح، لو أن ظلمة الليل الآخذة بالازدياد لم تخفِ تورد الحياء في وجهها ولكنه بعد أن أنهى أغنيته، كانت هناك أغنيات أخرى كثيرة، إلى أن حان موعد النوم، فأمرتهم الملكة بأن يذهب كل واحد منهم إلى حجرته.

وهنا ينتهي اليوم الرابع

اليوم الخامس

ينتهي اليوم الرابع ويبدأ اليوم الخامس من الديكاميرون، وفيه، تحت حكم فياميتا، يجري الحديث عن أمور سعيدة تحدث لبعض العاشقين، بعد نكبات أو أحداث قاسية.

كان البياض يغطي الأفق الشرقي بكامله، وكانت الأشعة الوليدة تنشر الضياء في أجوائنا كلها، عندما نهضت فياميتّا على غناءٍ عذب تصدح به الطيور المغردة بسعادة على الأشجار، منذ أولى تباشير الفجر. فأمرت باستدعاء السيدات والشبان الثلاثة، ونزلوا جميعهم معاً إلى الحقول بخطى متباطئة، عبر الدرب المنحدر بين الأعشاب المخضلة بالندى. وظلوا يتمشون ويتكلمون في أمور مختلفة، إلى أن ارتفعت الشمس كثيراً؛ وحين أحسوا باشتداد حرارة أشعة الشمس، رجعوا إلى البيت؛ فتناولوا هناك بعض الأنبذة الفاخرة للتخفيف مما أحسوا به من تعب، ثم واصلوا تسليتهم في الحديقة الغناء حتى موعد الغداء الذي كان القهرمان الرصين قد أعده على أحسن وجه. وبعد أن غنوا بعض الأغنيات بمرح وسعادة، استجابوا لأمر الملكة بالجلوس لتناول الطعام. وعند الانتهاء من الغداء الذي تناولوه بانتظام وبهجة، لم ينسوا عادتهم الثابتة في الرقص. وعلى أنغام آلاتهم الموسيقية، رقصوا بعض الرقصات، وغنوا بعض الأغنيات. وبعد ذلك، حان موعد القيلولة، وأذنت الملكة لهم بعمل ما يشتهون؛ فذهب بعضهم للنوم، وظل آخرون يلهون في الحديقة البديعة. ولكنهم عادوا جميعهم، بعد العصر بقليل، للاجتماع كما طلبت الملكة، وحسب عادتهم المتبعة، إلى جوار الينبوع.

جلست الملكة في مكان بارز، ونظرت إلى بامفيلو وهي تبتسم، وأمرته أن يبدأ قصص النهايات السعيدة. فلبى طلب الملكة بانشراح، وبدأ يقول:

القصة الأولى

يصير سيموني حكيماً بفضل الحب، فيخطف حبيبته إيفيجينيا. لكنه يُؤسر ويُسجن في رودس، وهناك يحرره ليسيماكوس. وبتعاونهما معاً، يحرران إيفيجينيا وكاسندرا، ويهرب الجميع إلى كريت، حيث يتزوجان منهما، ثم يُستدعيان إلى موطنيهما.

ـ تخطر لي قصص كثيرة، يا سيداتي اللطيفات، لبدء حكايات هذا اليوم السعيد؛ ولكن واحدة منها تبهج نفسي أكثر من الأخريات، لا لأنكن تستطعن من خلالها معرفة النهاية السعيدة وحسب ـ وهو الموضوع الذي ستدور حوله قصص اليوم ـ وإنما لأنها تبين لكم كذلك كم هي قوية قداسة الحب، وسلطانه، وسعاداته، وهي أمور يدينها كثيرون، دون أن يدركوا ما يقولون، ويندددون بها دون حق. وإذا لم أكن مخطئاً «لأنني أظن أنكن عاشقات»، فلا بد لهذه القصة من أن تنال إعجابكن.

كان يعيش في جزيرة قبرص، حسب ما قرأنا في قصص قدماء القبارصة، رجل من كبار النبلاء يدعى أريستيبوس. وكان أغنى من جميع مواطنيه بما يملكه من الثروات الدنيوية. وكان يمكن له أن يكون أسعد الناس لو لم يبتله الحظ بأمر واحد؛ إذ كان له بين أبنائه الآخرين، ابن يفوق الشباب جميعهم في الوسامة وحسن القوام، لكنه أبله لا أمل في شفائه، اسمه الحقيقي جاليسوس. ولأن جهود كل المعلمين لم تفلح في إيقاظ ذهنه أو إدخال حرف واحد فيه، مثلما لم تفلح في ذلك أساليب أبيه في تدليله أو ضربه، ولا نصائح وتوجيهات أي شخص آخر، ولأن صوته كان خشناً ومشوهاً، وسلوكه أقرب إلى البهائم منه إلى سلوك البشر، فقد أطلقوا عليه بسخرية لقب «سيموني»، وهو يعني بلغتهم «بهيمة». وكان الأب يتحمل، بألم عظيم، حياة ابنه المهدورة تلك؛ ولكنه حين فقد كل أمل فيه، وكي لا يُبقي مصدر أساه ذاك أمام ناظريه، أمره بأن يذهب إلى الريف، وأن يعيش هناك مع فلاحيه. فرح سيموني بذلك فرحاً عظيماً، لأن عادات الريفيين الأفظاظ وأساليبهم كانت أحب إلى نفسه من عادات وأساليب أهل المدن. وهكذا، ذهب

سيموني إلى الريف، وصار يمارس العادات المناسبة لذلك المكان. وحدث في أحد الأيام، بعد انتصاف النهار، بينما هو يمضي متنقلاً من مكان إلى آخر، حاملاً عصاه على كتفه، أن دخل غابة صغيرة بديعة؛ وكان ذلك في شهر أيار، حيث كل شيء وارف ومزهر. وهناك، قاده حظه إلى مرج صغير، تحيط به أشجار سامقة، في أحد أركانه ينبوع ماؤه عذب وبارد. وكانت تنام إلى جوار النبع، على العشب الأخضر، فتاة باهرة الجمال، ترتدي ثوباً من حرير أبيض ورقيق، يكاد لا يخفي تكورات جسمها. وكان ينام إلى جانب الفتاة امرأتان ورجل، هم خدم لها. ما إن رآها سيموني، حتى اتكأ على عصاه؛ ودون أن ينطق بكلمة واحدة، راح يتأملها بذهول من لم ير امرأة من قبل. وفي صدره الفظ الذي لم تستطع آلاف الدروس أن تُدخل إليه أدنى التعاليم، أحس فجأة باستيقاظ مشاعر تقول لذهنه البليد والسميك إن ذلك الشيء هو أجمل ما رآه أي مخلوق حي. ثم بدأ يميز أجزاءها، فأطرى على الشعر الأشقر الذي اعتبره من الذهب، وعلى الجبهة، والأنف، والفم، والعنق، والذراعين، ثم أمعن النظر في الصدر الذي لم يكبر كثيراً بعد. وسرعان ما تحول الأبله الفظ إلى محكم للجمال، وصار يتلهف إلى رؤية عينيها اللتين أطبقهما النوم. ولشدة رغبته في ذلك، حدثته نفسه بإيقاظها، ولكنه قدر أنها أجمل من كل من رأى من النساء، ويمكن لها أن تكون من الآلهة؛ وصار عاقلاً إلى حد أنه قدر أن الأمور الإلهية أجدر بالتوقير من الدنيويات، وكبح نفسه عن إيقاظها بانتظار أن تستيقظ من تلقاء نفسها. ومع أن الانتظار بدا له طويلاً، إلا أن إعجابه الشديد حال دون مغادرته المكان.

وبعد انقضاء وقت طويل، استيقظت الفتاة، وتدعى إيفيجينيا. وحين رفعت رأسها وفتحت عينيها، ورأت سيموني يقف أمامها مستنداً إلى عصاه، أصابها الذهول، وقالت:

- سيموني! ما الذي تفعله في مثل هذا الوقت في الغابة؟..

وكان سيموني، سواء لجماله أو لغبائه، أو لمكانة أبيه وثرائه، معروفاً في كل أنحاء البلاد. ولكنه لم يجب بشيء على سؤال إيفيجينيا، لأنه كان يحدق في عينيها منذ أن فتحتهما، وخيل إليه أن عذوبة تتدفق منهما وتملؤه بسعادة لم يعرفها قط من قبل. وحين رأته الفتاة على تلك الحال، خشيت أن يحرك استغراقه في النظر طباعه الفظة، ويقدم على ما ينال من شرفها؛ فأيقظت المرأتين اللتين معها، ونهضت قائلة:

- نتركك برعاية الله يا سيموني.

فرد عليها :

ـ سأذهب معك.

وبالرغم من كل محاولات الفتاة لتحاشي صحبته، خوفاً منه، إلا إنها لم تستطع إبعاده عنها إلى أن أوصلها إلى بيتها؛ ثم توجه من هناك إلى بيت أبيه، وأكد هناك أنه لا يريد العودة إلى الريف بأي حال. وعلى الرغم من استياء أبيه وذويه من قراره المفاجئ، فقد تركوه يفعل ما أراد، لعلهم يعرفون السبب الذي دفعه إلى تغيير رأيه. والحقيقة أن سهم حب إيفيجينيا الجميلة قد نفذ، بسرعة عجيبة، إلى قلب سيموني الذي لم يستطع أي نوع من الدروس أن ينفذ إليه من قبل. أدهش تحوله من حال إلى حال أباه وذويه وكل من عرفوه. فقد كان أول ما طلبه من أبيه أن يأتيه ببدلات وغيرها من الثياب والزينات التي يرتديها إخوته، ففعل أبوه ذلك بمنتهى السعادة. ثم صار يجتمع مع الشبان الأفاضل، ويستمع إلى الأحاديث التي تهم السادة، ولاسيما أحاديث الحب. فكان يصغي بإعجاب شديد في أول الأمر. لكنه لم يقتصر، خلال وقت قصير، على تعلم الحروف وحسب، بل برز بين الفلاسفة. وبعد ذلك، وبفضل حبه لإيفيجينيا، لم يتحول صوته الخشن والبليد إلى صوت مدني مهذب وحسب، بل صار معلماً في الغناء والموسيقى، ثم تحول إلى خبير ومقدام في الفروسية وفنون القتال، البحرية منها والبرية. وباختصار، وكي لا ندخل في كل تفاصيل فضائله، لم يكن قد انقضى العام الرابع على يوم حبه الأول، حتى كان قد تحول إلى أكثر شبان جزيرة قبرص أناقة وتهذباً، وأبرزهم في خصاله الشخصية الخاصة.

ما الذي يمكن لنا، يا سيداتي اللطيفات، أن نقوله بعد هذا كله عن سيموني؟.. الحقيقة إنه لا يمكننا أن نقول إلا أن كل الفضائل الحميدة والخصال الراقية التي بثتها السماء في روحه، قد حبسها الحظ الحسود في حيز صغير جداً من قلبه، وقيدها بأربطة متينة، إلى أن جاء الحب ـ وهو أقوى بكثير من الحظ ـ فمزق تلك الأربطة وجعلها فتاتاً. ولأن الحب هو منشط المواهب الهاجعة، فقد أيقظ تلك المواهب التي غطتها قسوة الظلام، وأخرجها إلى النور لتتفتح. وكان سيموني في حبه لإيفيجينيا يبالغ في أشياء كثيرة، مثلما هي عادة غيره من الشبان العاشقين، إلا أن ذلك لم يمنع أباه أريستيبوس من تشجيعه على المضي في أهوائه كما يحلو له، لإدراكه أن الحب هو الذي حوّله إلى إنسان. غير أن سيموني رفض أن يعود إلى اسم جاليسوس، لأنه تذكر أن إيفيجينيا نادته باسم سيموني. وعندما أراد وضع نهاية شريفة لحبه، حاول مراراً طلب يد إيفيجينيا من أبيها سيبيسيو،

غير أن سيبيسيو كان يرد في كل مرة بأنه وعد بتزويجها من باسيمونداس، وهو شاب نبيل من رودس، ولا يريد أن ينكث بوعده. وعندما حان الموعد المتفق عليه لزفاف إيفيجينيا، وأرسل عريسها يطلب إرسالها إليه في رودس، قال سيموني في نفسه: «لقد حان الوقت الآن يا إيفيجينيا لأثبت لك كم أحبك. فقد صرتُ رجلاً بفضلك، وإذا ما ظفرت بك، فإنك ستجعلينني دون ريب مجيداً أكثر من إله. فإما أن أنالك أو أموت دونك». وبهذه الأفكار، تحدث إلى بعض أصدقائه من الشباب النبلاء، وطلب مساعدتهم؛ فأعدوا في السر سفينة حربية وزودوها بكل ما تتطلبه المعركة البحرية، ثم خرجوا إلى عرض البحر بانتظار السفينة التي ستنقل ايفيجينيا إلى زوجها في رودس. أما إيفيجينيا، فبعد كثير من التكريم الذي أحاطها به أبوها وأصدقاء زوجها، ركبت البحر متوجهة إلى رودس. وفي اليوم التالي، لحقت بها سفينة سيموني الذي لم يكن ينام لحظة واحدة. وعندما أدركها، وقف في مقدمة السفينة، وصاح فيمن كانوا في سفينة إيفيجينيا:

ـ توقفوا وأنزلوا الأشرعة، وإلا فانتظروا الهزيمة والغرق في البحر.

حمل الأعداء أسلحتهم إلى سطح السفينة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم؛ لكن سيموني اتبع كلامه بالفعل، فتناول خطافاً حديدياً كبيراً وألقى به إلى سفينة الأعداء الذين حاولوا الابتعاد مسرعين، ثم ثبته بمتانة في مقدمة سفينته، وقفز كالأسد الضاري إلى المركب الآخر، دون أن ينتظر من الآخرين أن يتبعوه. وانقض على الأعداء بسيفه، وقد ألهب الحب حماسته وزوده بقوة عجيبة، وراح يطيح بهذا ويجرح ذاك كأنهم نعاج. وحين رأى الرودسيون ذلك، ألقوا أسلحتهم وارتضوا جميعهم الأسر. فقال لهم سيموني:

ـ أيها الشبان، ليست الغنائم ولا العداء لكم هو ما دفعني إلى الخروج من قبرص لمهاجمتكم بقوة السلاح في عرض البحر. ما دفعني إلى ذلك هو أمر عظيم لي، ومن السهل عليكم أن تعطوني إياه بسلام. إنني أريد إيفيجينيا التي أحبها أكثر من أي شيء، ولم أستطع نيلها من أبيها بسلام وكصديق، فدفعني الحب إلى انتزاعها منكم كعدو بقوة السلاح. فأسلموني إياها، وامضوا ترافقكم نعمة الرب.

أجبرت القوة، وليس الكرم، الشبان الرودسيين على تسليم إيفيجينيا الباكية إلى سيموني؛ فقال لها حين رآها تبكي:

ـ لا تحزني يا سيدتي النبيلة، فأنا سيموني الذي يؤهله حبه الطويل لأن يكون جديراً أكثر من باسيمونداس الذي يريدك لمجرد أنه أُعطي كلمة بذلك.

أخذها سيموني إلى سفينته، وسمح للرودسيين بالرحيل دون أن يمس شيئاً من متاعهم. وكان سيموني آنذاك أسعد الرجال في العالم لنيله تلك الدرة الثمينة. وبعد أن أمضى بعض الوقت في مواساتها، تبادل الرأي مع رفاقه، ووجدوا أنه من غير المناسب لهم أن يعودوا الآن إلى قبرص. واتفقوا جميعهم على الذهاب إلى جزيرة كريت، حيث يمكن لهم أن يكونوا بأمان مع إيفيجينيا، لأن لهم جميعاً، وخاصة سيموني، كثيراً من الأقرباء والأصدقاء هناك. ووجهوا سفينتهم إلى تلك الوجهة. ولكن الحظ الذي أتاح لسيموني نيل المرأة بسهولة كبيرة، سرعان ما تحول وقلب فرح العاشق الشاب إلى حزن ممض. فلم تكد تمضي أربع ساعات على فراقهم للرودسيين، حتى أرخى الليل سدوله (وكان سيموني ينتظر قدومه بسعادة لم يعرفها في أي ليلة سابقة). ومع بداية الليل، هبت عاصفة هوجاء عاتية، غطت السماء بسحب قاتمة وملأت البحر برياح عاصفة، فلم يعد بإمكان أحد رؤية ما يفعله أو أين يتجه، بل لم يعد بمقدورهم الصعود إلى سطح السفينة للبحث عن طريقة للخلاص. ولا يمكن للكلام أن يصف الغم الذي سببه كل ذلك لسيموني. فقد خيل إليه أن الآلهة منحته أمنيته ليكون وقع الموت أشد وطأة عليه، بعد أن كان غير عابئ به قبل قليل من ذلك. وكان الحزن والغم يسيطران على رفاقه أيضاً، لكن إيفيجينيا كانت أشد الجميع تفجعاً؛ فقد كانت تبكي بمرارة، وترتجف مع كل اهتزاز تحدثه الأمواج في السفينة. وكانت في بكائها تلعن حب سيموني، وتشكو من جرأته وتهوره، وتقول إن تلك العاصفة العاتية لم تنشأ إلا لأن الآلهة لا يريدون له الزواج منها رغم إرادتها، ولن يتمكن من إشباع رغبته المزعومة إلا وهي ميتة، كي يموت هو نفسه بعد ذلك ميتة بائسة. ووسط تلك الحسرات، وأخرى أعظم منها، لم يعد البحارة يعرفون ما يفعلون. وكانت الرياح تزداد قوة، دون أن يعرفوا أو يميزوا إلى أين يتجهون، إلى أن صاروا على مقربة من جزيرة رودس، دون أن يدروا مع ذلك ما هي تلك الجزيرة. فبذلوا كل جهودهم، من أجل النجاة بأرواحهم، للوصول إلى اليابسة إذا استطاعوا ذلك. وقد حالفهم الحظ في هذا المسعى، واقتادهم إلى خليج صغير، كانت قد سبقتهم إليه قبل قليل سفينة الرودسيين الذين أطلق سراحهم سيموني. ولكنهم لم ينتبهوا إلى أنهم قد رسوا في جزيرة رودس إلا عندما بزغ الفجر وصارت السماء صافية قليلاً، ورأوا عندئذ أنهم على مرمى سهم من السفينة التي أفرجوا عنها في اليوم السابق. أحس سيموني بغم لا حدود له، وخشي من حدوث ما حدث له فعلاً؛ فأمر بحارته أن يبذلوا كل جهدهم للخروج من هناك إلى حيث يقودهم الحظ، ، لأنه لا يمكن لهم أن يكونوا في مكان أسوأ من ذلك

المكان. وراحوا يبذلون قصارى جهدهم للخروج من هناك، ولكن دون جدوى. فقد كانت الريح القوية تدفعهم في اتجاه معاكس. ولم تحل دون خروجهم من الخليج الصغير وحسب، بل دفعت بهم إلى البر. وهناك تعرف عليهم البحارة الرودسيون الذين كانوا قد نزلوا إلى الشاطئ، فسارع أحدهم إلى بلدة قريبة كان الشبان الرودسيون النبلاء قد ذهبوا إليها، وأخبرهم بأن المصادفة قد دفعت سفينة سيموني، ومعه إيفيجينيا، إلى شاطئ الجزيرة، مثلما دفعت سفينتهم. فرح السادة حين سمعوا ذلك، فاصطحبوا جمعاً كبيراً من رجال البلدة، وهرعوا إلى الشاطئ، ووجدوا هناك سيموني الذي كان قد نزل إلى البر مفكراً في الهرب إلى غابة قريبة، فجرى اعتقال الجميع، بمن فيهم إيفيجينيا، واقتيدوا إلى البلدة. وفي أثناء ذلك، وصلت هذه الأخبار إلى باسيمونداس، فرفع القضية إلى مجلس الشيوخ، وجاء من المدينة مفوض شرطة الرودسيين الأعلى، المدعو ليسيماخوس، ومعه حشد من الرجال المسلحين، واقتادوا سيموني ورفاقه إلى السجن، وأطلقوا سراح إيفيجينيا. وهكذا فقد العاشق التعس سيموني حبيبته التي ظفر بها قبل قليل، دون أن يفوز منها بأكثر من قبلة.

استقبل عدد كبير من سيدات رودس النبيلات إيفيجينيا، ورحن يواسينها ويخففن عنها ما تجشمت من عناء الاختطاف وهياج البحر، وظلت في رعايتهن إلى أن يحين موعد زفافها. وقد سعى باسيمونداس جاهداً من أجل الحكم بالإعدام على سيموني ورفاقه، لكنه لم يتوصل إلى ذلك، لأن هؤلاء كانوا قد أطلقوا سراح الرودسيين عندما هاجموا سفينتهم، وعاملوهم برحمة. فحُكم عليهم بالسجن المؤبد، ويمكن تصور مدى معاناتهم في ذلك السجن، حيث لا يرون أي أمل في النجاة.

كان باسيمونداس يريد الزواج من إيفيجينيا ويسعى إلى إنهاء تدابير الزفاف بأسرع ما يمكن. غير أن القدر قد ندم، كما يبدو، للأذى الذي ألحقه بسيموني، فدبر حدثاً جديداً لمصلحته. إذ كان لباسيمونداس أخ أصغر منه سناً، لكنه لا يقل عنه مكانة، يدعى اورميسداس. وكان يسعى للزواج من فتاة نبيلة في المدينة تدعى كاساندرا، يحبها في الوقت نفسه رجل الشرطة ليسيماخوس إلى حد الجنون، ويحاول عرقلة ذلك الزواج. وكان زفافها إلى أورميسداس قد تأجل عدة مرات لأسباب طارئة غير مواتية. وحين رأى باسيمونداس أنه على وشك الزواج في احتفالات كبيرة، فكر في أن يقلص من نفقات الحفلات والولائم بأن يتم، في اليوم نفسه، زواجه من إيفيجينيا وزواج أخيه أورميسداس من كاساندرا، ثم اتفق على ذلك مع أهل كاسندرا، وتحدد يوم الزفاف. وعندما علم

ليسيماخوس بالأمر، حزن أشد الحزن، لأن ذلك سيحرمه من كل أمل في الزواج من كاسندرا. لكنه كان حذراً، فأخفى استياءه وراح يفكر في طريقة تحول دون حدوث ذلك الزواج؛ فلم يجد وسيلة أخرى سوى اختطاف كاسندرا. وقد بدا له ذلك في غاية السهولة بحكم منصبه كرئيس للشرطة، لكنه رأى أنه من غير المشرف استغلال منصبه في مثل هذا الأمر. وأخيراً، وبعد تفكير طويل، تغلب الحب على كل الهواجس الأخرى، وقرر اختطاف كاسندرا غير عابئ بما يمكن أن يحدث. وبدأ يفكر في الرفاق الذين سيحتاج إلى مساعدتهم، والطريقة التي سيفعل بها ذلك؛ فتذكر عندئذ سيموني ورفاقه الذين هم عنده في السجن. ورأى أنه لن يجد في هذه المهمة رفيقاً أفضل من سيموني وأكثر منه إخلاصاً. وفي الليلة التالية، أحضره سراً إلى حجرته وبدأ التحدث إليه على هذا النحو:

- إذا كانت الآلهة، يا سيموني، كريمة ومتسامحة في تقديمها لبني البشر الكثير من الهبات والنعم، فإنها الأكثر حكمة ومعرفة كذلك في اختبار فضائلهم وقدراتهم؛ وهي تكلل بأعظم المزايا من تجده ثابتاً وحازماً في كل أمر. والآلهة تعرف من خصالك أكثر بكثير مما أظهرته وأنت في بيت أبيك الذي يقال إنه رجل واسع الثراء، حيث تمكنت من تجاوز حالتك شبه البهيمية، وحولك الحب إلى إنسان (كما سمعت) وتعرضتَ بعد ذلك لسوء الطالع وقسوة القدر، وتريد الآلهة الآن، وأنت في سجن كئيب، أن تتأكد مما إذا كان عزمك قد تبدل عما كان عليه عندما فزت بغنيمتك وأحسست بالسعادة لوقت قصير. فإذا كان عزمك لا يزال على حاله، فإن الآلهة ستمنحك راضية ما هي راغبة في منحك إياه، شريطة أن تبدي كل ما لديك من قوة وعزيمة. أنت تعلم أن عدوك الكبير باسيمونيداس سعيد الآن بما حلّ بك من نكبة وشقاء، وهو لا يتوقف عن المطالبة بموتك، ويعجل في تدابير زواجه من حبيبتك إيفيجينيا ليستمتع بالغنيمة التي ظفرت بها أنت أولاً، ثم انتزعها منك الآن. فكم يؤلمك ويحزنك ذلك وأنت تحبها بكل جوارحك، كما أظن، لأنني أجد نفسي في وضع مشابه، ولسوف يُلحق بي أخوه أورمسيداس الأذى نفسه بزواجه من كاسندرا التي أحبها أكثر من أي شيء في الحياة. وللخلاص من سوء الحظ هذا، لا أرى لنا من سبيل آخر سوى شحذ عزيمتنا، والاستعانة بأصدقائنا، والاعتصام بحقنا، وإشهار سيوفنا لشق طريقنا؛ فتظفر أنت بحبيبتك للمرة الثانية، وأخطف أنا حبيبتي للمرة الأولى. فإذا كنت تريد نيل حريتك (وهي حرية لا تهمك ما لم تنل معها حبيبتك)، فقد وضعت الآلهة الأمر بين يديك، وما عليك سوى المشاركة معي في مهمتي.

أعادت هذه الكلمات إلى سيموني العزيمة التي فقدها، فسارع إلى الرد:

ـ لن تجد يا ليسيماخوس رفيقاً أشد وفاء وأكثر تصميماً مني في هذه المهمة، إذا كانت تتيح لي تحقيق ما قلته. فأخبرني بما عليّ القيام به، وستجدني أسارع إلى تنفيذ ما تأمر به بكل ما لدي من قوة.

وهنا أجابه ليسيماخوس:

ـ بعد ثلاثة أيام من الآن، ستُنقل العروسان الجديدتان إلى بيت عريسيهما. وعند غروب ذلك اليوم، ستذهب أنت مسلحاً مع رفاقك، وأذهب أنا مع بعض رفاقي الذين أثق بهم، فنقتحم الدار عنوة وسط الاحتفال. ونختطف السيدتين، ونحملهما من هناك إلى سفينة جهزتها سراً. وسوف نقتل كل من يتجرأ على اعتراض طريقنا.

أُعجب سيموني بالخطة، وظل في السجن محتفظاً بالصمت حتى الموعد المتفق عليه. وفي يوم الزفاف، كانت الاحتفالات ضخمة وصاخبة، ليس في بيت الأخوين فقط، وإنما في كل الأنحاء. وكان ليسيماخوس قد أعد العدة لكل شيء، فاجتمع هو ورفاقه مع سيموني ورفاقه، وكان الجميع يخبئون الأسلحة تحت ملابسهم. وعندما حانت اللحظة المناسبة، شجعهم ليسيماخوس بعبارات ترفع من معنوياتهم، ثم قسم الجماعة إلى ثلاث فرق، أرسل واحدة منها إلى المرسى كي لا يتمكن أحد من عرقلة الصعود إلى السفينة عندما يحين الوقت. وانطلق مع الفرقتين الأخريين إلى بيت باسيموندا‌س، فأبقى إحداهما عند الباب الخارجي كي لا يتمكن أحد من محاصرة الفريق الآخر داخل البيت، أو عرقلة خروجه؛ ثم صعد مع سيموني وبقية الفريق الثالث إلى الطابق العلوي. ووصلوا إلى القاعة حيث وجدوا حشداً كبيراً من النساء، ومعهما العروسان الجديدتان، على وشك البدء بتناول الطعام؛ فاندفع ليسيماخوس وسيموني قدماً وهما يقلبان الموائد في طريقهما. وأمسك كل منهما بحبيبته، وأسلمها إلى رفاقه لتنقلا إلى السفينة الجاهزة للإقلاع. بدأت المرأتان بالبكاء، وحذت حذوهما النساء الأخريات والخادمات، وسرعان ما امتلأ المكان بالعويل والبكاء. فشهر سيموني وليسيماخوس ورجالهما السيوف، فلم يعترض سبيلهم أحد، بل فتحوا لهم الطريق باتجاه الأدراج. وبينما هم ينزلون التقوا بباسيموندا‌س الذي سمع الصراخ وجاء راكضاً وفي يده هراوة غليظة. فضربه سيموني بسيفه على رأسه وشطره إلى نصفين، فهوى ميتاً عند قدميه؛ وهرع أورميسداس التعس لنجدة أخيه، فجندله سيموني بالطريقة نفسها. وعندما حاول آخرون الاقتراب، واجههم رفاق سيموني

وليسيماخوس فجرحوا بعضهم وأجبروا الآخرين على التراجع. هكذا غادر سيموني وليسيماخوس ورفاقهما البيت الذي امتلأ بالدم والصراخ والعويل دون أي يواجهوا أي عائق آخر. ووصلوا إلى السفينة مع المرأتين. وعندما صعدوا إليها، وصعد رفاقهم جميعاً، كان الشاطئ قد امتلأ بجموع أناس مسلحين جاؤوا لإنقاذ المرأتين؛ لكن السفينة أقلعت بتجديف سريع مبتعدة عن الشاطئ.

وصلوا إلى كريت، واستقبلهم هناك أقرباؤهم وأصدقاؤهم بسعادة، وتزوج سيموني وليسيماخوس من المرأتين في احتفال ضخم، واستمتعا مبتهجين بغنيمتيهما. وقد تسبب الحادث في نزاعات كبيرة بين جزيرتي قبرص ورودس، إلى أن تدخل الوسطاء في هذه الجزيرة وتلك، وبحث الأقارب عن طريقة أتاحت لسيموني أن يعود مع إيفيجينيا إلى قبرص، ولرجوع ليسيماخوس مع كاسندرا إلى رودس. وعاش الجميع حياة مديدة في سعادة وهناء.

القصة الثانية

تقع كوستانزا في حب مارتوشيو غوميتو، وتسمع أنه قد مات، فتصعد يائسة إلى سفينة تحملها إلى سوسة. وفي تونس، تجد مارتوشيو حياً، فتعود معه، وقد صار غنياً، إلى ليباري.

حين رأت الملكة أن قصة بانفيلو قد انتهت، وبعد أن امتدحتها كثيراً، أمرت إيميليا بأن تواصل. فبدأت على هذا النحو:

ـ علينا جميعاً، وبحق، أن نبتهج للأمور التي تتوج بتحقيق رغباتنا؛ ولأن الحب على الدوام هو سعادة وليس حزناً، فإنني أشعر بسعادة أكبر حين أتحدث في هذا الموضوع، منصاعاً لملكتنا الحالية بغبطة أشد مما كنت عليه يوم أمس مع الملك.

لا بد أن تعلمن، يا صديقاتي الرقيقات، أن هناك على مقربة من صقلية، جزيرة صغيرة تسمى ليباري، حيث كانت تعيش منذ زمن غير بعيد فتاة باهرة الجمال تدعى

كوستانزا ، ولدت في الجزيرة ، في أسرة شريفة وسامية. وقد أحبها شاب من الجزيرة يدعى مارتوشو غوميتو ، كان وسيماً ومهذباً ومجداً في عمله. وقد بادلته كونستانزا الحب حتى لم تعد ترغب في شيء مثل رغبتها في رؤيته. أراد مارتوشو الزواج منها ، وطلب يدها من أبيها ، غير أن الأب رفض طلبه لأنه فقير.

حزن مارتوشو حين رأى ما لقيه من صدّ بسبب فقره ، فجهز مع بعض رفاقه وأقربائه سفينة ، وأقسم ألا يعود إلى ليباري إلا غنياً. وأبحر من هناك ليبدأ بممارسة أعمال قرصنة على شواطئ بلاد البربر. يسرق كل من يجده أقل قوة منه. وقد حالفه الحظ في جمع ثروة كبيرة ، غير أنه لم يضع حداً لمغامراته ، لأنه لم يكتف هو ورفاقه بما أصابوه من ثراء خلال وقت قصير ، بل راحوا يبحثون عن مزيد من الثراء ، إلى أن التقوا ببعض سفن المسلمين. وبعد دفاع طويل ومستميت ، وقع في الأسر ، وجرى اقتياده إلى تونس ، حيث سجن وأمضى زمناً طويلاً في البؤس والشقاء. وفي أثناء ذلك ، وصل إلى ليباري ، ليس من خلال شخص واحد ، وإنما كثيرين ، الخبر بأن مارتوشو وكل من معه في السفينة قد غرقوا.

أما الفتاة التي كانت حزينة بلا حدود لرحيل مارتوشو ، فقد بكت طويلاً حين علمت بخبر موته مع الآخرين ، وصممت على وضع حد لحياتها. وكي لا تعذب قلبها بقتل نفسها بصورة عنيفة ، فكرت في اتباع طريقة أخرى ، وفرض الموت على نفسها بصورة غريبة. وفي إحدى الليالي غادرت بيتها سراً ، وتوجهت إلى المرفأ ، فوجدت مركب صيادين صغيراً في مكان منعزل ، كان أصحابه قد غادروه لتوهم؛ فصعدت إليه ودفعت به إلى البحر بالمجدافين. ولأنها كانت تعرف شيئاً من فنون الملاحة ، مثلما هو حال نساء تلك الجزر عموماً ، فقد رفعت الشراع ، ثم ألقت بالمجاديف والدفة إلى الماء ، وأسلمت نفسها لمشيئة الريح وهي تفكر في أن الريح ستقلب السفينة التي بلا حمولة وبلا ربان يوجهها ، أو أنها ستصطدم بإحدى النتوءات الصخرية في البحر وتتحطم. وعندئذ لن تستطيع هي النجاة ، حتى لو رغبت في ذلك ، وستموت حتماً. ولفت رأسها بمنديل ، وراحت تبكي وحدها في قعر المركب.

لكن ما حدث كان مختلفاً تماماً عما فكرت فيه. فقد هبت ريح شمالية خفيفة ، ولم تكد تحدث أمواج كبيرة. وبعد يوم من ركوبها المركب ، حط بها عند العصر على

بعد حوالي مئة ميل عن تونس، على شاطئ مدينة تدعى سوسة. كانت الفتاة نائمة عندما وصل المركب إلى البر. وحدث أن كانت هناك ـ عند ارتطام المركب باليابسة ـ امرأة فقيرة تجمع الشباك التي نشرها الصيادون تحت الشمس، فدهشت حين رأت المركب يرتطم بالأرض وشراعه مرفوع. وظنت أن الصيادين فيه قد ناموا، فصعدت إلى المركب ولم تجد فيه أحداً سوى تلك الفتاة المستغرقة في النوم. وبعد أن تمكنت أخيراً من إيقاظها، عرفت من ملابسها أنها مسيحية، فكلمتها باللاتينية لتسألها كيف وصلت وحدها إلى هناك في ذلك المركب. وحين سمعت الفتاة من يكلمها باللاتينية، خشيت أن تكون الريح قد أعادتها إلى ليباري. لكنها سارعت في الوقوف والنظر في ما حولها، فلم تتعرف على شيء من المشهد، وتبين لها أنها على اليابسة. فسألت المرأة أين هي، وردت عليها المرأة الطيبة:

ـ بنيتي، أنت على مقربة من سوسة، في بلاد البربر.

تألمت الفتاة حين سمعت ذلك، لأن الله لم يشأ لها الموت. ولخوفها من أن يلحق بها العار، انفجرت في البكاء، دون أن تدري ما الذي يمكنها عمله وهي إلى جانب مركبها. فأشفقت عليها المرأة الطيبة، وراحت تواسيها إلى أن أقنعتها أخيراً بالذهاب معها إلى كوخها. وجدت الفتاة عزاء لها في المرأة الطيبة، وأخبرتها كيف وصلت إلى هناك، والأسباب التي دفعتها إلى ما أقدمت عليه. ورأت المرأة أنها لم تأكل شيئاً، فقدمت لها رغيف خبز يابس وقطعة سمك وبعض الماء، وتوسلت إليها أن تأكل ولو قليلاً. بعد ذلك سألتها كوستانزا لماذا تتكلم اللاتينية، فردت عليها المرأة الطيبة بأنها من ترباني، وأن اسمها كارابريسا، وأنها تعمل هناك في خدمة بعض الصيادين المسيحيين. وحين سمعت الشابة اسم كارابريسا، بالرغم مما هي فيه من حزن، أحست بأن سماع ذلك الاسم هو فأل طيب. وبدأ يراودها بعض الأمل دون أن تدري السبب، وتخلت عن رغبتها في الموت. توسلت إلى المرأة الطيبة أن تشفق على شبابها، حباً بالرب، وأن تقدم لها النصح والمساعدة لتنجو دون أن يصيبها أذى.

حين سمعت كارابريسا الطيبة كلامها، تركتها في الكوخ، وسارعت إلى جمع شباكها ورجعت إليها، فغطتها بعباءتها، واقتادتها إلى سوسة، وهناك قالت لها:

ـ سآخذك يا كوستانزا إلى بيت امرأة مسلمة صالحة، كثيراً ما أخدمها في ما

تحتاجه، وهي سيدة مسنة ورحيمة. وسأطلب منها أن تبقيك عندها، وأنا واثقة من أنها ستستقبلك وتعاملك كما لو أنك ابنتها. فقومي على خدمتها إلى أن يتيح لك الله مخرجاً أفضل.

قالت لها ذلك وفعلته. وكانت السيدة عجوز هرمة. وبعد أن سمعت كلامها نظرت إلى وجه الفتاة وبدأت تبكي، ثم قبلتها من جبهتها، واقتادتها بعد ذلك من يدها إلى بيتها، حيث كانت تعيش مع نساء أخريات، دون أي رجل، وجميعهن يعملن في مشغولات يدوية من الحرير والسعف والجلد. فتعلمت الفتاة خلال أيام قليلة بعض تلك الأعمال، واستطاعت بلطفها أن تكسب عطف السيدة العجوز والنساء الأخريات، حتى أنهن ساعدنها في تعلم لغتهن بسرعة.

وبينما الفتاة تعيش في سوسة، بكاها أهلها في ديارها واعتبروها مفقودة وميتة. وحدث في أثناء ذلك أن كان يحكم تونس ملك يدعى الأمير عبد الله. فأعلن شاب غرناطي نبيل أنه الأحق بحكم مملكة تونس، وجمع حشداً كبيراً من الناس ضد ملك تونس ليزيحه عن العرش. وصلت هذه الأخبار إلى مسامع مارتوشيو غوميتو في السجن، وكان يتقن التكلم بالبربرية، وحين علم أن ملك تونس يبذل جهوداً مضنية في الدفاع عن ملكه، قال لرفاقه الذين معه في السجن:

ـ لو أنني أستطيع التكلم إلى الملك، لقدمتُ إليه نصيحة يكسب بها هذه الحرب.

سمع أحد الحراس كلامه هذا، فأخبر به قائده الذي نقله بدوره إلى الملك؛ فأمر بإحضار مارتوشيو وسأله ما هي نصيحته تلك، فأجابه:

ـ لقد لاحظت يا مولاي، خلال الزمن الذي أمضيته في بلادكم، أنكم تعتمدون في خوض المعارك على رماة النبال أكثر من أي شيء آخر. فإذا ما توصلتم إلى طريقة تجعل نبّالة أعدائكم يفتقرون إلى السهام، بينما يتوفر لنبّالتكم الكثير منها، فإنكم ستكسبون الحرب بكل تأكيد.

فقال الملك:

ـ لا شك في أنني سأنتصر إذا استطعتُ تحقيق ذلك.

ـ مولاي، يمكننا إذا شئت أن نتوصل إلى ذلك. عليكم أولاً أن تجعلوا حبال أقواس

رماتكم أرفع بكثير من كل الحبال التي تستخدم في الأقواس عادة، ثم تأمرون بعد ذلك بصنع سهام لا ينفع شق مؤخرتها إلا لتلك الحبال الرفيعة. ولا بد من تحقيق هذا كله بسرية مطلقة، بحيث لا يعلم به عدوكم. وسبب قولي كل هذا لكم هو أنه بعد أن يرمي نبّالة العدو كل سهامهم، ويرمي جنودكم كل ما لديهم من السهام، سيعمد العدو إلى جمع سهامكم المبعثرة، وستعمدون أنتم إلى جمع السهام التي رماكم بها العدو من أجل مواصلة المعركة؛ ولكن الأعداء لن يتمكنوا من استخدام السهام التي رماها رماتكم لأن شقها الصغير لن يدخل في حبال أقواسهم الثخينة، بينما سيحدث العكس مع رماتكم باستخدام نبال العدو ذات الشقوق الواسعة. وهكذا تتوافر لرماتكم كميات وافرة من السهام، بينما يفتقر أعداؤكم إليها.

كان الملك رجلاً حكيماً، وأعجبته النصيحة، فعمل بها وكسب الحرب. وهكذا حصل مارتوشيو على العفو، وقربه الملك منه، ومنحه مكانة وثروة.

شاعت هذه الأخبار في البلاد، ووصل إلى مسامع كوستانزا أن مارتوشيو غوميتو لا يزال حياً، بعد أن مضى زمن طويل وهي تظنه ميتاً. فتفتح الحبُ الذي كان قد خبا في قلبها، وتأجج بقوة أكبر من السابق، وانبعثت في نفسها الآمال الميتة. فأخبرت السيدة الطيبة بكل قصتها، وطلبت الإذن منها في الذهاب إلى تونس، لتملأ عينيها بصورة ذاك الذي تشوقت إليه بما سمعته أذناها من أخباره. أثنت السيدة العجوز على رغبتها تلك، وكما لو كانت أمها، ركبت معها سفينة متوجهة إلى تونس، حيث استقبلهما أحد الأقارب في بيته. وكانت قد ذهبت معهما كارابريسا، فأرسلتاها لتتقصى كل ما تستطيع معرفته عن أحوال مارتوشيو. وبعد ذلك ذهبت السيدة العجوز لمقابلته، وقالت له:

ـ مارتوشيو، لقد جاء إلى بيتي خادم لك قادم من ليباري ويريد التحدث إليك سراً؛ ولأنه لا يثق بالآخرين، طلب مني أن أحضر بنفسي لأخبرك.

شكرها مارتوشيو ورافقها إلى بيتها. وعندما رأته الفتاة، كادت أن تموت من السعادة. ولم تستطع كبح نفسها، فركضت نحوه بذراعين مفتوحين وعانقته دون أن تتمكن من قول كلمة واحدة، بل انفجرت في البكاء بسبب المحن السابقة والسعادة الحالية. ظل مارتوشيو مذهولاً لبعض الوقت وهو يرى الفتاة، ثم تنهد أخيراً وقال لها:

ـ آه يا حبيبتي كوستانزا! ألا تزالين حية؟.. لقد سمعت أنك مت، وليس هناك في

بلادنا من يعرف شيئاً عنك.

قال هذا وهو يبكي، ثم عانقها وقبّلها. وأخبرته هي بكل ما أصابها من محن، والمساعدة التي تلقتها من كارابريسا والسيدة النبيلة التي عاشت عندها. وبعد حديث طويل، فارقها مارتوشيو وذهب لمقابلة الملك وأخبره بكل شيء، وأضاف إنه يريد الزواج منها. فوجئ الملك بهذه الأخبار، فأمر بإحضار الفتاة، وقال لها:

- إنك تستحقينه، وبكل جدارة، زوجاً لك.

منحهما الملك الكثير من الهدايا النفيسة، وسمح لهما بأن يفعلا ما يشاءان. فكرم مارتوشيو السيدة النبيلة التي آوت كوستانزا ووفرت لها الحماية. وبإذن ملكي، ركبا سفينة ومعهما كارابريسا، وحملتهما ريح طيبة إلى ليباري. وقد استُقبلوا هناك باحتفال عظيم لا يمكن وصفه. وتزوجا في حفلة زفاف كبيرة ومهيبة، وعاشا معاً بسعادة مستمتعين بحبهما.

القصة الثالثة

يهرب بيترو بوكامازا مع أنجيليلا، ويلتقيان ببعض اللصوص؛ تهرب الفتاة عبر غابة وتصل إلى قلعة؛ أما بيترو فيقبض عليه ثم يفلت من قبضة اللصوص. وبعد كثير من النكبات يصل إلى القلعة حيث توجد أنجيليلا، فيتزوج منها ويعودان إلى روما.

أطرى الجميع على قصة إيميليا. وبعد ذلك التفتت الملكة إلى إليسا وأمرتها بأن تواصل، فانصاعت هذه راغبة، وبدأت الحديث قائلة:

- أتذكر، يا صديقاتي اللطيفات، ليلة مشؤومة أمضاها شابان متهوران. لكن أياماً مديدة من السعادة تلت تلك الليلة، وهو ما يتفق مع غرضنا. ولهذا يسعدني أن أرويها لكنّ.

في روما التي هي اليوم ذيل العالم، بعد أن كانت بالأمس رأسه، كان تعيش منذ

زمن قريب شاب يدعى بوكامازا، من أسرة رومية مشهورة ومحترمة؛ وقع في حب فتاة جميلة وجذابة تدعى أنجيليلا، ابنة شخص اسمه جيجلوزو ساولو، رجل من العوام، غير أنه محبوب جداً من أهالي روما. ولشدة هيام بيترو بها، بدأت الفتاة بدورها تبادله حباً لا يقل عن حبه لها. ومدفوعاً بحبه المتأجج، قرر بيترو طلب يد حبيبته للزواج، لكن ذويه أنبوه على هذا الاختيار. وعمدوا من جانب آخر إلى إخبار جيجلوزو ساولو بألا يستجيب لكلام بيترو، وإلا فإنهم سيقاطعونه ويضعون حداً لصداقتهم معه.

وحين رأى بيترو أن الطريق مسدود أمامه، أحس أنه سيموت من الألم؛ ولو أن جيجلوزو وافق على تزويجه ابنته، لكان تزوج منها مخالفاً رأي جميع أقربائه. واستقر قراره في نهاية الأمر على الهرب معها من روما، إذا ما وافقته على ذلك. وبعد أن رتبا الأمر، امتطيا جوادين في صبح أحد الأيام، وتوجها إلى الاجيا، حيث يعيش بعض أصدقاء بيترو الموثوقين. وقد واصلا سفرهما بلا توقف، ولم يحققا فعل زواجهما خوفاً من أن يدركهما مطاردوهما، واكتفيا بتبادل الحديث عن حبهما وهما على صهوتي الجوادين، وتبادل القبلات بين الحين والآخر.

لكن بيترو لم يكن يعرف الطريق جيداً، وعندما صارا على بعد ثمانية أميال عن روما، اتخذا طريقاً جانبياً يتجه إلى اليمين بدل التوجه إلى اليسار. ولم ينتبها إلى ذلك إلا بعد أن قطعا أكثر من ميلين، حين وجدا نفسيهما بالقرب من قلعة، خرج منها فجأة حوالي اثني عشر رجلاً مسلحاً. وقد رأتهم الفتاة لأنهم كانوا قريبين جداً منهما، فصرخت قائلة:

- فلنهرب يا بيترو، لأنهم سيهاجموننا!

وأدارت حصانها كيفما استطاعت باتجاه غابة كثيفة، وانطلقت مبتعدة بأقصى سرعة. أما بيترو الذي كان ينظر إلى وجه فتاته أكثر من النظر إلى الطريق، فلم ينتبه مثلها إلى المهاجمين الذين لحقوا به، وأجبروه على النزول عن جواده، ثم سألوه من يكون، وأجاب هو على كل أسئلتهم. وبعد ذلك راحوا يتجادلون فيما بينهم قائلين:

- إنه صديق لأعدائنا. فلماذا لا نسلبه كل ما لديه، ونأخذ ثيابه وجواده، ثم نعلقه على واحدة من هذه الأشجار انتقاماً من آل أورسيني؟..

اتفقوا جميعهم على ذلك، وأجبروا بيترو على خلع ثيابه. وبينما هو يفعل ذلك مدركاً سوء مصيره، حدث أن اندفعت عصبة مسلحة تضم أكثر من خمسة وعشرين رجلاً يصرخون:

ـ الموت، الموت!

فوجئ رجال الجماعة الأولى، فتركوا بيترو واستعدوا للدفاع عن أنفسهم. لكنهم وجدوا أن عددهم أقل بكثير من عدد المهاجمين، فاندفعوا هاربين، وانطلق الآخرون في أثرهم يطاردونهم. فجمع بيترو أشياءه، وامتطى جواده ومضى هارباً بأسرع ما يمكنه عبر الطريق الذي هربت منه فتاته. ولكنه لم يجد في الغابة أي طريق أو درب، ولا أي أثر لفتاته أو جوادها، فأصابه الحزن وراح يبكي. كان ينادي باسمها ولا من مجيب؛ ويواصل التقدم دون أن يدري إلى أين يذهب. وكان خائفاً على نفسه وعلى حبيبته التي قد يهاجمها دب أو ذئب أو أحد الوحوش التي تجوب تلك الغابات.

أمضى عاثر الحظ بيترو ذلك النهار في الغابة وهو يبكي ويصرخ، معتقداً في بعض الأحيان أنه يتقدم إلى الأمام، بينما هو يعود في الواقع إلى الوراء. وانتهى إلى استنفاد قواه من الإنهاك والجوع، ولم يعد قادراً على مواصلة طريقه. وكان الليل قد حل، فوجد نفسه إلى جوار شجرة سنديان ضخمة؛ فعقل حصانه إليها، وتسلق جذعها ليحتمي من الضواري. وبعد قليل طلع القمر، وانتشر ضياؤه في المكان؛ لكن بيترو لم يستطع النوم خوفاً من السقوط، ، وكذلك من شدة حزنه وتفكيره بفتاته، فأمضى الليل مسهداً وهو يتنهد ويبكي لاعناً سوء طالعه.

أما الفتاة التي لم تدر إلى أين تتجه عند هروبها، فقد تركت مطيتها تتوغل بها في الغابة إلى أن لم تعد تعرف المكان الذي دخلت منه. وأمضت النهار كله، مثل بيترو، وهي تبكي وتتحسر لسوء حظها، فتمشي حيناً وتنتظر حيناً، وتصرخ منادية بيترو. وعند الغروب، وجدت نفسها إلى جوار درب ضيق، فسار جوادها فيه، وبعد نحو ميلين من المسير، لمحت من بعيد بيتاً، فتوجهت إليه ووجدت هناك رجلاً طيباً طاعناً في السن ومعه امرأته التي في مثل عمره. وعندما رأياها وحيدة قالا لها:

ـ بنيتي، ما الذي تفعلينه وحيدة هنا في مثل هذا الوقت؟..

فردت عليهما وهي تبكي بأنها فقدت مرافقها في الغابة. وسألتهما عن المسافة التي تفصلها عن أناجني. وأجابها الرجل الطيب:

ـ هذا الطريق يا بنيتي لا يؤدي إلى أناجني؛ والمسافة إلى هناك تزيد على اثني عشر ميلاً.

عندئذ قالت الفتاة:

ـ وأين أجد نزلاً أبيت فيه؟..

فقال الرجل الطيب:

ـ لا يوجد أي نزل قريب يمكن الوصول إليه قبل طلوع الصباح.

ـ أتوافقان أن أقضي هذه الليلة هنا، لأنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان؟..

فأجاب الرجل الطيب:

ـ يسعدنا يا بنتي أن تقضي هذه الليلة معنا. ولكن عليك أن تعلمي أن هذه الأنحاء تجوبها في الليل والنهار جماعات كثيرة من الأشرار المتخاصمين، وكثيراً ما يتسببون في أضرار وإساءات كثيرة؛ وقد يشاء سوء الحظ أن يأتي بعضهم وأنت هنا، فيرون جمالك وشبابك، ويسيئون إليك ولشرفك، ولن نتمكن نحن من مساعدتك. وإذا كنا نخبرك بهذا، فلكي لا تحملينا مسؤولية ما قد يحدث.

أخاف هذا الكلام الفتاة، ولكنها رأت أن الوقت قد تأخر كثيراً، فقالت:

ـ إذا أراد الله لنا الرعاية، فسوف يحمينا جميعاً من مثل هذا الخطر؛ أما إذا حدث عكس ذلك، فإنني أفضل الوقوع في أيدي البشر على أن تلتهمني وحوش الغابة.

قالت ذلك وترجلت عن الحصان، ثم دخلت إلى بيت الرجل الفقير، وتناولت هناك مع العجوزين عشاء بسيطاً مما يملكانه. واستلقت على فراش بالقرب منهما لتنام، دون أن تخلع ثيابها. ولم تتوقف طوال الليل عن التنهد والنحيب لما حلّ بها وببيترو الذي لن يكون قد لقي إلا ما هو أسوأ مما لاقته.

ومع اقتراب الفجر، سمعت جلبة عظيمة تُحدثها جماعة من الناس. فنهضت مسرعة إلى فناء واسع خلف البيت، ووجدت هناك كومة كبيرة من العشب الجاف، فاختبأت

فيها. وما كادت تختبئ حتى فتحت باب البيت عصبة من الأشرار، وحين دخلوا ورأوا حصان الفتاة الذي مازال سرجه عليه، سألوا عمن جاء إلى هناك. وعندما لم يجد الرجل الطيب الفتاة نائمة في الفراش، قال لهم:

ـ لا يوجد أحد سوانا، وهذا الحصان الذي لا بد أن يكون قد هرب من أحدهم، جاء إلى هنا وحده، فأدخلناه إلى البيت كي لا تأكله الذئاب.

فقال زعيم الجماعة:

ـ سنأخذه نحن إذن، ما دام لا صاحب له.

ثم انتشروا بعد ذلك في أنحاء البيت، وراحوا يقلبون كل شيء فيه. وذهب أحدهم إلى الفناء الخلفي، وغرس رمحه في كومة القش، فلامس نصله نهد الفتاة الأيسر دون أن يجرحه، فشعرت بخوف شديد أوشكت معه على الصراخ؛ لكنها تذكرت أين هي، فتمالكت نفسها واحتفظت بالصمت. ظلت عصبة الرجال في البيت، وأخذوا بعض الجداء، وما في البيت من طعام وشراب، ثم انصرفوا ومعهم حصان الفتاة. وبعد أن ابتعدوا كثيراً، سأل الرجل العجوز امرأته:

ـ ما الذي جرى للشابة التي جاءت إلينا في الليل، ولم أرها منذ استيقاظنا؟..

فردت المرأة الطيبة بأنها لا تعرف، وراحا يبحثان عنها. وحين أحست الفتاة بأن أولئك الأشرار قد ذهبوا، خرجت من مخبئها في كومة القش، ففرح العجوزان لنجاتها. وكان النهار قد طلع، فقالا لها:

ـ الآن وقد أشرقت الشمس، يمكننا أن نأخذك إلى قلعة على بعد خمسة أميال من هنا، حيث ستكونين في مكان آمن. ولكن عليك أن تذهبي مشياً على الأقدام، لأن أولئك الرجال الأشرار أخذوا حصانك.

لم تهتم الفتاة لفقدان حصانها، وتوسلت إليهما أن يأخذاها إلى القلعة، فانطلقوا إلى هناك، ووصلوها بعد العصر. وكانت القلعة لواحد من آل أورسيني، يدعى ليلو دي كامبوديفلوري. ومن حسن الحظ أن زوجته كانت هناك، وهي امرأة طيبة وتقية، وما إن رأت الفتاة حتى عرفتها في الحال، واستقبلتها بحفاوة، وسألتها كيف وصلت إلى هذا المكان. فأخبرتها الفتاة بكل شيء. وكانت السيدة تعرف بيترو أيضاً، وهو صديق

لزوجها. وحين عرفت المكان الذي أُسر فيه، فكرت في أنه لا بد أن يكون قد قُتل، فقالت للفتاة:

ـ بما أنك لا تعرفين ما الذي حلّ ببيترو، ابقِ معي هنا إلى أن أتمكن من إرسالك إلى روما بأمان.

وفي أثناء ذلك، وبينما بيترو يقبع مغموماً على شجرة السنديان في تلك الليلة، رأى قطيعاً من الذئاب يتقدم باتجاهه ويطوق الحصان. ارتعب الجواد أشد الرعب وراح يدافع عن نفسه بحوافره وأسنانه. لكنه لم يستطع الصمود طويلاً، وانهار في النهاية، فشقت الذئاب بطنه ومزقته. ولم تنصرف إلا بعد أن نهشت لحمه ولم يبق منه سوى العظم. أما بيترو الذي كان يجد في الحصان رفيقاً وسنداً له في محنته، فقد أحس بغم شديد، وتضاءل أمله في النجاة والخروج من تلك الغابة. وعندما طلع النهار، كان يشعر ببرد شديد؛ فتطلع حوله، ورأى ناراً في البعيد. ولم يكن خوفه قليلاً حين نزل عن شجرة السنديان، وتوجه مقترباً من تلك النار. وهناك وجد بعض الرعاة يأكلون ويتسلون، فاستقبلوه مشفقين عليه. وبعد أن أكل وتدفأ، روى لهم محنته وكيف وصل إلى ذلك المكان، وسألهم إذا ما كانت هناك في تلك الأنحاء قرية أو قلعة يمكنه الذهاب إليها. فأخبره الرعاة بأن هناك قلعة على بعد ثلاثة أميال يمكلها ليلو دي كامبوديفلوري، فابتهج بيترو بذلك، وتوسل أن يوصله أحدهم إلى القلعة، فتطوع اثنان منهم لمرافقته بطيب خاطر. وحين وصل إلى هناك، وجد أحد معارفه، وحاول أن يرتب معه طريقة للبحث عن الفتاة في الغابة. غير أن السيدة زوجة ليلو أرسلت في طلبه؛ فذهب إليها، وكانت سعادته عظيمة حين وجد أنجيليلا عندها. كان يتلهف لمعانقتها، لكنه لم يفعل خجلاً من السيدة. ولم تكن سعادة الفتاة بلقائه تقل عن سعادته.

استقبلته السيدة النبيلة بحفاوة، واستمعت منه إلى ما جرى له، وأنبته بشدة لأنه تصرف بما يخالف إرادة ذويه؛ ولكنها حين رأت أن الفتاة راضية بذلك، قالت في نفسها: «ولماذا أنا قلقة؟.. إنهما متحابان، ويعرف كل منهما الآخر، وهما صديقان لزوجي، وغرضهما شريف، وأظن أن هذا يرضي الرب الذي أنقذ أحدهما من الشنق والآخر من رمية الرمح، وأنقذهما كليهما من وحوش الغابة. فليكن ما أراده الله.» ثم التفتت إليهما وقالت:

ـ إذا كنتما تريدان الزواج، فإنني أريد لكما ذلك أيضاً؛ وأرى أن يتم حفل الزفاف هنا، على نفقة ليلو. وأنا نفسي سأتولى بعد ذلك مصالحتكما مع أسرتيكما.

كانت سعادة بيترو عظيمة، وسعادة أنجيليلا أعظم، فتزوجا هناك، وأعدت لهما السيدة النبيلة حفل زفاف على أحسن طريقة يمكن إعدادها في تلك الجبال؛ واستمتعا هناك بأول ثمار حبهما. وبعد بضعة أيام، ذهبت السيدة معهما إلى روما، حيث صالحت كلاً منهما مع أسرته. وعاش الزوجان بسعادة وهناء حتى الشيخوخة.

القصة الرابعة

السيد ليزيو دي فالبونا يجد الشاب ريكاردو ماناردي مع ابنته؛ فيتزوجها هذا الأخير ويتصالح مع حميه.

عندما صمتت إيليسا، وأطرت رفيقاتها على قصتها بتعليقات مختلفة، أمرت الملكة فيلوستراتو أن يواصل، فبدأ القول:

ـ لقد لقيت لومكم مرات كثيرة لأني رويت لكم قصصاً قاسية أو حزينة تستدر الدمع، وكي أخفف قليلاً من ذلك الحزن، أجدني مضطراً الآن لأن أروي لكم قصة تضحككم. ولهذا سأحدثكم عن حب لم يعرف من الحزن إلا بعض الزفرات وقليل من الخوف المختلط بالخجل والخزي؛ ولكنه ينتهي نهاية سعيدة. وسأروي هذا كله في قصة قصيرة جداً.

منذ زمن غير بعيد كان يعيش في رومانيا فارس نبيل يدعى السيد ليزيو دي فالبونا. وحدث بعد بلوغه الشيخوخة أن أنجبت له زوجته مادونا جياكومينا ابنة، فكانت عندما كبرت وبلغت سن الشباب أجمل فتيات المنطقة وأكثرهن لطفاً. ولأنها الابنة الوحيدة المتبقية لأبيها وأمها، فقد أحاطاها بمحبة ورعاية عجيبتين. وكانا يأملان بأن يوفرا لها زواجاً محترماً. وفي أثناء ذلك، كان يتردد على بيت السيد ليزيو، ليتسلى معه، شابٌ

وسيم الهيئة ودمث الخلق من آل مانادري دي برتينورو، يدعى ريكاردو. ولم يكن ليزيو وزوجته يشعران نحوه إلا بما يشعر به أبوان نحو ابن لهما. لكن الشاب الذي كان يرى الفتاة الجميلة في كل مرة، افتتن بجمالها وخلقها، ووقع في هواها؛ غير أنه أخفى مشاعره تلك وأبقاها طي الكتمان. وقد لحظت الفتاة ذلك، ولم تستطع تجنب سهام الحب، ووقعت بدورها في هواه؛ مما أسعد ريكاردو. وكان يشعر في أحيان كثيرة بالرغبة في التحدث إليها، إلا أن الخوف يمنعه. لكنه وجد في إحدى المرات الفرصة المواتية والشجاعة، وقال لها:

- أرجوك يا كاترينا، لا تتركيني أموت حباً.

فأجابته الشابة على الفور:

- أنا التي أرجو الله ألا تتركني أموت حباً بك!

منح هذا الجواب ريكاردو مزيداً من السعادة والشجاعة، فقال لها:

- لن أدخر وسعاً في عمل كل ما يرضيك ويسعدك؛ ولكن عليك أنت أن تجدي الطريقة التي تنقذين بها حياتك وحياتي معاً!

وردت الفتاة:

- أنت ترى يا ريكاردو كيف يراقبونني بحرص، ولست أدري كيف يمكننا اللقاء؛ ولكن إذا ما وجدت أنت طريقة للمجيء إليّ دون أن تلوث سمعتي، فأخبرني بها، ولسوف أعمل بما تراه.

وبعد أن فكر ريكاردو ملياً، قال لها:

- حبيبتي كاترينا، لست أرى إلا طريقة واحدة للقاء، وهي أن تخرجي للنوم في الرواق المجاور لحديقة والدك، حيث يمكنني الصعود ليلاً إذا علمت أنك هناك، مع أنه مكان شديد الارتفاع.

فأجابته كاترينا:

- إذا كنت تريد المجيء حقاً، فسوف أسعى لتحقيق ما تريد، وأظنني قادرة على تدبر أمر النوم هناك.

أكد لها ريكاردو أنه سيوافيها، ثم تعانقا في قبلة سريعة، وافترقا. وفي اليوم التالي، وكان ذلك في أواخر شهر أيار، بدأت الفتاة تشكو أمام أمها من أنها لم تستطع النوم في الليلة الماضية، بسبب اشتداد الحر، فقالت الأم:

- أي حر هذا الذي تتكلمين عنه يا بنتي؟.. لم يكن هناك أي حرّ في الليلة الماضية.

- كان عليك أن تقولي «كما بدا لي» يا أماه، فربما يكون قولك صائباً عندئذ. ولا بد لك أن تفكري في أن الفتيات الشابات أشد حرارة بكثير من النساء المتقدمات في السن.

فقالت السيدة عندئذ:

- معك حق يا بنتي، ولكنني لا أستطيع التحكم بالحر والبرد وفق مشيئتي، ولا بد لنا من تحمل الجو مثلما تأتينا به الفصول. وعسى أن تكون هذه الليلة أكثر برودة، وتتمكنين من النوم بصورة أفضل.

فقالت كاترينا:

- أرجو أن يسمع الله منك، ولكنه أمر غير ممكن، ولا أظن أن برودة الليالي تزداد ونحن نتجه نحو الصيف.

- وما الذي يمكننا عمله إذن؟.. - قالت السيدة.

وأجابتها كاترينا:

- إذا ما سمحت لي أنت وأبي، فسوف آمر بوضع سرير في الرواق المطل على الحديقة، وأنام هناك على تغريد البلابل، وأستمتع ببرودة الهواء؛ وأكون أفضل حالاً بكثير مما أنتما عليه في مخدعكما.

فوعدتها الأم:

- اطمئني يا بنتي، سوف أحدث والدك بالأمر، وإذا وافق فسيكون لك ما تشائين.

حين سمع السيد ليزيو ما تطلبه امرأته، ردّ عليها، بسبب شيخوخته أو ربما بسبب الاستياء:

ـ أي بلبل هو هذا الذي تريد كاترينا النوم على تغريده؟.. سوف أجعلها تنام على غناء الصراصير.

وعندما علمت كاترينا ما قاله أبوها، لم تستطع النوم طوال تلك الليلة، ليس بسبب الحر بقدر ما هو بسبب الغيظ. ولم تدع أمها تنام، وهي تشكو لها من شدة الحر. فما كان من الأم في صباح اليوم التالي إلا أن بادرت السيد ليزيو بالقول:

ـ أظن أنك لا تحب ابنتك الشابة كثيراً، وإلا ما الذي يضيرك في نومها في الرواق؟.. إنها لم تستطع النوم في الليلة الماضية. ولست أدري ما هي الغرابة التي تراها أنت في حب فتاة شابة لسماع تغريد الطيور؟.. فالشباب يحبون مثل هذه الأشياء.

فقال ليزيو عندئذ:

ـ حسن، أعدوا لها سريراً هناك، وليكن محاطاً بستائر، ولتنم هناك، ولتستمع إلى تغريد البلبل ما شاء لها السماع.

حين علمت الفتاة بذلك، أمرت بوضع سرير هناك وأعدت كل ما تحتاج إليه لقضاء الليلة التالية في الرواق. وبعد ذلك انتظرت إلى أن رأت ريكاردو، فأومأت له بإشارة اتفقا عليها، وفهم منها ما عليه أن يفعله. وبعد أن رأى السيد ليزيو أن ابنته قد أوت إلى فراشها، أغلق الباب الذي يؤدي من مخدعه إلى الرواق، وذهب للنوم.

أحس ريكاردو بأن الهدوء يخيم على كل أنحاء البيت، فتسلق الجدار الخارجي مستعيناً بسلم؛ ومن هناك تشبث بنتوء في جدار آخر، وتمكن بجهد كبير (وبتعريض نفسه لخطر السقوط) من الوصول إلى الرواق، حيث استقبلته الشابة بصمت، وبسعادة عظيمة. وبعد كثير من القبلات، ناما معاً وتبادلا طوال الليل المتع والملذات، جاعلين البلبل يغرد عدة مرات. ولما كان الليل قصيراً والمتع كبيرة، فقد اقترب الفجر «دون أن يفطنا» وهما لا يزالان حاميين من الحر والمداعبات، ثم غلبهما النعاس فاستغرقا في النوم دون دثار يغطيهما. وكانت كاترينا تطوق صدر ريكاردو بذراعها اليمنى، وتمسك بيدها اليسرى ذلك الشيء الذي تخجلن أنتن النساء من ذكر اسمه أمام الرجال. وبينما هما ينامان على تلك الحال، طلع النهار، واستيقظ السيد ليزيو، وتذكر أن ابنته تنام في الردهة؛ ففتح الباب بهدوء وهو يقول في نفسه: «سأرى كيف جعل البلبل كاترينا تنام

هذه الليلة». وخرج إلى الردهة بصمت، وأزاح الستارة التي تخفي السرير، فوجدها هي وريكاردو عاريين ودون غطاء، ينامان في الوضع الذي وصفناه. وبعد أن تعرف على ريكاردو، غادر المكان بصمت، وذهب إلى مخدع زوجته، وناداها قائلاً:

ـ تعالي بسرعة يا امرأة، انهضي وتعالي لتري كيف أن ابنتك التي كانت تتشوق إلى البلبل وتترصده، قد أمسكت به أخيراً وصار في يدها.

فقالت السيدة:

ـ وكيف تحقق لها ذلك؟..

وقال السيد ليزيو:

ـ سترين بنفسك إذا ما أسرعت.

فارتدت السيدة ملابسها بسرعة، وتبعت السيد ليزيو بصمت، وحين وصلا إلى جانب السرير ورفعا الستارة، استطاعت دونا جياكومينا أن ترى بوضوح كيف تمسك ابنتها بالبلبل الذي أحبت تغريده. أحست السيدة بأنها قد خُدعت بريكاردو، وأرادت أن تصرخ به وتشتمه، لكن زوجها منعها من الصراخ قائلاً:

ـ تمالكي نفسك يا امرأة، ولا تنطقي بأي كلمة إذا كنت تحبينني. لأنها أمسكت بالفتى، وسيكون لها مثلما أرادت. وريكاردو شاب نبيل وثري؛ وستكون مصاهرة أسرته مناسبة لنا. فإذا أراد الخروج من هنا بسلام، عليه أن يتزوج ابنتنا أولاً، وهكذا ستجد أنها قد أدخلت البلبل في قفصها وليس في قفص غيرها.

فاطمأنت المرأة وظلت صامتة حين رأت زوجها غير غاضب مما جرى، وقدرت أن ابنتها قد قضت ليلة طيبة، وأنها قد أمسكت بالبلبل. ولم تتبادل مع زوجها إلا كلمات قليلة بعد ذلك، إلى أن استيقظ ريكاردو، ورأى أن النهار قد تقدم، وأدرك أنه هالك لا محال، فأيقظ كاترينا قائلاً:

ـ آه يا حبيبتي! ما الذي سنفعله وقد طلع النهار وأنا هنا؟..

فظهر عندئذ السيد ليزيو وردّ عليه بالقول:

ـ سنرى الآن ما نستطيع عمله.

وما إن رآه ريكاردو حتى أحس بأن قلبه يُنتزع من صدره؛ فاعتدل في الفراش وقال:

ـ أتوسل إليك باسم الرب يا سيدي. أعرف أنني أستحق الموت كرجل خائن وخبيث، فأنزل بي ما بدا لك من عقاب، لكني أتوسل إليك، إن كنت قادراً، أن ترحم حياتي ولا تقتلني.

فقال له السيد ليزيو:

ـ آي ريكاردو، ما كان حبي لك وثقتي بك يستحقان منك هذا الجزاء. أما وقد حدث ما حدث، وحملك طيش الشباب إلى اقتراف خطيئة عظيمة، فليس أمامك للخلاص من الموت، وتخليصي من العار، إلا أن توافق، قبل خروجك من هنا، على اتخاذ كاترينا زوجة شرعية لك؛ فتكون لك مدى الحياة مثلما كانت لك في هذه الليلة. وهكذا تنال مغفرتي وتحظى بنجاتك. أما إذا رفضت، فليس لك إلا أن تسلم روحك لخالقها.

وبينما هو يقول هذه الكلمات، كانت كاترينا قد أفلتت البلبل واستيقظت؛ فأخذت تبكي بمرارة، وتتوسل إلى أبيها أن يصفح عن ريكاردو، وتضرع من جانب آخر إلى ريكاردو أن يوافق على ما يطلبه منه أبوها، ليتمكنا من قضاء ليال كثيرة معاً بأمان واطمئنان. ولم تكن هناك حاجة إلى كثير من التوسل والرجاء، فقد كان ريكاردو يشعر بالخجل من الخطيئة التي ارتكبها، ويرغب في إصلاح الضرر؛ ويشعر من جهة ثانية بالخوف من الموت ويرغب في النجاة. أضف إلى ذلك حبه العارم لكاترينا، ورغبته في الظفر بها؛ فسارع بكل سرور، ودون تأخير، إلى القول إنه مستعد لعمل كل ما يرضي السيد ليزيو. وعندئذ طلب السيد ليزيو من زوجته أن تعطيه واحداً من خواتمها. وهناك بالذات، دون أن يغادر أحد المكان، عقد قران ريكاردو على كاترينا بحضور أبوي الفتاة. وعندما تم ذلك، انصرف السيد ليزيو وزوجته وهما يقولان:

ـ استريحا الآن، فربما أنتما بحاجة إلى الراحة أكثر من النهوض.

وما كادا يغادران المكان حتى تعانق الشابان. ولأنهما لم يقطعا في الليل سوى أربعة أشواط، فقد أضافا إليها شوطين آخرين قبل أن ينهضا؛ وهكذا أنهيا يومهما الأول. وحينئذ تبادل ريكاردو الحديث مع السيد ليزيو بصورة رسمية. وبعد بضعة أيام، عقد قرانه على الشابة من جديد، في احتفال مهيب حضره الأقارب والأصدقاء، ثم انتقلت معه إلى بيته في موكب كبير. وعاشت معه بعد ذلك بسلام وطمأنينة، وصار بإمكانها الإمساك بالبلابل كلما أرادت، سواء في النهار أو الليل.

القصة الخامسة

يعهد جيدوتو دي كريمونا، قبل موته، بطفلة لديه إلى جياكومينو دي بافيا. وفيما بعد، في فاينزا، يقع جيانولي دي سيفيرينو ومينغينو دي مينغولي في حب الفتاة؛ ويصل بهما الأمر إلى الصراع؛ ثم يتبين أن الفتاة هي أخت جيانولي، فيقدمها زوجة إلى مينغينو.

ضحكت النساء جميعهن مطولاً وهن يسمعن قصة البلبل، ومع أن فيلوستراتو قد انتهى من رواية القصة، إلا أنهن لم يتوقفن عن الضحك. وعندما توقفن أخيراً، قالت الملكة:

ـ الحقيقة إنك أحزنتنا بالأمس، ولكنك أمتعتنا اليوم بحيث لا يمكن لأي واحدة منا أن تتذمر أو تشكو منك.

ثم توجهت بالكلام إلى نيفيلي، وأمرتها بأن تروي قصتها، فبدأت هذه الكلام ببشاشة على النحو التالي:

ـ بما أن فيلوستراتو قد نقلنا بقصته إلى رومانيا، فإنه يطيب لي أيضاً أن أنتقل بقصتي إلى هناك لبعض الوقت.

كان يعيش في مدينة فانو، منذ زمن بعيد، رجلان من لومباردي، أحدهما يدعى جيدوتو دي كريمونا والآخر جياكومينو دي بافيا، وهما رجلان متقدمان في السن قضيا سنوات شبابهما في أعمال حربية كجنديين. وعندما أزفت ساعة موت جيدوتو، وليس له أبناء ذكور أو أقرباء أو أصدقاء آخرون يثق بهم سوى جياكومينو، عهد إليه بابنة عمرها عشر سنوات، هي كل من له في هذه الدنيا. وبعد أن حدثه مطولاً عن أموره، ترك له الفتاة، وأسلم الروح.

وحدث في أثناء ذلك أن تحسنت أحوال مدينة فاينزا بعد أن عانت من حرب طويلة، وصار بإمكان كل من يشاء أن يرجع إليها؛ ولأن جياكومينو كان قد عاش في تلك المدينة من قبل، وكانت إقامته فيها هانئة، فقد قرر الرجوع إليها. وأخذ معه الصبية التي تركها له جيدوتو، وكان يحبها ويعاملها كما لو أنها ابنته. وعندما كبرت الفتاة، صارت شابة حسناء، تفوق بجمالها كل نساء المدينة. وكانت تتمتع، فضلاً عن جمالها، بفضائل أخرى مثل اللباقة والعفة والشرف. وقد تودد إليها شبان كثيرون، برز منهم بصورة خاصة شابان وسيمان، أحباها إلى حدّ دفعتهما معه الغيرة إلى خصومة وعداء شديدين. وكان اسم أحدهما جيانولي دي سيفيرينو، واسم الآخر مينغينو دي مينغولي. ولم يكن أي منهما ليتوانى عن الزواج منها، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، لو أن ذويهما وافقوا على الأمر؛ ولأن ذلك لم يحدث، فقد انهمك كل منهما بمحاولة نيلها بأفضل طريقة ممكنة.

وكان لدى جياكومينو خادمة متقدمة في السن، وخادم يدعى كريفيللو، وهو رجل مرح ولطيف، أقام معه الشاب جيانولي صداقة حميمة. وعندما وجد فرصة مناسبة، كشف له عن حبه للفتاة، وتوسل إليه أن يساعده في نيل مبتغاه، ووعده بأن يقدم إليه بالمقابل أشياء كثيرة. وقد ردّ عليه كريفيللو:

- لا يمكنني مساعدتك في هذا الأمر إلا عندما يخرج جياكومينو في أحد الأيام للعشاء خارج البيت، فأُدخلك عندئذ إلى حيث الفتاة. أما أن أحاول أنا الحديث إليها عنك، فلا أظن إلا أنها ستتجاهلني ولن تستمع إليّ أبداً.

فقال له جيانولي إنه لا يريد منه أكثر مما عرضه، واستقر اتفاقهما على ذلك.

وكان مينغينو من جانبه قد استمال إليه الخادمة، وتمكن من جعلها تحمل رسائل

منه إلى الفتاة، حتى أوشك أن يوقعها في حبه. وقد وعدته الخادمة بأن تدبر له لقاء مع الفتاة إذا ما غادر جياكومينو البيت ليلاً في أحد الأيام. وحدث بعد وقت قصير أن خرج جياكومينو لتناول العشاء مع صديق له، فسارع الخادم كريفيللو إلى إخبار جياكومينو بذلك، واتفق معه أن يحضر، عند تلقيه إشارة متفق عليها، وسيجد الباب مفتوحاً.

ودون أن تعلم الخادمة شيئاً من هذا، عمدت بدورها إلى إخبار مينغينو بأن سيدها لن يتعشى في منزله. وطلبت منه أن يبقى قريباً من البيت، بحيث يراها عندما تشير إليه كي يأتي ويدخل.

وبحلول الليل، ودون أن يعلم أي من العاشقين شيئاً عما دبره الآخر، ذهب كل منهما مع بعض رفاقه المسلحين إلى الموعد. فاستقر مينغينو مع رفاقه في بيت صديق له على مقربة من بيت الفتاة، منتظراً تلقي الإشارة. بينما ظل جيانولي ينتظر مع رفاقه في مكان بعيد بعض الشيء عن البيت. وفي أثناء ذلك، كان كريفيللو والخادمة يسعيان بكل الوسائل، في غياب جياكومينو، لأن يبعد كل منهما الآخر من طريقه. فكان كريفيللو يقول للخادمة:

- لماذا لم تذهبي للنوم حتى الآن؟.. وما الذي تفعلينه بتجوالك في أنحاء البيت؟..

فترد عليه الخادمة:

- ولماذا لا تذهب أنت للنوم؟.. ما الذي تنتظره بعد أن تناولت عشاءك؟..

وهكذا كان كل منهما يحاول إبعاد الآخر. وعندما رأى كريفيللو أن موعده مع جيانولي قد أزف، قال في نفسه: «وماذا يهمني وجودها؟.. إذا ما تكلمت بشيء، فسوف تنال ما تستحقه من عقاب.» ثم أومأ بالإشارة المتفق عليها، وذهب لفتح الباب. وما إن رأى جيانولي الإشارة، حتى سارع مع اثنين من رفاقه إلى الدخول. ووجدوا الفتاة في الصالون، فأمسكوا بها لاقتيادها معهم. بدأت الشابة بالمقاومة والصراخ بقوة، وحذت الخادمة حذوها؛ فسمع مينغينو الصراخ، وهرع مسرعاً مع رفاقه إلى هناك. وحين رأوا أولئك يحاولون إخراج الفتاة من الباب، استلوا سيوفهم وصرخوا بهم:

- توقفوا مكانكم أيها الخونة! لن تنجوا بفعلتكم، ما هذا العنف أيها الأنذال؟..

قالوا هذا وبدؤوا المبارزة. وحين سمع الجيران الجلبة، خرجوا من بيوتهم واستنكروا

ما فعله أولئك، ووقفوا إلى جانب مينغينو؛ فتمكن هذا بعد صراع طويل من انتزاع الفتاة من جيانولي، وأعادها إلى بيت جياكومينو. ولم تكن الجلبة قد انتهت بعد عندما حضر جنود حاكم المدينة، وألقوا القبض على عدد كبير ممن هناك، ومنهم مينغينو وجيانولي وكريفيللو. واقتادوهم إلى السجن.

ولكن الأمور ما لبثت أن هدأت بعد ذلك، وجاء جياكومينو، فغضب أشد الغضب، واستفسر كيف جرت الأمور. وحين رأى أن الفتاة غير مسؤولة عن أي شيء، اطمأنت نفسه، وقرر أن يزوجها بأسرع ما يمكن كي لا تقع ثانية مثل تلك الأحداث.

وفي اليوم التالي، بعد أن عرفت أسرتا الشابين بحقيقة ما حدث، وأدرك الجميع الأذى الذي يمكن أن يلحق بالشابين إذا ما أقدم جياكومينو على ما يستدعي الحس السليم عمله؛ ذهبوا إليه متوسلين بكلمات رقيقة أن يصفح عن طيش الشابين، وألا ينظر إلا بعين الحب والرحمة إلى تهورهما. وعرضوا عليه استعدادهم جميعاً، بمن في ذلك الشابين، على عمل كل ما يطلبه لإصلاح الضرر الذي لحق به.

ولما كان جياكومينو رجلاً واسع التجربة، رأى في حياته أشياء كثيرة، فضلاً عن طيبة مشاعره، فقد ردّ قائلاً:

ـ أيها السادة، أشعر وأنا في مدينتكم كما لو أنني في موطني، وأعتبركم أصدقائي بحيث لا يمكنني أن أخالفكم الرأي، سواء في هذا الأمر أو غيره. ولا بد أن تعلموا أن هذه الفتاة ليست من كريمونا ولا من بافيا، مثلما يعتقد كثيرون، وإنما هي من مدينتكم هذه، إنها فاينزية مثلكم. ولكنني لا أدري من هم أهلها، مثلما لا يدري ذلك من عهد بها إليّ، ولا حتى هي نفسها تعرف أبويها. ولهذا فإنني أستجيب لرغباتكم، وسأفعل ما ترونه مناسباً.

وحين سمع أولئك الرجال أنها من فاينزا، تعجبوا أشد العجب؛ وشكروا جياكومينو على رده الكريم. وطلبوا منه أن يخبرهم كيف وصلت الفتاة إليه، وكيف عرف أنها فاينزية، فأجابهم قائلاً:

ـ كان جيدوتو دي كريمونا رفيقي وصديقي، وعندما أزفت ساعة موته قال لي إنه عندما استولى الإمبراطور فيدريكو على مدينتكم هذه، وأباحها لجنوده، دخل جيدوتو

وبعض رفاقه إلى بيت ممتلئ بالنفائس، هجره أصحابه، ولم يبق فيه سوى طفلة عمرها سنتين أو أقل. وبينما هو يصعد درج البيت نادته الطفلة: «أبي». فأشفق عليها وحملها مع محتويات البيت إلى مدينة فانو. وعندما مات هناك، تركها مع كل ممتلكاته، وطلب مني أن أزوجها عندما تبلغ سن الزواج، وأن أقدم لها كل ما خلفه لي كدوطة. وبعد أن صارت في سن الزواج، لم أستطع الموافقة على زواجها من رجل لا يروقني؛ ولكنني مستعد الآن لتزويجها من أجل تجنب حادث مماثل لما حدث ليلة أمس.

وكان هناك بين الحاضرين شخص يدعى جيغليمينو دي ميديسينا، رافق جيدوتو أثناء تلك الواقعة، وهو يعرف جيداً من هو صاحب البيت الذي نهبه جيدوتو؛ وحين رآه موجوداً هناك بين الجمع، اقترب منه وقال له:

ـ أتسمع يا بيرنابوكيو ما يقوله جياكومينو؟..

فأجابه بيرنابوكيو:

ـ أجل، لقد سمعته، وقد فكرتُ فيه أيضاً، لأني فقدت في تلك الفوضى ابنة في مثل هذه السن التي يتحدث عنها جياكومينو.

ـ إنها هي بالتأكيد. فقد التقيت قبل زمن بجيدوتو، وسمعته يصف البيت الذي قام بسلبه، وعرفت أنه بيتك نفسه. فتذكر إذا ما كان في ابنتك علامة مميزة، وتعرف عليها في هذه الفتاة، لأنها ابنتك على ما أظن.

فكر بيرنابوكيو ملياً، وتذكر أن هناك ندبة لها شكل صليب صغير خلف أذن ابنته اليمنى، بسبب ورم جرى استئصاله قبل تلك الأحداث بوقت قصير. فتوجه دون تردد إلى جياكومينو، ورجاه أن يُدخله إلى بيته ويسمح له برؤية الفتاة. فوافق جياكومينو، وطلب من الفتاة أن تخرج. وعندما أطلت، أحس بيرنابوكيو بأنه يرى وجه زوجته في شبابها؛ لكنه لم يكتف بذلك، بل طلب من جياكومينو أن يسمح له برفع شعرها قليلاً فوق أذنها اليمنى، ثم تقدم نحوها. وكانت الفتاة تقف ساكنة بحياء، فرفع شعرها بيده ورأى الندبة؛ فعرف أنها ابنته حقاً، فراح يبكي وعانقها. ولكنها تفلتت منه، فالتفت إلى جياكومينو قائلاً:

ـ إنها ابنتي يا أخي؛ وبيتي هو البيت الذي نهبه جيدوتو، وهذه الفتاة هي التي نسيتها

زوجتي، أمها، في ذلك الهياج المفاجئ. وكنا نظن حتى الآن أنها ماتت في ذلك اليوم بالذات، عندما أحرقوا البيت.

حين سمعت الفتاة هذا، ورأت أنه رجل مسن، صدقت كل ما قاله، وبادلته العناق، وانفجرت مثله في البكاء. ثم أرسل بيرنابوكيو من يأتي بأمها وأخوتها وأقربائها، وأراها للجميع وأخبرهم بما جرى، وبعد المعانقات، أقاموا حفلة كبرى، وأخذوها إلى بيتهم.

علم حاكم المدينة بما حدث، وكان رجلاً مقداماً، وعرف أن الشاب جيانولي المعتقل لديه، هو ابن بيرنابوكيو وشقيق تلك الفتاة؛ ففكر في التغاضي عن الخطأ الذي ارتكبه الفتى. وقام بمصالحة بيرنابوكيو وجياكومينون، وكذلك جيانولي ومينغينو، وصالح مينغينو مع ذويه، وزوَّج هذا الشاب الأخير من الفتاة التي تبين أن اسمها آنيس. وقد أقام مينغينو حفلة زفاف كبرى، وأخذها إلى بيته، وعاش معها عمراً مديداً بأمان وسعادة وازدهار.

القصة السادسة

يُعثر على جياني دي بروشيدا مع شابة يحبها، وكانت مهداة إلى الملك فيدريكو، فيحكم عليه بالحرق ويقيد إلى عمود. يعترف به أبوه روجيري دي لوريا، فينجو ويتزوج من الفتاة.

بانتهاء قصة نيفيلي التي أعجبت الآخرين كثيراً، أمرت الملكة بامبينيا بأن تواصل بدورها وتروي قصة. فرفعت هذه وجهها المشرق، وبدأت القول:

ـ عظيمة هي قوى الحب يا سيداتي العزيزات، تقود المحبين إلى مخاطر كبيرة ومصاعب مهولة، وهذا ما وجدناه في قصص كثيرة سمعناها اليوم وفي أيام سابقة، ولكنني لن أتخلى عن إثباته مجدداً الآن في قصة عن عناد شاب محب.

في إسكيا، وهي جزيرة قريبة جداً من نابولي، كانت تعيش في قديم الزمان شابة جميلة وسعيدة تدعى ريستيتويتا؛ ابنة رجل نبيل من الجزيرة اسمه مارين بولجارو. وكان

هناك شاب يدعى جياني، هام حباً بالفتاة، وبادلته ريستيتويتا مشاعره بمثلها. كان الشاب من جزيرة بروشيدا الصغيرة القريبة جداً من جزيرة إسكيا. وقد اعتاد أن يأتي ليلاً من بروشيدا إلى إسكيا لرؤية فتاته. فإذا لم يجد زورقاً، جاء سباحة؛ وإذا لم يستطع رؤية محبوبته، فإنه يكتفي بتملي أسوار بيتها. وفي أثناء هذه الغراميات المتأججة، حدث أن خرجت الفتاة وحدها إلى شاطئ البحر في أحد أيام الصيف، وراحت تتنقل من صخرة إلى أخرى، وتنتزع بسكين بعض القواقع البحرية عن الصخور، فوجدت نفسها في مكان متوار بين صخور بحرية عالية. ولأن المكان ظليل، وفيه ينبوع مياه عذبة وباردة، فقد رسا فيه مركب شبان صقليين آتين من نابولي. وحين رأى أولئك الشبان الفتاة الجميلة التي لم تكن قد رأتهم بعد، وتبين لهم أنها وحيدة، قرروا اختطافها وحملها معهم. وأتبعوا ما اتفقوا عليه بالعمل؛ فقد أمسكوا بها، على الرغم من صرخاتها، واقتادوها إلى المركب وأقلعوا بها. وعند وصولهم إلى كالابريا بدؤوا يتجادلون حول من منهم سيحظى بالفتاة. وباختصار، كان كل واحد منهم يريدها له، ولم يتوصلوا إلى اتفاق؛ ولخشيتهم من أن يستشري الخلاف بينهم، وينتهي بهم الأمر إلى الاشتباك بسببها، توصلوا إلى الاتفاق على أن يقدموها هدية إلى فيدريكو، ملك صقلية، وكان في ذلك الحين شاباً تسعده مثل هذه الأشياء. وعند وصولهم إلى باليرمو، نفذوا ما اتفقوا عليه. وقد أعجب الملك بها أيما إعجاب، ولكنه حين رآها حزينة وليست على ما يرام، أمر بنقلها إلى دار بديعة في إحدى حدائقه الغناء المسماة لاكوبا، وأن تقدم لها هناك كل الخدمات.

أحدث اختطاف ريستيتويتا جلبة واضطراباً كبيرين في جزيرة إسكيا، والأدهى أنهم لم يتمكنوا من معرفة من الذي اختطفها. غير أن جياني الذي أحزنه الأمر أكثر من الآخرين، لم يستطع البقاء في إسكيا لتقصي مصيرها، بل اكتفى بمعرفة الاتجاه الذي أبحر فيه مركب الخاطفين. فأعد سفينة وأقلع بها بأسرع ما يمكن، وراح يجوب الشاطئ من مينيرفا حتى سكاليا في كالابريا. وكان يسأل في كل مكان عن الفتاة، إلى أن قيل له في سكاليا إن بحارة صقليين قد أخذوها إلى باليرمو. فأبحر جياني إلى هناك بأقصى سرعة، وبعد كثير من التقصي، علم أن الفتاة قد أُهديت إلى الملك، وأنها تقيم تحت الحراسة في لاكوبا؛ فاشتد غضبه وفقد الأمل ليس في الظفر بها وحسب، وإنما في رؤيتها كذلك. غير أن الحب ملأ قلبه بالحماسة، فصرف السفينة وظل هناك حيث لا يعرفه أحد.

وصار يكثر من المرور أمام البيت الذي تقيم فيه فتاته في لاكوبا، إلى أن توصل في أحد الأيام إلى رؤيتها تطل من إحدى النوافذ، ورأته هي بدورها، فملأت قلبيهما السعادة. وحين رأى جياني أن المكان مقفر وليس هناك من يراه، اقترب قدر ما استطاع، فتحدث إليها وعرف منها ما الذي عليه عمله ليصل إليها. ثم انصرف بعد أن تفحص المكان وعرف كل تفاصيله. وانتظر إلى أن جاء الليل وتقدم شطر كبير منه، فرجع إلى هناك، وتسلق مكاناً في السور لم يتمكنوا من غرس حراب فيه، ودخل إلى الحديقة. ووجد هناك سلماً، أسنده إلى النافذة التي دلته عليها الفتاة، وصعد بسهولة كبيرة.

وكانت الفتاة قد قدرت أنها فاقدة شرفها لا محالة، وفكرت في أن جياني هو الشخص الأكثر جدارة بها، فقررت أن تسلمه نفسها، وتركت النافذة مفتوحة ليتمكن من الدخول بسرعة. دخل جياني بصمت، واستلقى في الفراش إلى جانب الفتاة التي لم تكن نائمة. وقبل أن يبدأا بأي شيء، أوضحت له الفتاة نواياها، وتوسلت إليه أن يُخرجها من هناك ويأخذها معه. فقال لها جياني إن سعادته الكبرى في عمل ذلك، ووعدها بأن يجد طريقة لإخراجها من ذلك البيت، وإنه سيأخذها معه في المرة القادمة. ثم تعانقا بسعادة بالغة، واستسلما للمتعة متجاوزين كل الحدود التي يتيحها الحب. وبعد أن كررا ذلك عدة مرات، غلبهما النعاس دون أن ينتبها، واستسلما للنوم متعانقين.

أما الملك الذي أعجبته الفتاة مذ رآها أول مرة، فقد تذكرها في تلك الليلة، وقرر الذهاب إليها وقضاء بعض الوقت معها، بالرغم من أن الفجر قد أوشك على البزوغ. فتوجه مع بعض خدمه إلى لاكوبا، ودخلوا إلى البناء، ثم أمر بفتح مخدع الفتاة دون إحداث أي ضجة، ودخل بهدوء وهو يحمل شعلة يستضيء بها. وحين نظر إلى السرير، رأى الفتاة تنام عارية وهي تعانق جياني. سيطر غضب شديد على الملك، وكان على وشك أن يقتلهما معاً بخنجر على خصره. لكنه فكر في أنه لا يليق برجل عادي، فما بالك بملك، أن يقدم على قتل شخصين نائمين. فكبح نفسه وقرر أن يكون انتقامه علنياً وأمام الملأ، في المحرقة. فتوجه إلى الباب واستدعى الصديق الوحيد الذي كان معه، وقال له:

ـ ما رأيك بهذه المرأة الخبيثة التي عقدتُ عليها آمالي؟..

وسأله أيضاً إذا ما كان يعرف ذلك الشاب الذي تجرأ على دخول بيته، وألحق به مثل هذه الإهانة. فأجابه الآخر بأنه لا يتذكر أنه رأى هذا الشاب قط من قبل.

خرج الملك غاضباً من الغرفة، وأمر باعتقالهما وتقييدهما عاريين كما هما، كي ينقلا في الصباح إلى باليرمو، ليربطا إلى عمود في الميدان العام، وظهر كل منهما إلى الآخر، ويعرضان حتى العصر، ليراهما الجميع، ثم يحرقان جزاء فعلتهما. وبعد أن قال هذا، رجع إلى باليرمو، واختلى في غرفته مغموماً.

بعد انصراف الملك، جرى إيقاظ العاشقين، وتم اعتقالهما وتقييدهما دون رحمة. فأصابهما هلع شديد، وبكيا واستنجدا كما يمكن للمرء أن يتصور. ثم جرى اقتيادهما، حسب أوامر الملك، إلى باليرمو، ورُبطا إلى عمود في الساحة العامة، وجرت تهيئة حطب المحرقة أمام أعينهما من أجل إحراقهما في الموعد الذي حدده الملك. وهرع أهالي باليرمو كلهم، رجالاً ونساء، لرؤية العاشقين. وقد جاء الرجال منهم لرؤية الفتاة والافتتان بجمالها الآخاذ؛ بينما النساء ينظرن إلى الشاب ويبدين إعجابهن بوسامته وتناسق تقاطيعه. لكن العاشقين التعسين كانا يطأطئان رأسيهما خجلاً ويبكيان سوء طالعهما وهما ينتظران، بين لحظة وأخرى، موتهما الرهيب حرقاً.

وبينما هما على تلك الحال بانتظار الموعد المحدد، والجميع يسأل عما اقترفاه من ذنب، وصل الخبر إلى روجري دي لوريا، وهو رجل رفيع المقام، كان آنذاك أميرال أسطول الملك. فذهب لرؤيتهما في المكان الذي قيدا فيه. وعند وصوله نظر إلى الفتاة أولاً، وامتدح جمالها؛ ثم التفت إلى الشاب، وتعرف عليه فوراً؛ فاقترب منه وسأله إذا ما كان جياني دي بروشيدا.

رفع جياني رأسه، وأجابه:

- إنني يا سيدي هذا الذي ذكرته، لكنني لن أكونه بعد قليل.

عندئذ سأله الأميرال عما أوصله إلى تلك الحال؛ فأجابه جياني:

- الحب وغضب الملك.

رغب الأميرال في معرفة المزيد. وبعد أن سمع القصة مثلما حدثت واستعد للذهاب، ناداه جياني وقال له:

ـ آه يا سيدي! ليتني أستطيع أن أطلب منك مكرمة تقدمها إليّ.

فسأله روجيري عن طلبه، وردّ عليه جياني:

ـ أرى أنني ميت لا محالة بعد وقت قصير. وما أريد أن تُنعم علي به، وأنا أدير ظهري لهذه الفتاة التي أحب، هو أن تضعنا وجهاً لوجه كي أرى وجهها وأنا أموت، فأجد في ذلك العزاء والسلوان.

فقال له الأميرال وهو يبتسم:

ـ سأفعل ذلك بكل سرور، بل سأجعلك تراها حتى تمل منها.

ثم ابتعد عنه، وأمر الجلادين بألا يفعلوا شيئاً إلى أن يتلقوا أمراً جديداً من الملك. ثم مضى مسرعاً لمقابلة الملك، وسأله:

ـ ما الجرم الذي اقترفه، يا صاحب الجلالة، هذان الشابان اللذان أمرت بإحراقهما؟..

فأخبره الملك بما حدث، وعندئذ قال الأميرال:

ـ جريمتهما تستحق المحرقة، ولكن يجب ألا تأتي العقوبة منك؛ لأنه إذا كانت الجريمة تستحق العقاب، فإن المنافع تستحق المكافأة والثواب. فهل تعرف من يكون هذان اللذان تريد لهما الموت حرقاً؟..

فقال الملك إنه لا يعرفهما، وعندئذ واصل روجيري كلامه:

ـ سأخبرك بمن هما إذن، حتى ترى إلى أين أوصلك الغضب. فالشاب هو ابن لاندولفو دي بروشيدا وشقيق السيد جيان دي بروشيدا اللذين أنت، بفضلهما، ملك وسيد هذه الجزيرة. والفتاة هي ابنة مارين بولغارو الذي كان لإمكانياته الفضل في عدم إزاحتك عن عرشك وإبعادك عن صقلية. وهذان الشابان متحابان منذ وقت طويل، وكان الحب، وليس الرغبة في تحدي سلطتك، هو ما دفعهما إلى ارتكاب هذه الخطيئة؛ إذا كانت تسمية الخطيئة تليق بما فعله الشابان بدافع الحب. فلماذا تريد لهما الموت، في حين كان الأجدر بك أن تكرمهما بسعادة كبيرة؟..

حين سمع الملك كلام روجيري، وتأكد من صحته، ندم على ما ينوي فعله، وعلى ما فعله بحقهما. وأمر بفك قيودهما والمجيء بهما للمثول بين يديه. وكان هذا ما جرى. وبعد أن عرف حقيقتهما، قرر تعويضهما عما ألحقه بهما من إهانة وأذى؛ فألبسهما أفخر الملابس، وزوج جياني من الفتاة، وكافأهما بالهدايا والتشريفات، ثم أرسلهما إلى موطنهما حيث استُقبلا بكل مظاهر الحفاوة والابتهاج، وعاشا حياة مديدة تغمرهما السعادة.

القصة السابعة

يقع تيودورو في غرام فيولانتي، ابنة السيد أميركو، فتحبل منه ويحكم عليه بالشنق. وعندما يُقتاد إلى المشنقة، يتعرف عليه أبوه ويزوجه من فيولانتي.

السيدات اللواتي كن يستمعن بلهفة ويخشين أن يجري إحراق العاشقين، شعرن بالطمأنينة في النهاية وحمدن الله لنجاتهما. وما إن سمعت الملكة نهاية القصة، حتى أمرت لوريتا بأن تواصل. فبدأت هذه القول بسعادة:

ـ صديقاتي العزيزات، في الزمن الذي تولى فيه الملك الصالح غليوم حكم صقلية، كان يعيش في هذه الجزيرة رجل نبيل يدعى السيد أميركو آبات دي تراباني، وفضلاً عن الثروات العظيمة التي يملكها، كان لديه عدد كبير من الأبناء؛ مما أحوجه إلى الاستعانة بأعداد من الخدم. وعندما أتت سفن القراصنة الجنويين من الشرق، بعد قيامها بأعمال القرصنة والإغارة على سواحل أرمينيا وأسرها الكثير من الغلمان، اشترى عدداً منهم، وهو يظنهم من الأتراك. ومع أن جميع أولئك الصبيان كانوا يبدون من الرعاة، إلا أن واحداً منهم بدا أكثر نبلاً وأفضل مظهراً من الآخرين، وكان اسمه تيودور. وبالرغم من أن هذا الصبي كان يعامل كعبد، إلا أنه كبر وترعرع بين أبناء السيد أميركو. وبدت طبيعة شخصيته أقوى من ظروف العبودية التي يعيشها، فكان يميل إلى بطبعه إلى

اللباقة ومحاسن السلوك، حتى إن السيد أميركو أعجب به كثيراً وأعتقه. ولاعتقاده بأنه من أصل تركي، فقد عمده وسماه بيترو، وأوكل إليه إدارة أعماله، وأولاه ثقته الكاملة.

وبين أبناء السيد أميركو الكثيرين، كانت له ابنة اسمها فيولانتي، وهي فتاه جميلة وجذابة. وبينما كانت الأيام تمضي دون أن يسعى أبوها لتزويجها، وقعت الفتاة في حب بيترو؛ غير أن الخجل كان يمنعها من إظهار عواطفها. ولكن الحب وفر عليها ذلك العناء عندما وقع بيترو بدوره في حبها، وصار لا يشعر بالراحة إلا عندما يراها. لكنه كان يخشى أن ينتبه أحد ممن في البيت إلى ذلك، لإحساسه بأن ما يفعله ليس لائقاً. أما الفتاة التي كانت تنظر إليه بإعجاب، فقد انتبهت إلى مشاعره، وأبدت له سعادتها بذلك. وأمضيا زمناً طويلاً على تلك الحال، لا يتجرأ أي منهما على قول شيء للآخر، مع أن كليهما يرغب في ذلك. وبينما هما يتأججان بنيران الحب المتقدة، بدا كما لو أن الحظ يريد إسعافهما والبحث لهما عن طريقة تخلصهما من المخاوف التي تسيطر عليهما.

كان السيد أميركو يملك، على بعد ميل واحد تقريباً من تراباني، مزرعة بديعة؛ اعتادت زوجته وابنته الذهاب إليها مع سيدات أخريات للتسرية عن أنفسهن، وقضاء أوقات سعيدة هناك. وقد ذهبن في يوم شديد الحر، وأخذن معهن بيترو. وحدث عندئذ «مثلما يحدث أحياناً في الصيف» أن غطت السماء غيوم سوداء؛ فقررت السيدة ورفيقاتها العودة فوراً إلى تراباني، كي لا تداهمهن العاصفة في الريف، وانطلقن في المسير بأسرع ما يستطعن. ولأن بيترو كان شاباً، وكذلك الفتاة، فقد سبقا الأم ورفيقاتها في المشي، وتقدما كثيراً، ربما يدفعهما الحب أكثر من سوء المناخ، حتى غابا عن نظر الأخريات. وعندئذ دوى الرعد فجأة، وتلاه هطول وابل من البرد الكبير والكثيف، فلجأت الأم ورفيقاتها إلى بيت أحد الفلاحين. أما بيترو والفتاة فلم يجدا مكاناً يلوذان به سوى كنيسة قديمة ومهدمة؛ فاختبأا تحت جزء صغير متبق من السقف، واضطرهما ضيق المكان إلى البقاء متلاصقين. فكان ذلك التلامس مسوغاً لطمأنة نفسيهما والبوح بما في قلبيهما من الجوى. فبدأ بيترو القول:

ـ أرجو من الله ألا تنتهي هذه العاصفة، كي أظل مثلما أنا الآن.

فقالت الفتاة:

ـ لكم أتمنى ذلك أيضاً.

وبادرا بعد هذه الكلمات إلى إمساك كل منهما بيد الآخر والضغط عليها بشدة؛ وأتبعا ذلك بالعناق، ثم بالقبلات التي تواصلت حتى توقف هطول البرد. وكي لا أدخل في كثير من التفاصيل، أقول إن الجو لم يتحسن إلا بعد أن تذوقا أقصى متع الحب المعروفة، وتوصلا إلى الاتفاق على مواصلة تلك المتع، بصورة سرية، كلما كان ذلك ممكناً.

وبعد توقف العاصفة، وقبل الدخول إلى المدينة التي صارت قريبة، توقفا بانتظار وصول السيدة ورفيقاتها، ورجعا معها إلى البيت. وصارا منذ ذلك اليوم يتحينان الفرص بسرية وتكتم من أجل اللقاءات السعيدة. وتكررت تلك اللقاءات إلى أن تبينت الفتاة أنها حبلى، فأحزنهما ذلك أشد الحزن، ولجأت إلى مختلف الوسائل لوقف مسار الحمل الطبيعي؛ ولكنها لم تفلح في التخلص من حملها. فخاف بيترو على حياته، وأخبر الفتاة بأنه عازم على الهرب. فقالت له:

ـ إذا ما هربت فسوف أقتل نفسي فوراً.

ـ كيف تريدينني أن أبقى هنا يا حبيبتي؟.. سيكشف حملك أمرنا. وعندئذ سيصفحون عنك بكل بساطة، أما أنا التعس فسوف أنال العقوبة مزدوجة.

فقالت له الفتاة:

ـ الحقيقة يا بيترو أن خطيئتي ستُكتشف وتظهر أمام الملأ، ولكن تأكد أن خطيئتك لن تُعرف إلى الأبد ما لم تعترف أنت نفسك بها.

عندئذ قال بيترو:

ـ إذا كنت تعدينني بحفظ السر، فسوف أبقى؛ ولكن عليك أن تفي بوعدك.

أخفت الفتاة أمر حملها قدر ما استطاعت، ولكن عندما بدأ بطنها يتكور، وأدركت أنها لم تعد قادرة على الكتمان، ذهبت في أحد الأيام باكية إلى أمها، وأخبرتها بالأمر متوسلة إليها أن تنقذها. أصاب الأم غم شديد مما سمعته، ووجهت إليها الكثير من عبارات التأنيب، وأرادت أن تعرف كيف حدث ذلك. وكي لا تُلحق الأذى ببيترو، لفقت الفتاة قصة أخفت بها الحقيقة، فصدقت الأم تلك القصة، ورغبت في أن تخفي خطيئة ابنتها؛ فأخذتها إلى بيت لها في الريف. وعندما حان موعد الوضع، بدأت الفتاة تصرخ مثلما تفعل النساء عادة في هذه الحالات. وتوافق الحدث مع عودة السيد

أميركو من رحلة صيد بالصقور؛ وصادف أن مر قريباً من الحجرة التي تصرخ فيها ابنته، فاستهجن الأمر، ودخل فجأة ليسأل عما يحدث. وحين رأت السيدة زوجها نهضت محزونة، ولم تجد مفراً من إخباره بما جرى لابنتهما. ولكن الأب لم يكن من النوع الذي يمكن خداعه، فلم يصدق تلك القصة الملفقة، وقال إنه لا يمكن لها ألا تعرف من هو الشخص الذي حملت منه، وإنه مصمم على معرفة من يكون، فإذا أخبرته فسوف تنال الصفح، وإلا فإنها ستموت دون رحمة. حاولت السيدة أن تهدئ من غضب زوجها، ولكن دون جدوى، بل إن غضبه ازداد، فتوجه شاهراً سيفه إلى ابنته التي أخرجت وليدها إلى النور في تلك اللحظة، وقال لها:

ـ إما أن تعترفي لي بمن يكون أبو هذا الوليد، أو تموتي الآن فوراً.

ولخوفها من الموت، أخلّت بالوعد الذي قطعته لبيترو، واعترفت بكل ما جرى بينها وبينه. استولى غضب شديد على السيد، وكان على وشك أن يقتلها؛ ولكنه تروى قليلاً، ثم امتطى جواده ورجع إلى تراباني. وهناك ذهب إلى السيد كورادو الذي يحكم المدينة باسم الملك، وأخبره بالإهانة التي لحقت به. فأمر الحاكم باعتقال بيترو وإخضاعه للتعذيب، فاعترف بكل شيء. وعندئذ حُكم عليه بأن يجلد ثم يشنق بعد ذلك. أما السيد أميركو، وكان لا يزال يتميز غضباً، فقد سكب سماً في قدح، ووضع إلى جانبه خنجراً، وأعطاهما إلى خادم له وقال:

ـ اذهب بهما إلى فيولانتي، وقل لها أن تختار بين الموت بالسم أو الحديد، وأن تفعل ذلك فوراً؛ وإلا فإنني سأحرقها أمام الملأ. وبعد أن تنهي ذلك، خذ الوليد الذي أنجبته، فاضرب رأسه بالجدار، وارمِ جثته طعاماً للكلاب.

بعد إصدار الأب الصارم هذا الحكم القاسي على ابنته وحفيده، ذهب الخادم وهو مستعد لاقتراف الشر أكثر من ميله إلى عمل الخير. أما بيترو، فقد اقتيد بعد جلده إلى المشنقة، وفي الطريق مرّ وهو بين حراسه من أمام نزل يقيم فيه ثلاثة نبلاء من أرمينيا، كانوا مبعوثين من ملك أرمينيا إلى روما كسفراء للتباحث مع البابا في مسألة بالغة الخطورة. وقد توقفوا للراحة بضعة أيام في تراباني، فاحتفى بهم نبلاء المدينة، لاسيما السيد أميركو. وعندما سمع هؤلاء الأرمن الثلاثة بمرور بيترو من الشارع، أطلوا من النافذة لرؤية المشهد. كان بيترو يمضي عارياً من خصره إلى أعلى، ويداه مقيدتان وراء ظهره. فنظر إليه أحد السفراء الثلاثة، وكان رجلاً مسناً وواسع النفوذ يدعى فينيه، ورأى

على صدره بقعة قرمزية، ليست صباغاً وإنما هي طبيعية وثابتة على البشرة، من تلك التي يسمونها هنا «ورداً»، وتسميها النساء «وحماً». فتذكر فجأة ابناً له اختطفه القراصنة قبل خمسة عشر عاماً من شاطئ لايزو، ولم يعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين. وعندما قدّر عمر المتهم التعس، فكر في أن ابنه سيكون في مثل عمره إذا كان لا يزال حياً، ثم فكر في أنه إذا كان ابنه، فلا بد أنه يتذكر اسمه واسم أبيه، ويتذكر لغته الأرمينية؛ فناداه عندما صار قريباً:

ـ تيودور!

وحين سمع بيترو ذلك الصوت، سارع إلى رفع رأسه؛ فسأله فينيه عندئذ بالأرمنية:

ـ من أين أنت، ومن هو أبوك؟..

توقف الحراس الذين يقتادونه احتراماً للرجل الوقور، وأجاب بيترو:

ـ أنا من أرمينيا، ابن رجل يدعى فينيه، وقد جاء بي إلى هنا أناس لا أعرفهم.

لدى سماع فينيه كلامه، تأكد من هويته وعرف أنه ابنه الذي فقده؛ فنزل مع رفيقيه باكياً، وركض بين الجنود لمعانقته، ثم غطى جسده بمعطف ثمين كان يرتديه، وطلب من الجلاد أن يؤجل تنفيذ الحكم إلى أن يصدر إليه أمر آخر. فأجابه بأنه سيفعل ذلك بكل سرور. وبعد أن عرف فينيه سبب اقتياد الشاب للمشنقة، سارع بالذهاب مع السفيرين الآخرين وخدمه إلى السيد كونرادو وقال له:

ـ أيها السيد، إن ذاك الذي حكمتم عليه بالموت ليس عبداً، وإنما هو رجل حرّ، وأنا أبوه؛ وهو مستعد للزواج من الفتاة التي يقال إنه سلبها شرفها. وأطلب منكم أن تؤجلوا تنفيذ الحكم إلى أن نتبين إذا ما كانت الفتاة ترضى به زوجاً لها؛ فليس من العدل إرساله للموت، إذا كانت هي ترضى به.

استولت الدهشة على السيد كونرادو حين سمع أن ذلك الشاب هو ابن فينيه، وأحس بالخجل مما دبره له القدر؛ فاستدعى السيد أميركو وأخبره بكل تلك الأمور. وكان السيد أميركو يظن أن ابنته وحفيده قد لقيا الموت، فندم على تسرعه، وأحزنه ذلك حزناً لم يعرف مثله رجل في هذه الدنيا. لكنه علل نفسه بالأمل، وأرسل مبعوثاً إلى حيث كانت ابنته، ليوقف تنفيذ أمره إذا كان لم ينفذ بعد. فوجد المبعوثُ الخادمَ يضع السم والمدية أمام الفتاة، ويحاول إجبارها على اختيار أحدهما، ويشتمها لأنها تأخرت في اتخاذ

القرار. ولكنه حين سمع ما قاله مبعوث السيد ، تركها ورجع إلى سيده ليخبره بما حدث. ابتهج السيد أميركو ، وذهب لمقابلة السفير فينيه. واعتذر وهو يذرف الدموع ، ثم أكد أنه سيكون سعيداً بتزويج ابنته إلى تيودور ، إذا ما وافق الشاب على ذلك.

فتقبل فينيه اعتذاره ، وأجابه:

- إنني راغب في أن يتزوج ابني من ابنتك؛ أما إذا رفض ، فليس له إلا تلقي الحكم الذي صدر بحقه.

وبهذا الاتفاق بين فينيه والسيد أميركو ، توجها إلى حيث تيودور ، وكان لا يزال مرتعباً من الموت ، وسعيداً في الوقت نفسه لأنه وجد أباه. فسألاه عن رأيه في الزواج ، وحين علم أن فيولانتي ستكون زوجته إذا هو وافق ، فرح فرحاً عظيماً وأحس كما لو أنه يقفز من الجحيم إلى الفردوس. ثم بعثوا إلى الفتاة يسألونها عن رأيها ، وعندما سمعت بما جرى لتيودور وبما سيجري له ، ابتهجت وأجابت بأن أسعد ما يمكن أن يحدث لها هو أن تصير زوجة لتيودور؛ ولكنها لن تفعل إلا ما يأمر به أبوها. وهكذا تزوج الشابان بوئام ، وأقيمت احتفالات عظيمة ، شارك فيها جميع أهل المدينة. اطمأنت فيولانتي ، وأحضرت مرضعاً لوليدها ، وراحت تستعيد جمالها السابق. وعندما رجع فينيه من مهمته في روما ، ذهبت لزيارته وعاملته باحترام كما لو أنه أبوها. وكان هو سعيداً بكنته فعاملها كابنة له. وبعد بضعة أيام ، ركب مع ابنه وكنته وحفيده في سفينة ، وذهبوا جميعهم إلى لايزو ، حيث عاش الحبيبان ما تبقى من حياتيهما بسعادة وهناء.

القصة الثامنة

أحب ناستاجيو أونيستي امرأة من آل ترافيرساري، وأنفق ثرواته كلها دون أن تبادله الحب. وبرجاء من ذويه، ذهب إلى شياسي، ورأى هناك فارساً يطارد فتاة شابة ويقتلها، ثم يتركها ليلتهمها كلبان. فدعا أهله والمرأة التي أحبها إلى وليمة، وحين رأت هي مصير القتيلة الممزقة أشلاء، خافت أن يحدث لها شيء مماثل، ووافقت على الزواج منه.

عندما انتهت لوريتا، جاء دور فيلومينا، فبدأت قصتها على هذا النحو:

- سيداتي اللطيفات، مثلما تُمتدح رحمتنا نحن النساء، تُعاقب أيضاً قسوتنا من جانب العدالة الإلهية. وسوف أبين ذلك لمساعدتكن على التخلص من القسوة، برواية قصة مسلية ومؤثرة في الوقت نفسه.

كان يعيش في رافينا، وهي مدينة قديمة في رومانيا، عدد كبير من النبلاء والأثرياء. وكان بينهم شاب يدعى ناستاجيو أونيستي، ورث ثروة طائلة بعد موت أبيه وعمه؛ ومثلما يحدث للشبان أمثاله، ممن هم دون زواج، وقع في حب ابنة السيد باولو ترافيرسارو، وهي فتاة ذات أصل نبيل ومكانة أرفع من مكانته. ولكنه لم يفقد الأمل، وواظب على محاولة استمالتها. ومع ذلك، لم تُجدِ كل محاولاته نفعاً؛ فالفتاة لشدة تكبرها وعظمة مكانتها وجمالها، كانت تعامله بجفاء وفظاظة، ولا يروقها شيء مما يفعله. فكان سلوكها ذاك يؤلم ناستاجيو، حتى إن الرغبة في الانتحار راودته مرات كثيرة بعد تلك الإهانات القاسية. ولكنه عندما يهدأ، يفكر في الابتعاد عنها نهائياً، أو النظر إليها بكراهية، إن هو استطاع، مثلما تنظر إليه. غير أن أفكاره هذه لم تكن تتخطى مرحلة النوايا، لأن حبه لها كان يزداد كلما ضاقت أمامه فسحة الأمل.

وبينما الشاب متمسك بهذا الحب، ويواصل الإنفاق بتبذير لا حدود له، بدا لبعض أصدقائه وأقربائه أنه سيستنفد ثروته وحياته دون طائل؛ فتوسلوا إليه ونصحوه مرات ومرات بأن يغادر رافينا ويذهب للعيش في مكان آخر لبعض الوقت، لعل ذلك يقلل من غلواء حبه ونفقاته؛ فكان ناستاجيو يسخر من هذه النصيحة. ولكنه ما لبث، أمام إلحاحهم عليه، أن استجاب لهم. وبدأ يعد العدة للسفر بأمتعة غير محدودة، كما لو أنه ينوي الرحيل إلى فرنسا أو إلى إسبانيا أو إلى مكان آخر بعيد. لكنه امتطى جواده وذهب إلى مكان يدعى شياسي، لا يبعد أكثر من ثلاثة أميال عن رافينا. وعند وصوله إلى هناك، أمر بنصب خيام وسرادق، وقال لمن رافقوه إنه يريد البقاء في ذلك المكان، وطلب منهم العودة إلى رافينا. وبإقامته هناك، بدأ ناستاجيو يعيش حياته على خير ما يرام، وبصورة لم يعرفها أحد من قبل. فهو يدعو اليوم جماعة من صحبه للغداء، ويدعو في اليوم التالي آخرين للعشاء، فلا يخلو المكان من المدعوين، كما هي عادته من قبل. وحدث في بداية شهر أيار، وكان الجو بديعاً، أن بدأ يفكر في قسوة محبوبته؛ فطلب من خدمه

ومن الجميع أن يتركوه وحيداً ليتمكن من التأمل على هواه، ثم راح يمشي بخطوات وئيدة ويفكر وهو شارد الذهن.

وعند العصر، وكان قد توغل حوالي نصف ميل في غابة صنوبر، دون أن يتذكر الأكل أو أي شيء آخر، بدا له فجأة أنه يسمع بكاءً، وعويل امرأة، مما قطع عليه أفكاره العذبة. ورفع رأسه ليرى حقيقة ما يحدث؛ فأصابته الدهشة حين رأى نفسه وسط غابة الصنوبر. وعندما نظر إلى الأمام، رأى شابة حسناء وعارية، تخرج من أيكة ملتفة الأشجار ومتشابكة العوسج، وتركض باتجاه المكان الذي هو فيه. وكانت الجراح والخدوش التي تسببها الأغصان والأشواك تملأ جسمها، بينما هي تبكي وتصرخ طالبة الرحمة؛ ثم رأى على جانبيها كلبين ضاريين يركضان في إثرها بصورة مسعورة، ويعضانها كلما أدركاها. ووراء الجميع، رأى فارساً أسمر، يبدو الغضب على وجهه، يمتطي صهوة جواد أسود، ويحمل في يده سيفاً طويلاً، متوعداً المرأة بالموت بكلمات مرعبة وشتائم مريعة. وبعد أن جمده الذهول والهلع في مكانه لبعض الوقت، أحس أخيراً بالشفقة على المرأة التعسة، وتولدت لديه الرغبة في تخليصها من الغم والموت إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولأنه لم يكن مسلحاً، فقد سارع إلى قطع غصن من إحدى الأشجار ليستخدمه كعصا، وخرج لمواجهة الكلبين والفارس.

لكن الفارس صرخ به من بعيد:

- لا تتدخل في هذا الأمر يا ناستاجيو، ودعني أنجز أنا والكلبان ما تستحقه هذه المرأة الخبيثة.

عندئذ أمسك الكلبان بخاصرتي المرأة بقوة وأوقفاها، وترجل الفارس عن جواده عند وصوله إليها؛ فاقترب منه ناستاجيو وقال له:

- لست أدري من أنت، مع أنك تعرف اسمي. ولكنني أقول لك إنه من النذالة أن يعمد فارس مسلح إلى قتل امرأة عارية، وأن يطلق الكلاب في إثرها كما لو كانت بهيمة برية؛ ولسوف أدافع عنها قدر استطاعتي.

فقال له الفارس عندئذ:

- أنا من مدينتك نفسها يا ناستاجيو، وكنتَ لا تزال طفلاً صغيراً عندما كنتُ أدعى

السيد غيدو ديلي أناستاجي، وكنتُ مغرماً بهذه المرأة أكثر بكثير مما أنت مغرم الآن بابنة ترافيرساري. وقد سببت لي قسوتها الشقاء والبلاء، إلى أن جاء يوم غلبني اليأس فيه، فقتلت نفسي بهذا السيف الذي تراه في يدي الآن، فحُكم عليّ بالعذاب الأبدي لأني منتحر. ولم يمض وقت طويل على ذلك، حتى ماتت هذه المرأة التي ابتهجت لموتي بهجة لا حدود لها. ولأنها لم تندم على خطيئتها في القسوة، وابتهجت لمعاناتي، بل إنها لم تر في ذلك خطيئة وإنما فضلاً؛ فقد حُكم عليها بعذاب الجحيم. وعند نزولها إلى الجحيم، كان عقابها، وعقابي أنا الذي أحببتها أيضاً، أن ألحق بها كعدو لدود، وليس كامرأة محبوبة؛ وكلما أدركتها عليّ أن أقتلها بهذا السيف الذي قتلتُ نفسي به، وأن أشق صدرها وأنتزع منه قلبها البارد والقاسي الذي لم يجد إليه الحب والحنان سبيلاً، وأقدمه طعاماً لهذين الكلبين. وشاءت القدرة الإلهية ألا يمضي على ذلك وقت طويل، حتى تتبعث من جديد، كما لو أنها لم تمت، وتبدأ مجدداً هروبها المؤلم، فألحق بها أنا وهذان الكلبان. ويحدث أن ألحق بها كل يوم جمعة، في مثل هذا الوقت، هنا في هذا المكان؛ فأقوم بتمزيقها مثلما سترى. ولا تظن أننا نستريح في الأيام الأخرى، وإنما أطاردها وأمسك بها في أماكن أخرى، حيث عملت في حياتها وفكرت ضدي بقسوة. ولأنني تحولت، كما ترى، من محب لها إلى عدو، فإنه علي أن أطاردها بقدر الشهور التي عاملتني بها بقسوة. فدعني إذن أنفذ العدالة الإلهية، وإياك أن تعارض ما لا تستطيع منعه.

شعر ناستاجيو بخوف شديد وهو يسمع هذا الكلام، ولم تبق شعرة واحدة في رأسه إلا وانتصبت. فتراجع إلى الوراء وهو ينظر إلى الفتاة التعسة، وينتظر بهلع ما سيفعله ذلك الفارس الذي ما إن انتهى من كلامه حتى انقض مثل وحش ضار على الفتاة الجاثية التي يثبتها الكلبان بقوة، وهي تطلب منه الرحمة؛ فطعنها بسيفه في منتصف صدرها مخترقاً إياه إلى الجانب الآخر. وما إن تلقت الفتاة هذه الطعنة حتى ارتمت على ظهرها، دون أن تتوقف عن البكاء والصراخ. واستل الفارس خنجراً شق به أضلاعها، ثم أخرج قلبها وكل ما حوله، ورمى به إلى الكلبين الجائعين، فالتهماه فوراً. ولم يمض وقت طويل، حتى نهضت الفتاة فجأة، وكأن شيئاً من ذلك كله لم يحدث، وبدأت تركض هاربة باتجاه البحر. واندفع الكلبان في إثرها ينهشانها. وعاد الفارس إلى امتطاء جواده وتناول سيفه مجدداً، وبدأ المطاردة إلى أن اختفى ولم يعد بإمكان ناستاجيو رؤيته. لكنه بعد الذي رآه، ظل متجمداً ومذعوراً لوقت طويل. وأخيراً خطر له أنه يمكن لهذا الأمر أن يساعده ما

دام يحدث في كل يوم جمعة. فحفظ في ذاكرته موقع المكان، ورجع إلى حيث خدمه، ثم أرسل يستدعي أقرباءه وأصدقاءه وقال لهم:

ـ لقد طلبتم مني مرات ومرات أن أتخلى عن حب هذه المرأة المعادية لي، وأن أضع حداً لنفقاتي المسرفة؛ وأنا مستعد الآن لعمل ذلك إذا ما تفضلتم بتقديم جميل لي، هو التالي: أن تقنعوا السيد باولو ترافيرساري وزوجته وابنته وكل نساء أسرته الأخريات، بالحضور لتناول الغداء معي. وأن تدعوا معهم كل من تشاؤون من السيدات. أما ما أريده فسوف تعرفونه في حينه.

بدت لهم تلك المهمة سهلة، فوعدوه بتنفيذها ورجعوا إلى رافينا. وعندما وجدوا فرصة مناسبة، وجهوا الدعوة إلى من ذكرهم ناستاجيو. ومع أنهم وجدوا صعوبة في إقناع الفتاة التي يحبها ناستاجيو، إلا أنها ذهبت في نهاية الأمر مع الآخرين. أعد ناستاجيو لهم مأكولات فاخرة، وأمر بوضع المائدة تحت أشجار الصنوبر في المكان الذي رأى فيه تمزيق جسد المرأة القاسية، ورتب جلوس الرجال والنساء بحيث يكون مكان فتاته المحبوبة مواجهاً تماماً للمكان الذي سيجري فيه الحدث.

وعندما انتهوا من تناول الطبق الأخير، بدأ صراخ الشابة المطاردة يصل إلى مسامع الجميع، فدهشوا جميعهم وتساءلوا عن معنى ذلك الصراخ؛ لكن أياً منهم لم يعرف الجواب. فنهضوا وهم ينظرون في ما حولهم، وعندئذ رأوا الفتاة المحزونة والفارس والكلبين، وسرعان ما صاروا بينهم. ثار صخب كبير ضد الكلبين والفارس، وتقدم البعض لمساعدة الفتاة؛ غير أن الفارس كلمهم بمثل ما كلم به ناستاجيو من قبل، فلم يتراجعوا وحسب، وإنما امتلأت قلوبهم بالخوف وعقدت ألسنتهم الدهشة. وقام الفارس بفعل ما فعله في المرة السابقة، فانفجرت النساء (وكان بينهن عدد من قريبات الشابة المحزونة والفارس، وهن يتذكرن قصة حبه وموته) ببكاء بائس كما لو أن ذلك يحدث لهن. وعندما انتهى المشهد، وهربت المرأة ولحق الفارس بها، قدم أولئك الذين شهدوه تعليقات كثيرة. ولكن أكثر المرعوبين كانت الشابة التي يحبها ناستاجيو؛ فبعد أن رأت وسمعت كل ما حدث وقيل، وعرفت أن ذلك يعنيها هي نفسها أكثر مما يعني أي شخص آخر من الحاضرين، وفكرت في القسوة التي طالما عاملت بها ناستاجيو، خُيل إليها أنها تركض هاربة أمامه وهو غاضب، بينما الكلبان ينهشان خاصرتيها. وكان خوفها شديداً

إلى حد صارت تنتظر معه اللحظة المناسبة «وقد حانت لها في تلك الليلة بالذات» كي يتبدل حقدها إلى حب؛ فأرسلت خادمة لها سراً إلى ناستاجيو، وطلبت منها أن تخبره بأنها مستعدة لعمل كل ما يروقه. فرد عليها ناستاجيو بأنه سعيد بذلك، ولكنه يفضل الحفاظ على عفتها وطلب يدها للزواج. فوافقت هي على ذلك أيضاً، وأخبرت أبويها بأنها تريد الزواج من ناستاجيو. وأقيمت حفلة الزفاف في يوم الأحد التالي.

ولم يبدل الخوف تلك المرأة وحسب، وإنما بدل كذلك سلوك كثير من النساء المتكبرات، فصرن أكثر انصياعاً لرغبات الرجال.

القصة التاسعة

يقع فيدريكو ديلي ألبيرغي في الحب ولا يجد تجاوباً من المحبوبة، ولشدة تبذيره في طلب ودها يحل به الإفلاس؛ فلا يبقى لديه سوى صقر يعتز به. ولأنه لا يملك شيئاً آخر،يُعد منه طعاماً لسيدته التي حضرت إلى بيته. وعندما تعرف هي ذلك، تتبدل مشاعرها تجاهه، فتتزوج منه وتجعله ثرياً.

كانت فيلومينا قد انتهت من الكلام عندما رأت الملكة أنه لم يبق من المتكلمين أحد سوى ديونيو (بسبب الامتياز الممنوح له)، فأشارت بإيماءة مرحة، وقالت:

ـ إنه دوري الآن في الكلام، وسأفعل ذلك يا صديقاتي الغاليات بكل سرور، وسأروي قصة لا تعرفن من خلالها مدى تأثير مفاتنكن على القلوب النبيلة وحسب، وإنما تتعلمن كذلك كيف تبذلنها بسخاء.

لا بد أنكن تعلمن أن كوبو دي بورغيسي كان، وربما لا يزال، يعيش في مدينتنا. وهو رجل ذو مكانة محترمة بين رجالنا «بفعل عاداته وفضائله أكثر مما هو بسبب نبل

دمائه وأصله». وكان عند تقدمه في السن، يحب التحدث مع جيرانه وأصدقائه عن الأحداث الماضية التي تذكرها ويحفظها خيراً من سواه. وبين الأمور الطيبة التي اعتاد روايتها أنه كان في فلورنسا شاب يدعى فيدريكو، هو ابن فيليبو ألبيريغي، مشهور بمهاراته القتالية ولباقته وتفوقه فيهما على كل أقرانه من شبان توسكانا. ومثلما يحدث لمعظم النبلاء، وقع في حب سيدة جذابة تدعى مادونا جيوفانا، كانت مشهورة في زمانها بأنها أجمل نساء فلورنسا. وكي يتمكن فيدريكو من استمالتها وينال حبها، كان يشارك في كل مبارزات الترامح والمسايفة، ويقيم الحفلات ويقدم الهدايا، وينفق من أمواله دون حساب؛ لكن عفة المرأة لم تكن تقل عن جمالها، فلم تول أدنى اهتمام لكل هذه الأمور أو لمن يقوم بها.

كان فيدريكو ينفق أكثر بكثير مما هو قادر عليه، ولا يكسب شيئاً، ففقد ثرواته كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، وتحول إلى فقير لم يبق لديه شيء سوى قطعة أرض صغيرة من أملاكه، يعيش على إيرادها حياة عسر، وصقر من أفضل ما في العالم من الصقور. ولأن حبه كان يزداد تأججاً، دون أن يتمكن من مواصلة عيش حياة الرخاء التي يريدها، فقد قرر الرحيل إلى كامبري، حيث مزرعته الصغيرة، للعيش فيها. وهناك صار يخرج للصيد بالصقر، ويتحمل فقره باستسلام وصبر، بعيداً عن الناس.

وحدث في أحد الأيام، بعد أن بلغ فيدريكو ذلك الدرك، أن أصيب زوج مادونا جيوفانا بمرض؛ وحين رأى اقتراب منيته، أوصى بثروته الطائلة لابنه الوحيد، فإذا ما حدث ومات هذا الابن دون أن يكون له وريث شرعي، تعود الثروة كلها إلى زوجته. وعندما ترملت مادونا جيوفانا، ذهبت مع ابنها، كما هي عادة النساء عندنا، لقضاء عام من الحداد في الريف. وشاءت المصادفة أن يكون مكان إقامتها على مقربة من مزرعة فيدريكو، فبدأ ابنها الفتى بمصادقة فيدريكو والتسلية بصقور وكلاب الصيد التي كان مولعاً بها. وبعد أن رأى طيران صقر فيدريكو مرات عديدة، أعجب به أيما إعجاب، ورغب في امتلاكه؛ ولكنه لم يتجرأ على طلبه من صاحبه وهو يرى مدى حبه له. وبينما الأمور تمضي على هذا النحو، حدث أن أصيب الصبي بالمرض، فعصر الألم قلب أمه

المحزونة التي ليس لها سوى هذا الابن. ولم تعد تفارقه، ولا تتوانى عن العناية به وسؤاله بين حين وآخر إذا ما كان يرغب في أي شيء، وتتوسل إليه أن يخبرها، وأن يكون واثقاً من أنها ستبذل كل ما في استطاعتها للحصول على ما يرغب فيه أينما كان.

ولكثرة ما سمع الصبي هذه الوعود، قال لها في أحد الأيام:

ـ أماه، أظن أنني سأشفى على الفور إذا ما سعيتِ للحصول لي على صقر فيدريكو.

ظلت الأم صامتة لبعض الوقت حين سمعت قوله هذا، ثم بدأت تفكر في ما يمكنها عمله. كانت تعرف أن فيدريكو قد أغرم بها زمناً طويلاً، دون أن يحصل منها ولو على مجرد نظرة؛ فكانت تقول لنفسها: «كيف سأرسل إليه، أو أذهب بنفسي لطلب الصقر الذي هو، كما سمعت، أفضل صقر شوهد يطير على الإطلاق، كما أنه الشيء الوحيد الذي يبقيه في هذه الدنيا؟.. كيف يمكن لي أن أكون عديمة التقدير، فأنتزع من هذا السيد متعته الوحيدة المتبقية له في الحياة؟..»

كانت مستغرقة في هذه الأفكار، بالرغم من تأكدها من أنها ستحصل على الصقر إذا ما طلبته. ولكنها لم تجد جواباً ترد به على ابنها، وظلت محتفظة بالصمت. غير أن حبها لابنها تغلب عليها في نهاية الأمر، وقررت أن ترضيه، فلا ترسل أحداً لطلب الصقر، وإنما تذهب بنفسها لطلبه، وليكن ما يكون. وهكذا ردت على ابنها أخيراً:

ـ اطمئن يا بني، فعما قريب ستشفى من دائك. أعاهدك أن يكون أول ما سأفعله صباح الغد هو الذهاب في طلب الصقر، ولسوف أجيئك به.

أسعد قولها الصبي، وبدا عليه في ذلك اليوم بعض التحسن. وفي اليوم التالي، تظاهرت السيدة بأنها تتنزه، ومضت باتجاه بيت فيدريكو البائس، وسألت هناك عنه. ولأن الوقت لم يكن موسم صيد، فقد كان الشاب في البستان يقوم ببعض الأعمال، وما إن سمع بأن السيدة جيوفانا تسأل عنه عند الباب حتى أصابه الذهول، وركض لاستقبالها بسعادة غامرة. وعندما رأته هي يقترب، نهضت بلطف نبيل لتحيته. وبعد أن حياها فيدريكو بكل احترام، قالت له:

ـ أرجو أن تكون بخير يا فيدريكو ـ ثم أضافت: ـ لقد جئت لأصلح ما لحق بك من ضرر عندما أحببتني أكثر مما يجب. وإصلاح الضرر سيكون رغبتي في تناول الغداء

معك اليوم.

فرد عليها فيدريكو باستسلام:

- لم تُلحقي بي يا سيدتي أي ضرر؛ بل كل خير. وإذا كانت لي قيمة في يوم من الأيام، فإنما الفضل فيها للحب الذي شعرت به نحوك. والحقيقة إن زيارتك هذه تسعدني إلى حدّ أنني أتمنى لو أنفق من أجلها مثل كل ما أنفقته من قبل، ولكنني صرت الآن فقيراً لا أستطيع ذلك.

قال ذلك، ودعاها بخجل إلى بيته، واقتادها من هناك إلى حديقته. ولأنه لم يجد من يرافقها، قال لها:

- سيدتي، ليس لدي هنا من يرافقك، ريثما أعد المائدة، سوى هذه المرأة، زوجة أحد الفلاحين.

كان فيدريكو يعاني من فقر مدقع، ولم يكن قد أحس من قبل بمدى حاجته إلى الثروات التي بددها بإسراف؛ ولكنه أحس بذلك جيداً في ذلك الصباح، عندما لم يجد ما يمكنه أن يكرم به السيدة التي أحبها. فاغتم غماً شديداً، ولعن سوء حظه، وصار يتنقل هنا وهناك دون أن يجد نقوداً أو أي شيء يستطيع أن يرهنه. ومع تقدم الوقت، واشتداد رغبته في تكريم السيدة النبيلة، وهو لا يشاء أن يطلب شيئاً من أحد، ولا حتى من مزارعه نفسه، رأى أمامه صقره الثمين يقف على المنصب الخاص به في الصالة. ولأنه لم يجد وسيلة أخرى يلجأ إليها، فقد أمسك به ووجده سميناً. وفكر في أنه سيكون طعاماً يليق بمقام السيدة. ودون إضاعة مزيد من الوقت، لوى عنقه فوراً، وطلب من خادمة أن تنزع ريشه وتتبله بسرعة؛ ثم شواه بعناية فائقة، ووضعه على مائدة مغطاة بسماط ناصع البياض من تلك القليلة المتبقية لديه. ثم رجع إلى السيدة في الحديقة، وقال لها إن الغداء الذي يستطيع تقديمه صار جاهزاً. وبعد أن تناولت المرأة الصقر دون أن تدري ما الذي تأكله، نهضت عن المائدة، وراحت تتبادل معه بعض الحديث، إلى أن وجدت أن الفرصة مناسبة لتخبره بما جاءت تطلبه. فبدأت الكلام بنبرة طيبة:

- عندما تتذكر حياتك الماضية يا فيدريكو، وتتذكر معها عفتي، ربما ستحسب أنني قاسية ومتصلبة. ولست أشك في أنك ستعجب لجرأتي حين تعرف ما الذي دفعني

للمجيء. ولكن، لو أن لك أبناء، وعرفت مدى قوة حب الآباء لهم، لكنت تفهمت موقفي بكل تأكيد؛ لكنك لم تنجب أبناء. أما أنا فلي ابن، ولا يمكن لي أن أشذ عن القوانين العامة التي تحكم الأمهات الأخريات. فلا بد لي من الرضوخ لتلك القوانين رغم إرادتي، وبعيداً عن قناعتي وواجبي. ولهذا جئت أطلب منك هدية أعرف أنها عزيزة عليك؛ ولك كل الحق في ذلك، لأن سوء حظك القاسي لم يُبق لك من متعة أو تسلية أو عزاء غيرها. وهذه الهدية هي صقرك المفضل الذي استهواه طفلي بشدة أخشى معها، إن لم يحصل عليه، أن تسوء حاله في مرضه. لهذا أتوسل إليك، ليس بسبب الحب الذي تكنه لي، لأنه لا يرتب عليك أي واجب، وإنما أتوجه إلى نبلك الذي أبديته أكثر من أي نبيل آخر، كي تعطيني هذا الصقر لأتمكن من القول إنني استطعت بهذه الهبة أن أحافظ على حياة ابني، وأكون مدينة لك بهذا إلى الأبد.

حين سمع فيدريكو ما تطلبه السيدة، وعرف أنه لا يستطيع تلبية طلبها لأنه قدم لها الصقر طعاماً، انفجر أمامها في البكاء قبل أن يتمكن من الرد عليها بأي كلمة. ظنت السيدة أنه يبكي حزناً لاضطراره إلى التخلي عن صقره العزيز، وأوشكت أن تقول له إنها لا تريده؛ ولكنها كبحت نفسها، وانتظرت جواب فيدريكو الذي قال لها:

ـ سيدتي، منذ أن عاهدت الله أن أكرس حبي لك، لم يجافني الحظ ويسبب لي الألم مثلما هو الآن. فكل الآلام السابقة كانت ضئيلة بالمقارنة مع ما أنا عليه اليوم، حيث لم يعد بإمكاني التوصل إلى أي نوع من المصالحة مع الحظ بعد أن جئت أنت إلى بيتي البائس، بينما لم تتكرمي بفعل ذلك وأنا غني، لتطلبي مني هبة صغيرة متواضعة، تصرفتُ بها بما يحول دون قدرتي على تقديمها إليك. ولأنني عاجز عن تنفيذ رغبتك، فسوف أخبرك بما جرى باختصار: عندما سمعتُ منك أنك راغبة في تناول الطعام معي، وتقديراً مني لمكانتك وقيمتك، قررت أن أكرمك وأقدم لك، ضمن إمكانياتي، طعاماً يليق بمجيئك الكريم إلي، فكان أن تذكرت الصقر الذي تطلبينه. وفكرت في أنه الطعام الذي يليق بمكانتك. وهو ما قُدم إليك مشوياً في الطبق. ولكنني أتألم الآن لأنني لن أستطيع تلبية طلبك، ولا أظن أنني سأتمكن من الحصول على الطمأنينة وراحة البال إلى الأبد.

قال هذا ثم جاء بريش الصقر وقائمتيه ومنقاره ووضعها كلها أمام السيدة دليلاً على ما يقول. وحين سمعت السيدة ورأت كل ذلك، أنبته بشدة في أول الأمر لأنه ذبح الصقر لإطعامها إياه. ولكنها ما لبثت أن أدركت مدى عظمة روحه التي لم يستطع الفقر، ولن يستطيع، كبحها في أعماقه، فأطرت عليه في نفسها. وبعد فقدان أي أمل في الحصول على الصقر، وربما في استعادة ابنها لعافيته، شكرت فيدريكو على الشرف الذي خصها به، وعلى طيب نواياه، ورجعت كئيبة محزونة إلى ابنها. ولشدة حزن الصبي من عدم تمكنه من الحصول على الصقر، تفاقمت حدة مرضه، ولم تكد تمضي بضعة أيام حتى فارق الحياة، أمام حزن أمه العظيم. وظلت الأم وحيدة مع الألم والدموع والمرارة؛ ولكنها صارت ثرية جداً، وكانت لا تزال شابة أيضاً، مما دفع كثير من المتوددين إلى طلب يدها، وراح إخوتها يحثونها على الزواج من جديد؛ لكنها لم تكن راغبة في الزواج. وبعد كثير من الإلحاح، تذكرت تكريم فيدريكو لها عندما ذبح الصقر ليقدمه طعاماً لها، فقالت لإخوتها:

ـ أنا راضية بالبقاء دون زواج، ولكن إذا كنتم تصرون على زواجي، فلن أقبل برجل آخر غير فيدريكو ديلي ألبيرغي.

فقال لها إخوتها ساخرين:

ـ ما الذي تقولينه أيتها الحمقاء؟.. كيف تريدين الزواج منه وهو الذي لم يعد يملك شيئاً في هذه الدنيا؟..

فردت عليهم:

ـ إخوتي الأعزاء، أعرف جيداً أنه مثلما تقولون. ولكنني أفضل رجلاً بحاجة إلى الثروة، وليس ثروة تحتاج إلى رجل.

حين سمع إخوتها رغبتها، وكانوا يعرفون أن فيدريكو من أكثر الناس نبلاً بالرغم من فقره، زوجوه إياها ومعها كل ثروتها. وقد عاش معها سنوات طويلة، بعد أن أحبها مدى الحياة.

القصة العاشرة

يذهب بيترو دي فينشيولو للعشاء خارج البيت؛ فتبعث زوجته طالبة إتيانها بفتى. يعود الزوج، فتخبئ المرأة الفتى تحت قفص دجاج. يقول بيترو إنه ذهب مع هيركولانو للعشاء في بيته؛ فوجدا هناك شاباً أدخلته امرأة هيركولانو وخبأته، فتنتقد زوجته سلوك تلك المرأة. وفي أثناء ذلك، يدوس حمار بقائمته على أصابع الفتى الذي تحت قفص الدجاج، فيصرخ. يركض بيترو نحوه، فيراه ويكتشف خدعة زوجته، لكنه يتصالح معها أخيراً، بسبب رذيلته الذميمة التي يمارسها.

انتهت الملكة من رواية قصتها، وأعرب الجميع عن شكرهم للرب الذي كافأ فيدريكو بما يستحقه. عندئذ بادر ديونيو إلى الكلام دون أن ينتظر أمراً من الملك بذلك، وبدأ بالقول:

ـ لست أدري إذا ما كان ذلك بسبب عيب عرضي اكتسبه البشر الفانون من فساد عاداتهم؛ أم أنه، على العكس من ذلك، عيب من الطبيعة. ولكن الصحيح هو أننا نضحك من الأمور السيئة أكثر من ضحكنا من الأعمال الطيبة، وخاصة إذا كانت تلك الأمور لا تمسنا ولا تؤثر فينا. ولأن ما تناولته في المرات السابقة، وما سأتناوله في هذه المرة، لا هدف له إلا إضحاككم وتخليصكم من الحزن والكآبة، ومع أن قصتي التالية، يا عزيزاتي الشابات، هي أقل من عفيفة في بعض تفاصيلها، فإنني سأرويها لإمتاعكن؛ وما عليكن لدى سماعها إلا أن تفعلن ما اعتدتن فعله عند دخولكن الحدائق، بمد أيديكن الرقيقة لقطف الزهور وترك الأشواك. وما عليكن في قصتي هذه سوى ترك الرجل الخبيث ورذيلته، والضحك بسعادة من حيل زوجته الغرامية، والاحتفاظ بشفقتكن لنكبات آخرين يحتاجونها.

كان يعيش في بيروسا، منذ زمن غير بعيد، رجل ثري يدعى بيترو دي فينشولو، وقد أقدم المذكور على اتخاذ زوجة له، ربما لخداع الآخرين والتقليل من سوء السمعة الشائع عنه بين أهالي بيروسا، وليس رغبة منه في الزواج. وكان الحظ موافقاً لأهوائه، إذ كانت المرأة شابة قوية، ذات شعر أحمر ومتأججة العواطف، لو كان الأمر بيدها لفضلت زوجين اثنين على واحد؛ فكان عليها أن ترضى بزوج لا تميل نفسه إليها، ولا يعبأ بالنساء، وإنما تمضي ميوله في اتجاه آخر مخالف. وحين اكتشفت أمره، مع مرور الوقت، بدأت تغضب بكثرة، وتتشاجر مع زوجها، وتوجه إليه كلمات ازدراء في بعض الأحيان، وتعيش حياة معكرة على الدوام. وعندما رأت أن ذلك يضنيها أكثر مما يصلح خبث زوجها، قالت في نفسها: «هذا التعس يهجرني لأن فحشه يميل إلى ري ما هو جاف، والابتعاد عن الرطب. ولسوف أتدبر أمري وأجيء بآخر سواه ليبحر في المبلل. لقد رضيتُ الزواج منه، وقدمت إليه دوطة كبيرة وجيدة وأنا أحسب أنه رجل، وأعتقد بأنه يشتهي ما يشتهيه الرجال. ولو عرفت أنه ليس رجلاً لما كنت تزوجت منه أبداً. أما هو فكان يعلم أنني امرأة، فلماذا تزوجني إذا كان لا يميل إلى النساء ويضيق بهن؟.. هذه حال لا تحتمل. ولو أنني عازفة عن الدنيا، لتحولت إلى راهبة؛ ولكنني أحب الدنيا وأرغب في الاستمتاع بملذاتها. أما إذا استمرت الحال على هذا المنوال، فسوف أهرم وأفقد شبابي وأنا أنتظر دون طائل. وعندما أشيخ لن ينفعني الندم على هدر شبابي. لا بد لي من البحث عن متعتي متخذة منه هو نفسه قدوة في بحثه عن متعه، بالرغم من أن متعتي مشرفة، بينما متعه منحطة ودنيئة. وإذا كانت متعتي مجافية لقوانين البشر، فإن متعه مجافية لقوانين البشر والطبيعة».

وبعد أن توصلت المرأة الطيبة إلى هذه الأفكار، وربما فكرت فيها مرات ومرات، قررت أن تنفذ سراً ما صممت عليه، فعقدت صداقة مع امرأة عجوز تبدو أشبه بالقديسة فيريديانا التي تقدم الطعام للثعابين، تتنقل وهي تحمل مسبحة على الدوام متوسلة الغفران، وليس على لسانها إلا الحديث عن حيوات القديسين، وعن قروح القديس فرانشيسكو؛ ولا ينظر إليها الجميع إلا على أنها عجوز تقية ورعة. وعندما وجدت السيدة فرصة مناسبة، أخبرتها بما تنوي عليه بكل صراحة. فقالت لها العجوز:

ـ أي بنيتي، الله وحده «العليم بكل شيء» يعلم أنك تحسنين صنعاً. وحتى لو لم يكن

لديك مسوغ، فإن عليك عمل ذلك أنت وكل الفتيات الأخريات، كي لا تضيعن الوقت في شبابكن. فليس هناك، للعاقلين، شقاء أكبر من إضاعة الوقت. فأي نفع لنا عندما نشيخ سوى النظر إلى رماد النار؟.. وإذا كان هناك من هي قادرة على تقديم شهادة عن ذلك، فهي أنا... فأنا الآن، وقد هرمت، أشعر بوخزات الندم والمرارة على ما ضيعته من وقت. ومع أنني لم أضيع الوقت كله ـ فلا تظني أنني كنت مغفلة بلهاء ـ إلا أنني لم أفعل كل ما كان بإمكاني فعله، وقد كان بإمكاني فعل الكثير. وكلما تذكرت ذلك، ورأيت نفسي في حالتي هذه، حيث لا أجد من يمنحني ولو قليلاً من الدفء، يعلم الله وحده بما أشعر به من أسى. الرجال لا يحدث لهم مثل هذا، لأنهم يولدون وهم ينفعون لألف شيء، وليس لهذا الشيء وحده؛ ويعيش معظمهم مكرمين في شيخوختهم أكثر من شبابهم. أما النساء فلا ينفعن إلا في هذا، وفي منح الرجال أبناء، ولا ينلن التقدير على شيء غير ذلك. فإذا لم يقنعك هذا الذي قلته، فسوف أقنعك في جانب آخر: نحن النساء لدينا استعداد دائم لعمل ذلك، وهو ما لا يحدث للرجال؛ ولهذا يمكن لامرأة واحدة أن تُتعب رجالاً كثيرين، بينما لا يمكن لرجال كثيرين أن يُتعبوا امرأة واحدة. وهذا يؤكد أننا إنما ولدنا ووجدنا من أجل هذا. وأقول لك إنه عليك أن تقدمي لزوجك رغيفاً من العجنة، كي لا تجد روحك، في الشيخوخة، ما تؤنب عليه جسدك. لكل شخص ما يناله في هذه الحياة، وعلى النساء بصورة خاصة أن يستفدن من الوقت أكثر من الرجال، لأننا عندما نشيخ، كما سترين، لن يرغب أي رجل، ولا حتى الزوج نفسه، في النظر إلينا، وإنما يلقون بنا إلى المطبخ لنتسلى بقص الحكايات للقطة، أو بعدّ الحلل والقدور. والأسوأ من ذلك أنهم يؤلفون لنا أغنيات تقول: «اللقمة الطيبة للشابة، وللعجوز الفضلة»، وأشياء أخرى كثيرة. وكي لا أشغلك أكثر وأضيع وقتك، أقول لك منذ الآن إنه لا يمكنك كشف نواياك لمن يفيدك أكثر مني. فليس هناك من رجل قاس وجافٍ إلا وأستطيع تليينه، وما عليك إلا أن تشيري لي إلى من يروقك، واتركي لي إنجاز كل ما تبقى. ولكنني أذكرك يا بنيتي بأنني امرأة فقيرة، وعليك أن تكافئيني، وأنا بدوري سأجعلك منذ اليوم شريكة في كل ما أناله من غفران، وفي كل ما أتلوه من صلوات على المسبحة، كي يمنح الرب النور لموتاكِ.

واتفقت الزوجة الشابة مع المرأة العجوز على أن تبحث لها عن فتى أعجبها، وكثيراً ما يمرّ في تلك الناحية، وأن تتوصل بطريقتها إلى اتفاق معه؛ وأعطتها كل شيء عن ملامحه

وشكله، ثم قدمت إليها قطعة لحم مملح وودعتها متمنية لها عون الرب. ولم تمض بضعة أيام حتى تكفلت العجوز، سراً، بإدخال ذلك الفتى المطلوب إلى مخدع المرأة، ثم جاءتها بعد بضعة أيام أخرى بفتى آخر، ثم آخر، حسب تبدل ذوق السيدة الشابة ومزاجها.

وحدث في أحد الأيام أن خرج الزوج في الليل لتناول العشاء في بيت صديق له يدعى هيركولانو، فطلبت الشابة من العجوز أن تأتيها بأجمل غلام في بيروسا؛ وفعلت العجوز ذلك بأقصى سرعة. وبينما السيدة جالسة إلى المائدة مع الفتى لتناول الطعام، طرق زوجها بيترو الباب، فاستولى عليها رعب شديد ولم تدر إذا ما كان عليها أن تصرف الغلام أم تخبئه. وكان هناك عنبر مجاور للحجرة التي يتناولان فيها العشاء، فأدخلته إليه وخبأته تحت قفص دجاج، وألقت على القفص كيساً كانت قد أفرغته في ذلك اليوم. ثم سارعت بعد ذلك لتفتح الباب لزوجها، وبادرته بالقول فور دخوله:

ـ أرى أنك التهمت عشاءك بسرعة كبيرة يا بيترو.

فأجابها بيترو:

ـ لم نتناول العشاء.

ـ وكيف ذلك؟.. ـ قالت المرأة.

فقال بيترو عندئذ:

ـ سأخبرك بما جرى. بينما نحن نجلس إلى المائدة ـ هيركولانو وامرأته وأنا ـ سمعنا عطاساً قريباً منا، فلم نهتم به في المرة الأولى والثانية، ولكن العطاس تكرر مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة، ومرات عديدة أخرى؛ فأدهشنا ذلك. وكان هيركولانو غاضباً من زوجته لأنها جعلتنا ننتظر لبعض الوقت عند الباب قبل أن تفتحه، فقال حانقاً: «ما الذي يعنيه هذا؟.. ومن هو هذا الذي يعطس؟..». ثم نهض عن المائدة، وتوجه إلى سلّم قريب، توجد تحته فجوة لها باب خشبي صغير، وبدا له أن صوت العطاس يأتي من هناك؛ ففتح الباب الصغير، وما إن فعل ذلك حتى انبعثت أعظم رائحة كبريت نفاذة في الدنيا. وقبل أن تصل الرائحة، قالت المرأة متذمرة: «لقد بيَّضتُ طرحاتي بالسلفور منذ قليل، ووضعت الوعاء الذي نشرتها فوقه لتتبخر تحت ذلك الدرج». وبعد أن فتح هيركولانو الباب، وخفت الرائحة قليلاً؛ نظر في الداخل، فرأى أن من كان يعطس هناك مازال يواصل العطاس،

تجبره على ذلك قوة رائحة الكبريت التي أثقلت على صدره، وأوشكت أن توقف عطاسه إلى الأبد. وما إن رآه هيركولانو حتى صاح قائلاً: «الآن عرفتُ يا امرأة سبب تأخرك في فتح الباب عند مجيئنا. ولكنني لن أتلذذ بشيء مما يطيب لي قبل أن أجعلك تدفعين ثمن ما جنيتِهِ عليّ». ما إن سمعت المرأة ذلك وعرفت أن أمر خطيئتها قد انكشف، حتى نهضت عن المائدة دون كلمة اعتذار، وهربت بأسرع ما يمكن، دون أن أدري إلى أين ذهبت. ولم ينتبه هيركولانو لهرب المرأة، لأنه كان يطلب من العاطس أن يخرج. لكن ذلك الشخص كان عاجزاً عن الحراك، فأمسك به هيركولانو من إحدى قدميه وسحبه خارجاً، ثم ركض باحثاً عن سكين لقتله. غير أنني، وخوفاً على نفسي، نهضت ومنعته من إلحاق أي أذى به. ورحت أصرخ إلى أن حضر الجيران، وحملوا الشاب المنهوك خارج البيت، لا أدري إلى أين. وهكذا أُفسد عشاؤنا الذي لم أتذوق منه شيئاً.

حين سمعت المرأة هذه الأقوال، أدركت أن هناك نساء أخريات ذكيات مثلها، وإن كانت النكبات تحل بإحداهن بين حين وآخر. وكانت تود، بكل سرور، أن تدافع عن زوجة هيركولانو؛ ولكنها لم تشأ المجازفة، وبدا لها أن انتقاد خطيئة تلك المرأة سيكون غطاء لها، فراحت تقول:

- يا لهذا الأمر! ويا للمرأة التي كانت تبدو لي عفيفة وورعة، وما كنتُ لأتورع عن الاعتراف أمامها لما كنت أرى فيها من التقوى! والأدهى أنها صارت عجوزاً، ويا للمثل الذي تقدمه للنساء الشابات! ألا لعنة الله على الساعة التي جاءت بها إلى هذه الدنيا، وعلى حياتها فيها! لا بد أنها امرأة بالغة الخيانة والخبث، وهي عار وشنار على نساء الأرض كلهن، تفرط بعفتها وعهدها الذي قطعته لزوجها. وتهين شرف الدنيا وشرف زوجها الرجل كامل الرجولة، والمواطن الشريف الذي كان يحسن معاملتها. ولا تخجل من الفجور مع رجل آخر. فلينجنِ الله مما تفعله أمثالها من النساء اللواتي لا يستحققن الرحمة، ويتوجب قتلهن في محرقة وتحويلهن إلى رماد.

ولكنها تذكرت بعد ذلك عشيقها الذي لا يزال مختبئاً تحت القفص، على مقربة منها، فراحت تشجع بيترو على الذهاب إلى الفراش، لأن موعد النوم قد حلّ. إلا أن بيترو كان راغباً في الأكل أكثر من رغبته في النوم؛ فسألها إذا ما كان هناك شيء للعشاء. فقالت له الزوجة:

ـ عشاء! وهل نصنع عشاء عندما تكون أنت غائباً عن البيت؟.. أوتظنني مثل زوجة هيركولانو؟.. ياه! لماذا لا تذهب للنوم هذه الليلة؟.. فهذا أفضل ما يمكنك عمله!

وحدث أن حضر في الليل بعض الفلاحين الذين يعملون في أراضي بيترو، ومعهم بعض الأشياء التي جاؤوا بها من الريف، فتركوا حميرهم، دون أن يقدموا لها الماء، في حظيرة مجاورة للعنبر. فأفلت أحد الحمير رأسه من الرسن، وكان به عطش شديد، فخرج من الإسطبل متشمماً لعله يجد ماء يشربه. وبينما هو يمضي على تلك الحال، مرّ من أمام القفص الذي يختبئ الفتى تحته. ولأن الفتى كان يقبع مكوراً على نفسه، فقد مدّ أصابع إحدى يديه خارج القفص، وكان من سوء حظه، أو ربما من حسن طالعه، أن الحمار داس على يده؛ فأحس الفتى بألم شديد، وأطلق صرخة مروعة.

ذهل بيترو لسماع تلك الصرخة، وانتبه إلى أنها صادرة من داخل البيت. فخرج من المخدع، وكان الفتى يشكو، لأن الحمار لم يرفع قائمته عن أصابعه بعد، بل مازال يضغط عليها بشدة. فقال بيترو:

ـ من هناك؟..

وركض باتجاه القفص يرفعه، ورأى الغلام الذي لم يكن يتألم من هرس الحمار لأصابعه وحسب، وإنما كان يرتجف أيضاً لخوفه من أن يُلحق بيترو به الأذى. ولكن بيترو عرفه على الفور، لأنه كان قد لاحقه لوقت طويل من قبل، تدفعه رذيلته الفاجرة للنيل منه. فسأله قائلاً:

ـ ما الذي تفعله هنا؟..

لم يجبه الآخر بشيء على سؤاله، وإنما راح يتوسل إليه ألا يلحق به أي أذى. فقال له بيترو الذي تعرف عليه:

ـ انهض ولا تخف، فلن أسبب لك أي أذى. وما عليك إلا أن توضح لي سبب وجودك هنا.

فأخبره الغلام بكل شيء؛ ولم تكن سعادة بيترو بالعثور على الغلام تقل عن تعاسة زوجته، فقد أمسك بيد الغلام واقتاده إلى المخدع، حيث كانت المرأة تنتظر بكل ما في الدنيا من خوف. فجلس بيترو أمامها وقال لها:

ـ إذا كنتِ تذمين زوجة هيركولانو قبل قليل، وتقولين بوجوب إحراقها لأنها عار عليكن جميعاً، فلماذا لا تقولين ذلك عن نفسك؟.. وإذا كنت لا تريدين قول ذلك عن نفسك، فكيف واتتك الجرأة على قولها عنها وأنت تعلمين أنك تفعلين ما فعلته هي؟.. ليس هناك ما يدفعك إلى ذلك إلا لأنكن جميعكن سواء. وعندما تجرِّمن الأخريات، فإنما تفعلن ذلك لإخفاء أفعالكن. ألا فلتنزل نار من السماء وتحرقكن جميعكن، لأنكن سلالة الخبث والفجور!

وحين رأت المرأة أنها لم تتلق منه، منذ البداية، سوى الكلام وحده؛ وبدا لها أن زوجها يذوب لهفة لأنه يمسك بيد غلام باهر الجمال، استعادت جرأتها وقالت له:

ـ إنني واثقة من أنك ترغب في نزول نار من السماء لتحرقنا جميعاً، لأنك تمقت النساء مثلما يمقت الكلب العصا. وأنا أقسم بالصليب بأن ذلك لن يحدث لنا. ولكنني لا أرى غضاضة من التحدث إليك قليلاً، لأعرف سبب شكواك وتذمرك. فلا ريب في أنني سأخرج رابحة إذا ما قارنتني بزوجة هيركولانو، لأنها عجوز تدعي التقوى وتتصنع الحشمة، وزوجها يقدم لها كل ما تحتاج إليه، ويحبها مثلما يتوجب على الرجل أن يحب المرأة، وهو ما لا يتوفر لي. فعلى الرغم من أنك توفر لي الألبسة والأحذية اللائقة، إلا أنك تعرف كيف هي حالي في ما عدا ذلك، وتعرف منذ متى لم تنم معي. وأنا أفضل أن ألبس الأسمال وأمضي حافية على أن تعاملني كما يليق بي في الفراش، بدلاً من أن توفر لي كل تلك الأشياء، وتعاملني هذه المعاملة. عليك أن تفهم يا بيترو أنني امرأة مثل الأخريات، وأهوى ما تهواه الأخريات، وإذا ما بحثت بنفسي عما تحرمني منه، فلست أستحق الشتم والإهانة، لاسيما أنني أحترمك كثيراً، فلا أضاجع الخدم أو الصباغين.

أدرك بيترو أن تبادل الكلام لن ينتهي طوال الليل، فأبدى عدم اهتمامه بها، وقال:

ـ اصمتي يا امرأة؛ فسوف أستبقيه لك هنا، ويبدو لي أن هذا الغلام مازال دون عشاء مثلي.

فقالت المرأة:

ـ لم يتناول العشاء طبعاً. فعندما حضرت أنت في ساعة النحس، كنا قد جلسنا لتونا إلى مائدة العشاء.

وقال بيترو:

ـ هيا إذن، قدمي لنا العشاء، ولسوف أتدبر الأمر بحيث لا تضطرين إلى التذمر.

نهضت المرأة فرحة بعدما سمعته من زوجها، وسارعت إلى إعداد المائدة، وأحضرت العشاء الذي كان جاهزاً، وتناولته بسعادة مع زوجها الفاسد والغلام. وبعد انتهاء العشاء، اقترح عليهما بيترو ما يُرضي الثلاثة، لكنني نسيت تفاصيل ما اقترحه. غير أنني أعرف جيداً أن الغلام شوهد في صباح اليوم التالي في الساحة، ولم يكن واثقاً إذا ما كان قد أمضى، في تلك الليلة، وقتاً أطول مع المرأة أم مع زوجها. ولهذا عليّ أن أقول لكنّ يا سيداتي، عليكن خداع من يخدعكن؛ وإن لم تستطعن، فلا تنزعن ذلك من رؤوسكن إلى أن تتوصلن إليه، لأن الحمار الذي يضرب رأسه بالجدار، لا بد له من أن يتلقى ضربة الجدار.

●●

أنهى ديونيو قصته، وكان ضحك النساء قليلاً بسبب الخجل وليس لأن القصة غير ممتعة. وبعد أن عرفت الملكة أن نهاية حكمها قد أزفت، نهضت واقفة، ونزعت تاج الغار عن رأسها ووضعته على رأس إليسا قائلة:

ـ ستكون القيادة لك الآن.

وما إن تلقت إليسا هذا الشرف، حتى بادرت إلى إعداد كل شيء مثلما هو متفق عليه. فرتبت مع القهرمان أولاً أمر ما يتوجب فعله في فترة حكمها، ثم قالت بعد ذلك لرفاقها بسعادة:

ـ كثيراً ما سمعنا أن الكلمات الذكية أو الإجابات السريعة والمناسبة أدت إلى تجنب أخطار داهمة. ولأن هذا الموضوع جيد، ويمكن له أن يكون مفيداً، فإنني أريد في الغد، بعون الله، أن تدور قصصنا ضمن هذه الحدود؛ أي حول من تمكن، ببضع كلمات ذكية، من الانتقام ممن ضايقه؛ أو استطاع بإجابة سريعة أو حيلة مبتكرة، أن يفلت من الضياع أو من مأزق حرج.

وافق الجميع على هذه الفكرة، ونهضت الملكة بعد أن أذنت لهم بعمل ما يحلو لهم

إلى أن يحين موعد العشاء. وحين رأت الجماعة أن الملكة قد نهضت، انصرف كل واحد منهم، كما هي العادة، إلى عمل ما يروقه. وعندما توقف غناء الجداجد، ودُعي الجميع، ذهبوا للعشاء الذي انتهى بحفلة غناء وعزف مرحة. وبإذن من الملكة، بدأت إيميليا الرقص، وطلبوا من ديونيو أن يغني أغنية، فبدأ الغناء بالقول: «مادونا ألدرودا، ارفعي الذيل، فقد جئتك بأخبار طيبة». فانفجرت السيدات كلهن بالضحك، لاسيما الملكة التي أمرته بأن يتخلى عن تلك الأغنية، ويغني غيرها. فقال ديونيو:

ـ سيدتي، لو كان لدي صنج لغنيت: «ارفعي ثيابك يا سيدة لوبا»، أو «تحت شجرة الزيتون، على العشب»، أو كنت غنيت «أمواج البحر تؤذيني كثيراً»، ولكن ليس لدي صنج، ولهذا اخبرنني أنتن، يا سيداتي، أي أغنية تردن. هل ترغبن في «اخرج خارجاً فأنت مقلّم مثل شجرة في الحقل»؟..

فردت الملكة:

ـ لا، غنِ لنا أغنية غيرها.

وقال ديونيو:

ـ سأغني إذن «مادونا سيمونا، تنتفخ وتنتفخ، ولما يأت شهر تشرين بعد».

فضحكت الملكة قائلة:

ـ آه يا ديونيو، غنِ غيرها، فنحن لا نريد هذه.

ـ لا تغضبي يا سيدتي. ولكن، أي أغنية تردن؟.. فأنا أعرف ألف أغنية. أترغبن في «هذا هو عشي، وأنا لا أنقره»، أم تفضلن «آه، ببطء أكبر، يا زوجي العزيز»، أم أنكن تردن «أنا اشتريت ديكاً يساوي ألف لير»؟..

عندئذ قالت الملكة بقليل من الغضب، وسط ضحك الأخريات:

ـ دعك من المزاح يا ديونيو، وغن لنا أغنية لطيفة، وإلا فإنك ستعرف كيف يكون غضبي.

تخلى ديونيو عن المزاح حين سمع ما قالته، وسارع إلى الغناء بجد:

أيا حب،

ضوء هاتين العينين الجميلتين

جرحني،

وعبداً لك ولهما جعلني.

بريق عينيها الجميلتين

أشعل بلهيبه نيران قلبي،

واخترق عيني.

عظيمة كانت سطوتك،

عندما أريتني وجهها،

وما إن رأيته،

حتى وقعت في أسره

وصارت قواي كلها خاضعة لها

وكانت سبب زفراتي وآهاتي.

أتوسل إليك أيها الحب، يا سيدي

أن تجعلها رحيمة بي، وتُشعرها

بشيء من لهيبك،

فأنا أذوب متلاشياً في حبها،

وأغرق في العذاب أكثر فأكثر.

فإذا ما أصبتها بسهمك،

حدث حبيبتي عني،

وسأكون، إن فعلتَ، راضياً وسعيداً.

وعندما صمت ديونيو، مبيناً أن أغنيته قد انتهت، طلبت الملكة غناء أغنيات أخرى عديدة، بعد أن أثنت طويلاً على ديونيو. وبعد أن انقضى شطر لا بأس به من الليل، أحست الملكة أن برودة الليل قد تغلبت على حر النهار، فأمرت الجميع بأن يذهبوا للراحة من أجل اللقاء في اليوم التالي.

وهنا ينتهي اليوم الخامس

اليوم السادس

ينتهي اليوم الخامس من الديكاميرون، ويبدأ اليوم السادس؛ وفيه تدور القصص، تحت حكم الملكة إليسا، حول من استُفز واستطاع التعويض عن ذلك بكلمات ذكية وجد بها مخرجاً، أو من نجا من الخطر أو السخرية بجواب سريع أو خاطر نبيه.

كان ضوء القمر قد تضاءل في وسط السماء، وبدأ نور النهار الجديد يضيء الكون؛ فنهضت الملكة وأمرت الآخرين بأن يحذوا حذوها. ومضوا بخطوات بطيئة، سائرين في جماعات متفرقة على العشب الندي، وهم يضحكون ويتبادلون الحديث. وعندما ارتفعت الشمس في السماء، رجعوا إلى البيت. ووجدوا الموائد معدّة ومرتبة للغداء، فجلسوا جميعهم لتناول الطعام. وبعد الانتهاء منه، ترنموا ببعض الأغاني، ثم ذهب بعضهم للنوم، وراح آخرون يتسلون بلعب الشطرنج وألعاب أخرى. وغنى ديونيو ولوريتا معاً أغنية ترويلو وكريسيدا. وعندما حان موعد اجتماعهم، استدعتهم الملكة، فجلسوا إلى جوارها كما هي العادة، مستعدين للبدء، ومنتظرين أن تأمر الملكة بحكاية القصة الأولى. ولكن حدث عندئذ شيء لم يحدث من قبل؛ فقد سمعوا جلبة كبيرة في المطبخ، صادرة عن الخدم هناك. فاستُدعي القهرمان، وسُئل عن تلك الضجة، وعن سبب ذلك الصراخ، فأجاب بأن ما جرى هو جدل بين ليسيسكا وتيندارو، لكنه لم يعرف سبب ذلك النزاع قبل استجابته لاستدعائهم.

عندئذ أمرته الملكة بإحضارهما ليمثلا أمامها، وحين جاءا، قامت باستجوابهما. فأراد تيندارو التكلم، غير أن ليسيسكا، وكانت متكبرة ونزقة، التفتت إليه وقالت مهتاجة:

- يا لهذا الرجل من بهيمة! إنه يريد التكلم قبلي! دعني أتكلم أنا.

ثم توجهت إلى الملكة، وقالت:

ـ سيدتي، إنه يؤكد أنه يعرف أكثر مني عن زوجة سيكوفانتي، كما لو أنني لم أتعامل معها. وهو يؤكد أنه في الليلة الأولى التي نام فيها سيكوفانتي معها، دخل السيد مازو إلى مونتينغرو بالقوة وإراقة الدماء، بينما كان دخوله إليها في الحقيقة بالسلم، وبموافقة من هم في الداخل. ويعتقد هذا الحيوان أن الفتيات حمقاوات وغبيات، ينتظرن قرارات آبائهم وإخوتهم بإذعان، حيث يجعلونهن ـ في أربع عشرة مرة من كل خمس عشرة ـ ينتظرن ثلاث أو أربع سنوات أكثر مما يجب قبل أن يزوجنهن. وهل من المناسب أن ينتظرن كل هذا الوقت! اقسم بدين المسيح، وأنا أعرف ما الذي أقوله عندما أقسم بالمسيح، إنني لا أعرف جارة واحدة ذهبت إلى زوجها وهي لا تزال عذراء؛ بل إنني أعرف كذلك أن متزوجات كثيرات يخدعن أزواجهن! ويريد هذا الحمار الآن أن يعلمني كيف هنّ النساء، كما لو أنني ولدت بالأمس!

وبينما ليسيسكا تقول هذا، كانت النساء يضحكن مقهقهات؛ فحاولت الملكة أن تفرض الصمت ست مرات، ولكن دون جدوى، لأن تلك لم تتوقف عن الكلام إلى أن انتهت من قول كل ما تريد قوله. وأخيراً ضحكت الملكة نفسها، ثم التفتت على ديونيو قائلة:

ـ هذه مسألة تخصك، لهذا أرغب أن تبدي لنا رأيك فيها عندما ننتهي من رواية قصصنا.

فأجابها ديونيو على الفور:

ـ لقد سمعتِ يا مولاتي الحكم الذي يجب سماعه. ليسيسكا محقة في ما قالته؛ وأظن أن الأمر ما قالته، وأن تيندارو هو حيوان.

وحين سمعت ليسيسكا ذلك، انفجرت بالضحك، واتجهت إلى تيندارو قائلة:

ـ لقد قلتُ لك ذلك! ليكن الله في عونك، فأنت تظن أنك تعرف أكثر مني، بينما لم ينبت الشعر في وجهك بعد. فليتبارك الرب! فأنا لم أعش ما عشته عبثاً.

اتخذت الملكة موقفاً صارماً، وأمرت الجميع بالصمت، وكان على ليسيسكا وتيندارو أن ينصرفا. بعد ذلك أمرت الملكةُ فيلومينا بأن تبدأ برواية قصتها، ففعلت ذلك بسعادة، وبدأت كلامها كما يلي:

القصة الأولى

يقول فارس للسيدة أوريتا إنه سيحملها معه على الحصان، ويروي لها قصة. ولكنه يروي القصة بصورة مضطربة، فتطلب منه أن يُنزلها ويتركها تمضي ماشية.

ـ سيداتي الشابات، مثلما تزين النجوم السماء في الليالي الصافية، ومثلما تزين الأزهار المروج الخضراء في الربيع، ومثلما تزين الأشجار الكثيفة الجبال، هكذا تزين العبارات الذكيةُ العاداتِ الحميدة والأفكارَ السامية. وكلما كانت هذه العبارات قصيرة، تكون أكثر ملاءمة للنساء منها للرجال، لأن كثرة الكلام أقبح في النساء مما هي في الرجال. والواقع أنه لم يبق إلا قلة من النساء، سواء لضعف قريحتهن، أو لبغضاء السماء غير المسبوقة لعصرنا هذا، أو لأي سبب آخر، يستطعن قول عبارة مناسبة في وقتها المناسب. وبما أن بامبينيا قد قالت شيئاً عن هذا الأمر، فلن أطيل أنا الحديث فيه أكثر. ولكن من أجل إظهار مدى الذكاء الذي تكون عليه هذه الردود، سأروي لكنّ عن صمت لبق فرضته سيدة على فارس.

كثيرات منكن عرفن أو سمعن، قبل وقت غير طويل، عن سيدة نبيلة من مدينتنا، تدفعنا جدارتها إلى عدم التستر على اسمها. فقد كان اسمها أوريتا، وكانت متزوجة من السيد جيري سبينا. وتصادف أنها كانت في الريف، مثلما نحن هنا، تتنقل من مكان إلى آخر مع جماعة من النساء والرجال الآخرين، في طريقهم إلى بيتها ليتناولوا الغداء معاً. وبدا الطريق طويلاً جداً، فقال لها أحد الفرسان:

ـ إذا أنتِ رغبت يا سيدة أوريتا، فسوف أحملك على جوادي وأسليك بأن أروي لك قصة ممتعة.

فردت عليه:

ـ يسعدني ذلك كثيراً أيها السيد.

وبدأ الفارس رواية الحكاية وهو يشعر بأنه يتقن قص الحكايات أكثر من إتقانه استخدام السيف الذي في حزامه.

كانت القصة بحد ذاتها جميلة جداً في الحقيقة، لكن الفارس راح يكرر كل كلمة ثلاث أو أربع مرات، ثم يعود للبدء من جديد قائلاً «لم أروِ جيداً»، وكان يخطئ في الأسماء، ويخلط بينها. كل ذلك جعل المرأة تغضب، وتتعرق ويغشى على قلبها. وعندما لم تعد قادرة على التحمل، وأدركت أن الفارس قد أدخل نفسه في ورطة لا يستطيع الخروج منها، قالت له بلطف:

- سيدي، خبب جوادك متعثر وقاس جداً، فأرجوك أن تُنزلني، لأني أفضل الذهاب مشياً.

وكان الفارس، لحسن الحظ، قادراً على الفهم أكثر من قدرته على القص، فأدرك معنى عبارة المرأة، وأخذها على محمل المزاح؛ لكنه التقط الإشارة، وبدأ برواية قصة أخرى، متخلياً عن مواصلة تلك التي بدأها بصورة سيئة.

القصة الثانية

الخباز شيستي، ببضع كلمات قليلة، يجعل السيد جيري سبينا يتراجع نادماً عن طلب غير معقول.

أطرى المجتمعون على كلمات مادونا أوريتا، ثم توجهت الملكة إلى بامبينيا وأمرتها بأن تواصل، فبدأت على النحو التالي:

- صديقاتي العزيزات، لست أدري من هو الأكثر خطأ، أهي الطبيعة بوضعها روحاً نبيلة في جسد وضيع، أم أنه القدر الذي يمنح مهنة وضيعة لجسد مزود بروح نبيلة، مثلما حدث لشيستي وكثيرين آخرين من مواطني مدينتنا. فقد كان شيستي يملك روحاً بالغة السمو، لكن القدر جعل منه خبازاً. وكان يمكن لي أن ألقي باللائمة على الطبيعة والقدر على السواء، لولا علمي بأن الطبيعة شديدة الحرص والرصانة، وأن للقدر ألف

عين، وإن كان الحمقى يصورونه على أنه أعمى. وكلاهما يفعل مثل من يخبئون أفضل أشيائهم وأثمنها في أسوأ الأماكن في البيت، لأن تلك الأماكن هي الأقل إثارة للشبهة حول ما يخبئونه فيها. وفيما بعد، في أزماتهم الكبرى، يخرجونها من المكان الوضيع الذي كان مخبأ آمناً أكثر من الحجرة الفخمة. وهكذا، مثلما يفعل البشر، تعمد مدبرتا الدنيا كلتاهما (أي الطبيعة والقدر)، في أحيان كثيرة، إلى تخبئة أفضل أشيائهما في ظل أكثر الأمور خسة؛ من أجل إخراجها عند الحاجة، لتبدو أشد تألقاً وبريقاً. وسأروي لكنّ قصة الخباز شيستي مع السيد جيري سبينا، زوج السيدة أوريتا التي جعلتني قصتها أتذكر هذه القصة القصيرة جداً.

أرسل البابا بونيفاسيو إلى فلورنسا عدداً من النبلاء في سفارة لبحث بعض الشؤون المهمة، ونزل هؤلاء السفراء في بيت السيد جيري، وراح يبحث معهم الشؤون التي تهم البابا. وحدث في تلك الأثناء أن السيد جيري كان يمر مع ضيوفه، في صباح كل يوم تقريباً، من أمام كنيسة القديسة ماريا أوجي، حيث يوجد مخبز شيستي الذي يمارس فيه عمله. لقد منحه القدر هذه المهنة التي وفرت له الثراء، ولهذا السبب لم يشأ التحول إلى مهنة أخرى. كان يعيش حياة منعمة، وبين الأشياء الفاخرة الكثيرة التي يملكها، كانت لديه أفضل الأنبذة في فلورنسا ومحيطها. وحين رأى ذلك الخباز مرور السيد جيري مع تلك الكوكبة من سفراء البابا كل صباح، قدر أن اللياقة تستدعي تقديم نبيذ أبيض لهم. لكنه رأى، بسبب وضعه ومكانته الاجتماعية، أن يرتب الأمور بطريقة يدعون فيها أنفسهم بنفسهم. فكان شيستي يرتدي ثوباً ناصع البياض، ومئزراً نظيفاً، ويضع كل صباح دلواً جديداً مملوءاً بماء بارد، وإبريقاً صغيراً من الخزف البولوني مملوءاً بالنبيذ الأبيض، وكأسين يبدو أنهما من الفضة. ويجلس هناك، ويبدأ لدى مرورهم بشرب النبيذ بطريقة تجعل الموتى يرغبون في شربه.

- ماذا يا شيستي؟.. أهو نبيذ جيد؟.. - سأله السيد جيري.

فنهض شيستي متعجلاً، وأجاب:

- بل هو أكثر من جيد يا سيدي، ولكنني لا أستطيع إثبات جودته ما لم تتذوقوه.

فتوجه السيد جيري إلى السفراء وقال لهم:

ـ أيها السادة، فلنتذوق نبيذ هذا الرجل الطيب، فربما يكون جيداً ولا نندم على تذوقه.

وتقدم معهم نحو شيستي الذي أمر على الفور بإخراج مقعد جيد من المخبز ليجلسوا عليه. ثم قال للخدم:

ـ دعوني أقم بنفسي بخدمة هؤلاء السادة، ولا تأملوا بتذوق قطرة من هذا النبيذ.

عندئذ غسل بنفسه أربع كؤوس بديعة، وأخرج قارورة نبيذ فاخر، وقدم منه إلى السيد جيري ورفاقه. فوجدوه من أفضل الأنبذة التي تذوقوها في حياتهم، حتى إنهم صاروا يمرون جميعهم كل صباح ليشربوا من ذلك النبيذ. وعندما أنهى سفراء البابا مهمتهم وحان موعد رحيلهم، أقام لهم السيد جيري وليمة، دعا إليها بعض أبرز أشراف المدينة، ووجه الدعوة كذلك إلى شيستي، فلم يشأ هذا الذهاب. عندئذ أرسل السيد جيري خادماً إلى بيته ليطلب منه دمجانة من ذلك النبيذ، ليقدمه إلى ضيوفه مع الطبق الأول. وربما كان الخادم غاضباً لأنه لم يتذوق قط ذلك النبيذ، فاخذ إناء كبيراً جداً، وحين رآه شيستي قال له:

ـ بني، السيد جيري لم يرسلك إليّ.

فألح الخادم، لكن شيستي لم يستجب له. فعاد الخادم إلى السيد جيري الذي قال له:

ـ عد إليه وقل له إنني أنا الذي أرسلتك حقاً، فإذا رفض، فسله إلى من يظن أنني أرسلتك.

رجع الخادم، وقال لشيستي:

ـ لقد أرسلني حقاً إليك.

فرد عليه شيستي:

ـ لا يا بني، من المؤكد أنه لم يرسلك إليّ.

عندئذ قال الخادم:

ـ إلى من أرسلني إذن؟..

فأجابه شيستي:

ـ إلى نهر أرنو.

أخبر الخادم السيد جيري بذلك، ففتح هذا عينيه بذكاء وقال للخادم:

ـ دعني أر الإناء الذي أخذته.

وعندما رأى الإناء وكبر حجمه، أدرك مغزى كلام شيستي. فأنب الخادم، ثم أرسله بإناء أصغر حجماً. وحين رآه شيستي قال له:

ـ الآن أصدق أنه أرسلك إليّ.

وملأه له بسعادة. ثم أضاف برميلاً صغيراً من النبيذ نفسه كهدية، وذهب بنفسه إلى بيت السيد جيري ليقدمه إليه، وقال له:

ـ لا أريدك أن تظن يا سيدي أن الإناء الكبير قد أفزعني هذا الصباح، ولكن بدا لي أنك نسيت ما رغبتُ في أن أوضحه لكم حين كنت أقدم لكم قارورة صغيرة كل صباح؛ فهذا النبيذ ليس للخدم، وقد أردت تذكيركم بذلك. لكنني أملك فائضاً كبيراً منه، وقد جئتك به لتفعل به ما تشاء.

تلقى السيد جيري الهدية شاكراً، واتخذه منذ ذلك الحين صديقاً له، ورجلاً يحظى بثقته.

القصة الثالثة

دونيا نونا دي بولشي، بردٌ سريع، تفرض الصمت على أسقف فلورنسا بعد تفوهه بكلمات قليلة التهذب.

أنهت بامبينيا قصتها، وبعد إطراء الجميع على حصافة شيستي، أمرت الملكة لوريتا بالكلام، فبدأت هذه القول باسمة:

ـ صديقاتي اللطيفات، لقد أشارت بامبينيا وفيلومينا، وهما محقتان، إلى قلة مهارتنا، نحن النساء، في استخدام الكلمات الذكية المناسبة. وأريد أن أذكّركم بأن العبارات الذكية يجب أن يكون وقعها على السامع مثل عضة النعجة وليس الكلب؛ وإلا لن تكون عبارات فطنة وإنما إهانات. وهذا ما فعلته السيدة أوريتا وشيستي. وقد تلقى أسقف مدينتنا من إحدى السيدات صفعة لا تقل قسوة عن تلك التي وجهها إليها، مثلما سأبين لكنّ في قصتي.

عندما كان السيد أنطونيو دي أورسو أسقفاً على فلورنسا، حضر إلى المدينة سيد كتلاني يدعى دييغو دي لاراتا، وهو ضابط لدى الملك روبرتو. وكان شديد التأنق، مولعاً بالنساء الفلورنسيات، وخاصة ابنة أخ للأسقف. وحين علم أن زوجها رجل بخيل، عرض عليه خمسمئة فلورين ذهبي إذا سمح له بالنوم مع زوجته. وقد أعطاه النقود وضاجع المرأة، ولكن دون رغبة منها. وعندما انتشر الأمر وعلم الناس به، انتقدوا هذا التصرف باستياء؛ لكن الأسقف تظاهر بعدم معرفة أي شيء. وكانت العلاقة بين الأسقف والضابط حميمة جداً. وفي أحد الأيام، كان الاثنان يتمشيان معاً على جواديهما في عيد سان جوان، وتصادف أن مرت امرأة فقدناها في جائحة الطاعون الأخيرة، وكانت تدعى السيدة نونا دي بولشي، هي ابنة عم السيد ألسيو رينوتشي، ولا بد أنكن جميعكن تعرفتن عليها. فقد كانت شابة جميلة وطيبة القلب، تزوجت قبل قليل من ذلك. فأشار إليها الأسقف، ثم اقتربا منها ووضع يده على كتف الضابط، وقال لها:

ـ ما رأيك به يا نونا؟.. هل بإمكانك الظفر به؟..

ورأت المرأة أن تلك الكلمات تنطوي على إهانة لها، فقررت أن ترد الصفعة بمثلها، فأجابت بسرعة:

ـ ربما لن يستطيع الظفر بي يا سيدي، لأنني سأطلب من النقود ما يزيد على خمسمئة فلورين.

حين سمعا كلامها، شعر الأسقف والضابط على السواء بالاضطراب، أحدهما لأنه من اقترف العمل الدنيء مع ابنة أخ الأسقف، والآخر لأنه أهين بابنة أخيه. فمضيا مجللين

بالخزي دون أن يتمكنا من قول شيء. فالفتاة التي أُزعجت، أحسنت صنعاً بإزعاج الآخرين بعبارة حاسمة.

القصة الرابعة

كيكيبيو، طاهي كورادو جيانفيغليازي، بدّل بعبارة سريعة غضب سيده كورادو، وحوّله إلى ضحك؛ فنجا بذلك من مأزق صعب يتهدده.

بعد أن صمتت لوريتا، امتدح الجميع سرعة خاطر نونا، ثم أمرت الملكة نيفيله بأن تقص قصتها، فشرعت هذه تقول:

ـ قد تلهم سرعة الخاطر، يا صديقاتي العزيزات، عبارات مناسبة في بعض الأحيان. وقد يضع القدر في أحيان أخرى في أفواه الخائفين عبارات ما كانت لتخطر لهم على بال. وهذا ما سأبينه لكنّ في قصتي.

كان كورادو جيانفيغليازي، مثلما تعرفون، مواطناً بارزاً في مدينتنا، يعيش حياة سيد طيب، ويمارس الصيد بالكلاب والصقور، ولا حاجة بنا الآن إلى التعمق في أعماله الكبرى. وفي أحد الأيام، اصطاد بمساعدة أحد صقوره، بالقرب من قرية بيريتولا، طائر كُركي ضخماً؛ ورأى أنه طائر فتي وسمين، فأمر طاهيه، وهو فينسي يدعى كيكيبيو، بأن يشوي الكركي ويعده جيداً من أجل العشاء. فبدأ الطاهي، وكان غبياً كبيراً، بإعداد العشاء. وعندما أوشك الطعام أن ينضج، وبدأت رائحة الشواء القوية تفوح، دخلت إلى المطبخ امرأة من الحي، تدعى برونيتا؛ وحين شمت الرائحة النفاذة، طلبت منه أن يعطيها أحد فخذي الطائر، وكان هو مغرماً بها، فأجابها مترنماً:

ـ لن أعطيك فخذاً يا سيدة برونيتا، لن أعطيك إياه.

فغضبت هي وردت عليه:

ـ إذا لم تعطني فخذاً فلن تحصل مني أبداً على ما يمتعك.

وباختصار، وبعد تبادل كثير من الكلام، لم يشأ كيكيبيو إغاظتها، فقطع أحد الفخذين وأعطاها إياه.

استغرب كونرادو، وهو بين ضيوفه على مائدة العشاء، حين رأى الطائر وقد اختفت إحدى قائمتيه، فاستدعى طاهيه كيكيبيو، وسأله عما فعل بقائمة الطائر الأخرى. فأجابه الفينسي الكذوب:

ـ ليس لطيور الكركي يا سيدي سوى قائمة واحدة.

فاغتاظ كونرادو، وقال:

ـ ما هذا الكلام بحق الشيطان، كيف لا تكون للكركي سوى قائمة واحدة؟.. أتظنني لم أر كركياً قبل هذا؟..

فواصل كيكيبيو كذبه:

ـ الأمر ما أقوله لك يا سيدي، وعندما تشاء سأريك ذلك في طيور الكركي الحية.

ولم يشأ كونرادو المضي أبعد من ذلك في الكلام، مراعاة للضيوف الذين معه، فاكتفى بالقول:

ـ بما أنك تريد أن تريني ما لم أره قط ولا سمعت به في حياتي، فإنني سأرى ذلك غداً. ولكني أقسم لك بجسد المسيح إنك ستتذكرني طوال حياتك إذا لم يكن الأمر كذلك.

وفي صباح اليوم التالي، وكان الغيظ قد أقض مضجع كونرادو، فنهض غاضباً في وقت مبكر؛ وأمر بإعداد جوادين من جياده، ثم أمر كيكيبيو بأن يمتطي جواداً هرماً؛ واقتاده نحو جدول مائي، اعتادت طيور الكركي المجيء إلى ضفته في الصباح، وقال له:

ـ سنرى الآن من هو المحق منا، أنت أم أنا.

وحين رأى كيكيبيو أن غضب كونرادو مازال متأججاً، أحس بالخوف، ولم يدر كيف يخرج من ذلك المأزق. فأينما تلفت لا يرى في مخيلته سوى طيور كركي بقائمتين.

وعندما اقتربا من الجدول، رأيا نحو اثني عشر كركياً، يقف كل واحد منها على

قائمة واحدة، وهو ما تفعله هذه الطيور عادة حين تنام. فقال كيكيبيو:

ـ ألا ترى يا سيدي أنني لم أقل غير الحق مساء أمس، حين أكدتُ أن للكركي قائمة واحدة فقط؟.. انظر إلى هذه الطيور هناك.

فقال كونرادو:

ـ انتظر وسأريك الآن أن لكل منها قائمتين.

ثم اقترب من سرب الطيور وصاح بها «هوب! هوب!»، فأنزلت الطيور قائمتها الأخرى، ومشت بضع خطوات قبل أن تحلق هاربة.

فالتفت إلى كيكيبيو وقال له:

ـ ما رأيك الآن أيها الوغد؟.. هل هي بقائمة واحدة أم اثنتين؟..

شحب لون كيكيبيو من الخوف، ولم يدر هو نفسه من أين جاءه الجواب حين قال:

ـ أجل يا سيدي، إنها الآن بقائمتين؛ ولكنك لم تصرخ «هوب، هوب» بكركي العشاء يوم أمس. ولو فعلت لكان أخرج قائمته الأخرى مثلما فعلت هذه الطيور.

أعجب هذا الجواب كونرادو، فراح يضحك، وقال:

ـ معك حق، كان علي أن أفعل ذلك.

وهكذا نجا الطاهي بفضل جوابه السريع والمضحك من المحنة، وتصالح مع سيده.

القصة الخامسة

بينما السيد فوريسي دي راباتا والمعلم الرسام جيوتو في طريق عودتهما من موغيللو، يتبادلان السخرية من قبح هيئتيهما.

حين انتهت نيفيله من الكلام، واصلت النساء الضحك من عبارة كيكيبيو؛ وبعد ذلك بدأ بانفيلو الكلام بناء على رغبة الملكة، فقال:

ـ سيداتي العزيزات، يحدث أحياناً أن يخبئ القدر، تحت مهن وضيعة، كنوزَ فضيلةٍ عظيمة؛ وقد بينت لنا بامبينيا قبل قليل، كيف أن مواهب رائعة تختفي تحت أشكال بشرية شديدة القبح. وهذا ما يمكن إثباته أيضاً لدى اثنين من مواطنينا أريد التحدث عنهما بإيجاز. أحدهما كان يدعى فوريسي دي راباتا، وكان قزماً قصير القامة، ومشوه الهيئة، وجهه مسطح ومعوج بصورة يبدو معها أشد قبحاً وتشوهاً من واحد من آل بارونشي؛ ولكنه كان نابغة موهوباً في شؤون القانون والمعارف المدنية. والآخر كان يدعى جيوتو، وهو عبقري بارع في استخدام القلم أو الريشة لاستنساخ ورسم أي شيء في الطبيعة (أم الأشياء كلها ومغذيتها بدوران الكواكب وحركتها المتواصلة). وكانت براعته كبيرة إلى حدّ يُظن معه أحياناً أن ما يرسمه طبيعي وحقيقي. وكان يكرس وقته في ترميم ذلك الفن الذي ظل مدفوناً طوال قرون بسبب أخطاء الآخرين وإهمالهم، وإعادته إلى النور. وقد كان فنه عظيماً مثلما هو تواضعه، فلم يشأ أن تطلق عليه تسمية المعلم، مع أنه جدير بهذه التسمية. لكنه لم يكن في شخصه ومظهره، على الرغم من عظمة فنه، أجمل من السيد فوريسي.

وأعود إلى القصة فأقول:

كانت أملاك ومزارع فوريسي وجيوتو في منطقة موغيللو، وفي أحد الأيام التقيا مصادفة وهما في طريق عودتهما من هناك. لم يكن جيوتو يمتطي حصاناً، ولم تكن ثيابه أفضل حالاً من ثياب الآخر، وبينما هما يمضيان ببطء كعجوزين هرمين. حدث أن هطل عليهما وابل غزير من المطر، مثلما يحدث بكثرة في فصل الصيف، فالتجأا إلى بيت فلاح يعرفه كلاهما. وبعد بعض الوقت، رأيا أن المطر لم يتوقف، فطلبا من صاحب البيت رداءين من قماش رخيص، وقبعتين مهترئتين، لأنه لا يملك ما هو أفضل من ذلك، وواصلا رحلتهما.

وبعد قليل من المسير، وجدا نفسيهما مبللين بالماء وملطخين بالوحل، وكان المطر قد توقف، فراحا يتبادلان الحديث بعد صمتهما الطويل. وبينما كان السيد فوريسي راكباً مطيته ويستمع إلى جيوتو، وكان هذا محدثاً مفوهاً، راح ينظر إليه من أعلى، فوجده قميئاً وبائس الهيئة، فقال له ضاحكاً، دون أن ينتبه إلى ما كانت عليه حاله هو نفسه:

ـ إذا ما التقينا الآن، يا جيوتو، بشخص غريب لا يعرفك، فهل تظن أنه سيصدق أنك

أفضل رسام في العالم؟..

فأجابه جيوتو على الفور:

ـ سوف يصدق ذلك يا سيدي إذا ما صدق أنك تعرف الأبجدية.

حين سمع السيد فوريسي ذلك اعترف بخطئه، ورأى أن الآخر قد دفع له بالعملة نفسها التي يستحقها.

القصة السادسة

يثبت ميكيل سكالزا لبعض الشبان أن آل بارونشي هم أعرق الناس نبلاً على هذه الأرض وفيما وراء البحار، فيكسب بذلك عشاء.

كانت النساء لا يزلن يضحكن من جواب جيوتو الجيد والسريع، عندما توجهت الملكة إلى فياميتا وأمرتها بالمواصلة. فبدأت هذه قصتها كما يلي:

ـ سيداتي الشابات، عندما تحدث بانفيلو عن آل بارونشي الذين ربما لا تعرفونهم مثلما عرفهم هو، ذكّرني بقصة تثبت مدى نبلهم، دون أن ننحرف عن موضوعنا؛ ويسعدني أن أرويها لكم.

منذ زمن غير بعيد، كان يعيش في مدينتنا شاب يدعى ميكيل سكالزا، وكان من أكثر رجال الدنيا لطفاً ومرحاً، يحفظ أشد القصص غرابة؛ فكان شبان فلورنسا يسعدون إذ يكون معهم حين يجتمعون. وحدث في أحد الأيام أن كانوا مجتمعين في مونتوجي، وبدأ جدال بينهم حول من هي أنبل أسر فلورنسا وأكثرها عراقة. فقال بعضهم إنهم آل أوبيرو، وقال آخرون إنهم آل لامبيرو، وذكر غيرهم هذه الأسرة أو تلك، كلٌ حسب مزاجه. وحين سمعهم سكالزا، راح يضحك ساخراً وقال:

ـ ليكن الله في عونكم أيها الحمقى، أنتم لا تعرفون ما تقولون. فأعرق النبلاء،

ليس في فلورنسا وحدها، وإنما في العالم بأسره وفيما وراء البحار، هم آل بارونتشي، وهذا ما يتفق عليه جميع الفلاسفة، وكل الرجال الذين عرفوهم مثلما عرفتهم. وكي لا تظنوا أنني أتكلم عن آخرين، فإنني أقول لكم إنهم آل بارونشي، جيرانكم في سانتا ماريا الكبرى.

الشبان الذين كانوا ينتظرون سماع شيء آخر مختلف من سكالزا، سخروا منه جميعهم حين سمعوا كلامه، وقالوا له:

- يبدو أنك تعتبرنا حمقى! كما لو أننا لا نعرف آل بارونشي مثلما تعرفهم أنت.

فقال سكالزا:

- لست أسخر، وأقسم لكم بالإنجيل إني أقول الحق. وإذا كان بينكم من يريد الرهان على عشاء يُقدم للرابح وستة أشخاص آخرين يختارهم، وأنا أقبل الرهان وتحكيم من تشاؤون.

وكان بين الشبان واحد يدعى نيري فانيزي، قال له:

- أنا مستعد للرهان وكسب هذا العشاء.

واتفقا على أن يكون الحكم بينهما هو بيرو دي فيورينتينو، وأن يذهبوا للاجتماع في بيته. فتوجها إليه ومعهما الآخرون جميعهم، ليشهدوا خسارة سكالزا ويسخروا منه. وأخبروه بكل ما قيل. وكان بيرو شاباً حصيفاً، فاستمع أولاً إلى حجج نيري، ثم التفت بعد ذلك إلى سكالزا وقال له:

- وكيف يمكنك أنت أن تثبت ما تقوله؟..

فقال سكالزا:

- أتقول كيف؟.. إنني قادر على إثباته بحجج لا تقنعك أنت فقط، وإنما تجعل خصمي نفسه يراني محقاً. أنتم تعرفون أن البشر كلما كانوا أقدم عهدا، يكونون أشد نبلاً وعراقة، وهذا ما قاله آل بارونشي عن أنفسهم منذ بعض الوقت. فإذا كان آل بارونشي هم الأقدم من كل البشر، فإنهم بالتالي أعرق الناس نبلاً؛ وإذا ما بينتُ لكم كيف أنهم الأكثر قِدماً أكون قد كسبت الرهان. يجب أن تعلموا أولاً أن الله خلق آل بارونشي في

الزمن الذي بدأ فيه بتعلم الرسم، بينما خُلق البشر الآخرون بعد أن تعلم الرب إلهنا الرسم. ولكي أثبت لكم ذلك، أطلب منكم أن تقارنوا بين آل بارونشي وغيرهم من البشر الآخرين. ولسوف ترون أن وجوه الآخرين جميعهم متناسقة التقاطيع ومضبوطة الملامح، بينما لبعض آل بارونشي وجوه ضيقة ومتطاولة جداً، ولآخرين منهم وجوه أعرض مما هو ملائم، ويكون لأحدهم أنف بالغ الطول، ولآخر بالغ القصر، وذقن بعضهم بارزة إلى الخارج أو غائرة إلى الداخل، ومنهم من له فكان يبدوان أشبه بفكي جحش، وهناك منهم من له عين أكبر من الأخرى، بل ومن له عين أعلى من الثانية، مثلما هي الوجوه التي يبدأ الأطفال برسمها في أول عهدهم بتعلم الرسم. ويبدو واضحاً، مثلما قلت من قبل، أن الرب إلهنا قد صنع آل بارونشي عند بدء تعلمه الرسم، وهم لهذا أقدم من الآخرين، وبالتالي أكثر نبلاً.

وافق على ذلك بيرو الذي كان حكماً، وكذلك نيرو الذي دخل الرهان، ووافق جميع الحاضرين أيضاً بعد أن سمعوا حجة سكالزا المضحكة، وراحوا يضحكون قائلين إن سكالزا على حق وإنه كسب العشاء، وإن آل بارونشي هم أنبل الناس وأقدمهم، ليس في فلورنسا، وإنما في العالم وفيما وراء البحار. ولهذا السبب كان بانفيلو على حق حين أراد أن يبين مدى قبح السيد فوريسي، فقال إنه فظيع مثل وجه واحد من آل بارونشي.

القصة السابعة

مادونا فيليبا، ضبطها زوجها مع عشيق، فاستُدعيت إلى محاكمة. وتمكنت، بردها السريع والطريف، أن تنجو، وأن تدفع إلى تغيير القوانين.

كانت فياميتا قد صمتت، ولكن الجميع ظلوا يضحكون من الحجة الذكية التي استخدمها سكالزا من أجل تأكيد عراقة نبل آل بارونشي وأسبقيتهم للجميع. عندئذ أمرت الملكة بأن يواصل فيلوستراتو القص، فقال:

ـ سيداتي الكريمات، من المناسب التكلم جيداً في كل مقام ومكان، ولكنني أرى أن ذلك يكون أشد إلحاحاً عندما تشتد الحاجة إليه. وهذا ما فعلته سيدة سأتكلم عنها، فأضحكت مستمعيها، ونجت في الوقت نفسه من الموت.

ساد في مدينة براتو، قديماً، قانون لا تقل قسوته وصرامته عن عدم وجود مبرر له؛ يقضي بأن تُحرق، دون تمييز، كل امرأة يضبطها زوجها مع عشيق. ومعاملتها مثل تلك التي تضاجع أي رجل مقابل المال. وحدث ذات ليلة، في تلك الأثناء، أن سيدة جميلة تدعى فيليبا، ضُبطت في حجرتها، على يد زوجها المدعو رينالدو دي بوليزي، وهي في أحضان شاب وسيم ونبيل من المدينة نفسها يدعى لازارينو دي غواسلوتري. وكانت تحبه حبها لنفسها، ويبادلها هو أيضاً مثل ذلك الحب. وقد تمكن زوجها رينالدو، حين رآهما، من كبح جماح غضبه، ورغبته في قتلهما معاً، لأنه خشي على نفسه. وهكذا قرر أن يترك الأمر للقانون الذي يبيح قتل زوجته، لكنه لا يبيح قتل عشيقها. فأثبت الجريمة بكل الأدلة المناسبة، وطلب محاكمتها. وبدلاً من أن تهرب المرأة، مثلما نصحها كثيرون، دفعتها قوة حبها إلى تفضيل مواجهة المحكمة، والاعتراف بالحقيقة؛ والموت بشجاعة، على الهرب والعيش في مذلة النفي. وعندما مثلت أمام القاضي، سألته عن سبب استدعائها. ورأى القاضي أنها امرأة جميلة وشجاعة، فأحس بالعطف عليها. لكنه لم يستطع التخلي عن استجوابها، فقال لها:

ـ زوجك رينالدو يا سيدتي يدعي أنه ضبطك وأنت تزنين، وقد طالب بإنزال عقوبة الإعدام بك طبقاً للقانون. وأنا لا يمكنني إصدار هذا الحكم ما لم تعترفي أنت بفعلتك. ولهذا، أطلب منك أن تخبريني إذا ما كان صحيحاً ما يتهمك به.

وأجابت المرأة بكل هدوء ورباطة جأش:

ـ صحيح يا سيدي أن رينالدو هو زوجي، وأنه وجدني في الليلة الماضية بين ذراعي لازارينو الذي أحبه كل الحب، والذي عاشرته محبة مرات كثيرة. ولكنني متأكدة من أنكم تعرفون أن القوانين يجب أن تساوي بين الجميع، وأن تُسن برضاء من ستُطبق عليهم؛ وهو ما لا ينطبق على هذا القانون الذي يعاقب النساء المسكينات، في حين أننا أفضل من الرجال بقدرتنا على إرضاء الكثيرين. ثم إن هذا القانون وُضع دون طلب موافقة أي امرأة عليه، وهو ما يجعل القانون غير صالح. فإذا أردت يا سيدي أن تطبقه عليّ، وأن تُلحق الغبن

بجسدي وضميرك، فإنني أرجوك أن تمنحني قبل ذلك مكرمة ضئيلة، وأن تسأل زوجي إذا كنتُ قد رفضت يوماً الامتثال له في كل مرة أراد الاستمتاع بي؟..

ولم ينتظر رينالدو أن يعيد القاضي توجيه السؤال إليه، و أجاب بأن زوجته كانت تلبي على الدوام كل رغباته.

فاستأنفت المرأة الكلام:

ـ أود أن أسألك إذن، يا سيدي القاضي: إذا كان قد أخذ مني كل ما يحتاج ويشتهي، فماذا تريد مني أن أفعل بما تبقى لدي؟.. أتريدني أن أرمي به إلى الكلاب؟.. أليس من الأفضل تقديمه إلى رجل يحبني، بدل تركه يفسد ويتلف؟..

كانت المحاكمة قد اجتذبت جمهوراً واسعاً، فبدأ الناس يضحكون ويصرخون مؤيدين السيدة. وقبل أن يغادروا المحكمة، عدّل القاضي ذلك القانون القاسي، وأبقاه سارياً على النساء اللواتي يمارسن ذلك مقابل المال. وأحس رينالدو بالخجل والندم لأنه أوصل القضية إلى ذلك المستوى، فغادر المحكمة، كما غادرتها الزوجة وهي سعيدة لنجاتها من الحرق، وذهبت إلى بيتها.

القصة الثامنة

ينصح فريسكو ابنة أخيه بألا تنظر في المرآة إذا كانت تضايقها، كما تقول، رؤية الوجوه المزعجة.

القصة التي رواها فيلوستراتو استثارت شيئاً من الخجل بين السيدات المستمعات، وقد أظهرن ذلك بمسحة الحياء التي بدت على وجوههن؛ ولكنهن تبادلن النظرات بعد ذلك، ولم يستطعن كبح ضحكاتهن، وواصلن الضحك خفية إلى أن انتهى من قصها. عندئذ التفتت الملكة إلى إيميليا وأمرتها بأن تواصل؛ فتثاءبت هذه كما لو أنها تصحو من النوم، وبدأت بالقول:

ـ سيداتي الفاتنات، تفكير طويل حملني لبعض الوقت بعيداً عنكن، ولكي أنصاع لأمر ملكتنا، ربما بقصة أقصر بكثير مما كنت سأفعله لو أنني في حالة معنوية أفضل؛ سأحدثكن عن خطأ فتاة حمقاء، كان بالإمكان إصلاحه بعبارة ذكية من عمها لو أنها قادرة على الفهم.

كان هناك شخص يدعى فريسكو دي سيلاتيكو، له ابنة أخ تدعى تحبباً شيسكا. وكانت جميلة الوجه والقوام، لكنها لم تكن مع ذلك من تلك الكائنات الملائكية التي نراها بكثرة. فقد اعتادت، على الرغم من نبلها، على استنكار وانتقاد الرجال والنساء وكل ما تراه من الأشياء، دون أن تنظر إلى نفسها يوماً وهي المزعجة والمتعِبة والنزقة أكثر من الجميع، لأنه من غير الممكن عمل شيء يوافق مزاجها. وكانت فوق ذلك كله شديدة العجرفة، كما لو أنها ابنة ملك فرنسا. فعندما تخرج إلى الشارع تشم رائحة شواط الحرق من كل ما حولها، وتشمخ بأنفها كما لو أن كل من تراه أو تلتقي به يعبق بأنتن الروائح. ولنترك الآن جانباً عاداتها المزعجة الأخرى، ولنكتف بما حدث في أحد الأيام، حين رجعت إلى البيت، وكان عمها فريسكو هناك، فجلست قبالته وهي تزفر باستياء، وعندما سألها فريسكو عن السبب قائلاً:

ـ ما الذي حدث يا شيسكا، فاليوم عيد وأنت ترجعين إلى البيت بهذه السرعة؟..

فردت عليه:

ـ لقد عدت مبكرة حقاً، لأني لا أظن أن رجال هذه المدينة ونساءها كانوا أكثر إزعاجاً مما هم عليه اليوم، وليس هناك أحد في الشارع إلا ويسبب لي الضيق والتشاؤم؛ ولا أظن أن هناك امرأة في الدنيا تضايقها رؤية الناس المزعجين مثلما تضايقني. وكي لا أرى أولئك الناس، رجعت إلى البيت بهذه السرعة.

كان فريسكو يتضايق أشد الضيق من أساليب ابنة أخيه هذه، فقال لها:

ـ بنيتي، إذا كنت تريدين ألا يضايقك المزعجون كما تقولين، وإذا أردتِ العيش بسعادة، فلا تنظري في المرآة أبداً.

ولكنها كانت جوفاء أكثر من قصبة، مع أنها تظن نفسها أذكى وأحكم من سليمان، فلم تفهم مغزى كلمات عمها؛ وأجابت بأنها تحب النظر في المرآة مثل الأخريات.

وظلت على غبائها وجهلها، ومازالت عليهما إلى الآن.

القصة التاسعة

غيدو كافالكانتي يسخر بكلمات لبقة وذكية من بعض السادة الفلورنسيين الذين بادروه بالسخرية.

حين رأت الملكة أن إيميليا قد انتهت من قصتها، ولم يبق أحد سواها، باستثناء ذاك الذي يتمتع بامتياز أن يكون الأخير، بدأت بالقول:

ـ مع أنكم انتزعتم مني، يا صديقاتي اللطيفات، قصتين كنت أفكر في أن أقص إحداهما عليكن، إلا أنه بقيت لدي واحدة تتضمن حدة ذكاء وحكمة لا نظير لهما.

لا بد أنكن تعرفن أنه كان في مدينتنا، في أزمنة مضت، كثير من العادات الجميلة والحميدة، لم يبق منها اليوم شيء بسبب البخل الذي تعاظمت به الثروات، وقضى على كل شيء. وكان بين تلك العادات التي درج عليها الناس، أن يجتمع نبلاء الأحياء في أماكن عديدة من فلورنسا، في كل جماعة عدد معين منهم، يتفقون في ما بينهم على تحمل النفقات والتكاليف، أحدهم اليوم، والآخر غداً، وهكذا دواليك، ويدعون الجماعة كلها للطعام. وقد اعتادوا على دعوة النبلاء الغرباء إلى هذه الولائم، عندما يكون بعضهم في المدينة، كما يدعون إليها مواطنين آخرين. وكانوا يرتدون كذلك ملابس متشابهة، مرة في السنة على الأقل، ويتجولون معاً في المدينة على صهوات جيادهم في أيام الأعياد. ويقيمون في أحيان أخرى مبارزات بالرماح، لاسيما في الأعياد الكبرى، أو عند الاحتفال بانتصار أو بأخبار طيبة أخرى تصل إلى المدينة.

وكان يتميز بين أولئك النبلاء، السيد بيتو برونيليشي الذي حاول أن يجتذب إلى صحبته السيد غيدو كافالكانتي، ابن السيد كافالكانتي من أسرة الكافالكانتيين. يدفعه إلى ذلك أن غيدو هو أحد أبرز المفكرين وكبار الفلاسفة في عصره، فضلاً عن عاداته النبيلة. وكان يملك فوق ذلك أملاكاً وثروات كبيرة، ويعجز اللسان عن وصف

كرمه. غير أن السيد بيتو لم يستطع اجتذابه إليه قط، وكان يعتقد هو ورفاقه أن السبب في ذلك هو أن غيدو يقضي النهار في تأملاته، فينشغل عن الناس في أمور أخرى؛ وأنه يشاطر الابيقوريين أفكارهم، فقد كان الناس يقولون إنه يفكر في طريقة لإثبات عدم وجود الرب.

وحدث في أحد الأيام أن غيدو خرج من بوابة سان ميكيل، مروراً بأديماري حتى سان جيوفاني، فوصل إلى بعض مدافن الرخام الضخمة الموجودة في سانتا ريباراتا وغيرها من الأماكن المحيطة بسان جيوفاني. وبينما هو هناك بين أعمدة الرخام والمدافن عند بوابة سان جيوفاني التي كانت مغلقة، وصل السيد بيتو مع أصحابه على الخيول، وحين رأى غيدو بين القبور، قال:

ـ تعالوا نسخر منه مازحين.

وهمزوا خيولهم مندفعين نحوه قبل أن يتمكن من الانتباه إليهم، وراحوا يقولون:

ـ أنت ترفض يا غيدو المشاركة في اجتماعاتنا، ولكن أخبرنا، ما الذي ستفعله عندما تكتشف عدم وجود الرب؟..

فسارع غيدو إلى القول وهو يرى نفسه محاطاً بهم:

ـ أنتم في بيوتكم أيها السادة، ويمكن لكم أن تقولوا لي ما تشاؤون.

ثم أسند يده على أحد تلك القبور، وهي قبور كبيرة جداً، وقفز بخفة ورشاقة إلى الجانب الآخر، وانصرف. فراح الجميع يتبادلون النظرات قائلين إنه شخص أحمق، وإن جوابه لا يعني شيئاً.

فالتفت السيد بيتو إليهم وقال:

ـ الحمقى هم أنتم إذا لم تفهموا مغزى ما قاله. فبلباقة وكلمات قليلة وجه إليكم أكبر إهانة في العالم. لأن هذه القبور، إذا ما تأملتم جيداً، هي بيوت الموتى. وحين قال إننا في بيوتنا، فإنه يعني أننا نحن، وجميع من هم على شاكلتنا من البعيدين عن أمثاله من رجال العلم والأدب، أسوأ من الموتى. وبوجودنا هنا، نكون في بيوتنا. عندئذ فهم الجميع ما أراد غيدو أن يقوله، وأحسوا بخجل لم يعودوا بعده إلى السخرية منه أبداً، واعتبروا

السيد بيتو متقدماً عليهم بفهمه وحدة ذكائه.

القصة العاشرة

يعد الراهب بصلة الفلاحين بأن يريهم ريشة من جناح الملاك جبرائيل، وحين يجد أن الريشة قد استُبدلت ببعض الفحم، يقول إنه الفحم الذي أُحرق فيه القديس لورنزو.

بعد أن أنهى الجميع رواية قصصهم، ولم يبق سوى ديونيو، أدرك أن دوره في القص قد حان، فلم ينتظر صدور الأمر إليه بمواصلة الكلام؛ وبدأ قصته كما يلي:

ـ سيداتي النبيلات، مع أنني أتمتع بامتياز أن أروي في الموضوع الذي يروقني، إلا أنني لا أريد الابتعاد اليوم عن الموضوع الذي تحدثتم فيه جميعكم بصورة مناسبة. ولسوف أعرض عليكم كيف استطاع راهب من أتباع القديس أنطونيو، بخاطر مفاجئ، أن يفلت من مكيدة أعدها له شابان. ويجب ألا يضايقكم أن تكون قصتي طويلة بعض الشيء، لأن الوقت لا يزال مبكراً، والشمس مازالت في السماء.

سيرتالدو، مثلما تعلمون، هي قلعة في وادي إيلزا الذي يقع في أريافنا. ومع أنها قلعة صغيرة، إلا أن أناساً نبلاء وأثرياء كانوا يقطنونها فيما مضى. وكان يذهب إلى تلك المنطقة، مرة كل سنة على الأقل، راهب من رهبان القديس أنطونيو، يدعى الأخ بصلة، ليطلب الصدقات. وقد تعاطف الأهالي هناك معه، ليس بدافع الورع، وإنما بسبب اسمه، لاسيما أن تلك المنطقة مشهورة في كل أنحاء توسكانيا بزراعة أنواع جيدة من البصل. وكان الأخ بصلة ضئيل الجسم، أحمر الشعر، ومن أشد الناس طيبة. ولم يكن لديه أي نوع من المعارف أو العلوم، ولكنه كان مع ذلك محدثاً عظيماً، حتى يخيل لمن لا يعرفه أنه ليس خطيباً مفوهاً وحسب، وإنما هو توليو[1] نفسه أو ربما كينتيليانو[2]. وكان عراباً أو

---

[1] توليو المعني هو الخطيب الروماني المشهور ماركو توليو شيشيرون Marco Tulio Ciceron.

[2] كينتيليانو: ماركو فابيو كينتيليانو Marco Fabio Quintiliano خطيب روماني آخر مشهور.

صديقاً لكل أهالي المنطقة، ومحبوباً من الجميع.

وجرياً على عادته، ذهب إلى هناك في شهر آب. وذات يوم أحد صباحاً، بينما أهل المنطقة جميعهم في القداس، بمن فيهم أهالي القرى المجاورة، قال لهم في لحظة بدت له مناسبة:

ـ أيها السادة والسيدات، لقد اعتدتم أن ترسلوا كل عام، إلى فقراء القديس أنطونيو، جزءاً من محصولكم. بعضكم يقدم القليل، وبعضكم يقدم الكثير، كل حسب إمكانياته وتقواه، كي يحفظ القديس أنطونيو جواميسكم وحميركم وأغنامكم ويحميها. وقد اعتاد المنتمون منكم إلى أخويتنا أن يقدموا، فوق ذلك، مساهمة صغيرة بمبلغ يدفعونه كل سنة. ومن أجل جمع هذه الأشياء، أرسلني رئيسي، وأعني به السيد رئيس الدير. وبمباركة الرب، بعد سماعكم قرع النواقيس، احضروا إلى فناء الكنيسة، وهناك سألقي عليكم موعظة كما هي العادة، ثم تقبّلون الصليب. ولأنني أعرف أنكم جميعكم ورعون في نظرتكم إلى القديس أنطونيو، فسوف أعرض عليكم بعد ذلك أثراً مقدساً وجميلاً، أحضرته بنفسي من أراضي ما وراء البحار، وهو ريشة من ريش الملاك جبرائيل، أفلتت منه في حجرة مريم العذراء عندما جاء لزيارتها في الناصرة وتبليغها البشارة.

أنهى قول هذه الكلمات، وواصل القداس. وكان هناك عندما قال الراهب بصلة ذلك، شابان ماكران بين رواد الكنيسة، أحدهما يدعى جيوفاني دي براغونيرا والثاني بياجيو بيزيني. وبعد أن ضحكا كثيراً من لقية الراهب بصلة، وكانا صديقين حميمين له ولمذهبه، اتفقا على خداعه والسخرية منه بشأن تلك الريشة. وكانا قد علما أن الأخ بصلة سيتناول الغداء في القلعة مع أحد أصدقائه. وعندما رأياه جالساً إلى المائدة، نزلا إلى الشارع وذهبا إلى النزل الذي يبيت فيه الراهب، واتفقا أن يشغل بياجيو خادم الراهب بصلة بالحديث، بينما يبحث جيوفاني بين أشياء الراهب عن تلك الريشة ويأخذها ليريا ما الذي سيقوله الأخ بصلة للشعب في هذا الشأن.

كان لدى الأخ بصلة خادم يسميه البعض غوشيو بالينا، ويسميه آخرون غوشيو إمبراتا، وغيرهم يدعونه غوشيو بوركو. وكان المذكور شديد القبح والفظاظة، لا يمكن

حتى لليبو توبو[1] أن يرسم مثيلاً له. وكان من عادة الأخ بصلة أن يسخر منه وهو بين أصدقائه بالقول:

ـ لدى خادمي تسع صفات لو وجدت واحدة منها عند سليمان أو أسطوطاليس أو سينكا لأمكن لها إفساد كل فكره وفضائله وقداسته. فتصوروا أي رجل سيكون هذا الذي لديه تسع صفات ليس بينها أي قدر من الفكر أو الفضيلة أو القداسة.

ويسأله سامعوه أحياناً عن تلك الصفات التسع، فيقول لهم وقد نظمها شعراً:

ـ سأخبركم بها، فهو كسول، قذر، كذوب/ متقاعس، عاص، سفيه/ مهمل، زير نساء، وبلا حياء؛ دون ذكر عيوب أخرى صغيرة، يفضل السكوت عنها. وما هو مضحك أكثر في شؤونه، أنه يريد، في كل مكان يحل فيه، أن تكون له امرأة، وأن يستأجر بيتاً. ولأن لحيته طويلة وسوداء ومزيتة، يظن أنه بالغ الوسامة واللطف، تهيم به حباً كل امرأة تراه؛ وأنه إذا ما هجرها ستتبعه مقتفية آثاره إلى أن يهترئ نعلها. ولكنه يفيدني كثيراً في الحقيقة، فليس هناك من يأتي ليخبرني بسر، إلا ويريد سماعه معي؛ وإذا حدث وسألني أحدهم عن أمر ما، فإنه يسارع إلى الرد بنفسه قبل أن أجيب، خوفاً عليّ من ألا أعرف الجواب.

هذا الشخص هو الذي تركه الأخ بصلة في النزل بعد أن أمره بأن يفتح عينيه جيداً وألا يسمح لأحد بلمس أمتعته، ولاسيما أخراجه التي تضم الأشياء المقدسة. غير أن غوشيو إمبراتو كان يحب البقاء في المطبخ أكثر من حب البلبل للبقاء على الأغصان الخضراء، وخاصة إذا ما شم رائحة خادمة هناك. وكان قد رأى واحدة شحمية، بدينة وقصيرة، لها ثديان كأنهما جرابا براز، ووجه كأنه من وجوه آل بارونشي، تنضح بالعرق والوساخة والروائح. فاندفع نحوها مثلما يندفع نسر الرخمة نحو الجيفة، مغادراً حجرة الراهب بصلة، ومتخلياً عن حراسة أمتعته.

ومع أن الوقت كان شهر آب، فقد جلس في المطبخ إلى جانب النار، وبدأ يتحدث إلى تلك المرأة المدعوة نوتا؛ يقول لها إنه نبيل بالإنابة، وإنه ثري لديه أكثر من ألف مئة عشر فلورين، دون حساب تلك التي عليه أن يقدمها إلى الآخرين، وهي مثل ذلك المبلغ أو تزيد،

---

[1] ليبو توبو Lippo Topo : رسام ضئيل الموهبة، من معاصري بوكاشيو.

وإنه قادر على قول أشياء بليغة لم يستطع السيد قول مثلها. ودون أن يلتفت إلى قلنسوتها التي عليها من الدهون ما يكفي لتتبيل حلة ألتوباسشيو، وإلى ثوبها الممزق والمرقع، وإلى ما حول رقبتها وتحت إبطيها من ملاط الوساخة ذات البقع والألوان التي لم تعرف مثلها حمامات التتار أو الهنود، وإلى نعلها الممزق وجوربيها المفتقين، قال لها، كما لو أنه سيد شاتيليان الإقطاعي، إنه سيقدم لها الملابس وينظفها ويهذبها ويخلصها من عبودية العمل في بيوت الآخرين. ويقول أشياء أخرى كثيرة لا تلبث أن تتحول إلى هباء، بالرغم من شدة تأثيرها، ولا توصله إلى أي شيء، مثلما يحدث له في معظم مغامراته.

وهكذا وجد الشابان الخادم كوشيو بوركو مشغولاً مع نوتا، فأسعدهما ذلك، لأنه وفر عليهما نصف المشقة، ولم يعد هناك ما يحول بينهما وبين حجرة الأخ بصلة التي وجداها مفتوحة، فدخلاها. وكان أول ما تناولاه للبحث فيه هو الخرج الذي يحتوي الريشة. وحين فتحاه، وجدا فيه علبة كبيرة ملفوفة بقماش حريري ناعم، فيها صندوق صغير يضم ريشة من ذيل ببغاء؛ رأيا أنها الريشة التي وعد الناس بعرضها عليهم. والحقيقة إنه كان قادراً على إقناع العوام بسهولة في ذلك الزمن، لأن مظاهر بذخ المصريين لم تكن قد وصلت إلى توسكانيا إلا بكميات ضئيلة، وليس مثلما جاءت فيما بعد بوفرة كبيرة، مع انهيار إيطاليا. وإذا كانت معرفة هذه الأشياء محدودة جداً في تلك الأنحاء، فقد كانت مجهولة تماماً لدى أولئك السكان الذين لم يروا ببغاء من قبل، بل إن معظمهم لم يسمعوا باسمه قط.

ابتهج الشابان لعثورهما على الريشة، فاستوليا عليها؛ وكي لا يتركا الصندوق فارغاً، فقد ملآه بفحم وجدا كومة منه في أحد الأركان، ثم أغلقاه وأعادا كل شيء مثلما كان. ودون أن يراهما أحد، مضيا سعيدين بالريشة، وراحا ينتظران ما الذي سيفعله الأخ بصلة عندما يجد فحماً بدل الريشة.

أما رجال القرية ونساؤها البسطاء الذين سمعوا في الكنيسة أنهم سيرون، بعد العصر، ريشة من رياش الملاك جبرائيل، فقد رجعوا إلى بيوتهم بعد القداس، وأخبروا جيرانهم بذلك. وهكذا توافدت إلى القلعة بعد الغداء أعداد كبيرة من الرجال والنساء حتى لم يعد المكان يتسع، وراحوا ينتظرون بلهفة رؤية تلك الريشة.

بعد أن تناول الأخ بصلة غداء جيداً، ونام قيلولة قصيرة، نهض بعيد العصر وتبين له أن

حشداً كبيراً من الفلاحين قد حضر لرؤية الريشة؛ فأرسل إلى كوشيو إمبراتا بأن يصعد عند سماعه قرع الأجراس ويأتيه بإخراج أمتعته. وقد انتزع المذكور نفسه بمشقة من المطبخ ومن حديثه مع نوتا، ومضى بخطى متثاقلة حاملاً ما طُلب منه. ووصل إلى هناك مقطوع الأنفاس، لأن ما شربه من الماء نفخ جسمه كثيراً. وبأمر من الأخ بصلة، ذهب إلى تحت باب الكنيسة، وبدأ يقرع الأجراس بقوة. وبعد أن اجتمعت القرية كلها، بدأ الأخ بصلة موعظة حول ما ينوي عمله، فقال كلاماً كثيراً. وعندما حانت لحظة عرض ريشة الملاك جبرائيل، أمر بإشعال شمعتين، وراح يفك قطعة القماش الحريرية؛ وكان قد خلع قبل ذلك قلنسوته، ثم أخرج الصندوق، ورتل أولاً بضع عبارات مديح وتعظيم للملاك جبرائيل وريشته، وفتح الصندوق. وعندما وجده مملوءاً بالفحم، لم يخامره الشك لحظة واحدة في أن يكون الفاعل هو خادمه غوشيو بالينا، لأنه يعرف أنه لا يمكن له أن يصل إلى ذلك الحد. ولم يشتمه كذلك لإهماله في الحيلولة دون أن يقدم آخر على عمل ذلك؛ وإنما لعن نفسه لأنه عهد إليه بحراسة أمتعته وهو يعلم أنه متقاعس، وغير مطيع، ومهمل، وزير نساء. لكنه رفع وجهه ويديه مع ذلك نحو السماء، دون أن يتغير لونه، وقال بصوت يمكن للجميع سماعه:

- رباه! فلتتبارك قدرتك إلى الأبد!

ثم أعاد إغلاق الصندوق والتفت إلى الناس، وقال:

- أيها السيدات والسادة، عندما كنت شاباً، أرسلني رئيسي إلى البلاد التي تشرق منها الشمس، وكلفني بمهمة محددة هي البحث عن مسوح القديس فيليبو في فيرنزي، ومع أن تلك المسوح هي نوع من صكوك الغفران المجانية التي لا تكلف شيئاً، إلا أنها ذات فائدة للآخرين أكثر من فائدتها لنا. وهكذا بدأتُ الرحلة منطلقاً من فينجيا متوجهاً إلى بورغو اليونانيين، وواصلت من هناك ممتطياً ركوبتي عبر مملكة غاربو وعبر بالداكا، ووصلت إلى باريوني، بكثير من الظمأ. وبعد بعض الوقت وصلت إلى سردينيا. ولكن، لماذا عليّ ذكر كل البلدان التي قطعتها؟.. فقد اجتزت مضيق القديس جوجيو، وبلغت إستافيا ثم بيفيا، وهما بلدان كثيفا السكان وفيهما خلق كثير. وانتقلت من هناك إلى بلاد الكذب، حيث وجدت الكثير من كهنة مذهبنا وأديان أخرى، وجميعهم يتفادون تكدير أنفسهم حباً بالرب. وانتقلت بعد ذلك إلى بلاد الأبروسيين، حيث الرجال والنساء يمضون

في الجبال منتعلين القباقيب، وبعدهم بقليل وجدت أناساً يضعون الخبز في الدنان والنبيذ في أكياس. وانتقلت من هناك إلى جبال الباسكيين، حيث الأمواه كلها تسيل إلى أسفل. وباختصار، لقد سرت كثيراً إلى أن بلغت بلاد الهند الباستينكية. وأقسم لكم بثوب الكهنوت الذي أرتدي، أنني رأيت ذوات الريش تطير، وهو أمر لا يصدقه من لم يره: ولكن ماسو دي ساجيو سيؤكد على كلامي، وقد وجدته هناك تاجراً كبيراً يقشر الجوز ويبيع القشور بالمفرق. ولكنني لم أجد ما كنت أبحث عنه، ولم يكن فيما وراء ذلك كله سوى البحر؛ فقفلت راجعاً، ووصلت الأرض المقدسة، حيث يكلفكم الخبز البارد في الصيف أربع قطع نقدية، بينما لا يكلف الحساء شيئاً. وهناك التقيت بالأب الموقر السيد «لا- تلعنني - إن - كان - يرضيك»، وهو بطريرك أورشليم بالغ التبجيل؛ وتقديراً منه لمسوح القديس أنطونيو التي أرتديها، أراد أن يريني كل الآثار المقدسة التي لديه. وقد كانت كثيرة جداً، فإذا أردتم أن أصفها لكم كلها فلن أنتهي من هذا الأمر؛ ولكنني لا أريد أن أخيب أملكم، وسوف أحدثكم مع ذلك عن بعضها. لقد عرض عليّ أولاً إصبعاً كاملاً وسليماً من أصابع الروح القدس، وناصية شعر الروح الملائكية التي ظهرت للقديس فرانشيسكو، وظفراً من أظفار ملاك الكروبين، وأحد أضلاع الأقنوم الثاني من الثالوث، ورداء الإيمان الكاثوليكي المقدس، وبعض أشعة النجم الذي ظهر للملوك المجوس الثلاثة، وقارورة مملوءة بعرق القديس ميكائيل الذي سال منه وهو يقارع الشيطان، وفك منية القديس لازرو وأشياء أخرى. ولأنني سلمت إليه مختاراً نسخة من صحيفة كلمات مونتي موريللو بالعامية وبعض فصول كابريزيو التي كان قد بحث عنها طويلاً، فقد أراني لقاه الأثرية المقدسة، ووهبني أحد أسنان الصليب المقدس، وقارورة فيها شيء من أصوات نواقيس هيكل سليمان، وريشة الملاك جبرائيل التي حدثتكم عنها، وأحد قباقيب القديس جيراردو دي بيللاماغنا. وقد قدمت هذا القبقاب منذ وقت قريب، في فلورنسا، إلى جيراردو دي بونسي، فأهدى إلي بالمقابل الفحم الذي أُحرق فيه شهيد الكنيسة الطوباوي القديس لورنزو. وقد أحضرت معي هذه الأشياء كلها، وأنا أحتفظ بها بكل ورع.

والحقيقة إن رئيسي لم يسمح لي قط بأن أعرض هذه الأشياء قبل التثبت من أنها حقيقية. ولكن بعد أن جرى التأكد الآن من صحتها بعدد من المعجزات التي تحققت بفضلها، ومن خلال الرسائل التي تلقيناها من البطريرك، منحني رئيسي الإذن بعرضها

عليكم؛ وأنا أحملها معي على الدوام، لأنني أخشى أن أعهد بها إلى أحد. والحقيقة إنني أحفظ ريشة الملاك جبرائيل، كي لا تتلف، في صندوق، وأحفظ الفحم الذي أُحرق به القديس لورنزو في صندوق آخر، ولأن كلاً من الصندوقين يشبه الآخر تماماً، فإنني أتناول أحد الصندوقين بدل الآخر في أحيان كثيرة، وهو ما حدث لي الآن. فاعتقاداً مني بأني قد أحضرت الصندوق الذي فيه الريشة، أجد أنني أحضرت الصندوق الذي فيه الفحم. ولست أرى في هذا الأمر خطأ، وإنما يبدو لي أن مشيئة الرب هي التي وضعت صندوق الفحم في يدي، لاسيما أن عيد القديس لورنزو سيحل بعد أيام قليلة، وقد أراد الرب أن أريكم الفحم الذي أُحرق فيه القديس، لأؤجج التقوى نحوه في أرواحكم؛ فجعلني أتناول الفحم المبارك المضمخ بعبق ذلك الجسد المقدس بدلاً من الريشة. ولهذا يا أبنائي المؤمنين، انزعوا الآن قلنسواتكم، وتقدموا إليّ بكل ورع لتروا هذا الفحم. ولكنني أريد أن أؤكد لكم أولاً أن كل من تُرسم عليه إشارة الصليب بهذا الفحم، يمكنه طوال السنة أن يلمس النار دون أن تحرقه.

بعد أن أنهى كلامه، بدأ يرتل مديحاً للقديس لورنزو وهو يفتح الصندوق، وعرض الفحم على الحشد الأبله الذي راح ينظر بتوقير وإعجاب. ثم تقدم الجميع بجلبة من الراهب بصلة وكل منهم يقدم له من الصدقات أكثر مما اعتادوا عليه، ويتوسلون إلى الأخ أن يباركهم بذلك الفحم. وعندما رأى الأخ بصلة كمية الهبات الكبيرة المقدمة، راح يرسم بالفحم إشارة الصليب على طرحات النساء البيضاء وعلى ثياب الرجال، وهو يقول لهم إن قطع الفحم المستهلكة في رسم الصلبان ستعود تامة مثلما كانت عند إغلاق الصندوق، وإنه جرب ذلك مرات عديدة. وكان الشابان اللذان أرادا السخرية منه حاضرين، فضحكا من ذلك كثيراً. وبعد انصراف الناس أخبراه بما فعلاه، وأعادا إليه الريشة؛ فكانت فائدته منها في السنة التالية لا تقل عن استفادته من الفحم.

••

أعجبت القصة الجميع، فضحكوا كثيراً من الأخ بصلة، لاسيما من رحلة الحج التي قام بها ومن الآثار المقدسة التي رآها والتي أحضرها معه. وعندما انتهى كل ذلك، نهضت الملكة وقد أدركت أن فترة حكمها قد انتهت، فرفعت إكليل الغار عن رأسها، ووضعته وهي تضحك على رأس دينونيو، وقالت:

ـ لقد حان الوقت يا دينونيو لتعرف ثقل مسؤولية قيادة وحكم النساء، فلتكن ملكاً إذن، ولتحكم بحكمة نمتدحك عليها في النهاية.

تلقى دينونيو الإكليل، وأجابها قائلاً:

ـ لا بد أنكنَّ رأيتن مرات كثيرة ملوك شطرنج أكثر جدية مني، والحقيقة إنكن إذا ما أطعتموني مثلما يطاع ملك حقيقي، فإنني سأمتعكن بما لا يمكن لحفلة أن تكون سعيدة من دونه. ولكن لندع هذه الكلمات، وسوف أحكمكم بأفضل ما أستطيع.

وطلب من القهرمان أن يأتي، كما هي العادة، وكلفه بما عليه عمله خلال فترة حكمه، ثم قال:

ـ سيداتي الغاليات، لقد جرى الحديث هنا في مواضيع كثيرة عن الذكاء البشري وعن أحداث متعددة، ولو لم تأت ليسيكا قبل قليل (وقد أوحت لي كلماتها بموضوع قصص الغد) لكنت احتجت إلى وقت طويل لأجد الموضوع الذي سنتكلم فيه. فقد قالت، مثلما سمعتن، إنه ليس لديها جارة ذهبت عذراء إلى زوجها، وأضافت إنها تعرف جيداً مكائد المتزوجات وخداعهن لأزواجهن. ولكنني سأضرب صفحاً عن الشطر الأول، لأنه أمر صبياني، وأرى أنه سيكون من الممتع الحديث عن الشطر الثاني. ولهذا أريد أن يكون موضوع حديثنا في الغد هو حيل النساء بدافع الحب أو من أجل النجاة من أزواجهن، سواء أعرف الأزواج ذلك أم لم يعرفوه.

وقد بدا لبعض السيدات أن الحديث في هذا الموضوع غير لائق، ورجونه أن يبدل اقتراحه إلى موضوع آخر؛ فأجابهن الملك:

ـ سيداتي، أعرف ما أمرتُ به خيراً منكن، ولا يمكن لكنّ أن تبدلن رأيي مهما عرضتن من حجج، فكل حديث مباح في هذا الزمن الذي يقول فيه الرجال والنساء، ويفعلون أشياء مخلة بالشرف. ألا تعلمن أن القضاة، في خبث هذه الأزمنة، قد هجروا المحاكم؛ وأن الشرائع الإلهية والإنسانية قد صمتت كلها، وصار لكل امرئ الحق المطلق في الحديث عن مختلف شؤون الحياة؟.. فإذا ما ورد في كلامنا ما يخدش الحياء، فليس في ذلك ما يعني إتباع الكلام بالممارسة، وإنما رواية القصص لمتعة الآخرين ومتعتنا، ولستُ أرى في هذا ما يستدعي لومكن فيما بعد. ثم إن اجتماعنا هنا كان شريفاً منذ

اللحظة الأولى حتى الآن، ولا أظن أنه يمكن لأي قول، بعون الله، أن يلطخه أو ينال منه. وفضلاً عن هذا كله: من الذي يجهل عفتكن وشرفكن؟.. ولست أظن أنه يمكن للأحاديث المسلية والممتعة أن تنال من سمعتكن. والحقيقة إنه إذا كان هناك من سيعرف أنكن رفضتن التحدث في هذه الأمور يوماً، فسوف يظن أنكن أقدمتن على ارتكاب مثل تلك الأفعال، ولا ترغبن في التحدث عنها. كل هذا دون ذكر رغبتكن في تكريمي بتتويجي ملكاً، وقبولي ذلك منكن، ثم تأتين الآن لتفرضن عليّ قانونكن، بدل الانصياع لأوامري. ولنتقبل أخيراً هذا الموضوع، مع تمنياتي لكل واحدة منكن بأن يحالفها الحظ في التفكير في قصة جيدة.

عندما سمعت النساء كلامه، لم يجدن مفراً من القبول بقراره. وعندئذ منح الملك الجميع إذناً ليفعلوا ما يحلو لهم، حتى موعد العشاء. وكانت الشمس لا تزال مرتفعة، لأن قصص اليوم كانت قصيرة ومقتضبة؛ فعكف ديونيو والشابان الآخران على لعب الدامة. واستدعت إليسا السيدات جانباً، وقالت لهن:

ـ لقد رغبتُ، منذ مجيئنا، في أخذكن إلى مكان قريب من هنا، لا أظن أن أياً منكن قد ذهبت إليه من قبل، ويدعى وادي السيدات. لكنني لم أجد حتى الآن الوقت المناسب لأخذكن إليه. وبما أن الشمس لا تزال مرتفعة، فلنذهب هناك إذا رغبتن. ولا شك في أن المكان سيروقكن، وستبتهجن بالذهاب إليه.

أبدت السيدات موافقتهن واستعدادهن للذهاب، فاستدعين خادماتهن دون أن يخبرن الشبان بأي شيء، وانطلقن في الطريق. ولم يسرن أكثر من ميل واحد، حتى بلغن وادي السيدات؛ فتوغلن هناك عبر درب ضيق، يحاذي أحد جانبيه جدول رقراق. وقد بدا المكان لهن بديعاً، لاسيما في ذلك الوقت الذي كانت فيه حرارة الجو تفوق كل تصور. وحسبما أخبرتني به إحداهن فيما بعد، كان الجزء المنبسط في قعر الوادي دائرياً، كما لو أنه رُسم بالفرجار، لكنه من صنع الطبيعة وليس من صنع يد البشر. ويزيد قطر تلك الدائرة قليلاً على نصف ميل، وتحيط بالمكان ستة جبال ليست شديدة الارتفاع. وفوق كل جبل منها يظهر بناء له شكل قلعة بديعة.

وكانت سفوح تلك الجبال تنحدر نحو الرقعة المنبسطة متدرجة، مثلما نرى في المسارح، فالمدرجات تتوالى من القمة حتى بطن الوادي بانتظام، وتضيق دوائرها كلما

ازداد انخفاضها. وكانت السفوح المتجهة إلى الجنوب مزروعة بالكروم والزيتون واللوز والكرز والتين وغيرها من الأشجار المثمرة. أما المتجهة نحو الدب الأكبر فتملؤها غابات السنديان والدردار، وغيرها من الأشجار شديدة الخضرة والسامقة. أما البقعة السفلية المنبسطة، فليس لها من مدخل سوى ذلك الدرب الضيق الذي جاءت منه السيدات، وفيها أشجار سرو وغار وتنوب، وبعض أشجار الصنوبر الموزعة بانتظام بديع، حتى كأن يد أفضل بستاني هي التي زرعتها. ولا يصل إليها إلا قليل من أشعة الشمس. أما الأرض فيغطيها عشب قصير، تتخلله أزهار من كل الأنواع والألوان. وكان هناك فوق ذلك غدير بديع، ينحدر ماؤه من بين جبلين من تلك الجبال، وينساب على الصخور؛ فيحدث خريراً عذباً يمتع الآذان، ويتطاير رذاذه كأنه الفضة. وعندما يصل إلى الأرض المنبسطة الضيقة في الأسفل، يجري في جدول باندفاع حتى منتصفها، ليشكل هناك بحيرة صغيرة مثل تلك التي يقيمها بعض سكان المدن المقتدرين في حدائق بيوتهم.

ولم يكن عمق تلك البحيرة يصل إلى أكثر من صدر الرجل تقريباً، لكن صفاء مائها يُظهر قاعها الذي تغطيه حجارة صغيرة ملساء، يمكن لمن ليس لديه عمل يعمله أن يعدّها واحدة فواحدة إذا أراد. ولم يكن يظهر للناظر قاع البحيرة فقط، وإنما كذلك كثير من الأسماك التي تسبح بانسياب في كل أنحائها. ولم تكن البحيرة مغلقة من الجانب الآخر، وإنما ينساب الماء الفائض فوق العشب ليجتمع في قناة أخرى، ويسيل من ذلك الوادي الصغير إلى أماكن أكثر انخفاضاً.

بعد أن وصلت النساء إلى الوادي، تجولن في أنحائه، وأطرين كثيراً على جماله. ولشدة الحر، ورؤيتهن البحيرة الصغيرة أمامهن، ودون أي خوف من أن يراهن أحد؛ قررن الاستحمام هناك. فأرسلن خادمة لتحرس الدرب الذي جئن منه، وتخبرهن إذا ما جاء أحد. ثم تعرت السيدات السبع، ونزلن إلى الماء الذي لم يخف أجسادهن أكثر مما يمكن لزجاج وردي شفاف أن يخفيها.

وبينما هنّ في البحيرة، دون أن يحدث أي تعكر في مائها، رحن يتنقلن في جنباتها وراء الأسماك، بغية إمساكها بأيديهن. وقد استطعن الإمساك ببعضها على سبيل التسلية. وبعد قضاء بعض الوقت على تلك الحال، خرجن من البحيرة، وارتدين ملابسهن وهن مفتونات بجمال المكان. ثم رأين أن الوقت قد حان للرجوع إلى البيت، فسرن بخطوات

متمهلة، يتحدثن عن روعة ذلك المكان. وعند وصولهن إلى البيت، وجدن الشبان يلعبون حيث تركوهن، فقالت لهم بامبينيا ضاحكة:

- لقد استطعنا خداعكم اليوم.

فقال دينونيو:

- كيف؟.. هل بدأتن بممارسة خدع النساء قبل حكاية القصص عنها؟..

وقالت بامبينيا:

- أجل يا سيدي.

وأخبرتهن بالتفصيل من أين هنّ قادمات، وكيف هو المكان، وكم يبعد عنهم، وما فعلنه هناك.

عندما سمع الملك وصفهن لجمال ذلك المكان، أحس بالرغبة في رؤيته، فأمر بالإسراع في إعداد العشاء. وبعد الانتهاء من تناوله ببهجة وانشراح، انطلق الرجال الثلاثة مع خدمهم، مخلفين النساء هناك. فبلغوا الوادي، وأعجبوا بجماله مقدرين أنه لا وجود في الدنيا لما هو أجمل منه، لاسيما أن أياً منهم لم يكن قد جاءه من قبل. وبعد أن استحموا وارتدوا ثيابهم، قفلوا راجعين لأن الوقت قد تأخر؛ فوجدوا النساء يرقصن على لحن تغنيه فياميتا. وبعد انتهاء الرقصة، دخلوا معاً في حديث عن وادي السيدات، فامتدحوا جماله وروعته. عندئذ استدعى الملك القهرمان، وأمره بأن يعدّ كل شيء في اليوم التالي للذهاب إلى الوادي، وأن يأخذ أيضاً بعض الأسرة، فلعل أحدهم يرغب في نوم القيلولة هناك. ثم طلب إحضار أضواء ونبيذ وحلوى لبعث بعض النشاط والحيوية في الجماعة. وأمر الجميع بالرقص، فبدأ بانفيلو رقصة اختارها بنفسه. والتفت الملك عندئذ إلى إليسا، وقال لها بلطف:

- لقد كرمتني اليوم، أيتها الشابة الفاتنة، بتتويجي بإكليل الغار، وأريد أن أكرمك الآن بأن تكوني أول المغنين، فاختاري الأغنية التي تروقك.

فأجابت إليسا وهي تبتسم بأنها ستفعل ذلك بكل سرور، وبدأت الغناء بصوتها العذب الرقيق:

إذا ما أفلتُ يوما ، أيها الحب ، من شباكك ،
فلا أظن أنني
سأقع ثانية في حبائلك.
كنت لا أزال صغيرة حين سقطتُ بين براثنك
متخيلة أنها السلام والعذوبة الخالصان ،
ألقيت كل أسلحتي جانباً ،
مثل من يثق بصادق أمين.
لكنك كصقر جارح، أيها الطاغية غير الوفي،
انقضضت عليّ بسلاحك، ومخالبك الضارية.
ومقيدة بأغلالك،
إلى من ولد ليكون جلادي،
قدمتني طريدة، لأعاني البكاء المرير والأحزان
في زنازينه.
لكن تسلطه صلب وقاس،
لا تحرك قلبه دموعي وزفراتي.

توسلاتي كلها تذهب أدراج الرياح،
فليس هناك من يسمعني أو يصغي إليّ،
وإذا ما ازداد عذابي في كل ساعة،
أعيش غمي، ولا أجد طريقة للموت.
آه، ارحم آلامي يا سيدي
وافعل أنت ما لم أستطعه ،
اجعله يأتي إليّ
مقيداً بأغلالك.

بعد أن تنهدت بأسى عميق، أنهت إليسا أغنيتها. وبالرغم من أن الجميع أعجبوا بغنائها ، إلا أن أياً منهم لم يعرف من هو المقصود بهذه الأغنية. لكن الملك الذي كان رائق المزاج، استدعى تيندارو وطلب منه أن يأتي بمزمار القرية ، وجعلهم يرقصون على أنغامه

رقصات عديدة؛ وبعد أن انقضى شطر طويل من الليل، طلب من الجميع الذهاب إلى النوم والراحة.

وهنا ينتهي اليوم السادس



اليوم السابع

ينتهي اليوم السادس من الديكاميرون ويبدأ اليوم السابع، وفيه تدور القصص، تحت حكم ديونيو، عن خدع لجأت إليها النساء من أجل الحب أو للتخلص من ازواجهن، سواء انتبه إليهن أولئك أم لم ينتبهوا.

كانت النجوم كلها قد هربت من جهة الشرق، باستثناء تلك المسماة نجمة الصبح التي مازالت تلمع في أفق الفجر المائل إلى البياض، عندما نهض القهرمان؛ ومضى بأمتعة كثيرة إلى وادي السيدات كي يعدّ هناك كل ما يلزم، حسب الأمر الذي تلقاه من سيده. وما كاد يرحل حتى نهض الملك الذي أيقظته جلبة الحمالين والبهائم، فأيقظ السيدات والشابين. وقبل أن تطل أول أشعة الشمس، انطلق الجميع في المسير. لم يكن أي منهم قد أحس من قبل بأن البلابل والطيور الأخرى تغرد بسعادة أكبر من تغريدها في ذلك الصباح؛ وبرفقة ذلك التغريد ذهبوا إلى وادي السيدات، حيث استقبلهم مزيد من التغريد، بدا لهم أنه احتفاء بوصولهم. وقاموا بجولة هناك، متأملين المشهد الذي بدا لهم أجمل مما كان عليه في اليوم السابق، ربما لأن الوقت أكثر ملاءمة.

وبعد أن تناولوا فطوراً من حلوى وأنبذة فاخرة، وكي لا يسمحوا للطيور بأن تتفوق عليهم، بدؤوا الغناء؛ وكان الوادي يردد أصداء غنائهم وأصداء تغريد الطيور، مضيفاً إليها ألحاناً بديعة. وعندما حان موعد الغداء، وضعت الموائد، مثلما أمر الملك، تحت أشجار الغار وغيرها من الأشجار الخضراء، بجوار البحيرة الجميلة. وجلسوا على مقاعد عريضة ليأكلوا وينظروا إلى الأسماك تسبح في البحيرة. وكانت تلك الأسماك، وجمال المشهد، هي موضوع أحاديثهم خلال تناول الطعام. وبعد الانتهاء من الغداء، رُفعت الموائد،

وكانوا أشد سعادة من السابق؛ فراحوا يغنون ويعزفون على آلاتهم الموسيقية ويرقصون. ثم وضعت بعد ذلك فرش في أماكن متفرقة من الوادي الصغير (وقد عمل القهرمان الحصيف على إحاطتها جميعها بحرائر فرنسية وستائر محكمة)، وبإذن من الملك، ذهب للنوم من هو راغب في النوم، ومن لم يشأ النوم استطاع اللهو مع الآخرين بالتسالي المعهودة. وعندما حان وقت استيقاظ الجميع، وموعد اجتماعهم لرواية القصص، فرشوا سجاجيد على العشب، قريباً من المكان الذي تناولوا الغداء فيه، وجلسوا هناك على مقربة من البحيرة. وأمر الملك إيميليا بأن تبدأ القص، فبدأت الكلام وهي تبتسم، وقالت:

القصة الأولى

يسمع جياني لوتيريني طرقاً على باب بيته في الليل؛ فينبه زوجته، وتقنعه بأن هناك شبحاً. فيعملان على طرده بصلاة، فيتوقف الطرق على الباب.

ـ كنت أحبذ يا مولاي لو أن أحداً غيري بدأ الحديث في هذا الموضوع الشائق الذي سنخوض فيه اليوم. ولكن، بما أنك أردتني أن أكون من تمنح الآخرين الشجاعة، فسوف أفعل بكل سعادة. ولسوف أحاول، يا صديقاتي العزيزات، أن أروي شيئاً يعود عليكن بالفائدة، إذا ما كنتن مثلي في الخوف من الأشباح التي يعلم الله أنني لا أعرف حقيقتها، ولم ألتق حتى اليوم بأحد يعرفها، ولأننا جميعنا نخافها، ونريد إبعادها عندما تأتي إلينا، فسوف تتعلمن دعاء مفيداً للتخلص منها ودفعها إلى الهرب.

كان هناك في فلورنسا، في حي سان برانكاسيو، بائع غزول صوف يدعى جياني لوتيريني، رجل ضليع في عمله، لكنه لا يفقه شيئاً فيما ما عدا ذلك من الأمور. ولشدة بساطته عينوه مرتلاً أول في كورال كنيسة سانتا ماريا الجديدة. وكان هذا المنصب يفرض عليه تقديم بعض الصدقات والهبات للرهبان، فيهدي إلى أحدهم سروالاً داخلياً، ولآخر عباءة، ولغيره كتفية؛ فكانوا يشكرونه على ذلك بتعليمه أدعية وتراتيل مفيدة، ويقدمون له «أبانا الذي في السماء» باللهجة العامية، و«أغنية القديس أليجو»، و«حسرة القديس برناردو»، و«تسابيح القديسة ماتيلدا» وحماقات كثيرة أخرى مشابهة، يحفظها هو بتقدير كبير ويكررها بورع من أجل خلاص روحه.

وكان رجلنا متزوجاً من امرأة جذابة وشديدة الجمال تدعى السيدة تيسا، هي ابنة مانوشيو دي لاكوكليا، امرأة حكيمة ومتبصرة، تعرف سذاجة زوجها. وقد أُغرمت يوماً بفيدريكو دي نيري بوغولوتي، وهو شاب وسيم ومفعم بالحيوية، وأحبها هو بدوره. وبمساعدة خادمة لها، رتبت تيسا أمر مجيء فيدريكو لتبادل الحديث معها في بيت ريفي

جميل يملكه زوجها في كاماراتا، وتقضي الصيف فيه. وكان زوجها جياني يأتي في بعض الأحيان لزيارتها، ويبقى هناك لتناول العشاء والنوم مع زوجته؛ لكن زياراته تلك لم تكن كثيرة. وفي مساء أحد الأيام، ذهب فيدريكو إلى هناك، ولأن جياني لم يأت في تلك الليلة، فقد ظل لتناول العشاء مع السيدة، وأمضى الليل بين ذراعيها. وقد علمته المرأة ستة من تراتيل زوجها. وقررا تكرار تلك اللقاءات الليلية، واتفقا معاً على أن يمر كل يوم وهو عائد من أرض له قريبة، فينظر إلى دالية كرمة قريبة من البيت، حيث يجد جمجمة حمار معلقة على غصن من الدالية. فإذا كان وجه الجمجمة باتجاه فلورنسا، يكون الطريق آمناً ويمكنه المجيء إلى البيت في تلك الليلة؛ وإذا لم يجد الباب مفتوحاً، يطرقه ثلاث مرات، فتفتحه له. أما إذا رأى وجه الجمجمة باتجاه فيسولي، فعليه عدم المجيء لأن زوجها جياني يكون موجوداً هناك.

التقيا بهذه الطريقة مرات كثيرة. وفي أحد الأيام، وكان مفروضاً أن يأتي فيدريكو للعشاء مع السيدة تيسا، فأعدت له عشاء فاخراً بشواء ديكين سمينين. ولكن.. حدث أن حضر جياني في وقت متأخر. فتضايقت المرأة كثيراً من مجيئه، وخبأت الطعام الفاخر في شرشف أبيض، وتناولت معه قليلاً من اللحم المملح والمقدد، ثم أمرت الخادمة بأن تحمل الديكين المشويين وكمية من البيض الطازج والنبيذ الفاخر إلى مكان في الحديقة، حيث يمكن لعشيقها الدخول دون المرور بالبيت، وحيث اعتادت أن تتناول العشاء معه في بعض الأحيان. وطلبت من الخادمة أن تضع ذلك كله عند أصل شجرة دراق بجوار مرج صغير. وكان استياؤها شديداً حتى إنها نسيت أن توصي الخادمة بأن تنتظر إلى أن يحضر فيدريكو، وتخبره بمجيء جياني المفاجئ، وبأن يأخذ تلك الأشياء من الحديقة. وبعد أن أوى الزوجان إلى فراشهما، حضر فيدريكو وطرق الباب برفق. وكان الباب قريباً من غرفة نوم الزوجين، فسمع جياني الطرق بوضوح؛ وسمعته كذلك زوجته، ولكنها تظاهرت بالنوم كي لا توقظ شكوك زوجها. وبعد قليل، طرق فيدريكو الباب مرة أخرى، فنبه جياني زوجته وقال لها:

ـ أتسمعين يا تيسا؟.. هناك من يطرق الباب.

وكانت المرأة تسمع خيراً منه، ولكنها تظاهرت بأنها تستيقظ من نومها، وقالت له:

ـ ماذا تقول؟..

فكرر جياني:

ـ أقول إن هناك طرقاً على الباب.

ـ طرق على الباب؟.. آي يا جياني! أتعرف ما هذا؟.. إنه شبح أخافني كثيراً في الليلة الماضية، حتى إنني غطيت رأسي ولم أتجرأ على رفع الغطاء عنه حتى الصباح.

عندئذ قال جياني:

ـ لا تخافي يا امرأة، فعندما أوينا إلى الفراش تلوت دعاء «تي لوشيس»، و«إنتريمراتا» وصلوات أخرى؛ كما أنني رسمت إشارة الصليب على الفراش باسم الأب والابن والروح القدس؛ فلا يمكن لشبح، مهما كانت سطوته، أن يُلحق بنا الأذى.

ولخشية المرأة من أن تخامر فيدريكو الشكوك وتذهب به الظنون مذهباً آخر، قررت أن تنهض وتنبهه إلى أن زوجها موجود معها في الداخل، فقالت لجياني:

ـ ما تقوله كلام حسن، ولكنني لن أشعر بالطمأنينة إلى أن نطرد هذا الشبح معاً، لاسيما أنك موجود هنا الآن.

فقال جياني:

ـ وكيف تريدين طرده؟..

فقالت المرأة:

ـ انظر يا عزيزي جياني، عندما ذهبتُ أول أمس إلى فيسولي، علمتني متدينة ورعة دعاء بالغ القداسة، وقالت لي إنها جربته مرات عديدة قبل أن تدخل سلك الرهبنة، وقد أفادها على الدوام. ولكن الله يعلم أنني لم أتجرأ قط على تجريب هذا الدعاء وأنا وحيدة؛ وبما أنك الآن معي، فإنني أريد أن نذهب معاً لطرد الشبح بهذا الدعاء.

وافق جياني على طلبها، ونهضا معاً ونزلا إلى الباب؛ وهناك قالت امرأة جياني:

ـ عليك أن تبصق عندما أطلب منك ذلك.

ـ حسن. ـ قال جياني.

وبدأت المرأة الدعاء قائلة:

ـ أيها الشبح، الشبح، يا من أتيت منتصب الذيل، ستنصرف الليلة وأنت منتصب الذيل؛ فاذهب إلى البستان، عند أصل شجرة الدراق الضخمة، وستجد هناك شحماً مطبوخاً، ومئة بعرة من روث دجاجاتي؛ فخذها وتلذذ بأكلها، وانصرف بسرعة، ولا تسبب الأذى لي ولزوجي جياني.

وما إن انتهت من قولها هذا حتى أمرت زوجها:

ـ ابصق الآن يا جياني!

بصق جياني، وكان فيدريكو يسمع من الخارج، فتلاشت غيرته، وأوشك على الانفجار بالضحك. لكنه قال بصوت خافت، حين بصق جياني:

ـ فلتبصق على العفاريت!

وبعد أن عزّمت المرأة على الشبح ثلاث مرات بهذه الطريقة، رجعت إلى الفراش مع زوجها. أما فيدريكو الذي كان يأمل بأن يتناول العشاء معها، فأدرك ما الذي تعنيه كلمات الدعاء. فقد ذهب إلى حيث شجرة الدراق في البستان، ووجد هناك الديكين المشويين والنبيذ والبيض، فحمل كل ذلك إلى بيته وتعشى على خير ما يرام. وصار كلما التقى بالمرأة بعد ذلك، يضحك وإياها مقهقهين من ذلك الدعاء السحري.

وهناك من يروون الواقعة بطريقة أخرى:

فالواقع إن المرأة، كما يقول البعض، قد أدارت جمجمة الحمار باتجاه فيسولي، غير أن فلاحاً عابراً حركها بعصا يحملها، دون أن ينتبه، فتحولت إلى جهة فلورنسا. وحين رأى فيدريكو الجمجمة، ظن أن المرأة تستدعيه للمجيء. وعندما طرق الباب، رتلت المرأة الدعاء على هذا النحو: «شبح يا شبح، انصرف وليكن الله معك، فلست أنا من أدار جمجمة الحمار، وإنما هو شخص آخر، ليلعنه الله. أما أنا فإنني مع زوجي جياني».

ويقولون إن فيدريكو انصرف مغموماً وبلا عشاء. غير أن جارة لي، وهي امرأة عجوز، تؤكد أن الروايتين صحيحتان، وأنها سمعت بهما في صباها، لكن هذه الحالة الثانية لم تحدث مع جياني لوتيريني، وإنما مع شخص آخر يدعى جياني دي نيللو، وكان

يعيش في بورتا سان بيترو، ولم يكن أقل سذاجة من جياني لوتيريني. ولهذا يا سيداتي العزيزات، أترك لكنَّ اختيار النهاية التي تروقكن. ولتتعلمن منها، فقد تفيدكن.

القصة الثانية

يعود زوج بيرونيللا إلى البيت فجأة، فتخبئ عشيقها في دن؛ وحين تعلم أن زوجها قد باع ذلك الدن، تقول له إنها قد باعته بدورها لشخص آخر، وإنه قد دخل في الدن ليتفحص متانته؛ فيخرج العشيق عندئذ من الدن، ويطلب من الزوج أن يكشطه وينظفه، ثم يحمله إلى بيته.

قوبلت قصة إيميليا بكثير من الضحك، وأطرى الجميع على ترتيلة التقوى المناسبة تلك، ثم توجه الملك إلى فيلوستراتو، وأمره بأن يواصل القص، فبدأ كما يلي:

ـ سيداتي العزيزات، كثيرة هي الحيل التي يمارسها عليكنّ الرجال، وخاصة الأزواج منهم. فإذا ما حدث وفعلت إحدى النساء ذلك بزوجها، فليس عليكن أن تبتهجن بما حدث، أو تكتفين بمعرفته أو سماع من يتكلم عنه وحسب، وإنما عليكن أن تعملن بأنفسكن على روايته ونشره في كل مكان، كي يعلم الرجال بأنهم إذا كانوا ماكرين، فإنكن غير حمقاوات وتستطعن مجاراتهم بالحيلة. ويمكن لهذا أن يكون نافعاً لكنّ، لأنه عندما يعرف المرء أن الآخر يعرف مثله، لا يتجرأ على التمادي في خداعه. ومن الذي سيخامره الشك إذن، في أن ما سنرويه اليوم في موضوعنا هذا، إذا ما اطلع عليه الرجال، سيكون كابحاً لهم عن التمادي في حيلهم، حين يعلمون أنكن قادرات، إذا ما أردتن، على خداعهم والسخرية منهم؟.. وهكذا، فإنني أنوي أن أروي ما فعلته امرأة شابة بزوجها، مع أنها من أصل وضيع، كي تضمن نجاتها.

منذ زمن غير بعيد، تزوج في مدينة نابولي رجل فقير من امرأة شابة حسناء وشديدة الجاذبية، تدعى بيرونيللا. وكان الرجل يعمل بنّاء، بينما تعمل زوجته في غزل الصوف،

فيكسبان القليل، ويدبران أمور حياتهما على أحسن ما يستطيعان. وحدث أن شاباً لعوباً رأى بيرونيللا في أحد الأيام، فأعجبته كثيراً ووقع في هواها، وتوسل بطريقة أو بأخرى إلى أن تمكن من إقامة علاقة حميمة معها. وقد اتفقا معاً على طريقة للقاء؛ فقد كان زوجها يستيقظ باكراً كل صباح كي يذهب إلى عمله، أو للبحث عن عمل، ويكون الشاب منتظراً في مكان يمكنه أن يراه منه وهو خارج، حيث أن الحي الذي تعيش فيه، ويدعى أفوريو، يكون مقفراً عادة، فيسارع الشاب إلى الدخول فور خروج الزوج. وكان هذا ما فعلاه مرات عديدة. وحدث في صباح أحد الأيام أن خرج الرجل الطيب من بيته، ثم دخله جيانيللو سكرينياريو، وهذا هو اسم الشاب، وبعد قليل من وجوده مع بيرونيللا، رجع الرجل إلى بيته «ولم يكن من عادته العودة إليه طوال النهار»، ووجد الباب موصداً من الداخل، فطرقه وبدأ القول في نفسه: «فليتبارك اسمك أيها الرب، لقد خلقتني فقيراً، ولكنك منحتني بالمقابل امرأة عفيفة وجميلة. فقد أوصدت الباب من الداخل فور خروجي من البيت، كي لا يتمكن أحد من الدخول والنيل منها أو مضايقتها».

عرفت بيرونيللا أنه زوجها من طريقته في قرع الباب، فقالت لعشيقها:

ـ آه يا جيانيللو! إنني هالكة، فهذا زوجي ـ لعنه الله ـ قد رجع. ولست أدري ما الذي تعنيه عودته، على غير عادته، في مثل هذا الوقت. فربما يكون قد رآك وأنت تدخل. ولكن بالله عليك، أياً كان الأمر، أن تدخل في هذا الدن الذي هناك، وسأذهب أنا لأفتح الباب، ونرى سبب عودته المبكرة إلى البيت هذا الصباح.

سارع جيانيللو إلى دخول الدن، واتجهت فيرونيللا إلى الباب وفتحته لزوجها، وقالت له باستياء:

ـ ما الذي استجد وجعلك تعود إلى البيت هذا الصباح؟.. يبدو لي أنك لا تريد العمل اليوم، فأنا أراك عائداً وأنت تحمل أدوات العمل في يدك؛ فمن أين سنعيش إذا كان هذا ما تنوي فعله؟.. من أين سنأتي بالخبز؟.. أوتظن أنني سأسمح لك بأن ترهن تنورتي وملابسي، بينما أنا أقضي النهار والليل في الغزل حتى تمزق اللحم حول أظفاري، كي نحصل على زيت نضيء به قنديلنا على الأقل؟.. لا وجود لجارة واحدة هنا، يا زوجي، إلا وتعجب لحالي، وتسخر مني لعملي المتواصل، وتحملي كل هذا الشقاء. وها أنت تعود إلى البيت بيدين خاويتين في الوقت الذي عليك فيه الذهاب إلى عملك.

قالت هذا وانفجرت في البكاء والعويل وهي تضيف قائلة:

ـ آه، يا لي من محزونة شقية! في أي ساعة نحس ولدتُ! وفي أي يوم نحس جئت إلى هنا. كان بإمكاني الزواج من شاب ذي مقام جيد ورفضته، لأجيء إلى هذا الذي لا يفكر فيمن جاء بها إلى بيته. النساء الأخريات يستمتعن مع عشاقهن، وهناك بينهن من لها عشيقان أو ثلاثة، يستمتعن، ويُرين أزواجهن القمر على أنه الشمس؛ أما أنا، ويا لتعاستي، فلأنني طيبة ولا اهتم بمثل تلك الأمور، فإنني لا ألاقي إلا الشرور وسوء المعاملة. لست أدري لماذا لا أتخذ عشاقاً مثلما تفعل الأخريات. وعليك أن تعرف يا زوجي بأنني إذا ما أردت إساءة السلوك، فإنني سأجد من يهتم بي. لأن هناك وجهاء كثيرين يحبونني، وقد بعثوا إلي عروضاً بمال وفير، أو ثياب ومجوهرات؛ ولكن قلبي لم يتقبل شيئاً من ذلك كله، لأني ابنة أمي. وها أنت تعود إلى المنزل في الوقت الذي عليك فيه أن تكون في عملك!

عندئذ قال الزوج:

ـ دعك من هذا الكلام يا امرأة! لا تتضايقي بالله عليك. لا بد لك من أن تعلمي أنني أعرفك جيداً، وأعرف من تكونين، وقد تأكد لي هذا الصباح ما كنت أعرفه. والحقيقة إنني خرجت للعمل، لكنني أعلم جيداً أنك لا تعرفين، مثلما لم أكن أعرف أنا، أن هذا اليوم هو يوم عطلة عن العمل، لأنه عيد القديس غاليون، ولهذا رجعت مبكراً إلى البيت. غير أني بحثت ووجدت طريقة للحصول على خبز يكفينا لمدة شهر، فقد بعت الدن الذي صار يضايقنا في البيت، لهذا الرجل الذي حضر معي، وسوف يدفع لي مقابله خمسة فلورينات.

عندئذ قالت الزوجة:

ـ هذا الذي تقوله يزيد من أحزاني؛ فأنت رجل تتجول في الخارج، وتعرف كيف هي أمور الدنيا، ثم تقبل أن تبيع الدن بخمسة فلورينات؛ بينما تمكنت أنا المرأة المسكينة، فور مغادرتك البيت، من بيع الدن الذي يعرقل تحركنا، بسبعة فلورينات لرجل دخل في الدن عند مجيئك ليرى مدى متانته.

فلما سمع الزوج قولها أحس بنشوة أكبر، وقال لمن جاء معه لشراء الدن:

ـ اذهب وليكن الرب معك أيها الرجل الطيب، فها أنت ذا قد سمعت أن زوجتي قد

باعته بسبعة فلورينات، بينما لم تدفع أنت مقابله سوى خمسة.

فانصرف الرجل الطيب قائلاً:

ـ فليكن مباركاً عليه!

وقالت بيرونيللا لزوجها:

ـ بما أنك حضرت الآن، فادخل وتولَ بنفسك إنجاز الصفقة.

كان العشيق يصغي بانتباه ليرى إن كان هناك ما يخشاه أو ما يستدعي منه حماية نفسه، وعندما سمع ما قالته بيرونيللا سارع إلى الخروج من الدن متظاهراً بأنه لم يسمع شيئاً عن عودة الزوج، وبادر إلى القول:

ـ أين أنت أيتها السيدة الطيبة؟..

فقال له الزوج وهو يتقدم نحوه:

ـ هأنذا، ماذا تريد؟..

فقال جيانيللو:

ـ من أنت؟.. إنني أريد التحدث إلى المرأة التي اتفقت معها على شراء هذا الدن.

عندئذ قال الزوج الطيب:

ـ يمكنك التكلم معي بكل ثقة، فأنا زوجها.

فقال جيانيللو:

ـ يبدو لي أن الدن متين، ولكنكم وضعتم فيه كما يبدو برازاً، لأن في داخله شيئاً متيبساً لا أدري ما هو، ولم أستطع انتزاعه بأظافري. ولهذا لن أشتريه قبل أن أراه نظيفاً.

فتدخلت بيرونيللا قائلة:

ـ لا عليك، لن يكون هذا سبباً في إلغاء الصفقة؛ فزوجي سيتولى تنظيفه.

وقال الزوج:

ـ أجل، بالطبع.

وبادر إلى وضع أدوات عمله، وخلع قميصه؛ ثم أشعل ضوءاً وحمل مكشطاً، ونزل في الدن بهمة وبدأ الكشط.

تظاهرت بيرونيللا بأنها تريد أن ترى ما يفعله زوجها، فأطلت برأسها من فوهة الدن، وأدخلت أحد ذراعيها حتى الكتف، وبدأت تقول له:

ـ اكشط هنا... وهنا... وهناك أيضاً... انظر، لقد بقيت هناك إلى اليسار بقعة.

وبينما هي تعطي التوجيهات على تلك الحال لزوجها، رأى جيانيللو الذي لم يتمكن من إشباع رغبته كما يشاء في ذلك الصباح، أن يعوض عن ذلك كيفما أمكن. فالتصق بها وهي تغطي فوهة الدن، وبتلك الطريقة التي تنقض بها الجياد الهائجة شبقاً، في الحقول الفسيحة، على الأفراس؛ انقض عليها وأشبع شهوته المشبوبة. وفي اللحظة نفسها التي انتهى بها من ذلك، أنهى الزوج كشط الدن، فابتعد عن بيرويللا التي أخرجت رأسها من الدن، وخرج الزوج خارجاً. فقالت بيرونيللا لجيانيللو:

ـ خذ هذه الشمعة أيها الرجل الطيب، وانظر ما إذا صار الدن نظيفاً كما تريد.

نظر جيانيللو إلى جوف الدن، وقال إنه على ما يرام، وأبدى سعادته بذلك، ثم دفع الفلورينات السبعة، وانصرف حاملاً الدن إلى داره.

القصة الثالثة

يضاجع الراهب رينالدو عرابته، ويجده الزوج معها في المخدع، فيحملانه على أن يصدق بأن الراهب يقوم بقراءة التراتيل لطرد الديدان من فلونه الطفل.

لم يستطع فيلوستراتو إلا التكلم بإبهام عن الأفراس الشبقة، بصورة لا تفهمها السيدات الفطنات، ولا يضحكن لها، وإن تظاهرن بالضحك من أمور أخرى. لكن، بعد أن أدرك الملك أن قصته قد انتهت، أمر إليسا بأن تتكلم؛ فبادرت إلى القول:

ـ سيداتي اللطيفات، تراتيل طرد الشبح التي قصتها علينا إيميليا أحضرت إلى ذاكرتي قصة تعزيم أخرى، ليست بمثل جودة تلك، ولكنني سأرويها لأنه لم تخطر لذهني قصة أخرى لها علاقة بموضوعنا اليوم.

كان هناك في مدينة سيينا، منذ زمن بعيد، شاب شديد التأنق ينتمي إلى أسرة شريفة، وكان اسمه رينالدو؛ أحب جارة له إلى حدّ الجنون، وهي سيدة جميلة وزوجة رجل ثري. فراح ينتظر لعله يجد طريقة للقاء بها، ونيل كل ما يشتهيه دون إثارة الشكوك. وعندما لم يجد طريقة، وكانت المرأة حبلى، فكر في أن يكون عرابها؛ فعقد صداقة مع زوجها، وأخبره بأفضل ما استطاع أنه يريد أن يكون عراب ابنه الذي سيولد، وكان له ذلك. وبعد أن تحول رينالدو إلى عراب ابن السيدة آنيسا، ظفر بفرصة مناسبة للتحدث إليها، وأطلعها بالكلام على ذلك الجزء من نواياه التي كانت المرأة قد فطنت إليها، ولمحتها قبل زمن طويل من ذلك في نظرات عينيه. لكن كلامه لم يفده في شيء، مع أن سماعه لم يستثر في الوقت نفسه استياء السيدة. وحدث بعد وقت غير طويل، ولسبب من الأسباب لا يهمنا، أن انضم رينالدو إلى سلك الرهبنة، وتخلى لوقت قصير عن حبه للسيدة وعن بعض ممارسات العبث الأخرى. لكنه ما لبث مع مرور الوقت، ودون أن يترك الرهبنة، أن بدأ يهتم بحسن مظهره، وبأن يكون ملبسه من أفخر الأقمشة، بحيث يبدو وسيماً ومتأنقاً. وصار ينظم الأغاني والسونيتات ومقطعات الحب ويغنيها، فضلاً عن أشياء كثيرة من مثل هذه الممارسات، وما هو أسوأ منها.

ولكن، ما هذا الذي أقوله عن صاحبنا الراهب رينالدو؟.. ومن هم الرهبان الذين لا يفعلون الشيء نفسه؟.. فآه لعار هذا العالم الضائع وشناره! إنهم لا يخجلون من بدانتهم، من وجوههم المتوردة، من فخامة ملبسهم وكل أشيائهم. وليس كحمائم، وإنما كديوك منفوشة الريش ومنتصبة الأعراف يتصرفون بعجرفة. والأسوأ من ذلك، إذا تركنا جانباً امتلاء حجراتهم في الأديرة بعلب مترعة بالمعاجين والمراهم، وصناديق ممتلئة بمختلف الحلويات، وبأحقاق وقوارير مياه مقطرة وزيوت عطرية، وزجاجات أشربة وأنبذة إغريقية، مما يعطي انطباعاً بأنها ليست حجرات رهبان، وإنما تبدو لمن يراها أشبه بدكاكين العطارين أو باعة التوابل. ولا يخجلهم أن يعرف الآخرون أنهم شرهون، ويعتقدون أن

الآخرين لا يعلمون أن كثرة الصيام، وانتظام الوجبات وضآلتها، وحياة القناعة هي التي تحافظ على نحول الرجال وهزالهم، وتحفظ عليهم صحتهم في معظم الأحيان، وحتى إذا سببت لهم المرض على الرغم من كل شيء، فإنهم لن يصابوا، على الأقل، بداء النقطة الذي يكون علاجه عادة بساطة المأكل وغيرها من الأمور المناسبة لحياة راهب متواضع. وهم يعتقدون أن الآخرين لا يعرفون أن حياة التقشف، والسهر الطويل للصلاة والتعبد، والتقيد بالانضباط تحول الرجال إلى نحيلين شاحبين، وأنه لم تكن لدى القديس دومينغو أو القديس فرانشيسكو أربعة معاطف من الصوف الملون أو غيره من الأقمشة الثمينة، وإنما أردية خشنة يلبسانها للوقاية من البرد وليس للتظاهر والتفاخر.

نعود إلى الراهب رينالدو الذي عاد إلى الإكثار من زيارة عرابته والتردد عليها، وكانت عجرفته قد ازدادت عما كانت عليه من قبل، فصار يطلب منها بإلحاح ما هو راغب فيه. وحين رأت المرأة الطيبة أنها مشتهاة بشدة، وربما لأن رينالدو بدا لها أكثر وسامة مما كان عليه، ولشدة إلحاحه عليها، عمدت في أحد الأيام إلى ما تُقدم عليه جميع أولئك النساء اللواتي يرغبن في معرفة ما يُطلب منهن، فقالت له:

ـ كيف ذلك أيها الأخ رينالدو؟.. هل يمارس الرهبان هذه الأمور أيضاً؟..

فأجابها الراهب:

ـ عندما أخلع ثوب الكهنوت هذا يا سيدتي، وأنا أخلعه بسهولة كبيرة، سأبدو لك رجلاً كالآخرين، وليس راهباً.

ضحكت السيدة وقالت:

ـ يا لشقائي! أنت عراب ابني، فكيف يمكن عمل ذلك؟.. سيكون عملاً خبيثاً جداً، فقد سمعتُ مرات ومرات أنها خطيئة كبرى؛ ولو أنها ليست كذلك للبيت رغبتك.

عندئذ ردّ عليها الراهب رينالدو بالقول:

ـ إذا منعك هذا السبب عن فعل ذلك، فأنت مجرد حمقاء. أنا لا أزعم أنها ليست خطيئة، لكن الرب يغفر للنادمين خطايا أكبر منها بكثير. ولكن أخبريني أولاً، من هو الأقرب إلى ابنك، أنا الذي حملته عند تعميده، أم زوجك الذي أنجبه؟..

فأجابت المرأة:

- الأكثر قرابة له هو زوجي.

- ما تقولينه صحيح - قال لها الراهب، ثم أضاف- ألا ينام زوجك معك؟..

فردت السيدة:

- بلى، إنه يفعل بالطبع.

وهنا قال لها الراهب:

- إذن، أنا أبعد قرابة من زوجك عن ابنك، ويمكن لي بالتالي أن أنام معك مثل زوجك.

لكن المرأة التي لم تكن لديها أدنى معرفة بالمنطق، ولم تكن تحتاج إلا إلى دفعة صغيرة، صدقت أو تظاهرت بأنها صدقت، أن الراهب يقول الحقيقة؛ وأجابته:

- ومن هو الذي يستطيع الرد على كلامك المقنع؟..

وهكذا قررت تمكين الراهب من نفسها، وما إن بدأا بذلك حتى اعتادا عليه، وكان احتمال الشكوك ضئيلاً لأن الراهب هو عراب الابن، فصارا يلتقيان بكثرة. وحدث في إحدى المرات أن جاء الراهب رينالدو إلى بيت السيدة، وكانت معها خادمة جميلة ولطيفة؛ فأرسل مرافقه مع الخادمة ليصعدا إلى حجرة الحمائم، كي يعلمها هناك بعض الصلوات والتراتيل. وذهب هو إلى المخدع مع السيدة التي كانت تقود طفلها ممسكة بيده؛ فأغلقا الباب من الداخل، وراحا يتبادلان المداعبات على أريكة هناك. وبينما هما على تلك الحال، رجع الزوج وتوجه إلى حجرة النوم دون أن يشعر به أحد، فطرق الباب ونادى زوجته. وما إن سمعت السيدة آنيسا صوته حتى راحت تقول:

- إنني هالكة لا محال، فقد حضر زوجي، وسيعرف الآن حقيقة علاقتنا.

وكان الأخ رينالدو شبه عار بعد أن خلع رداءه الكهنوتي وكتفيته، فقال بأسى حين سمع السيدة:

- معكِ حق. لو أنني كنت بملابسي لوجدت مخرجاً لما نحن فيه؛ ولكنك إذا ما فتحت الباب ووجدني زوجك على هذه الحال، فلن أجد لنا عذراً.

قالت المرأة وقد جاءها إلهام مفاجئ:

ـ أسرع بارتداء ملابسك إذن، وعندما تنتهي من لبسها، احمل الطفل بين ذراعيك واصغِ جيداً لما سأقوله، كي يكون كلامك منسجماً مع كلامي. ودعني أتصرف معه.

لم يكن الزوج الطيب قد توقف عن النداء عندما ردّت عليه المرأة:

ـ إنني آتية. ـ ثم نهضت واتجهت نحو الباب وفتحته قائلة ـ الحقيقة يا زوجي العزيز أن الرب أحسن إلينا اليوم بإرسال الأخ رينالدو، ولولا مجيئه كنا سنفقد بكل تأكيد طفلنا.

حين سمع الزوج المغفل كلامها أصابه الذهول وقال لها:

ـ وكيف ذلك؟..

فقالت المرأة:

ـ آه يا زوجي العزيز، لقد أصيب الطفل قبل قليل بنوبة إغماء ظننت معها أنه سيموت؛ ولم أعد أدري ما الذي يمكنني فعله أو قوله. وعندئذ ظهر عرابنا الأخ رينالدو، فأخذ الطفل بين ذراعيه وقال لي: «إنها الديدان التي في جسده يا عرابتي، وهي تقترب من القلب، ولسوف تقتله بكل تأكيد. ولكن لا تخافي، فسوف أعزم عليه وأقضي على تلك الديدان كلها، ولن أذهب من هنا إلا وترين الطفل سليماً ومعافى كما لم ترينه من قبل». وكنا نحتاج إليك يا زوجي كي تتلو بعض التراتيل، لكن الخادمة لم تجدك، فأرسلها مع مرافقه لتردد الترتيلات في أعلى مكان في البيت. وقد دخلت أنا معه هنا، لأنه لا يمكن لأحد سوى أم الطفل أن تساعده في هذه الصلاة. وكي لا يزعجنا أحد أوصدنا الباب من الداخل. وهو يحمل الطفل الآن بين ذراعيه، وأظن أنه لم يبق عليه سوى انتظار أن ينتهي مرافقه من ترتيل صلواته لإنهاء العلاج، فقد استعاد الطفل وعيه بالكامل الآن.

صدق الزوج المغفل كل هذا الكلام، لأن حبه لابنه استحوذ عليه ولم ينتبه إلى خديعة المرأة المحبوكة، فأطلق زفرة عميقة وقال:

ـ أريد رؤيته.

فقالت المرأة:

ـ لا تدخل، فسوف تفسد ما فعله الراهب. انتظر، وسأرى إذا ما كان بإمكانك

الدخول.

كان الأخ رينالدو يسمع كل شيء، وكان قد ارتدى ملابسه في أثناء ذلك وحمل الطفل بين ذراعيه. وبعد أن رتب كل شيء، قال بصوت عالٍ:

ـ ماذا يا عرابتي، أليس هذا الذي اسمع صوته هو عرابي؟..

فرد عليه الزوج الورع:

ـ بلى يا سيدي.

فقال له الراهب رينالدو:

ـ تعال إليّ إذن.

دخل الزوج التقي داخلاً، وقال له الأخ رينالدو:

ـ خذ ابنك، فقد نجا بفضل الله بعد أن كنت أظن قبل قليل أنك لن تجده حياً عند الغروب، وتحسن صنعاً إذا ما أشعلت شمعة بحجمه أمام تمثال القديس أمبروسيو الذي وفر لك الرب بفضله هذه النعمة.

حين رأى الطفل أباه، أسرع نحوه مثلما يفعل صغار الأطفال، فتلقاه الأب بين ذراعيه ورفعه كما لو أنه يُخرجه من القبر، وراح يقبله ويشكر عرابه الذي عالجه وأنقذه.

أما مرافق الراهب رينالدو، فلم يعلّم الخادمة دعاء واحداً، وإنما أربع صلوات؛ وقدم إليها جراباً من خيوط بيضاء أعطته إياه راهبة، وجعلها تلميذة له في التدين. وعندما سمع الزوج يطرق باب مخدع المرأة، اقترب بصمت إلى حيث يمكنه سماع ورؤية ما يحدث. وبعد أن أدرك حقيقة الوضع، نزل ودخل إلى المخدع قائلاً:

ـ أيها الأخ رينالدو، لقد انتهيت من تلاوة الترتيلات الأربع التي طلبت مني تلاوتها.

فرد عليه الأخ رينالدو:

ـ أحسنت صنعاً يا أخي. أما أنا فلم أتلُ سوى ترتيلتين قبل مجيء عرابي، ولكن الرب سيدنا، بفضل صلواتك وصلواتي، أنعم علينا بشفاء الطفل.

أمر الزوج الورع بإحضار نبيذ فاخر وحلوى، وكرّم الراهب ومرافقه بما كانا بحاجة

إليه أكثر من أي شيء آخر؛ ثم خرج معهما من البيت، وودعهما عند الباب متمنياً لهما رعاية الله. وسارع دون أي تأخير إلى صنع تمثال من الشمع، وأمر بوضعه مع شموع أخرى عند تمثال القديس أمبروسيو، على ألا يكون تمثاله الذي يُكرم في ميلان.

القصة الرابعة

يغلق توفانو باب بيته في إحدى الليالي أمام زوجته، ولا تستطيع المرأة بتوسلاتها أن تجعله يفتح الباب، فتتظاهر بأنها ألقت بنفسها إلى بئر، بينما تلقي حجراً كبيراً فيه. يخرج توفانو راكضاً نحو البئر، فتدخل المرأة إلى البيت، وتغلق الباب في وجهه وهي تطلق الشتائم وصرخات الغضب.

حين رأى الملك أن إليسا قد انتهت من قصتها، التفت فوراً إلى لوريتا وأعرب لها عن رغبته في سماع قصتها، فبادرت إلى القول دون تأخير:

- آه أيها الحب! يا لهول قوتك، وسعة حيلتك وعظمتك! أي فيلسوف أو فنان استطاع يوماً، أو يستطيع، إظهار مثل هذه العبقرية، وهذه الابتكارات، وهذه الحجج التي توحي بها أنت فجأة لمن يتبعون أثرك؟.. الحقيقة إن كل حكمة أخرى تبدو بليدة ومتأخرة بالمقارنة مع حكمتك، مثلما نتبين من القصص التي رويت آنفاً؛ ولسوف أضيف إليها يا سيداتي الحبيبات قصة أخرى، عن حيلة امرأة شديدة البساطة، لا يمكن إلا أن يكون الحب هو الذي ألهمها إياها.

كان يعيش منذ بعض الوقت في اريزو، رجل ثري يدعى توفانو؛ تزوج من امرأة باهرة الجمال تدعى مادونا جيتا. ولكنه، دون أن يدري السبب، سرعان ما صار غيوراً عليها، فغضبت المرأة حين أدركت ذلك، وسألته مرات عديدة عن سبب غيرته، غير أنها لم تكن تسمع منه إلا ردوداً بائسة، مما استثار في المرأة الرغبة في جعله يموت بداء الغيرة الذي استحوذ عليه دون مسوغ. وكانت قد لاحظت أن هناك شاباً، قدرت أنه من الوجهاء،

يحاول التودد إليها. فبدأت التفاهم معه سراً. وبعد أن تقدمت الأمور بينه وبينها كثيراً، ولم يبق عليهما سوى وضع الكلام موضع التطبيق بالأفعال، راحت السيدة تفكر، مثله، في طريقة لتحقيق ذلك.

وكانت قد عرفت أن من عادات زوجها الخبيثة ولعه بشرب الخمر، فصارت لا تكتفي بامتداح عادته تلك، بل تكثر من تشجيعه عليها، وتغريه بالإفراط في تناول الشراب. وصار ذلك هو ديدنها، تحمله على الشرب إلى أن يسكر، وعندما ترى أنه قد غاب عن الوعي، تقوده إلى فراشه لينام. وهكذا تيسر لها اللقاء مع عشيقها، واعتادت على تلك اللقاءات حتى إن اطمئنانها لم يقتصر على إدخال العشيق إلى بيتها فقط، وإنما صارت هي نفسها تذهب في بعض الليالي إلى بيته، ولم يكن بعيداً عنها، فتقضي معظم الليل برفقته. وعلى هذا النحو واصلت المرأة العاشقة غرامياتها إلى أن انتبه الزوج المخدوع إلى أنها، حين تحثه على الشراب، لا تسايره بالشرب معه؛ فداخلته الشكوك في هذا الشأن، وارتاب في أن امرأته تُسكره كي تفعل بعد ذلك ما يحلو لها بينما هو نائم. فأراد التأكد من شكوكه هذه، وتظاهر في إحدى الليالي بأنه مخمور تماماً، سواء بكلامه أو بتصرفاته، بالرغم من أنه لم يشرب شيئاً طوال ذلك اليوم؛ فصدقت المرأة ذلك، وقدرت أنه لا يحتاج إلى شرب المزيد، وأخذته إلى فراشه لينام. وما إن انتهت من ذلك حتى عمدت، كما هي عادتها في بعض الأيام، إلى الخروج من بيتها والذهاب إلى بيت عشيقها، حيث ظلت هناك إلى ما بعد منتصف الليل.

وعندما تبين توفانو أن زوجته قد خرجت من البيت، نهض إلى الباب فأوصده من الداخل، وجلس ينتظر عند النافذة كي يرى المرأة حين تعود، ويُظهر لها أنه كشف أعمالها. وبعد مرور وقت طويل، رجعت المرأة إلى البيت ووجدت الباب موصداً، فأحست بالانزعاج واستبد بها القلق، وبدأت تحاول فتح الباب بالقوة. وقد تحمل توفانو رؤية ذلك لبعض الوقت، دون أن تتمكن المرأة من فتح الباب، وعندئذ قال لها:

ـ إنك تتعبين نفسك دون طائل يا امرأة، لأنك لن تستطيعي دخول هذا البيت. فاذهبي إلى حيث كنت حتى هذه الساعة؛ ولن أسمح لك بالعودة إلى هنا إلا بحضور أهلك والجيران، لتنالي عندئذ ما يليق بك من التشريف.

توسلت إليه المرأة باسم محبة الرب أن يحسن إليها ويفتح الباب، قائلة إنها ليست آتية

من حيث يظن، وإنما من السهر عند جارة لها. لأن الليل طويل ولم تستطع النوم، **مثلما لم** تستطع تحمل السهر وحدها في البيت. لكن توسلاتها لم تفد في شيء، لأن ذلك البهيمة كان مصمماً على أن يعرف أهل اريزو كلهم بعارها الذي لم يكن هناك من يعلم به. ولما رأت المرأة أن توسلاتها لم تفدها في شيء، لجأت إلى التهديد، وقالت:

ـ إذا أنت لم تفتح الباب فسوف أجعلك أشد الرجال تعاسة في هذه الدنيا.

فسألها توفانو:

ـ وما الذي يمكنك عمله؟..

فأجابت المرأة التي أرهف الحب مداركها بنصائحه:

ـ قبل أن أعاني العار الذي ستُلحقه بي دون وجه حق، سألقي بنفسي في هذه البئر القريبة. وعندما سيعثرون عليّ ميتة فيها بعد ذلك، لن يصدق أحد إلا أنك أنت من ألقيت بي وأنت مخمور، وستضطر عندئذ إلى الهروب وفقدان كل أملاكك، وسيصبح اسمك على ألسنة كل المنادين، أو سيُقطع رأسك كما لو أنك قاتلي حقاً.

لم يتأثر توفانو بأقوالها هذه، فقالت له المرأة عندئذ:

ـ لم أعد قادرة على تحمل مضايقاتك. فليسامحك الرب! وأعد هذا المغزل الذي أتركه هنا إلى مكانه.

بعد قولها هذا، في تلك الليلة حالكة الظلام، حيث لا يمكن للشخص أن يرى غيره في الشارع، توجهت المرأة نحو البئر؛ فتناولت حجراً كبيراً كان عند حافة البئر، وصرخت قائلة وهي تلقي به إلى البئر: «فليسامحني الرب!».

أحدث ارتطام الحجر بالماء دوياً عظيماً، ما إن سمعه توفانو حتى ظن أنها ألقت بنفسها في البئر حقاً؛ فتناول الدلو والحبل، واندفع خارجاً من البيت باتجاه البئر يريد إنقاذها.

كانت المرأة قد اختبأت بجانب باب البيت، وحين رأت زوجها يهرع راكضاً نحو البئر، التجأت إلى البيت بسرعة وأوصدت الباب من الداخل؛ ثم ذهبت إلى النافذة، وبدأت تقول لزوجها:

ـ الآن تريد أن تشرب ماء، بعد أن أمضيت الليل كله في شرب أشياء أخرى منكرة؟..

حين سمعها توفانو أدرك أنه قد خُدع، فرجع إلى الباب، ولكنه لم يستطع الدخول؛ فطلب منها أن تفتح له. غير أن المرأة تخلت عندئذ عن صوتها المنخفض الذي تكلمت به حتى الآن، وبدأت الصراخ قائلة:

ـ أقسم بمسامير السيد المسيح، أيها السكير المزعج، أنك لن تدخل البيت هذه الليلة. فأنا لم أعد قادرة على تحمل أفعالك هذه. لا بد لي من جعل الجميع يعرفون من أنت، وفي أي ساعة من الليل تعود إلى بيتك.

اهتاج توفانو بدوره، وراح يطلق السباب واللعنات صارخاً بأعلى صوته. فأيقظ صراخهما الجيران، وأطل الرجال والنساء من نوافذهم يسألون عما يحدث. فأخذت المرأة تقول باكية:

ـ إنه هذا الرجل الخبيث الذي يعود إلى البيت مخموراً في الليل، أو ينام في الحانات ثم يعود في مثل هذه الساعة. لقد تحملته طويلاً، ولكن دون جدوى؛ ولم أعد قادرة على تحمل المزيد. وقد أردت اليوم تعريضه للعار بإغلاق الباب في وجهه، لعله يرتدع.

وراح توفانو البهيمة يخبر الجميع، بدوره، كيف جرى الأمر؛ ويطلق التهديد والوعيد لزوجته. فقالت المرأة لجيرانها:

ـ أترون أي رجل هو! ما الذي كنتم ستظنونه بي لو أنني أنا التي في الشارع مكانه، وهو الذي في البيت مكاني؟.. أما كنتم ستصدقون، بالله عليكم، أنه يقول الحقيقة؟.. لاحظوا مدى ضعف عقله الذي يذهب به الشراب. إنه يتهمني بفعل ما أظن أنه كان يفعله هو نفسه خارج البيت؛ ويعتقد أنه سيخيفني بإلقاء شيء لا أدري ما هو في البئر. وليته كان ألقى بنفسه حقاً وغرق، لأن مفعول النبيذ الكثير الذي شربه كان سيخف باختلاطه بالماء.

راح الجيران جميعهم، رجالاً ونساء، يؤنبون توفانو، ويلقون اللوم عليه، بل صاروا يشتمونه لما يقوله ضد زوجته. وما لبث الأمر أن انتقل من جار إلى جار، حتى شاع وانتشر في المدينة كلها، ووصل إلى أقرباء المرأة. فحضروا مسرعين، وبعد أن سمعوا من بعض

الجيران حقيقة ما جرى، أمسكوا توفانو وأوسعوه ضرباً بالعصي إلى أن تركوه مهشماً، ثم دخلوا البيت، فأخذوا المرأة وأمتعتها إلى بيت ذويها، متوعدين توفانو بما هو أسوأ. وعندما وجد توفانو نفسه مذلاً مهاناً، ورأى أن غيرته قد أوصلته إلى أسوأ الدروب، ولأنه كان يحب زوجته، فقد لجأ إلى بعض الأصدقاء ليتوسطوا بشأن عودتها إليه. وقد سعى كثيراً إلى أن أعاد زوجته إلى بيته، ووعدها بأن لا يعود إلى الغيرة أبداً، وسمح لها كذلك بأن تفعل ما تشتهيه، ولكن بتكتم وبإخفاء ما تفعله عنه. وهكذا نال ذلك الغبي الجلف الضرب والقرون. وليعش الحب ولتمت الغيرة، ولتحيا الصحبة الطيبة.

القصة الخامسة

يتنكر زوج غيور بزي كاهن ويتلقى اعتراف زوجته، فتخبره بأنها تعشق كاهناً يأتي لزيارتها في كل ليلة. وبينما الغيور يكمن مترصداً وراء الباب، تُدخل المرأة عشيقها من السطح، وتستمتع معه.

أنهت لوريتا قصتها، وبعد أن أطرى الجميع على المرأة لأنها أحسنت صنعاً، وفعلت ما يستحقه ذلك الزوج التعس؛ لم يشأ الملك إضاعة الوقت، فالتفت إلى فياميتا وطلب منها بلطف أن تروي شيئاً، فبدأت قصتها على هذا النحو:

ـ صديقاتي النبيلات، القصة السابقة دفعتني إلى التحدث أيضاً عن رجل غيور، مقدرة أن كل ما تفعله النساء بهم هو عمل جيد، ولاسيما عندما لا يكون ثمة مسوغ لغيرتهم. ولو أن واضعي القوانين أخذوا كل شيء في اعتبارهم، ودققوا بعمق في الأمور، لما فرضوا على أولئك النساء من عقوبة سوى تلك التي يفرضونها على من يقدمون على الدفاع عن النفس؛ لأن الغيورين يمرمرون حياة النساء الشابات ويدفعون بهن إلى موت مبكر. فهن يقضين الأسبوع بطوله حبيسات البيوت، يقمن بكل الأعمال المنزلية ويتدبرن الضروريات الأسرية. ويأملن بعد ذلك بأن ينلن في يوم الراحة الأسبوعية شيئاً من التسلية،

والاستمتاع ببعض الملذات، مثلما هي حال فلاحي الريف، وحرفيي المدينة، وموظفي المحاكم والدواوين، ومثلما فعل الرب نفسه عندما استراح في اليوم السابع من كل أعماله، ومثلما أقرت القوانين الدينية والمدنية التي أخذت في الاعتبار توقير الرب والصالح العام، فميزت بين أيام العمل وأيام الراحة. غير أن الغيورين لا يرتضون شيئاً من هذا كله، فيعمدون إلى تشديد حبسهن في أيام العطل التي يسعد فيها الآخرون، ويُشعرونهن بمدى بؤسهن ومعاناتهن؛ ولا يدري بحال أولئك البائسات إلا من جرب معاناتهن. ولهذا أوجز فأقول: إن ما تفعله امرأة بزوج غيور دون مسوغ، يستحق الإطراء والمديح وليس الذم والعقاب.

كان يعيش في مدينة ريميني تاجر واسع الثراء بأملاكه وضياعه وأمواله، وكانت له زوجة باهرة الجمال، مما جعله شديد الغيرة عليها. ولم يكن لديه مسوغ لذلك، لاسيما أنه يحبها ويروقه جمالها ويعلم أنها تبذل كل ما بوسعها لإرضائه، سوى تفكيره بأن كل الرجال يحبونها، ويقدورن جمالها، وأنها تسعى بدورها لإرضاء آخرين مثلما ترضيه «وهي حجة رجل تعس وعديم الإحساس». ولشدة غيرته، فرض عليها رقابة صارمة ومتواصلة، مثل تلك الرقابة التي تُفرض على من يحكم عليهم بعقوبة الإعدام، وهي أقسى من الرقابة المفروضة في السجون. فلم يكن بإمكان المرأة حضور حفلة أو زفاف، بل لا يمكنها الذهاب إلى الكنيسة، ولا حتى مجرد التطلع من النافذة والنظر خارج بيتها. فكانت حياتها تعسة، تتحمل بصبر كل ذلك الشقاء، وهي التي لم ترتكب ذنباً أو خطيئة.

وحين رأت أنها تتعرض لسوء معاملة زوجها دون مسوغ، قررت البحث عن طريقة تجعل بها غيرة زوجها مبررة. ولأنها لم تكن قادرة على النظر من النافذة، ولا يمكن لها كذلك أن تبدي رضاها عن مغازلات شخص يمر في الشارع. ولعلمها بأن شاباً لطيفاً يعيش في البيت المجاور، فقد فكرت في أنه إذا كان هناك ثقب في الجدار الذي يفصل بين بيتها وذلك البيت، فإنها تستطيع النظر من خلاله إلى الشاب والتحدث إليه، ومنحه حبها إذا ما رغب في تقبله. وربما يتاح لها اللقاء به يوماً، فيتبدل شقاء حياتها ريثما يخرج شيطان الغيرة من زوجها.

وهكذا راحت تبحث، أثناء غياب زوجها، وتتفحص الجدار إلى أن وجدت، في جانب خفي منه، شرخاً يمكن النظر منه. ومع أن الرؤية ليست واضحة، إلا أنها

استطاعت أن تتبين وجود غرفة نوم في الجانب الآخر من ذلك الشرخ، فقالت في نفسها: «إذا كانت هذه هي حجرة فيليبو (وهذا هو اسم جارها الشاب)، فسأكون قد قطعت نصف الطريق إلى ما أريد». فطلبت من خادمة لها، كانت ترثي لحالها، أن تثابر على التجسس من خلال الشرخ، فتبين لها فعلاً أن الشاب ينام هناك وحيداً. وهكذا صارت تكثر من النظر من خلال ذلك الشرخ، وعندما ترى الشاب هناك، تُسقط بعض الحصى الصغيرة أو العيدان الرفيعة اليابسة، وواظبت على عمل ذلك إلى أن انتبه الشاب في أحد الأيام، ودنا من المكان. فنادته عندئذ بصوت خافت، فتعرف عليها بدوره، وردّ عليها. وتمكنت بما أتيح لها من وقت أن تخبره، بإيجاز، بما يدور في ذهنها. فأعجبت الفكرة فيليبو أيما إعجاب، حتى إنه عمد إلى توسيع الشرخ من جهته، ولكن بطريقة لا يمكن لها أن تلفت نظر أحد. وصارا يتبادلان الحديث من خلال تلك الفجوة، وربما تتلامس أيديهما؛ ولكنهما لا يستطيعان الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك بسبب صرامة الرقابة التي يفرضها الزوج الغيور. ومع اقتراب أعياد الميلاد، قالت المرأة لزوجها إنها ترغب، إذا كان يوافق، في الذهاب إلى الكنيسة، صباح يوم الفصح، للاعتراف وتناول القربان مثلما يفعل المسيحيون جميعاً. فقال لها الغيور:

ـ وما هي الخطيئة التي ارتكبتها كي تذهبي للاعتراف؟..

فقالت المرأة:

ـ ماذا تقول؟.. أتظنني قديسة لأنك تبقيني حبيسة؟.. أنت تعرف جيداً أنني أرتكب الخطايا مثل غيري من الأحياء؛ ولكنني لا أريد أن أخبرك أنت بخطاياي، لأنك لست كاهناً.

خامرت الغيور الشكوك حين سمع كلامها، وعزم على معرفة الخطايا التي ارتكبتها زوجته، وفكر في طريقة لعمل ذلك. ثم أجابها بأنه لا يرى مانعاً في ذهابها، ولكنه لا يريدها أن تذهب إلا إلى الكنيسة التي يرتادها، وأن يكون ذهابها في الصباح الباكر، وأن تعترف أمام كاهن اعترافه بالذات، ثم تعود بعد ذلك إلى البيت فوراً. بدا للمرأة أنه يبيت أمراً، لكنها لم تعلق بشيء واكتفت بالرد بأنها ستفعل ما قاله. وفي صباح يوم الفصح، استيقظت المرأة منذ الفجر، فأعدت نفسها وتوجهت إلى الكنيسة التي حددها لها زوجها. وكان الغيور بدوره قد نهض وذهب إلى الكنيسة نفسها، ووصل إليها

قبل زوجته. وهناك التقى بالقس ورتب معه ما يريد عمله، فارتدى بسرعة أحد أثواب الكاهن، ووضع قلنسوة كبيرة مثل التي نرى الكهنة يضعونها. عندما وصلت السيدة إلى الكنيسة، سألت عن الكاهن الذي أوصاها به زوجها، وحين جاء وسمع ما تريده المرأة قال لها إنه لا يستطيع سماع اعترافها، لكنه سيرسل إليها أحد رفاقه، ثم ذهب وأرسل الغيور إلى نكبته. جاء هذا بوقار شديد، ومع أن ضياء النهار لم يكن قد انتشر بعد، وكان هو قد أنزل القلنسوة حتى عينيه، إلا أنه لم يستطع التخفي بحيث لا تتعرف عليه زوجته التي قالت في نفسها عندما رأته: «فليتبارك الرب، هذا هو الغيور وقد صار كاهناً، فلأجاره إذن، وسأقدم له ما يريده». وعندئذ تظاهرت بأنها لم تتعرف عليه، وجلست عند قدميه. وكان السيد الغيور قد وضع حصاة في فمه كي يتبدل صوته ولا تتعرف المرأة عليه، معتقداً أنه متنكر جيداً في كل الأمور الأخرى، بحيث لا يمكن التعرف عليه بأي حال. وعندما بدأت الاعتراف، أخبرته السيدة في أول الأمر بأنها متزوجة، ثم قالت له إنها مغرمة بكاهن يأتي كل ليلة للنوم معها. وحين سمع الغيور ذلك أحس كما لو أن مدية تخترق قلبه، ولكنه تجلد ليعرف المزيد، وسألها:

ـ وكيف ذلك؟.. ألا ينام زوجك معك؟..

فأجابت المرأة:

ـ بلى يا سيدي.

ـ وكيف تنامين إذن مع الكاهن؟..

فقالت:

ـ لا أدري يا سيدي كيف يتمكن الكاهن من عمل ذلك، ولكن ليس هناك في البيت باب مغلق إلا وينفتح عندما يطرقه. ويقول لي إنه عندما يصل إلى مخدعي، وقبل أن يفتح بابه، يردد بعض الكلمات التي تنوم زوجي. وبعد أن يتأكد من أنه قد نام، يفتح الباب ويدخل ليبقى معي، وطريقته هذه لا تخيب أبداً.

فقال الغيور عندئذ:

ـ هذا الذي تفعلينه يا سيدتي بالغ الخبث، وعليك الامتناع عنه نهائياً.

فقالت المرأة:

ـ لا أظن أني قادرة على عمل ما تقول، لأني أحبه كثيراً.

فرد الغيور:

ـ لن أستطيع منحك المغفرة إذن.

وقالت له المرأة:

ـ يؤسفني ذلك كثيراً؛ولكنني لم آت هنا لأكذب. ولو كان بإمكاني الامتناع عن حبه، لكنت أخبرتك.

عندئذ قال الغيور:

ـ الحقيقة يا سيدتي إنني أشعر بالحزن إذ أراك تودين بروحك إلى الضياع بارتكابك هذه الخطيئة. ولكنني سأتكبد من أجلك تلاوة بعض الصلوات الخاصة والتضرع إلى الله باسمك، فربما يساعدك ذلك على الخلاص. ولسوف أرسل إليك معاوني لتخبريه إذا ما نفعت معك صلواتي؛ فإن كانت نافعة لك فسأواصلها.

فقالت له المرأة:

ـ لا ترسل أحداً إلى بيتي يا سيدي، لأن زوجي شديد الغيرة، وإذا ما جاء من يسأل عني فلن تجد في الدنيا من يقنعه بعدم وجود أمر خبيث وراء ذلك؛ وعندئذ لن أجد الراحة معه أبداً.

ـ لا تقلقي من هذه الناحية يا سيدتي ـ قال لها الغيور ـ، سأفعل ذلك بطريقة لا تثير ريبته، وأؤكد لك أنه لن يقول أي شيء.

فقالت السيدة عندئذ:

ـ إذا كان هذا ما يحدثك به قلبك، فلا مانع عندي.

وبعد انتهاء الاعتراف وتلقي الكفارة، نهضت المرأة وذهبت لسماع القداس. ومضى الغيور المنكوب لخلع ثوب الكهنوت وهو يلهث. ثم رجع إلى بيته راغباً في التوصل إلى طريقة يستطيع بها الإمساك بزوجته وذلك الكاهن معاً ليلقنهما درساً لا ينسيانه. وعندما

عادت المرأة من الكنيسة، تبينت من ملامح وجه زوجها أنه في غاية الضيق؛ ولكنه كان يسعى بكل جهده لإخفاء ما فعله وما يعرفه. وكان قد قرر بينه وبين نفسه أن يقضي الليلة القادمة عند البوابة الخارجية بانتظار مجيء ذلك الكاهن. فقال لامرأته:

ـ سأذهب هذه الليلة للعشاء خارج البيت، فأغلقي الباب الخارجي جيداً، وكذلك باب السلّم وباب الحجرة، ونامي عندما تشائين.

فأجابت المرأة:

ـ سأفعل ما قلته.

وعندما رأت الوقت مناسباً، ذهبت إلى الشرخ الذي في الجدار، وقامت بالإشارة المتفق عليها، فحضر فيليبو على الفور. وأخبرته المرأة بما فعلته في الصباح، وبما قاله لها الزوج، ثم قالت له:

ـ أنا واثقة من أنه لن يخرج من البيت إلا للحراسة عند الباب، وما عليك إلا أن تجد طريقة للمجيء إليّ هذه الليلة من السقف، وهكذا نستطيع قضاء الليل معاً.

ابتهج الشاب بذلك وقال:

ـ اتركي لي أمر الدخول من السقف يا سيدتي.

ومع حلول الليل، اختبأ الغيور ومعه أسلحته في حجرة عند الباب الخارجي. وبعد أن أغلقت المرأة الأبواب كلها، وخاصة باب السلّم، بحيث لا يتمكن الغيور من الصعود، وجد الشاب طريقاً خفياً جاء إليها من خلاله. فذهبا معاً إلى الفراش، ومنح كل منهما الآخر المتعة والملذات، وعندما بدأ الفجر بالبزوغ، رجع الشاب إلى بيته.

أما الغيور المستاء، فقد ظل دون عشاء وهو يكاد يموت من البرد، وانتظر بأسلحته طوال الليل مجيء الكاهن إلى جانب الباب. ومع اقتراب النهار، لم يعد بإمكانه مواصلة السهر، فنام في الغرفة التي في الطابق السفلي. وبعد ذلك، استيقظ عند الضحى، وكان باب البيت قد فُتح، فتظاهر بأنه آت من الخارج، وصعد إلى البيت وتناول الطعام.

بعد قليل من ذلك جاء صبي على أنه خادم كاهن الاعتراف ليسألها إن كان من تعرفه قد رجع من جديد. فأجابت المرأة التي كانت تعرف جيداً ذلك الرسول، بأنه لم يأت

في تلك الليلة، وأنه إذا استمر الأمر على هذا النحو، فقد تتمكن من انتزاع ذلك الخبيث من رأسها. وماذا سأقول لكن الآن؟.. فقد ظل الغيور مواظباً لليال عديدة على محاولة الإمساك بالكاهن عند المدخل، بينما المرأة تواصل اللقاء بعشيقها وتقضي معه أمتع الأوقات. وأخيراً لم يعد الغيور قادراً على تحمل المزيد، فسأل زوجته عما قالته لكاهن الاعتراف في ذلك الصباح. فقالت له المرأة إنها لا تريد أن تخبره لأن ما قالته لم يكن شريفاً ولا لائقاً.

فقال الغيور:

ـ أيتها المرأة الماجنة، إنني أعرف ما قلتِه، وعليّ أن أعرف الآن من هو الكاهن الذي تحبينه ويأتي كل ليلة للنوم معك بتراتيله. فإما أن تخبريني أو أقطع الآن أوردتك.

فأجابت المرأة بأنها لا تحب في الحقيقة أي كاهن.

ـ كيف؟.. ـ سألها الغيور، ثم قال ـ أولم تخبري كاهن الاعتراف بذلك؟..

قالت المرأة:

ـ أنا لم أخبرك بهذا، ويبدو لي أنك كنت حاضراً هناك عند الاعتراف. ولكنني قلته فعلاً.

فقال الغيور:

ـ أخبريني إذن، وبسرعة، من هو ذلك الكاهن؟..

فانفجرت المرأة في الضحك وقالت:

ـ يسعدني كثيراً أن تتمكن امرأة بسيطة مثلي من اقتياد رجل من قرنيه كأنه خروف إلى المسلخ؛ مع أنك لستَ حكيماً ولم تكن كذلك منذ اللحظة التي سمحت فيها لشيطان الغيرة الدخول إلى قلبك دون سبب، وكلما كان غباؤك أكبر تكون أمجادي أقل. أوتظن يا زوجي العزيز أنني عمياء العينين مثلما أنت أعمى العقل؟.. الحقيقة إنني لستُ كذلك، فمنذ النظرة الأولى عرفت من هو الكاهن الذي تلقى اعترافي، وأدركت أنه أنت نفسك. ولكنني قررت أن أمنحك ما كنت تبحث عنه، وقد أعطيتك إياه. ولو أنك كنت حكيماً مثلما تظن نفسك، لما لجأت إلى تلك الطريقة لمعرفة أسرار زوجتك العفيفة.

ولولا شكوكك السخيفة الباطلة، لأدركت أنني كنت أقول الحقيقة دون أن أرتكب أية خطيئة أو فاحشة. فقد قلت لك إنني مغرمة بكاهن؛ ولكن، ألم تكن أنت نفسك، يا من أخطأت في حبي لك، ترتدي زي كاهن آنذاك؟.. وقلت لك إنه لا وجود لباب يقف في وجهه عندما يريد النوم معي؛ فأي باب حال بينك وبين المجيء إليّ متى شئت حيثما أكون في بيتك؟.. وقلت لك إن الكاهن ينام معي كل ليلة؛ ومتى حدث ولم تنم معي؟.. وكلما أرسلت إلي ذلك الصبي، كنت تتغيب عن النوم معي، فكنت أقول له إن الكاهن لم يأت. وقد كان بإمكان أي رجل، لم تعمه الغيرة، أن يفسر كل هذا على خير ما يرام. ثم إنك كنت تبقى في البيت، مترصداً عن الباب، وتظن أنك أقنعتني بأنك ذاهب للعشاء خارج البيت! عد إلى رشدك وكن رجلاً مثلما يتوجب عليك أن تكون؛ ولا تترك امرأة مثلي، أنت تعرف عاداتها وعفتها، تسخر منك وتخدعك. ودعك من هذه الرقابة الصارمة، لأنني أقسم لك بالله إنني إذا ما رغبتُ في تركيب قرون لك، فإنني سأفعل ما أشتهي دون أن تعلم به، حتى لو كانت لك مئة عين وليس عينان فقط.

عندما سمع الغيور البائس هذا الكلام، وكان يظن أنه قد استطاع بمكره أن يطلع على سر زوجته، لم يجد ما يرد به، وقدر أن زوجته امرأة حكيمة وصالحة. وتخلى عن غيرته في الوقت الذي كان عليه التمسك بها، مثلما تمسك بها عندما لم يكن بحاجة إليها. وهكذا تمكنت المرأة الحصيفة ـ بما يشبه الإذن بعمل ما تشتهي ـ من إدخال عشيقها من الباب، وليس من السقف مثل القطط. وصارت تلتقي به، بكل تكتم، ويقضيان معاً أجمل وأمتع لحظات الحياة.

القصة السادسة

بينما السيدة إيزابيل مع عشيقها ليونيتو، يأتي لزيارتها السيد لامبيرتوشيو الذي يحبها، وفي هذه الأثناء يحضر زوجها؛ فتجعل السيد لامبيرتوشيو يخرج من بيتها وهو يشهر سيفه، ثم يرافق زوجها ليونيتو بعد ذلك ويوصله إلى بيته.

أُعجب الجميع بقصة فياميتا، وأكد كل واحد منهم أن المرأة قد أحسنت صنعاً، وأنها فعلت ما يستحقه ذلك الرجل البهيمة. وبعد أن انتهت، أمر الملك بامبينيا بأن تواصل؛ فبدأت بالقول:

ـ كثيرون هم الذين يتكلمون بسذاجة، ويقولون إن الحب يُخرج المرء عن طوره ويذهب بعقله، ويجعل المحبين يتصرفون بطيش وتهور. لكنني أرى أنها فكرة بلهاء؛ وقد أثبتت قصص كثيرة مما روي هذا الرأي، ولسوف أحاول إثباته أيضاً بقصتي هذه.

في مدينتنا وافرة الثروات والخيرات، كانت تعيش سيدة شابة ونبيلة، وهي فوق ذلك باهرة الجمال. وكانت زوجة فارس نبيل ومقدام. ومثلما يحدث عادة، فإن أناساً كثيرين يملون من تناول الطعام نفسه، ويرغبون أحياناً في التنويع، وهو ما جرى لهذه السيدة التي لم يرضها زوجها كثيراً، فأحبت شاباً يدعى ليونيتو، شديد اللطف والكياسة، وإن لم يكن عريق النسب؛ وقد بادلها هو أيضاً الحب بمثله. ومن النادر، كما تعرفون، ألا يحدث ما يعكر صفو العاشقين. ولأن هذه المرأة باهرة الحسن وشديدة الجاذبية، فقد أُغرم بها فارس يدعى السيد لامبيرتوشيو، غير أن المرأة لم تجد في نفسها ميلاً إليه، لأنها رأت فيه رجلاً فظاً وثقيل الظل. لكنه ألح عليها كثيراً، وحاول استمالتها بالرسائل. وعندما لم يفلح في الحصول على شيء، أرسل إليها مهدداً إياها بالتشهير إذا هي لم تستجب لرغبته؛ فخافت المرأة من تهديده، لأنها تعرف أنه رجل متسلط وواسع النفوذ، وقررت الرضوخ لإرادته. وكانت السيدة (واسمها إيزابيل) قد ذهبت، كما هي عادتنا في الصيف، للإقامة في مزرعة بديعة تملكها في الريف. وذات صباح، اضطر زوجها إلى امتطاء جواده للسفر إلى مكان عليه أن يقضي فيه بضعة أيام. فبعثت إلى عشيقها ليونيتو تستدعيه لقضاء بعض الوقت معها، فوافاها بكل سرور وبأقصى سرعة. وفي أثناء ذلك، وصل إلى لامبيرتوشيو نبأ سفر زوج السيدة، فسارع إلى امتطاء جواده، وذهب إلى بيتها، وطرق الباب. وحين رأته خادمة السيدة، هرعت إليها راكضة، وكانت في مخدعها مع ليونيتو، فنادتها قائلة:

ـ سيدتي، لقد حضر السيد لامبيرتوشيو، وهو ينتظر عند الباب.

ما إن سمعت السيدة ذلك، حتى أحست أنها أتعس امرأة في الدنيا؛ ولكنها شعرت بخوف شديد أيضاً. فتوسلت إلى ليونيتو ألا يغضب، وأن يختبئ قليلاً وراء ستائر السرير

ريثما يغادر السيد لامبيرتوشيو البيت. ولأن ليونيتو كان يخشاه أكثر مما تخشاه السيدة، فقد سارع إلى الاختباء مثلما طلبت منه. ثم أمرت السيدة خادمتها بأن تذهب وتفتح الباب للسيد لامبيرتوشيو؛ وما إن فتحت له الخادمة الباب حتى ترجل عن جواده وربطه هناك في الخارج، وصعد فوراً إلى الطابق العلوي.

تصنعت السيدة إبداء البشر والسعادة وهي تنتظره في أعلى السلم، واستقبلته بأقصى ما استطاعت من عبارات البهجة، ثم سألته عما دفعه إلى المجيء. فبادرها الفارس بالعناق والتقبيل، ثم قال لها:

ـ لقد علمت يا حبيبتي أن زوجك غائب عن البيت، فجئت لقضاء بعض الوقت معك.

وبعد أن قال هذه الكلمات، دخل إلى مخدعها وأغلق الباب من الداخل وبدأ بمداعبتها.

وبينما هو معها على تلك الحال، غير عارف بحسابات السيدة، حدث أن رجع الزوج. وما إن رأته الخادمة من النافذة، وقد صار قريباً من البيت، حتى هرعت راكضة إلى مخدع سيدتها قائلة:

ـ سيدتي، لقد رجع سيدي، وصار في فناء البيت.

سيطر الذعر على المرأة حين سمعت ذلك، وهي ترى أن لديها رجلين في البيت (وتعلم أنها لا تستطيع إخفاء الفارس لأن جواده في الفناء)، فأدركت أنها ميتة لا محال. ولكنها ما لبثت أن قفزت من الفراش وقد عزمت على أمر، وقالت للسيد لامبيرتوشيو:

ـ إذا كنت تنوي لي الخير وترغب في إنقاذي من الموت، فافعل ما أقوله لك. اشهر خنجرك في يدك، وأظهر مشاعر الحنق والغضب، وانزل السلم مغادراً وأنت تقول: «أقسم بالله أنني سأجده في مكان آخر». فإذا أراد زوجي أن يستوقفك أو يسألك عما تعنيه، فلا تقل شيئاً سوى ما قلته لك، ثم امتطِ جوادك، ولا تبق معه مهما كانت الأسباب.

فقال لها السيد لامبيرتوشيو إنه سيفعل ذلك بكل سرور، ثم استل خنجره وهو يكاد يختنق من الإنهاك السابق، ومن الغضب الذي سببه له رجوع الزوج، وفعل ما أمرته به السيدة. وكان الزوج قد ترجل في أثناء ذلك عن حصانه في الفناء، وأدهشته رؤية الجواد الآخر هناك، فأراد الصعود ليستطلع الأمر، وإذا به يرى السيد لامبيرتوشيو نازلاً، فأذهله

كلامه وما بدا على وجهه من الغضب، وقال له:

- ما هذا الذي يحدث أيها السيد؟..

ولكن السيد لامبيرتوشيو وضع قدمه في الركاب، وامتطى جواده مكتفياً بالقول:

- أقسم بجسد المسيح أن أعثر عليه في مكان آخر.

ثم انصرف.

صعد السيد إلى الطابق العلوي، فوجد زوجته في أعلى السلم وقد سيطر عليها الذعر وملأ جوانحها الخوف، فقال لها:

- ما هذا الذي يحدث؟.. ومن هو هذا الذي يبحث عنه السيد لامبيرتوشيو غاضباً ومتوعداً؟..

فاقتربت السيدة من باب مخدعها ليسمع ليونيتو كلامها، وأجابت:

- سيدي، لم أعرف في حياتي خوفاً مثل هذا الذي عرفته اليوم. لقد دخل هنا فتى هارب وخائف، لم أره من قبل ولا أعرف من يكون، وكان السيد لامبيرتوشيو يطارده شاهراً خنجره، وشاءت المصادفة أن يجد باب غرفتي مفتوحاً، فقال لي وهو يرتعش من الخوف: «سيدتي، بالله عليك ساعديني، لا تدعيه يقتلني وأنا في حمى ذراعيك». عندئذ نهضتُ قافزة، وحين أردتُ سؤاله عن اسمه وما جرى له، سمعت السيد لامبيرتوشيو يصعد السلم وهو يصيح قائلاً: «أين أنت أيها الخائن؟..». فأسرعتُ بالوقوف أمام باب مخدعي، وعندما أراد الدخول منعته. وقد كان مهذباً في هذا الشأن، حين رأى أنني لا أرتضي دخوله الحجرة. وبعد أن قال كلاماً كثيراً، نزل السلم بالحال التي رأيته عليها.

عندئذ قال الزوج:

- لقد أحسنت صنعاً يا امرأة، فأي إهانة كانت ستلحق بنا لو أن أحداً قُتل هنا في بيتنا. وقد تصرف السيد لامبيرتوشيو بخسة لا تليق بفارس عندما طارد شخصاً احتمى بنا.

ثم سألها بعد ذلك أين هو ذلك الشاب.

فأجابت الزوجة:

ـ لست أدري أين اختبأ.

وهنا قال الزوج:

ـ أين أنت أيها الفتى؟.. يمكنك الخروج آمناً ودون خوف.

كان ليونيتو قد سمع كل ما دار بينهما ، فخرج من مخبئه وهو يرتعش خوفاً ، كما لو أنه كان مهدداً بالموت حقاً. فسأله الزوج:

ـ ما هو الخلاف بينك وبين السيد لامبيرتوشيو؟..

فأجابه الفتى:

ـ لا وجود لأي خلاف يا سيدي؛ وهذا ما يجعلني أظن أنه ليس في كامل وعيه ، أو أنه خلط بيني وبين شخص آخر ، لأنه عندما رآني في الشارع ، غير بعيد عن هذا المنزل ، استل سيفه وقال: «أيها الخائن ، ستموت الآن». فلم أتوقف لسؤاله عن السبب ، بل بادرت إلى الهرب بأسرع ما أستطيع ، وجئت إلى هنا ، حيث تمكنت من النجاة بفضل هذه السيدة الكريمة.

فقال له الزوج:

ـ لا تخف ، سوف أوصلك بنفسي إلى بيتك سليماً معافى ، وسيكون عليك أن تستوضح بعد ذلك سبب فعلته هذه.

تناولوا العشاء معاً ، ثم أركبه الزوج جواداً ورافقه حتى منزله في فلورنسا. وعمل الفتى بما طلبته منه السيدة ، فذهب في تلك الليلة بالذات إلى السيد لامبيرتوشيو سراً ، واتفقا معاً على كتمان الأمر ، بحيث لا يعلم الزوج ، مهما جرى من أحاديث ، بالخدعة التي أقدمت عليها زوجته.

القصة السابعة

يبوح لودفيك للسيدة بياتريس بحبه لها وهيامه بها ، فترسل

زوجها إيغانو إلى الحديقة مرتدياً ملابسها، بينما هي تضاجع لودفيك الذي ينهض بعد ذلك، ويذهب إلى الحديقة ليضرب إيغانو.

القصة التي روتها بامبينيا عن حيلة السيدة إيزابيلا لاقت إعجاب الجميع. غير أن فيلومينا التي أمرها الملك بمواصلة القص، قالت:

ـ صديقاتي العزيزات، لا أظن أنني سأكون مخطئة إذا ما قلت إن قصتي لن تكون أقل جودة من القصة السابقة. ولا بد لكنّ أن تعلمن، بادئ ذي بدء، أنه منذ وقت قريب، كان يعيش في مدينة باريس نبيل فلورنسي تحول بسبب افتقاره إلى تاجر، وقد سارت أموره على أحسن ما يرام في التجارة، وعاد أكثر ثراء مما كان عليه. وكانت زوجته قد أنجبت له ابناً وحيداً سماه لودفيك. ولأنه أراد لابنه أن يكون نبيلاً وليس تاجراً، فإن الأب لم يحاول إدخاله في شؤون التجارة وصفقاتها، وإنما وضعه، مثل غيره من الرجال النبلاء، في خدمة ملك فرنسا، حيث تعلم الكثير من العادات النبيلة وغيرها من الأشياء الطيبة. وبينما هو هناك، حدث أن عاد بعض الفرسان من الأراضي المقدسة، واختلطوا ببعض الشبان، ومن بينهم لودفيك الذي سمعهم يتحدثون في ما بينهم عن النساء الجميلات في فرنسا وإنكلترا وأماكن أخرى من العالم. وراح أحدهم يقول إنه جاب معظم أنحاء العالم، ورأى الكثير من النساء، غير أنه لم ير قط من هي أجمل من امرأة إيغانو دي جالوزي في بولونيا، المدعوة بياتريس. وقد وافقه على ذلك القول جميع رفاقه الذين رأوها معه في بولونيا. وحين سمع لودفيك أقوالهم تلك، ولم يكن قد أحب أي امرأة بعد، تأججت في نفسه الرغبة في رؤيتها، ولم يعد قادراً على التفكير في أي أمر آخر. وصار لا همّ له إلا الذهاب إلى بولونيا ورؤيتها، والبقاء هناك إذا ما كان وجوده يرضيها. فأخبر أباه بأنه راغب في السفر إلى الأراضي المقدسة، وحصل على موافقته بمشقة كبيرة. وعند وصوله إلى بولونيا، اختار لنفسه اسم أنيكينو، وشاء له الحظ أن يرى، في اليوم التالي لوصوله، تلك السيدة في إحدى الحفلات، فبدت له أجمل بكثير من كل ما تصوره وفكر فيه؛ فوقع في هواها وتدله في حبها، وصمم على عدم مغادرة بولونيا ما لم ينل حبها. وراح يفكر في الطريقة التي عليه اتباعها للوصول إلى مراده، وتخلى عن كل الأساليب الممكنة، ورأى أنه إذا استطاع أن يكون خادماً لدى زوجها، وكان لديه

الكثير من الخدم، فربما يُقدر له أن يصيب ما يتمناه. عندئذ باع خيوله، ورتب أمر خدمه بحيث يعيشون حياة جيدة بعد أن أوصاهم بالتظاهر بعدم معرفته. وكان قد عقد صداقة مع صاحب النزل الذي أقام فيه، فقال له إنه مستعد بكل سرور للدخول في خدمة سيد محترم، إذا ما وجد له واحداً يقبله. فرد عليه صاحب النزل:

ـ لا بد أنك ستكون خادماً تلقى إعجاب سيد نبيل من هذه البلاد يدعى إيغانو، لديه الكثير من الخدم، ويريدهم جميعاً بمثل مظهرك وسلوكك. سوف أحدثه أنا بأمرك.

ومثلما قال فعل. وقبل أن يفترق صاحب النزل عن إيغانو كان قد اتفق معه على استخدام أنيكينو الذي أعجبه سلوكه إلى أبعد الحدود. وبينما هو يعيش عند إيغانو، وتتوفر له الفرص بكثرة لرؤية تدابيره، راح يخدمه بسعادة وبأفضل ما يمكن، مما حبب إيغانو به، حتى صار غير قادر على عمل أي شيء دون مساعدته. ولم يعد يكلفه بأموره الشخصية وحسب، بل أوكل إليه إدارة كل شيء. وحدث في أحد الأيام أن ذهب إيغانو في رحلة صيد بالصقور، وبقي أنيكينو في البيت، فجلست مادونا بياتريس تلعب الشطرنج معه. ولم تكن قد فطنت إلى حبه لها بعد، ولكنها كثيراً ما أطرت عليه وأبدت إعجابها بعاداته وأساليبه الراقية. وبينما هما يلعبان، راح أنيكينو يمكّنها، ببراعة، من الفوز عليه، وكانت السيدة تحتفل بذلك مبتهجة وتواصل اللعب. وعندما توقفت كل وصيفات السيدة عن متابعة لعبهما، وتركنهما يلعبان وحيدين، أطلق أنيكينو زفرة طويلة.

فنظرت إليه السيدة وقالت:

ـ ما بك يا أنيكينو؟.. أيؤلمك إلى هذا الحد فوزي عليك؟..

فأجابها أنيكينو:

ـ سيدتي، أمر أعظم من هذا بكثير هو سبب زفرتي.

وهنا قالت السيدة:

ـ أخبرني بهذا السبب، أرجوك.

وحين سمع أنيكينو الذي يحبها أكثر من أي شيء تقول له «أرجوك»، أطلق زفرة

أقوى من السابقة. فتوسلت إليه السيدة مرة أخرى أن يخبرها بسبب زفراته.

ـ أخشى يا سيدتي، إذا ما أخبرتك، أن تتضايقي من كلامي، ويقلقني فوق ذلك أن تخبري به شخصاً آخر.

فردت السيدة عليه بالقول:

ـ لن أتضايق من أي شيء، وأؤكد لك أيضاً أنني لن أخبر أحداً بما ستقوله، إلا إذا أردت أنت ذلك.

عندئذ قال أنيكينو:

ـ ما دمتِ تعدينني هذا الوعد، فسوف أخبرك.

واغرورقت عيناه بالدموع وهو يخبرها بحقيقة شخصيته، وبما سمعه عنها، وأين سمعه، وكيف أغرم بها، وكيف جاء، ولماذا دخل للعمل خادماً لدى زوجها؛ ثم توجه إليها أخيراً بكل تذلل، متوسلاً منها أن ترأف به، فتحفظ سره وتستجيب لحبه الجامح. أو أن تتركه ـ إذا كانت غير راغبة في ذلك ـ بهذا الزي الذي هو فيه، والسماح له بالبقاء على حبها. آه أيتها العذوبة الفريدة في الدماء البولونية، لكم كنتِ جديرة بالمديح على الدوام في هذه الشؤون! فأنت لم تتكبري يوماً على الدموع، وكنت تتحسسين الزفرات والتوسلات على الدوام، وتتحنين مذعنة لنزوات الحب والجوى؛ ولو أردت امتداحك بقصائد الثناء، لما كلّ صوتي وهو يلهج بالثناء! وبينما أنيكينو يتكلم، كانت السيدة النبيلة تنظر إليه؛ وبعد أن تأكد لها صدق كلامه، وتلقت بقوة توسلات حبه، راحت هي تتنهد أيضاً. وبعد أن أطلقت بعض الزفرات، قالت له:

ـ اهدأ يا أنيكينو الحبيب وكن مطمئناً؛ فكل السادة والنبلاء «وهم كثير» الذين غازلوني وتوددوا إلي، وما زالوا يتوددون، لم يستطع أحد منهم أن يستميلني أو يهز مشاعري؛ أما أنت، وخلال هذا الوقت القصير الذي قلت فيه ما قلته، استطعت أن تستحوذ عليّ فأكون لك أكثر مما أنا لنفسي. أرى أنك قد كسبت حبي بكل جدارة، وأنا أقدمه إليك وأعدك بأن تستمتع به قبل انقضاء الليلة القادمة. ومن أجل هذا، أريدك أن تأتي إلى مخدعي عند منتصف الليل، وسوف أترك الباب مفتوحاً، وأنت تعرف على أي جانب من السرير أنام. ستأتي إلي، فإن وجدتني نائمة، أيقظني. ولسوف أوفر السلوى

لرغبتك الطويلة المتأججة. ولكي تصدقني، سأعطيك الآن قبلة مقدماً.

وطوقت عنقه بذراعيها، وقبّلته بعذوبة ومحبة، وبادلها أنيكينو القبلة. ثم انصرف عنها بعد ذلك لأداء بعض واجباته، منتظراً بأعظم لهفة وسعادة حلول الليل. وبعد أن رجع إيغانو من الصيد، تناول عشاءه وذهب للنوم فوراً، لأنه كان متعباً. وذهبت السيدة وراءه، وتركت باب المخدع مفتوحاً كما وعدت. وفي الساعة الموعودة، جاء أنيكينو ودخل بصمت إلى المخدع، ثم أغلق الباب من الداخل، واتجه إلى الجانب الذي تنام فيه. وما إن أحست المرأة بقدوم أنيكينو، حتى أمسكت يده بكلتا يديها وثبتته بقوة، ثم تململت في السرير إلى أن أيقظت إيغانو النائم، وقالت له:

ـ لم أشأ أن أقول لك أي شيء عندما جئت لأنك كنت تبدو متعباً؛ ولكن أخبرني يا إيغانو، حفظك الله، من أفضل خادم في إخلاصه ووفائه بين الخدم في بيتك؟..

فرد عليها إيغانو:

ـ ما هذا السؤال الذي تسألين يا امرأة؟.. ألا تعرفين؟.. لا وجود هنا لمن وثقت به وأحببته مثلما وثقت بأنيكينو وأحببته. ولكن، لماذا تسألينني الآن؟..

حين أحس أنيكينو باستيقاظ إيغانو، وسمع أنهما يتكلمان عنه، حاول أن يشد يده عدة مرات كي يفلت من يدي السيدة وينصرف، وخشي أن يكون قد وقع في مكيدة؛ لكن السيدة كانت تتشبث بيده بطريقة لم يستطع التخلص منها والابتعاد عنها.

وقالت السيدة رداً على إيغانو:

ـ سأخبرك بالسبب. فقد كنت أظن أنه مثلما تظنه أنت، لكنه خدعني وخيب ظني؛ فعند ذهابك اليوم إلى الصيد، ظل هو هنا. وعندما بدا له الجو مناسباً، لم يخجل من الطلب مني أن أستجيب لنزوته؛ فعمدت أنا إلى أن أتظاهر بالقبول، وحددت له موعداً، كي أثبت لك خداعه بالدليل القاطع، وقلت له إنني سأخرج إلى الحديقة بعد منتصف الليل، وسأنتظره عند شجرة السرو. لكنني لا أفكر طبعاً في الذهاب إلى هناك. أما إذا كنت أنت راغباً في معرفة مدى وفاء خادمك، فيمكنك أن ترتدي أحد أثوابي وأن تضع طرحة وخماراً على رأسك، وتخرج إلى الحديقة بانتظار مجيئه؛ وأنا متأكدة من أنه سيحضر.

حين سمع إيغانو هذا الكلام، قال لها:

ـ من المناسب أن أذهب بنفسي للتأكد من ذلك.

فنهض في الظلام، وارتدى أحد أثواب السيدة، وغطى رأسه، ثم خرج إلى الحديقة وراح ينتظر مجيء أنيكينو عند أصل شجرة السرو.

وما إن رأته السيدة يغادر المخدع، حتى نهضت وأوصدت الباب من الداخل. أما أنيكينو الذي أحس بخوف لم يشعر بمثله في حياته، وكان يسعى جاهداً للإفلات من يديّ السيدة الممسكتين بيده، فلعنها في نفسه مئة ألف مرة، ولعن حبه ونفسه لأنه وثق بها. ولكنه حين سمع ما فعلته في نهاية الأمر، أحس بأنه أسعد رجل في العالم. وبعد أن أوصدت السيدة الباب وعادت إلى السرير، تعريا معاً مثلما رغبت هي، وأمضيا وقتاً لا بأس به في المداعبات والمتعة. وعندما رأت السيدة أن اللحظة المواتية قد أزفت، قالت له:

ـ يا حبي الرقيق، خذ الآن عصا واذهب إلى الحديقة، وتظاهر هناك بأنك إنما غازلتني لتمتحن مقاومتي للغواية، ثم توجه بالسباب واللعن إلى إيغانو على أنه أنا، واضربه ضرباً مبرحاً بالعصا؛ وهكذا نستطيع أن نواصل فيما بعد لقاءاتنا ومتعنا باطمئنان.

نهض أنيكينو وخرج إلى الحديقة حاملاً قضيب صفصاف في يده، وعندما وصل شجرة السرو ورآه إيغانو قادماً، نهض كما لو أنه سيستقبله بحفاوة وسعادة، فبادره أنيكينو بالقول:

ـ آه أيتها المرأة الخبيثة الضالة! هل صدقتِ أنني فكرت أو سأفكر في إلحاق مثل هذه الإهانة بسيدي؟.. فلتكوني ملعونة ألف مرة!

ورفع عصاه وبدأ الضرب.

حين سمع إيغانو هذه الكلمات ورأى العصا، حاول الهرب دون أن ينطق بكلمة واحدة، فلحق به أنيكينو دون أن يتوقف عن القول:

ـ انصرفي، ولتحل عليك لعنة الرب أيتها المرأة الفاجرة. غداً سوف أخبر إيغانو بما فعلتِه أيتها الخبيثة.

كان إيغانو قد تلقى ضربتين قويتين، فمضى بأسرع ما يمكنه عائداً إلى المخدع؛

وسألته السيدة عندئذ إذا ما كان أنيكينو قد حضر إلى الحديقة. فقال إيغانو:

ـ ليته لم يأت، لأنه ظن أنني أنتِ، فأوسعني ضرباً ووجه إليّ أقذع الشتائم التي لم تسمع مثلها أخبث النساء. وما أثار عجبي هو أنه قال وفعل كل ذلك لا ليلحق العار بي، وإنما لأنه لاحظ أنك تبدين له بعض اللطف والمودة، فأراد أن يختبرك.

فقالت السيدة:

ـ الحمد والشكر لك أيها الرب، لأنه اختبرني بالكلام، واختبرك أنت بالأفعال. ويمكن القول إنني قادرة على تحمل الكلام بصبر أكبر من قدرتك على تحمل الأفعال. وبما أنه مخلص لك إلى هذا الحد، لا بد لك من تكريمه وتقريبه.

فقال إيغانو:

ـ إنك محقة فيما تقولين.

وبالاستناد إلى ذلك، بدا له أن امرأته هي أكثر النساء وفاء، وأن خادمه هو أشد الخدم إخلاصاً، وهو ما لم يتوافر مثله لأي نبيل غيره. ولكن السيدة ظلت تضحك مع أنيكينو مرات ومرات مما جرى، وصارا يتمتعان بعد ذلك بسهولة أكبر في التواصل والغرام، واستمرا على تلك الحال طوال الوقت الذي ظل فيه أنيكينو يعمل في خدمة إيغانو في بولونيا.

القصة الثامنة

يشعر أحدهم بالغيرة على امرأته، ولكي تنتبه هي إلى مجيء عشيقها في الليل، تربط خيطاً بإصبعها. يلاحظ الزوج ذلك، وبينما هو يطارد العشيق، تضع الزوجة في فراشها امرأة أخرى، فيضربها الزوج ويقص شعرها، ثم يذهب لإحضار إخوة زوجته الذين يشتمونه ويهينونه عندما يرون أنه يكذب.

رأى الجميع أن مادونا بياتريس امرأة بالغة المكر والخبث بخداعها لزوجها، وأكدوا أن خوف أنيكينو كان عظيماً دون شك عندما سمع السيدة تقول، وهي تمسك به بقوة، إنه راودها عن نفسها وطلب حبها. وحين رأى الملك أن فيلومينا قد أنهت قصتها وصمتت، التفت إلى نيفيله وقال لها: إنه دورك في الكلام.

فابتسمت هذه قليلاً، ثم بدأت قائلة:

- صديقاتي العزيزات، عبء عظيم يثقل عليّ وأنا أرى أنه عليّ رواية قصة تمتعكن بعد أن استمعتن إلى القصص الممتعة السابقة. ولكنني آمل، بعون الله، أن أتمكن من عمل ذلك.

كان يعيش في مدينتنا تاجر واسع الثراء يدعى أريشيو بيرلنيري، وقد فكر بغباء، مثلما يفعل التجار كل يوم، في بلوغ مراتب النبالة عن طريق امرأته، فتزوج من شابة نبيلة تدعى السيدة سيسموندا. ولأنه كان كثير الأسفار، كغيره من التجار، ولا يبقى معها إلا لفترات قصيرة، فقد أحبت شاباً يدعى روبرتو، دأب على التودد إليها منذ وقت طويل، وتوصلت إلى علاقة حميمة معه. وقد فعلت ذلك بقليل من الحذر والتكتم لأنه كان يروقها جداً. وربما سمع أريشيو شيئاً عن تلك العلاقة، مما حوّله إلى أشد رجال العالم غيرة، فتخلى عن أسفاره وعن تجارته وكل أعماله الأخرى، وكرس كل وقته لحراسة زوجته. ولم يعد ينام إلا بعد أن تأوي هي إلى الفراش، مما ضايق المرأة وأغضبها، لأنها لم تعد تجد طريقة للقاء روبرتو. ولكنها راحت تعمل الفكر للتوصل إلى طريقة تتيح لها اللقاء به، ولاسيما أنه كان يتلهف للقاء بها أيضاً؛ فخطرت لها هذه الطريقة: بما أن لمخدعها نافذة تطل على الشارع، ولأنها لاحظت أن زوجها يجد مشقة في النوم، ولكنه عندما ينام، يستغرق عميقاً في النوم؛ فقد فكرت في الطلب من عشيقها المجيء إلى باب بيتها عند منتصف الليل، فتفتح له الباب وتقضي معه بعض الوقت بينما زوجها مستغرق في نومه العميق. ولكي تعرف موعد مجيئه دون أن يلحظ أحد ذلك، فكرت في أن تُنزل من إحدى زوايا النافذة خيطاً رفيعاً يتدلى طرفه إلى مقربة من الأرض في الشارع، وتخفي طرفه الآخر في الغرفة بين الملابس، وعندما تأوي إلى السرير تربطه بإبهام قدمها؛ ثم أخبرت روبرتو بذلك طالبة منه أن يجذب الخيط عندما يجيء، فإذا كان زوجها نائماً، تفك الخيط وتخرج لتفتح الباب. أما إذا كان الزوج غير نائم، فتشد الخيط باتجاهها،

كي لا يظل عشيقها ينتظر دون طائل. أعجبت الخطة روبرتو، وعمل بها مرات كثيرة، فكان يوفق أحياناً في مرافقتها، ويخفق في أحيان أخرى.

وفي إحدى الليالي، بعد وقت طويل على استخدام هذه الوسيلة، وبينما الزوجة نائمة، مدّ أريشيو قدمه وهو في الفراش، فاشتبكت بذلك الخيط، فأمسك به بيده ووجده مربوطاً في قدم زوجته، فقال في نفسه: «لا بد أن تكون في الأمر خدعة». وعندما رأى أن الخيط يتدلى من النافذة، تأكدت شكوكه. فانتزع الخيط عندئذ من إصبع زوجته بكل هدوء، وربطه بإصبعه، وظل ينتظر ليرى ما الذي يعنيه كل ذلك. ولم يمض وقت طويل حتى جاء روبرتو، فجذب الخيط مثلما اعتاد أن يفعل، فأحس الزوج بذلك؛ ولأنه لم يكن قد أحكم ربط الخيط جيداً، ولأن روبرتو شد الخيط بقوة، ووجده يسقط كله بين يده، فقد ظن أنها تريده أن ينتظر، وكان هذا ما فعله.

نهض أريشيو مسرعاً، فحمل سلاحه واندفع راكضاً باتجاه الباب، ليرى من هو ذلك الشخص ويقتله. وبالرغم من كونه تاجراً، إلا أنه كان رجلاً قوياً وعنيداً؛ فلم يفتح الباب برفق مثلما اعتادت زوجته أن تفعل، فانتبه روبرتو الذي كان ينتظر إلى ذلك، وأدرك أن الزوج هو من يفتح الباب. فسارع إلى الهرب، ولحق به أريشيو. وبعد أن هرب روبرتو مسافة طويلة دون أن يتوقف الآخر عن مطاردته، ولأن روبرتو كان مسلحاً أيضاً، فقد استل سيفه وبدأ معه مبارزة حامية الوطيس، وكل منهما يحاول جرح خصمه وحماية نفسه.

وكانت السيدة قد استيقظت عندما فتح أريشيو باب المخدع، وحين رأت الخيط مقطوعاً من إصبعها، أدركت على الفور أن خدعتها قد انكشفت؛ وعرفت من الجلبة أن أريشيو يطارد روبرتو، فنهضت مسرعة وهي مدركة لما يمكن أن يحدث، فاستدعت خادمتها التي تكتم كل أسرارها، وتوسلت إليها طويلاً حتى أقنعتها بأن تندس مكانها في سريرها. وألحت عليها أن تحتمل بصبر كل الضرب الذي سيضربها إياه أريشيو، دون أن تكشف عن نفسها. ووعدتها أن تعوضها بمكافأة لن تتيح لها التذمر فيما بعد. ثم أطفأت مصباح المخدع، وخرجت لتختبئ في مكان آخر من البيت بانتظار ما سيحدث.

ومع تواصل جلبة المبارزة بين أريشيو وروبرتو، أحس بها الجيران في الحي، فنهضوا وراحوا يلعنونهما. ولخشية أريشيو من أن يتعرف الجيران عليه، ودون أن يعرف من هو الشاب، أو يتمكن من إصابته بأي جرح، رأى أن يتركه يذهب في سبيله. ورجع إلى بيته،

ثم دخل المخدع غاضباً ومعكر المزاج، وراح يقول:

ـ أين أنت أيتها الخبيثة؟.. لقد أطفأتِ النور كي لا أجدك، ولكنك مخطئة!

واتجه إلى السرير، معتقداً أنه أمسك بزوجته. وانهال على الخادمة لكماً ورفساً إلى أن ورّم وجهها وملأه بالكدمات، ثم جز شعرها أخيراً، دون أن يتوقف طوال الوقت عن توجيه أقذع الشتائم التي لم يُقل مثلها لأسوأ النساء قط. وكانت الخادمة تبكي بصبر، وإن أفلتت منها بين لحظة وأخرى عبارة توسل: «آي! حباً بالرب! » أو «كفى! ». إلا أن صوتها كان متقطعاً من البكاء، فلم يستطع أريشيو الذي أعماه الغضب أن يميز الصوت ويعرف أنه ليس صوت امرأته. وبعد أن أشبعها ضرباً وجز شعرها، وهو محق كما نقول، قال لها:

ـ لن أقربك بعد اليوم أيتها المرأة الخبيثة، ولكنني سأذهب إلى إخوتك وأخبرهم بأفعالك الحميدة هذه؛ وليأتوا ويفعلوا بك ما يرونه جديراً بشرفهم، وليأخذوك من هنا، لأنه لا مكان لك بعد اليوم في هذا البيت.

قال هذا وخرج من الغرفة، ثم أغلق بابها من الخارج وانصرف. وعندما أحست السيدة سيسموندا، وكانت تسمع كل شيء، أن زوجها قد غادر البيت. ذهبت إلى المخدع ففتحته، وأضاءت النور، فوجدت خادمتها مهشمة وتبكي بحرقة. فواستها بأفضل ما استطاعت، وحملتها إلى غرفتها، حيث عكفت فيما بعد على العناية بها ومداواتها. وكان عليها أن تكافئها كثيراً حتى تتوقف عن الشكوى مما ألحقه بها أريشيو من آلام. وبعد أن اطمأنت إلى وضع الخادمة في حجرتها، رجعت السيدة إلى مخدعها فأصلحت سريرها بسرعة، وأعادت ترتيب كل شيء كما لو أن أحداً لم ينم هناك في تلك الليلة، ثم ارتدت ثيابها وتجملت، وأشعلت قنديلاً وأخذت أقمشتها وجلست تخيط في أعلى الدرج، بانتظار ما ستنتهي إليه الأمور.

أما أريشيو، بعد أن غادر بيته، توجه مباشرة إلى منزل إخوة زوجته، وراح يقرع الباب طويلاً كي يسمعوه ويفتحوا له. وعندما تبين إخوة المرأة، وكانوا ثلاثة ومعهم أمهم، أنه أريشيو، نهضوا جميعهم وأشعلوا الأضواء وهرعوا للقائه، وسألوه عما حمله إلى المجيء وحيداً في مثل هذه الساعة. فراح يخبرهم بكل شيء، ابتداء من الخيط الذي وجده مربوطاً بقدم مادونا سيسموندا وحتى آخر ما وجده وفعله؛ وكي يقدم لهم دليلاً قاطعاً

على ما فعله، وضع بين أيديهم الشعر الذي كان يظن أنه قصه من رأس زوجته. وطلب إليهم أن يرافقوه ليفعلوا ما يرونه مناسباً لحفظ شرفهم، لأنه لا يريدها في بيته. استفظع إخوة المرأة مما سمعوه، ولم يخامرهم الشك في صحة أقواله، وتملكهم الغضب ضدها، فأشعلوا المشاعل وانطلقوا مع أريشيو إلى بيته لينكلوا بها دون رحمة. وحين رأت أمهم ذلك، راحت تبكي وتتبعهم متنقلة من أحدهم إلى آخر وهي تتوسل إليهم ألا يصدقوا تلك الأمور بهذه السهولة، وقبل أن يروا أو يعرفوا المزيد، إذ يمكن للزوج أن يكون قد غضب منها لسبب أو لآخر، وألحق بها أذى ما، وجاء الآن يقول هذه الأشياء لينقذ نفسه. ثم تقول لأبنائها إنها لا تستطيع أن تصدق حدوث ذلك، لأنها تعرف ابنتها جيداً، فهي التي ربتها منذ صغرها. ولم تتوقف طوال الطريق عن قول أمور كثيرة مشابهة.

وعندما وصلوا منزل أريشيو ودخلوه، وبدؤوا بصعود السلم، انتبهت مادونا سيسموندا إلى قدومهم، فقالت:

- من القادم؟..

فأجابها أحد إخوتها:

- ستعلمين الآن من القادم أيتها الخبيثة.

وقالت سيسموندا عندئذ:

- ولكن، ما الذي يعنيه هذا؟.. عونك يا رب! - ثم نهضت واقفة، وأضافت- أهلاً وسهلاً بكم يا إخوتي. ما الذي جئتم ثلاثتكم من أجله في مثل هذا الوقت من الليل؟..

وحين رأوها جالسة تخيط وليس على وجهها ما يشير إلى أنها قد ضُربت، بينما كان أريشيو قد ادعى بأنه ضربها ضرباً مبرحاً، عقدت الدهشة ألسنتهم للوهلة الأولى، وكبحوا اندفاع غضبهم، ثم سألوها عن حقيقة ما قاله لهم زوجها، وتوعدها إذا هي لم تخبرهم بكل شيء.

فقالت المرأة:

- لست أدري ما هو هذا الشيء الذي تريدونني أن أخبركم عنه. وأجهل ما الذي يشكو منه أريشيو.

حين رآها أريشيو، وقف مشدوهاً وهو يتذكر أنه وجَّه إلى وجهها أكثر من ألف لكمة، وملأه بالجروح والكدمات، وها هو ذا يراها الآن كما لو أن شيئاً من ذلك كله لم يحدث لها. عندئذ أخبرها إخوتها بما قاله أريشيو عن الخيط وعن ضربه لها، وكل الأمور الأخرى.

فالتفتت المرأة إلى أريشيو، وقالت:

ـ آه يا زوجي! ما هذا الذي أسمعه؟.. لماذا ترميني بسوء السمعة وتُلحق بنفسك العار، بينما لستُ كذلك، ولا أنت بالرجل الخبيث والقاسي؟.. وكيف تقول إنك كنت معي هذه الليلة، بينما أنت لم تأت إلى البيت حتى الآن؟.. ومتى ضربتني؟.. فأنا لا أتذكر أنك ضربتني.

وبدأ أريشيو الكلام قائلاً:

ـ ماذا تقولين أيتها المرأة الساقطة؟.. ألم نذهب للنوم معاً هذه الليلة؟.. ألم أرجع إلى البيت ثانية بعد أن طاردتُ عشيقك؟.. ألم أضربك وأجز شعرك؟..

فردت عليه المرأة:

ـ أنت لم تنم هذه الليلة في البيت. ولكن دعنا من هذا لأنني لا أستطيع إثباته إلا بكلماتي الصادقة. ولننتقل إلى ما تقوله عن أنك ضربتني وقصصت شعري. أنت لم تضربني قط، ويمكن للموجودين هنا، وأنت معهم، أن تتفحصوني، فلا تجدون في جسمي كله أي أثر للضرب؛ ولكنني أنصحك أنت بألا تتجرأ وتمد يدك إليّ، لأنني أقسم بصليب المسيح أنني لن أتورع عن صفعك. وأنت لم تقص شعري كما تزعم، وإلا لكنت شعرتُ بذلك ورأيته. ولكن ربما تكون فعلت بي ذلك دون أن انتبه، دعني أر إذا كان شعري قد قُصَّ أم لا.

ونزعت الطرحة عن رأسها، فكشفت أن شعرها كامل وغير مقصوص. وحين رأى إخوتها وأمها وسمعوا كل ذلك، بدؤوا يقولون لزوجها:

ـ ما الذي تقوله الآن يا أريشيو؟.. ليس هذا هو ما جئت تخبرنا بأنك فعلته، ولا ندري كيف يمكنك إثبات مزاعمك الأخرى.

ذهل أريشيو، وبدا كمن يحلم، فأراد أن يتكلم، ولكنه رأى أن ما كان قادراً على إثباته لم يعد كذلك، فلم يتجرأ على قول أي كلمة.

فالتفتت المرأة إلى إخوتها وقالت:

ـ إخوتي، أرى أنه يدفع بي إلى عمل ما لم أشأ عمله قط، أي أنه يريدني أن أخبركم بخبثه وفجوره؛ ولسوف أفعل. أعتقد جازمة بأن كل ما أخبركم به قد حدث فعلاً. وسأقول لكم كيف. هذا الرجل الصالح الذي شاء سوء طالعي أن تقدموني زوجة له، وقلتم إنه تاجر ويريد أن يصير محترماً، وإنه أشد ورعاً من ناسك، وأشد عفة من آنسة عذراء، قلما تمضي عليه ليلة دون أن يسكر في الحانات. ويذهب يوماً مع امرأة سيئة السمعة، ويتورط في يوم آخر مع غيرها؛ بينما أنا أنتظره حتى منتصف الليل، بل حتى الفجر في بعض الأحيان، مثلما وجدتموني أنتظر هذه الليلة. وأنا واثقة من أنه كان مخموراً إلى أقصى الحدود، وذهب إلى فراش إحدى المومسات، وعندما استيقظ وجد الخيط في قدمها، فأقدم على تلك المشاجرات التي ذكرها. ثم رجع إليها أخيراً، فضربها وقص شعرها؛ وظن وهو غائب عن الوعي ـ وأنا واثقة من أنه مازال يظن ـ أنه فعل كل ذلك معي أنا زوجته. ولو أمعنتم النظر في وجهه لرأيتم أنه لا يزال شبه مخمور. ولكنني، وعلى الرغم مما قاله عني، لا أريدكم أن تؤاخذوه إلا كسكران، ومثلما صفحت عنه، أرجو منكم أن تصحفوا عنه أيضاً.

وما إن سمعت أمها هذا الكلام، حتى بدأت تصيح بصخب:

ـ أحلفك بصليب المسيح يا بنيتي، لا مجال للصفح عنه، وإنما يجب قتل هذا الكلب اللئيم، لأنه غير جدير بالزواج من شابة مثلك. يا للعنة! من يسمعه يظن أنه انتشلك من الوحل! ولتنزل عليك صاعقة إذا كنت تتحملين كلمات تاجر براز الحمير المنحط، إنه من أولئك الذين يأتون من الريف، ويخرجون من القنانة مرتدين أثواباً خشنة ومنتعلين صنادل بائسة مع ريشة على مؤخرتهم، وما إن يحصلوا على ثلاث قطع نقدية حتى يغرموا ببنات النبلاء، ويتطلعوا إلى اتخاذ السيدات المحترمات زوجات لهم، ثم يضعون شعارات النبالة ويقولون «أنا أتحدر من آل فلان»، و «أجدادي فعلوا كذا وكذا». ليت أبنائي استمعوا إلى نصيحتي، لكانوا زوجوك زواجاً محترماً ووفروا لك الإقامة في دارة كونت جويدو. ولكنهم أصروا، وأنت أفضل فتيات فلورنسا وأكثرهن عفة، على إعطائك لهذا الدرة

النفيسة الذي لم يخجل من المجيء في منتصف الليل ليقول إنك عاهرة.. كما لو أننا لا نعرف حقيقتك. يا لتاجر الأربع قطع نقدية! ويا للسكير عديم الحياء! ولو كان الأمر بيدي للقنته درساً وجعلته عبرة لمن يعتبر.

ثم التفتت إلى أبنائها وقالت:

ـ أبنائي، لقد قلت لكم إن هذا غير ممكن. أسمعتم كيف يعامل صهركم شقيقتكم، هذا التاجر ذو الأربع قطع نقدية؟.. لو أنني كنت مكانكم، وسمعته يقول ما قاله عنها، ويفعل ما يفعله بها، لما رضيت بأقل من اجتثاثه من هذه الدنيا. ولو أنني كنت رجلاً وليس امرأة، لما رضيت بأن يفعل به ذلك أحد سواي. رباه، نل بعدلك من هذا السكير المقرف عديم الحياء!

عندئذ التفت الشبان الثلاثة الذين سمعوا ورأوا كل هذه الأمور، إلى أريشيو، ووجهوا إليه شتائم مقذعة لم يسمع بها أخبث الناس من قبل، ثم قالوا له أخيراً:

ـ سنسامحك هذه المرة لأنك مخمور. ولكن حذار أن نسمع من الآن فصاعداً مثل هذه الأشياء. وإذا ما بلغ مسامعنا أنك فعلت ذلك، فسوف تدفع الثمن عن كل ما سلف.

قالوا له ذلك وانصرفوا. وظل أريشيو في مكانه ذاهلاً، لا يدري إذا كان ما فعله حقيقة أم حلم. ودون أن ينطق بأي كلمة، ترك زوجته على هواها. أما الزوجة فلم تقتصر فطنتها على إنقاذ نفسها من الخطر الداهم، وإنما فتحت لها الطريق لتفعل فيما بعد كل ما يروقها دون أي خوف من الزوج.

القصة التاسعة

تقع ليديا، زوجة نيكوستراتوس، في حب بيروس؛ ولكي يصدقها يطلب منها ثلاثة أشياء، تنفذها كلها وتعمد فضلاً عن ذلك على مطارحته الغرام بحضور نيكوستراتوس، وتجعل نيكوستراتوس يعتقد أن ما رآه ليس حقيقة.

أُعجب الجميع كثيراً بقصة نيفيله، حتى إن النساء لم يستطعن التوقف عن الضحك والكلام عنها، بالرغم من أن الملك طلب منهن عدة مرات أن يصمتن، ثم طلب من بانفيلو أن يروي قصته، وبعد أن صمتن، بدأ بانفيلو كما يلي:

ـ سيداتي المحترمات، لا أظن أن هناك أمراً، مهما اشتدت خطورته أو حرجه، إلا ويُقدم عليه العاشق المتلهف. ومع أن هذا قد تأكد لنا في قصص كثيرة، فإن ذلك لن يمنعني من تأكيده بصورة أفضل في قصة سأرويها لكنّ، حيث ستسمعن حديثاً عن سيدة وجدت من الحظ فيما أقدمت عليه أكثر مما يتيحه العقل والحكمة. ولهذا لا أنصح أي واحدة من النساء أن تجازف وتحذو حذو هذه التي سأتكلم عنها، لأن الحظ لن يكون مواتياً على الدوام بهذه الطريقة، وليس جميع رجال هذا العالم مغشياً على أبصارهم كزوجها.

في أرجوس، وهي مدينة قديمة جداً من مدن أكايا التي اشتهرت بملوكها القدماء أكثر مما اشتهرت بعظمتها، كان هناك سيد نبيل يدعى نيكوستراتوس، منحه الحظ وهو يدنو من الشيخوخة نعمة الزواج من سيدة رفيعة المقام، لا تقل جرأتها عن جمالها، واسمها ليديا. ولأن الرجل كان نبيلاً وغنياً، فقد كان لديه الكثير من الخدم وكلاب الصيد والصقور، وكان مولعاً غاية الولع بالصيد. وكان بين خدمه الكثيرين شاب مهذب، على جانب كبير من التأنق والوسامة، فضلاً عن مهارته في كل عمل يطلب منه، يدعى بيروس. فكان نيكوستراتوس يحبه أكثر من الخدم الآخرين، ويوليه أقصى الثقة. وكان أن أُغرمت ليديا بهذا الشاب، واستحوذ حبه على قلبها، فلم يعد يشغلها أي شيء آخر، سواء في الليل أو النهار، إلا التفكير فيه. ولكن بيروس لم يبد أي اهتمام بها، إما لأنه لم ينتبه إلى ذلك الحب، أو لأنه لم يرغب فيه. وقد عانت السيدة أشد المعاناة مما هي فيه، وصممت على أن تشعره بما في نفسها، فاستدعت خادمة لها تدعى لوسكا، تثق بها كثيراً، وقالت لها:

ـ ما أقدمه إليك يا لوسكا من هبات ومنافع يفرض عليك أن تكوني مطيعة ومخلصة، فحذار أن يعلم بما سأقوله أي شخص غير الذي أحدده لك. مثلما ترين يا لوسكا، أنا امرأة شابة وغضة، مفعمة بكل ما يرغب فيه أي رجل. وباختصار، ليس لدي ما أشكو منه سوى شيء واحد، وهو أن سنوات عمر زوجي كثيرة جداً إذا ما قيست

بسنوات عمري، ولهذا أعيش محرومة من تلك المتعة التي يطيب للنساء الشابات الاستمتاع بها. ولأنني أرغب في ذلك مثل الأخريات، فقد قررت ألا أكون عدوة نفسي (بعد أن عاداني الحظ بزواجي من رجل مسن)، وأن أجد طريقة لنيل متعي وخلاصي. ولبلوغ ذلك بصورة موفقة مثل توفيقي في الأمور الأخرى، رأيت أن أستمتع بذلك بين ذراعي خادمنا المخلص بيروس، لأنه جدير بحبي أكثر من سواه من الرجال؛ وقد أحببته حباً لا أشعر معه أنني على ما يرام إلا عندما أراه أو أفكر فيه. ولا بد أنني سأموت ما لم ألتق به بأسرع وقت. ومن أجل هذا، إذا كان لحياتي قيمة لديك، اسعي بأفضل طريقة تجدينها إلى إشعاره بحبي، وتوسلي إليه باسمي أن يأتي للقائي عندما أطلب منك الذهاب للمجيء به.

قالت لها الخادمة إنها ستفعل ذلك بكل سرور. وما إن أتيحت لها أول فرصة مناسبة، حتى أخذت بيروس جانباً، وأفضت إليه برسالة سيدتها، بأفضل طريقة ممكنة. أصاب بيروس ذهول شديد وهو يسمع كلامها، وبدا كمن لم تخطر لباله مثل تلك الأمور قط، وخشي أن تكون السيدة راغبة في اختباره؛ فأجاب الخادمة على الفور بجفاء:

ـ لا أصدق يا لوسكا أن يصدر عن سيدتي مثل هذا الكلام، فحاذري مما تقولين. وإذا كنت مبعوثة منها حقاً، فلستُ أظن أن لدي ميلاً لعمل ذلك. وعليك حينئذ أن تقولي لها إن سيدي ينعم علي ويكرمني بأكثر مما أستحق، ولن أكون ناكراً لجميله مدى الحياة، ولا أن ألحق به مثل هذه الإهانة. أما أنت يا لوسكا، فحاذري من التحدث إليّ ثانية في هذا الأمر.

لم تخف لوسكا من قسوة كلامه، وقالت له:

ـ سأحدثك يا بيروس بهذا الأمر وكل أمر آخر تطلبه مني سيدتي، وسأفعل ذلك كلما أرسلتني، سواء أأعجبك قولي أم أزعجك. أما أنت فلست إلا بهيمة.

رجعت إلى سيدتها وقد استبد بها الغضب مما قاله بيروس، وتمنت السيدة الموت حين سمعت ذلك. ولكنها ما لبثت بعد بضعة أيام أن عادت للتحدث مع الخادمة قائلة لها:

ـ تعلمين يا لوسكا أن شجرة السنديان لا تسقط من الضربة الأولى، وأرى أن تعودي ثانية إلى ذاك الذي يريد الضرر لي بادعائه الوفاء. وعندما تجدين الوقت المناسب، أوضحي له كل تحرقي ولهفتي، وبالغي في كل شيء بطريقة مؤثرة، لأنني سأموت إذا ما واصل

عدم اكتراثه بي، بينما هو يظن أنني أريد اختباره. وأخبريه أن حبنا الذي نسعى إليه سيتلوه حقد وكراهية.

واست الخادمة سيدتها، ومضت تبحث عن بيروس، فوجدته سعيداً وفي حالة مرضية، فقالت له:

ـ لقد أخبرتك قبل أيام يا بيروس بالنار المتأججة التي تعاني منها سيدتك وسيدتي بسبب حبها لك، وأنا أكرر لك الآن، فإذا ما ظللت على تصلبك الذي أبديته في المرة السابقة، فعش واثقاً من أنك لن تعيش طويلاً. فأرجوك أن توافق على إرضاء رغبتها. أما إذا واصلت التمسك بعنادك، فسوف أعتبرك أكبر المغفلين، بعد أن كنت أعتبرك حكيماً. أي مجد يمكنك بلوغه أكبر من أن تهيم بحبك مثل هذه السيدة الجميلة والنبيلة والثرية؟.. أجدر بك أن تشكر حظك الطيب الذي أتاح لك هذا... متعة مناسبة لشبابك، وملاذاً لحاجاتك! وإذا كنت حكيماً ففكر مَن مِن أمثالك أتيح له أفضل من هذه المتعة؟.. ومن سيحظى بمثل ما ستناله من أسلحة وخيول وملابس وأموال، إذا ما منحتها حبك؟.. افتح عقلك إذن لكلماتي، وعد إلى وعيك، وتذكر أن الحظ لن يواتيك سوى مرة واحدة وهو باسم الوجه ومفتوح الذراعين. فإن لم تحسن تلقيه، فما عليك إلا أن تلوم نفسك في ما بعد، عندما تجد نفسك غارقاً في البؤس والشقاء. وفوق هذا كله، يجب ألا يكون الوفاء للأصدقاء والأقارب هو الشيء نفسه بين الخدم والأسياد؛ فعلى الخدم أن يعاملوا السادة، قدر استطاعتهم، بمثل ما يعاملهم أولئك. فهل تظن أنت، لو كانت لك زوجة أو ابنة أو أخت جميلة يُعجب بها سيدنا نيكوستراتوس، أنه سيأخذ في اعتباره الوفاء الذي تحتفظ له به تجاه زوجته؟.. إنك غبي إذا كنت تظن ذلك، وتأكد من أنه إذا لم يتمكن من إغوائها بالغزل والتوسلات، فإنه سيلجأ إلى استخدام القوة دون أن يهمه شيء. فلنعاملهم إذن بمثل ما يعاملوننا، واستفد مما أتاحه لك الحظ، ولا تتفاداه؛ بل اخرج للقائه واستقبله حين يأتيك. فإن لم تفعل، فإن الموت سيودي بسيدتك دون ريب، وعندئذ ستندم على ما فعلته وتتمنى لنفسك الموت.

وكان بيروس قد فكر طويلاً، وأعاد التفكير مرات ومرات في ما قالته له لوسكا في المرة الأولى، وانتهى به الأمر إلى إعطائها إجابة أخرى مختلفة إذا ما جاءته من جديد، فيخبرها بأنه سيوافق على إرضاء السيدة إذا ما تأكد من أنها لا تفعل ذلك لمجرد اختباره.

فأجابها عندئذ:

ـ انظري يا لوسكا، كل ما تقولينه صحيح؛ ولكنني أعرف كذلك أن سيدي حكيم جداً وبعيد النظر، ولأنه يضع بين يديَّ شؤونه كلها، فإنني أخشى أن يكون قد طلب من ليديا أن تفعل هذا كله لاختباري. ولهذا أريد منها أن تفعل ثلاثة أشياء كي يطمئن قلبي، وبعد ذلك لن تطلب مني شيئاً إلا وتراني ألبيه بأسرع ما أستطيع. والأشياء الثلاثة التي أريدها هي التالية: أولاً، أن تقتل بنفسها أفضل صقر يملكه نيكوستراتوس أمام عينيه، وأن ترسل لي بعد ذلك خصلة من لحية نيكوستراتوس، أما الطلب الثالث: أن ترسل لي أحد أضراس زوجها، على أن تكون ضرساً سليمة.

بدت هذه الطلبات للوسكا وللسيدة قاسية وصعبة التحقيق. غير أن الحب الذي هو مبعث سلوى، ومعلم وناصح عظيم، دفع السيدة إلى التصميم على فعل ذلك؛ فأرسلت له خادمتها لتخبره بأنها ستنفذ ما طلبه، وبأسرع وقت. وأضافت إلى ذلك، لشدة اعتداد الشاب بحكمة سيده، بأنها ستطارح بيروس الغرام بحضور زوجها، وتجعل نيكوستراتوس يصدق أن ما رآه وهماً وليس حقيقة.

بدأ بيروس ينتظر ما الذي ستفعله السيدة النبيلة. وبعد بضعة أيام، أقام نيكوستراتوس وليمة غداء كبرى لبعض النبلاء، كما يفعل عادة. وما إن رفعت الموائد، حتى غادرت السيدة مخدعها وهي ترتدي ثوباً من المخمل الأخضر، وتتزين بأفخر الزينات، ودخلت الصالة التي يجتمع فيها المدعوون، وقد رآها بيروس وهي تدخل مثلما رآها الآخرون. واتجهت مباشرة إلى المسند الذي يقف عليه صقر نيكوستراتوس المفضل، فحلت وثاقه كما لو أنها تريد حمله في يدها، وأمسكت بالسير الجلدي المربوط بقائمتيه، وضربت رأسه بالجدار فقتلته. فصرخ نيكوستراتوس:

ـ آه يا امرأة، ما هذا الذي فعلته؟..

لم تجبه السيدة بشيء، وإنما التفتت إلى السادة النبلاء الذين تناولوا الطعام معه، وقالت:

ـ لن أستطيع الانتقام من ملك يهينني، إذا كنت لا أتجرأ على أخذ ثأري من صقر. عليكم أن تعلموا أن هذا الطائر الذي يكلف به الرجال كثيراً، حرمني لوقت طويل من

كل متعة تصبو إليها النساء؛ فما إن يبزغ الفجر، حتى ينهض نيكوستراتوس، فيمتطي جواده وصقره على يده، ويمضي إلى الحقول الفسيحة ليرى طيرانه؛ بينما أظل أنا، مثلما ترون، وحيدة ومكدرة في الفراش. وقد أثار ذلك كله في نفسي الرغبة في عمل ما فعلته الآن، ولم يمنعني عن ذلك من قبل، إلا انتظار الإقدام عليه بحضور رجال يكونون حكاماً عادلين مثلما هو ظني بحضراتكم.

السادة الذين سمعوا كلامها، اعتقدوا أنه ليس لديها مسوغ آخر للتكدر من نيكوستراتوس إلا ما قالته كلماتها، فضحكوا جميعهم، والتفتوا إلى نيكوستراتوس الذي بدا غاضباً، وقالوا له:

- لقد أحسنت السيدة بالانتقام لنفسها بقتل الصقر!

وبعد أن انصرفت السيدة إلى مخدعها، راحوا يتبادلون المزاح والدعابات حول الموضوع، فحولوا غضب نيكوستراتوس إلى ضحك.

وكان بيروس يرى ذلك كله، فقال في نفسه:

- لقد قدمت السيدة بداية طيبة لغرامياتي السعيدة. وأرجو من الله أن تثابر على ذلك.

بعد بضعة أيام من قتل ليديا للصقر، حدث أن كانت في مخدعها ومعها نيكوستراتوس، يتبادلان المداعبات. وراحت تمازحه، ومازحها هو بدوره بشد شعرها، فتهيأت لها الفرصة لتنفذ ثاني طلبات بيروس، فسارعت إلى إمساك خصلة صغيرة من لحية زوجها، وجذبتها بقوة وهي تضحك، فانتزعتها من ذقنه. فتذمر نيكوستراتوس من فعلتها، وأبدى استياءه، فقالت له:

- لماذا تتجهم هكذا؟.. أمن أجل بضع شعرات انتزعتها من لحيتك؟.. ولكنك لم تشعر بما سببته لي من ألم منذ قليل وأنت تشدّ شعري!

وواصلا مداعباتهما، وبين كلمة وأخرى خبأت المرأة بحذر خصلة الشعر التي انتزعتها. وأرسلتها في اليوم نفسه إلى عشيقها المحبوب. غير أن الطلب الثالث هو الذي أرق السيدة واستدعى منها كثيراً من التأمل والتفكير. لكن ذكاءها وحبها كانا أكبر من المشكلة، ووجدت الخطة التي تتيح لها تنفيذ ذلك الطلب. فقد كان لدى نيكوستراتوس غلامان، من أبناء الطبقة الراقية، جاء بهما أبوهما إلى بيته ليتعلما هناك آداب التعامل

والسلوك الحميد. فكان أحدهما يتولى تقطيع اللحم في طبق نيكوستراتوس وهو يأكل، بينما يتولى الآخر سكب الشراب له. فاستدعتهما السيدة، وأفهمتهما بأن رائحة أنفاسهما كريهة، وطلبت منهما أن يدفعا رأسيهما إلى الخلف قدر استطاعتهما وهما يقومان على خدمة نيكوستراتوس، وأوصتهما بعدم إخبار أحد بذلك.

صدق الغلامان ما قالته السيدة، وعملا بما نصحتهما به. فسألت هي نيكوستراتوس في أحد الأيام:

- ألم تتنبه إلى ما يفعله هذان الغلامان وهما يقومان على خدمتك؟..

فقال نيكوستراتوس:

- لقد انتبهت بالطبع، وأردت سؤالهما عن السبب.

عندئذ قالت السيدة:

- دع عنك سؤالهما، فأنا سأخبرك بالسبب الذي أخفيته عنك طويلاً كي لا أضايقك. ولكنني أرى الآن أن آخرين بدؤوا يلحظون الأمر، ولم يعد عليّ إخفاؤه. فالسبب في هذا كله هو رائحة فمك النتنة، ولست أدري من أين أتت هذه الرائحة، لأنها لم تكن موجودة من قبل. وبقاء الرائحة أمر مزعج، لا سيما أنك مضطر إلى التعامل مع السادة والأعيان. لا بد من علاج هذا الوضع.

فقال لها نيكوستراتوس:

- وما سبب هذه الرائحة؟.. أيكون أحد أضراسي منخوراً؟..

وهنا قالت ليديا:

- قد يكون هذا هو السبب!

ثم اقتادته إلى إحدى النوافذ، وطلبت منه أن يفتح فمه جيداً، وبعد أن تفحصت الأسنان العلوية والسفلية، قالت له:

- آه يا عزيزي نيكوستراتوس! كيف تتحمل كل هذه المعاناة؟.. لديك ضرس في هذا الجانب لا يبدو منخوراً وحسب، وإنما هو متعفن تماماً، ولا بد أنه سيتلف أسنانك الأخرى القريبة منه إذا ما ظل في فمك. ولهذا أنصحك بأن تقلعه قبل أن يستفحل الأمر.

عندئذ قال نيكوستراتوس:

ـ إذا كان هذا هو رأيك، فسوف أفعل ما تقولين. أرسلي فوراً في طلب معلم يقلعه.

فقالت السيدة:

ـ لن أرسل في طلب أي مداوٍ، لأن الضرس في حالة من التلف تتيح لي أن أقلعه بكل سهولة. ثم إن هؤلاء المعلمين يبالغون في القسوة وهم يقدمون هذه الخدمات، ولن يطاوعني قلبي في أن أراك بين يدي أحدهم. ولهذا أصر على أن أفعل ذلك بنفسي، فأنا سأتوقف فوراً إذا ما وجدتك تتألم، وهذا ما لا يفعله المداوون.

أمرت بإحضار الأدوات اللازمة لهذا العمل، وصرفت جميع من كانوا في الحجرة، فلم تستبق منهم إلا لوسكا. وبعد أن أغلقت الباب، طلبت من نيكوستراتوس أن يستلقي على منضدة، وأدخلت الكماشة في فمه واختارت ضرساً سليماً، وراحت تشده بقوة وزوجها يصرخ من الألم، بينما هي تثبته بمساعدة الخادمة، إلى أن قلعت الضرس بأقصى عنف. وسارعت إلى إخفائه بسرعة، وأخرجت ضرساً آخر تالفاً كان معها، وأرته لزوجها الذي يوشك أن يموت من الألم قائلة:

ـ انظر ما الذي كان في فمك كل هذا الوقت!

وعلى الرغم من ألمه الممض وتذمره الشديد، صدق كل ما قالته، وبدا له وهو يخرج من الحجرة أنه قد شفي، وأن ألمه قد زال. وسارعت المرأة بدورها إلى إرسال الضرس إلى عشيقها. فتأكد بيروس من حبها له، وأبدى استعداده لتلبية كل ما ترغب السيدة فيه. فأرادت السيدة أن تزيد في طمأنينته، مع أن كل ساعة كانت تبدو لها دهراً وهي بعيدة عنه، ولكنها رغبت في إنجاز ما وعدته به. فتظاهرت في أحد الأيام بالمرض، وعندما جاء نيكوستراتوس لرؤيتها والتحدث إليها بعد تناول الطعام، ولم يكن برفقته سوى بيروس، توسلت إلى زوجها أن يساعدها في الخروج إلى الحديقة، لتخفف من آلامها. فأمسك نيكوستراتوس بإحدى ذراعيها، وأمسك بيروس بالأخرى، واقتاداها إلى الحديقة، ثم أجلساها هناك على مرج صغير تحت شجرة إجاص. وبعد قليل من جلوسهم، قالت السيدة، وكانت قد أرسلت من قبل إلى بيروس تخبره بما عليه عمله:

ـ لدي رغبة بتناول الإجاص يا بيروس، فاصعد إلى الشجرة والق إلي ببعض ثمارها.

سارع بيروس إلى تسلق الشجرة، وراح يلقي بثمار الإجاص إلى أسفل. وبينما هو يفعل ذلك بدأ يقول:

ـ آه يا سيدي، ما هذا الذي تفعله؟.. وأنت يا سيدتي، ألا تخجلين من السماح بفعل هذا على مرأى مني؟.. أتظنيني أعمى؟.. لقد كنتِ مريضة جداً قبل لحظات، فكيف شفيت بهذه السرعة وصرت قادرة على ممارسة هذه الأفعال؟.. إذا كنتما تريدان عمل هذه الأشياء، فلديكما الكثير من الحجرات البديعة؛ فلماذا لا تذهبان إلى واحدة منها وتفعلان هذا؟.. وسيكون ذلك أشرف من أن تفعلا كل هذا بحضوري.

وهنا التفتت السيدة إلى زوجها قائلة:

ـ ما الذي يقوله بيروس؟.. أتراه يهذي؟..

فقال بيروس عندئذ:

ـ لستُ أهذي يا سيدتي. أتظنان أني لا أراكما؟..

عجب نيكوستراتوس أشد العجب، وقال:

ـ أرى أنك تحلم حقاً يا بيروس!

فكان أن ردّ عليه بيروس:

ـ لستُ أحلم يا سيدي، ولا أنتما تحلمان. إنكما تهتزان بقوة لو اهتزت بها هذه الشجرة لما بقيت عليها ثمرة واحدة.

وهنا قالت السيدة:

ـ ما الذي يعنيه هذا؟.. أيمكن أن يكون صحيحاً أن ما يقوله هو ما يبدو له؟.. لو أن الله أعانني ولم أكن مريضة، لصعدت هذه الشجرة لأرى العجائب التي يزعم أنه يراها.

لكن بيروس الذي كان فوق الشجرة، ظل يتكلم ويردد كلامه ذاك؛ إلى أن قال له نيكوستراتوس:

ـ انزل من هناك.

فنزل الشاب، وسأله السيد:

ـ ما هذا الذي تقول إنك تراه؟..

فأجابه بيروس:

ـ أظن أنك تحسبني أبله أو واهماً. ولكنني مضطر إلى أن أقول إنني رأيتك فوق زوجتك؛ وعندما نزلتُ رأيتكما تنهضان وتجلسان متباعدين مثلما أنتما الآن.

فقال نيكوستراتوس:

ـ الحقيقة إنك أبله في قولك هذا، فنحن كما ترى لم نتحرك من مكاننا قيد أنملة منذ صعودك الشجرة.

فردّ بيروس على ذلك بالقول:

ـ ولماذا نعقد المسألة؟.. فقد رأيتكما، أجل رأيتكما، وكنتما في شأنكما ذاك.

ازداد عجب نيكوستراتوس أكثر من السابق، حتى إنه قال:

ـ حسن، أريد أن أرى إذا ما كانت هذه الشجرة مسحورة، وإذا كان من يصعد إليها يرى العجائب!

ثم تسلق الشجرة؛ وعندما صار في أعلاها، بدأت زوجته وبيروس مداعباتهما. وحين رأى نيكوستراتوس ذلك راح يصرخ:

ـ آه منك أيتها المرأة الماجنة! ما هذا الذي تفعلينه؟.. وأنت يا بيروس، يا من أثق به أكثر من الجميع؟.. وبينما هو يقول هذا، بدأ بالنزول عن الشجرة. وكانت السيدة وبيروس يقولان له:

ـ إننا نجلس هنا، كل في مكانه.

وعندما رأياه ينزل، جلس كل منهما مثلما كانا قبل صعوده. ولدى وصول نيكوستراتوس إلى الأرض ورؤيتهما حيث تركهما، راح يعنفهما. فقال له بيروس:

ـ إنني أعترف الآن يا سيدي بأن ما رأيته وأنا فوق الشجرة كان وهماً بالفعل، وأنا لا أعترف بذلك إلا لأني متأكد من أن ما رأيته حضرتك كان وهماً أيضاً. فما حدث لي هو الشيء نفسه الذي حدث لحضرتك. ولا يحتاج منك إثبات صدق ما أقوله إلا أن تفكر في كيف يمكن لزوجتك، وهي أشد النساء عفة وأكثرهن نباهة، إذا ما أرادت الإساءة

إليك بهذه الطريقة، أن تقدم على عمل ذلك أمام عينيك. أما عن نفسي فلن أقول شيئاً، لأنني أفضل أن يتمزق جسدي إرباً قبل أن أفكر مجرد تفكير في عمل ذلك، ناهيك عن الإقدام عليه بحضورك. ولهذا فإنني موقن من أن سبب هذا الزيف في الرؤية إنما يرجع إلى الشجرة، لأنه ما كان لشيء في العالم أن يقنعني بأنك لم تكن تضاجع زوجتك جسدياً، لو لم أسمعك تقول إنه بدا لك أنني قد فعلت ما أنا واثق من أنني لم أفعله، بل لم أفكر فيه قط.

عندئذ نهضت المرأة واقفة وقد استبد بها الغضب، وراحت تقول لزوجها:

ـ يا لك من جاحد وتعس إذا كنت تظن أنه يمكن لي أن أكون بهذا الانحطاط الذي تدعي أنك رأيته. وحتى لو بلغت بي السفاهة حد عمل ذلك، فإنني ما كنت لأفعله أمام عينيك. وكن واثقاً من أنني إذا ما راودتني مثل هذه الرغبة يوماً، فلن أقدم عليها هنا، وإنما سأفعل ذلك في إحدى حجراتي وبصورة سرية لا يمكن لك معرفتها أبداً.

بدا لنيكوستراتوس أن ما يقولانه هو الحقيقة، وأنه لا يمكن لهما أن يقدما على عمل مثل ذلك الأمر أمامه، فتوقف عن التكلم والتأنيب، وراح يفكر في غرابة الواقعة وفي معجزة التبدل في رؤية من يصعد الشجرة. ولكن السيدة أبدت غضبها لسوء ظن نيكوستراتوس بها، وقالت:

ـ يجب عدم السماح لهذه الشجرة بأن تكون سبباً في أي لعبة مشينة أخرى، سواء لي أو لغيري من النساء. اذهب يا بيروس وجئ بفأس وانتقم لنفسك ولي بقطعها. وإن كنتُ أفضل أن تهوي بالفأس على رأس نيكوستراتوس الذي سمح لخداع البصر بالتغلب، دون أي تبصر، على عقله. فحتى لو بدا لعينيك صحة ما قلته، ما كان ينبغي لك أن تصدق بحكم عقلك صحة ذلك.

اندفع بيروس مسرعاً، فأحضر فأساً وقطع الشجرة. وحين رأتها السيدة تهوي، قالت لنيكوستراتوس:

ـ الآن وقد رأيت عدوة شرفي تهوي، أشعر بأن غضبي قد هدأ.

وصفحت عن نيكوستراوس الذي توسل منها الصفح. ولكنها اشترطت عليه ألا يسيء بها الظن أبداً، لأنها تحبه أكثر من حبها لنفسها. وهكذا عاد الزوج المخدوع مع زوجته وعشيقها إلى البيت، وكثيراً ما أتيح هناك، فيما بعد، لبيروس وليديا أن يستمتعا

بالملذات بكل هدوء وطمأنينة. فليت الله يمنحنا مثل ما نعما به.

القصة العاشرة

شابان من سيينا يقعان في غرام امرأة هي عرابة أحدهما. يموت هذا العراب، ثم يظهر بعد ذلك لرفيقه بناء على عهد قطعه له، ويروي له كيف هي الأمور في العالم الآخر.

لم يبق من الرواة سوى الملك، وحين رأى أن السيدات ساكنات وصامتات (يتألمن لقطع شجرة الإجاص التي لا ذنب لها)، بدأ الكلام قائلاً:

ـ من الجلي أنه من أول واجبات أي ملك عادل أن ينصاع هو نفسه للقوانين التي يسنها، وإن لم يفعل، فإنه يستحق العقاب ولا يكون جديراً بحكم العباد. وأنا باعتباري ملكاً عليكم، لا يليق بي أن أقع في مثل هذه الخطيئة وتلقي العقوبة. صحيح أنني حددت يوم أمس الموضوع الذي سنتحدث فيه اليوم، ونويت ألا أستفيد في هذا اليوم من الامتياز الممنوح لي بعدم التزامي مثلكم بالموضوع المقرر، وأن تكون قصتي في الموضوع نفسه الذي تحدثتم فيه جميعكم؛ ولكن الأمر لم يقتصر على أنكم قد رويتم كل ما كنت أتصور أنني سأرويه، بل قيلت أشياء أخرى كثيرة، وأفضل بكثير مما يمكن لي أن أقوله. وعلى الرغم من بحثي الدؤوب في ذاكرتي، إلا أنني لم أستطع أن أتذكر شيئاً حول الموضوع يمكنني أن أرويه ويقف على قدم المساواة مع ما رويتموه. ولهذا، أجد نفسي مضطراً إلى مخالفة القانون الذي وضعته بنفسي، وجديراً بالعقاب، وأنا مستعد لتقبل ما يُطلب مني لإصلاح هذا الضرر، ولكنني لا أجد مفراً من العودة إلى امتيازي المعهود. فأقول إن قصة إليسا عن العراب والعرابة، إضافة إلى غباء أهالي سيينا، دفعاني بقوة إلى التخلي عن خدع النساء الفطنات لأزواجهن الأغبياء، وقاداني إلى أن أروي لكنّ، يا سيداتي العزيزات، قصة لها ارتباط بالأمرين السابقين؛ ومع أنها قصة غير قابلة للتصديق في بعض أجزائها، إلا أن هذا لا يحول دون كونها ممتعة.

كان يعيش في سيينا شابان قرويان اسم أحدهما تيغوشيو ميني، واسم الآخر ميوشيو دي تورا؛ لا يفترق أحدهما عن الآخر أبداً، مما يشير إلى أنهما صديقان حميمان متحابان إلى أقصى الحدود. ولأنهما كانا يترددان مع غيرهما من الرجال على الكنيسة لسماع القداديس والمواعظ، فقد كانا يسمعان بكثرة هناك كلاماً عن المجد أو البؤس الذي تلقاه، في العالم الآخر، أرواح من يموتون، وفقاً لأعمالهم ومزاياهم. فاستبدت بهما الرغبة في معرفة أخبار مؤكدة عن تلك الأمور، ولكنهما لم يجدا طريقة لمعرفة ذلك، فعاهد كل منهما رفيقه بأن يعود من يموت منهما أولاً إلى رفيقه الحي، إذا تمكن من ذلك، ليخبره بما يرغب في معرفته؛ وأقسما مؤكدين هذا العهد بينهما.

وبعد هذا العهد والقسم، واصلا حياتهما معاً كما قلنا من قبل، إلى أن حدث في أحد الأيام أن صار تيغوشيو عراباً لابن شخص يدعى أنسيلميني، ويعيش في كامبوريجي. وكانت امرأة هذا الأخير قد أنجبت له طفلاً. وصار من عادة تيغوشيو أن يذهب، بين حين وآخر، مع رفيقه ميوشيو لزيارة عرابته تلك. وكانت امرأة جميلة وجذابة، فوقع العراب تيغوشيو في حبها؛ كما أنها راقت لرفيقه ميوشيو كثيراً، لا سيما وهو يسمعها تتكلم إلى تيغوشيو، ووقع في حبها أيضاً. وكان كل منهما يخفي حبه هذا عن الآخر، ولكن ليس للسبب نفسه. فقد كان تيغوشيو يخفي حبه عن صديقه لما يرى من خبث هذا الحب لعرابته، ولخجله من أن يعرف أحد بهذا الأمر. أما ميوشيو فلم يكن هذا هو سبب إخفائه أمر حبه، وإنما لأنه كان قد انتبه إلى علاقة تيغوشيو بعرابته، وكان يقول لنفسه: «إذا ما كشفت له عن حبي لها، قد يشعر بالغيرة. وعندئذ يمكن له، لأنه عرابها، أن يحدثها كما يشاء، ويجعلها تكرهني، فلا أعود قادراً على نيل أي متعة منها».

وبينما الشابان في هذه الحال التي ذكرناها، حدث أن تيغوشيو، وكان من السهل عليه مكاشفة المرأة برغباته، أن تمكن بكلامه وأفعاله من نيل ما يشتهيه منها؛ وقد انتبه ميوشيو إلى ذلك، فأحس بالاستياء، ولكنه ظل ينتظر مع ذلك أن ينال منها بغيته في أحد الأيام؛ فتظاهر بأنه لم ينتبه إلى ما يحدث، خوفاً من أن يجد تيغوشيو فرصة ليعرقل له أموره أو يحبطها. وهكذا وقع الصديقان في حب المرأة نفسها، وإن كان أحدهما أسعد حظاً من الآخر في الوصال؛ إلى أن حدث في أحد الأيام أن أجهد تيغوشيو نفسه كثيراً وهو يحرث أرضاً لعرابته ويحفرها، فأدى به ذلك إلى الإصابة بمرض ما لبث أن

تفاقم بصورة حرجة بعد أيام، وأودى به إلى الموت والانتقال إلى العالم الآخر. وبعد ثلاثة أيام من موته، وربما فور تمكنه من ذلك، سارع إلى تنفيذ العهد الذي قطعه لرفيقه، وحضر ليلاً إلى غرفة ميوشيو الذي كان نائماً بعمق، وأيقظه. فنهض ميوشيو قائلاً:

ـ من أنت؟..

وأجابه الآخر:

ـ أنا تيغوشيو، وقد رجعت حسب العهد الذي قطعته لك، لأخبرك بأمور العالم الآخر.

أحس ميوشيو ببعض الخوف حين رآه، ولكنه ما لبث أن اطمأن، وقال له:

ـ أهلاً وسهلاً بك يا أخي!

ثم سأله بعد ذلك إذا ما لاقت روحه الضياع؛ فرد عليه تيغوشيو:

ـ الضياع يقال للأشياء التي لا يُعثر عليها؛ فكيف أكون هنا إذا كنت ضائعاً؟..

فقال ميوشيو:

ـ ليس هذا ما عنيته، وإنما سألتك إذا ما كانت روحك محكومة بالعذاب الأبدي في نيران الجحيم.

وهنا أجابه تيغوشيو:

ـ لا شيء من هذا، ولكنني أتلقى بعض العقوبات القاسية على ما ارتكبته من خطايا.

فسأله ميوشيو عندئذ عن نوع العقوبات التي تُفرض هناك على كل خطيئة تُرتكب هنا، فأخبره تيغوشيو بكل شيء. وعندئذ سأله ميوشيو عما إذا كان بإمكانه، وهو حي هنا، أن يساعده في شيء. فأجابه تيغوشيو بنعم، وأنه يستطيع أن يساعده بترتيل الصلوات وتقديم الصدقات من أجل راحة روحه، لأن مثل هذه الأشياء مفيدة جداً لمن هم في العالم الآخر. فوعده ميوشيو بأن يفعل ذلك من أجله بكل سرور. وبينما كان تيغوشيو يهم بالانصراف، تذكر ميوشيو العرابة، فرفع رأسه قليلاً وقال له:

ـ لقد تذكرتُ الآن شيئاً يا تيغوشيو... ما العقوبة التي فُرضت عليك بسبب عرابتك

التي كنت تضاجعها وأنت حي هنا؟..

فأجابه تيغوشيو:

ـ آه يا أخي، عندما وصلت إلى هناك، استقبلني شخص يبدو أنه يعرف كل خطاياي عن ظهر قلب، فأمرني بأن أنتحي في مكان، حيث بكيتُ للتكفير عن خطاياي كلها. ووجدت هناك أصدقاء كثيرين محكومين بمثل ما حُكم عليّ. وبينما أنا بينهم، تذكرتُ ما فعلته بعرابتي، وصرت أنتظر أن أتلقى عن تلك الخطيئة أشد من كل ما تلقيته من عقاب، كأن يكون جزائي ناراً عظيمة متأججة، فرحت أرتجف خوفاً. وانتبه إلى ذلك أحد من هم إلى جانبي، فقال لي: «ما الذي تلقاه أكثر ممن هم هنا حتى ترتجف كما لو أنك في النار؟..» فقلت له: «آه يا صديقي! إنني خائف جداً من العقاب الذي سألقاه على خطيئة كبرى اقترفتها». فسألني عندئذ عن تلك الخطيئة، وقلت له: «إنها خطيئة عظيمة، فقد ضاجعت عرابة لي». فسخر الآخر من كلامي، وقال لي: «دع عنك خوفك أيها الأبله، فهنا لا يقيمون وزناً للعرابات، لأنهن لا يعنين شيئاً». فامتلأ قلبي بالطمأنينة لسماع ذلك.

وبعد كلامه هذه، بدأ النهار يقترب، فقال:

ـ أستودعك الله يا ميوشيو، لأنني لا أستطيع البقاء معك.

واختفى فجأة.

عندما سمع ميوشيو أنه لا حساب عن العرابات، بدأ يسخر من بلاهته، إذ كان قد ضيع على نفسه عدداً منهن. وهكذا تخلى عن جهله ذاك، وصار بعدها حكيماً وعارفاً بهذه الأمور. ولو أن الراهب رينالدو عرف بكل هذا، لما اضطر إلى توخي الحيطة والحذر عندما أقنع عرابته بتلبية رغباته.

●●

بعد أن أنهى الملك قصته، ولم يبق أحد سواه من الرواة، رفع إكليل الغار عن رأسه، ووضعه على رأس لوريتا قائلاً:

ـ سيدتي، إني أتوجك ملكة على اجتماعنا؛ فتولي الأمر بما ترينه مناسباً لمتعة الجميع وسلواهم.

ثم عاد للجلوس. أما لوريتا التي توجت ملكة، فقد استدعت القهرمان، وأمرته بأن يُعد موائد العشاء قبل الموعد المعهود، كي يتمكن الجميع من الرجوع إلى البيت باكراً. ثم التفتت إلى الجماعة وقالت:

ـ لقد طلب منا ديونيو يوم أمس أن تكون قصصنا اليوم عن حيل النساء لخداع أزواجهن؛ ولولا أنني لا أريد أن أبدو ميالة للانتقام، ولا أود النباح مثل جرو، لكنت أمرت بأن تكون قصص الغد عن خداع الرجال لزوجاتهم وحسب. ولكنني أترك هذا الأمر جانباً، وأرغب في أن يكون موضوع قصص الغد متنوعاً، يشمل الخدع التي يمارسها الرجال كل يوم ضد النساء، أو خدع النساء للرجال، أو الخدع التي يحتال بها الرجال بعضهم على بعض. ولا أظن أن الحديث في هذه الأمور سيكون أقل متعة مما سمعناه اليوم.

قالت هذا ونهضت واقفة، ومنحت أفراد الجماعة الإذن بعمل ما يشاؤون إلى أن يحين موعد العشاء. فنهضت السيدات ومعهن الرجال، وراح بعضهم يمشون، وهم حفاة، في الماء؛ وذهب آخرون للتنزه بين الأشجار البديعة السامقة على المرج الأخضر. وغنى ديونيو وفياميتا معاً أغنيات عن غراميات أرشيتا وباليمون، وهكذا واصل الجميع تسليتهم ولهوهم في أمور متنوعة، وأمضوا الوقت بالاستمتاع حتى موعد العشاء؛ حيث جلسوا إلى الموائد الموضوعة على امتداد الجدول الصغير، فتناولوا عشاءهم بابتهاج، وسط تغريد آلاف الطيور، وبرودة النسيم العليل الذي يهب من الجبال القريبة، ودون وجود ذبابة واحدة. وبعد انتهاء العشاء، رُفعت الموائد وتنزهوا لبعض الوقت في ذلك الوادي البديع إلى أن صارت الشمس في منتصف الغسق، فأمرتهم الملكة بالعودة إلى القصر، فتوجهوا إليه بخطى بطيئة وهم يتبادلون المزاح ويتحدثون في ألف شأن، سواء تلك الأمور التي تداولوها في النهار أو غيرها. ووصلوا إلى البيت مع اقتراب حلول الليل. وهناك أزالوا عن أنفسهم التعب ببعض النبيذ البارد والحلوى، ثم رقصوا على ألحان متنوعة. وبعد ذلك كله، توجهت الملكة إلى فيلومينا وأمرتها بأن تغني أغنية، فبدأت هذه الغناء قائلة:

آه لحياتي البائسة!
أيمكن لي، يا حظي العاثر، أن أعود يوماً
هناك، حيث عرفت الهوى؟..

قلبي يخفق بالرغبة
في العودة إلى هناك.
آه يا حبي الغالي، يا راحتي الوحيدة،
يا من تأسر قلبي!
قل لي أجل، امنحني أملاً يا سيدي،
أواسي به روحي المحزونة.

لست أدري أي واحدة من المتع،
هي التي أصابتني
وسلبتني الراحة في الليل والنهار.
سماعي، وإحساسي، ورؤيتي
كل متعة منها بقوة،
يؤجج في أعماقي نيراناً جديدة،
تشعل كياني كله.
وأنت وحدك القادر على منحي العزاء،
وإعادة قواي المسلوبة.

آه، قل لي إذا ما كان لي
أن ألتقيت يوماً،
لأقبّل العينين اللتين تقتلانني.
قل لي يا حبيبي، يا روحي الغالية،
متى ستأتي،
فإن قلت «قريباً»، منحتني السلوى؛
الوقت يمضي سريعاً،
وعليّ انتظار أن يكون بقاؤك طويلاً،
ليشفي جراحي العميقة!

إذا ما امتلكتك بين ذراعي يوماً،

فلن أكون مجنونة،

ولن أتركك تذهب، كما فعلتُ من قبل،

سأستبقيك، وليكن ما يكون،

ومن شفتيك،

سأروي ظمأ أشواقي.

ولا أريد إلا أن أقول لك:

عد سريعاً، يا حبيبي، عد إليّ

فتفكيري بعودتك يدفعني إلى الغناء.

قدر الجميع، من هذه الأغنية، أن فيلومينا تتطلع بلهفة إلى حب جديد، ولأن كلماتها تشير إلى أنها قد عرفت معه ما هو أكثر من النظرات والكلمات، فقد اعتبرنها سعيدة جداً، وحسدها على ذلك بعض الحاضرين. وبعد انتهاء الأغنية، ذكّرت الملكة الجميع بأن اليوم التالي هو يوم الجمعة، وقالت بوداعة:

- تعلمن يا سيداتي النبيلات، وأنتم أيها الشبان، أن يوم غد هو اليوم المكرس لآلام سيدنا يسوع، ولا بد أنكم جميعكم تتذكرون أننا أمضيناه في العبادة، حين كانت نيفيله ملكتنا يوم الجمعة الماضي، وأوقفنا رواية القصص المسلية، وواصلنا ذلك يوم السبت. وسوف أقتدي بعمل نيفيله الطيب، وأرى أنه سيكون من المشرّف أن نتوقف يوم غد واليوم الذي يليه عن رواية قصصنا، وأن نستحضر، لخلاص أرواحنا، ما فعلناه في هذين اليومين من الأسبوع الماضي. وافق الجميع على كلام الملكة الورع؛ ولأن شطراً كبيراً من الليل كان قد انقضى، فقد أذنت لهم الملكة بالانصراف للراحة.

وهنا ينتهي اليوم السابع

اليوم الثامن

انتهى اليوم السابع من الديكاميرون، وبدأ اليوم الثامن، وفيه يجري الحديث، تحت حكم لوريتا، عن الحيل التي كثيراً ما تمارسها النساء على الرجال، أو التي يمارسها الرجال على النساء، أو الرجال فيما بينهم

بدأت أشعة الضوء الوليد، لصباح يوم الأحد، تتبدى من أعالي الجبال، مبددة الظلمة والظلال، وصارت الأشياء تُرى بوضوح، عندما استيقظت الملكة. وخرجت تتنزه مع جماعتها لبعض الوقت على العشب المخضل بالندى. وعند الساعة التاسعة، توجه الجميع إلى كنيسة قريبة، حيث استمعوا إلى القداس، ثم رجعوا إلى البيت. وبعد أن تناولوا الطعام في جو احتفالي، غنوا ورقصوا لبعض الوقت، ثم ذهب من أراد منهم الراحة ليستريح. وعندما تجاوزت الشمس خط الهاجرة، عادوا إلى الاجتماع كعادتهم لرواية القصص، فجلسوا إلى جوار نافورة بديعة، وبأمر من الملكة بدأت نيفيله الكلام كما يلي:

القصة الأولى

يستدين غولفاردو نقوداً من غاسبارولو، ثم يتفق مع زوجة هذا الأخير على مضاجعتها مقابل النقود؛ ويعطيها إياها. وبعد ذلك، يقول بحضور غاسبارولو إنه قد أعاد النقود إلى زوجته، فلا تستطيع هي الإنكار.

ـ بما أن الله قدر لي أن أكون أنا من تبدأ القص في هذا اليوم، فإن ذلك يسعدني. ولأنه قيل الكثير، يا أصدقائي الأعزاء، عن خدع النساء للرجال، فإنني أريد أن أروي لكم قصة أطري بها على الرجل وأوبخ المرأة، وأثبت فيها أنه يمكن للرجال أيضاً أن يخدعوا من يعتقدن أنهن يخدعونهم. وما سأرويه لا يمكن اعتباره خدعة وحسب، وإنما هو ردّ بالمثل، لأنه لا بد للنساء من أن يكن شريفات ويحافظن على عفتهن مثلما يحافظن على حياتهن، فلا يسمحن بتلطيخها مهما كان السبب. ولكن هناك من لا يستطعن ذلك، بسبب ضعفنا نحن النساء، وأنا أرى أن من تقدم على تلك الأفعال، من أجل المال، تكون جديرة بأن تحرق في النار. أما من ترتكب الخطيئة بدافع الحب (ونحن نعرف قوته وجبروته)، فإن قاضياً متسامحاً يمنحها الصفح والغفران، مثلما أثبت لنا فيلوستراتو قبل أيام من خلال ما جرى لدونا فيليبا في براتو.

كان يعيش في ميلان جندي جرماني اسمه غولفاردو، متكبر الطبع، وشديد الوفاء لمن يعمل في خدمتهم، وهو ما لا يتوافر إلا نادراً في الجرمانيين. وكان يسرع في إعادة ما يقترضه من مال بكل وفاء. ولهذا كان يجد على الدوام تجاراً يقرضونه المال عندما يحتاج إليه، مقابل فائدة ضئيلة. وبينما هو يعيش في ميلان، أُغرم بامرأة تدعى مدونا أمبروجيا، هي زوجة تاجر غني اسمه غاسبارولو كاغاسترشيو، وقد أحبها دون أن ينتبه إلى ذلك زوجها أو أي شخص آخر. وفي أحد الأيام، أرسل الجندي إلى المرأة من يخبرها بأنه يود التحدث إليها، ويطلب منها أن تنعم عليه بحبها، وأنه سيكون مستعداً لعمل كل ما تأمره به. وبعد كثير من التفكير في الأمر، توصلت إلى أنها مستعدة لعمل ما يطلبه غولفاردو

إذا ما تحقق أمران اثنان: أولهما ألا يخبر أحداً بذلك، والثاني أنها بحاجة إلى مئتي فلورين ذهبي، وتريد منه أن يقدمها إليها، وبعد ذلك ستكون في خدمته. حين رأى غولفاردو جشع المرأة، أحس بالاشمئزاز منها بعد أن كان يظنها امرأة نبيلة، وتبدل حبه المتأجج إلى غضب، وقرر أن يحتال عليها؛ فأرسل إليها يقول إنه سيلبي رغبتها تلك وكل ما تشاء من رغبات، وطلب منها أن تخبره متى تريد منه أن يذهب إليها ليعطيها النقود، دون أن يخبر أحداً بذلك، اللهم إلا صديقاً له يثق به كل الثقة، ولا يذهب إلى مكان دون أن يكون برفقته. ابتهجت المرأة حين سمعت ذلك، وبعثت إليه تقول إن زوجها غاسبارولو سيسافر بعد أيام قليلة في تجارة إلى جنوا، ولسوف تخبره بذلك عندما يسافر، وترسل في استدعائه. وعندما رأى غولفاردو أن الفرصة صارت مناسبة، ذهب إلى غاسبارولو وقال له:

- أريد أن أعقد صفقة وينقصني مئتي فلورين ذهبي. وأريد منك أن تقرضني هذا المبلغ بالفائدة التي تتقاضاها عادة من الجميع.

فوافق الزوج بطيب خاطر، وقدم له النقود فوراً. وبعد بضعة أيام سافر غاسبارولو إلى جنوا، وأرسلت المرأة إلى غولفاردو تخبره بذلك، وتطلب منه أن يأتي إليها وأن يحضر معه المئتي فلورين. اصطحب غولفاردو صديقه وذهب إلى بيت السيدة، فوجدها بانتظاره. وكان أول ما فعله أن وضع في يدها المئتي فلورين، وصديقه يراه، وقال لها:

- خذي يا سيدتي هذه النقود، واعطها لزوجك حين يرجع.

أخذت السيدة النقود دون أن تدرك سبب قوله ذاك، معتقدة أنه إنما قال ذلك لكي لا يفكر صديقه في ما ستقدمه هي إليه مقابل النقود، وقالت:

- سأفعل ذلك بطيب خاطر، لكنني أريد أن أعدّ النقود أولاً، وأعرف كم هو المبلغ.

ثم سكبت النقود الذهبية على المنضدة، وبعد أن عدتها ووجدت أنها مئتا فلورين، خبأتها بسعادة، ثم ذهبت مع غولفارين إلى مخدعها. ومتّعته هناك بنفسها في تلك الليلة، وفي ليال أخرى، إلى أن رجع زوجها. وعندما عاد غاسبارولو من جنوا، راقبه غولفاردو إلى أن تأكد من وجوده وزوجته معاً؛ فذهب لزيارته بحضورها، وقال له:

- النقود التي أقرضتني إياها يا غاسبارولو لم أحتج إليها، لأنني لم أستطع إنجاز تلك الصفقة؛ وقد أعدت المال إلى زوجتك في الحال. فأرجو أن تغلق حسابي.

التفت غاسبارولو إلى زوجته وسألها إذا كانت قد تلقت النقود ، فلم تستطع إنكار ذلك ، لأن شاهداً كان موجوداً هناك ، فقالت:

ـ أجل ، لقد تلقيتها ، ولكنني لم أتذكر أن أخبرك بذلك.

فقال له غاسبارولو:

ـ لقد وصلني حقي يا غولفاردي. فاذهب بأمان الله ، وأنا سأرتب الحساب وأمزق الإيصال بنفسي.

انصرف غولفاردي ، وأعادت المرأة المستاءة النقود إلى زوجها ، وهكذا استمتع العاشق الفطن بالمرأة الجشعة دون أن يدفع شيئاً.

القصة الثانية

يضاجع الكاهن فارلونغو دونا بيلكولور، ويترك لديها بردته الثمينة كرهن. فيستعير منها بعد ذلك هاوناً، ثم يعيده طالباً منها أن تعيد إليه البردة المرهونة، قائلاً إنه إنما تركها لديها كعلامة. فتعيدها إليه المرأة الطيبة مع كلمات مزدوجة المعنى.

أطرى الرجال والسيدات على ما فعله غولفاردو بالميلانية الجشعة؛ والتفتت الملكة إلى بانفيلو ، وأمرته وهي تبتسم بأن يواصل ، فانصاع لطلبها وبدأ بالقول:

ـ سيداتي الجميلات ، سأروي لكنَّ قصة عن أولئك الذين يغضبوننا ويهينوننا دون أن نتمكن نحن من إغضابهم بالطريقة نفسها ، وأعني بهم الكهنة. أولئك الذين شنوا حرب تبشير صليبية على نسائنا ، متخيلين أنهم نالوا بذلك المغفرة عن ذنوبهم. وعندما يستطيعون وضع إحداهن تحتهم ، يرون ذلك كما لو أنهم جاؤوا بالسلطان مقيداً من الإسكندرية إلى أفينيون. وهذا يدفع العلمانيين المنكوبين إلى الانتقام ، ليس من الكهنة أنفسهم ، بل من أمهاتهم وإخواتهم وصديقاتهم وبناتهم. ولهذا سأروي لكنَّ قصة عن غرام ريفي ، مُضحك

في الإيجاز أكثر من الإسهاب، ويمكن لكنّ أن تستخلصن منه أيضاً أنه لا يجب تصديق ما يقوله الكهنة دائماً.

أقول إنه في بارلونيو، وهي قرية قريبة من هنا، مثلما تعرفن جميعكن، كان يعيش أسقف وسيم الهيئة، ومتفانٍ في خدمة السيدات؛ ومع أنه لا يتقن القراءة جيداً، إلا أنه في كل يوم أحد، وتحت شجرة دردار، كان يتفوه بكثير من الكلام المقدس والمنمق، يدجن به رعيته من القرويين ونسائهم. وكان يذهب كذلك لزيارة النساء في بيوتهن «عندما يخرج القرويون إلى مكان ما»، ويحمل إليهن بعض أشياء الأعياد، والماء المقدس، وربما عقب شمعة، ويقدم لهن مباركته. وحدث أن كانت بين المؤمنات اللواتي أعجبنه، واحدة تروقه أكثر منهن جميعاً، اسمها بيلكولور، وهي زوجة فلاح يدعى بينتيفيغنا دل مازو. والحقيقة أن تلك المرأة الفلاحة كانت بديعة وطازجة، سمراء وممتلئة، مناسبة للطحن أكثر من الأخريات جميعهن، وهي فوق ذلك خير من تتقن عزف السيمبالو، وتغني أغنية «الماء في مسيله ينساب»، وتقود رقصات الفلاحين. لكل هذه الأمور، افتتن السيد الكاهن بها حتى إنه صار يمضي كمن به مس، ويتحين الفرص لرؤيتها. فعندما يراها في صباح أيام الآحاد في الكنيسة، يرتل صلوات مطولة باذلاً كل جهده في إظهار أنه بارع في الغناء، مع أن صوته يبدو في الحقيقة أشبه بنهيق الحمار. أما إذا لم يرها في القداس، فيرتل كيفما اتفق له لينتهي بسرعة؛ ولكنه كان يداري الأمر على أي حال، بحيث لم ينتبه بينتيفيغنا دل مازو إلى ذلك، مثلما لم تتنبه إليه أي واحدة من جاراتها. ومن أجل التقرب من بيلكولور، كان الكاهن يرسل إليها بين حين وآخر حزمة من الثوم الأخضر، أو سلة من الفول، أو ربطة من بصل أيار أو من الكراث، مما يزرعه بنفسه. وكلما بدا له الوضع مواتياً، ينظر إليها نظرة عشق وعتاب؛ ولكنها كانت شديدة الفظاظة، تتظاهر دائماً بعدم الانتباه، وتتطلع إلى جهة أخرى بازدراء. وحدث في أحد الأيام، بينما الكاهن يتجول من مكان إلى آخر في قيظ الظهيرة، دون أن تكون له وجهة محددة، أن التقى ببينتيفيغنا دل مازو، وسأله إلى أين هو ذاهب، فأجابه بينتيفيغنا:

ـ الحقيقة يا سيدي الأسقف إنني ذاهب إلى المدينة لمسألة خاصة؛ ويجب أن أذهب إلى السيد بوناكوتي دي جينيستريتو الذي يساعدني في مسألة قضائية.

فقال له الكاهن:

ـ تحسن صنيعاً يا بني؛ امض مباركاً وعد بسرعة. وإذا ما التقيت في المدينة بلابوشيو أو نالدينو فقل لهما ألا ينسيا إرسال أحزمة المذراة التي طلبتها منهما.

فوعده بينتيفيغنا أن يفعل، ومضى في طريقة إلى فلورنسا. عندئذ قدر الأسقف أنها اللحظة المناسبة ليجرب حظه مع بيلكولور؛ فاتجه نحو بيتها. فدخل إلى البيت وقال:

ـ فليباركم الرب، من يسكن هنا؟..

وكانت بيلكولور قد صعدت إلى العلية، فقالت حين سمعته: •

ـ أهلاً بك يا سيدي؛ ما الذي أخرجك في هذا الحر؟..

فأجابها الكاهن:

ـ فليحمك الرب، لقد جئت لقضاء بعض الوقت معك؛ لأني رأيت زوجك ذاهباً إلى المدينة.

نزلت بيلكولور من العلية، فجلست أمامه، وراحت تلتقط البذور من بعض نبتات الكرنب التي كان زوجها قد جاء بها.

بدأ الأسقف بالقول:

ـ حسن يا بيلكولور، هل ستتركينني أموت هكذا؟..

فضحكت بيلكولور وهي تقول:

ـ وما الذي فعلته لك؟..

قال الأسقف:

ـ لم تفعلي شيئاً، ولكنك لم تسمحي لي بأن أفعل ما أريده وما أمر به الله.

فقالت بيلكولور:

ـ ما هذا، ما هذا! وهل يفعل القسس ذلك؟..

أجابها الأسقف:

ـ إنهم يفعلونه بالطبع، وأفضل من الرجال الآخرين؛ ولماذا لا يفعلون؟.... وأقول لك إن

عملنا أفضل بكثير، هل تعرفين السبب؟.. لأننا لا نطحن إلا بعد أن يكون الحَب قد نضج. ثم إنك سوف تكسبين إذا ما ظللت هادئة، وتركتني أفعل ما أريد.

فقالت بيلكولور:

- وأي فائدة سأجنيها أنا، فأنتم الرهبان أشد بخلاً من الشيطان.

- أنا لستُ من هذا النوع. اطلبي ما تشائين؛ أتريدين نعلاً، أم ترغبين في حزام، أم منديلاً مزركشاً؟.. أو أي شيء تريدينه.

قالت بيلكولور:

- كفاك يا رجل! لدي من كل هذه الأشياء؛ ولكن إذا كنت تحبني حقاً، فلماذا لا تقدم لي خدمة، وعندئذ سأرضيك كما تشاء؟..

فقال الكاهن:

- اطلبي ما ترغبين، وسألبي طلبك بكل سرور.

عندئذ قالت بيلكولور:

- يتوجب عليّ الذهاب إلى فلورنسا يوم السبت لأسلم الصوف الذي غزلته، وكي أصلح المغزل؛ فإذا أقرضتني خمس ليرات، وأنا أعرف أنك تملك مثل هذا المبلغ، فسوف أستطيع دفع رهن ثوبي القرمزي ومنديل أيام الأعياد واستعادتهما من المرابي، لأنني لن أستطيع الذهاب بهذه الملابس لزيارة أي مكان مقدس أو محترم في المدينة. وبعد ذلك سأفعل ما تطلبه مني.

أجاب الكاهن:

- أنا لا أحمل هذه النقود الآن؛ ولكنني سأحقق طلبك قبل أن يحل يوم السبت.

- صحيح - قالت المرأة -، جميعكم تقدمون الوعود، ولا تنفذونها بعد ذلك. أتظن أنك ستفعل بي مثل ما فعلته ببيليوزا التي ظلت تنتظر الوعد؟.. لن أرضى بمثل ذلك، فقد جنت المرأة بسبب تلك الفعلة. إذا كنت لا تحمل النقود، فاذهب وأحضرها!

فقال الكاهن:

ـ تريدين مني الآن أن أذهب إلى بيتي، بعد أن حالفني الحظ ولم أجد أحداً عندك، وقد يأتي أحد الآن قبل رجوعي. أظن أن هذا الوقت هو الفرصة المناسبة أكثر من سواها.

فقالت المرأة:

ـ يكفي كلاماً، إذا أردت الذهاب فاذهب، وإن لم تشأ، فانتظر.

وعندما رأى الكاهن أنها لن تستجيب إلا بكفالة مضمونة، ولأنه مصمم من جانبه على عدم الدفع، قال لها:

ـ بما أنك لا تصدقين أنني سأحضر لك النقود؛ فسوف أثبت لك ذلك بترك بردتي الزرقاء هذه كرهن عندك.

رفعت بيلكولور بصرها، وقالت:

ـ وما الذي تساويه هذه البردة؟..

ـ كيف تقولين ما الذي تساويه؟.. ـ أجابها الكاهن، ثم أضاف: إنها من قماش ثمين، ومنذ أقل من خمسة عشر يوماً باعني إياها لوتو، صاحب محل الرهونات، بسبع ليرات، وهو أقل بخمس ليرات من ثمنها الحقيقي مثلما أخبرني بوغليتو دل إيرتا الذي يفهم، مثلما تعلمين، في هذه الأقمشة النفيسة.

فقالت بيلكولور:

ـ هكذا إذن؟.. أعطني إياها أولاً، وليسامحني الرب لأني لم أكن أفكر في هذه الأمور.

فخلع الكاهن البردة، وكان قاذفه مشحوناً، وقدمها إليها. وبعد أن خبأتها المرأة، قالت له:

ـ هلم بنا إلى حجرة الحبوب، لأن أحداً لا يدخل إليها.

وهذا ما فعلاه. وهناك قبّلها الراهب أعذب قبلات في العالم، وقرّبها من الرب إلهنا، واستمتع معها طويلاً. ثم انصرف بعد ذلك بمسوحه الكهنوتي وحده، وعاد إلى بيته كما لو أنه عائد من حفلة زفاف. عندئذ بدأ يفكر في أن أعقاب شموع سنة كاملة لن تساوي نصف الخمس ليرات، وبدا له أنه قد أساء التصرف، وندم لأنه ترك بردته، فراح يفكر

في طريقة لاستعادتها، وسرعان ما وجد الحل المناسب. وفي اليوم التالي، وكان يوم عيد، أرسل طفلاً من أبناء جيرانه إلى بيت دونا بيلكولور، ليطلب منها أن تعيره هاونها الحجري، لأن لديه ضيوفاً على الغداء ويريد إعداد نوع من الصلصة. فأرسلته إليه، وعندما حان موعد الغداء، استدعى خادمه وقال له:

ـ أعد هذا الهاون إلى بيلكولور، وقل لها: «السيد الأسقف يشكرك كثيراً، ويريد أن تعيدي إليه البردة التي تركها كرهن مقابل هذا الهاون».

ذهب الصبي إلى بيت بيلكولور بالهاون، ووجدها وزوجها يتناولان الغداء، فوضع الهاون على المائدة، وكرر ما قاله له الكاهن. وعندما رأت أنه يطلب منها البردة، حاولت أن ترد عليه، لكن زوجها بينتفيغنا قال لها باستياء:

ـ منذ متى تطلبين رهناً من السيد الكاهن؟.. أقسم بالمسيح إنني أرغب في ضربك. هيا أعيدي إليه البردة بسرعة، ولتأخذك حمى خبيثة. حذار مرة أخرى أن تمنعي عنه شيئاً، حتى لو طلب حمارنا أو أي شيء آخر.

نهضت بيلكولور وهي تدمدم متذمرة، وذهبت إلى الصندوق، فأخرجت البردة وأعطتها لخادم الكاهن وهي تقول:

ـ قل للسيد الكاهن: «إن بيلكولور تقول إنها عاهدت الرب على ألا تسمح له أبداً بهرس مزيد من الصلصة في هاونها، فقد باركتَ هاونها مرة، وهذا يكفي.»

ذهب الخادم بالبردة، ونقل الرسالة إلى الكاهن الذي غرق في الضحك، وأجاب:

ـ قل لها عندما تراها إنها إذا لم تعرني الهاون فلن أعيرها مدقة الهاون؛ فكل واحد منهما مقابل الآخر.

أما بينتفيغنا فظن أن زوجته قالت ما قالته لأنه عنفها، ولم يولِ مزيداً من الاهتمام للأمر. لكن بيلكولور غضبت من الكاهن الذي خدعها، ولم تعد تكلمه حتى موسم الحصاد؛ بعد ذلك هددها الكاهن بأنه سيجعلها تدخل الجحيم ليبتلعها أكبر الشياطين هناك؛ ولخوفها من ذلك فقط، رضيت أن تصالحه، وقد استمتعا مرات كثيرة معاً بعد ذلك؛ وجعلها مقابل الليرات الخمس تعزف السيمبالو وعلق به جلجاً صغيراً، فأسعدها ذلك.

القصة الثالثة

يذهب كالاندرينو وبرونو وبوفالماكو إلى جبل مونيوني بحثاً عن الحجر المسمى هيليوتروبيا، فيحسب كالاندرينو أنه وجده. يعود إلى البيت محملاً بالحصى، فتوبخه امرأته، ويغضب ويضربها، ويخبر صاحبيه بما يعرفانه خيراً منه.

عندما أنهى بانفيلو قصته التي أضحكت السيدات كثيراً، وكنّ لا يزلن يضحكن عندما أمرت الملكة إليسا بأن تواصل رواية قصتها؛ فبدأت هذه الكلام وهي تضحك، وقالت:

- لست أدري يا صديقاتي العزيزات إذا ما كنت سأتمكن من إضحاككن بقصتي قدر ما اضحكتكن قصة بانفيلو، ولكنني سأسعى لأن يكون الأمر كذلك.

في مدينتنا التي كانت تزخر على الدوام بأشياء غريبة وبأناس غير عاديين، عاش منذ زمن غير بعيد نقاش يدعى كالاندرينو، وهو رجل بسيط وغريب العادات والأطوار، يقضي معظم أوقاته مع نقاشين آخرين، أحدهما يدعى برونو والآخر بوفالماكو، وهما رجلان محبان للمزاح؛ ولكنهما فطنان في الوقت نفسه وماكران. وكانا يتعاملان مع كالاندرينو لأنهما يستمتعان كثيراً بالسخرية من بساطته وسذاجته. وكان هناك في فلورنسا في ذلك الحين، شاب على جانب عجيب من الظرف، بارع ومحظوظ في كل ما يقدم عليه، وكان يدعى ماسو دل ساغيو. وحين سمع هذا الشاب بعض الأخبار عن سذاجة كالاندرينو، فكر في التسلية والسخرية منه بجعله يصدق أمراً غير معقول. وشاءت المصادفة أن يلتقي به في أحد الأيام في كنيسة القديس جيوفاني، فرآه يتأمل باهتمام الطلاء والزخارف التي فوق مذبح الكنيسة؛ فقدر أنه الوقت المناسب لعمل ما كان قد فكر فيه. فأخبر صديقاً له بذلك، واقتربا كلاهما من كالاندرينو الذي كان يجلس وحيداً. وراحا يتبادلان الحديث ـ وهما يتظاهران بأنهما لا يريانه ـ عن مزايا مختلف

الأحجار التي يتقن ماسو الحديث عنها كما لو أنه واحد من أعظم وأشهر نحاتي لوحات القبور؛ فأصغى كالاندرينو إلى ذلك الحديث. وما لبث أن نهض بعد قليل، حين رأى أن ما يتكلمان فيه ليس سراً، وانضم إليهما، مما أفرح ماسو وأسعده. وبينما هو يواصل كلامه، سأله كالاندرينو عن المكان الذي توجد فيه تلك الأحجار ذات المواصفات الاستثنائية. فرد عليه ماسو بأن أفضلها يوجد في بيرلينزونيا، في بلاد الباسكيين، وفي بلاد تسمى بينغودي حيث تربط الدوالي بحبال من السجق، وحيث تُشترى إوزة بقطعة نقد واحدة، وتُعطى معها بطة كهدية. وهناك يوجد جبل كامل من الجبن الصخري المبشور، وفي أعلاه أناس لا يفعلون شيئاً سوى صنع المعكرونة وطهوها في مرق الديوك المخصية، ثم يرمون بها من هناك إلى أسفل، ومن يجمع أكثر يأخذ أكثر. وهناك يجري نهر نبيذ من أفخر ما يمكن شربه، لا تخالطه قطرة ماء واحدة.

فقال كالاندرينو:

- آه، إنها بلاد رائعة. ولكن أخبرني، ما الذي يفعلونه بالديوك التي يطهونها؟..

فقال ماسو:

- يأكلها الباسكيون كلها.

عندئذ قال كالاندرينو:

- وهل ذهبت إلى هناك يوماً؟..

فأجاب ماسو على السؤال:

- تسألني إذا ما كنت قد ذهبت؟.. أجل، لقد كنت هناك ليس مرة واحدة، وإنما قرابة ألف مرة!

وقال كالاندرينو:

- وكم ميلاً يبعد هذا المكان؟..

- أكثر من مليون ميل.

فقال كالاندرينو:

ـ لا بد أنه أبعد من أبروزي إذن.

ـ أجل، إنه كذلك ـ قال ماسو ـ، إنه أبعد قليلاً منها.

وحين رأى كالاندرينو الساذج أن ماسو يقول كل ذلك بوجه تبدو عليه ملامح الجد، ودون أن يضحك، صدق وجود تلك الأشياء واعتبرها حقيقة؛ وقال:

ـ إنه مكان بعيد بالنسبة إلي. ولو أنه كان أقرب، لكنت ذهبت معك في إحدى المرات، ولو لمجرد رؤية ذلك المطر من المعكرونة، والأكل منه حتى التخمة. ولكن أخبرني أسعدك الله، ألا يوجد في هذه الأنحاء أي نوع من تلك الأحجار العجيبة؟..

فرد عليه ماسو:

ـ بلى، يوجد نوعان من الحجارة المتميزة جداً. النوع الأول هو أحجار سيتينيانو ومونتشي التي تتحول عند طحنها إلى دقيق، ولهذا يقال هناك إنها نعمة يرسلها الرب، وتوجد في مونتشي أحجار رحى الطحن؛ ولكن أحجار الطحن هذه متوافرة بكميات كبيرة، ولهذا ليس هناك بيننا من يقدرها مثلما تُقدر أحجار الزمرد، ويوجد من هذه الأحجار جبلٌ أكبر من جبل مونتي موريلو، وهي تلمع في منتصف الليل مثلما تلمع في النهار. ومن يتقن صقل تلك الأحجار ويثقبها ليصنع منها خواتم، ثم يقدمها للسلطان، فإنه يتلقى منه كل ما يطلبه. أما النوع الثاني، ونسميه نحن هيليوتروبيا، فهو حجر المزايا الكبرى، لأن من يحمله يختفي عن الأنظار ولا يستطيع أي شخص آخر أن يراه مادام الحجر معه.

فقال كالاندرينو:

ـ يا لها من أعاجيب؛ وأين يوجد هذا الحجر الثاني؟..

وهنا أجابه ماسو بأنه يوجد عادة في جبل مونيون. فقال كالاندرينو:

ـ وما هو حجم هذا الحجر، وأي لون له؟..

فرد عليه ماسو:

ـ أما أحجامه فمتنوعة، بعضها كبير وبعضها صغير، ولكنها جميعها ذات لون أقرب إلى السواد.

بعد أن حصل كالاندرينو على هذه المعلومات عن خصائص الأحجار المذكورة

وأوصافها، تظاهر بأن لديه عملاً آخر يعمله، فودع ماسو، وقرر البحث عن تلك الأحجار. ولكنه رأى ألا يفعل ذلك دون إخبار برونو وبوفالماكو اللذين يحبهما محبة خاصة. فأمضى ذلك الصباح في البحث عنهما. وأخيراً، وبعد أن تقدم النهار، تذكر أنهما يعملان في دير راهبات فاينزا، فتوجه إلى هناك راكضاً وقال لهما:

ـ أيها الصديقان، يمكن لنا أن نصير أثرى أثرياء فلورنسا إذا ما عملتما بنصيحتي؛ فقد سمعت رجلاً جديراً بالثقة يقول إنه يوجد في جبل مونيون حجر يجعل من يحمله غير مرئي من الجميع. ولهذا أرى أن نسارع، قبل أن يسبقنا آخرون، ونذهب للبحث عنه. ومن المؤكد أننا سنجده، لأنني أعرفه. وماذا يتوجب علينا أن نفعله بعد أن نعثر عليه؟.. لن يكون علينا سوى الذهاب إلى مناضد الصيارفة، وهي مترعة على الدوام، كما تعلمان، بالنقود الفضية والفلورينات الذهبية. ولن يرانا أحد: وهكذا نتمكن من الإثراء بسرعة ودون أن نضطر إلى قضاء النهار بطوله في طلاء الجدران ببطء مثل الحلزون.

بدأ برونو وبوفالماكو الضحك في أعماقهما عندما سمعاه، ثم تبادلا النظر وأبديا ملامح الدهشة على وجهيهما، وامتدحا فكرة كالاندرينو. ولكن بوفالماكو سأله عن اسم ذلك الحجر. غير أن كالاندرينو كان قد نسي الاسم بسبب ضعف ذاكرته؛ فرد عليه:

ـ وما أهمية الاسم إذا كنا نعرف خصائصه؟.. أنا أرى أن نذهب للبحث عنه دون إضاعة للوقت.

فقال برونو:

ـ لا بأس، ولكن كيف هو الحجر؟..

وأجابه كالاندرينو:

ـ توجد منه أشكال مختلفة، ولكنها جميعها ذات لون أسود تقريباً؛ ولهذا أرى أنه علينا أن نلتقط كل ما نجده من أحجار سوداء، إلى أن نصل إلى الحجر المطلوب. هلموا بنا، يجب ألا نضيع الوقت.

ـ انتظر ـ قال برونو ذلك ثم توجه إلى بوفالماكو، وأضاف: يبدو لي أن ما يقوله كالاندرينو جيد، ولكنني لا أرى الوقت مناسباً لعمل ذلك، فقد ارتفعت الشمس كثيراً

وهي تضرب بأشعتها الآن جبل مونيون، مما يجعل الأحجار كلها تبدو بيضاء. سيكون من الأفضل الذهاب في الصباح، قبل أن تضربه الشمس. وبما أن هذا اليوم هو يوم عمل، فإن أناساً كثيرين سيكونون هناك في جبل مونيون، وعندما يروننا، سيخمنون ما الذي نسعى إليه، وربما فعلوا مثلنا؛ ويمكن لهم أن يجدوه هم، ونكون نحن قد فقدنا القديس مقابل الصدقة. أنا أرى، إذا كنتما توافقانني الرأي، أن نقوم بهذا العمل في الصباح الباكر، حيث يمكن تمييز الحجارة البيضاء من السوداء، وأن يكون ذلك في يوم عطلة، إذ لا يكون هناك أحد يرانا.

أشاد بوفالماكو بفكرة برونو، ووافقهما كالاندرينو الرأي، وقرروا أن يذهبوا ثلاثتهم معاً إلى الجبل، في يوم الأحد التالي، للبحث عن ذلك الحجر. ولكن كالاندرينو رجاهما، قبل كل شيء، ألا يخبرا أحداً في الدنيا عن الأمر، لأن من أطلعه عليه فعل ذلك بصورة سرية. وفي أثناء حديثهما ذاك، روى لهما ما سمعه عن ناحية بينغودي، وأكد لهما مقسماً بأن الأمر ما قاله حقاً. وعندما ودعهما كالاندرينو، رتبا معاً ما سيفعلانه في هذا الشأن. أما كالاندرينو فراح ينتظر قدوم يوم الأحد بفارغ الصبر، وعندما حل يوم الأحد، استيقظ مبكراً ونادى رفيقيه. وغادر الثلاثة المدينة من بوابة سان غالو، واتجهوا نحو جبل مونيون. وهناك بدؤوا البحث عن الحجارة. ولأن كالاندرينو هو أشدهم حماسة، فقد مضى في المقدمة، وكان يقفز متعجلاً هنا وهناك كلما رأى حصاة سوداء، فينقض عليها ويلتقطها ويدسها في عبه. وكان رفيقاه يمضيان خلفه، ويلتقطان حجراً بين حين وآخر. ولم يكن كالاندرينو قد قطع مسافة طويلة عندما كان صدره قد امتلأ بالأحجار، مما دفعه إلى رفع طرف ثوبه، ولم يكن يجاري موضة هينوت، وجعل منه تنورة كبيرة مثبتاً أطرافها بالحزام، ولكنها لم تلبث أن امتلأت بعد قليل، فجعل من عباءته كيساً وملأه بالحجارة. وعندما رأى بوفالماكو وبرونو أن كالاندرينو صار محملاً بالكامل، وأن موعد الغداء قد اقترب، قال برونو لبوفالماكو، حسب اتفاقهما المسبق:

ـ أين صار كالاندرينو يا ترى؟..

وكان بوفالماكو يراه قريباً منهما، ولكنه راح يتلفت حوله، وينظر هنا وهناك، ثم قال لرفيقه:

ـ لا أدري أين هو، ولكنه كان هنا معنا قبل قليل.

فقال برونو:

- أتقول قبل قليل! يبدو لي أنه صار في بيته، وأنه يتناول الغداء الآن، وقد ترك لنا مشقة البحث عن الأحجار السوداء في جبل مونيون.

عندئذ رد عليه بوفالماكو:

- يا لسوء فعلته! لقد سخر منا وتركنا هنا، وقد كنا حمقى حين صدقنا ما قاله. فهل هناك من هو أحمق منا ويصدق أنه سيجد أحجاراً سحرية في جبل مونيون؟..

عندما سمع كالاندرينو كلامهما، تصور أن الحجر السحري صار معه، وأن رفيقيه لا يريانه بفضل ذلك الحجر، بالرغم من أنه معهما. ابتهج أشد الابتهاج لحسن طالعه؛ ولكنه لم يقل شيئاً، وفكر في الرجوع إلى بيته. بدأ السير في طريق الإياب فعلاً. وعندما رآه بوفالماكو يفعل ذلك، قال لرفيقه برونو:

- وماذا نفعل نحن؟.. لماذا لا نذهب؟..

فأجابه برونو:

- هيا بنا، ولكنني أقسم بالله ألا أسمح لكالاندرينو بأن يسخر منا بعد اليوم. ولو أنه قريب مني، مثلما كان طوال الصباح، لضربته بهذا الحجر على رأسه كي لا ينسى طوال شهر خدعته هذه التي انطلت علينا.

قال هذا ورمى الحجر فأصاب كالاندرينو في كعبه، فرفع قدمه من الألم وصار يلهث؛ ولكنه كتم صوته وتابع المسير. فتناول بوفالماكو حجراً مما جمعه، وقال لبرونو:

- انظر هذه الحصاة البديعة، ليتها تصيب كلية كالاندرينو!

ورمى الحجر فأصاب به كلية كالاندرينو؛ وواصلا رمي الحجارة بتلك الطريقة إلى أن بلغا بوابة سان غالو. وهناك ألقيا على الأرض ما جمعاه من الأحجار، وتوقفا قليلاً مع حراس الجمارك عند البوابة. وكانا قد أخبرا أولئك الحراس مسبقاً بما يبيتانه، فتظاهر الحراس بأنهم لا يرون كالاندرينو، وتركوه يمر وهم يضحكون. فتوجه هذا مباشرة إلى بيته في حي الطاحونة، وكان الحظ مواتياً للسخرية من كالاندرينو وهو يجتاز المدينة ويمضي بجانب النهر، إذ لم يلتق بأحد يعرفه في الطريق، والقلة الذين مرّ بهم لم يلتفتوا

إليه، فتأكد اعتقاده بقدرة الحجر السحرية. وهكذا دخل إلى بيته محملاً بالأحجار، وحدث أن كانت زوجته المدعوة تيسا (وهي امرأة جميلة ورزينة) تقف في أعلى السلّم، وكانت غاضبة لتأخره الطويل، فبادرته بالتقريع حين رأته يدخل:

ـ فليأخذك الشيطان! لقد تناول الناس جميعهم طعامهم، وأنت تأتيني في مثل هذا الوقت.

حين سمع كالاندرينو كلامها وتبين له أنها تراه، امتلأ قلبه بالغم والمرارة، وراح يؤنبها صارخاً:

ـ آه أيتها المرأة الخبيثة، أنت السبب في دماري وضياعي! ولكنني سأجعلك تدفعين الثمن.

فصعد قافزاً وقد أفلت الأحجار الكثيرة التي جمعها، وركض هائجاً نحو زوجته؛ فأمسك بها من جديلة شعرها وألقى بها أرضاً. وانهال عليها لكماً ورفساً بكل ما في ذراعيه وساقيه من قوة، فلم يترك في رأسها شعرة، ولا في بدنها عظماً إلا وضعضعه. ولم تفدها في شيء كل توسلاتها وهي تقاطع ذراعيها. وبعد أن توقف بوفالماكو وبرونو عند البوابة وضحكا قليلاً مع الحراس، لحقا كالاندرينو عن بعد وبخطى بطيئة. وعندما وصلا باب بيته، سمعا الضرب المبرح الذي تلقته زوجته، فتظاهرا بأنهما وصلا لتوهما، ونادياه. فأطل كالاندرينو من النافذة متعرقاً ومتعباً ومحمر الوجه، وطلب منهما أن يصعدا إليه. فصعدا وهما يبديان الاستياء، ورأيا الصالة مملوءة بالأحجار، والمرأة في أحد الأركان مشعثة الشعر ومتورمة الوجه، وهي تبكي من الألم؛ ورأيا كالاندرينو في جانب آخر مقطباً وهو يلهث مثل أي رجل يجلس متعباً. وبعد أن تأملا المشهد، قالا له:

ـ ما هذا يا كالاندرينو؟.. أتريد أن تبني جداراً بكل هذه الأحجار؟.. ـ ثم أضافا قائلين: ـ وماذا جرى للسيدة تيسا؟.. يبدو أنك ضربتها. ما الجديد بينكما؟..

كان كالاندرينو منهوكاً من ثقل الأحجار، ومن الغضب الذي ضرب به زوجته، ومن ألمه على الثروة التي بدا له أنه قد فقدها، فلم يستطع التقاط أنفاسه لينطق الكلمات كاملة في ردّه عليهما؛ ولهذا رغب بوفالماكو في منحه مزيداً من الوقت، فواصل الكلام قائلاً له:

ـ إذا كنت غاضباً من زوجتك يا كالاندرينو، فلا يعني هذا أن تسخر منا. فبعد أن أخذتنا معك للبحث عن الحجر العجيب، تركتنا دون أن تقول إنك تودعنا الله أو الشيطان، ورجعت إلى بيتك. وقد رأينا في عملك هذا تصرفاً خبيثاً جداً؛ ولكنها آخر مرة نسمح لك بعمل هذا بنا.

ورداً على هذه الكلمات، بذل كالاندرينو جهده لالتقاط أنفاسه، وقال:

ـ لا تغضبا يا صديقَيّ؛ فما حدث مختلف تماماً عما تظنانه. فقد عثرت، أنا عاثر الحظ، على ذلك الحجر السحري. أتريدان أن أثبت لكما أنني أقول الحقيقة؟.. عندما سألتما عني أول مرة، كنت على بعد أقل من عشرة أذرع منكما، وكنتما تقتربان مني ولا تريانني، وكنت أمشي أمامكما، وأنتما آتيان ورائي طوال الطريق.

وراح يخبرهما بكل ما فعلاه وما قالاه منذ البداية حتى النهاية، وأراهما ظهره وكاحله وكيف كان يتلقى حجارتهما بصمت. ثم تابع قائلاً:

ـ وعندما وصلت بوابة المدينة ومعي كل هذه الأحجار التي ترونها «وأنتما تعلمان كم هي ثقيلة، وكم هو شاق حملها» لم يرني الحراس الذين يصرون على تفحص كل شيء. ثم رأيت في الطريق عدداً من معارفي الذين يوجهون إليّ التحية عادة ويدعونني لتناول شراباً، فلم يقل لي أي واحد منهم نصف كلمة، وكأنهم لا يرونني. وأخيراً وصلت إلى البيت، وظهرت أمامي هذه المرأة الشيطانة ورأتني، لأن النساء كما تعلمان يُفقدن كل الأشياء السحرية خصائصها ومفعولها؛ وهكذا وجدت نفسي أتحول من أكثر رجال فلورنسا حظاً إلى أشدهم بؤساً. ولهذا ضربتها بقدر ما أستطيع، ولا أدري ما الذي منعني من قطع أوردتها. ألا لعنة الله على الساعة التي رأيتها فيها، وجئت بها إلى هذا البيت!

وما إن انتهى من قول هذا الكلام حتى تأجج ثانية بالغضب، ونهض ليضربها من جديد. أما بوفالماكو وبرونو فقد أبديا ملامح الدهشة وهما يسمعان ما قاله، وكانا يؤكدان بين حين وآخر أن ما يقوله كالاندرينو صحيح؛ ولكنهما يوشكان في الوقت نفسه على الانفجار في الضحك. وعندما رأياه ينهض غاضباً لضرب زوجته مرة أخرى، وقفا في وجهه ومنعاه قائلين إنه لا ذنب لزوجته في ذلك كله، وإنما الذنب ذنبه هو لأنه يعرف أن النساء يُفقدن الحجر السحري مفعوله، فكان عليه أن يبتعد عنها ولا يدعها تراه طوال ذلك اليوم. ولكن الرب لم ينبهه إلى اتخاذ تلك الاحتياطات عندما رآه يخدع رفيقيه،

ولا يخبرهما بأنه عثر على الحجر العجيب. وبعد كثير من هذا الكلام، تمكنا من مصالحته مع زوجته الموجوعة، ثم انصرفا وخلفاه كئيباً ومغموماً في البيت الممتلئ بالأحجار.

القصة الرابعة

يُغرم رئيس كهنة الكنيسة في فيسولي بامراة أرملة، ولكنها لا تتجاوب معه. فيعتقد أنه ينام معها، بينما هو في الحقيقة ينام مع خادمتها، ويعمل أخوا السيدة على أن يضبطه المطران وهو في تلك الحال.

عندما أنهت إليسا قصتها، وقد روتها وسط استمتاع كبير من الجماعة، التفتت الملكة إلى إيميليا، وأومأت لها بأنها تريدها أن تروي قصتها بعد إليسا؛ فسارعت هذه إلى البدء بالقول:

- صديقاتي الغاليات، كم أتذكر من القصص التي رويناها عن كهنة ورهبان ورجال دين من كل المراتب، يسعون في طلب حبنا نحن النساء؛ ولكنني بالرغم من كل ما قيل، لا أظن أن هناك كاهناً مثل الذي سأتحدث عنه. فقد كان يتمادى في الإصرار على نيل حب امرأة نبيلة أرملة، شاءت ذلك أم أبت؛ ولأنها امرأة حكيمة فقد عاملته بما يستحق.

فيسولي، مثلما تعرفون جميعكن، هي مدينة عريقة في القدم وكبيرة، وإن تكن قد انحدرت اليوم وأصابها الخراب، وقد كانت، ولا تزال، مقر أبرشية يقف على رأسها مطران. وكانت تعيش بالقرب من الكنيسة الكبرى سيدة أرملة تدعى بيكاردا، في بيت ليس بالكبير. ولأنها ليست أكثر نساء العالم ثراء، فقد كانت تعيش هناك معظم شهور السنة، ومعها أخوان اثنان لها، شابان من أشد الناس كياسة ولباقة. وحدث أن هذه السيدة كانت تتردد على الكنيسة الكبرى، وكانت لا تزال شابة جميلة وجذابة، فأغرم بها رئيس كهنة الكنيسة، حتى إنه لم يعد يرى أي شيء في هذه الدنيا سواها. وبعد مضي بعض الوقت، بلغت به الجرأة حد إخبار السيدة برغبته فيها، ورجاها أن تستجيب لحبه وأن

تحبه مثلما يحبها. وكان رئيس الكهنة ذاك رجلاً عجوزاً متقدماً في السن، ولكنه مشاكس ومتعجرف، يظن أنه أفضل من الجميع. وكان مزعجاً وثقيل الظل لا يطيقه أحد، بل يكرهه الجميع أكثر من كراهيتهم لوجع الرأس. وقد أثار سوء سلوكه استياء السيدة، ولكنها كانت امرأة حكيمة وفطنة، فأجابته:

- يسعدني يا سيدي أن تحبني، ولا بد لي من شكرك على هذا وأن أحبك؛ ولكن لن يكون هناك بين حبك وحبي ما يحط أبداً من الشرف والعفة. فأنت أبي الروحي، وكاهن، وسنك قريبة جداً من الشيخوخة، وكلها أمور تتطلب منك الشرف والعفة. وأنا يا سيدي لست طفلة تغريها مثل هذه الغراميات، لأنني أرملة، وأنت تعرف ما يستدعيه الترمل من التزام بالشرف. ولهذا، تقبل اعتذاري لأني لن أستطيع أن أحبك بالطريقة التي تريدها، ولا أريد أن أكون محبوبة بهذه الطريقة من جانبك.

عدم قدرة رئيس كهنة الكنيسة على نيل أي شيء منها في تلك المناسبة، لم تجعله يفقد الأمل ويستسلم للهزيمة من الضربة الأولى، بل عمد إلى إصراره المتعجرف، وكرر طلب ذلك منها بالرسائل والرسل، وحتى بنفسه كلما رآها في الكنيسة. فبدا للمرأة أنه لجوج وشديد السماجة، فأغضبها إلحاحه وفكرت في أن تبعده عنها بالطريقة التي يستحقها، بعد أن عجزت عن إبعاده بطريقة أخرى. ولكنها لم تشأ الإقدام على أمر كهذا قبل أن تتشاور مع أخويها. وهكذا أخبرتهما بما يفعله بها رئيس الكهنة، وبما فكرت هي في عمله، فأبديا موافقتهما ومنحاها تفويضاً كاملاً لعمل ذلك. وبعد بضعة أيام رجعت إلى الكنيسة كعادتها، وما إن رآها رئيس الكهنة حتى جاء إليها، ليدخل معها في محادثة على طريقته المعتادة في المناجاة. وحين رأته السيدة يقترب نحوها، أبدت إمارات البشر والسعادة وانتحت جانباً منعزلاً، وبعد أن قال لها رئيس الكهنة الكثير من كلامه المعهود، تنهدت السيدة بعمق وقالت:

- يقال يا سيدي إنه لا وجود لقلعة تتعرض للهجوم يومياً، مهما كانت حصينة، إلا وتنتهي إلى السقوط يوماً؛ وأرى أن هذا هو ما حلّ بي. فبالكلام العذب يوماً، والمزاح في يوم آخر، وبأشياء أخرى غيرها، تمكنت يا سيدي من كسر مقاومتي وتحطيم صمودي، وأنا مستعدة الآن للموافقة على أن أكون لك، ولاسيما أنني أروقك وأنال إعجابك.

فابتهج رئيس الكهنة كل الابتهاج، وقال لها:

ـ سيدتي، إنني شاكر لك جزيل الشكر، والحقيقة إنني في غاية الدهشة لشدة مقاومتك الطويلة، وأنا الذي لم يحدث لي مثل هذا مع أي امرأة أخرى؛ حتى إنني كنت أقول أحياناً: إذا ما كانت النساء من فضة فإنهن لا يساوين قرشاً واحداً، لأنهن لا يصمدن في مقاومة المطرقة. ولكن دعينا الآن من هذا الكلام. متى وأين يمكننا اللقاء معاً؟..

فكان رد السيدة عليه:

ـ في الوقت الذي يروقك يا سيدي المحبوب، لأنني كما تعلم بلا زوج يفرض عليَّ أن أقدم إليه حساباً بلياليّ؛ أما أين يكون اللقاء، فلم أفكر في هذا الأمر.

فقال الكاهن:

ـ كيف لم تفكري؟.. وماذا عن بيتك؟..

فأجابته:

ـ أنت تعرف يا سيدي أن لي أخوين شابين، وهما يأتيان في الليل والنهار مع أصدقائهما، وبيتي ليس بالكبير، ولهذا لا يمكننا اللقاء فيه؛ إلا إذا كنت تريد أن تظل صامتاً هناك كما لو أنك أبكم، دون أن تنطق بكلمة أو تلهث، وأن نفعل ذلك في الظلام، كما العميان. فإذا أردت أن يكون الأمر كذلك، فلست أرى مانعاً من مجيئك إلى بيتي، لأن أخوي لا يدخلان غرفتي؛ ولكنها ملاصقة لغرفتهما بحيث لا يمكننا أن ننطق كلمة إلا وتسمع مهما كان الصوت خافتاً.

عندئذ قال رئيس الكهنة:

ـ لا تقلقي لهذا الأمر يا سيدتي، نلتقي هناك يوماً أو يومين، وسأجد بعد ذلك مكاناً آخر نلتقي فيه براحة أكبر.

فقالت السيدة:

ـ هذا شأنك يا سيدي، ولكنني أرجو منك أمراً واحداً، وهو أن يبقى هذا كله طي الكتمان، وألا تُعرف منه كلمة واحدة.

عندئذ قال لها رئيس الدير:

ـ أعدك بكتمان الأمر يا سيدتي، وضعي في اعتبارك أننا سنلتقي هذه الليلة معاً، إذا

ما سار كل شيء على ما يرام.

ـ سيسعدني ذلك. ـ قالت السيدة، وقدمت له تفاصيل ما عليه عمله، وكيف عليه أن يأتي ويتصرف، ثم ودعته ورجعت إلى بيتها.

وكان لدى هذه السيدة الأرملة خادمة قبيحة ومشوهة بصورة لم يُعرف لها مثيل؛ أنفها أفطس، وفمها معوج، وشفتاها غليظتان، وأسنانها ملتوية وكبيرة، وأنفاسها كريهة، وبشرتها مائلة إلى الصفرة، وفي عينيها مرض دائم، حتى كأنها ليست في فيسولي وإنما في السنغال. وكانت فوق ذلك محدودبة الظهر، وعرجاء تميل إلى جانبها الأيمن. وكان اسمها سيوتا، ولكن شحوب وجهها جعل الجميع يسمونها سيوتاسا. وعلى الرغم من تشوه هيئتها، إلا أنها كانت شديدة الخبث. فاستدعتها السيدة وقالت لها:

ـ اسمعي يا سيوتاسا، أريد منك أن تقدمي لي خدمة هذه الليلة، وسأعطيك بالمقابل قميصاً جديداً.

وما إن سمعت سيوتاسا ذكر القميص حتى قالت:

ـ إذا ما أعطيتني قميصاً يا سيدتي، فلن أتورع عن إلقاء نفسي في النار.

ـ حسن إذن ـ قالت السيدة ـ أريدك أن تنامي هذه الليلة في فراشي مع رجل، وأن تداعبيه دون أن تنطقي بكلمة واحدة، كي لا يسمعك أخواي، فأنت تعرفين أنهما ينامان في الغرفة المجاورة. وبعد ذلك سأعطيك القميص.

فقالت سيوتاسا:

ـ سأنام مع ستة رجال، وليس مع رجل واحد، إذا تطلب الأمر.

وعندما حلّ الليل وخيم الظلام، جاء السيد رئيس الكهنة وفق الاتفاق. وكان الأخوان الشابان، مثلما دبرت السيدة، في غرفتهما يثيران ضجة كبيرة، فاستغل رئيس الكهنة الجلبة والظلام، ودخل بصمت إلى مخدع السيدة، واتجه إلى السرير مثلما قالت له، وكانت هناك سيوتاسا التي أخبرتها السيدة جيداً ما عليها عمله. وظن السيد رئيس الكهنة أن التي بجواره هي السيدة، فألقى بنفسه بين ذراعي سيوتاسا وراح يقبّلها دون أن ينطق بأي كلمة، وحذت سيوتاسا حذوه؛ ثم بدأ بمداعبتها معتقداً أنه يعانق المحبوبة التي

طالما اشتهاها. وعندما بدا للسيدة أن الوقت صار مناسباً، أمرت أخويها بأن يُكملا الخطة الموضوعة. فخرجا بهدوء من حجرتهما، وذهبا إلى الساحة، حيث حالفهما الحظ أكثر مما يتوقعان، إذ كان المطران ينوي أن يرسل في طلبهما ليعرب لهما عن رغبته في الذهاب إلى بيتهما، وتناول بعض الشراب معهما بسبب اشتداد الحر. ولكنه حين رآهما أخبرهما برغبته، ومضى معهما إلى بيتهما. وهناك دخلوا إلى فناء صغير ندي، فيه أضواء كثيرة، وشربوا بتلذذ كبير نبيذاً فاخراً مما لديهم. وبعد تناول الشراب، قال الشابان:

ـ سيدي، بما أنك تكرمت وشرفتنا بزيارة بيتنا المتواضع هذا الذي كنا ذاهبين لدعوتك إليه، فإننا نود إذا ما رغبت أن نريك شيئاً يستحق اهتمامك.

فقال المطران إن ذلك يسعده كثيراً؛ فتناول أحد الشابين شعلة صغيرة، ومضى في المقدمة، يتبعه المطران والآخرون جميعهم. وتوجه نحو الحجرة التي فيها رئيس الكهنة وسيوتاسا، وكان الرجل قد سارع إلى امتطائها قبل أن يباغته أخوا السيدة، وقد فعل ذلك أكثر من ثلاث مرات، مما جعله يغفو من التعب وهو يحتضن سيوتانا بين ذراعيه. وهكذا دخل الشاب إلى الحجرة وهو يحمل الشعلة في يده، ودخل وراءه المطران والآخرون، فأراهم رئيس الكهنة وهو يحتضن سيوتانا. عندئذ استيقظ السيد رئيس الكهنة، فرأى النور وذلك الجمع المحيط به، فسيطر عليه الخجل والخوف، ودس رأسه تحت أغطية السرير. فلعنه المطران وطلب منه إخراج رأسه ليرى مع من هو نائم. وحين انتبه رئيس الكهنة إلى الخدعة، أحس أنه أشد الرجال يأساً. ثم ارتدى ثيابه بأمر من المطران، اقتيد إلى بيته تحت الحراسة ليتلقى أقصى عقوبة على ما ارتكبه من خطيئة. وأراد المطران أن يعرف بعد ذلك كيف حدث وجاء رئيس الكهنة لمضاجعة سيوتانا هناك، فأخبره الشابان بكل ما جرى، من البداية حتى النهاية، فأطرى السيد المطران على السيدة، وكذلك على الشابين اللذين لم يرضيا بتلويث أيديهما بدماء كاهن، وعاملاه بما يستحقه. وعقاباً له أمره المطران بأن يبكي خطيئته أربعين يوماً، لكن الحب والعار جعلاه يبكي أكثر من تسعة وأربعين يوماً. وظل لا يجرؤ على الخروج إلى الشارع لزمن طويل، لأن الصبيان كانوا يشيرون إليه قائلين:

ـ انظروا إلى من نام مع سيوتاسا!

وقد عذبه ذلك كثيراً حتى أوشك على الجنون. وهكذا تخلصت السيدة الجريئة من إزعاج رئيس الكهنة اللجوج، بينما كسبت سيوتانا قميصاً جديداً.

القصة الخامسة

ثلاثة شبان ينزعون السروال الداخلي لقاض في ضواحي فلورنسا، بينما هو يدير العدالة من فوق منصة المحكمة.

كانت إيميليا قد أنهت قصتها، وأطرى الجميع على تصرف الأرملة، عندما نظرت الملكة إلى فيلوستراتو، وقالت له:

ـ لقد حان دورك الآن لتروي قصتك.

فرد هو على الفور بأنه مستعد، وبدأ بهذه الطريقة:

ـ سيداتي اللطيفات، الشاب الذي ذكرت إليسا، قبل قليل، أن اسمه ماسو دل ساجيو، جعلني أتخلى عن قصة كنت سأرويها، كي أتحول إلى رواية قصة أخرى عنه وعن بعض رفاقه. ومع أنها قصة غير مهذبة، إلا أنها لا تتضمن كلمات تخجلن من قولها؛ ولكن هذا لا يحول دون كونها ممتعة ومسلية. ولسوف أرويها لكنّ بالرغم من كل شيء.

لابد أنكن جميعكن سمعتن أنه كثيراً ما يأتي إلى مدينتنا حكام بعض الأقضية، ويكون هؤلاء بصورة عامة رجالاً قساة الطباع، يعيشون حياة فقيرة وبائسة لا تتعدى أعمالهم كلها أن تكون سوى شح وتقتير. وبسبب بؤسهم الشديد وبخلهم، يحضرون معهم قضاة وكتبة يبدون كما لو أنهم قد انتزعوا عن المحراث أو أخرجوا من حوانيت إصلاح الأحذية، وليس بأي حال من مدارس القانون. وقد جاء أحدهم كحاكم، وبين القضاة الكثيرين الذين أتى بهم معه، جاء بواحد يريد أن يدعى باسم السيد نيكولا دي سان ليبيديو، وكان يبدو أشبه بصانع أقفال منه بأي شيء آخر. وقد عُين مع القضاة الآخرين ليتولى أمر الفصل في قضايا الجرائم. ومثلما يحدث في كثير من الأحيان، فإن الناس يذهبون إلى المحكمة، دون أن يكون لديهم ما يفعلونه هناك. وفي صباح أحد الأيام، كان ماسو دل ساجيو يبحث عن صديق له، فذهب إلى المحكمة. وحدث أن نظر إلى

منصة القاضي، حيث يجلس السيد نيكولا، فبدا له أنه كائن غريب المظهر. وراح يتأمله متفحصاً، ورأى أن في هيئته كثيراً من الأشياء الغريبة؛ فالشعر المستعار على رأسه ملطخ بالشحم، وهناك دواة حبر معلقة بحزامه، والسترة التي يرتديها أطول من العباءة، وأشياء كثيرة أخرى غير مألوفة في رجل منظم وسليم الذوق. لكن أكثر ما أذهله هو أن سرواله الداخلي، وهو جالس ـ وثوبه مفتوح من أمام بسبب ضيقه ـ يصل حتى منتصف ساقيه. وهكذا، دون أن يطيل النظر إليه، قرر التخلي عمن كان يبحث عنه، وبدأ بحثاً جديداً؛ فوجد اثنين من أصدقائه، أحدهما يدعى ريبي والآخر ماتيوزو، وهما شخصان لا يقلان طرافة عن ماسو، فقال لهما:

ـ هيا، تعاليا معي إذا أردتما إلى المحكمة، وسأريكما هناك أقبح جلف رأيتماه في حياتيكما.

توجهوا معاً إلى المحكمة، وأراهما هناك ذلك القاضي وسرواله. فأخذوا يضحكون من بعيد لما يرونه، ثم اقتربوا قليلاً ولاحظوا أنه بالإمكان المشي بسهولة تحت ألواح المنصة التي يجلس فوقها القاضي، ورأوا أن الدرجة التي يضع القاضي قدميه عليها مكسورة، بحيث يمكن إدخال اليد من الفتحة بكل راحة. فقال ماسو لرفيقيه:

ـ أريد أن أنزع عنه هذا السروال الداخلي بالكامل، وأنا أستطيع عمل ذلك بكل سهولة.

وبعد أن بيّن لرفيقيه كيف سيفعل ذلك، اتفقوا فيما بينهم على ما سيفعلونه، وعادوا في صباح اليوم التالي. وكانت المحكمة تغص بالرجال. فدخل ماتيوزو تحت المنصة دون أن يراه أحد، واتجه مباشرة ليقبع تحت المكان الذي يضع القاضي عليه قدميه. وفي أثناء ذلك، اقترب ماسو من أحد جانبي السيد القاضي وشدّ عباءته، بينما اقترب ريبي من الجانب الآخر وفعل الشيء نفسه. وبدأ ماسو القول:

ـ سيدي، سيدي، أتوسل إليك أن تجبر هذا اللص الذي بجانبك أن يعيد إليّ جزمتي التي سرقها، وينكر أنه فعل ذلك. ولكنني رأيته قبل أقل من شهر يأخذها ليضع لها نعلاً جديداً.

فصرخ ريبي من الجانب الآخر:

ـ لا تصدقه يا سيدي، فهو محتال، وقد علم أنني آت إلى هنا للادعاء عليه بشأن محفظة سرقها مني، فجاء الآن ليتكلم عن الجزمة التي أملكها منذ زمن بعيد. وإذا كنت لا تصدقني، فيمكنني أن أجيء بشهود هم بائعة الخضار جارتي، وبائعة الكروش البدينة، وشخص يجمع الزبالة من سان مارتين حتى فيرزايا، رأيته وهو عائد من القرية.

وكان ماسو يصرخ من الجانب الآخر ليُسكت ريبي، فيرفع هذا صوته بقوة أكبر. فنهض القاضي كي يسمعهما بصورة أفضل؛ عندئذ انتهز ماتيوزو الفرصة، فأدخل يده من الفتحة التي في أرضية المنصة، وأمسك سروال القاضي الداخلي من أسفل، وشدّه بقوة فانزلق السروال دون عائق، لأن القاضي نحيل وبلا مؤخرة.

أحس القاضي بما حدث، ولم يدر حقيقة الأمر، فحاول أن يشد عباءته ليستر نفسه من قدام ويجلس؛ غير أن ماسو من جانب وريبي من الجانب الآخر، كانا يمسكان به ويصرخان بقوة:

ـ سيدي، ستكون مخطئاً إذا أنت لم تقر العدالة، وإذا غادرت دون أن تستمع إلينا. ففي هذه المدينة لا يسجلون محضر شكوى من أجل أمر ضئيل الأهمية مثل قضيتنا.

وبينما هما يقولان هذا الكلام، كانا يشدان ثيابه، فانتبه جميع من في القاعة إلى أن القاضي صار دون سروال. وبعد أن أمسك ماتيوزو بالسروال لبعض الوقت، أفلته وخرج دون أن يراه أحد، وبدا لريبي أن دوره قد انتهى أيضاً، فقال:

ـ أقسم بالله أن أقدم شكوى بهذا الشأن إلى النقابة!

وأفلت ماسو عباءة القاضي من الجانب الآخر، وقال:

ـ أنا لن افعل ذلك، ولكنني سأحضر إلى هنا كل يوم إلى أن أجدك أقل انشغالاً، يا سيدي القاضي، مما أنت عليه اليوم.

وغادر أحدهما من هذه الجهة، والثاني من الجهة الأخرى، بأسرع ما استطاعا. وأعاد السيد القاضي ارتداء سرواله الداخلي أمام الجميع كما لو أنه ينهض من فراشه. وعندئذ أدرك حقيقة ما جرى، فسأل أين ذهب الرجلان صاحبا شكوى الجزمة والحقيبة؛ ولكنه لم يجدهما، فراح يقسم بالمسيح بأنه يريد أن يعرف إذا ما كانت العادة، هنا في فلورنسا، أن تُنزع سراويل القضاة عند جلوسهم على منصة العدالة. أما الحاكم، من

جهته، فقد أثار جلبة كبيرة عندما سمع بما حدث. ولكن أصدقاءه طيبوا خاطره، وبينوا له أن الفلورنسيين عرفوا أنه لم يأتهم بقضاة وإنما بجهلة أغبياء، لأن هؤلاء أرخص كلفة. وعندئذ لم يجد مفراً من الصمت، وتوقف الأمر عند هذا الحد.

القصة السادسة

يسرق برونو وبوفالماكو خنزيراً من كالاندرينو؛ وينصحانه بالبحث عنه بأقراص من عجينة الزنجبيل والنبيذ الحلو ويقدمان له قرصين معجونين من روث كلب وصبار، فيبصقهما ويبدو أنه هو نفسه السارق. ويجعلانه يكافئهما فوق ذلك، بعد تهديده بأنهما سيخبران زوجته بكل شيء.

عندما انتهت قصة فيلوستراتو، وأثارت كثيراً من الضحك، توجهت الملكة إلى فيلومينا وأمرتها بأن تواصل وتروي قصتها، فبدأت هذه بالقول:

ـ صديقاتي اللطيفات، مثلما روى لنا فيلوستراتو قصته مدفوعاً، كما سمعتم باسم ماسو، أجد نفسي بالطريقة نفسه مدفوعة باسم كالاندرينو ورفيقيه، لرواية قصة أخرى أظن أنها ستروقكن.

لا حاجة بي لأن أخبركن من هم كالاندرينو وبرونو وبوفالماكو، لأنكن سمعتن الكثير عنهم؛ ولهذا سأتجاوز هذا الأمر لأقول إن كالاندرينو كان يملك قطعة أرض صغيرة على مقربة من فلورنسا، تلقاها كدوطة من زوجته. وكانت قطعة الأرض تلك تدرّ عليه، فيما تدر، خنزيراً في كل عام. وكان من عادته الذهاب إلى القرية مع زوجته، في شهر كانون الأول من كل عام، فيذبحان الخنزير ويملحانه هناك. وحدث في واحدة من تلك المرات، أن زوجته كانت معتلة وصحتها ليست على ما يرام، فذهب كالاندرينو وحده لذبح الخنزير. سمع بذلك برونو وبوفالماكو، وعلما أن زوجته لن تذهب معه، فذهبا لزيارة كاهن يقطن بجوار بيت كالاندرينو الريفي، وتربطه بهما صداقة حميمة، لقضاء بضعة

أيام هناك. وفي صباح اليوم الذي وصلا فيه، كان كالاندرينو قد ذبح الخنزير، وحين رآهما مع الكاهن استدعاهما وقال لهما:

ـ أهلاً وسهلاً بكما؛ أريدكما أن تريا كم أنا رب بيت ماهر.

وأخذهما إلى بيته وأراهما الخنزير. وقد تبين لهما أنه خنزير سمين، وسمعا كالاندرينو يقول إنه سيملحه لأسرته. فقال له برونو:

ـ يا لك من غبي! خير لك أن تبيعه وتتمتع بالنقود، ثم تقول لزوجتك بعد ذلك إنه سُرق منك.

فقال كالاندرينو:

ـ لا، لن تصدقني وستطردني من البيت. فلا تحاولا، لأني لن أفعل ذلك أبداً.

تجادلا معه طويلاً، ولكن دون أي جدوى من الكلام. ودعاهما كلاندرينو لتناول العشاء، لكنهما رفضا دعوته وانصرفا. وعندئذ قال برونو لرفيقه بوفالماكو:

ـ لماذا لا نسرق منه الخنزير هذه الليلة؟..

فقال بوفالماكو:

ـ وكيف نفعل ذلك؟..

قال برونو:

ـ لدي طريقة لعمل ذلك، ما لم يبدل المكان الذي وضع الخنزير فيه.

ـ فلنسرقه إذن ـ قال بوفالماكو ـ ولماذا لا نفعل؟.. وهكذا نستطيع التمتع به نحن وصديقنا الراهب الدومنيكاني.

وقال الكاهن إن الفكرة تروقه كثيراً، وإنه موافق عليها. عندئذ قال برونو:

ـ إننا بحاجة إلى قليل من الحيلة. أنت تعرف يا بوفالماكو مدى بخل كالاندرينو، وكم هو محب للشراب عندما يدفع الآخرون ثمنه؛ فلنذهب إليه ونصطحبه إلى الحانة، وهناك يتظاهر الكاهن بأنه سيدفع عن الجميع، ولا نسمح لكالاندرينو بأن يدفع شيئاً. وهكذا يسكر ويصير كل شيء سهلاً بعد ذلك، لأنه وحده في البيت.

فعلوا ما قاله برونو.

وحين رأى كالاندرينو أن الكاهن لا يسمح له بأن يدفع، تمادى في تناول الشراب، وسكر إلى أقصى حدود السكر. وبعد تقدم الليل، خرج من الحانة، غير راغب في تناول أي شيء على العشاء، ودخل إلى بيته، ودس نفسه في الفراش معتقداً أنه أوصد الباب، بينما تركه مفتوحاً في الواقع. ذهب بوفالماكو وبرونو لتناول العشاء مع الكاهن، وبعد العشاء أخذوا الأدوات اللازمة للدخول إلى بيت كالاندرينو من حيث خطط برونو للدخول، وذهبوا إلى هناك بصمت واحتراس. ولكنهم وجدوا الباب مفتوحاً، فدخلوا وحملوا الخنزير إلى بيت الكاهن، وعلقوه هناك وذهبوا للنوم. نهض كالاندرينو في الصباح بعد أن زال عنه مفعول الخمر. وبينما هو ينزل انتبه إلى اختفاء الخنزير، ورأى الباب مفتوحاً؛ فراح يسأل هنا وهناك إذا ما كان أحد يعرف من الذي سرق الخنزير. وحين لم يجده، راح يثير الصخب والضجيج. آه لما حلّ به! ويا لسوء طالعه! فقد سرقوا منه الخنزير. وكان برونو وبوفالماكو قد استيقظا حينئذ، فذهبا إلى كالاندرينو ليسمعا ما يقوله عن الخنزير. وما إن رآهما حتى ناداهما وهو يكاد يبكي وقال:

ـ آه لحالي يا صديقيّ، لقد سرقوا الخنزير!

فاقترب منه برونو، وقال له بصوت خافت:

ـ لحسن الحظ أنك كنت ذكياً لمرة واحدة في حياتك.

فقال كالاندرينو:

ـ آه، إنني أقول الحقيقة.

فقال له برونو:

ـ أحسنت القول. اصرخ بصوت أعلى كي يبدو الأمر حقيقياً.

فراح كالاندرينو يصرخ عندئذ بصوت عال ويقول:

ـ أقسم بجسد المسيح إنني أقول الحقيقة، لقد سرقوا الخنزير!

فيقول له برونو:

ـ أحسنت القول، أحسنت القول، لا بد لك من أن تصرخ بقوة هكذا، أسمع الناس

جيداً كي يبدو ما تقوله صحيحاً.

فصرخ كالاندرينو:

ـ تريديني أن أكذب وأقدم روحي للشيطان؟.. أقول لك الحقيقة فلا تصدقني؛ فليشنقوني إذاً، لم يسرقوا خنزيري.

عندئذ قال برونو:

ـ وكيف يمكن ذلك؟.. لقد رأيته هنا بالأمس، أتريدني أن أصدق أنه قد سُرق؟..

فقال كالاندرينو: ـ مثلما أقول لك.

ـ آه! أهذا ممكن؟.. ـ قال برونو.

ـ أجل ـ قال كالاندرينو ـ هذا ما جرى؛ ولست أدري الآن كيف سأرجع إلى بيتي؛ فزوجتي لن تصدقني، وستظن أني أخدعها؛ وإذا ما صدقتني فلن أجد الراحة معها طوال السنة.

فقال له برونو:

ـ فليساعدني الله إذا كان ما تقوله صحيحاً؛ ولكنك تعرف يا كلاندرينو أنني طلبتُ منك البارحة أن تقول إنه سُرق، ولا أريدك أن تسخر من زوجتك ومنا في هذا الأمر.

فراح كالاندرينو يصرخ ويقول:

ـ آه! لماذا تريدني أن أخرج عن طوري وأجدف ضد الرب والقديسين وكل ما هو موجود؟.. أقول لك إن هناك من سرق الخنزير هذه الليلة.

عندئذ تدخل بوفالماكو قائلاً:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلا بد من البحث عن طريقة لاستعادته.

فقال كلاندرينو:

ـ وكيف يمكننا أن نستعيده؟..

وهنا قال بوفالماكو:

ـ من المؤكد أن من سرق خنزيرك لم يأت من الهند ليسرقه. لا بد أن يكون أحد جيرانك هو من فعل هذا. فإذا ما استطعت جمعهم لي، فإنني قادر على إجراء اختبار الخبز والجبن، وسنجد عندئذ من سرقه.

ـ أجل، أجل ـ قال برونو ـ اذهب واخبر الناس بمسألة الخبز والجبن هذه، وأنا واثق من أن أحدهم هو من فعل ذلك، وسيرفض المجيء.

فقال بوفالماكو:

ـ ماذا سنفعل إذن؟..

فأجابه برونو:

ـ لا بد من صنع أقراص من الزنجبيل المخلوط مع نبيذ حلو جيد، ثم ندعوهم جميعهم لتناوله، وعندئذ لن يخطر لهم أنهم آتون للتحري عن سرقة الخنزير، وسوف يكونون شاكرين على أقراص عجينة الزنجبيل أكثر من الخبز والجبن.

فقال بوفالماكو:

ـ الحقيقة إن ما تقوله هو عين الصواب؛ وأنت يا كالاندينو، ما رأيك؟.. هل نفعل ذلك؟..

فقال كالاندرينو:

ـ أتوسل إليكما بحق الرب أن تفعلاه؛ لأنني إذا عرفت من الذي أخذ الخنزير، فسأكون قد وجدت نصف العزاء.

ـ هلم إذن ـ قال له برونو ـ أنا مستعد للذهاب إلى فلورنسا لمساعدتك بإحضار هذه الأشياء إذا ما أعطيتني نقوداً لشرائها.

وكان لدى كالاندرنيو حوالي أربعين قطعة نقدية، فأعطاه إياها، وذهب برونو إلى فلورنسا. وتوجه هناك إلى صديق له يبيع التوابل، فاشترى منه رطلاً من أقراص عجينة الزنجبيل. وصنع قرصين آخرين من روث الكلاب والصبار، غطاهما بالسكر، ووضع عليهما علامة كي لا يختلطا بالأقراص الأخرى. واشترى كذلك دمجانة نبيذ حلو من النوع الجيد، ثم رجع إلى قرية كالاندرينو. وقال له عندئذ:

ـ عليك أن تدعو غداً صباحاً جميع من تشتبه بهم؛ فهذه حفلة، وسيأتي الجميع إليها شاكرين. ولسوف أقوم أنا وبوفالماكو هذه الليلة بقراءة تعويذات السحر على الأقراص، وآتيك بها إلى بيتك في الصباح. ومحبة بك، سأتولى أنا نفسي تقديمها وأقول ما يجب قوله وعمله.

عمل كالاندينو ما طُلب منه. وهكذا اجتمع في صباح اليوم التالي عدد من الشباب الفلورنسيين الذين في القرية، ومن الفلاحين، إلى جوار الكنيسة. وجاء برونو وبوفالماكو ومعهما علبة الأقراص ودمجانة النبيذ، وجعلوا الجميع يقفون حولهما في دائرة، وقال برونو:

ـ لا بد لي أيها السادة من أن أبين لكم سبب وجودكم هنا، كي لا تلوموني إذا ما حدث شيء لا يروقكم. فكالاندرينو الموجود هنا بيننا، سُرق له ليلة أمس خنزير بديع، ولم يُعثر على من أخذه؛ ولأنه لا يمكن أن يكون السارق إلا واحداً منا نحن الموجودين هنا، فقد أراد كالاندرينو، ليعرف من الذي أخذ الخنزير، أن يقدم لكم هذه الأقراص، قرصاً لكل واحد منكم، وهذا الشراب. وعليكم أن تعرفوا منذ الآن أن من أخذ الخنزير لن يستطيع ابتلاع قرص عجينة الزنجبيل، لأنه سيبدو له أشد مرارة من السم، وسيبصقه. وكي لا يحدث هذا العار أمام الجميع، ربما يكون من الأفضل لمن سرق الخنزير أن يقول ذلك للسيد الكاهن في الاعتراف، وسأسحب أنا عندئذ هذه القضية.

قال المجتمعون هناك كلهم إنهم موافقون على أكل الأقراص. فأوقفهم برونو صفاً، ومعهم كالاندرينو، وبدأ يقدم إلى كل واحد منهم قرصاً. وعندما وصل إلى كالاندرينو، تناول أحد القرصين الكلبيين، ووضعه في يد كالاندرينو الذي سارع إلى إلقائه في فمه، وبدأ يمضغه. ولكن ما إن تذوق لسانه الصبار، حتى عجز عن تحمل طعم المرارة، فبصقه. وكان الجميع يراقبون بعضهم بعضاً ليروا من سيبصق قرصه. وقبل أن ينتهي برونو من توزيع الأقراص، وهو يتظاهر بأنه لم يلحظ أي شيء، سمع من يقول وراء ظهره:

ـ ما الذي أصابك يا كالاندرينو؟..

فالتفت فوراً ورأى كالاندرينو يبصق قرصه، فقال له:

ـ انتظر، ربما كان هناك سبب آخر جعلك تبصق قرصك.. خذ واحداً آخر.

وتناول القرص الثاني الذي أعده بنفسه، ووضعه في فم كالاندرينو، واستدار ليواصل توزيع الأقراص الأخرى. لكن كالاندرينو الذي أحس بمرارة القرص الأول، وجد أن القرص الثاني أشد مرارة بكثير؛ غير أن الخجل منعه من بصقه، فاحتفظ به في فمه وراح يذرف دموعاً كبيرة كأنها حبات جوز. وأخيراً، عندما لم يعد قادراً على المقاومة، **قنف** القرص من فمه مثلما فعل بالقرص الأول. وكان بوفالماكو يقدم الشراب للجماعة ولبرونو؛ وحين رأى الجميع ذلك قالوا إن كالاندرينو قد سرق الخنزير من نفسه حقاً، وأنبه كثيرون بخشونة. وعندما ذهب الجميع ولم يبق مع كالاندرينو سوى برونو وبوفالماكو، قال له هذا الأخير:

ـ لقد كنتُ متأكداً طوال الوقت أنك أنت من سرق الخنزير، وأردتَ أن تجعلنا نصدق أن آخرين قد سرقوه كي لا تقدم لنا الشراب، ولو مرة واحدة، من النقود التي جنيتها.

أما كالاندرينو الذي مازال يشعر في فمه بمرارة الصبار، فقد راح يحلف بأنه ليس السارق.

فقال بوفالماكو:

ـ هيا، قل الحقيقة. كم كسبت من بيعه يا شريك؟.. ستة؟..

أصيب كالاندرينو بالقنوط والإحباط مما يسمع، فعاجله برونو بالقول:

ـ اسمع يا كالاندرينو، لقد كان بين الجماعة الذين أكلوا وشربوا معنا من أخبرني بأنك مغرم بفتاة تعطيها كل ما بحوزتك، وكل ما تستطيع جمعه من مال. وقال لي إنه واثق من أنك أرسلت إليها الخنزير، لأنك تعلمت المكر والاحتيال. فأنت من أخذتنا ذات يوم إلى جبل مونيون لجمع أحجار سوداء، وبعد أن ورطتنا في ذلك الأمر رجعت إلى بيتك، ثم أردت إقناعنا بعد ذلك بأنك وجدت الحجر العجيب؛ وهاأنتذا تحاول الآن، إقناعنا بأن الخنزير الذي بعته أو أهديته إلى فتاتك، قد سُرق منك. لكننا صرنا نعرف حيلك، ولن تستطيع خداعنا. لهذا، ومن أجل الوصول إلى الحقيقة، تحملنا مشقة إعداد أقراص الاختبار السحرية، ونحن نريد منك الآن أن تعطينا ديكين، وإلا فإننا سنخبر زوجتك السيدة تيسا بكل شيء.

وحين رأى كالاندرينو أنهما لن يصدقاه، وبدا له أنه نال من المعاناة ما يكفيه، ولم

يكن راغباً في الوقت نفسه في استثارة غضب زوجته، أعطاهما زوجاً من الديوك. أما هما فقد ملحا الخنزير، وأخذاه إلى فلورنسا مخلفين كالاندرينو مخدوعاً ودون خنزير.

القصة السابعة

يقع متعلم في حب سيدة أرملة تحب شخصاً آخر، فتجعله يقضي إحدى ليالي الشتاء في انتظارها تحت الثلج. فينتقم منها بجعلها تقضي ظهيرة يوم من أيام تموز وهي عارية، ومعرضة للذباب والهوام والشمس في أعلى برج.

ضحكت السيدات كثيراً مما تعرض له عاثر الحظ كالاندرينو، وكن سيضحكن أكثر لو لم يتضايقن من انتزاع ديوكه المخصية على يد أولئك الذين انتزعوا منه الخنزير. لكن الملكة، وبعد انتهاء القصة، أمرت بامبينيا بأن تروي قصتها، فسارعت هذه إلى البدء بالكلام كما يلي:

- صديقاتي الغاليات، يحدث في أحيان كثيرة أن يجري الرد على المكيدة بمكيدة أخرى، ولهذا من غير المستحسن التلذذ بالسخرية من الآخرين. ولقد ضحكنا كثيراً من قصص جرى فيها الاحتيال على آخرين؛ ولكن لم تروَ لنا قصة واحدة عن الانتقام من تلك السخريات. ولهذا أريد لكنّ أن تعرفن ما جرى لإحدى نساء مدينتنا. وسيكون مفيداً معرفة ذلك، لأنه يجنبنا الاحتيال على الآخرين والسخرية منهم.

منذ سنوات غير بعيدة، كانت تعيش هنا في فلورنسا شابة جميلة الوجه والقوام، متكبرة الأهواء، من أسرة نبيلة، وتملك ثروة وفيرة، تدعى إيلينا. ترملت بفقدان زوجها، ولم تشأ الزواج بعد ذلك أبداً، لأن شاباً رشيقاً وأنيقاً، وباختيارها هي نفسها، أغرم بها وهام في حبها. وكانت تنأى بنفسها عن الناس، ولا تشغل بالها بأية هموم أخرى، مادامت قادرة بمساعدة خادمة تثق بها، على اللقاء بذلك الشاب والاستمتاع معه بما توفره الحياة من ملذات. وحدث في أثناء ذلك أن شاباً يدعى رينيري، وهو رجل نبيل من مدينتنا، أمضى وقتاً

طويلاً في الدراسة في باريس، لا ليبيع علومه بعد ذلك مثلما يفعل كثيرون، وإنما ليعرف حقيقة الأشياء وأسبابها، قد عاد من باريس إلى فلورنسا. وعاش فيها كسيد محترم، لسمو مكانته وسعة علومه. ولكن مثلما يحدث في أحيان كثيرة، فإن من يتعمقون أكثر في فهم الأشياء، يكون وقوعهم في شباك الحب أسهل. وهذا ما جرى لرينيري حين ذهب في أحد الأيام، لمجرد الترويح عن النفس، إلى حفلة؛ فوقعت عيناه على إيلينا تلك، وهي ترتدي السواد مثلما تفعل الأرامل عندنا، ولكنها كانت مفعمة بالحسن بصورة بدت له أنها أجمل امرأة رآها في حياته، وقدر بأن الرجل السعيد حقاً هو من ينعم عليه الله بامتلاكها بين ذراعيه. نظر إليها مرة بعد أخرى بحذر، وأدرك أن الأشياء العظيمة والنفيسة لا يمكن الحصول عليها دون بذل الجهد، فصمم على تكريس كل جهده واهتمامه لإسعادها، وبإسعادها سيتوصل إلى نيل حبها، ويستطيع بالتالي الاستحواذ عليها. ولم تكن عينا السيدة الشابة في الجحيم، بل كانتا تتحركان بنظرات فطنة وبارعة، وتتبينان أكثر مما تستطيعان رؤيته، وتعرفان من الذي ينظر إليها بإعجاب. وهكذا انتبهت إلى نظرات رينيري، وضحكت في أعماقها وهي تقول لنفسها: «لم يكن مجيئي اليوم دون طائل، وإذا لم أكن مخطئة فإنني أمسكت على ما يبدو بشحرور من منقاره». وراحت تنظر إليه من حين لآخر بطرف عينها، متظاهرة بأنها تستلطفه وتبدي اهتماماً به. أزاح المتعلم الحكيم أفكاره الفلسفية جانباً، وتحولت حماسته كلها إلى المرأة، معتقداً أنه يروقها. ثم عرف بعد ذلك موقع بيتها، وبدأ يكثر من المرور أمامها متذرعاً بحجج كثيرة. وكانت السيدة تتظاهر بأنها تسعد برؤيته، فشجع سلوكها المتعلم، ووجد طريقة للاقتراب من خادمتها والبوح لها بحبه لسيدتها، وتوسل إليها أن تسعى لديها لتمنحه عطفها. فوعدته الخادمة بذلك، وأخبرت سيدتها بما طلبه، فقالت لها السيدة وهي تطلق أعظم ضحكة سمعتها:

- أترين أين جاء لإضاعة ما اكتسبه من العقل في باريس؟.. فلننقل له الآن ما يتمناه ويرغب في سماعه. إذا ما تحدث إليك مرة أخرى، قولي له إنني أحبه أكثر مما يحبني؛ ولكنني أريد الحفاظ على شرفي كي تبقى جبهتي مرفوعة أمام النساء الأخريات. ولهذا عليه، إذا كان حكيماً حقاً، أن يحبني أكثر، وأن يفعل ذلك بتكتم.

آه يا صديقاتي لتلك الشقية التعسة التي لم تكن تعرف مدى خطورة استثارة المتعلمين

والسخرية منهم. فقد أخبرته الخادمة عندما التقت به بما أمرتها به سيدتها. فبادر المتعلم، وقد غمرته السعادة، إلى التوسلات الحارة وتدبيج الرسائل وإرسال الهدايا. وكانت السيدة تتقبل كل ذلك، ولكنه لا يتلقى بالمقابل إلا ردوداً غامضة ومبهمة. وأبقته زمناً طويلاً على تلك الحال من التأجيل والتسويف. وأخيراً، كشفت الأمر لعشيقها، فغضب منها وشعر بشيء من الغيرة؛ ولكي تبين له خطأ شكوكه، أرسلت خادمتها إلى المتعلم الذي كان يكثر من الإلحاح عليها، لتؤكد له أن سيدتها لا تزال على حبها له، وأنها لم تجد بعد الفرصة المناسبة لتقدم على عمل ما يسعده، ولكن أعياد الميلاد تقترب، وهي تأمل أن تتمكن خلالها من اللقاء به؛ ولهذا عليه أن يحضر إلى فناء بيتها، إذا رغب في ذلك، في الليلة التالية للعيد، وستخرج هي بنفسها إليه بأسرع ما تستطيع.

أحس المتعلم بسعادة لم يعرف رجل مثلها، وذهب في الموعد المحدد إلى بيت السيدة، فاقتادته الخادمة إلى فناء وحبسته فيه لينتظر السيدة هناك. وكانت السيدة قد استدعت عشيقها في تلك الليلة وتناولت العشاء معه بسعادة، وأخبرته بما تنوي عمله، وأضافت:

ـ وستعرف بعد ذلك حقيقة الحب الذي أكنه لذاك الذي راودتك شكوك الغيرة بسببه.

أحس العشيق بالبهجة مما سمعه، ورغب في أن يرى بعينيه ما سمعه كلاماً من السيدة. كان الثلج قد هطل بغزارة في الليلة السابقة، وكان كل شيء مغطى بذلك البياض الثلجي؛ فلم يكد يمضي بعض الوقت على المتعلم في الفناء، إلا وبدأ يشعر بالبرد، لكنه تحمل البرد صابراً بانتظار الدفء التالي. وبعد قليل قالت السيدة لعشيقها:

ـ هلم بنا إلى مخدعي، ومن نافذته سنرى ما الذي سيفعله هذا الذي شعرتَ بالغيرة منه، وسنسمع رده على الخادمة التي أرسلتها للتحدث إليه.

ذهبا معاً إلى مخدعها، ووقفا عند نافذة صغيرة يريان من خلالها دون أن يُريا، وسمعا الخادمة تقول للدارس:

ـ السيدة مستاءة اليوم يا رينيري أشد الاستياء، فقد جاء أحد إخوتها لزيارتها وتحدث معها طويلاً، ثم رغب بعد ذلك في تناول العشاء معها، ولم يغادر البيت بعد. لكنني أظن أنه سيذهب بعد قليل. ولهذا لم تستطع السيدة أن تأتي إليك حتى الآن، إلا أنها ستأتي

قريباً؛ وهي ترجوك ألا تغضب لهذا الانتظار.

فرد عليها المتعلم وهو يظن أنها تقول الحقيقة:

ـ قولي للسيدة ألا تقلق بشأني، فسوف أنتظرها إلى أن تتاح لها فرصة المجيء. ولكن أخبريها أن تفعل ذلك بأسرع ما تستطيع.

قفلت الخادمة راجعة إلى البيت، وذهبت للنوم.

عندئذ قالت السيدة لعشيقها:

ـ حسن، ما قولك الآن؟.. لو أنني أحبه كما تظن أنت، هل كنت سأتحمل تركه هناك يتجمد من البرد طوال الليل؟..

قالت هذا وذهبت إلى الفراش مع عشيقها الذي ابتهج بعض الشيء، وأمضيا وقتاً طويلاً في المداعبات والملذات، والضحك من المتعلم البائس والسخرية منه. أما المتعلم، فكان يلف ويدور في الفناء، ويتحرك ليدفئ جسمه دون أن يجد مكاناً يجلس فيه أو يلوذ به من برودة الليل، ويلعن تأخر شقيق السيدة الطويل. وكان كلما سمع صوتاً، ظن أنه باب تفتحه السيدة، لكن آماله تذهب أدراج الرياح.

أما السيدة المستغرقة في الاستمتاع مع عشيقها، فقالت له بعد أن انتصف الليل:

ـ ما رأيك الآن يا حبي بشأن هذا الدارس؟.. وأيهما ترى أعظم: معارفه وحكمته أم حبي له؟.. وهل سيُخرج هذا البرد الذي يعانيه من قلبك مشاعر الغيرة التي سببها لك كلامي قبل أيام؟..

فأجابها العشيق:

ـ أجل يا روحي، فأنا أعرف جيداً أنك راحتي ومتعتي وأملي، مثلما تعرفين أنني لك كذلك.

فقالت السيدة:

ـ قبلني ألف قبلة إذن كي أتأكد من صدق ما تقول.

فاحتضنها العشيق بقوة، وقبّلها مئة ألف قبلة، وليس ألفاً وحسب. وبعد أن ظلا لبعض

الوقت على تلك الحال، قالت السيدة:

ـ فلننهض قليلاً ونذهب لنرى إن كانت قد هدأت نار هذا العاشق التي كتب لي عنها في رسائله.

نهضا واتجها إلى النافذة الصغيرة؛ فنظرا منها إلى الفناء ورأيا الدارس يرقص من البرد وأسنانه تصطك. لقد كان يقفز بسرعة لم يريا مثلها قط. فقالت السيدة:

ـ ما رأيك يا أملي الحبيب؟.. ألا ترى أنه يمكن جعل الرجال يرقصون بلا بوق أو موسيقى؟..

فأجابها العشيق:

ـ بلى يا متعتي.

وقالت السيدة:

ـ أود أن نذهب إلى الباب، فتظل أنت متوارياً وصامتاً بينما أحدثه أنا، ونسمع ما سيقوله، وقد لا تكون متعتنا بسماعه أقل من متعتنا برؤيته.

فتحا باب حجرة النوم بصمت، ونزلا إلى الباب. وهناك، دون فتح الباب، نادته السيدة من فتحة ضيقة فيه بصوت خافت. وما إن سمعها المتعلم تناديه حتى حمد الله، معتقداً أنه سيدخل الآن إلى البيت، فدنا من الباب وقال:

ـ إنني هنا يا سيدتي؛ افتحي بالله عليك، فأنا أكاد أموت من البرد.

فقالت السيدة:

ـ آه، أعرف أنك تشعر بالبرد، وأعرف كذلك أن البرد شديد لأن بعض الثلج قد هطل. ولكنني أعرف جيداً أن الثلج أشد قسوة في باريس. وأنا لن أستطيع أن أفتح لك الباب الآن، لأن أخي اللعين الذي جاء للعشاء معي مساء أمس، لم يذهب بعد. لكنه سيغادر قريباً جداً، وعندئذ سآتي مسرعة وأفتح لك. لقد تمكنت من التملص منه بصعوبة كي آتي وأواسيك، وكي لا يُغضبك طول الانتظار.

فقال الدارس:

ـ آه يا سيدتي، أحلفك بالله أن تفتحي لي، لكي أنتظر في الداخل، فقد بدأ الثلج يهطل بشدة كبيرة قبل قليل، وما زال يهطل؛ ويمكنني أن أنتظر في الداخل قدر ما تشائين.

فقالت السيدة:

ـ آه يا حبي، لن أستطيع فتح هذا الباب، لأن فتحه يُحدث ضجة كبيرة، وسيسمع أخي الصوت إذا ما فتحته! لكنني ذاهبة لأطلب منه أن ينصرف كي أتمكن من الرجوع وفتح الباب لك.

فقال المتعلم:

ـ أسرعي إذن، وأرجوك أن تشعلي النار جيداً كي أدفئ جسمي عندما أدخل، فقد نلت من البرد ما أفقدني الإحساس.

وقالت السيدة:

ـ ما تقوله غير ممكن إذا كنتَ صادقاً في ما كتبته لي في رسائلك عن أنك تشتعل متأججاً بنار حبي. ولكنني واثقة من أنك تمزح معي. سأعود بعد قليل، فانتظرني وتشجع.

كان العشيق يسمع كل ذلك باستمتاع وبهجة. ثم رجع معها إلى الفراش، ولم يناما في تلك الليلة إلا قليلاً، لأنهما أمضياها في متعهما وفي السخرية من المتعلم. أما المتعلم التعس الذي تحول إلى طائر لقلق من كثرة اصطكاك أسنانه، فقد أدرك أخيراً أنه وقع ضحية سخرية؛ فحاول بكل السبل أن يفتح الباب، وراح يتفحص الفناء بحثاً عن مكان يستطيع الخروج منه. ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فظل مثل أسد حبيس، يلعن سوء حالة الجو، وخبث المرأة، وطول الليل الذي لا ينتهي، وسذاجته التي أوقعته في المحنة. واشتد غضبه على المرأة، إلى أن تحول حبه الجارف والطويل لها، فجأة، إلى كراهية قاسية وحقد مرير. وصار يفكر في أمور عظيمة وكثيرة للانتقام، ويرغب أكثر من أي وقت آخر في لقاء المرأة والثأر منها. وبعد ليل طويل من الصبر والانتظار، بدأ الفجر بالبزوغ، فنزلت الخادمة بطلب من سيدتها، وقالت له وهي تفتح باب الفناء متظاهرة بالشفقة عليه:

ـ لعنة الله على زائر الليل ذاك! فقد أبقاك ساهراً طوال الليل حتى كدت تتجمد.

ولكن خذ الأمر بهدوء، فما لم تستطع عمله هذه الليلة، ستتوصل إليه في ليلة أخرى. فأنا أعرف مدى استياء سيدتي مما جرى.

ولأن المتعلم الغاضب كان حكيماً، يعرف أن التهديد والوعيد لن يفيد في شيء سوى تنبيه من يوجه التهديد إليه، فقد كظم الغيظ المتراكم في صدره؛ وقال بصوت هادئ، دون أن يبدي أي قدر من الاستياء:

ـ الحقيقة إنني أمضيت أسوأ ليلة في حياتي، لكنني رأيت بوضوح أنه لا ذنب للسيدة في ما حدث. لأنها هي نفسها تألمت من أجلي، وجاءت إلى هنا في الليل لتعتذر مني وتواسيني. ومثلما قلتِ أنت: ما لم يكن تحقيقه ممكناً هذه الليلة، سيكون ممكناً في ليلة أخرى؛ فانقلي تحياتي إلى السيدة، وأستودعك الله.

وبأقصى ما يستطيع إبداءه من الحماسة، قفل راجعاً إلى بيته. ولأنه كان مرهقاً، يكاد يموت من شدة النعاس، فقد ألقى بنفسه على السرير ونام على الفور. وعندما استيقظ، كان يشعر بما يشبه الشلل في ذراعيه وساقيه؛ فأرسل في طلب طبيب وأخبره بما عاناه من برد أضر بصحته. وقد بذل الأطباء جهوداً عظيمة وسريعة لإنقاذه، وتمكنوا بعد بعض الوقت من علاج عروقه وأعصابه؛ وما كان لذلك أن يكون ممكناً لو لم يكن شاباً قوياً، ولولا قدوم فصل الدفء. ولكنه بعد شفائه وعودة العافية إليه، ظل يحتفظ في قلبه بحقد على أرملته يفوق كثيراً حبه السابق لها. وحدث بعد بعض الوقت أن وفر الحظ فرصه للدارس كي يشفي غليله. فعشيق الأرملة الشاب (ودون أي اعتبار لحبها له) هجرها بعد أن وقع في غرام امرأة أخرى. ولم يعد راغباً في قول أو عمل أي شيء لإرضائها، فغرقت السيدة في مرارة الغم والبكاء. ولم تجد خادمتها التي أحست بالشفقة عليها، طريقة لتخليص سيدتها من آلام فقدانها العشيق. وحين رأت المتعلم يواظب على عادته في المرور من الحي، خطرت لذهنها الغبي فكرة أنه يمكن إجبار العشيق على العودة إلى حب سيدتها بأحد فنون السحر الأسود، ولا بد أن يكون المتعلم خبيراً عظيماً في مثل هذه الفنون؛ وأخبرت سيدتها بذلك.

ودون أن تفكر السيدة اليائسة في أن المتعلم، لو كان يتقن فنون السحر الأسود واستحضار الأرواح، لما تورع عن استخدامها لمنفعته الشخصية؛ بل أصغت إلى أقوال خادمتها، وطلبت منها أن تسأله إذا كان يوافق على مساعدتها، وأنها ستفعل كل ما

يطلبه منها إذا وافق على ذلك. قامت الخادمة بسفارتها بكل حذر، وحين سمعها المتعلم، قال في نفسه بسعادة: «فليتبارك الله، لقد حانت اللحظة التي سأتمكن فيها من معاقبة هذه المرأة الخبيثة على ما فعلته بي مقابل حبي الذي كنت أكنه لها». ثم قال للخادمة:

ـ أخبري سيدتي المحبوبة ألا تقلق بهذا الشأن، فحتى لو كان عشيقها في الهند، سأجعله يأتي إليها صاغراً في أسرع وقت، ويطلب الصفح منها على ما فعله بحقها. غير أنني بحاجة إلى مساعدتها والاعتماد عليها في تحقيق ذلك. فأخبريها بهذا وانقلي لها تحياتي.

نقلت الخادمة ردّه إلى سيدتها، ودبرت لهما لقاء في كنيسة سانتا لوسيا دل برادو. وعندما رأت السيدة الدارس، وتحدثا معاً على انفراد، لم تتذكر أنها كادت أن توصله إلى الموت برداً. وأخبرته بقصتها بكل صراحة، وبما تريده منه، وتوسلت إليه أن يساعدها. فقال لها بعد أن سمع كل شيء:

ـ الحقيقة يا سيدتي إنني تعلمت استحضار الأرواح والسحر الأسود بين ما تعلمته في باريس، وأنا أتقنها جيداً. ولكنها أمور تثير غضب الرب، وقد أقسمت ألا أمارسها أبداً، سواء لمنفعتي أو لمنفعة الآخرين. ولكن حبي الكبير لك لا يتيح لي رفض ما تطلبين مني عمله؛ فأنا مستعد، في سبيل حبك، للذهاب إلى منزل الشيطان نفسه إذا كان ذلك يرضيك. غير أنني أود تذكيرك بأن عمل ذلك أصعب بكثير مما تتصورين، وخاصة عندما يكون الأمر مرتبطاً بسعي امرأة إلى استعادة حب رجل، أو سعي رجل إلى استعادة حب امرأة. لأن مثل هذا الأمر لا يستطيع إنجازه إلا الشخص المعني بنفسه. ولا بد لمن يقدم عليه من التمتع بالشجاعة، لأنه سيفعل ذلك في الليل، وفي أماكن معزولة، ودون أن يرافقه أحد. وهي أمور لا أدري إذا كنتِ قادرة على عملها.

فأجابته السيدة التي طغى غرامها على حذرها:

ـ الحب يعذبني إلى حد لن يصعب عليّ معه القيام بأي شيء في سبيل استعادة ذاك الذي هجرني. فأرجوك أن توضح لي ما عليّ عمله.

فقال المتعلم الذي أمسك الذيل من موضع الألم، ووضع يده على الجرح:

ـ عليّ في أول الأمر يا سيدتي أن أصنع لك تمثالاً من القصدير على هيئة من تريدين

استعادته. وعندما أُرسله إليك، يتوجب عليك أن تنتظري إلى أن يكون القمر في يوم أفوله، فتستحمي مع التمثال سبع مرات في نهر مياهه جارية وصافية، على أن يكون ذلك في بداية الليل، وأن تكوني عارية تماماً ووحيدة. ثم تذهبي بعد ذلك، وأنت لا تزالين عارية، لتصعدي إلى أعلى شجرة أو بناء مهجور؛ وتتوجهين إلى الشرق والتمثال في يدك، وترددي سبع مرات بعض العبارات التي سأقدمها لك مكتوبة. وعندما تنتهين من ترديدها، ستظهر لك آنستان لم تشهدي مثل جمالهما قط، فتحييانك بعذوبة وتسألانك عما تريدين أن يفعلانه؛ فتخبريهما برغبتك كاملة. وحاذري أن تخطئي في ذكر الأسماء أو أن تخلطي بين شيء وآخر. وعندما تنتهين من قول ذلك، ستنصرفان. وعندئذ يمكنك النزول إلى حيث تركت ملابسك، فترتدينها وتعودين إلى بيتك. وثقي من أنه ما إن ينتصف ليل اليوم التالي حتى يكون عشيقك قد أتاك باكياً ليطلب منك الصفح والمغفرة. واعلمي أنه لن يتجرأ بعد ذلك على هجرك والذهاب إلى أي امرأة أخرى.

حين سمعت السيدة هذه الكلمات، آمنت بها إيماناً تاماً، وبدا لها أن عشيقها صار بين ذراعيها، فقالت بسعادة:

ـ لا تقلق، سأفعل كل هذه الأشياء على خير ما يرام، ولديّ من أجل ذلك أفضل مكان في الدنيا. فأنا أملك أرضاً في ناحية أعالي فالدارنو، وهي قريبة جداً من النهر، ونحن الآن في شهر تموز، وليس هناك ما هو ألطف من الاستحمام في النهر. وأنا أتذكر كذلك أنه على مسافة غير بعيدة من النهر، يوجد برج مهجور، لا يدخله أحد سوى بعض الرعاة أحياناً، ممن يرتقون سلماً خشبياً موجوداً هناك، ليصعدوا إلى أعلى البرج بين حين وآخر، ويروا من هناك مواشيهم الضالة. إنه مكان منعزل، ويمكنني الصعود إليه بسهولة. وأظن أنني سأفعل هناك ما أمرتني به على أحسن وجه.

ابتهج المتعلم الذي كان يعرف جيداً المكان والبرج اللذين أشارت إليهما المرأة، ولكنه تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً، وقال:

ـ أنا لم أذهب إلى تلك الأنحاء قط يا سيدتي، ولست أعرف بالتالي تلك الأرض ولا البرج الذي هناك. أما إذا كان الأمر مثلما تقولين، فليس هناك مكان أفضل منه في العالم. وسوف أرسل لك الدمية والترتيلة عندما يكون الوقت مناسباً؛ لكنني أرجوك أشد الرجاء، بعد أن تنالي رغبتك، وترين أنني قد خدمتك على أحسن وجه، ألا تنسي الوعد

الذي قطعتِه لي. فردت عليه السيدة بأنها ستفعل ذلك بكل تأكيد؛ ثم استأذنت منه ورجعت إلى بيتها.

كان المتعلم سعيداً بعد أن بدا له أن خطته ستتحقق، فبادر إلى صنع دمية، وكتب ترتيلة من اختراعه. وعندما رأى أن الوقت صار مناسباً، أرسل كل ذلك إلى السيدة وأخبرها بأنه عليها أن تفعل ما طلبه منها في الليلة التالية، دون أي تأجيل؛ ثم ذهب سراً ومعه خادم إلى بيت صديق له يعيش قريباً من ذلك البرج، كي يتمكن من إنجاز خطته. وانطلقت السيدة بدورها، برفقة خادمتها، إلى بيتها الريفي في ذلك المكان. وعندما حلّ الليل، تظاهرت بأنها ذاهبة إلى الفراش. فأرسلت الخادمة للنوم، ثم خرجت بكل صمت من البيت، واتجهت إلى البرج القريب من ضفة نهر أرنو؛ فتلفتت حولها جيداً، وحين لم تر ولم تسمع شيئاً، خلعت ثيابها وخبأتها تحت شجيرة هناك. وغطست في الماء سبع مرات ومعها الدمية، ثم مضت وهي عارية، والدمية في يدها، إلى البرج. وكان المتعلم قد ذهب مع خادمه عند حلول الظلام، واختبأ هناك بين أشجار صفصاف على مقربة من البرج، فرأى كل ما فعلته السيدة التي مرت قريباً من مخبئه، وهي عارية، في طريقها إلى البرج. وحين رأى بياض جسمها يتغلب على ظلمة الليل، ورأى صدرها وأعضاء جسدها الأخرى، وقدّر مدى حسنها، فكر في ما سيحل بها بعد قليل، وأحس بشيء من الشفقة عليها. وداهمه فجأة حافز الشهوة من جانب آخر، فجعل ما كان خامداً ينهض، ويدفعه إلى الخروج من مخبئه والذهاب إليها لنيل متعته. وكانت تلك المشاعر على وشك التغلب عليه، لكنه تذكر من هو، وما لحق به من أذى على يدها، فعاد الحقد يتأجج في صدره من جديد. وأزاح عنه الشفقة وشهوة الجسد، وظل صامداً ومتمسكاً بهدفه. وهكذا صعدت السيدة إلى أعلى البرج، واتجهت نحو الشمال وبدأت تردد الكلمات التي كتبها لها المتعلم الذي ما لبث أن دخل بعد قليل إلى البرج؛ فأبعد جانباً، بكل صمت، السلم الخشبي الذي صعدت عليه السيدة إلى البرج. وراح ينتظر ليرى ما الذي ستقوله وتفعله.

كررت السيدة ترتيلتها سبع مرات، وبدأت تنتظر مجيء الوصيفتان. وكان الانتظار طويلاً، دون حساب إحساسها بالبرودة التي كانت أشد مما تصورته. وعندما بدأ الفجر بالبزوغ، حزنت السيدة لأن ما قاله لها المتعلم لم يتحقق، وقالت في نفسها: «أخشى أن يكون راغباً في جعلي أقضي ليلة كتلك التي جعلته يقضيها. فإذا كان هذا هو ما أراده،

فقد أساء الانتقام، لأن ما أصابني لم يبلغ ثلث ما أصابه في تلك الليلة، فضلاً عن أن البرد كان من نوع آخر».

وكي لا يدركها الصباح وهي هناك، تحركت تريد النزول من البرج، ولكنها لم تجد السلّم في مكانه. وعندئذ أحست كما لو أن الأرض قد اختفت من تحت قدميها، وتلاشت شجاعتها، وأغمي عليها. وعندما استعادت وعيها، بدأت تبكي وتشكو بمذلة. وأدركت أن كل ذلك لا بد أن يكون من عمل الدارس، فأحست بالندم لإقدامها على ما فعلته به، ولأنها وثقت كثيراً بمن عليها أن تعتبره عدواً. مضى عليها وقت طويل وهي على تلك الحال، ثم راحت تبحث عن طريقة للنزول، فلم تجد وسيلة. وعادت للبكاء. وخطرت لها أفكار مريرة، فراحت تقول في نفسها: «آه أيتها البائسة! ما الذي سيقوله إخوتك، وأقرباؤك وجيرانك، وكل أهالي فلورنسا، عندما يعلمون أنه عُثر عليك عارية؟.. سيصبح شرفك الذي تفخرين به موضع شك وتقولات. وإذا ما أردت إيجاد حجج كاذبة (وأنت قادرة على ذلك) فسوف يأتي الدارس اللعين الذي يعرف كل شيء، ويكشف أكاذيبك. آه، يا لكِ من شقية بائسة! فقد أضعتِ في ساعة نحس واحدة حبيبك وشرفك». فأحست عندئذ بحزن شديد وكانت على وشك أن تلقي بنفسها من أعلى البرج. وفي أثناء ذلك، كانت الشمس قد أشرقت، فاقتربت السيدة من أحد أطراف جدار البرج، ونظرت لعلها ترى صبياً مع ماشيته يقترب من هناك، فتطلب منه الذهاب لاستدعاء خادمتها. وحدث أن الدارس كان قد غفا قليلاً إلى جانب شجيرة، وعندما استيقظ رآها، ورأته هي أيضاً. فقال لها:

- صباح الخير يا سيدتي، هل أتتك الوصيفتان؟..

وما إن رأته السيدة وسمعت صوته حتى عادت إلى البكاء بقوة أكبر، وتوسلت إليه أن يقترب من البرج لتتمكن من التحدث إليه. وكان المتعلم مهذباً جداً في هذا الأمر. فانبطحت السيدة على بطنها في أعلى البرج، وأطلت برأسها فقط، وقالت له باكية:

- إذا كنتُ قد جعلتك تقضي ليلة تعسة يا رينيري، فكن واثقاً من أنك قد انتقمت على أحسن وجه. فمع أننا في شهر تموز، إلا أنني أحسست وأنا عارية، هذه الليلة، بأنني سأتجمد؛ دون ذكر ما بكيته ندماً لخداعي لك وبلاهتي بتصديقك. ولهذا أتوسل إليك، ليس حباً بي أنا التي عليك ألا تحبني، وإنما حباً بنفسك كرجل نبيل، أن يقتصر انتقامك على ما فعلته بي. فأعطني ثيابي ومكني من النزول من هنا، ولا تجردني مما لن تستطيع

بعد ذلك ردّه إليّ، ألا وهو الشرف. وإذا كنتُ قد حرمتك من قضاء تلك الليلة معي، فإنني سأعوضك عن ذلك بليال كثيرة أخرى. أرجو منك أن تكتفي بهذا الانتقام، وألا تجرب قواك على امرأة ضعيفة؛ فليس هناك أي مجد في انتصار نسر على حمامة. ارحمني واشفق عليّ حباً بالرب وبشرفك.

كان المتعلم لا يزال يفكر في الإهانة التي لحقت به، وحين رأى السيدة تبكي وتتوسل إليه، راوده في الوقت نفسه إحساس هو مزيج من البهجة والأسى. البهجة لأنه انتقم مثلما كان يتمنى، والأسى الذي تحركه فيه إنسانيته وهو يرى بؤسها وانحطاطها. لكن مشاعره الإنسانية لم تستطع التغلب على غضبه وحقده، فرد عليها قائلاً:

ـ يا سيدة إيلينا، لو أن توسلاتي التي لم أعرف في الحقيقة أن أبللها بالدموع وأجعلها عذبة مثلما تفعلين، أفادتني في تلك الليلة، في فناء بيتك المغطى بالثلج، ووفرت لي بعض الحماية والدفء، لكان من السهل عليّ الآن الاستجابة لتوسلاتك. وإذا كان شرفك يهمك الآن أكثر مما كان يهمك في السابق، وإذا كنت ترين قسوة في إبقائك عارية؛ فارفعي توسلاتك إلى ذاك الذي لم يُغضبك نومك عارية في أحضانه تلك الليلة التي أتذكرها جيداً، وأشعر كيف كنت أرتجف وأسناني تصطك تحت الثلج في الفناء. توسلي إليه واطلبي منه أن يساعدك. اطلبي منه أن يأتيك بملابسك. اطلبي منه السلّم الذي ستنزلين عليه.. أوكلي صيانة شرفك إلى ذاك الذي لم تفكري قط في تعريضه للخطر. لماذا لا تستدعينه ليساعدك؟.. ومن هو أحق منه بعمل ذلك؟.. فأنت له، وليس هناك من يستحق رعايته وحمايته أكثر منك. هيا، استدعيه أيتها البلهاء، وجربي إذا ما كان بمقدور احتيالك وحبك له، مع احتياله وحبه لك، أن يخلصاك من قسوتي أو من الحب الذي كنت أكنه لك. ولا تحاولي إغوائي الآن بما لم أعد أشتهيه، ولم تعودي قادرة على منعي من بلوغه لو اشتهيته. بل احفظي لياليك لعشيقك إذا ما أتيح لك الخروج حية من هنا، فهي لك وله، أما أنا فنلت ما يكفي في ليلة واحدة. ويكفيني أنني خُدعت مرة، ولن أُخدع بكلامك مرة أخرى. إنك تتحدثين الآن مستعينة بخبثك في محاولة لاستثارة طيبتي، فتقولين إنني نبيل وشهم، وتستدرين عطفي لأمتنع عن معاقبة خبثك؛ لكن تحايلك لن يغمم عينيّ المثقف الدارس مثلما فعلت وعودك الكاذبة من قبل. إنني أعرف نفسي، ولكنني لم أتعلم عن نفسي طوال دراستي في باريس قدر ما علمتِني أنت إياه في ليلة

واحدة من لياليك. دعينا نفترض أنني رجل شهم، ولكنك لست ممن يستحقون معاملتهم بشهامة؛ بل لا بد أن تكون نهاية العقاب الذي تستحقه الوحوش الضارية مثلك هي الموت. أما بشأن ما قلتِه، فأنا لست نسراً، وأنت لست حمامة؛ بل أنت حية سامة سألاحقها بكل حقد وكل قوة. ومع ذلك، فإن هذا الذي أفعله بك لا يمكن تسميته انتقاماً، وإنما هو أقرب إلى العقاب، لأنه لا بد للانتقام من أن يتجاوز الضرر ويتفوق عليه، بينما هذا الذي أفعله لا يكاد يساوي ما لحق بي من إهانة وأذى. ولو أنني أردت الانتقام للتحول الذي أحدثتِه في حياتي، لما اكتفيت بزهق روحك أرواح مئة من أمثالك، لأنني لن أقتل بذلك إلا امرأة حقيرة وسافلة وخبيثة. لقد كنتِ على وشك القضاء على حياة رجل يمكن ليوم واحد من حياته أن يكون أعظم فائدة للعالم من مئة ألف حياة مثل حياتك! وستتعلمين من هذا الذي تعانينه الآن، ما الذي تعنيه السخرية من الرجال الذين لديهم بعض المشاعر، وما الذي تعنيه السخرية من رجال العلم والدارسين. وسيكون في ذلك درس لك مدى الحياة، إذا ما خرجتِ حية من هذا الذي أنت فيه. ولكن، إذا كنتِ راغبة إلى هذا الحد في النزول، فلماذا لا تلقين بنفسك من فوق؟.. وفي لحظة واحدة، بمشيئة الرب، تدقين عنقك وتخرجين من هذا الألم والخزي الذي تدعين الشعور به. وتقدمين للعالم أكبر سعادة ممكنة. لقد قلتُ ما يكفي، ولن أضيف الآن إلا القول إنني استطعت أن أجعلك تصعدين هناك، فتوصلي أنت الآن إلى طريقة للنزول، مثلما توصلتِ للاحتيال عليّ والسخرية مني.

وبينما الرجل يتكلم على هذا النحو، كانت المرأة التعسة تواصل البكاء، والوقت يمضي، والشمس ترتفع في السماء. وعندما رأته يصمت، قالت له:

- آه أيها الرجل القاسي! إذا كانت تلك الليلة اللعينة شديدة القسوة عليك، وإذا كنت ترى أن خطيئتي بهذا الكبر، بحيث لا يهز مشاعرك شبابي الجميل ولا دموع المرارة ولا توسلاتي المتذللة؛ فليحرك مشاعرك إذن وليخفف من صرامتك القاسية، أنني وثقت بك مؤخراً، وكشفت لك أسراري، فأتحت لك بذلك تحقيق رغبتك في جعلي أعترف بخطئي. ولولا هذه الثقة بك لما استطعتَ الانتقام مني، وهو ما كنتَ تتحرق إليه كما يبدو من سلوكك. آه، دع غضبك جانباً واصفح عني؛ وأنا مستعدة إذا ما غفرت لي وأنزلتني من هنا، أن أهجر إلى الأبد ذلك الشاب الخائن، وأجعل منك عشيقي وسيدي. ومهما ضجرت من جمالي وبدا لك قصير الأمد وقليل القيمة، مثلما هو كل جمال، إلا أنه جدير

بالتقدير، ولو لمجرد أن اللهو واللعب والمتعة هي من سمات الشباب في الرجال، وأنت لست عجوزاً. ومع أنك تعاملني بقسوة، إلا أنني لا أستطيع أن أصدق أنك راغب في رؤيتي أموت مثل هذه الميتة المشينة، بإلقاء نفسي من هنا كيائسة أمام عينيك اللتين كانتا مبهورتين بي وبجمالي، ما لم تكن كاذباً. آه، ارحمني بحق الرب والرحمة؛ فقد بدأت حدة الشمس تشتد. ومثلما ضايقتني برودة الليل، بدأ الحر الآن يسبب لي مضايقة أشد.

وكان المتعلم يريد التسلية بمبادلتها الحديث، فرد على كلامها بالقول:

ـ سيدتي، أنت لم تثقي بي وتسلميني نفسك بدافع الحب، وإنما كي تستردي من فقدته. ولهذا لا تستحقين إلا أسوأ الشرور. وأنت بلهاء إذا كنت تعتقدين أن هذا هو السبيل الوحيد الذي توافر لي للانتقام منك. لقد كانت لدي ألف طريقة، وألف حيلة أخرى؛ وكان لا بد لك من أن تقعي في واحدة منها، وتتهاري عند قدمي، وكنت ستتلقين عندئذ ما هو أشد من هذا الألم والانتقام الذي أنت فيه الآن. وإذا كنتُ قد لجأت إلى هذه الطريقة في الانتقام، فإنما فعلت ذلك لاستمتاع بإذلالك في أسرع وقت. ولو أن كل أساليبي في الانتقام أخفقت، لما أخفقت ريشتي التي كنت سأكتب بها أشياء كثيرة عنك، إذا ما عرفتِ بها «وكنتِ ستعرفين» لتمنيتِ ألف مرة لو أنك لم تولدي، ولم تجيئي إلى هذه الحياة. فقوة الريشة أعظم بكثير مما يظنه أولئك الذين لم يختبروها. وأقسم بالله (وهو الذي سيتيح لي إنجاز هذا الانتقام الذي بدأت به) إنني كنت سأكتب عنك أشياء لا تشعرين بالخجل منها أمام الآخرين فقط، وإنما أمام نفسك بالذات؛ ولكنتِ سملتِ عينيك بيديك كي لا ترين نفسك. أمام حبك، وأن تصيري لي، مثلما سمعتك تقولين، فلم يعد يهمني بأي حال؛ لأني أعرف لمن أنت، فابق له إن استطعتِ. وإذا كنتُ قد حقدتُ عليه من قبل، فإنني أحبه الآن وأنا أرى ما فعله بك. إنكن تعشقن وتشتهين عشق الشباب، لأنكن ترين أن أجسادهم أكثر حيوية، ولحاهم أشد سواداً، وقاماتهم أكثر انتصاباً في الرقص والمشي؛ وهذه الأمور كلها موجودة لدى الكهول، ومعها فوق ذلك المعارف التي مازال على الشباب أن يتعلموها. صحيح إن الشباب يمتطون ويهزون الأرداف بقوة أكبر؛ لكن المتقدمين في السن، كخبراء مجربين، يعرفون جيداً أين هي البراغيث التي تدغدغ. ولا بد أن اختيار القليل واللذيذ خير من الكثير والغث؛ فالعدو السريع متعب للجميع، بمن في ذلك الشباب، أما السير بالبطيء فيوصلنا مستريحين، وإن تأخرنا قليلاً. أما البهائم عديمة

الذكاء من أمثالك، فلا تنتبه إلا إلى المظاهر، حتى لو كان الشر العظيم متوارياً تحت تلك المظاهر. فالشباب لا يقنعون بامرأة واحدة، وإنما يشتهون كل من تقع عيونهم عليهن من النساء؛ وهذا يجعل حبهم غير مستقر، مثلما تعرفين أنت الآن من تجربتك. ويرون أنهم جديرون بتوقير النساء وتدليلهن، ولا يجدون مجداً أكبر من المفاخرة والتباهي بعد استمتاعهم بهن، وهي نقيصة في الشباب قادت نساء كثيرات إلى اللجوء إلى الرهبان لأنهم لا يعلنون ذلك ويكتمون السر. ورغم أنك تقولين إن أحداً لم يعرف بأمر غرامياتك، باستثناء خادمتك وأنا، فإنك مخطئة إذا كنت تصدقين قولك هذا. لأنه لا حديث في حيك إلا عنك وعن غرامياتك؛ وإن يكن صاحب الشأن، في معظم الأحيان، هو آخر من يعلم. ثم إن الشباب يسرقونكن، بينما المتقدمون في السن يقدمون لكنّ الهدايا. ولهذا، اذهبي إلى من تسعين إليه، ودعيني وشأني؛ فقد أحبتني امرأة أفضل منك بكثير، وعرفتني خيراً مما عرفتني أنت. أما إذا كنت تودين أن تحملي معك، إلى العالم الآخر، ذكرى عن رغبة عيني في رؤيتك ميتة، فما عليك إلا أن تلقي بنفسك من فوق. ولسوف ترى روحك، وهي تهوي بين ذراعي الشيطان في الجحيم، إذا ما كانت عيناي ستتأثران لموتك أم لا؛ ولكنني لا أظنك راغبة في إسعادي برؤية دق عنقك. أما إذا أحرقتك الشمس هناك في الأعلى، فتذكري البرد الذي جعلتني أعانيه، وحاولي أن تمزجيه بهذا الحر، ولسوف تشعرين، دون شك، باعتدال الجو.

حين رأت المرأة التعسة أن كلام المتعلم سيودي بها، على الرغم من كل شيء، إلى نهاية قاسية؛ عادت إلى البكاء وهي تقول:

ـ بما أنك لا تشعر بأي شفقة نحوي، ولن تتحرك الرحمة في قلبك عليّ، فدعها تتحرك حباً بتلك المرأة العاقلة أكثر مني التي تقول إنك وجدتها وإنها تحبك؛ فاصفح عني حباً بها، وأعد لي ملابسي كي أستر بها نفسي، وأجد من يساعدني على النزول من هنا.

فانفجر المتعلم في الضحك عندئذ، وردّ عليها وهو يرى أن ساعة الضحى قد انقضت:

ـ لا يمكنني أن أرفض طلبك الآن، بعد أن توسلتِ إليّ بشفاعة تلك المرأة. أخبريني أين هي ملابسك وسوف آتيك بها، وأُنزلك من هناك.

صدقت المرأة كلامه، وأحست ببعض السلوى، فأخبرته بالمكان الذي تركت فيه ثيابها. عندئذ خرج المتعلم من البرج، وأمر خادمه بألا يغادر، وأن يبقى قريباً من المكان ولا

يسمح لأحد بالدخول إلى البرج قبل أن يعود. ثم توجه إلى بيت صديقه، فتناول طعامه هناك بكل هدوء، وذهب بعد ذلك لينام.

أما المرأة التي في أعلى البرج، فقد أشعرها أملها البليد بشيء من السلوى والحماسة. وعلى الرغم من آلامها ومعاناتها، فقد جلست مستندة إلى جزء من الجدار حيث يوجد قليل من الظل، وراحت تنتظر برفقة أفكارها المريرة. وبينما هي تفكر حيناً وتبكي حيناً، وتفقد الأمل في حين آخر من عودة المتعلم بالثياب، هدها التعب وعدم النوم طوال الليلة السابقة، فغلبها النعاس ونامت في مكانها. وكانت الشمس في أثناء ذلك قد ارتفعت إلى منتصف السماء، وازدادت حدتها، وراحت تحرق الجسد محولة لحمه إلى جمر، ومحدثة تشققات في كل أنحائه، بما في ذلك رأسها المكشوف. كانت الحروق مؤلمة إلى حد إيقاظها من نومها العميق. وحين رأت تلك الحروق، وأرادت الحركة، بدا لها أن جلدها كله يتمزق ويتشقق مثلما نراه يحدث لجلود البهائم المشوية عند شدها. وكانت تشعر فوق ذلك بألم شديد في رأسها، يبدو لها معه أنه سينفجر، وهو ما لم تعرفه من قبل قط. وكانت الأرض تحتها ساخنة جداً، لا تجد فيها مكاناً تضع قدمها، أو تظل قابعة فيه؛ فكانت تتنقل دون توقف من مكان إلى آخر وهي تبكي. وفضلاً عن كل ذلك، لم تكن تهب نسمة واحدة. وكان هناك كثير من الذباب والهوام يحط على جراحها المكشوفة، مسبباً لها المزيد من الآلام بلسعاته. فكانت تهز يديها دون توقف لإبعاد الهوام، وتلعن نفسها وحياتها وعشيقها والمتعلم.

وبينما هي على هذه الحال من الغم واللسع والحرق، تحت وطأة الشمس والذباب والهوام، وكذلك الجوع، وقبل ذلك كله العطش، يضاف إليه آلاف الأفكار المريعة التي خطرت لها؛ نهضت واقفة، وراحت تنظر لعلها ترى أو تسمع أحداً على مقربة منها. وقد صممت على أن تنادي من تراه، مهما كانت العواقب، وتطلب منه المساعدة. ولكن سوء حظها انتزع منها حتى هذا الاحتمال. فالفلاحون غادروا الحقول بسبب اشتداد الحر. ولم يكن يُسمع إلا صرير الزيزان، ولا يُرى إلا نهر أريون، مما يزيد من ظمأ المرأة وتلهفها إلى الماء. وكانت ترى في أماكن بعيدة بعض الغابات والظلال والبيوت، فتتلهف إليها وتزيد من كربها. ما الذي يمكننا قوله أكثر من كل هذا عن الأرملة المنكوبة؟.. الشمس من فوقها، وسخونة الأرض من تحتها، والجراح والذباب والهوام في كل أنحاء جسدها الذي

كان يهزم الظلمة ببياضه في الليلة السابقة، وصار الآن أحمر كالمعزاة، تغطيه بقع الدم، ويبدو لمن يراه أنه أقبح ما في الدنيا. وقد كانت على تلك الحال، لا تفكر في شيء، ولا تأمل في خلاص، وإنما تنتظر الموت أكثر من انتظارها أي شيء آخر، عندما انقضى وقت العصر؛ استيقظ الدارس من نومه وتذكر السيدة. فرجع إلى البرج ليرى ما الذي حلّ بها وبخادمه الذي كان لا يزال دون طعام، فأرسل الخادم كي يتناول طعامه. وعندما أحست هي بوجوده، تقدمت وهي مغمومة ومنهوكة من حافة البرج، فجلست عليها وبدأت تقول له باكية:

- لقد أفرطت في انتقامك يا رينيري، فإذا كنتُ قد جعلتك تتجمد من البرد ليلاً في فناء بيتي، فإنك شويتني نهاراً فوق هذا البرج، ومازلت أحترق، فضلاً عن معاناتي الجوع والعطش. ولهذا أتوسل إليك باسم الرب الأوحد أن تصعد إلى هنا وتدفعني إلى أسفل لأموت، لأنني لا أريد أن أقتل نفسي بنفسي، رغم رغبتي في الموت أكثر من أي شيء آخر. وإن لم تشأ أن تقدم لي هذا الجميل، فجئني على الأقل بكأس ماء أبلل به فمي، لأن دموعي جفت ولم تعد قادرة على ترطيبه.

أدرك الدارس من صوتها مدى ضعفها، ورأى جسدها المحروق بالشمس، فأحس بشيء من الشفقة عليها بعد توسلاتها المتذللة؛ ولكنه ردّ عليها مع ذلك:

- لن تموتي بيدي أيتها المرأة الخبيثة؛ وإنما ستموتين بيديك إن كنت راغبة في الموت. ولن تتلقي من الماء لتخفيف حرارتك إلا قدر ما تلقيتُ من النار لتخفيف برودتي في تلك الليلة. ويؤسفني أشد الأسف أنني لم أبرأ من الداء الذي سببه لي البرد إلا باستخدام روث البهائم النتن علاجاً، بينما داء حرارتك سيشفى بماء الورود العطرة؛ ولأنني كدت أن أفقد عروقي وأعصابي وحياتي من البرد، بينما ستفقدين أنت جلدك من الحر، وستعودين بعد ذلك جميلة مثلما يحدث للأفعى حين تبدل جلدها.

فقالت المرأة:

- آه، يا لي من بائسة! أرجو من الله الذي منحني هذا الجمال أن يعطيه لكل من أساء لحبي. أما أنت، فإنك أشد قسوة من الضواري! كيف أمكن لك أن تتحمل تمزيقي على هذا النحو؟.. وما الذي كان يمكن لي أن أنتظره منك أو من سواك إذا ما أقدمتُ تحت وطأة هذا العذاب القاسي على قتل كل أسرتك؟.. الحقيقة إنني لا أعرف أي قسوة يمكنك

استخدامها ضد خائن أباد مدينة كاملة، أشد من قسوتك معي في إحراقي تحت الشمس، وترك الذباب يأكلني: ثم ترفض بعد هذا كله إعطائي كأس ماء، بينما القتلة الذين تحكم عليهم المحاكم بالموت، يُقدم إليهم النبيذ قبل موتهم إذا ما طلبوه. لكنني أرى أنك مصمم على قسوتك، ولن يحولك عنها إلى الرحمة أي شيء. ولم يبق لي إلا أن أتقبل الموت بصبر، فلعل الله يرحم روحي، وأتوسل إليه أن ينظر بعين العدل إلى أفعالك.

قالت هذه الكلمات وزحفت بمشقة إلى منتصف أرضية البرج، يائسة من إمكانية النجاة من الحر الحارق. وليس مرة واحدة، وإنما ألف مرة أحسست بالموت من آلامها ومن العطش. وكانت تبكي طوال الوقت وتندب سوء حظها ونكبتها. وعند الغسق، رأى المتعلم أن ما فعله كافٍ، فجمع ثيابها ووضعها في عباءة خادمه، وذهب بها إلى بيت المرأة البائسة: فوجد الخادمة تجلس أمام الباب حزينة ويائسة، لا تدري ما تفعل. فقال لها:

ـ أين هي سيدتك أيتها المرأة الطيبة؟..

فأجابته الخادمة:

ـ لا أدري يا سيدي. لم أجدها في حجرتها هذا الصباح، حيث بدا لي أنها دخلت إليها في الليلة الماضية؛ كما أنني لم أجدها في أي مكان آخر. وأنا قلقة لأني لا أعرف ما الذي جرى لها. ولكن، هل يمكنك أنت يا سيدي أن تخبرني شيئاً عنها؟..

فأجابها المتعلم:

ـ كنتُ أتمنى لو أنك معها، لتنالي العقاب على ذنبك مثلما نالت هي العقاب على ذنبها! ولكنك لن تفلتي مني دون أن تدفعي ثمن أعمالك، بحيث لا تعودين للاحتيال على أي رجل طيب إلا وتتذكرينني.

ثم توجه إلى خادمه قائلاً له:

ـ أعطها هذه الثياب، وقل لها أن تذهب لإحضار سيدتها إذا أرادت.

نفذ الخادم أمر سيده؛ فتناولت الخادمة الثياب، وبعد أن سمعت ما قاله لها، خشيت أن يكون قد قتلها، وكبحت نفسها بمشقة من الصراخ، ولكنها انفجرت في البكاء بعد انصراف المتعلم، واندفعت راكضة نحو ذلك البرج.

وفي ذلك اليوم، كان أحد فلاحي السيدة قد فقد اثنين من خنازيره، وبينما هو

يبحث عنهما في كل مكان، وصل إلى ذلك البرج، وسمع بكاء المرأة؛ فصعد إلى حيث استطاع الصعود، وصاح:

ـ من الذي يبكي هناك؟..

تعرفت السيدة على صوت فلاحها، فنادته باسمه وقالت له:

ـ اذهب إلى خادمتي وساعدها على الصعود إليّ هنا في الأعلى!

وتعرف الفلاح على صوتها، فقال لها:

ـ آه يا سيدتي! ما الذي جعلك تصعدين هناك؟.. لقد أمضت خادمتك النهار وهي تبحث عنك. ولكن، من الذي يخطر له أنك في هذا المكان؟..

ثم تناول السلم وأسنده إلى الجدار في مكانه المعهود، وراح يثبته بأطواق ودعائم خشبية من جانبيه. وبينما هو منهمك في ذلك، وصلت الخادمة. ولم تستطع كبح نفسها فور دخولها إلى البرج، فراحت تلطم وجهها براحتيها وتصرخ:

ـ آه يا سيدتي الحبيبة! أين أنت؟..

وما إن سمعتها السيدة حتى قالت لها بأعلى صوت تستطيعه:

ـ آه يا أختي! إنني هنا في أعلى البرج. لا تبكِ، بل أحضري لي ملابسي بسرعة.

حين سمعتها الخادمة تتكلم، استعادت الطمأنينة، وصعدت السلّم الذي كان الفلاح قد أعاد إصلاحه، وتمكنت بمساعدته من الوصول إلى أعلى البرج. وهناك رأت سيدتها منهوكة وعارية على الأرض، وقد بدا جسدها أشبه بجذع كرمة محروقة بالنار منه إلى جسد بشري؛ فخدشت وجهها بأظفارها وراحت تبكي فوقها كما لو أنها ميتة. لكن السيدة توسلت إليها بحق الرب أن تصمت وتساعدها في ارتداء ملابسها. وعرفت منها أنه ليس هناك من يعلم بمكان وجودها سوى من حملا إليها ملابسها والفلاح الذي كان هناك، فأحست السيدة ببعض العزاء، وتوسلت إلى الله ألا يبوح أحد منهم بما جرى. وبعد حديث طويل، حمل الفلاح السيدة على كاهله، لأنها كانت عاجزة عن المشي، وأخرجها من البرج. وبينما الخادمة تحاول النزول بعدهما، زلت قدمها وسقطت عن السلّم إلى الأرض، فكسرت حوضها، وراحت تجأر من الألم كأنها أسد. عندئذ ترك الفلاح السيدة على العشب، وذهب ليرى ما الذي حدث للخادمة، وعندما وجد حوضها مكسوراً، حملها

إلى المرج ووضعها إلى جوار سيدتها التي رأت في ذلك ذروة نكباتها، لأنها كانت تأمل في أن تجد العون من الخادمة التي تثق بها، فازداد حزنها وانفجرت مجدداً ببكاء يائس لم يعجز الفلاح معه عن مواساتها وحسب، وإنما انخرط معها في البكاء.

ولكن الشمس بدأت بالمغيب، وكي لا يداهمهم الليل هناك، طلبت السيدة من الفلاح أن يسرع في الذهاب إلى بيته ويأتي بأخوين له وزوجته. فعاد بهم ومعه لوح خشبي، وضعوا عليه الخادمة والسيدة، وحملوهما إلى البيت. وهناك أنعشوا السيدة بقليل من الماء البارد وبالكلام الطيب، ثم حملها الفلاح إلى مخدعها. وبعد أن أطعمتها زوجة الفلاح خبزاً مبللاً، خلعت عنها ملابسها ووسدتها في السرير. وتدبروا بعد ذلك كل شيء لنقل السيدة وخادمتها، في تلك الليلة بالذات، إلى فلورنسا.

وهناك، اختلقت السيدة البارعة في الخداع، قصة مختلفة تماماً عما جرى في الواقع: فأقنعت إخوتها وزوجاتهم وجميع أقربائها الآخرين بأن ما حدث لها ولخادمتها إنما كان بفعل قوى شيطانية. وحضر الأطباء على عجل، وعالجوا السيدة من الحمى الشديدة والحروق، بعد كثير من المعاناة والآلام. حيث كان الجلد يلتصق في أحيان كثيرة بأغطية الفراش. وعالجوا كذلك حوض الخادمة. وبعد هذا كله، نسيت السيدة عشيقها تماماً، ولم تعد بعدها قط إلى الخداع والسخريات والغراميات. أما المتعلم، وبعد أن سمع خبر كسر حوض الخادمة، رأى أنه قد أنجز انتقامه كاملاً، واكتفى بذلك.

هذا ما جرى للسيدة الغبية من جراء خداعها، ولاعتقادها بأنها قادرة على السخرية من رجل ثقافة مثل سخريتها من أي رجل آخر، دون أن تدري أن أولئك المثقفين «ولا أقول جميعهم، وإنما معظمهم» يعرفون جيداً أين هو ذيل الشيطان. ولهذا يا سيداتي، توخين الحذر من السخرية، لاسيما السخرية من رجال الثقافة.

القصة الثامنة

صديقان لا يفترقان، يضاجع أحدهما زوجة الآخر. فيعلم هذا الآخر بالأمر، ويحبس صديقه في صندوق، ثم يضاجع زوجته فوق الصندوق نفسه.

المحن التي مرت بها إيلينا كانت قاسية ومؤلمة على مسامع السيدات؛ ومع أنهن قدرن أن ما أصابها كان عادلاً بعض الشيء، إلا أنهن شعرن بنوع من الشفقة عليها. وعندما انتهت بامبينيا من قصتها، أمرت الملكة فياميتا أن تواصل، فقالت بانصياع كبير:

ـ صديقاتي العزيزات، يبدو لي أن انتقام ذلك المتعلم كان قاسياً جداً، وأنه سبب لكنّ شيئاً من المرارة. وأرى من المناسب التخفيف من تلك المرارة بشيء أكثر مرحاً؛ ولهذا سأروي لكنَّ قصة شاب أكثر وداعة، تلقى الإهانة وانتقم منها بعمل أكثر اعتدالاً ورفقاً.

كان يعيش في سيينا، على ما سمعت، شابان ميسوران، من أسرتين طيبتين من العوام، أحدهما يدعى سبنلوشيو تافينا، والآخر زيبا دي مينو. وكانا جارين في حي كانوليا، لا يفترقان طوال الوقت، وكل منهما يحب الآخر كما لو أنهما أخوين. وكان كل منهما متزوجاً من امرأة باهرة الجمال. وحدث أن أكثر سبنلوشيو من التردد على بيت زيبا، سواء أكان هذا موجوداً في البيت أم غائباً عنه، فصار هناك نوع من الألفة مع زوجة صديقه، وما لبثت أن تطورت، وصار ينام معها. واستمرا على تلك الحال لوقت طويل دون أن ينتبه إليهما أحد. وفي أحد الأيام، دخل زيبا إلى بيته دون أن تراه زوجته، ثم جاء سبنلوشيو بعد قليل للسؤال عنه. فقالت له المرأة إن زوجها غير موجود، فدخل سبنلوشيو إلى الصالة. وحين لم يجد أحداً، عانقها وراح يقبلها، وراحت هي تقبله. أما زيبا الذي رأى ذلك كله، فلم يقل شيئاً، بل ظل مختبئاً ليرى إلى أين سيصلان بتلك اللعبة. وبعد قليل، رأى امرأته وصديقه يتوجهان متعانقين إلى المخدع ويغلقان الباب خلفهما، فأحس بغضب شديد. ولكنه فكر في أن إثارة الصخب والضجيج لن يخفف من الإهانة، وإنما سيزيد من عاره. وبدأ يفكر في انتقام يشفي غليله، دون أن ينتشر الخبر ويعلم به أحد في الوقت نفسه.

وبعد تأمل طويل، بدا له أنه وجد الوسيلة، فظل مختبئاً طوال الوقت الذي أمضاه سبنلوشيو مع زوجته. وعندما انصرف، دخل هو إلى المخدع، حيث وجد زوجته لا تزال تسوي غطاء رأسها الذي نزعه عنها سبنلوشيو. فقال لها:

ـ ماذا تفعلين يا امرأة؟..

فردت عليه زوجته:

ـ ألا ترى ما أفعل؟..

- أرى جيداً، وقد رأيت أيضاً أمراً ما كنت أود رؤيته.

ثم حدثها بما جرى من أمور، فخافت هي خوفاً شديداً. وبعد كثير من التردد، اعترفت له بما لا يمكنها إنكاره عن علاقتها بسبنلوشيو. ثم راحت تبكي وتطلب منه الصفح. فقال لها زيبا:

- لقد أسأتِ التصرف وأقدمت على فعل خبيث يا امرأة، فإذا أردتِ أن أسامحك وأغفر لك، عليك أن تفعلي بانصياع ودقة ما سآمرك بعمله. يتوجب عليك أن تخبري سبنلوشيو بأن يجد طريقة للابتعاد عني والمجيء إليك في الساعة التاسعة من صباح غد. وبينما هو هنا، سأرجع أنا إلى البيت: وحين تسمعينني اطلبي منه الاختباء في هذا الصندوق واحبسيه فيه. وبعد ذلك، عندما تنتهين من عمل هذا، سأخبرك بما عليك فعله. وأعدك بأنني لن ألحق به أي أذى إذا ما قمت بما آمرك به.

ومن أجل أرضائه، وافقت المرأة على عمل ذلك، وعملته فعلاً. ففي اليوم التالي، بينما كان زيبا وسبنلوشيو معاً، في حوالي الساعة التاسعة، وكان سبنلوشيو قد وعد المرأة بأن يذهب للقائها في تلك الساعة، فقال لزيبا:

- علي أن أذهب الآن، فقد وعدت صديقاً بأن أتناول الغداء معه، ولا أريد أن أتأخر عليه. ولسوف أتركك في رعاية اللّه.

فقال زيبا:

- ما زال الوقت مبكراً للغداء، ابق معي لبعض الوقت.

فأجابه سبنلوشيو:

- ليس مهماً. فعلي أن أتحدث معه كذلك في أمر يهمني؛ ومن المناسب أن أذهب باكراً.

وهكذا افترق الصديقان. وبعد أن قام سبنلوشيو بجولة قصيرة، ذهب إلى حيث زوجة صديقه: وما كادا يدخلان إلى حجرة النوم حتى رجع زيبا. وحين سمعت المرأة صوته، تظاهرت بأنها خائفة جداً، وطلبت من عشيقها أن يدخل في الصندوق الذي أشار إليه زوجها. ثم حبسته فيه وخرجت من المخدع. أما زيبا الذي دخل للتو، فصاح بصوت عالٍ:

ـ إنه موعد الغداء يا امرأة.

ـ أجل، سأعده في الحال.

عندئذ قال زيبا:

ـ لقد ذهب سبنلوشيو للغداء في بيت صديق له، وترك زوجته وحدها: أطلي من النافذة ونادي عليها كي تأتي للغداء معنا.

انصاعت المرأة الخائفة لما أمرها به. وما لبثت زوجة سبنلوشيو أن جاءت، بعد أن ألحت عليها امرأة زيبا كثيراً، وخاصة حين أخبرتها بأن زوجها سبنلوشيو لن يأتي للغداء في البيت. وعندما دخلت استقبلها زيبا بتودد شديد، وأمسك يدها بلطف، ثم أمر زوجته بأن تذهب إلى المطبخ، وأقفل عليها الباب من الخارج. واقتاد بعد ذلك زوجة صديقه إلى المخدع، وحين صارا في الداخل، أغلق الباب خلفهما.

عندما رأته المرأة يفعل ذلك، قالت له:

ـ آه منك يا زيبا! ما الذي يعنيه كل هذا؟.. وهل هذا هو حبك واحترامك لصديقك؟.. وهل هذه هي دعوة الوفاء التي دعوتني إليها؟..

أمسك بها زيبا جيداً، وراح يقترب من الصندوق، حيث كان زوجها محبوساً، وأجابها:

ـ قبل أن تغضبي وتتذمري يا سيدتي، اسمعي ما سأخبرك به. لقد أحببتُ زوجك كما لو أنه أخي؛ ويوم أمس، اكتشفت ـ دون أن يعرف هو ذلك ـ أن الثقة التي أوليه إياها قد بلغت به حدّ مضاجعته زوجتي كما لو أنه يضاجعك أنت. ولأنني أحبه، فإنني لا أريد الانتقام منه بأكثر مما يتناسب مع ما ألحقه بي من إهانة. فهو نال من زوجتي، وأنا أريد النيل منكِ. فإن لم تقبلي، فسوف أنتقم بطريقة أخرى، لأني لن أترك هذه الإهانة تمر دون عقاب، وإذا ما عاقبته بطريقة أخرى، فلن تعرفي أنت وهو السعادة أبداً.

حين سمعت المرأة ذلك، وبعد إثباتات كثيرة قدمها زيبا، صدقته وقالت له:

ـ عزيزي زيبا، بما أنه لا بد لهذا الانتقام من أن يقع عليّ، فإنني سأتقبله سعيدة، على ألا يسبب لي ذلك العداوة مع زوجتك، لأني أود الحفاظ على صداقتها بالرغم مما فعلته هي بي.

فرد عليها زيبا:

ـ هذا ما سأفعله بكل تأكيد، ولسوف أهدي إليك جوهرة ثمينة لم تملكي مثلها قط.

وبعد قوله هذا، احتضنها وبدأ يقبلها، ثم طرحها على الصندوق، حيث كان زوجها محبوساً. وهناك فوقه بالذات، استمتع بها كما يشاء، واستمتعت هي به أيضاً. وكان سبنلوشيو يسمع وهو في الصندوق كل ما قاله زيبا، وكل ما أجابت به زوجته. وأحس برقصة المجون الخبيثة التي كانا يرقصانها فوق رأسه. وقد شعر في إحدى اللحظات بأنه يكاد يموت غيظاً؛ ولولا خوفه من زيبا، لكان صرخ شاتماً زوجته. ولكنه فكر في الأمر بعد ذلك، ورأى أنه كان البادئ بالإهانة، وأن زيبا محق في فعل ما فعله هو به، وأنه قد عامله معاملة إنسانية وكصديق. وقال في نفسه إنه سيكون صديقاً مخلصاً لزيبا إذا ما رضي هو بذلك. وبعد أن استمتع زيبا بالمرأة كما أراد، نزل عن الصندوق. وعندما طلبت منه المرأة الجوهرة التي وعدها بها، فتح باب حجرة النوم، ونادى زوجته التي اكتفت بالقول للأخرى:

ـ لقد دفعتما لي يا عزيزتي الجزاء الذي أستحق.

وبينما هي تضحك، قال لها زيبا:

ـ افتحي الآن هذا الصندوق.

فعلت زوجته ذلك، وطلب زيبا من زوجة سبنلوشيو أن ترى زوجها. وسيكون من الصعب معرفة خجل أي الزوجين كان أكبر. أهو سبنلوشيو الذي رأى نفسه أمام صديقه زيبا وقد عرف الحقيقة، أم المرأة التي عرفت أن زوجها قد سمع كل ما كان يحدث فوق رأسه. عندئذ قال لها زيبا مشيراً إلى زوجها:

ـ هذه هي الجوهرة التي أهديها إليك.

خرج سبنلوشيو من الصندوق، وقال دون إطالة في الكلام:

ـ إننا متساويان الآن يا زيبا. ومن الأفضل لنا. كما قلت أنت لزوجتي، أن نظل صديقين مثلما كنا. ولأن كل شيء بيني وبينك كان مشتركاً باستثناء زوجتينا، فقد صار بإمكاننا منذ اليوم أن نتقاسمها أيضاً.

ابتهج زيبا بذلك، وبأعظم وئام في العالم تناول الأربعة غداءهم بانسجام. ومنذ ذلك اليوم، صار لكل امرأة زوجان، ولكل زوج امرأتان، دون أن يؤدي ذلك إلى أي نوع من العداء أو الغضب.

القصة التاسعة

المعلم سيمون طبيبٌ، دعاه برونو وبوفالماكو للانضمام إلى جماعة تخرج في أعمال قرصنة، فحملاه ليلاً إلى مكان، حيث ألقى به بوفالماكو في حفرة براز وتركه هناك.

بعد أن انتهت السيدات من التعليق على تلك الشراكة في الزوجات التي توصل إليها الزوجان اللذان من سيينا، رأت الملكة أنها الوحيدة المتبقية من الرواة (إذا كانت لا تريد إغضاب ديونيو بإلغاء امتيازه)، فبدأت تروي قصتها بالقول:

- صديقاتي اللطيفات، لقد استحق سبنلوشيو الحيلة التي دبرها له زيبا، ولذا لا أرى أنه يستحق تأنيباً قاسياً، مثلما أرادت بامبينيا أن تبين لنا قبل قليل، لأن من يخدع غيره إنما يسعى إلى الوقوع في خدعة أخرى يستحقها. وقد استحق سبنلوشيو الخدعة التي وقع فيها، وسوف أتحدث الآن عن شخص سعى بنفسه إلى الوقوع في خدعة، فاستحق من سخروا منه المديح وليس الذم والتأنيب. وقد كان من سخروا منه طبيباً عائداً من بولونيا إلى فلورنسا يرتدي أفخر أصناف الفراء.

نحن نرى كل يوم كيف يرجع مواطنونا من بولونيا، هذا طبيب، وذاك قاض، وغيره كاتب عدل: يرتدون ثياباً فضفاضة سابغة من فراء قرمزية وبيضاء، وغيرها كثير من مظاهر العظمة. ونحن نرى كل يوم أيضاً ما يتمخض عن ذلك كله من نتائج. وأحد هؤلاء المعلم سيمون دي فيللا، وهو أشد ثراء بممتلكاته الموروثة عن أبيه من ثرائه بالعلوم. عاد إلينا قبل وقت غير بعيد ببدلة قرمزية، وكتفية مهيبة كدكتور في الطب كما يقول هو نفسه. واستقر في الشارع الذي نسميه اليوم درب كوكوميرو. وكان من بين عادات المعلم

سيمون، العائد حديثاً كما قلنا، عادة سؤال من يرافقوه عن أي شخص يراه يمر في الشارع، كما لو أن الدواء الذي سيقدمه لمرضاه لا بد من تركيبه وفقاً لأحوال الناس: فهو يمعن النظر في الجميع، ويتذكر كل شيء عنهم. وكان أكثر من أثار اهتمامه بين من رآهم، شخصين جرى الحديث عنهما اليوم مرتين، وأعني بهما برونو وبوفالماكو: فهما يمضيان معاً على الدوام، ويقيمان على مقربة من بيته. وقد بدا له أن هذين الشخصين هما أقل من في الدنيا انشغال بال، وأنهما يعيشان حياة مرح وسعادة أكثر من الجميع. فسأل كثيرين عنهما وعن وضعهما ومم يعيشان، وكان الجميع يقولون له إنهما رجلان فقيران ونقاشان. ولكنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن لهما أن يكونا بهذه السعادة في فقرهما. وفكر (لأنه سمع أنهما رجلان ماكران) في أنهما يحققان مداخيل كبيرة من مكان لا يعرفه غيرهما من الرجال. وراودته الرغبة في إقامة علاقة صداقة معهما، أو مع أحدهما على الأقل؛ وخطر له أن تكون هذه الصداقة مع برونو.

وما لبث برونو، بعد لقاءات قليلة، أن أدرك أن ذلك الطبيب شخص أخرق؛ فصار يسخر منه على هواه، ويروي له أموراً عجيبة وغريبة. وكان الطبيب بدوره يزداد إعجاباً وتعلقاً به، فدعاه في أحد الأيام لتناول الطعام، معتقداً أنه سيتمكن بذلك من تبادل الحديث معه بمزيد من الثقة. واعترف له بما يشعر به من عجب ودهشة لرؤيته هو وبوفالماكو يعيشان في سعادة كبيرة على الرغم من فقرهما، ورجاه أن يعلمه الطريقة التي توصلا بها إلى ذلك. وحين سمع برونو ما قاله الطبيب، بدا له السؤال بليداً وأخرق، يتناسب مع شخصية الطبيب، فراح يضحك، وفكر في الرد عليه بإجابة تتناسب مع بلاهته، فقال له:

ـ آه يا معلم، ما تسألني عنه لا يمكنني قوله لأي شخص. ولكنني لن أتورع عن إخبارك به لأنك صديق، ولأنني أعرف أنك لن تُطلع أحداً عليه. الحقيقة إننا نعيش، أنا ورفيقي، في أحسن حال، بل أفضل بكثير مما بدا لك. وليس هذا من مهنتنا، ولا من أي ممتلكات لدينا، لأننا إذا ما اعتمدنا على موارد مهنتنا، فلن نستطيع دفع ثمن ما نحتاجه من ماء نشربه. ولا أريد أن يذهب بك الظن إلى أننا نمضي في دروب السرقة: ولكننا نقوم بالقرصنة، ونحصل بذلك على كل ما نحتاج إليه ونرغب فيه، دون أن نؤذي الآخرين، وهذا هو مصدر حياتنا السعيدة التي تراها.

لم يفهم الطبيب، لكنه أبدى دهشة كبيرة، وأحس فجأة برغبة كبيرة في فهم ما يعنيه القيام بالقرصنة، مؤكداً في الوقت نفسه أنه لن يخبر أحد بذلك. فقال برونو:

ـ آه لهذا السؤال الذي تسألني إياه أيها المعلم! إن ما تريد معرفته سرّ كبير، والبوح به يدمرني ويلقي بي خارج الدنيا، بل إنه يضعني في فم شيطان سان غالو إذا ما علم به شخص آخر. ومع ذلك، فإن محبتي لك، والاحترام الذي يوحي به وقارك ومكانتك، وإيماني بك، تجعلني غير قادر على إنكار أي شيء تطلبه. ولهذا سأخبرك، شريطة أن تقسم لي بصليب مونتيسوري بأنك لن تبوح بذلك لأحد.

أكد المعلم أنه لن يفعل. فقال له برونو:

ـ اعلم إذاً يا طبيبي العزيز أنه منذ زمن غير بعيد، كان في هذه المدينة معلم كبير في فنون السحر واستحضار الأرواح، يدعى مايكل اسكوتو، لأنه من اسكتلندا، وقد تلقى تشريفات عظيمة من أعيان لم يبق اليوم منهم إلا قلة على قيد الحياة. وعندما أراد الذهاب من هنا، ونزولاً عند رجاء أولئك السادة، ترك لنا اثنين من تلامذته المقتدرين، وأوصاهما بأن يلبيا كل رغبات أولئك السادة الذين شرفوه، وأن يكونوا تحت تصرفهم على الدوام. وصار هذان الشخصان يقدمان خدماتهما للسادة الأعيان المذكورين في غرامياتهم، وفي أمور وخدمات أخرى، دون أي مقابل. وقد أحبا بعد ذلك مدينتنا وعادات أهلها، وقررا الاندماج بالناس وعقد صداقات وطيدة مع بعض الرجال، دون الأخذ في الاعتبار كونهم نبلاء أو غير نبلاء، أغنياء أو فقراء، اللهم إلا أن يكونوا رجالاً متوافقين مع مزاجهم. ومن أجل إرضاء هؤلاء الأصدقاء، نظما جماعة من حوالي خمسة وعشرين رجلاً، وعلى هؤلاء الرجال الاجتماع مرتين كل شهر في مكان يتفقون عليه فيما بينهم. وفي الاجتماع، يعبر لهما كل واحد من الرجال عن رغبته وأمنيته. فيوفرانها له في الحال طوال تلك الليلة. وقد ارتبطت أنا وبوفالماكو بصداقة حميمة ووثيقة مع الشخصين المذكورين، وجرى ضمنا بفضلهما إلى تلك الجماعة. ومازلنا فيها. وأقول لك إننا في كل مرة نجتمع، نرى أعاجيب مدهشة من الستائر والسجاجيد التي يعلقانها في القاعة حيث نتناول الطعام، ومن الموائد المرتبة على الطريقة الملكية، وأعداد الخدم العظماء والمتأنقين، سواء من الرجال أو النساء، القائمين على خدمة أعضاء الجماعة. أما الجفنات والأطباق والقوارير والكؤوس وكل أدوات المائدة الأخرى التي نأكل ونشرب بها، فهي من الذهب

والفضة. وأما المأكولات فهي أنواع كثيرة ومتعددة من اللذائذ، تقدم لكل واحد حسب ذوقه، وتوضع أمامه في موعدها الدقيق. ولا يمكنني أن أصف لك أصناف الألحان العذبة والآلات الموسيقية الكثيرة والأغنيات البديعة التي تُسمع هناك، ولا أستطيع كذلك أن أقدر لك كمية الشموع التي تُضاء في حفلات العشاء تلك، أو كمية الحلويات التي تستهلك فيها، وكم هي لذيذة الخمور التي تُشرب. ولا أريدك، يا قرعتي اللذيذة، أن تظن أننا نكون هناك بهذه الملابس التي تراني أرتديها: فليس هناك من بائس إلا ويبدو إمبراطوراً: لأننا نكون هناك بأفخر الملابس وأروع الزينات. ولكن أعظم المتع والملذات هناك نجدها في النساء الجميلات، فما إن يرغب أي منا بواحدة منهن، حتى تحضر له في الحال من أي مكان في العالم. فترى هناك سيدة البرابر، وملكة الباسكيين، وامرأة السلطان، وإمبراطورة أوزبك، وملكات النرويج، وبيرلنزون، ونارسيا. ولماذا مواصلة العدّ؟.. فجميع ملكات العالم يكنّ هناك. بمن فيهن حليلة إمبراطور الحبشة، والذي أظن أن له قروناً حتى في مؤخرته. فتخيل كل هذا! وبعد تناول الشراب وأكل الحلوى، ورقص رقصة أو اثنتين، يذهب كل واحد إلى مخدعه مع المرأة التي طلبها. وعليك أن تعلم أن تلك الحجرات تبدو للنظر كأنها الفراديس بروعتها وبهائها! وهي ليست أقل عبقاً بالروائح الزكية من علب البهارات في دكانك عندما تأمر بدق الكمون وطحنه: وفيها أسرّة تبدو أكثر فخامة من سرير دوق فينسيا. وفي معظم الأحيان يطلب بوفالماكو أن تأتيه ملكة فرنسا، وأطلب أنا ملكة إنكلترا، وهما أجمل ملكتين في العالم. وهكذا يمكن لك أن تقدر لماذا لا نكون أسعد من جميع الرجال ونحن نفكر في أن لدينا حب هاتين الملكتين. وإذا ما طلبنا ألف فلورين أو ألفي فلورين، نحصل عليها في الحال. هذا هو ما نسميه نحن «القيام بالقرصنة»، لأننا مثل القراصنة الذين يستولون على أشياء الآخرين، وهذا ما نفعله نحن. ولكننا مختلفون عن القراصنة في الوقت نفسه، فهم لا يعيدون ما يستولون عليه، أما نحن فنعيدهن بعد استخدامهن. والآن أيها المعلم الطيب، بعد أن عرفت ما الذي نعنيه بقولنا «القيام بقرصنة»، عليك أن تحافظ على السر، وربما سيكون بإمكانك أنت بالذات رؤية كل ذلك، ولهذا لن أوصيك أكثر على حفظ السر.

الطبيب الذي لم تكن علومه تنحصر، كما يبدو، في معالجة طفح شفاه الأطفال الرضع، صدق كلام برونو وآمن به على أنه حقيقة، ورغب بلهفة كبيرة أن يقبلوه ضمن تلك الجماعة. ورد على برونو بأنه لم يعد يعجب لرؤيته سعيداً هو ورفيقه. وقد بذل جهداً

كبيراً لمنع نفسه من الطلب إليه إدخاله إلى تلك الجماعة، ورأى أن عليه أولاً أن يقدم له مزيداً من التكريم، كي يتمكن من الإعراب له بثقة أكبر عن رغبته تلك، ويتوسل إليه ضمه إلى الجماعة. وبعد أن تمكن من كبح نفسه، صار يكثر من التردد عليه صباحاً ومساء، ويدعوه لتناول الطعام في بيته، ويبدي له محبة مفرطة: حتى بدا من اشتداد تلك الصداقة أن المعلم لم يعد قادراً على العيش من دون برونو. وقد وجد برونو راحة في ذلك الوضع؛ ولكنه لم يشأ أن يبدو ناكراً لجميل المعلم في إكرامه. ورغبة منه في مواصلة علاقات المودة، رسم له على جدار حجرة الطعام لوحة الصوم الكبير[1]، ونقشاً لأحد خراف الرب عند مدخل حجرة النوم، ومبولة فوق باب البيت الخارجي[2] كي يتمكن من هم بحاجة إلى استشارته من تمييز بيته عن البيوت الأخرى المجاورة؛ كما رسم له على جدار في البهو معركة الفئران والقطط، وقد رأى الطبيب أنها عمل بديع. وكان برونو يأتي إلى المعلم أحياناً، ولا سيما عندما لا يكون قد تناول العشاء معه، فيقول له:

ـ لقد كنتُ الليلة الماضية مع الجماعة، وقد تعبت قليلاً من ملكة إنكلترا، فطلبت أن يأتوني بمبعرة الخان الأعظم.

فيقول المعلم:

ـ وما معنى مبعرة ؟.. أنا لا أعرف هذه الكلمة.

ـ آه يا معلمي ـ يقول له برونو ـ لستُ أستغرب ذلك، فقد سمعت من يقول أن أبوغراطو وبني سينا لا يعرفان شيئاً عن ذلك.

فقال له المعلم:

ـ أنت تعني أبوقراط وابن سينا.

فقال برونو:

ـ أقسم لك بأمي إنني لا أعرف، لأن ما أعرفه عن رجال مهنتكم أقل بكثير مما تعرفونه عن رجال مهنتي: ولكن كلمة «مبعرة» في لغة الخان الأعظم تعني مثلما تعنيه

---

[1] الصوم الكبير: يمثل له عادة برسم سيدة ورعة وحزينة الملامح.

[2] La Cuaresma : كانت المبولة في ذلك العصر رمزاً يشير إلى أن الطبيب يقوم بتحليل البول.

كلمة «إمبراطورة» في لغتنا. لا بد أنها ستبدو لك أنثى رائعة! ويمكنني القول لك إنها ستُنسيك العقاقير والحقن الشرجية وكل أنواع اللزقات.

وبمواصلته الحديث بهذه الطريقة مرة بعد أخرى، بدا للسيد المعلم (وكان يتبادل الحديث في إحدى الليالي مع برونو وهو يحمل له مصباحاً كي يرسم معركة الفئران والقطط» أنه قد استحوذ على مودة برونو بتكريمه له، وقرر أن يبوح له بما في نفسه، ولأنهما كانا وحدهما، قال له:

ـ الله يعلم يا برونو كم أكنّ لك من المودة، وليس هناك من شيء أمنعه عنك، مهما يكن. حتى لو طلبت مني أن أذهب ماشياً من هنا إلى بيريتولا، فلا أظن أنني سأتخلف عن الذهاب. ولهذا لا تستغربن ما سأطلبه منك بثقة مبعثها المودة والتذلل. فمنذ وقت طويل وأنت تحدثني عن اجتماعات جماعتكم الرائعة. وقد راودتني الرغبة في الانضمام إليها، ولم أعد أرغب في شيء سوى ذلك. ولست أريد هذا الانضمام عبثاً كما سترى، وإنما لأنني سأُحضر عندئذ أجمل مخلوقة رأتها عيناك، وهي امرأة رأيتها السنة الماضية في كاكافينشلي. وأشتهيها أكثر من أي شيء في الدنيا. وأقسم بجسد المسيح إنني كنتُ سأعطيها عشر قطع نقد بولونية لو أنها وافقتني، ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً. ولهذا أرجوك أن تخبرني بما عليّ عمله كي أنضم إلى الجماعة، وأن تبذل أنت كل ما تستطيع من جهد، وستجد في أكثر الأصدقاء وفاء ونزاهة مدى الحياة. ويمكنك أنت نفسك أن ترى أنني رجل وسيم. وأنا فوق ذلك دكتور في الطب، ولا أظن أن في الجماعة طبيباً؛ كما أنني أعرف أشياء كثيرة، وأغنيات جميلة، وسأغني لك واحدة منها الآن.

وراح يغني على الفور. فأحس برونو برغبة شديدة في الضحك، ولكنه كبح نفسه. وبعد انتهاء الأغنية قال له المعلم:

ـ ما رأيك؟..

ـ الحقيقة إن عدم ضمك سيكون خسارة كبيرة، لأنك تغني بصورة شجية.

فقال المعلم:

ـ أظن أنك ما كنت ستصدق لو لم تسمعني.

ـ ما تقوله هو عين الصواب بكل تأكيد ـ قال له برونو.

فقال المعلم:

ـ وأنا أعرف أغنيات كثيرة أخرى: ولكن فلندع هذا الأمر جانباً الآن. وأقول لك إنني من أسرة نبيلة، بالرغم من أن أبي كان فلاحاً يعيش في الريف، وأنا أنتمي من جهة أمي إلى آل فاليشيو. ولدي من الكتب والملابس، مثلما ترى، أفضل مما لدى أي طبيب آخر في فلورنسا. فقيمة ملابسي وحدها تبلغ قرابة مئة لير باغاتيني وهذا قبل أكثر من عشر سنوات. فأرجوك أن تبذل كل جهدك من أجل ضمي. وإذا فعلت ذلك من أجلي، فلن أتقاضى منك أية نقود إذا ما حدث ومرضت في أحد الأيام.

وبينما برونو يسمع كلامه هذا، ازدادت قناعته ببلاهة الطبيب، فأجابه قائلاً:

ـ قرّب هذا الضوء قليلاً إلى هذا الجانب يا معلم، لأنني لن أرد عليك إلا بعد أن أنتهي من رسم ذيول هذه الفئران.

وعندما انتهى من رسم الذيول، أبدى برونو ضيقه بالرغبة التي أعرب عنها صديقه للتو، وقال له:

ـ أعرف يا معلمي أنك مستعد لأن تقدم لي خدمات عظيمة وكثيرة، وأعرف كذلك أن عظمة عقلك، على صغره، كبيرة جداً في نظري، وأدرك أيضاً طيب نواياك ونبلها. ولو أنني أستطيع تقديم مثل هذه الخدمة، لما قدمتها لأحد سواك. ولكنني أريدك أن تعلم أنني لا أمتلك السلطات التي تتصورها، ولهذا لا يمكنني أن أقدم لك ما تحتاجه. ولكن إذا ما أقسمت لي ووعدتني بالمحافظة على سرية ما سأقوله لك، فإنني سأخبرك بما عليك عمله لتحقيق ما تبتغيه.

وهنا أجابه الطبيب:

ـ تكلم بكل ثقة ودون خوف. أرى أنك لم تعرفني جيداً بعد. ولا تعرف مدى حرصي في الحفاظ على السر. ولكن عليك أن تعلم أن السيد غاسبارولو دي سوليستو، قاضي فورليمبولي، لم يكن يفعل شيئاً دون أن يطلعني عليه. وكان يجدني حافظاً لأسراره على الدوام. هل تريد أن أثبت لك أنني صادق؟.. لقد كنتُ أول رجل أخبره بأنه سيتزوج من بيرغامينا.. فتخيل!

ـ حسن، هذا جيد ـ قال برونو ـ إذا كان ذلك القاضي يثق بك، فإنني أستطيع الوثوق

بك أيضاً. وما يتوجب عليك عمله هو التالي: لدينا في جماعتنا قائد له مستشاران، وهم يتبدلون كل ستة شهور. ومن المؤكد أن بوفالماكو سيصير القائد منذ مطلع الشهر القادم، وسأكون أنا مستشاراً، وهذا أمر مقرر. ومن يكون قائداً يتمتع بسلطة كبيرة في إدخال وضم من يشاء إلى الجماعة. ولهذا أرى أن تبادر بأسرع ما يمكن إلى مصادقة بوفالماكو وتكريمه لتنال تقديره ورضاه. وعندما يرى أنك رجل عليم وذكي سيُعجب بك، وعندئذ تستطيع بحكمتك وهداياك الجيدة أن تلينه بعض الشيء. وبعد ذلك تتقدم إليه بطلبك، فلا يستطيع أن يرفضه. لقد حدثته عنك وهو يقدرك كثيراً، فافعل ما قلته لك، وسأقوم أنا بترتيب الباقي.

وهنا قال له المعلم:

ـ ما تقوله يناسبني تماماً، لاسيما أنك تؤكد لي أنه يحب الرجال الحكماء والأذكياء: لأنه ما إن يتعرف عليّ، حتى يبدأ بمطاردتي والبحث عني طوال الوقت ليستفيد من ذكائي الذي يكفي مدينة بكاملها

وبعد اتفاقهما على كل التفاصيل. ذهب برونو إلى بوفالماكو وأخبره بما دبره؛ وقال له إنه متلهف لتأمين ما يريده الطبيب. أما الطبيب الذي كان يتلهف حقاً للقيام بقرصنة، فلم يهدأ له بال إلى أن صادق بوفالماكو، وهو ما تحقق له بسهولة. وبدأ يقيم له أفخر الولائم، وبرونو يرافقه، وصارا يتصرفان كسيدين مهمين، يشربان الأنبذة الجيدة. ويأكلان الديوك المسمنة وأشياء أخرى كثيرة، ولا يفارقان الطبيب. ودون أن ينتظرا دعوته لهما، يظلان معه طوال الوقت. ويقولان إنهما لا يقبلان البقاء عادة مع شخص آخر سواه. وعندما رأى الطبيب أن الوقت صار مناسباً، طلب من بوفالماكو ما كان قد طلبه من برونو. فأبدى بوفالماكو غضباً شديداً، وتوجه إلى برونو بهياج ونزق قائلاً له

ـ أقسم برب باسينيانو الأعلى إنني لا أعرف، أيها الخائن، كيف أصبر ولا أضربك على رأسك، وأجعل أنفك عند كعبك. فأنت، ولا أحد سواك من كشف عن هذه الأمور السرية للمعلم.

فراح الطبيب يعتذر بكل السبل، ويقسم ويقول إنه علم بذلك من شخص آخر، وإنه لا علاقة لبرونو بهذه المسألة. وبعد الكثير من كلامه الذكي والحكيم تمكن من تهدئة بوفالماكو الذي التفت إلى الطبيب وقال له:

ـ يبدو واضحاً أيها المعلم أنك كنت في بولونيا، وأنك جئت من تلك المدينة وقد تعلمت التكتم وإطباق فمك. بل أرى أنك لم تتعلم الأبجدية هناك على تفاحة، مثلما يفعل كثير من البلهاء، وإنما تعلمتها جيداً على بطيخة، وهي أطول بكثير. وإذا صدق تخميني، فلا بد أن تكون قد تعمدت في يوم أحد. ومع أن برونو قد أخبرني بأنك درست هناك الطب، إلا أنني أرى أن ما تعلمته هو ترويض الرجال، فأنت أفضل من رأيته يتقن هذا العمل بذكائك وكلامك الحكيم.

فقاطعه الطبيب، متوجهاً بالكلام إلى برونو:

ـ آه، يا لروعة التحدث والتعامل مع الحكماء! من الذي استطاع أن يدرك كل مزاياي بالسرعة التي توصل إليها هذا الرجل؟.. أنت نفسك يا برونو لم تدرك قيمتي ومزاياي بمثل هذه السرعة. ولكن، ما رأيك بتصرفي، ألا ترى أنني تصرفت بحكمة؟..

فأجابه برونو:

ـ بل بأقصى ما في العالم من حكمة.

عندئذ قال المعلم لبوفالماكو:

ـ لا بد أنك كنت ستقدرني أكثر لو أنك رأيتني في بولونيا، حيث لم يكن هناك كبير أو صغير، دكتور أو دارس، إلا وقدرني أشد تقدير في الدنيا، حتى إنهم كانوا يسعون إلى التعلم من تعقلي وحكمتي. بل أقول لك أكثر من ذلك، فلم أكن أنطق بكلمة إلا وأُضحك الجميع. فقد كانوا يبتهجون كثيراً بأقوالي. وعندما غادرت تلك المدينة بكى الجميع بكاء مريراً، وكانوا يريدونني أن أبقى معهم هناك. ولكنني لم أستجب لرغبتهم، لأنه كان عليّ المجيء إلى هنا لتلقي الميراث الذي خلفته لي أسرتي.

عندئذ قال برونو لبوفالماكو:

ـ ما رأيك الآن؟.. فأنت لم تصدقني عندما أخبرتك. أقسم بالإنجيل أنه لا وجود في هذه المدينة لطبيب يفهم في بول الجحاش مثل هذا الطبيب، ومن المؤكد أنك لن تجد له مثيلاً من هنا حتى باريس! لا يمكنك أن تنكر مزايا شخص مثله!

فقال الطبيب:

ـ كل ما يقوله برونو صحيح، فالحقيقة إنني لا ألقى التقدير المناسب لأنني أتعامل مع أناس جهلة. ولكنني حين أكون بين الدكاترة، أتألق وأبرز.

وهنا قال بوفالماكو:

ـ الحقيقة إنك تعرف أيها المعلم أكثر بكثير مما كنت أظنه، ولهذا سأتحدث إليك بما يليق بالحكماء. وأقول لك إنني سأتمكن من ضمك إلى جماعتنا ببساطة شديدة.

تضاعف تكريم الطبيب لهما بعد هذا الوعد أضعافاً مضاعفة، وكانا يتلاعبان به، فيعدانه بأن يقدما له كونتيسة شيفيلاري، وهي أجمل امرأة يمكن العثور عليها بين كل مستهترات الجنس البشري. فسألهم الطبيب من تكون هذه الكونتيسة؛ فأجابه بوفالماكو:

ـ إنها سيدة مهيبة، يا خيارتي الذكية، وقليلة هي أشياء هذا العالم التي لا تكون لها سلطة عظيمة عليها. وسأكتفي بالقول لك إن صغار الكهنة يقدمون لها الولاء بالنقر على الدفوف. ويقال إنها عندما تسير في الشارع يشعر بها الجميع، بالرغم من كل التكتم الذي يحيط بها. لقد مرت منذ وقت قريب من أمام باب بيتي ليلاً، وهي في طريقها إلى نهر أرنو لغسل قدميها واستنشاق بعض الهواء؛ ولكن إقامتها شبه الدائمة هي في ليترينا. وأينما اتجهت يحيط بها عرفاء الحرس الذين يُظهرون رفعتهم بحملهم قضيباً وبيضة. وباروناتها منتشرون في كل مكان، منهم، والسيد روث، منهم السيد ذراع المكنسة، والبارون إسهال، والثقب المفتوح وغيرهم، وأظن أنك تعرفهم جميعاً، ولكنك لا تتذكرهم الآن. هذه السيدة العظيمة هي التي سنضعها بين ذراعيك الحانيتين، عندئذ لن تعود إلى التفكير في كاكافينشيلي.

لم يكن الطبيب الذي ولد وترعرع في بولونيا يفهم شيئاً من التسميات التي يقولها له باللهجة الفلورنسية، ولكنه ابتهج بما سمعه عن المرأة. وبعد وقت قصير من هذه الوقائع، أخبره النقاشان بأنه قد قُبل في الجماعة. وعندما حلّ يوم الاجتماع الليلي، دعاهما المعلم لتناول الغداء، ثم سألهما بعد الانتهاء من الطعام عن الطريقة التي عليه اتباعها للالتحاق بالجماعة، فقال له بوفالماكو:

ـ انظر أيها المعلم، يجب أن تذهب مبتهجاً، وإلا فإنك ستواجه عقبات وتُلحق بنا ضرراً كبيراً. وسأخبرك بطريقة للوصول مبتهجاً إلى الاجتماع. عليك أن تذهب في بداية الليل،

وتقف على أحد القبور العالية خارج كنيسة سانتا ماريا لانويفا. وتكون مرتدياً إحدى أفضل بدلة لديك، لكي تظهر أول مرة أمام الجماعة بمظهر لائق. ولأنك رجل نبيل كما قيل «ونحن لم نكن هناك» فإن السيدة الكونتيسة تفكر في ترسيمك فارساً مبللاً. وانتظر هناك فوق القبر إلى أن يأتيك رسولنا. ولكي تكون مطلعاً على كل شيء، فإنني مخبرك بأن بهيمة سوداء ذات قرون وغير كبيرة الحجم ستأتي إليك، وتحاول إخافتك بالقفز وبإطلاق زفرات مرعبة. وعندما يتبين لها أنك غير خائف، ستقترب منك بوداعة. وحين تصير بجانبك، عليك أن تنزل عن القبر دون خوف، وتمتطيها دون أن تذكر الرب أو القديسين. وعندما تستقر على متنها، ضع يديك على صدرك، وإياك أن تلمس البهيمة بهما. عندئذ ستتحرك هي بهدوء وتوصلك إلينا. ولكنني أحذرك منذ الآن بأنك إذا ما تذكرت الرب أو القديسين، أو شعرت بخوف، فإنها ستلقي بك أرضاً وترفسك. ولهذا إذا كان قلبك يحدثك بأنك ستشعر بالرهبة، فلا تذهب؛ لأنك ستؤذي نفسك، وستُلحق بنا ضرراً كبيراً.

وهنا قال الطبيب:

ـ أنتما لم تعرفاني بعد. لو أنكما تعلمان بما كنت أفعله في بولونيا ليلاً، عندما كنت أخرج بحثاً عن نساء مع أصدقائي، لأصابكم الذهول والعجب. ففي إحدى الليالي رفضت إحداهن المجيء معنا (وكانت أكثر من تعسة، لا تعلو شبراً عن الأرض) فوجهت إليها أولاً لكمات كثيرة، ثم حملتها عالياً ورميتها مثلما يُرمى السهم من القوس، فبدلت رأيها في الحال وجاءت معنا. وفي ليلة أخرى، أتذكر أنه لم يكن معي سوى خادم، مررت بجانب مقبرة سغار الكهنة؛ وكانوا قد دفنوا امرأة هناك في ذلك اليوم بالذات، ولم أشعر بأي خوف. فدعكما من هذه المخاوف، وثقا بي، فأنا جسور جداً لا أعرف الخوف. وكي أبدو في مظهر مشرف، أقول لكما إنني سأرتدي البدلة القرمزية التي تخرجتُ بها دكتوراً، وستريا كيف أن الجماعة ستبتهج عندما تراني، وستختارني قائداً لها في الحال. وسوف تريا كيف ستكون الأمور عندما أصل هناك، خاصة أن هذه الكونتيسة قد أغرمت بي قبل أن تراني، وهي تريد أن ترسّمني فارساً. ألا يناسبني أن أكون فارساً؟.. ألست أهلاً لتحمل هذه المسؤولية؟..

فقال له بوفالماكو:

ـ لقد أحسنت القول يا معلم. ولكن حذار أن تسخر منا وتتخلف عن المجيء إلينا، أو ألا يجدك رسولنا حيث عليك أن تنتظر، وأنا أقول لك هذا لأن الجو بارد، وأنتم السادة الأطباء تدارون أنفسكم كثيراً من البرد.

ـ لا قدر الله! ـ قال الطبيب ـ أنا لست من أولئك الذين يخشون البرد، لأن البرد لا يهمني؛ فكثيراً ما أنهض في الليل للتبرز، مثلما يضطر أحدنا لعمل ذلك أحياناً؛ فلا أرتدي سوى معطف فرو فوق منامتي. ولهذا لن يمنعني أحد أو شيء من الانتظار هناك.

ومع حلول الليل، وجد المعلم حجة يقولها لزوجته كي يغادر البيت، وحمل رداءه القرمزي الفاخر خفية، وعندما بدا له مناسباً، ارتداه وصعد على أحد المدافن العالية. وبدأ ينتظر البهيمة الموعودة متكوراً على نفسه فوق المرمر، لأن البرد كان قارساً. ووضع بوفالماكو، وكان طويلاً ضخم الجسم، واحداً من تلك الأقنعة التي كانوا يستخدمونها في الألعاب، ولم يعودوا يصنعونها اليوم. ووضع على ظهره فرواً أسود بحيث يبدو مثل دب، مع أن القناع كان لوجه شيطان ذي قرنين. ومضى وهو بهذه العدّة نحو ميدان سانتا ماريا لانويفا، ووراءه برونو ليرى كيف ستسير الأمور. وعندما رأى السيد الطبيب ينتظر هناك، بدأ يتقافز قفزات واسعة في الساحة، يلهث ويهمهم كما لو أن به مساً شيطانياً. وما إن رآه المعلم وسمعه حتى انتصبت كل شعرة في بدنه، وصار يرتجف كمن هو أشد خوفاً من امرأة، وتمنى في إحدى اللحظات لو أنه في بيته وليس في ذلك المكان. ولكن، بما أنه كان هناك، فقد حاول جاهداً أن يبدي الشجاعة، لاسيما أنه كان راغباً في التمكن من رؤية العجائب التي حدثاه عنها. وبعد أن قام بوفالماكو بتلك الحركات الشيطانية لبعض الوقت، تظاهر بالهدوء، واقترب من المدفن الذي صعد إليه المعلم، ووقف ساكناً. ولم يدر المعلم الذي كان يرتجف من الخوف إذا ما كان عليه أن يركب الدابة أم يبقى مكانه. وأخيراً، خشي أن تسبب له أذى إذا هو لم يمتطها، فتغلب خوفه الثاني على خوفه الأول، ونزل عن المدفن وهو يقول بصوت خافت: «فليكن الرب في عوني!» وامتطى البهيمة. وبعد أن استقر فوقها وهو يرتجف، قاطع يديه على صدره مثلما قيل له. وعندئذ بدأ بوفالماكو بالتوجه نحو سانتا ماريا ديلا سكالا، ووصل إلى دير ريبولي للراهبات. وكانت في ذلك الحي حفر يلقي فيها الفلاحون كونتيسة شيفيلاري ـ أي البراز ـ من أجل تسميد حقولهم. اقترب بوفالماكو من إحدى تلك الحفر، ووضع يده تحت إحدى قدمي الطبيب وقفز ملقياً

به على رأسه في الحفرة، ثم راح يزمجر ويتقافز كمن به مس من الشيطان. وانطلق باتجاه سانتا ماريا ديلا سكالا حيث التقى ببرونو الذي كان قد تراجع مبتعداً لأنه لم يستطع كبح ضحكه. احتفل الاثنان بفعلتهما، وهما يراقبان من بعيد ما يفعله الطبيب الغارق في الروث.

عندما وجد السيد الطبيب نفسه في ذلك المكان البغيض، بذل جهده في النهوض ومحاولة الخروج، ولكنه كان يسقط ثانية، ويغطس من قدميه حتى رأسه، فيبتلع في كل مرة بضع غرامات من البراز، إلى أن تمكن من الخروج بعد عناء وجهد كبيرين، تاركاً هناك رداءه القرمزي. فنظف نفسه بيديه كيفما استطاع، ورجع إلى بيته حيث اضطر إلى طرق الباب طويلاً قبل أن يفتحوا له. وما إن دخل وهو يعبق بتلك النتانة، وأغلق الباب خلفه، حتى كان برونو وبوفالماكو هناك ليسمعا كيف سيكون استقبال المعلم من جانب زوجته. فسمعا المرأة توجه له أقسى الشتائم التي لم يسمع بها أي عاثر حظ من قبل، قائلة له:

ـ يا لروعة ما أنت فيه! ذهبت إلى امرأة أخرى وأردت الظهور متأنقاً بعباءتك القرمزية. ألا أكفيك أنا؟.. عليك أن تعلم أنني أكفي لحي بكامله وليس لك وحدك. ليتك غرقت حين ألقوا بك في المكان الذي تستحقه! هاهوذا الطبيب الذي لديه امرأة ويمضي في الليل بحثاً عن نساء غريبات!

ظل الطبيب يغتسل وهو يسمع هذه الكلمات وغيرها حتى منتصف الليل، دون أن تصمت زوجته عن تعذيبه. وفي صباح اليوم التالي، طلى برونو وبفالماكو جسديهما بلطخات بنفسجية، كأنها كدمات من ضرب تلقياه. وجاءا إلى بيت الطبيب، فوجداه وقد استيقظ. وعندما خرج للقائهما، لاحظا أن الرائحة الكريهة مازالت تنبعث منه. وبادرهما الطبيب بتحية الصباح، فرد عليه برونو وبوفالماكو وهما يومئان بنزق:

ـ لن نرد عليك بالقول طاب صباحك، وإنما نرجو من الله أن يلحق بك نكبة الموت بالسيف، لأنك أكبر خائن وغادر رأيناه. لقد أردنا أن نكرمك ونقدم لك المتعة، فكدنا أن نموت كالكلاب. فبسبب خيانتك وعدم وفائك ضربونا هذه الليلة ضرباً مبرحاً لو تلقاه حمار لوصل إلى روما؛ دون ذكر أننا كنا على وشك أن نُطرد من الجماعة التي سعينا جاهدين لضمك إليها. وإذا كنت لا تصدقنا، فانظر إلى جسدينا كيف هما.

وعلى الضوء الخافت هناك، فتحا ملابسهما وأرياه صدريهما الملطخين، وسارعا إلى

تغطيهما فوراً. حاول الطبيب أن يعتذر ويتكلم عن نكباته، وكيف وأين ألقي به، فقال له بوفالماكو:

ـ كنت أتمنى لو ألقي بك إلى نهر أرنو من فوق الجسر. لماذا ذكرت اسم الرب والقديسين؟.. ألم نحذرك من ذلك قبلاً؟..

فقال الطبيب إنه لا يتذكر ذلك في الحقيقة.

وقال بوفالماكو:

ـ كيف! ألا تتذكر؟.. لقد ذكرتهم، وهو ما أخبرنا به مبعوثنا، وأخبرنا أنك كنت ترتجف مثل قصبة، ولا تدري أين أنت من الخوف. لقد أسأت التلاعب بنا، ولكننا لن نسمح لأحد أن يتلاعب بنا بعد اليوم، ولن نمنحك أنت أو غيرك فرصة أخرى.

توسل إليهما الطبيب بحق الرب أن يسامحاه، وألا يشوها سمعته، وسعى إلى تهدئتهما بألطف ما يستطيعه من كلام. ولخوفه من أن يشهرا به ويسببا له العار، صار يكرمهما أكثر من السابق، ويدعوهما لتناول الطعام، ويهدي إليهما أشياء كثيرة. وهكذا، مثلما سمعتم، يجري تعليم من لم يتعلم ما يكفي في بولونيا.

القصة العاشرة

امرأة صقلية تنتزع بمهارة من تاجر ما حمله معه من بضاعة إلى باليرمو، فيتظاهر بأنه رجع مرة أخرى ومعه بضائع أكثر من المرة الأولى، فيستدين منها نقوداً، ويدفع لها ماء وطيناً.

لا حاجة للسؤال عن مقدار ضحك السيدات من القصة التي روتها الملكة، إذ لم تبق واحدة منهن إلا وسالت دموعها من شدة الضحك. وبعد أن انتهت القصة، أدرك ديونيو أن دوره قد جاء، فبدأ قصته بالقول:

ـ من الجلي يا سيداتي اللطيفات، أن الحيلة تكون مسلية أكثر عندما تكون موجهة إلى محتال بارع. ومع أن كل القصص التي رويتموها كانت جيدة، إلا أنني سأروي قصة

أفضل من بعض ما روي، لأن المخدوع هو شخص كان بارعاً في خداع الآخرين والسخرية منهم، فاستحق السخرية أكثر من كل من تحدثتم عنهم.

من المعهود في المدن البحرية التي فيها مرفأ، أن ينقل التجار ومعهم بضائعهم إلى مخزن يسمونه في أماكن كثيرة «الجمرك»، يكون تابعاً للبلدية أو لحاكم المدينة. وهناك يُبلغ التجارُ الموظفين المسؤولين عن ذلك المكان، كتابة، بمحتوى بضاعتهم وقيمتها. ويقدم هؤلاء الجمركيون للتاجر عنبراً يضع فيه بضاعته ويغلقه بمفتاح. ويدون الجمركيون في سجل الجمرك تلك البضاعة كلها في حساب التاجر، ويطالبونه بعد ذلك بتسديد الضرائب المترتبة على البضاعة كلها أو على ما يسحبه التاجر منها خارج مستودع الجمرك. ومن خلال هذه السجلات الجمركية، كان الوسطاء والسماسرة يطلعون على نوعية البضائع الموجودة هناك وكمياتها؛ كما يطلعون على ما يطرأ عليها من تبدلات في عمليات البيع والشراء والمقايضة وغيرها. وكان هذا النظام شائعاً ـ كما في أماكن كثيرة أخرى ـ في مدينة باليرمو الصقلية، حيث كانت هناك ـ ولا تزال ـ نساء كثيرات جميلات الأجساد، ولكنهن قليلات النزاهة والشرف؛ إلا أنهن يظهرن لمن لا يعرفهن على أنهن سيدات عظيمات وشريفات. وكن متفرغات ليس لحلاقة رؤوس الرجال، وإنما لسلخ جلودها بالكامل؛ فما إن يرين تاجراً غريباً هناك، حتى يستعلمن من سجل الجمارك عما يملكه وعما يمكنه أن يحقق من الأرباح، ثم يعمدن بعد ذلك، بأساليبهن اللطيفة والغرامية وكلامهن المعسول، إلى إغواء التاجر وإيقاعه في حبهن. وقد اجتذبن تجاراً كثيرين واستولين على جزء كبير من بضائعهم، أو على بضاعتهم كلها، وحتى على سفن بعضهم ولحمهم، وتركنهم عظماً معروقاً، لاسيما عندما تعرف الحلاقة كيف تمرر سكينها بنعومة شديدة.

وحدث منذ زمن غير بعيد أن وصل إلى هناك، مبعوثاً من رؤسائه التجار، شابٌ فلورنسي يدعى نيكولو دي سينانو، ولكنه مشهور باسم سالابيتو. وكان يحمل معه أقمشة صوفية سُلمت إليه في سوق ساليرنو، تقدر قيمتها بنحو خمسمئة فلورين ذهبي. وبعد إيداعها في مخازن الجمرك، وفق الإجراءات المعروفة، لم يتعجل في بيعها، وإنما راح يجوب المدينة ويتعرف عليها. ولأنه كان أبيض البشرة، أشقر الشعر، وسيم القسمات وجميل القوام؛ وبعد أن سمعت واحدة من أولئك النسوة الهمجيات بعض أخباره، وتدعى

مادونا بيانكافلوري، وضعت عينها عليه. وقد انتبه هو إلى ذلك، فقدر أنها سيدة عظيمة، وظن أنها قد أُعجبت بوسامته، وفكر في نيل حبها. ودون أن يخبر أحداً بأي شيء، بدأ يتمشى أمام بيتها. ولاحظت هي ذلك، فانتظرت إلى أن أوقعته تماماً بنظراتها، متظاهرة بأنها تتحرق شوقاً إليه. ثم أرسلت إليه، سراً، امرأة تعمل في خدمتها وتتقن فنون الخداع، لتقول له بعد كثير من الكلام والدموع في عينيها، إنه قد أوقع سيدتها بجماله ولطفه. وإنها مفتونة به ولا تجد سبيلاً إلى الراحة في الليل والنهار. وإنها راغبة في اللقاء به سراً، عندما يستطيع، في أحد الحمامات. ثم أخرجت خاتماً من جرابها، وقدمته إليه هدية من سيدتها. حين سمع سالابيتو هذا الكلام، أحس أنه أسعد رجل في الدنيا؛ فتناول الخاتم وفرك به عينيه وقبله، ثم وضعه في إصبعه. وقال لها إنه إذا كانت مادونا بيانكافلوري تحبه، فإنه يحبها أكثر من حياته، وإنه مستعد للذهاب إليها بكل سعادة في الوقت الذي تريده هي.

عادت الرسولة إلى سيدتها بهذا الجواب، ثم نقلت فوراً إلى سالابيتو الخبر بأن عليه أن ينتظر السيدة في اليوم التالي، في حمّام حددته له. وتوجه هو، سراً، في الموعد المحدد إلى ذلك المكان، فوجد أن السيدة قد استأجرت قاعة الحمام كلها. وما كاد يدخل حتى ظهرت جاريتان زنجيتان تحمل إحداهما فرشة محشوة بالقطن، وتحمل الثانية سلة كبيرة مملوءة بأشياء متنوعة. فوضعتا الفراش على سرير في إحدى حجرات القاعة، وفرشتا فوقها ملاءتين من الحرير، وغطاء قبرصياً ناعماً، ووسادتين مطرزتين تطريزاً بديعاً؛ ثم تعريتا ودخلتا الحمام، فكنستاه ونظفتاه على أحسن وجه. وبعد قليل من ذلك، جاءت السيدة إلى الحمام تتبعها جاريتان أخريان؛ ولم تدخر حفاوة إلا وأظهرتها بسالابيتو. وبعد زفرات وتنهدات عظيمة، وبعد معانقات وقبلات، قالت له:

ـ ما كان لأحد سواك أن يدفعني إلى هذا الذي أقوم به. ولكنك أشعلت روحي أيها الفتى التوسكاني.

بعد ذلك، عندما رغبت هي، تعريا ودخلا الحمام، ودخلت معهما الجاريتان. ولم تسمح هناك لأي منهما أن تلمسه، بل قامت هي نفسها بفرك جسده بصابون مسكي، وبعطر له رائحة القرنفل. فغسلت سالابيتو كله على أحسن وجه؛ ثم جعلت جاريتيها تغسلان جسدها وتعطرانه. وبعد هذا، أحضرت الجاريتان ملاءتين ناصعتي البياض

وناعمتين، تفوح منهما رائحة الورد، حتى كأنهما منسوجتان من زهر الورود، فلفتا سالابينو بإحداهما والسيدة بالأخرى، ثم أمسكتا بيديهما واقتادتاهما إلى السرير المهيأ. وبعد أن تعرقا قليلاً، رفعت الجاريتان الملاءتين عنهما، فظلا عاريين على السرير. وأخرجا من السلة قوارير فضية بديعة، بعضها مملوء بماء الورد، وغيرها بماء زهر البرتقال أو الياسمين، وسكبا كل تلك العطور على جسديهما. ثم أخرجا علب حلوى وأنبذة فاخرة، وتناولا منها ما ينعشهما ويعيد إليهما النشاط. بدا لسالابيتو أنه في الجنة؛ ولم يتوقف عن النظر إلى المرأة التي بدت لعينيه باهرة الحسن حقاً، وكان يتمنى أن تنصرف الجاريتان ويتركانهما وحيدين، كي يتمكن من ضمها بذراعيه. فكانت كل لحظة تمر تبدو له مئة سنة. وأخيراً، تركت الخادمتان شعلة مضاءة في الحجرة، وانصرفتا بطلب من السيدة التي عانقت سالابيتو، وعانقها هو. وظلا في تلك المعانقات وقتاً طويلاً، وسالابيتو في غاية النشوة وهو يشعر أنها تذوب حباً به. ولكن السيدة رأت أن الوقت قد حان للنهوض، فاستدعت الجاريتان، وارتديا ملابسهما، ثم شربا النبيذ وأكلا الحلوى من جديد ليتنشطا قليلاً. وبعد أن تعطرا بالسوائل العطرية، قالت السيدة لسالابيتو وهي تستعد للذهاب:

- إذا كنت راغباً، فإنني سأكون سعيدة بمجيئك هذه الليلة للعشاء والنوم معي.

فأجابها سالابيتو المفتون بجمالها وأساليبها اللطيفة، معتقداً أنه صار لها بمثابة القلب في الجسد العاشق:

- كل ما ترغبين فيه يا سيدتي هو مصدر سعادة لي، وأنا مستعد هذه الليلة، وكل ليلة تشائينها، أن أفعل ما تريدين وما تأمرينني به.

رجعت السيدة إلى بيتها، وزينت مخدعها بالستائر والزينات، وأمرت بإعداد عشاء فاخر، وراحت تنتظر سالابيتو. وما إن بدأ الظلام يخيم، حتى حضر واستُقبل بسعادة وحفاوة، فتناول العشاء مع السيدة محاطين بأجواء احتفالية وخدمة مترفة. وعندما دخل حجرة النوم، استقبلته رائحة الزنبق. ورأى السرير مزداناً بأقمشة وملاءات قبرصية فاخرة، وبستائر بديعة أخرى تتدلى من عوارض السقف؛ فجعلته كل تلك الأشياء مجتمعة، وكل واحدة منها على انفراد، يفكر في أن تلك المرأة هي سيدة ثرية وعظيمة المقام دون ريب. وبالرغم من أنه كان قد سمع آراء مختلفة عن حياتها وعاداتها، إلا أنه لم يشأ أن يصدق شيئاً من ذلك؛ وحتى لو توصل إلى تصديق بعض تلك الآراء، فإنه سيسخر منها، لأنه لا

يستطيع أن يصدق وقوعه في مثل تلك الأمور. وقد ازداد صبابة بها بعد ما ناله من المتع في تلك الليلة معها. وفي الصباح، أهدت إليه حزاماً فضياً وجراباً بديعاً، وقالت له:

ـ حبيبي سالابيتو، أقدم لك هذه الأشياء لتبقى لديك ذكرى مني. وأضع نفسي في خدمتك لأكون أنا وكل ما أملك، وكل ما أقدر عليه، تحت تصرفك ورهن إشارتك.

غمرت البهجة سالابيتو، فعانقها وقبّلها بعذوبة، ثم غادر البيت وذهب إلى حيث يجتمع التجار عادة. وصار يذهب إليها كل يوم دون أن يكلفه ذلك شيئاً، فكان يزداد ولعاً وافتتاناً بها. وحدث في أحد الأيام أن باع كل بضاعته من الأقمشة وقبض الثمن نقداً، محققاً بذلك أرباحاً محترمة. وقد علمت المرأة بذلك فوراً، ليس منه شخصياً، وإنما من خلال آخرين. وعندما ذهب سالابيتو في مساء أحد الأيام لزيارتها في بيتها، راحت تمازحه وتقبله، مبدية هيامها به أكثر من أي وقت آخر. وأرادت أن تهدي إليه كأسين فضيين تملكهما، لكن سالابيتو رفض أخذهما، ولا سيما أنه كان قد تلقى منها هدايا تصل قيمتها إلى ثلاثين فلوريناً ذهبياً، دون أن يتمكن من جعلها تقبل منه شيئاً ولو كانت قيمته بضعة قروش. وأخيراً، بعد أن أغرقته في هواها، مظهرة أنها مدهلة في حبه ومتعلقة به، استدعتها إحدى خادماتها، وفق خطة أعدتها مسبقاً. فخرجت من المخدع وغابت قليلاً في الخارج، ثم رجعت باكية وألقت بنفسها على السرير بيأس؛ وراحت تطلق أشد الزفرات والحسرات مرارة. تعجب سالابيتو مما يرى، فاحتضنها بذراعيه وأجهش معها في البكاء وهو يقول لها:

ـ آه، يا قلب جسدي، ما الذي أصابك فجأة؟.. ما سبب هذه الأحزان؟.. أخبريني.. ما الذي جرى يا حياتي!

وبعد أن دفعته المرأة إلى كثير من التوسل والإلحاح، قالت له:

ـ آه يا سيدي الحبيب! لا أدري ما الذي أستطيع عمله أو قوله. لقد تلقيت للتو رسالة من ميسينا، وفيها كتب لي أخي أنه عليّ أن أرسل له ألف فلورين ذهبي، حتى لو اضطرني ذلك إلى بيع أو رهن كل ما أملك. وإذا لم يصله المبلغ قبل ثمانية أيام، فسوف يُقطع رأسه. ولست أدري كيف سأحصل على المبلغ في مثل هذا الوقت القصير؛ فلو كان لدي خمسة عشر يوماً على الأقل لاختلف الأمر، ولاستطعت إحضار المال من مكان أحتفظ فيه بأكثر من هذا المبلغ بكثير، أو وجدت الوقت لبيع بعض ممتلكاتي. ولكنني لا أستطيع

عمل ذلك في هذا الوقت القصير. وكم أتمنى لو أنني مت قبل أن أتلقى هذا الخبر المشؤوم.

كانت تقول هذا مظهرة أشد الحزن والأسى، ودون أن تتوقف عن البكاء. فما كان من سالابيتو الذي سلبه لهيب الحب شطراً كبيراً من وعيه، إلا أن صدق تلك الكلمات والدموع، وقال:

ـ سيدتي، لا أستطيع أن أقدم لك ألف فلورين، ولكن لدي خمسمئة فلورين ذهبي يمكنني تقديمها إليك، إذا كنت تستطيعين إعادتها إليّ خلال خمسة عشر يوماً. فقد شاء حسن الطالع أن أبيع أقمشتي يوم أمس تحديداً، ولولا ذلك لما كان لدي قرش واحد أقدمه لك.

ـ آه يا حبيبي! ـ قالت المرأة ـ أكنت تعاني ضيقاً في المال؟.. ولماذا لم تطلبه مني؟.. وإذا كنتَ لا تملك ألف فلورين، فقد كنت سأقبل أن أقترض منك مئة أو مئتين. ولكن سلوكك في عدم الطلب مني، سلبني الجرأة والثقة في قبول ما تعرضه عليّ.

اشتد حزن سالابيتو وضيقه حين سمع هذا الكلام، وقال لها:

ـ لا تتضايقي يا سيدتي؛ فلو أنني احتجت إلى المال في قضية حرجة مثلما هي حالك الآن، لما ترددتُ في طلبه منك.

ـ آه يا سالابيتو قلبي ـ قالت السيدة ـ أعرف حق المعرفة أن حبك صادق وحقيقي، فهاأنتذا تعرض عليّ المبلغ الكبير الذي تملكه لتخرجني من ضيقتي، دون أن تنتظر أن أطلب منك ذلك. صحيح إنني كنتُ لك ورهن إشارتك من قبل، ولكنني سأكون أكثر بعد عرضك هذا، وسأظل مدينة لك إلى الأبد بإنقاذ رأس أخي. والله يعلم مدى استيائي من أخذ هذه النقود، لأنني أعلم أنك تاجر، والتجار بحاجة إلى المال في أعمالهم. لكن ضغط الحاجة عليّ، ويقيني بأنني سأعيد المبلغ إليك في أسرع وقت، يدفعانني إلى قبوله. أما بقية المبلغ، فسوف أحاول الحصول عليه بسرعة، وإلا فإني سأرهن ممتلكاتي هذه كلها.

قالت هذا وهي تذرف مزيداً من الدموع، وانهارت على وجه سالابيتو الذي راح يواسيها بكل السبل. وأمضى الليل معها كي يظهر لها مدى تعاطفه معها، واستعداده لخدمتها. ودون أن ينتظر طلباً منها، حمل إليها في اليوم التالي الخمسمئة فلورين ذهبي، فأخذتها وهي تضحك في قلبها وتبكي بعينيها، واكتفى سالابيتو بمجرد وعد منها بإعادة النقود.

ما إن صارت النقود بحوزة المرأة حتى تبدلت الأمور تبدلاً جذرياً. فالزيارات التي كانت متاحة كلما رغب سالابيتو بها، صارت تواجه بعقبات، وبدأت تظهر أسباب تحول دونها. ومن سبع محاولات لزيارتها، لم يتمكن من الدخول إلا مرة واحدة. ولم يكن اللقاء حاراً تتخلله الحفاوة والمداعبات كما في السابق. وبعد مرور شهر على موعد استرداد النقود، ثم شهر آخر، وهو يقابل بعبارات مبهمة، أدرك سالابيتو خدعة المرأة الخبيثة، وضعف عقله وقلة فطنته. وعرف أنه لا يستطيع عمل أي شيء قانونيا، لأنه لا يملك أي وثيقة أو شهادة مكتوبة. ولم يجد سوى التحسر على ما أصابه بسبب غبائه، دون أن يجرؤ على إخبار أحد بذلك، خشية أن يسخر التجار الآخرون من غفلته، لاسيما أنهم حذروه مسبقاً. وبعد أن تلقى عدة رسائل من رؤسائه يطلبون منه فيها إرسال النقود إليهم، وهو لا يدري كيف سيعود إليهم دون أن تُكتشف خطيئته، قرر الذهاب وصعد إلى سفينة، ولكن ليس إلى بيزا، وإنما إلى نابولي. وكان يعيش هناك في ذلك الحين صديقنا بيترو دي كانيجيانو، خازن السيدة إمبراطورة القسطنطينية. وكان رجلاً ذكياً وكبير المواهب، وصديقاً حميماً لسالابيتو وذويه. ولأنه رجل شديد التكتم والرصانة، فقد أخبره سالابيتو بعد أيام بمغامرته التعسة، وطلب منه النصح وكيف يمكنه تأمين سبل عيشه في نابولي، لأنه لا يفكر في العودة إلى ذويه في فلورنسا. أحزنت هذه الأمور كانيجيانو، وقال له:

ـ لقد أسأت التصرف، وتنكرت لمبادئك ومبادئ معلميك، وبددت مبلغاً كبيراً من المال دفعة واحدة بتهور. ولكن ما حدث قد حدث، ولا بد من التفكير في حلّ.

ولأنه رجل فطن وحكيم، فقد فكر في ما يجب عمله وأخبر به سالابينو؛ فأعجبت هذا الأخير الخطة، وقرر الانطلاق في المغامرة وتنفيذها. وكان لديه بعض المال، وأقرضه كانيجيانو مبلغاً إضافياً، فأوصى بإعداد عدة حزم مربوطة جيداً، واشترى عشرين برميل زيت من الحجم الكبير وملأها، ثم توجه بها ثانية إلى باليرمو. وسلّم هناك للجمارك قائمة بحزم البضاعة، وأخرى مماثلة بالبراميل، وسجل كل تلك الأشياء في حسابه، وأدخلها إلى عنابر المستودع، وقال إنه لا يريد التصرف بها إلى أن تصله بضائع أخرى ينتظرها.

علمت بيانكافلوري بأمر البضاعة، وسمعت أن قيمة ما وصل منها تبلغ ألفي فلورين ذهبي أو يزيد، دون حساب البضائع المنتظرة الأخرى التي تزيد قيمتها على ثلاثة آلاف فلورين، فرأت أنها أخطأت عندما اختارت الصفقة الصغيرة السابقة. وقررت القيام بعملية

أكبر، ولكن بأن تعيد إليه الخمسمئة فلورين كي تتمكن من الحصول على أكبر مبلغ تستطيعه من الخمسة آلاف. وهكذا، أرسلت تستدعي سالابيتو الذي ذهب إليها وهو يبيت نوايا الانتقام. وتظاهرت هي بأنها لا تعرف شيئاً عن بضائعه الجديدة، واستقبلته بحفاوة وبادرته بالقول:

ـ إذا كنتَ غاضباً مني لأني لم أُعد لك نقودك في الموعد المحدد...

فانفجر سالابيتو في الضحك وقال:

ـ الحقيقة إنني استأت قليلاً يا سيدتي، ولكنك تعلمين أنني ما كنتُ لأتورع عن انتزاع قلبي وتقديمه إليك إذا كان ذلك يرضيك. وأريدك أن تعرفي أن حبي لك دفعني إلى بيع معظم ممتلكاتي وأطياني، وجئت إلى هنا ببضائع تزيد قيمتها على ألفي فلورين، وأنتظر أن تصلني من الغرب بضائع أخرى تساوي أكثر من ثلاثة آلاف. وأريد أن أفتتح في هذه المدينة متجراً وأستقر هنا، لأكون قريباً منك إلى الأبد.

فقالت المرأة:

ـ أنظر يا سالابيتو، قرارك هذا يسعدني ويثلج صدري، لأنك من أحبه أكثر من حياتي، وأنا في غاية البهجة بعودتك ونيتك الإقامة والاستقرار هنا، لأنني آمل أن أقضي معك الكثير من الأوقات الممتعة. ولكنني أريد الاعتذار منك قليلاً لأنك حاولت، قبل مغادرتك، المجيء إليّ ولم تستطع، أو جئت ولم تُقابل بما تستحقه من الحفاوة المعهودة؛ كما أنني لم أُعد إليك نقودك في الموعد المتفق عليه. ولابد أن تعلم أنني كنت أشعر في ذلك الحين باستياء وحزن شديدين، لأنني لا أستطيع أن أفي بوعد قطعته لمن أحب، ولا يمكنني بالتالي أن أستقبله مثلما أرغب. إنما عليك أن تعلم أيضاً أنه ليس من السهل على امرأة أن تجد ألف فلورين ذهبي بسرعة. ففي كل يوم يكذب الجميع عليها ولا يوفون بما وعدوا به، فكنت أضطر أنا أيضاً إلى الكذب على الآخرين؛ وهذا هو السبب، وليس أي شيء آخر، هو الذي جعلني عاجزة عن ردّ النقود إليك. غير أنني استطعت الحصول عليها بعد قليل من مغادرتك، ولو أنني أعرف مكان وجودك لأرسلتها إليك بكل تأكيد؛ ولكنني لم أكن أعرف أين أنت، فاحتفظ بها معي.

وأمرت بإحضار كيس فيه النقود نفسها التي قدمها إليها، ووضعته بين يديه قائلة:

ـ عدّها ، وتأكد من أنها خمسمئة.

لم يشعر سالابيتو بمثل تلك السعادة من قبل قط، فعدّ النقود ووجدها خمسمئة. عندئذ خبأها وقال:

ـ إنني متأكد من صدقك يا سيدتي، ولكنك أنجزت وعدك الآن. ولهذا ، أحلفك بالحب الكبير الذي أكنه لك، ألا تتورعي عن طلب أي مبلغ تحتاجينه ، ولسوف أقدم لك كل ما أستطيعه. وعندما أستقر هنا ستتمكنين من اختباري ومعرفة حقيقتي في هذه الأمور.

وهكذا أعاد ترميم حبه لها بالكلام، وبدأ سالابيتو يتردد عليها ويتودد إليها ، فتقدم له أجمل الملذات وتحيطه بأعظم التشريف والتكريم، وتبدي له أعمق مشاعر الحب. لكن سالابيتو كان مصمماً على الرد على احتيالها عليه بخدعة أكبر مما فعلته به. وفي أحد الأيام، دعته لتناول العشاء في بيتها وقضاء الليل معها ، فجاء إليها مغموماً وحزيناً كمن هو راغب في الموت. فعانقته بيانكافلوري وقبلته ، وراحت تسأله عن سبب كآبته. وبعد أن ألحت عليه طويلاً ، قال لها :

ـ إنني على وشك الإفلاس. فقراصنة موناكو احتجزوا السفينة التي تحمل بضاعتي المنتظرة، وهم يطلبون عشرة آلاف فلورين ذهبي مقابل الإفراج عن السفينة ، وعليّ أن أدفع ألف فلورين، هي حصتي من هذا المبلغ. لكنني لا أملك الآن أي شيء من المبلغ المطلوب، لأني أرسلت الخمسمئة فلورين التي أعدتها إليّ، إلى نابولي لأستثمرها في شراء أقمشة تُرسل إليّ من هنا. وإذا ما أردتُ بيع البضاعة المخزونة هنا ، فلن يُدفع لي مقابلها إلا القليل، لأن موسمها لم يحن بعد. وأنا غير معروف هنا بما يكفي لأجد من يقرضني من التجار ، ولهذا لم أعد أعرف ما الذي عليّ عمله أو قوله. وإذا أنا لم أدفع النقود فسوف يرسل القراصنة بضاعتي إلى موناكو، وعندئذ لن أستطيع استعادتها إلى الأبد.

أحست المرأة بالقلق من هذا الكلام، وبدت كمن خسر كل شيء، وفكرت في ما يمكنها عمله كي لا تذهب البضاعة إلى موناكو، وقالت:

ـ الله يعلم كم يؤلمني هذا بسبب حبي لك؛ ولكن ماذا ينفع الحزن والتحسر؟.. ويعلم الله أنه لو كان لدي هذا المبلغ، لكنت أقرضتك إياه فوراً. ولكنني أعرف مرابياً أقرضني الخمسمئة فلورين التي كنت بحاجة إليها ، غير أنه يتقاضى فائدة مرتفعة جداً ، تصل حتى ثلاثين بالمئة. وإذا كنت ستقترضها منه ، لا بد من رهن شيء ثمين. ولو كان الأمر بيدي

لرهنت كل هذه الملابس التي لدي، بل لرهنت نفسي مقابل القرض، من أجل خدمتك. ولكن كيف ستضمن سداد الدين؟..

أدرك سالابيتو، وقد صار خبيراً الآن، السبب الذي يدفعها إلى تقديم هذه الخدمة، وعرف أيضاً أن النقود التي سيقترضها ستكون منها هي نفسها؛ فأسعده ذلك. وبادر إلى شكرها على جهدها من أجله، وقال إنه مضطر إلى القبول بالفائدة الباهظة، لأن الضرورة تضغط عليه؛ ثم قال إن الضمانة التي لديه هي البضاعة المخزونة في الجمرك، وإنه سيسجلها باسم من سيقرضه النقود، ولكنه سيحتفظ معه بمفاتيح المستودع كي يتمكن من عرض بضاعته إذا ما جاءه مشتر، وكي لا يتلاعب بها أحد أو يستبدلها أو ينقلها. فقالت المرأة إنه كلام سليم وضمانة جيدة. وفي صباح اليوم التالي، أرسلت في طلب سمسار تثق به كثيراً، فحدثته في الأمر وأعطته ألف فلورين ذهبي كي يقرضها لسالابيتو، ويسجل باسمه البضاعة التي يملكها سالابيتو في الجمرك. وبعد أن أنجزوا تسجيل الأوراق وتوثيقها ذهب كل امرئ إلى شؤونه. عندئذ ذهب سالابيتو بأسرع ما يستطيع إلى المرفأ، ومعه ألف وخمسمئة فلورين ذهبي، وصعد إلى سفينة توشك أن تُقلع، ليذهب إلى صديقه بيترو كانيجياني في نابولي. ومن هناك، أرسل الحساب كاملاً إلى رؤسائه الذين أرسلوه بالأقمشة، ودفع لبيترو كل ما اقترضه منه، وسدد ديون كل دائنيه. وبعد أن أقام أياماً عديدة مع كانيجياني، وهو يضحك سعيداً بخداعه لتلك المرأة الصقلية، قرر التخلي عن العمل في التجارة، وانتقل للعيش في فيرارا. أما بلانكافلوري، فقد راودتها الشكوك عندما افتقدت سالابيتو ولم تجد له أثراً في باليرمو. وبعد أن انتظرته أكثر من شهرين، استدعت السمسار وذهبت معه للكشف على البضاعة في عنبر الجمرك. فاكتشفا أن ما في البراميل ليس زيتاً وإنما هي مملوءة بماء من البحر، وفي كل واحد منها مقدار صفيحة من الزيت تطفو فوق الماء عند فتحته. وفكا أربطة حزم البضاعة، فوجدا فيها أوباراً وفضلات نسيج، باستثناء اثنتين منها تحتويان أقمشة. وباختصار، لم تكن قيمة كل ما وجداه تزيد عن مئتي فلورين. فأحست بلانكافلوري بمرارة الخديعة، وبكت كثيراً الخمسمئة فلورين التي ردتها إليه، وكان بكاؤها أشد مرارة على الألف فلورين المستدانة، وصارت تردد على الدوام: «من يتعامل مع توسكاني، عليه أن يكون مفتوح العينين». وأدركت أنه إذا كان هناك من يعرف، فإن ثمة من يعرف أكثر منه.

••

عندما أنهى ديونيو قصته، عرفت لوريتا أنه لم يعد بإمكانها مواصلة الحكم لوقت أطول، فأطرت على نصائح بيترو كانيجياني التي تبين أنها فعالة، وعلى براعة سالابيتو الذي استطاع تنفيذ الخطة بمهارة، ثم نزعت إكليل الغار عن رأسها ووضعته على رأس إيميليا، وقالت لها باسمة:

ـ لا أدري كيف ستكونين معنا كملكة، ولكننا نعرف أنك جميلة جداً، فلتكن أعمالك متناسبة مع جمالك.

وعادت لتجلس في مكانها.

توردت إيميليا خجلاً، سواء لتتويجها ملكة أو لما وجه إليها من مديح ترغب فيه النساء عادة، وبدا تورد وجهها كما الفجر الذي تخالطه سحب خفيفة وردية. ولكنها بعد أن خفضت بصرها لبعض الوقت، وبعد أن فارقتها حمرة الخجل، رتبت مع القهرمان شؤون الجماعة، وبدأت الكلام على هذا النحو:

ـ صديقاتي العزيزات، نحن نرى أن الجواميس تتعب بعد أن تقضي شطراً من النهار تحت النير، فيرفع النير عنها وتُطلق في الحقل لترتاح وتمضي حرة على هواها، أو تُترك في الغابة لترعى. ونحن نرى كذلك أن الحدائق التي تضم الأشجار والأزهار، ليست أقل بهاء من الغابات التي لا تضم إلا أشجار السنديان. ولهذا أرى، آخذة في الاعتبار الأيام السابقة التي تحدثنا فيها تحت قوانين صارمة، وفي موضوعات مفروضة علينا، أننا بحاجة إلى الانطلاق لبعض الوقت على هوانا، وأن نستريح قليلاً من هذا النير. ولهذا لا أريد لقصصنا في الغد أن تكون محصورة في أي موضوع محدد، بحيث يروي كل واحد منا ما يروقه، ولست أظن أن ما سيُحكى سيكون أقل لطفاً ومتعة مما رويناه عندما كان الموضوع محدداً. ويمكن لمن يحكم بعدي أن يعود، بكل تأكيد، إلى القوانين السابقة المعهودة.

بعد قولها هذا، منحت الجميع الإذن بعمل ما يشاؤون حتى موعد العشاء. فأطرى الجميع على ما قالته الملكة، واستحسنوا فكرتها، ثم نهضوا للترويح عن أنفسهم. فانصرفت النساء إلى صنع أكاليل الزهر والمرح، بينما راح الشبان يلعبون ويغنون؛ وظلوا

على هذه الحال حتى ساعة العشاء. عندئذ اجتمعوا حول نافورة بديعة، وتناولوا عشاءهم بسعادة ومرح. وبعد الفراغ منه، انصرفوا إلى التسلية بالغناء والرقص لبعض الوقت. وأخيراً، حذت الملكة حذو من سبقوها، دون أن تعير اهتماماً إلى أن بينهم من غنى كثيراً، فأمرت بانفيلو بأن يغني أغنية؛ فبدأ الغناء، بمزاج رائق على هذا النحو:

عظيم، أيها الحب، هو الخير
والفرح اللذان أشعر بهما بفضلك،
فأنا سعيد لاحتراقي بنيرانك.
قلبي يفيض بشراً،
ويملؤه الطرب،
فما منحتني إياه أيها الحب؛
لا أستطيع مداراته،
لأن بريق وجهي
سيكشف سعادتي وفرحي.
ولأني عاشق،
أجد نفسي أحلق عالياً،
سعيداً باحتراقي.

لا يمكن لي أن أعبر بغنائي،
ولا أن أشير بإصبعي، أيها الحب،
إلى الفرح الذي أنا فيه؛
وحتى لو استطعت، عليّ أن أصمت
لأن استثارته،
ستحوله عاصفاً.
لكنني سعيد سعادة،
يذوي الكلام قبل أن أبوح بها.

من ذا الذي يفكر أنني بذراعيّ هاتين

احتضنتها سعيداً؟..

ومن الذي يتصور أن وجهي هذا،

دون صدّ، لامس وجهها

المفعم بالبركة والحسن؟..

لن يصدق أحد حسن طالعي،

مع أنني أتأجج بكاملي،

لكنني أواري سعادتي وفرحي.

انتهت أغنية بانفيلو، وأعجب الجميع بها، إلا أن أياً منهم لم يستطع أن يعرف لمن هي موجهة. وقد حاول الجميع تصور احتمالات متعددة، ولكنهم لم يتوصلوا إلى الحل الحقيقي. وعندما رأت الملكة أن أغنية بانفيلو قد انتهت، وأن السيدات والشبان يرغبون في الراحة، أمرت الجميع بالذهاب إلى النوم.

وهنا انتهى اليوم الثامن

اليوم التاسع

انتهى اليوم الثامن من الديكاميرون، ويبدأ هنا اليوم التاسع تحت حكم إيلينا، وفيه يتحدث كل شخص حول ما يروقه وما يحلو له من الموضوعات.

كان بريق النور يهزم ظلمة الليل، ويبدل سماء اليوم الثامن كلها من الزرقة القاتمة إلى الزرقة السماوية. وكانت الأزهار الصغيرة قد بدأت ترفع هاماتها منتصبة في المروج، عندما نهضت إيميليا واستدعت صديقاتها، وكذلك الشبان الثلاثة؛ فحضروا جميعهم، وساروا في أثر خطى الملكة البطيئة، إلى أن بلغوا أيكة غير بعيدة عن القصر، فتوغلوا فيها ورأوا اليحامير والغزلان وغيرها من الحيوانات تتنقل وتركض هناك طليقة، في غياب الصيادين الذين أقعدهم الوباء عن الصيد، وتتوقف أمامهم دون خوف كما لو أنها صارت أليفة. فتقترب من هذا حيناً ومن ذاك حيناً آخر، كما لو أنها تدعوهم للانضمام إليها في الركض والتقافز؛ فاستمتعوا بذلك لبعض الوقت. لكن الشمس ارتفعت في السماء، ورأى الجميع أن العودة صارت مناسبة. وكانوا جميعهم قد تزينوا بأكاليل من الزهر، وحملوا في أيديهم باقات أزهار وأعشاب عطرة، بحيث لا يمكن لمن يراهم إلا أن يقول: «إما أن الموت لن يستطيع هزيمة هؤلاء، وإما أنه سيجدهم سعداء حين يأتي لقتلهم». وهكذا، كانوا يتقدمون بهدوء، خطوة فخطوة، وهم يغنون ويتبادلون المزاح والعبارات الذكية، حتى وصلوا إلى القصر، فوجدوا كل شيء جاهزاً هناك، وخدمهم يحتفلون سعداء. وبعد أن استراحوا لبعض الوقت، لم يجلسوا إلى المائدة إلا بعد ست أغنيات (كل واحدة أجمل من الأخرى) غناها الشبان والسيدات؛ ثم غسلوا أيديهم بعد ذلك، وأجلسهم القهرمان إلى المائدة وفق الترتيب الذي اختارته الملكة. وجيء بالأطعمة، فأكلوا بشهية ومرح. وبعد الانتهاء من تناول الطعام ورفع أغطية الموائد، أمضوا بعض

الوقت في الغناء والرقص. بعد ذلك، وبإذن من الملكة، ذهب من هو متعب منهم ليستريح. وعندما حان الموعد المعهود، التقوا جميعهم في المكان المحدد لحكاية القصص، ونظرت الملكة إلى فيلومينا وطلبت منها أن تبدأ قصص اليوم، فابتسمت هذه وبدأت كلامها بالقول:

القصة الأولى

يقع رجلان في هوى مادونا فرانشيسكا، أحدهما يدعى رينوشيو والآخر أليساندرو، ولكنها لا تستجيب لغرام أي منهما، فتجعل أحدهما يدخل مدفناً كما لو أنه ميت، وتجعل الآخر يُخرجه من المدفن، وعندما يعجزان عن تنفيذ طلبها، تتخلص منهما وتبعدهما عنها بفطنتها وحسن تدبيرها.

ـ سيدتي، يسعدني جداً أن أكون أول من وقع عليها اختيارك للبدء في ميدان قصص هذا الموضوع المفتوح والحر الذي حددته لنا. وأرجو ألا أخيب ظنكِ، فأمتع الجميع وأكون قدوة للرواة التالين، وأجعلهم يبذلون الجهد ليتفوقوا عليّ ويكونوا خيراً مني.

لقد تحدثنا، يا صديقاتي العزيزات، مرات عديدة في قصصنا السابقة، عن مدى قوة الحب وتسلطه. لكنني لا أظن أننا سنحيط بكل جوانب الموضوع، حتى لو تحدثنا عنه وحده طوال سنة كاملة. فالحب لا يقتصر على تعريض العشاق لأخطار مميتة وحسب، وإنما يقودهم إلى دخول منازل الموتى لإخراجهم منها. ويطيب لي أن أحدثكم عن هذا الأمر في قصة (فضلاً عن تلك القصص التي رويت) لا تتعرفن منها على قوة سلطان الحب فقط، وإنما كذلك على فطنة سيدة سامية، وحسن تدبيرها للتخلص من عاشقين أُغرما بها دون رغبة منها.

كانت تعيش في مدينة بيستويا سيدة أرملة باهرة الجمال، أغرم بها رجلان منفيان من أبناء مدينتنا فلورنسا، يعيشان في بيستويا. أحدهما يدعى رينوشيو باليرميني، والآخر أليساندرو كيارمونتيسي. ودون أن يعرف أحدهما شيئاً عن الآخر، شاء لهما الحظ أن يقعا في هواها. وكان كل منهما يسعى جاهداً ويبذل كل ما يستطيعه للظفر بحبها. فكانت تلك السيدة النبيلة، واسمها فرانشيسكا دي لازاري، تتلقى عروض كل منهما ورسله وتوسلاته. وقد أصغت قليلاً لبعض تلك التوسلات أحياناً، لكنها أرادت التخلص من تلك الملاحقات بطريقة لبقة ومهذبة، وعندما أعيتها الحيلة، خطرت لها فكرة تخلصها

من إلحاحهما. وذلك بأن تطلب منهما خدمة تظن أن أياً منهما لن يستطيع تنفيذها، فتجد بذلك ذريعة مناسبة لصرفهما عنها، ولعدم الاستماع إلى رسلهما. وكانت فكرتها هي التالية: في ذلك اليوم الذي خطرت لها الفكرة، كان قد توفي في بيستويا رجل ورث النبالة عن أسلافه، لكنه كان منبوذاً كأسوأ الرجال وأكثرهم خبثاً، ليس في بيستويا وحدها، وإنما في العالم بأسره. وكان فوق ذلك قبيحاً مشوه الوجه، يمكن لمن يراه أول مرة أن يخاف من هيئته. وقد دفن في مدفن قريب من كنيسة صغار الرهبان. ففكرت السيدة فرنشيسكا في أنه يمكن لذلك الحدث أن يكون أعظم عون لمساعيها و لما تبتغيه، فقالت لخادمة لها:

ـ أنت تعرفين الضجر والإزعاج اللذين يسببهما لي هذان الفلورنسيان رينوشيو وأليساندرو؛ ولأنني غير راغبة في منح حبي لأي منهما، وأريد التخلص منهما، فقد قررت أن أختبرهما (بعد ما قدماه من عروض) في أمر أثق بأنهما لن يقدما عليه، وبهذا أتخلص من إلحاحهما وملاحقتهما لي. فاسمعي ما سأقوله لك: أنت تعلمين أن اسكناديو ـ الذباح ـ «وهكذا كان يدعى الرجل الخبيث الذي تحدثنا عنه» قد دُفن صباح هذا اليوم في مكان قريب من مدفن صغار الرهبان. وقد كانت رؤيته وهو حي تبعث الخوف في قلوب أشجع رجال هذه المدينة، فتصوري كيف سيكون الأمر وهو ميت. ولهذا ستذهبين سراً إلى اليساندرو أولاً، وتقولي له: «لقد أرسلتني السيدة فرانشيسكا لأخبرك بأن الوقت قد حان لتنال حبها الذي سعيتَ إليه ورغبتَ فيه طويلاً، وصار بإمكانك بلوغ مرادك إذا شئت بالطريقة التالية: سيجري في هذه الليلة (لأسباب ستعرفها فيما بعد) نقل جثة اسكناديو الذي دُفن هذا الصباح إلى بيتها؛ وهي ترهبه وتخشى رؤيته حتى وهو ميت، ولا تريده في بيتها. ولهذا ترجوك أن تقدم لها خدمة عظيمة؛ فتذهب هذه الليلة، في ساعة الليل الأولى، وتدخل القبر الذي دفن فيه اسكناديو، فترتدي ثيابه وتظل هناك إلى أن يأتي من سيحملون الجثمان، فلا تفعل شيئاً ولا تنطق بكلمة، وتتركهم يُخرجونك ويأتون بك إلى بيتها. وهناك ستستقبلك هي، وتبقى معها كما تشاء، ثم تذهب بعد ذلك إلى شؤونك، وتترك لها عمل ما تبقى». فإذا أجاب بالموافقة، حسناً يفعل، أما إذا رفض، فقولي له على لساني ألا يذهب إلى أي مكان أكون فيه، وأن يتوقف عن إرسال الرسل والرسائل إليّ إذا كان يحب حياته. وستذهبين بعد ذلك إلى رينوشيو باليرميني وتقولين له: «السيدة فرانشيسكا مستعدة لتلبية رغبتك إذا ما قدمت لها خدمة عظيمة، وهي أن تذهب هذه الليلة، عند انتصاف الليل، إلى المدفن الذي دُفن فيه اسكناديو. ودون أن تقول كلمة

واحدة عما تراه أو تسمعه، تسحبه من القبر برفق، وتحمله إلى بيتها؛ وهناك ستعرف لماذا هي تريده، وتنال منها متعتك. وإذا رفضت عمل ذلك، فإنها تأمرك بأن تتوقف منذ اليوم عن إرسال الرسل والرسائل إليها».

ذهبت الخادمة إلى كليهما، وكلمت كلاً منهما بما أُمرت به، وكان ردّ الاثنين أنهما ليسا مستعدين للدخول إلى قبر وحسب، بل إلى الجحيم، إذا كان ذلك يرضي السيدة. ونقلت الخادمة الرد إلى سيدتها التي راحت تنتظر لترى إذا ما كانا مغفلين إلى حدّ الإقدام على تحقيق طلبها.

ومع حلول الليل، خلع اليساندرو كايارمونتي ثيابه، ولم يُبق منها إلا على جلباب طويل. وخرج من بيته كي يذهب ويحل محل اسكناديو في المدفن. وبينما هو في الطريق، خطر لذهنه خاطر مخيف، وشرع يقول لنفسه: «آه، يا لي من غبي! إلى أين أنا ذاهب؟.. وما أدراني أن أقارب السيدة قد لاحظوا أنني مغرم بها، فطلبوا منها أن تتصرف على هذا النحو ليقتلوني في ذلك المدفن؟.. وإذا حدث هذا، فإنني أنا من سأدفع الثمن، ولن يعلم أحد بما جرى لي. وماذا لو كان هناك غريم لي في حب السيدة، ويريد التخلص مني بمساعدتها؟..». وبعد هذه الأفكار، قال لنفسه: «ولكن، إذا افترضنا أن الأمر ليس على هذا النحو، وأن أقرباءها حملوني إلى بيتها؛ فلست أظن أنهم سيأخذون جثة اسكناديو ليحتفظوا بها أو ليضعوها بين ذراعي السيدة؛ وإنما لأنهم يريدون التمثيل بالجثة، انتقاماً منه لضرر ألحقه بهم. وقد طلبت مني الخادمة ألا أنطق بكلمة مهما جرى. فماذا لو سمل أولئك الأقرباء عيني، أو قلعوا أسناني، أو بتروا يديّ، أو فعلوا بي أي شيء آخر؟.. كيف سأبقى صامتاً؟.. وماذا لو تكلمتُ وعرفوني، وألحقوا بي الأذى؟.. وحتى لو لم يفعلوا بي شيئاً، فإنني لن أحصل على شيء، لأنهم لن يسمحوا لي بالبقاء مع السيدة. وستقول السيدة عندئذ إنني لم أنفذ رغبتها، وإنها لن تستجيب لي ولن ترضيني أبداً».

وبينما هو يفكر في هذه الأمور، كاد أن يقفل عائداً إلى البيت. لكن حبه العظيم دفعه إلى الأمام، متعللاً بحجج مناقضة لتلك وذات قوة كبيرة، أوصلته إلى المدفن؛ ففتحه ودخل فيه، ثم جرد اسكناديو من ملابسه وارتداها. وبعد أن أغلق المدفن فوق رأسه، ورقد في مكان الميت، بدأت تتوارد إلى ذهنه الخواطر عمن كانه ذلك الميت، وعن الجرائم التي اقترفها في حياته، وكذلك عن الأمور التي يقال إنها تحدث في المقابر؛ فانتصب شعر رأسه، وخيل إليه أن الميت سينهض بين لحظة وأخرى ويقتله.

لكن حبه المتأجج ساعده على التغلب على هذه المخاوف وغيرها من الأفكار المرعبة، وظل مستلقياً هناك، كما لو أنه ميت حقاً، في انتظار ما سيحدث.

ومع انتصاف الليل، خرج رينوشيو من بيته أيضاً لينفذ ما أمرته به السيدة. وبينما هو سائر، راودته أفكار كثيرة حول ما قد يحدث له، كأن يفاجئه جند قائد الشرطة وهو يحمل جثة اسكناديو على كاهله، فيعتبرونه مشعوذاً ويحكمون عليه بالموت حرقاً. أو أن ينتشر الخبر ويستثير ذلك نقمة أهل اسكناديو وأقربائه. ولكنه ما لبث أن تماسك، وقال في نفسه: «كيف يمكنني أن أرفض أول طلب تطلبه مني السيدة النبيلة التي أحببتها، وأحبها كثيراً، لاسيما أنني سأظفر بعد هذا بحبها؟.. لا يمكنني التخلي عن تنفيذ وعدي لها، حتى لو كان مصيري هو الموت المؤكد».

وواصل طريقه حتى بلغ المدفن، ففتحه بسهولة. وحين أحس أليساندرو بأن القبر يُفتح، ظل ساكناً دون حراك، بالرغم من خوفه الشديد. وبعد أن دخل رينوشيو القبر، أمسك بقدمي أليساندرو معتقداً أنه يمسك بجثة اسكناديو، وسحبه خارج السرداب، ثم حمله على كتفيه، وانطلق به نحو بيت السيدة. وبينما هو يحمله على هذا النحو، دون أي اهتمام به، سبب له الكثير من الأذى، هو يرتطم بزوايا البيوت وبروزاتها من هذا الجانب أو ذاك. فقد كان الليل شديد السواد، لا يستطيع معه أن يتبين طريقه بوضوح.

وعندما صار رينوشيو أمام باب بيت السيدة، وكانت هي تقف قرب النافذة مع خادمتها لترى رينوشيو وهو يأتي حاملاً أليساندرو، ومستعدة لصرف الاثنين معاً، حدث أن حراس الشرطة كانوا يكمنون في ذلك الحي، آملين أن يتمكنوا من القبض على قاطع طريق مطارد. وما إن سمعوا الجلبة التي يحدثها رينوشيو في مشيته المتعثرة، حتى أخرجوا ضوءاً مفاجئاً ليروا من القادم وإلى أين هو ذاهب، ثم تناولوا تروسهم ورماحهم، وصاحوا:

ـ من هناك؟..

تعرف رينوشيو على أصواتهم، ولم يجد متسعاً من الوقت للتأمل والتفكير، فألقى بأليساندرو أرضاً، واندفع هارباً بكل ما في ساقيه من قدرة. وعندئذ نهض أليساندرو مسرعاً بدوره. ومع أنه كان يرتدي ملابس الميت الطويلة جداً، فقد انطلق راكضاً. وعلى ضوء أنوار الشرطة، رأت السيدة، بوضوح، رينوشيو وهو يحمل على كاهله أليساندرو الذي يرتدي ملابس اسكناديو. وعجبت أشد العجب لشجاعة الاثنين. لكنها على الرغم من كل دهشتها، انفجرت في الضحك من أعماقها حين رأت أليساندرو يُطرح أرضاً، ثم

ينهض هارباً بعد ذلك. وابتهجت كثيراً بما حدث، وحمدت الله على تخلصها منهما، ثم دخلت داخلاً، وذهبت إلى مخدعها وقد تأكدت، مع خادمتها، من أن الاثنين يحبانها حباً كبيراً، لأنهما نفذا ما طلبته منهما، مثلما رأت بأم عينها.

وعلى الرغم من كل ما حدث، فإن رينوشيو المغموم لم يرجع إلى بيته، بل راح يلعن حظه العاثر، وانتظر إلى أن غادر الحراس الحي، وعاد إلى حيث ألقى بأليساندرو متلمساً في الظلام لعله يعثر عليه، ليكمل إنجاز ما طلبته منه السيدة. وعندما لم يجده،رجع إلى بيته وهو يظن أن الحراس قد التقطوا ما كان يحسبه جثة. أما أليساندرو فلم يعد يدري ما عليه أن يفعله؛ فذهب إلى بيته أيضاً دون أن يعرف من هو الشخص الذي كان يحمله.

وفي صباح اليوم التالي، عندما وُجد مدفن اسكناديو مفتوحاً، وجثته غير موجودة فيه، لأن أليساندرو كان قد دفع بها إلى أقصى السرداب، ثار في المدينة لغط كثير، وقدر بعض البلهاء أن الشياطين قد أخذته. أما العاشقان فلم يتوانيا – كل منهما بمفرده – عن إخبار السيدة بما فعلاه، وبما حدث. وأعرب كل منهما عن اعتذاره لأنه لم يستطع أن ينجز ما طلبته منه كاملاً. وتوسل إليها أن تمنحه عطفها وحبها. لكن السيدة تظاهرت بأنها لا تصدق أياً منهما، وردت عليهما بحزم بأنها لن تستجيب لهما، لأنهما لم ينفذا ما طلبته منهما. وبهذه الطريقة تخلصت من كليهما.

القصة الثانية

تنهض رئيسة الدير على عجل في الظلام كي تفاجئ إحدى راهباتها، بعد وشاية، وهي مع عشيقها. ولأن رئيسة الدير نفسها كانت حينذاك مع أحد الرهبان، فقد وضعت على رأسها، في تسرعها، سروال الراهب الداخلي معتقدة أنها تضع القلنسوة. وحين ترى الراهبة المتهمة ذلك، تلفت النظر إليه، فتنجو من التهمة، وتنال حريتها في البقاء مع عشيقها.

أنهت فيلومينا قصتها، وأطرى الجميع على حكمة السيدة التي عرفت كيف

تتخلص من العاشقين كليهما. واعتبروا أن إلحاح العاشقين لم يكن حباً وإنما حماقة. وعندئذ توجهت الملكة إلى إليسا، وقالت لها بعذوبة:

- واصلي أنت يا إليسا.

فبادرت هذه على الفور:

- صديقاتي العزيزات، لقد عرفت مادونا فرانشيسكا، كما روي لنا، كيف تتخلص من إزعاج عاشقيها بتكتم ووقار. لكنني أعرف قصة راهبة شابة، تمكنت بمساعدة الحظ، وبضع عبارات مناسبة، من التخلص من خطر كبير داهم. وكما تعلمن فإن هناك كثيرين، على الرغم من غبائهم، يحاولون فرض أنفسهم معلمين على الآخرين وقمعهم، وهؤلاء كما سترون في قصتي، يعاقبهم القدر أحياناً بما يستحقونه من توبيخ. وهذا ما حدث لرئيسة دير كانت الراهبة التي سأتحدث عنها تحت إمرتها.

لا بد أن تعرفن إذاً أنه كان هناك في لومباردي دير مشهور بقداسته وتدينه. وكان بين راهبات ذلك الدير راهبة شابة تجري في عروقها دماء نبيلة، منحها الله جمالاً مذهلاً، وكان اسمها إسابيتا. وفي أحد الأيام، خرجت إلى بوابة الدير الحديدية لمقابلة قريب لها، وإذ بها تلتقي بشاب وسيم جاء برفقته. وما إن رأى الشاب جمالها حتى بدا حبه لها جلياً في عينيه، وأصابها هي أيضاً سهم حبه. وظل هذا الحب لوقت طويل، وسط حزن كليهما، بلا أي ثمرة. وأخيراً، وجد الشاب سبيلاً للوصول سراً إلى راهبته، فأسعدها ذلك، وصارت زياراته لها تتزايد فيما بعد. ومع استمرار تلك الزيارات، حدث أن رأته إحدى راهبات الدير وهو ذاهب إلى إسابيتا في إحدى الليالي «دون أن ينتبه هو أو راهبته إليها»، ثم رأته وهو يخرج؛ فأخبرت بذلك عدداً من الراهبات. فكان أول ما عزمن عليه هو إخبار رئيسة الدير بذلك، وكن يرين في رئيستهن، وتدعى السيدة أوسيمبالدا، مثالاً في الورع والقداسة، وهو ما يراه كذلك كل من يعرفونها. ثم قررن بعد ذلك أن يعملن على أن تضبطهما رئيسة الدير وهما معاً، فأخفين الأمر، وتناوبن على الحراسة والمراقبة فيما بينهن بصورة سرية. وحدث أن إسابيتا طلبت من الشاب المجيء في إحدى الليالي، دون تنتبه إلى أي شيء مما دبرته الراهبات أو تعلم به. فرأته من كانت تقوم بالمراقبة. وهكذا انقسمت الراهبات إلى فريقين، عندما رأين أن الوقت صار مناسباً بعد تقدم الليل؛ فظل فريق منهن يحرس باب حجرة إسابيتا، بينما ذهبت راهبات الفريق الآخر مسرعات إلى حجرة رئيسة الدير،

وطرقن الباب وقلن لها:

ـ استيقظي أيتها الأم، فقد وجدنا إسابيتا مع شاب في حجرتها.

كانت رئيسة الدير في تلك الليلة برفقة كاهن يزورها بين حين وآخر، وتُدخله إلى حجرتها مختبئاً في صندوق. وحين سمعت كلام الراهبات، خشيت أن تواصل الراهبات الطرق على الباب (لشدة تعجلهن أو شدة تلهفهن) فينفتح. فنهضت مسرعة وارتدت ملابسها كيفما استطاعت في الظلام، وظنت أنها قد تناولت قلنسوتها البيضاء ووضعتها على رأسها، بينما كان ما تناولته في الحقيقة، ووضعته على رأسها، هو سروال الكاهن الداخلي. ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها قائلة:

ـ أين هي هذه الملعونة من الرب؟..

وتوجهت مع الأخريات الهائجات ليضبطن إسابيتا بالخطيئة، دون أن تتنبه أي منهن إلى ما تعتمره رئيسة الدير على رأسها، فوصلن باب حجرتها وفتحنه عنوة، ثم دخلن فوجدن العاشقين متعانقين. أذهلت المفاجأة العاشقين، ولم يدريا ما يفعلان، فظلا ساكنين. أمسكت الراهبات بالشابة واقتدنها بأمر من رئيسة الدير إلى حجرة العقاب. أما الشاب، فراح يرتدي ملابسه بانتظار ما سيسفر عنه الوضع. وكان ينوي القيام بمغامرة طائشة وخبيثة إذا ما ألحقن الضرر بالشابة، فيضرب من تعترض سبيله منهن، ويأخذ فتاته معه ويهرب بها. وفي حجرة العقاب، بدأت رئيسة الدير، بحضور الراهبات جميعهن، توجه إليها أشد عبارات التأنيب واللعنات، كما لو أن قداسة الدير وطهارته ستنهار تماماً إذا ما شاعت في الخارج أخبار أعمالها القذرة والمشينة. ثم أتبعت الشتائم بتهديدات وتوعدات صارمة. كانت الشابة خجلة وخائفة. وباعتبارها مذنبة، لم تجد جواباً سوى الصمت، لعل الأخريات يشفقن عليها. وبينما رئيسة الدير تضاعف تهديدها وتأنيبها، خطر للشابة أن ترفع بصرها، ورأت عندئذ ما تعتمره رئيسة الدير على رأسها، ورأت الأربطة التي تتدلى من هذا الجانب أو ذاك؛ فأدركت حقيقة ذلك الشيء، واطمأنت تماماً، وقالت:

ـ سيدتي، فليساعدك الرب، اربطي أولاً أربطة كوفيتك هذه، ثم حدثيني بعد ذلك بما تشائين.

فقالت رئيسة الدير التي لم تفهم مغزى كلامها:

- أي كوفية تعنين أيتها الخبيثة؟.. أتبلغ بك الجرأة حد المزاح؟.. أوتظنين أنك فعلت شيئاً يناسبه المزاح والظُرف؟..

عندئذ قالت الشابة مرة أخرى:

- أرجوك يا سيدتي أن تربطي الكوفية، وبعد ذلك قولي لي كل ما تشائين.

وهنا رفع عدد من الراهبات أبصارهن إلى رأس رئيسة الدير، ورفعت هي أيضاً يديها. وأدركن جميعهن مغزى ما قالته إسابيتا؛ وانتبهت رئيسة الدير إلى خطئها. وعرفت أن الجميع رأينها، ولم يعد بإمكانها إخفاء الأمر؛ فبدلت على الفور من نبرة صوتها، وبدأت تتكلم بصورة مختلفة تماماً عن الطريقة التي بدأت بها. وتوصلت في النتيجة إلى أنه من المستحيل الصمود أمام مغريات الجسد، وقالت لهن إن بمقدورهن جميعاً أن يستمتعن بذلك إن استطعن؛ ولكن بتكتم وتعقل. ثم أطلقت سراح الشابة، وعادت للنوم مع كاهنها، وإسابيتا مع عشيقها. وصارت تأتي به كلما رغبت، بالرغم من حسد الحاسدات. أما الأخريات اللواتي لا عشاق لهن، فرحن يجربن حظهن بأفضل ما يستطعن.

القصة الثالثة

المعلم سيمون، بطلب من برونو وبوفالماكو ونيللو، يحمل كالاندرينو على الاعتقاد بأنه حامل، فيقدم للمذكورين ديوكاً ونقوداً من أجل الدواء، ويشفى من حبله دون ولادة.

بعد أن أنهت إليسا قصتها، تنفس الجميع الصعداء وحمدوا الله لأنه أخرج الراهبة الشابة من مأزقها، وخلصها من أشداق الراهبات الحاسدات. وأمرت الملكة فيلوستراتو أن يروي قصته، فبدأ على الفور دون أن ينتظر أمراً آخر:

- سيداتي الجميلات، قاضي لاماركا الفج الذي رويت لكم قصته أمس، انتزع من فمي قصة عن كالاندرينو كنت أنوي روايتها؛ ولأنه لا يمكن لما يُحكى عنه إلا أن يضاعف المتعة والتسلية، بالرغم من أن قصصاً أخرى قد رُويت عنه وعن صديقيه. ولهذا

سأقص عليكن الآن القصة التي فكرت في روايتها يوم أمس.

لقد عرفنا من قبل بصورة واضحة من هو كالاندرينو ومن هم الآخرون الذين تتحدث عنهم هذه القصة؛ ولهذا لن أزيد شيئاً في التعريف بهم، بل أقول إنه حدث أن ماتت عمة لكالاندرينو، فورث عنها مئتي لير عداً ونقداً. فبدأ كالاندرينو يقول إنه يريد شراء مزرعة، وتداول في الأمر مع كل سماسرة الأراضي في فلورنسا، كما لو أنه سينفق عشرة آلاف فلورين ذهبي. فكان يدخل في مناقشة صفقات لا تلبث أن تفشل لدى الوصول إلى سعر قطعة الأرض المرغوبة. وكان برونو وبوفالماكو مطلعين على كل تلك الأمور، وقد قالا له مرات ومرات إنه من الأفضل له إنفاق تلك النقود معهما بدلاً من شراء أرض. لكنه رفض الاستجابة لهما، بل إنهما عجزا عن إقناعه بدعوتهما لتناول الطعام ولو مرة واحدة. وبينما هما يتناقشان في أحد الأيام متذمرين من سلوكه ذاك، جاءهما صديق يدعى نيللو، ويعمل نقاشاً أيضاً، وراح الثلاثة يتحدثون معاً، لعلهم يجدون طريقة تتيح لهم ملء بطونهم على حساب كالاندرينو. وسرعان ما اتفقوا فيما بينهم على ما يتوجب عليهم عمله. وفي اليوم التالي، ما إن خرج كالاندرينو من بيته حتى اعترض نيللو سبيله قائلاً:

ـ صباح الخير يا كالاندرينو.

فرد عليه كالاندرينو متمنياً له أن ينعم الله على صباحه، وسنته كلها بالخير. فتوقف نيللو أمامه قليلاً، وراح يحدق في وجهه، فسأله كالاندرينو:

ـ ما الذي تنظر إليه؟..

فقال له نيللو:

ـ ألم يحدث لك شيء هذه الليلة؟.. تبدو لي مختلفاً، ووجهك ليس على ما يرام.

وعلى الفور، أصيب كالاندرينو بالذعر، وقال:

ـ آه، أتظن أنني مريض.

فقال نيللو:

ـ لست أدري بالضبط، ولكنك تبدو لي مختلفاً. ربما يكون شيئاً آخر غير المرض.

وتركه ينصرف. استولى الخوف على كالاندرينو. لكنه لم يكن يشعر بشيء،

فواصل طريقه. غير أن بوفالماكو الذي كان يراهما من بعيد، اعترض طريقه بعد قليل وحياه، ثم سأله إذا كان هناك ما يؤلمه. فأجابه كالاندرينو:

ـ لا أدري، ولكن نيللو قال لي قبل قليل إنني أبدو مختلفاً.. أيكون قد أصابني شيء؟..

فقال بوفالماكو:

ـ لا بد أن أكثر من شيء قد أصابك، فأنت تبدو أشبه بميت.

بدأ كالاندرينو يشعر بارتفاع حرارته وبأنه مصاب بالحمى. وعندئذ ظهر برونو، وبادره قبل أن يلقي عليه التحية:

ـ ما هذا الوجه يا كالاندرينو؟.. إنك تبدو ميتاً. ماذا جرى لك؟..

وحين سمع كالاندرينو كلام الثلاثة، تأكد له أنه مريض، فسأله مذعوراً:

ـ وماذا عليّ أن أفعل؟..

فقال برونو:

ـ أرى أن ترجع إلى بيتك، وتأوي إلى فراشك، وتتدثر جيداً، وترسل في طلب المعلم سيمون، وهو صديق حميم لنا كما تعرف. وسيخبرك فوراً بما عليك عمله. وسنأتي نحن لزيارتك، وإذا كنت بحاجة لشيء سنقدمه لك.

وهنا انضم إليهم نيللو، واتجهوا مع كالاندرينو إلى بيته؛ فدخل هو منهوكاً إلى غرفة النوم وقال لزوجته:

ـ تعالي ودثريني جيداً، فأنا مريض وفي حالة سيئة.

وبعد أن استلقى في الفراش، أرسل خادمة ومعها عينة من بوله إلى الطبيب سيمون، في دكان العقاقير في السوق القديم. فقال برونو لرفيقيه:

ـ ابقيا هنا إلى جانبه، وأنا ذاهب لأرى ما الذي سيقوله الطبيب، وسأجيء به إذا اقتضى الأمر.

وقال له كالاندرينو:

ـ أجل، اذهب إليه يا صديقي وأخبره بحالي. قل له إنني لا أعرف ما الذي أشعر به هنا في داخلي.

ذهب برونو إلى حيث المعلم سيمون، ووصل إليه قبل الخادمة التي تحمل عينة البول. وأخبر المعلم سيمون بحقيقة المسألة. وهكذا، عندما وصلت الخادمة ورأى المعلم عينة البول، قال للخادمة:

ـ اذهبي أنت إلى كالاندرينو، واطلبي منه يكون حذراً من البرد. وسأذهب إليه بنفسي بعد قليل، فأخبره بما لديه وبما عليه عمله.

رجعت الخادمة إلى البيت وفعلت ما طُلب منها. وبعد قليل حضر برونو ومعه الطبيب الذي جلس بجوار برونو وبدأ يجس نبضه. وبعد قليل، قال له بحضور زوجته:

ـ انظر يا كالاندرينو، إني أكلمك كصديق، لا وجود فيك لأي علة أو مرض، وكل ما هنالك أنك حامل.

ما إن سمع كالاندرينو ذلك حتى بدأ يصرخ مغموماً ويقول:

ـ آه منك يا تيسا! كل هذا بسببك، فأنت لا تريدين إلا أن تكوني فوق؛ لقد حذرتك ألف مرة!

وحين سمعت الزوجة كلامه، وهي امرأة عفيفة وشديدة الخفر، احمر وجهها من الخجل وأخفضت رأسها، وغادرت الحجرة دون أن تتفوه بكلمة. أما كالاندرينو فواصل شكواه قائلاً:

ـ آه، يا لتعاستي! ما الذي سأفعله الآن؟.. وكيف سألد هذا الابن؟.. من أين سيخرج؟.. كنت مدركاً أنني سأموت بسبب نزوات هذه الزوجة التي أرجو من الله أن يرسل لها من الشقاء قدر ما أتمناه لنفسي من السعادة. ولو أنني كنت سليماً معافى، وأنا لست كذلك، لكنت نهضت وضربتها أقسى الضرب؛ لكنني أنا الذي أستحق الضرب، لأنه ما كان عليّ أن أسمح لها بامتطائي. أما إذا خرجت حياً من هذه النكبة، فلن أسمح لها بذلك مرة أخرى، ولو قتلتها الرغبة.

كان برونو وبوفالماكو ونيللو على وشك الانفجار في الضحك وهم يسمعون كلام

كالاندرينو، لكنهم تمكنوا من كبح أنفسهم. أما المعلم سيمون، فكان يضحك ملء شدقيه بصورة كان بالإمكان معها قلع أسنانه كلها. وأخيراً، أسلم كالاندرينو نفسه ليدي الطبيب متوسلاً إليه أن ينصحه ويساعده. فقال له المعلم:

ـ لا أريدك يا كالاندرينو أن ترتعب، فقد تمكنا، بنعمة من الله، اكتشاف الحالة في وقت مبكر، ويمكن لك بقليل من الجهد أن تشفى بعد بضعة أيام. إلا أنه لا بد لك من بعض النفقات.

فقال كالاندرينو:

ـ آه أيها المعلم، أرجوك حباً بالرب! إنني أملك هنا مئتي لير أريد أن أشتري بها مزرعة جيدة، فخذها كلها إذا تطلب الأمر، على أن تخلصني من هذا الحمل، لأنني لا أعرف ما الذي سيصيبني به. فأنا أسمع النساء يثرن كثيراً من الصراخ والصخب عند الولادة، بالرغم من أن لديهن مكاناً واسعاً لذلك. أما إذا أصابني مثل ذلك الألم، فأظن أنني سأموت قبل أن أتمكن من إخراج الوليد.

فقال الطبيب:

ـ لا تقلق بهذا الشأن، سأوصي على تحضير شراب مقطر لك، وهو علاج جيد ومذاقه لطيف؛ وخلال ثلاثة أيام تعود سليماً ومنتعشاً أكثر من سمكة طازجة. إنما عليك بعد ذلك أن تظل حذراً، وألا تعود إلى مثل تلك الأعمال الغبية. والآن، أنا بحاجة من أجل ذلك الشراب إلى ثلاثة أزواج من الديوك السمينة والجيدة، وأن تعطي لأحد هؤلاء الأصدقاء خمس ليرات لشراء بعض المواد الأخرى الضرورية، ثم ترسل كل ذلك إليّ في دكان العقاقير. وغداً إنشاء الله، سأرسل لك الشراب المقطر وتبدأ بتناوله بمقدار كأس كبيرة كل يوم.

وبعد أن سمع كالاندرينو هذا الكلام، قال له:

ـ إنني أضع كل ثقتي بك أيها المعلم.

ثم أعطى خمس ليرات لبرونو، وأعطاه كذلك نقوداً لشراء ثلاثة أزواج من الديوك. ورجاه أن يساعده بتكبد مشقة شراء هذه الأشياء. أما الطبيب، فذهب إلى مخبره وأعد له شراباً محلى، وأرسله إليه.

اشترى برونو الديوك المسمنة وغيرها من اللوازم الضرورية لإقامة وليمة فاخرة مع الطبيب وصديقيه الآخرين. وبعد أن تناول كالاندرينو الشراب ثلاثة أيام متتالية، جاء الأصدقاء ومعهم الطبيب لزيارته، فجس المعلم نبضه، وقال له:

- لقد شفيت يا كالاندرينو تماماً.. فغادر الفراش وعد إلى أعمالك وشؤونك.

نهض كالاندرينو سعيداً وعاد إلى أعماله، وكان كلما التقى بشخص في أي مكان، يمتدح المعلم سيمون ودواءه الجيد الذي أجهضه في ثلاثة أيام، ودون أي ألم. وابتهج برونو وبوفالماكو ونيللو لأنهم استطاعوا، بحيلة ماكرة، أن يسخروا من كالاندرينو وبخله. أما السيدة تيسا فواصلت مداعباتها مع زوجها، إنما بكثير من الحيطة، وبحذر شديد.

القصة الرابعة

شيكو ابن السيد فورتاريجو، يقامر في بونكونفنتو بكل ما لديه، وبأموال شيكو ابن السيد أنجيوليري. ثم يمضي راكضاً وراء صديقه، وهو بملابسه الداخلية، مقسماً إنه قد سُرق. فيجعل بعض الفلاحين يمسكون بصديقه؛ ويرتدي ملابسه ويركب جواده، ويعود تاركاً إياه في الطريق.

قوبلت كلمات كالاندرينو لزوجته بضحك أفراد الجماعة كلهم، وعندما أنهى فيلوستراتو كلامه، بدأت نيفيله قصتها بأمر من الملكة، فقالت:

- سيداتي العزيزات، لو لم يكن إثبات الرجال تعقلهم للآخرين أسهل عليهم من إظهار بلاهتهم، لسعى كثيرون منهم جاهدين إلى كبح أنفسهم عن الكلام. لكن هذا لا ينطبق على كالاندرينو الذي لم يكن بحاجة، بأي حال من الأحوال، من أجل الشفاء من الداء الذي صدقه ببلاهته، إلى التحدث أمام الملأ عن الملذات السرية لزوجته. وقد ذكّرتني هذه الحالة بحالة أخرى مناقضة لها، حيث تتفوق بلاهة أحدهم على ذكاء

شخص آخر، وهذه هي القصة التي سأرويها.

كان يعيش في مدينة سيينا، منذ سنوات غير بعيدة، رجلان كلاهما يدعى شيكو. لكن أحدهما ابن للسيد أنجيوليري، والآخر ابن السيد فورتاريجو. وبالرغم من اختلاف عاداتهما في أمور كثيرة، إلا أنهما كانا يتفقان في أمر واحد ـ كرههما لأبويهما ـ إلى حد تحولا معه إلى صديقين يلتقيان معاً في أحيان كثيرة. وقد بدا لأنجيوليري، وهو الرجل الوسيم والمتأنق، أنه لا يليق به البقاء في سيينا والعيش على النفقة التي خصصها له أبوه. وعلم أن مطراناً يحبه ويقدره، قد عُيّن نائباً للبابا في منطقة أنكونا؛ فقرر الذهاب إليه لعله يحسن وضعه. وأخبر أباه بذلك، واتفق معه على أن يقدم له، دفعة واحدة، نفقاته عن ستة شهور، كي يتمكن من التزود بملابس لائقة ومطية جيدة، والذهاب بمظهر مشرف.

وبدأ يبحث بعد ذلك عن مرافق يخدمه، فسمع فورتاريجو بذلك، وذهب فوراً إلى أنجيوليري، وبدأ يتوسل إليه بكل ما يستطيع كي يأخذه معه. قائلاً إنه يريد أن يكون خادمه وعبده وكل ما يشاء، دون أي أجر آخر سوى نفقات معيشته. فردّ عليه أنجيوليري بأنه لا يريد أن يأخذه معه، ليس لأنه غير قادر على الخدمة، وإنما لأنه مقامر، ولأنه يشرب إلى حدّ السكر في بعض الأحيان. فوعده فورتاريجو بأن يمتنع عن هاتين العادتين فوراً، وراح يقسم بأغلظ الأيمان مؤكداً على وعده، مضيفاً إلى ذلك مزيداً من التوسلات لم يجد أنجيوليري معها بداً من الموافقة. وعندما انطلقا في الرحلة بعد أيام، توقفا في بونكونفينتو لتناول الغداء. ولأن الحر كان شديداً، فقد طلب انجيوليري أن يُعد له سرير في النزل بعد الغداء، وخلع ملابسه بمساعدة فورتاريجو لينام، بعد أن طلب منه إيقاظه عند العصر. وبينما كان أنجيوليري نائماً، نزل فورتاريجو إلى الحانة، فأكثر هناك من تناول الشراب، وبدأ اللعب مع بعض الزبائن. وسرعان ما كسب منه هؤلاء النقود القليلة التي بحوزته، ثم الملابس التي يرتديها. فرغب في تعويض خسارته، وصعد بملابسه الداخلية إلى الحجرة التي ينام فيها أنجيوليري، فوجده مستغرقاً في نوم عميق؛ فأخذ كل ما في جرابه من نقود، وعاد للعب إلى أن خسرها كلها مثلما خسر نقوده من قبل. وعندما استيقظ أنجيوليري وارتدى ملابسه، نادى فورتاريجو، فلم يجده. ففكر في أنه لا بد أن يكون قد سكر ونام في مكان ما، مثلما يفعل عادة؛ فصمم على تركه. وأمر بأن يُسرج جواده وتُحمّل عليه أمتعته، مفكراً في أنه سيجد خادماً آخر في كورسيجنانو. وعندما

أراد دفع حسابه لصاحب النزل كي يغادر، لم يجد من نقوده قطعة واحدة؛ فأثار ضجة كبيرة، وطلب تفتيش النزل كله قائلاً سُرق وهو فيه، وتوعد الجميع باقتيادهم معتقلين إلى سيينا. عندئذ ظهر فورنتاريجو، وكان آتياً لأخذ ملابس أنجيوليري، ليقامر بها مثلما فعل من قبل بنقوده. ولكنه حين رآه مستعداً للرحيل، قال له:

ـ ما هذا يا أنجيوليري؟.. هل سنرحل الآن؟.. انتظر قليلاً، فسوف يأتي شخص أخذ ملابسي رهناً مقابل ثمان وثلاثين قطعة نقدية؛ وأنا واثق من أنه سيعيد الملابس إلينا مقابل خمس وثلاثين تُدفع فوراً.

وبينما هما يتحدثان، جاء شخص وأكد لأنجيوليري أن فورتاريجو هو من استولى على نقوده، وأراه كمية النقود التي خسرها في القمار. فغضب أنجيوليري أشد الغضب، وشتم فورتاريجو أقذع الشتائم، ولولا خشيته من الحاضرين، وليس من الله، لكان أتبع الكلام بالأفعال. ولكنه اكتفى بتوعده بالشنق، وبالتشهير به في سيينا، ثم امتطى جواده.

تجاهل فورتاريجو تلك الشتائم والتهديدات، كما لو أنها موجهة إلى شخص آخر، وراح يقول له:

ـ آه يا أنجيوليري، دعنا الآن من هذا الكلام لأنه لا يفيد في شيء، ولنهتم باستعادة الملابس مقابل خمس وثلاثين قطعة نقدية إذا ما أخذناها الآن. أما إذا انتظرنا حتى الغد فلن يقبل أقل من ثمان وثلاثين، وهو المبلغ الذي أقرضني إياه. إنه يقدم لي هذا الجميل لأني عاملته بأمانة، فلماذا لا نكسب هذه القطع النقدية الثلاث؟..

فكان أنجيوليري يزداد غضباً وهو يسمع هذا الكلام، وخاصة حين يرى الطريقة التي ينظر بها إليه جميع من هم حوله، فيبدو عليهم أنهم لا يحسبون أن فورتاريجو هو الذي قامر بأموال أنجيوليري، وإنما هذا الأخير هو الذي يحتفظ معه بنقود ذاك. فيقول له:

ـ وماذا يهمني معطفك، وماذا يهمني لو شنقوك؟.. فأنت لم تكتفِ بسرقة نقودي والمقامرة بها، وإنما عطلت سفري، وتريد أن تسخر مني الآن.

لكن فورتاريجو لم يكن يتأثر ولا يتبدل، كأن ذلك الكلام ليس موجهاً إليه، ويواصل القول:

ـ لماذا تصر على عدم تمكيني من توفير هذه القطع النقدية الثلاث؟.. أتظن أنني لن أقرضك إياها؟.. آي! ولماذا أنت مستعجل هكذا؟.. مازال بإمكاننا الوصول إلى تورينيري هذه الليلة. أؤكد لك أننا لن نستطيع العثور في سيينا كلها على معطف مثل هذا. وقد تركته لدى ذلك الرجل مقابل ثمان وثلاثين قطعة نقدية! إنه يساوي أكثر من أربعين في الواقع، وأنت بهذا تسبب لي ضرراً مضاعفاً.

ولشدة غضب أنجيوليري من هذا الرجل الذي سرقه، ويريد الآن أن يعرقل رحيله بكلامه، لم يعد يرد عليه واستدار بجواده متخذاً طريقه نحو تورينيري. فخطرت لفورتاريجو فكرة خبيثة، وراح يمشي خلفه وهو بثيابه الداخلية، متوسلاً إياه من أجل المعطف. وبعد أن قطعا قرابة ميلين على هذا النحو، انطلق أنجيوليري مسرعاً ليخلص أذنيه من سماع ذلك الهراء. ورأى فورتاريجو بعض الفلاحين في حقل محاذ للطريق أمام أنجيوليري، فراح يصرخ بقوة متوجهاً إليهم:

ـ أمسكوا به، أمسكوا به!

رفع الفلاحون رفوشهم ومعاولهم وسارعوا إلى قطع الطريق أمام أنجيوليري، معتقدين أنه سرق ذاك الذي يتبعه بملابسه الداخلية صارخاً. فأوقفوه وأمسكوا به ولم تُجده نفعاً كل توضيحاته حول المسألة. وعندما أدركه فورتاريجو، قال له باستياء:

ـ لا أدري لماذا لا أقتلك أيها اللص!

ثم التفت إلى القرويين قائلاً:

ـ انظروا أيها السادة كيف تركني في النزل ورحل بعد أن خسر في القمار كل ما لديه. ويمكنني القول إنني استطعت بفضل الله وفضلكم أن أسترد كل شيء، وسوف أبقى شاكراً صنيعكم إلى الأبد.

كان أنجيوليري يردد الكلام نفسه، إنما لم يكن هناك من يصغي إليه. فراح فورتاريجو يجرده من ثيابه بمساعدة أولئك الفلاحين، بعد أن أنزله عن الحصان. ثم ارتدى هو الثياب، وركب الجواد مخلفاً أنجيوليري عارياً وحافياً، ورجع إلى سيينا حيث بدأ يشيع بين الجميع أنه قد كسب الحصان والملابس من أنجيوليري.

أما أنجيوليري الذي كان يظن أنه سيذهب غنياً إلى المطران في منطقة أنكونا،

فقد رجع فقيراً وبملابسه الداخلية إلى بونكونفينتو. ولم يتجرأ على العودة إلى سيينا إلا بعد وقت طويل. فبعد أن استعار بعض الملابس، ركب حصان فورتاريجو وذهب إلى أقرباء له في كورسينيانو. وظل هناك إلى أن علم أبوه بالأمر وأنجده مرة أخرى. وهكذا أضر خبث فورتاريجو بنوايا أنجيوليري الطيبة. لكن هذا لا يعني أن فعلته لم تلق العقاب بعد ذلك في المكان والزمان المناسبين.

القصة الخامسة

يقع كالاندرينو في حب شابة، فيكتب له برونو طلسما، يجعل الفتاة بفضلها تذهب معه عندما يلمسها بتلك الكتابة. لكن زوجة كالاندرينو تكتشف الأمر، فينشأ خلاف وغضب شديدان.

أنهت نيفيله قصتها غير الطويلة، ولم تجد نجاحاً كبيراً بين المستمعين؛ فتوجهت الملكة إلى فياميتا وأمرتها بأن تواصل القص، فقالت مبتهجة بأنها ستفعل بكل سرور، وبدأت كما يلي:

ـ صديقاتي النبيلات، أعتقد أنكن تعلمن أنه لا يمكن لتكرار الحديث في الأمر نفسه أن يكون مضجراً، إذا ما اختار المتحدث المكان والزمان المناسبين لعمل ذلك. ولأننا موجودون هنا للتسلية والترفيه عن أنفسنا، فإنني أرى أنه علينا أن نسعى إلى ما يمتعنا ويُضحكنا، حتى لو كان الحديث قد تناوله ألف مرة من قبل. ولقد تحدثنا كثيراً عن مغامرات كالاندرينو، وبالنظر إلى أنها جميعها مسلية وممتعة «مثلما قال فيلوستراتو قبل قليل»، فإنني أود رواية قصة أخرى تضاف إلى ما رُوي من قبل. ولو أنني أردت، أو أريد، الابتعاد عن حقيقة الوقائع، لكنت عرفت كيف أرويها باستخدام أسماء مختلفة؛ ولكن الابتعاد عن حقيقة الأحداث عند رواية القصص يقلل كثيراً من متعة المشاهدين. لهذا سأرويها بالطريقة الحقيقية والصحيحة، مستعينة بما رُوي من قبل.

نيكولو كورناتشيني هو مواطن من مدينتنا، ورجل واسع الثراء. وبين أملاكه

الكثيرة، كانت هناك قطعة أرض بديعة في كاميراتا، شيد عليها منزلاً بالغ الضخامة والأبهة. واتفق مع النقاشين برونو وبوفالماكو على طلاء البيت كله؛ لكنهما وجدا أن العمل كبير جداً، فأخذا معهما نيللو وكالاندرينو، وبدؤوا جميعهم العمل معاً في طلاء البيت. وبالرغم من وجود أسرَّة ولوازم أخرى في بعض غرف النوم، إلا أنه لم يكن هناك أحد يعيش في البيت، باستثناء خادمة تقيم هناك كحارسة للمكان. وقد اعتاد ابن السيد نيكولو المذكور، ويدعى فيليبو، وهو شاب غير متزوج، أن يأتي بين حين وآخر بامرأة تروقه، فيستبقيها هناك يوماً أو يومين، ثم يصرفها.

وحدث في إحدى المرات أن جاء بواحدة اسمها نيكولوسا، يستغلها في أحد مواخير حي كامالدولي قواد يدعى مانغيوني «الشره» ويؤجرها لكل من يرغب. وكانت المرأة جميلة الهيئة، حسنة الملبس، وهي تبدو بالمقارنة مع أخريات من صنفها، لطيفة المعشر ومحدثة لبقة. وقد خرجت في ظهيرة أحد الأيام من المخدع بملابس بيضاء خفيفة، وشعرها مفلت، لتغسل يديها ووجهها من ماء بئر في فناء البيت. وشاءت المصادفة أن يأتي كالاندرينو في، تلك اللحظة بالذات، إلى البئر من أجل الماء، فحياها وردت على تحيته. ولكنها راحت تنظر إليه، ليس لأي سبب آخر سوى أنه بدا لها رجلاً على شيء من الغرابة. وأخذ كالاندرينو ينظر إليها بدوره، فبدت له جميلة. وبدأ يبحث عن ذريعة للبقاء هناك بدل أن يعود إلى رفاقه بالماء. لكنه لم يجرؤ على التحدث إليها لأنه لا يعرفها. وقد لاحظت هي أنه ينظر إليها، فأرادت أن تسخر منه، وراحت ترمقه بين حين وآخر بنظرة متغنجة، ترفقها بإطلاق زفرة. فهيجت بحركاتها تلك كالاندرينو الذي ظل واقفاً في الفناء إلى أن غادرته الفتاة بعد أن استدعاها فيليبو إلى المخدع.

وعندما رجع كالاندرينو إلى العمل، كان مكتئباً لا يتوقف عن إطلاق الزفرات؛ فانتبه إلى ذلك برونو الذي كان قريباً منه، وقال له:

ـ ما الذي أصابك يا كالاندرينو؟.. فأنت لا تتوقف عن التنهد.

فأجابه كالاندرينو:

ـ آه يا صاحبي، لو كان لدي من يساعدني، لكنت في أحسن حال.

ـ وكيف ذلك؟.. ـ سأله برونو.

وهناك قال كالاندرينو:

ـ إنه أمر لا يمكن قوله لأحد. هناك في الأسفل فتاة أجمل من ساحرة، ولا يمكنك أن تصدق أنها قد وقعت في حبي وأُغرمت بي. وقد بيّنت لي ذلك الآن بالذات، حين ذهبت لإحضار الماء.

فقال له برونو:

ـ آي! حذار أن تكون امرأة فيليبو.

ـ أظنها هي ـ قال كالاندرينو، ثم أضاف ـ لأنه ناداها، وذهبا معاً إلى غرفته. ولكن، ما أهمية ذلك؟.. فأنا لن أتورع، في هذه الأمور، عن خداع المسيح نفسه، وليس فيليبو فقط. سأقول لك الحقيقة يا صاحبي، لقد أعجبتني كثيراً إلى حدّ لا يمكنني معه التكلم إليها.

عندئذ قال له برونو:

ـ سأرى يا صاحبي من هي، فإذا كانت صديقة فيليبو حقاً، فسوف أرتب لك الأمر بكلمتين، لأني أعرفها جيداً. ولكن المشكلة هي أن بوفالماكو سيعلم بالأمر، فأنا لا أستطيع أن أكلمها إلا إذا كان معي.

فقال كالاندرينو:

ـ لستُ قلقاً من بوفالماكو، لكن من يقلقني هو نيللو. عليك أن تكون حذراً بشأنه، لأنه قريب زوجتي تيسا، وسيخرب كل شيء.

ـ معك حق.

كان برونو يعرف من هي تلك المرأة منذ رآها تصل؛ كما أن فيليبو نفسه أخبره عنها. وقد استغل برونو توقف كالاندرينو عن العمل قليلاً، وذهابه لرؤيتها؛ فأخبر نيللو وبوفالماكو بكل شيء. ورتبوا معاً ما سيفعلونه بشأن ذلك الغرام. وعندما رجع كالاندرينو سأله برونو:

ـ هل رأيتها؟..

فأجابه:

ـ أجل، إنها تقتلني!

وقال برونو:

ـ سأذهب لأتأكد من أنها هي من أظنها. فإن كانت هي نفسها، فلا عليك؛ لأنني سأتدبر الأمر بنفسي.

ثم نزل والتقى مع فيليبو والفتاة، فأخبرهما من هو كالاندرينو، وما حدثه به عن المرأة. واتفقوا معاً على ما سيقوله ويفعله كل واحد منهم، ليتسلوا بغراميات كالاندرينو ويسخروا منه؛ ثم رجع إلى كالاندرينو وقال له:

ـ أجل، إنها هي نفسها. ولكن لا بد من التصرف بكثير من الحكمة كي لا يعلم فيليبو بالأمر، لأنه إذا علم فلن تكفي كل مياه نهر أرنو لتنظيفك. ماذا تريدني أن أقول لها على لسانك إذا ما أتيح لي التحدث معها؟..

فأجابه كالاندرينو:

ـ قل لها قبل كل شيء إنني أحبها ألف مكيال من أفضل التشرب بها، ثم قل لها إنني خادمها وعبدها، وإذا كانت تريد شيئاً... هل فهمتني؟..

فقال برونو:

ـ أجل، دعني أتصرف.

وعندما حان موعد العشاء، توقف النقاشون عن العمل، ونزلوا إلى الفناء لتقديم المساعدة لكالاندرينو. ووجدوا فيليبو ونيكولوسا هناك؛ فبدأ كالاندرينو ينظر إلى نيكولوسا ويقوم بأشد الإيماءات غرابة في الدنيا، بطريقة يمكن لأي أعمى أن يلاحظها. وراحت هي بدورها تقوم بكل ما من شأنه استثارة كالاندرينو والإيقاع به، مثلما طلب منها برونو. أما فيليبو فتظاهر بأنه يتحدث مع بوفالماكو ورفيقيه، وغير منتبه إلى ما يجري. لكنهم ما لبثوا أن انصرفوا بعد قليل، مما أثار استياء كالاندرينو. وبينما هم في الطريق إلى فلورنسا، قال برونو لكالاندرينو:

ـ أقول لك بكل صراحة إنك تذيبها حباً مثلما يذوب الثلج تحت الشمس. وأقسم لك بجسد المسيح إنك إذا ما أحضرت ربابتك، وغنيت لها أغنيات الحب التي تعرفها، فإنك

ستجعلها تلقي بنفسها من النافذة لتأتي إليك.

فقال كالاندرينو:

- أتظن ذلك يا صاحبي؟.. هل ترى أن أحضر الربابة معي؟..

- أجل، بالطبع.

وهنا قال له كالاندرينو:

- أنت لم تصدقني عندما أخبرتك اليوم يا صاحبي؛ ولكنني أرى أنني أعرف ما ينبغي عمله أفضل من الآخرين. فمن غيري يستطيع أن يوقع امرأة مثل هذه في حبه بهذه السرعة؟.. ستكون ساعة خير إذا تمكن من فعل ذلك هؤلاء الشبان الذين لا يتوقفون عن الصخب، لكنهم لا يستطيعون جمع حفنة من الجوز في ألف سنة. ولسوف ترى كيف ستكون الحال عندما أعزف على الربابة! وقد عرفت هي أنني لست عجوزاً جداً مثلما أبدو لك؛ لقد انتبهت هي إلى ذلك. ولكنني أقسم بجسد المسيح الحقيقي إني سأجعلها تلاحظ الأمر بطريقة أخرى عندما تصير بين يدي. لأن ما سأفعله بها سيدفعها إلى اللحاق بي مثلما تلحق المجنونة ابنها.

- آه، أظن أنني أعرف ما الذي ستفعله بها. إنني أتخيلك وأنت تعض بأسنانك هذه شفتيها الحمراوين وخديها الورديين، إلى أن تأكلها كلها بعد ذلك.

وبينما كالاندرينو يسمع هذه الكلمات، بدا له أنه يفعل ذلك حقاً، واستبدت به الحماسة، فراح يغني ويقفز بسعادة لا يتسع لها جلده. وفي اليوم التالي أحضر الربابة معه، ووسط استمتاع الجميع غنى أغنيات كثيرة. وباختصار، لم تكن به رغبة لعمل شيء سوى النظر إليها، فلم يقم بأي عمل، وإنما أمضى اليوم في التنقل راكضاً، من النافذة إلى الباب، إلى الفناء، أو إلى أي مكان آخر لرؤيتها. وكانت هي، عملاً بنصائح برونو، تتيح له ذلك بكثرة.

وتولى برونو من جانبه نقل الرسائل إليها، ونقل رسائل منها إلى كالاندرينو، أو اختلاق الرسائل بنفسه عندما لا يجد المرأة هناك، وهو ما كان يحدث في معظم الأحيان. واستمرت الحال على هذا المنوال من الضحك والتسلية طوال شهرين، فكان كالاندرينو يحمل إليه رسائل منها تعزز آماله في وصالها، وتؤكد له المرأة فيها أنها في بيت أهلها،

حيث لا يمكنه رؤيتها. وكان برونو وبوفالماكو يديران الأمور، ويتسليان بتصرفات كالاندرينو وأقواله، فيقدمان له أحياناً طلبات، على أنها من السيدة، يعربان فيها عن رغبتها في أن يهدي إليها مشطاً من العاج، أو حقيبة، أو سكيناً. ويقدمان إليه بالمقابل بعض الخواتم المزيفة عديمة القيمة، فيحتفي بها كالاندرينو على أنها أعاجيب. وكانا يحصلان منه على بعض الدعوات إلى الطعام وأشياء أخرى من هذا القبيل، لأنهما مشغولان بأمر غرامياته.

وبعد مرور حوالي شهرين على تلك الحال، رأى كالاندرينو أن العمل في طلاء البيت يوشك على الانتهاء، وفكر في أنه إذا لم يتوصل في غرامياته إلى النتيجة المنشودة قبل انتهاء العمل، فإنه لن يتمكن من تحقيق ذلك إلى الأبد. فبدأ يفقد صبره، ويلح على برونو الذي انتهز فرصة مجيء المرأة، فاتفق أولاً مع فيليبو ومعها على ما يجب عمله، ثم قال لكالاندرينو:

ـ انظر يا صاحبي، لقد وعدتني هذه المرأة بأن تفعل معك ما أنت راغب فيه، ولكنها لم تفعل شيئاً؛ ويبدو لي أنها تسخر منك. وبما أنها لا تفعل ما تعد به، فسوف نجبرها بالرضا أو الإكراه، إذا ما وافقت أنت على ذلك.

فأجابه كالاندرينو:

ـ أجل، بالله عليك، ولنسرع في الأمر.

وقال برونو:

ـ أتكون لديك الشجاعة على لمسها بطلسم أقدمه إليك؟..

فقال كالاندرينو:

ـ أجل، أستطيع بالطبع.

ـ فلتحصل لي إذاً على قطعة من رق كتابة بكر، مصنوع من جلد خفاش حي؛ وثلاثة أحجار بخور؛ وشمعة مباركة. ودعني أكتب لك الطلسم.

أمضى كالاندرينو الليلة التالية كلها في البحث عن خفاش، وعندما تمكن أخيراً من صيده بفخاخه، أعطاه لبرونو مع الأشياء الأخرى التي طلبها؛ فانزوى هذا الأخير في

حجرة، وكتب على جلد ذلك الخفاش بعض العبارات الغريبة، وقدمه إلى كالاندرينو قائلاً:

ـ اعلم يا كالاندرينو أنك إذا ما لمستها بهذا الطلسم، فسوف تتبعك في الحال، وتفعل معها كل ما تشاء. فإذا ما ذهب فيليبو اليوم إلى أي مكان، اقترب منها والمسها به، وتوجه فوراً إلى مستودع التبن القريب، فهو أفضل مكان هنا، لا يذهب أحد إليه أبداً. وسترى كيف ستلحق بك إلى هناك، وأنت تعرف عندئذ ما الذي عليك عمله.

أحس كالاندرينو أنه أسعد رجل في العالم، وقال:

ـ دع الباقي عليّ.

أما نيللو الذي كان كالاندرينو يخفي الأمر عنه، فكان يستمتع بكل تلك الأحداث مثل الآخرين، ويشارك معهم في السخرية. ولهذا، سارع إلى تنفيذ ما أمره به برونو؛ فذهب إلى زوجة كالاندرينو في فلورنسا وقال لها:

ـ أنت تذكرين يا تيسا الضرب الذي ضربك إياه كالاندرينو عندما رجع محملاً بأحجار جبل مونيون، ولهذا أريدك الآن أن تنتقمي منه؛ فإن لم تفعلي لن أكون بعد اليوم قريباً ولا صديقاً لك. لقد أغرم كالاندرينو بامرأة خبيثة، وكثيراً ما تتوارى وإياه على انفراد. وقد تواعدا قبل قليل على اللقاء. وأريدك أن تنتقمي، فتمسكي به متلبساً وتعاقبيه.

حين سمعت هذا الكلام، لم تر فيه مزاحاً، وإنما نهضت وراحت تقول وقد استشاطت غضباً:

ـ يا له من لص، أهذا ما يفعله بي؟.. أقسم بصليب المسيح أن أجعله يدفع الثمن.

ثم تناولت غطاء رأسها، وطلبت من امرأة أخرى أن ترافقها، ومضت مع نيللو، ليس مشياً وإنما ركضاً. وعندما رآها برونو قادمة من بعيد، قال لفيليبو:

ـ عليك بصديقنا الآن.

فاتجه فيليبو إلى حيث كان يعمل كالاندرينو والآخرون، وقال:

ـ عليّ أن أذهب إلى فلورنسا فوراً؛ فواصلوا العمل جيداً أيها الشباب.

ثم اختبأ في مكان يستطيع منه أن يرى كالاندرينو دون أن يراه. وعندما ظن كالاندرينو أن فيليبو قد ابتعد، نزل إلى الفناء حيث وجد نيكولوسا وحدها؛ فدخل معها في حديث، وكانت تعرف جيداً ما عليها أن تفعله. فاقتربت منه بشيء من الألفة أكبر مما اعتادت عليه، فلمسها كالاندرينو بالطلسم. وبعد أن لمسها، استدار دون أن يقول شيئاً، وتوجه نحو مستودع التبن. ولحقت به نيكولوسا إلى هناك، ثم دخلت خلفه وأغلقت الباب، وانقضت على كالاندرينو، فعانقته وطرحته على التبن. ثم امتطته ووضعت يديها على كتفيه، وراحت تنظر إليه برغبة شديدة وتقول:

ـ آه يا حبيبي كالاندرينو، يا روحي وراحتي، كم من الوقت مضى وأنا أتمنى امتلاكك بين ذراعي ورهن مشيئتي! لقد سلبت حبل قميصي برقتك، وكبلت قلبي بربابتك. أيكون صحيحاً أنك الآن بين ذراعي؟..

فرد عليها كالاندرينو وهو يكاد لا يستطيع التحرك:

ـ آه يا روحي! دعيني أقبّلك.

فتقول نيكولوسا:

ـ كم أنت متعجل! دعني أرك أولاً وأملأ عيني بوجهك الجميل!

كان برونو وبوفالماكو قد ذهبا إلى حيث يختبئ فيليبو. ومن هناك، كان الثلاثة يرون ويسمعون كل شيء. وبينما كالاندرينو يهم بتقبيل نيكولوسا، وصل نيللو ومعه السيدة تيسا؛ فقال لها:

ـ أقسم بالله إنهما معاً.

عندئذ دفعت المرأة المتفجرة بالغضب باب مستودع التبن بقوة، ودخلت لتجد نيكولوسا فوق كالاندرينو. وما إن رأت نيكولوسا الزوجة تدخل حتى نهضت، وولت هاربة إلى حيث يقف فيليبو. فانقضت السيدة تيسا على كالاندرينو، وأنشبت أظفارها في وجهه، ثم أمسكت به من شعره وراحت تطوح به إلى هذه الجهة وتلك قائلة:

ـ يا لك من كلب قذر، أهذا ما تعاملني به أيها العجوز الأبله؟.. لعنة الله على اليوم الذي أحببتك فيه. أليس لديك ما يكفيك في بيتك لتأتي وتحب أخريات؟.. يا لبؤسك من

عاشق! ألا تعرف نفسك أيها التعس؟.. لو عصرتك كلك لما خرج منك ما يكفي لصلصة واحدة. أقسم بالله إنني لست من سببت لك الحمل، وإنما هذه التي أرجو من الله أن يسامحها لأنها تسببت في حبل درة مثلك!

أما كالاندرينو الذي فوجئ برؤية زوجته، فقد ظل جامداً، لا هو بالميت ولا الحي. ولم يجرؤ على الدفاع عن نفسه وهي تخدش وجهه بأظفارها وتمزقه. ثم تناول عباءته وتوسل إلى زوجته بتذلل أن تتوقف عن الصراخ، كي لا يمزقوه إرباً لأن المرأة التي كانت معه هي سيدة البيت. فقالت له زوجته:

ـ ألا فليجعلها الله تلق سوء المصير!

كان برونو وبوفالماكو ـ وكذلك بقية الجماعة ـ قد ضحكا على هواهما؛ فدخلا إلى المكان، وتمكنا من تهدئة المرأة بعد كثير من الكلام؛ ثم نصحا كالاندرينو بأن يذهب إلى فلورنسا، وألا يعود ثانية لأن فيليبو سيؤذيه دون شك إذا ما علم بالأمر. وهكذا رجع كالاندرينو حزيناً ومغموماً وممزقاً إلى فلورنسا، ولم يتجرأ على العودة إلى ذلك البيت الريفي. وظل الضيق يلاحقه ليلاً ونهاراً من تأنيب زوجته المتواصل، ومن حبه المتأجج الذي انقطع. لكنه أضحك رفاقه كثيراً، مثلما أضحك كذلك نيكولوسا وفيليبو.

القصة السادسة

يبيت شابان في بيت رجل، فينام أحدهما مع ابنته، بينما تنام زوجته، دون أن تنتبه إلى ذلك، مع الآخر. ومن نام مع الابنة، يستلقي بعد ذلك إلى جانب الأب ويخبره بكل شيء معتقداً أنه يتحدث إلى رفيقه. فتحدث جلبة كبيرة؛ فتندس الأم في فراش ابنتها، وتهدئ الجميع ببضع كلمات.

كالاندرينو الذي أضحك الجماعة في مرات سابقة، أضحكهم مجدداً في هذه المرة؛ وبعد أن انتهى الجميع من التعليق، أمرت الملكة بانفيلو أن يروي قصته، فقال:

سيداتي الموقرات، لقد ذكّرني اسم نيكولوسا، حبيبة كالاندرينو، بقصة أخرى عن نيكولوسا ثانية، يسعدني أن أرويها لكنّ لترين من خلالها كيف يمكن لإلهام امرأة مفاجئ أن يدرأ فضيحة كبيرة.

كان يعيش في سهل منيون، منذ زمن غير بعيد، رجل طيب يوفر الطعام والشراب للمسافرين مقابل بعض المال. ومع أنه كان فقيراً وبيته ضيقاً، إلا أنه كان في بعض الأحيان، عند الضرورة القصوى، يسمح لبعض معارفه، وليس لأي شخص، بالمبيت في بيته. وكانت للرجل زوجة على قدر من الجمال، له منها ابنان اثنان، أحدهما أنثى جميلة وجذابة، في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، لم تتزوج بعد، والثاني طفل صغير لم يبلغ عامه الأول بعد، ولا تزال الأم ترضعه.

وكان هناك شاب وجيه ونبيل من أبناء مدينتنا قد وضع عينه على الفتاة، وصار يكثر من التردد على تلك المنطقة، ويزداد شغفاً بها. وعندما انتبهت الفتاة إلى أنها محبوبة من مثل ذلك الشاب الوسيم والوجيه، أحست بالزهو وصارت تسعى جاهدة، بالإيماءات والتلميحات، للحفاظ على حبه لها. وما لبثت أن وقعت بدورها في حبه. وقد أتيح لذلك الحب في مرات كثيرة، وبرضى الجانبين، أن يصل إلى ذروته المنشودة التي يرغبان فيها كلاهما، لو لم يكن بينوكيو (وهذا هو اسم الشاب) يشعر بالاستياء من تلطيخ شرف الفتاة وشرفه. غير أن تلظيه بنار الهوى المتأجج راح يزداد يوماً بعد يوم، وأحس بينوكيو بالرغبة في لقائها، وخطر له أن يجد طريقة للمبيت في بيت أبيها، معتقداً أن ذلك سيتم هناك دون أن يلفت انتباه أحد. وعندما استقر رأيه على الأمر، قرر تنفيذه بأسرع ما يمكن. فاستعان بصديق له يثق به، يدعى أدريانو، ويعرف سر غرامه. استأجر الصديقان جوادين مع حلول ليل أحد الأيام، وأردفا عليهما جرابي أمتعة، ربما ملأاهما بالقش، وغادرا فلورنسا راكبين. وتعمدا القيام بجولة واسعة قبل الوصول إلى سهل مونيون في ساعة متأخرة من الليل. عندئذ تظاهرا بأنهما عائدان من رومانيا، وتوجها نحو بيت الرجل الطيب وطرقا بابه. ولأن الرجل كان يعرف الشابين كليهما جيداً، فقد سارع إلى فتح الباب لهما. وبادره بينوكيو بالقول:

ـ انظر أيها الرجل الطيب، عليك أن توفر لنا مأوى هذه الليلة؛ فقد كنا نظن أننا سنتمكن من الدخول إلى فلورنسا، ولكننا لم نستطع الإسراع أكثر، ووصلنا في هذا

الوقت المتأخر.

فأجابه صاحب النزل:

ـ أنت تعرف يا بينوكيو أنني لا أستطيع توفير مأوى مريح لسادة مثلكما؛ ولكن بعد أن وصلتما إلى هنا في هذا الوقت المتأخر، ولم يعد بإمكانكما الذهاب إلى مكان آخر، فسوف أوفر لكما بكل سرور، وبأفضل ما أستطيع، مكاناً تبيتان فيه.

وهكذا ترجل الشابان عن جواديهما، وكان أول ما فعلاه لدى دخولهما البيت هو إطعام الجوادين. وكانا قد أحضرا معهما طعاماً للعشاء، فتناولاه مع مضيفهما. ولم يكن البيت سوى حجرة واحدة ضيقة، فيها ثلاثة أسرة موضوعة بأفضل طريقة استطاع صاحب البيت تدبرها «فقد كان هناك سريران في أحد جانبي الحجرة، والسرير الثالث في الجانب المقابل»، بحيث لم يكن هناك في الحجرة أي حيز يكفي لعمل أي شيء سوى المرور بصعوبة. فأمر الرجل بأن يُعدَّ للصديقين السرير الأقل سوءاً بين الأسرة الثلاثة، وطلب منهما النوم فيه. وبعد مرور بعض الوقت، ولم يكن أي منهما قد نام، لكنهما كانا يتظاهران بالنوم، جعل صاحب البيت ابنته تنام في أحد السريرين الباقيين. واندس في السرير الآخر مع زوجته التي وضعت بجانب فراشها مهد طفلها الرضيع. وكان بينوكيو يراقب كل تلك الترتيبات والتدابير، فانتظر بعض الوقت، إلى أن رأى أن الجميع قد استغرقوا في النوم. فنهض بهدوء، وتوجه بمنتهى الحذر إلى الفراش الذي ترقد فيه فتاته المحبوبة، واستلقى إلى جانبها. فتلقته الفتاة بسعادة على رغم من خوفها. وبينما بينوكيو يتبادل المتع معها، حدث أن أوقعت هرةٌ شيئاً ما في البيت، فسمعت الزوجة الضجة واستيقظت. ولخشيتها من أن يكون هناك شيء مريب، نهضت في الظلام، وتوجهت نحو مصدر الضجة. وشاءت المصادفة أن يكون أدريانو قد نهض، في تلك اللحظة، لقضاء حاجة طبيعية، فتعثر بالمهد الذي وضعته المرأة، ولم يستطع المرور دون إبعاده من أمامه، فحمله من مكانه ووضعه إلى جانب فراشه الذي ينام عليه. وبعد أن قضى ما نهض من أجله، رجع إلى فراشه دون أن يتذكر إعادة المهد إلى مكانه. أما المرأة، فبعد أن تأكدت من أن ما وقع لا يستوجب القلق، اكتفت بالصراخ على الهر لإبعاده، دون أن تشغل نفسها بإشعال أي ضوء، وعادت إلى الغرفة. وتوجهت متلمسة طريقها إلى الفراش الذي ينام فيه زوجها، ولكنها لم تجد المهد هناك، فقالت لنفسها:

«يا لي من تعسة! كدت أن أخطئ وأذهب إلى سرير الضيفين». واستدارت إلى الجهة الأخرى متلمسة طريقها في الظلام، فوجدت المهد واندست في الفراش الذي بجواره، حيث كان يرقد أدريانو، معتقدة أنه زوجها. ولم يكن أدريانو قد غفا بعد، فأحس بها وتلقاها بلطف وسعادة؛ وخاض المعركة دون أن ينبس ببنت شفة، فأنجزها دفعة واحدة، وباستمتاع شديد من جانب المرأة.

وفي أثناء ذلك، خشي بينوكيو أن يغلبه النعاس، فيستغرق في النوم وهو مع فتاته. وكان قد نال منها ما رغب فيه من المتعة، فنهض من جانب الفتاة يريد الرجوع إلى فراشه. لكنه وجد المهد، وظن أنه فراش صاحبي البيت، فتقدم قليلاً واندس في فراش المضيف الذي أيقظه مجيء بينوكيو. فظن بينوكيو أنه صديقه أدريانو، وقال له:

ـ الحقيقة إنني لم أعرف قط ما هو ألذ من نيكولوسا! وأقسم بجسد المسيح إنني استمتعت معها مثلما لم يستمتع رجل مع امرأة من قبل. وأقول لك إنني جامعتها ست مرات منذ تركتك.

حين سمع المضيف هذا الكلام، لم يرق له ما يسمعه، وقال في نفسه: «أية شياطين جاءت بهذا الرجل إلى فراشي؟..» ثم قال بصوت عال، وقد تغلب غضبه على حذره:

ـ هذا الذي فعلته يا بينوكيو نذاله كبيرة، ولست أدري لماذا فعلتَ هذا بي؛ ولكنني أقسم بالمسيح أن أجعلك تدفع الثمن غالياً.

ولم يكن بينوكيو بالشاب الحكيم والعاقل، فلم يسارع بعد أن اكتشف خطأه إلى محاولة إصلاحه بأي طريقة ممكنة، وإنما قال للرجل:

ـ وكيف ستجعلني أدفع الثمن؟.. ما الذي يمكنك عمله؟..

كانت زوجة المضيف تظن أنها نائمة مع زوجها، فقالت لأدريانو وهي تحسبه زوجها:

ـ انظر إلى ضيفينا يتشاجران، ولا أدري ما هو سبب خلافهما!

فأجابها أدريانو ضاحكاً:

ـ دعيهما وشأنهما، فليلعنهما الله، لا بد أنهما أفرطا في الشراب في الليلة الماضية.

الزوجة التي سمعت زوجها يصرخ، ثم سمعت صوت أدريانو، أدركت في الحال أين

هي ومع من تنام. ولأنها امرأة عاقلة، نهضت بسرعة ودون أن تنطق بأي كلمة، وتناولت مهد وليدها، مستغلة عدم وجود أي ضوء في الحجرة، ووضعته إلى جانب الفراش الذي تنام فيه ابنتها، واندست في الفراش معها. ثم تظاهرت بأنها تستيقظ على صراخ زوجها، فنادته وسألته عن سبب شجاره مع بينوكيو. فأجابها الزوج:

ـ ألا تسمعين قوله عما فعله الليلة مع نيكولوسا؟..

فقالت الزوجة:

ـ إنه يكذب بملء فمه؛ فهو لم ينم مع نيكولوسا. فقد جئت أنا للنوم معها هنا، لأنني لم أستطع النوم. وأنت مجرد بهيمة لأنك تصدقه. تكثرون من الشراب في الليل ثم تحلمون، وتتنقلون من مكان إلى آخر دون أن تدروا، ويخيل إليكم أنكم قمتم بأمور عظيمة. من المؤسف أنكم لا تدقون أعناقكم! ولكن، ما الذي يفعله بينوكيو معك؟.. لماذا ليس في فراشه؟..

انتبه أدريانو من جانبه إلى أن المرأة تحاول بدهاء أن تخفي فضيحتها وفضيحة ابنتها، فقال:

ـ لقد قلت لك مئة مرة يا بينوكيو ألا تنام خارج بيتك، لأن عادتك الذميمة هذه في النهوض والتحدث عن الخرافات التي تحلم بها، ستودي بك إلى نكبة في أحد الأيام. عد هنا إلى مكانك، ولعن الله هذه الليلة!

حين سمع المضيف كلام زوجته، وما قاله أدريانو، صدق أن بينوكيو كان يتكلم وهو نائم؛ فأمسك به من كتفيه وراح يهزه ويناديه قائلاً:

ـ انهض يا بينوكيو؛ عد إلى فراشك.

وكان بينوكيو قد سمع كل ما قيل، فتظاهر بأنه يحلم وقام ببلاهات أخرى مما جعل مضيفه يضحك مقهقهاً. وأخيراً، تظاهر بأنه أحس بالهز، فأبدى ملامح من يستيقظ من نوم عميق، ونادى صديقه أدريانو وسأله:

ـ هل توقظني لأن النهار قد طلع؟..

فقال له أدريانو:

ـ أجل، تعال إلى هنا.

فتظاهر بينوكيو بأنه نعس جداً. ثم نهض أخيراً من جانب مضيفه وعاد إلى فراشه إلى جوار أدريانو.

وعندما طلع الصباح، نهض المضيف وبدأ يضحك ويسخر منه ومن أحلامه. وبينما هم يضحكون ويمزحون على هذا النحو، أعدّ الشابان جواديهما ووضعا على ظهريهما جرابي الأمتعة. وبعد أن شربا نخباً مع المضيف، ركبا جواديهما واتخذا طريقهما إلى فلورنسا، وابتهاجهما بما سارت عليه الأمور لا يقل عن سعادتهما بما حققاه. وبعد ذلك، صار بينوكيو يجد طرقاً أخرى للقاء نيكولوسا التي ظلت تؤكد لأمها أنه قد كان يحلم في نومه فعلاً؛ فكانت المرأة تقول لنفسها، وهي تتذكر معانقات أدريانو لها، إنها الوحيدة التي كانت مستيقظة.

القصة السابعة

يحلم تالانو دي إيموليسي أن ذئباً يمزق حنجرة زوجته ووجهها، فيوصيها بأن تتوخى الحذر. ولكنها لا تولي اهتماماً إلى ما قاله، فيحدث لها ما حلم به.

بعد أن أنهى بانفيلو قصته، وأطرى الجميع على فطنة المرأة وحسن تدبيرها، طلبت الملكة من بامبينيا أن تواصل وفق الترتيب، وتروي قصتها، فبدأت هذه الأخيرة بالقول:

ـ لقد تحدث بعضنا سابقاً، يا صديقاتي اللطيفات، حول صحة الأحلام التي يسخر منها كثيرون؛ ولكن ذلك لن يمنعني من أن أروي قصة مقتضبة عما حدث، منذ زمن غير بعيد، لجارة لي لم تولِ اهتماماً لحلم عنها حلم به زوجها.

لست أدري إذا ما كنتم تعرفون رجلاً محترماً يدعى تالانو دي إيمولا. كان قد تزوج من امرأة شابة تدعى مرغريتا، تفوق النساء جميعهن بالجمال، لكنها امرأة تافهة ومشاكسة، متقلبة الأطوار وكثيرة الظنون؛ لا تقبل شيئاً مما يقوله الآخرون، مثلما لا

يقبل الآخرون شيئاً مما تقوله. ومع أن ذلك الوضع كان شديد الوطأة على تالانو، إلا أنه كان يتحمله لأنه لا يستطيع إلا أن يتحمله. وحدث في إحدى الليالي أن كان تالانو مع زوجته مرغريتا هذه في الريف، في إحدى مزارعهما. وفي أثناء نومه، بدا له أنه يرى امرأته تمضي عبر غابة بديعة تقع على مقربة من بيتهما؛ وبينما هو يراها تمشي في تلك الحال، خيل إليه خروج ذئب ضخم وضار من أحد أنحاء الغابة. وقد بادر ذلك الذئب إلى الانقضاض على حنجرتها وطرحها أرضاً. وراحت هي تصرخ طالبة النجدة، وتحاول انتزاع نفسها منه؛ وعندما تمكنت من التخلص من أنيابه، كان وجهها وحنجرتها ممزقين. وعندما استيقظ تالانو في صباح اليوم التالي، قال لزوجته:

ـ بالرغم من أن سوء طباعك قد حال دون أن أقضي يوماً واحداً من السعادة وراحة البال معك، إلا أنني سأتألم كثيراً إذا ما أصابك مكروه؛ ولهذا أطلب منك، إذا ما كنت تثقين برأيي، ألا تخرجي اليوم من البيت.

فسألته هي عن السبب، فأخبرها بحلمه كاملاً ومثلما رآه. فهزت المرأة رأسها وقالت:

ـ من يريد بك شراً يحلم بك بالشر. تتظاهر بأنك تشفق عليَّ، بينما أنت تحلم بي مثلما ترغب أن تراني. لكنني سأحترس اليوم وكل يوم، كي لا أوفر لك متعة أن تراني وقد حلّ بي هذا الأذى أو سواه.

عندئذ قال لها تالانو:

ـ كنت أعرف أنك ستردين على هذا النحو، لأن هذا هو جزاء من يربي غرباناً. ولكن مهما كان ما تظنينه، فإنني أردت لك الخير في ما قلته. وأكرر الآن تحذيري لك بأن تظلي اليوم في البيت، أو أن تمتنعي عن الذهاب إلى الغابة على الأقل.

فقالت المرأة:

ـ لا بأس.

ثم بدأت تقول في نفسها: «هذا الخبيث يريد إخافتي من الذهاب إلى الغابة اليوم، لأنه ضرب موعداً دون شك لواحدة من النساء الخبيثات، ولا يريدني أن أجده هناك. يا له من متذاك! وكم سأكون بلهاء إذا ما صدقته. لكنه لن يتوصل إلى ما يريد. ولا بد لي أن أرى بنفسي، ولو قضيت اليوم كله هناك، أي نوع من الصفقات هي التي يسعى إليها

اليوم». وعندما خرج زوجها من أحد بابي البيت، خرجت هي من الباب الآخر. وتوجهت بأقصى ما تستطيع من الحذر والتكتم إلى الغابة، واختبأت بين أشد النباتات كثافة والتفافاً هناك. وظلت تراقب وتترصد بحذر، فتنظر في هذا الاتجاه مرة، وفي ذاك مرة أخرى لترى إذا ما جاء أحد. وبينما هي على تلك الحال، دون أن يداخلها أي خوف من الذئب، خرج من إحدى الآجام ذئب ضخم ومرعب. وحين رأته لم تستطع أن تقول سوى: «النجدة يا سيدي!»، وكان الذئب في أثناء ذلك قد انقض على حنجرتها، وأمسك بها بقوة وبدأ يجرجرها هناك كما لو أنها حمل صغير. لم تعد المرأة قادرة على الصراخ «فالضغط على حنجرتها شديد»، كما أنها لم تستطع الدفاع عن نفسها. وكان الذئب، وهو يحملها، سيخنقها بكل تأكيد لو لم يلتق ببعض الصيادين الذين راحوا يصرخون، مما اضطره إلى إفلاتها. وتعرف الصيادون عليها وهي في تلك الحال من البؤس والتعاسة، وحملوها إلى بيتها. وبعد جهود طويلة ومضنية، تمكن الأطباء من علاجها، ولكن ليس بصورة تامة؛ فقد ظلت حنجرتها كلها، وجزء كبير من وجهها في حالة يرثى لها من التشوه. وتحولت إلى امرأة قبيحة ومشوهة بعد أن كانت مثالاً في الجمال. ولم تعد، بسبب خجلها، إلى الظهور في أي مكان يمكن أن يراها الناس فيه. وكانت تبكي كثيراً، وبمذلة، سوء ظنها وعدم تصديق حلم زوجها الذي ما كان سيكلفها شيئاً العمل بنصيحته.

القصة الثامنة

يسخر بيونديللو من شياكو بشأن وليمة غداء، فينتقم منه شياكو بتعريضه لضرب مبرح.

اتفق أفراد الجماعة السعيدة جميعهم على أن ما رآه تالانو وهو نائم لم يكن حلماً وإنما هو رؤيا، لأن ما رآه قد تحقق كاملاً ودون نقصان. وعندما ساد الصمت بينهم، توجهت الملكة إلى لوريتا وأمرتها بأن تواصل؛ فبدأت هذه قصتها قائلة:

ـ بما أن كل ما روي اليوم، يا صديقاتي الفطنات، جاء بإيحاء من قصص رويناها سابقاً، فإنني سأستوحي قصة انتقام المتعلم القاسي التي روتها بامبينيا يوم أمس، لأتحدث عن انتقام آخر كان قاسياً على من عاناه، وإن لم يكن بمثل ضراوة ذلك الانتقام.

كان يعيش في فلورنسا شخص يدعوه الجميع شياكو، وهو رجل شديد النهم، لا يجاريه أحد في الشراهة. ولأن إمكانياته لا تتيح له تغطية ما يتطلبه نهمه من نفقات، ولأنه من جهة أخرى محدث لبق، وصاحب أقوال ذكية ومبهجة، فقد سعى لا لأن يكون مهرجاً، وإنما محدثاً ظريفاً، يرتبط بالأغنياء الذين يستمتعون بتناول أطيب المأكولات. فكان يتردد عليهم لتناول الغداء والعشاء، وإن لم يكن مدعواً في معظم الأحيان. وكان يعيش في فلورنسا في ذلك الزمن شخص آخر يدعى بيونديللو، شديد التأنق والتهذب، يضع قبعة على رأسه ذي الشعر الطويل الأشقر المصفف بدقة لا تشوبها شائبة. وكان هذا الرجل يمارس مهنة شياكو نفسها. وفي صباح أحد أيام الصوم الكبير، ذهب هذا المدعو بيونديللو إلى سوق السمك لشراء سمكتي شلق سمينتين للسيد فيري دي شيرشي؛ ورآه شياكو هناك، فاقترب منه قائلاً:

ـ ما هذا الذي تشتريه؟..

فرد عليه بيونديللو:

ـ لقد أرسلوا مساء أمس ثلاث أسماك شلق أخرى أفضل من هذه، وسمكة حفش إلى السيد كورسو دوناتي. ولكنها ليست كافية للوليمة الكبرى التي سيقيمها اليوم لبعض كبار السادة، فأرسلني لأشتري هاتين السمكتين؛ ألن تذهب إلى الوليمة؟..

فأجاب شياكو:

ـ أنت تعرف جيداً أنني سأذهب.

وعندما قدّر أن الوقت صار مناسباً، توجه إلى بيت كورسو، فوجده مع بعض جيرانه، ولم يكن قد تناول الغداء بعد، فسأله السيد كورسو عما جاء به، فرد عليه شياكو:

ـ لقد جئت يا سيدي لتناول الغداء معك ومع صحبك.

فقال له كورسو:

ـ أهلاً وسهلاً بك، وبما أن موعد الغداء قد حان، فهلم بنا.

وعندما جلسوا إلى المائدة، كان أول ما تناولوه هو حمص مسلوق مع سمك تونا مملح، وتلا ذلك اسماك مقلية من نهر أروم، ولا شيء سوى ذلك. عندئذ أدرك شياكو الخدعة التي أوقعه فيها بيونديللو، فغضب أشد الغضب، وصمم على جعله يدفع ثمن سخريته منه. ولم تمض سوى بضعة أيام إلا والتقى به، وكان قد أضحك كثيرين برواية تلك الخدعة لهم. وما إن رآه بيونديللو حتى حياه ضاحكاً، وسأله كيف كانت أسماك الشلق عند السيد كورسو؛ فرد عليه شياكو قائلاً:

ـ ستعرف ذلك خيراً مني قبل أن تنقضي ثمانية أيام.

ودون أن يؤجل المسألة، اتفق شياكو مع أحد المحتالين، فأعطاه دمجانة من الزجاج، ثم أوصله إلى أروقة آل كافيكيولي، فأراه هناك سيد يدعى فيليبو أرجينتي، وهو رجل ضخم وقوي، شديد النزق والغضب، وقال له:

ـ اذهب إليه وأنت تحمل هذه الدمجانة، وقل له: «سيدي، لقد أرسلني بيونديللو وطلب مني أن أرجوك لتملأ له هذه الدمجانة من نبيذك الأحمر الجيد، لأنه يريد أن يلهو قليلاً مع أصحابه». وكن متيقظاً بحيث لا يتمكن من الإمساك بك، لأنه سيشبعك ضرباً، وستفسد الخطة كلها.

فقال المراسل الماكر:

ـ وهل عليّ أن أقول شيئاً آخر؟..

فقال شياكو:

ـ لا، اذهب إليه الآن، وبعد أن تقول له ما أخبرتك به، عد إلى هنا ومعك الدمجانة، كي أدفع لك أجرك.

انطلق الرسول راكضاً، ونقل الرسالة إلى فيليبو. وحين سمع السيد فيليبو ما قاله، ظن أن بيونديللو يريد السخرية منه، فاحتقن وجهه بالغضب وهو يقول:

ـ أي ترهات هذه؟.. لعنة الله عليك وعليه!

ثم نهض واقفاً ومدّ ذراعه ليضرب الرسول، ولكن هذا كان متيقظاً، وانطلق هارباً إلى حيث ينتظره شياكو الذي رأى كل شيء، وأخبره بما قاله السيد فيليبو. فدفع شياكو للرسول بكل سعادة، ولم يهدأ له بال إلى أن عثر على بيونديللو، وقال له:

ـ هل ذهبت مؤخراً إلى أروقة آل كافيكيولي؟..

وأجابه بيونديللو:

ـ لا، لم أكن هناك، لماذا تسألني؟..

فقال شياكو:

ـ لأن السيد فيليبو كان يبحث عنك؛ ولست أدري ما الذي يريده منك.

وهنا قال له بيونديللو:

ـ لا بأس، سأذهب الآن لأرى ما يريد.

وما إن ذهب بيونديللو حتى لحق به شياكو ليرى ما الذي سيحدث. أما السيد فيليبو الذي لم يستطع الإمساك بالرسول، فقد ظل يتميز غيظاً وينهشه الغضب لأنه لم يستطع أن يفهم من كلامه إلا أن بيونديللو يريد السخرية منه. وبينما هو على تلك الحال من الغضب، جاءه بيونديللو. فما كاد يراه حتى خرج للقائه، وبادره بلكمة قويه على وجهه.

فقال بيونديللو:

ـ آي! ما هذا يا سيدي؟..

لكن السيد فيليبو أمسك به من شعره، فانتزع القبعة عن رأسه وألقى بها أرضاً، وراح يقول دون أن يتوقف عن ضربه:

ـ سترى الآن ما الذي يعنيه هذا. عن ملء أي دمجانة وعن أي ترهات تحدثني؟.. أتظنني فتى غراً تسخر منه بالمزاح؟..

وبينما هو يقول هذا، كان يضربه بقبضتيه الحديديتين مهشماً وجهه، دون أن يترك شعرة واحدة مسرحة على رأسه، ثم مرغه في الوحل، ومزق ثيابه كلها التي كان يرتديها. وكل ذلك دون أن تتاح لبيونديللو أي فرصة للكلام أو السؤال عن السبب في

ذلك كله؛ وكل ما سمعه منه هو شيء عن ملء الدمجانة والترهات، ولكنه لم يكن يدري ما الذي يعنيه بتلك الأقوال. وبعد أن أشبعه السيد فيليبو ضرباً، واجتمع أناس كثيرون واستطاعوا انتزاعه بمشقة من بين يديه. أخبروه بالسبب الذي دفع السيد فيليبو إلى ضربه، ووبخوه لإرساله رسولاً يقول له ما قاله، لأن السيد فيليبو ليس من النوع الذي يمكن المزاح معه. فراح بيونديللو يبكي ويعتذر قائلاً إنه لم يرسل قط أي رسول يطلب نبيذاً من السيد فيليبو؛ وبعد أن استعاد بعضاً من قواه، رجع إلى بيته مغموماً وموجوعاً. وكان يفكر في أن من دبر ذلك لا بد أن يكون شياكو. وبعد أن ظل معتكفاً في بيته عدة أيام، ريثما يختفي أثر الكدمات من وجهه، وبدأ يخرج إلى الشارع، حدث أن التقى بشياكو الذي بادره بالسؤال:

ـ كيف وجدت نبيذ السيد فيليبو يا بيوندللو؟..

فرد عليه بيونديللو:

ـ مثلما وجدت أنت أسماك الشلق عند السيد كورسو!

عندئذ قال له شياكو:

ـ الأمر بيدك الآن، فإذا أردت لي أن آكل بتلك الطريقة، سأجعلك تشرب بهذه.

وكان بيونديللو يعرف أنه لا يستطيع مجاراة شياكو بالخبث، فتوسل إليه أن يتركه بسلام، ولم يعد منذ ذلك اليوم إلى محاولة السخرية منه.

القصة التاسعة

يطلب شابان نصيحة سليمان، فيسأله أحدهما كيف يمكن له أن يكون محبوباً، والآخر عن كيفية تأديب زوجته العنيدة؛ فينصح الأول بالحب، وينصح الثاني بالذهاب إلى جسر الإوزة.

لم يبق هناك سوى الملكة لتروي قصتها (إن هي أرادت احترام الامتياز الممنوح

لديونيو)، بعد أن ضحكت السيدات كثيراً من عاثر الحظ بيونديللو، بدأت الملكة الحديث مبتسمة:

ـ سيداتي المحبوبات، إذا ما نظرنا إلى الأمور بذهن صاف، فسوف نجد بكل سهولة أن النساء جميعهن يخضعن للرجال بفعل الطبيعة والعادات والقوانين، لأن المُلك والحكم يناسب رؤية هؤلاء وبصيرتهم؛ ولا بد بالتالي لمن يردن الطمأنينة والسلوى والراحة مع الرجال من أن يكن متذللات وصابرات ومطيعات معهم، فضلاً عن عفتهن التي تشكل كنزاً لكل واحدة منهن. وإذا كانت القوانين الموضوعة لمصلحة الجميع في كل الأمور غير كافية، وكذلك الأعراف والعادات بقوتها الكبيرة والجديرة بالاحترام، فإن الطبيعة أثبتت ذلك بصورة جلية عندما جعلتنا، نحن النساء، ناعمات ولينات في أجسادنا، خجولات وخائفات في نفوسنا، رحيمات ومشفقات في فكرنا، وجعلت قوانا الجسدية ضعيفة، وأصواتنا لطيفة، وحركات أعضائنا رقيقة؛ وكلها أمور تؤكد أننا بحاجة إلى من يحكمنا. ومن هو بحاجة إلى من يعينه ويحكمه، لابد له من أن يكون مطيعاً، وأن يخضع لمن يعينه ويحكمه ويحترمه. ومن هم الذين يساعدوننا ويحكموننا سوى الرجال؟.. فعلينا إذاً أن نكرم الرجال ونخضع لهم، وأرى أن من تشذ عن هذا لا تستحق اللوم والتأنيب فقط، وإنما العقاب القاسي كذلك. ومع أنني قد توصلت إلى هذه النتيجة مرات كثيرة من قبل، إلا أن بامبينيا ذكرتني بها قبل قليل، بما روته عن عناد زوجة تالانو التي أرسل الله إليها العقاب الذي لم يعرف زوجها تلقينها إياه. ولهذا أرى أن العقاب القاسي (كما قلت من قبل) هو ما تستحقه كل أولئك اللواتي يتخلين عن رقتهن ولطفهن ووداعتهن التي أرادتها لهن الطبيعة والعادات والقوانين. ويسعدني أن أحكي لكنَّ عن النصيحة التي قدمها سليمان الحكيم، كعلاج مفيد لشفاء أولئك المصابات بهذا الداء. ولا تحسبن من لا تستحق مثل هذا العلاج أن كلامي يعنيها، بالرغم من أن الرجال يرددون عادة المثل القائل: «المهماز ضروري للحصان الجيد والحصان الرديء على السواء، مثلما هي العصا ضرورية للمرأة الطيبة والمرأة الخبيثة».. فمن شاءت تفسير هذه الكلمات بصورة هازلة، ستتقبل على الفور أنها تنطبق على النساء جميعهن؛ وحتى لو أدرنا تفسيرها أخلاقياً، فإنه لا بد لنا من تقبلها. فالنساء بطبعهن متقلبات ويمكن التأثير عليهن؛ لهذا، ومن أجل إصلاح اضطرابات من يستسلمن للمضي بعيداً عن الحدود المفروضة عليهن، لا بد من العصا لمعاقبتهن؛ كما أن العصا ضرورية لتعزيز فضيلة الأخريات وإخافتهن، كي

لا يستسلمن للانزلاق. ولكن، فلندع المواعظ الآن، ولنتحول إلى ما أنوي روايته:

اتسعت شهرة سليمان وحكمته العجيبة حتى شملت الدنيا بأسرها، ودفع بذله إياها لكل من يريد معرفتها بنفسه، أناساً كثيرين إلى التوافد إليه من كل أرجاء العالم، ليعرضوا عليه مشاكلهم، ويطلبوا النصح منه في ضيقهم. وكان بين من ذهبوا إليه، شاب نبيل وثري، يدعى ميليسو، جاء من مدينة لايزو التي يتحدر منها ويعيش فيها. وبينما هو في طريقه إلى أورشليم، حدث أن التقى بعد مغادرته أنطاكية، بشاب آخر يدعى جوزيفو، يسافر على الطريق نفسه، فسارا كل على مطيته لبعض الوقت؛ وكما هي عادة المسافرين، بدأا في تبادل الحديث. وبعد أن أخبر جوزيفو ميليسو باسمه ووضعه، ومن أين هو آت، وإلى أين هو ذاهب؛ سأله ميليسو عن سبب رحلته، فقال جوزيفو إنه ذاهب إلى سليمان ليطلب منه النصح حول ما يتوجب عليه عمله بامرأته التي لا مثيل لها في العناد والمكر، لأنه لم يستطع بكل أساليب التوسل والملاطفة أن يخلصها من عنادها. ثم سأله بدوره عن موطنه، وعن سبب سفره، فأجابه ميليسو:

ـ أنا من لايزو، ومثلما لديك بلواك، لدي أنا أيضاً بلواي. فأنا رجل ثري، أنفق أموالي في دعوة أبناء بلدتي إلى مائدتي وتكريمهم؛ لكن الغريب والعجيب أنني لا أجد من يحبني حقاً، بالرغم من كل ما أبذله. ولهذا أنا ذاهب إلى حيث أنت ذاهب، لأطلب النصح عن كيف يمكن لي أن أصير محبوباً.

واصلا طريقهما معاً إلى أن وصلا إلى أورشليم، وتمكنا بمساعدة أحد رجال سليمان من المثول بين يديه، وبعد أن عرض عليه ميليسو حاجته، قال له سليمان:

ـ أَحِب.

وبعد قول هذه الكلمة، أُخرج ميليسو فوراً. ثم تحدث جوزيفو عن سبب مجيئه، فلم يجبه سليمان سوى بالقول:

ـ اذهب إلى جسر الإوزة.

وأُخرج جوزيفو من حضرة الملك فوراً كذلك بعد قول هذه الكلمات. وعندما التقى بميليسو الذي كان ينتظره، وأخبره بالجواب الذي حصل عليه؛ فكر الاثنان في هذه الكلمات، فلم يستطيعا فهم مغزاها. ولم يستخلصا منها أي فائدة تنفعهما في ما جاءا من

أجله. فأحسا بأنهما كانا ضحية سخرية، وانطلقا على الطريق عائدين إلى موطنهما. وبعد مسيرة عدة أيام، وصلا إلى نهر عليه جسر بديع. وكانت تمر على الجسر قافلة كبيرة من البغال والخيول، فاضطرا إلى الانتظار إلى أن تعبر القافلة الجسر. وعندما شارف مرور القافلة على الانتهاء، حدث أن جفل بغل، مثلما يحدث بكثرة لهذه الحيوانات، وحرن في مكانه لا يريد التقدم بأي طريقة. فتناول أحد البغالين عصا وراح يضربه برفق في أول الأمر، كي يجبره على عبور الجسر. لكن البغل راح يتنقل من أحد جانبي الطريق إلى الجانب الآخر، أو يتقهقر إلى الخلف، دون أن يتقدم بأي حال. فاشتد غضب البغال، وبدأ يضربه بالعصا بكل ما أوتي من قوة، مرة على رأسه وأخرى على خاصرتيه أو مؤخرته؛ ولكن دون جدوى. كان ميليسو وجوزيفو يراقبان المشهد، فقالا للبغال:

- ما الذي تفعله أيها التعس؟.. أتريد قتله؟.. لماذا لا تحاول اقتياده بهدوء وبالحسنى؟.. ولسوف يمشي خيراً من معاملتك إياه بالضرب.

فردّ عليهما البغال:

- أنتما تعرفان جواديكما، وأنا أعرف بغلي؛ فاتركاني أفعل ما أريده.

قال هذا وانهال على البغل بالضرب بقوة أكبر، فتقدم البغل إلى الأمام، وحقق البغال ما أراده. عندئذ تقدم الشابان لمواصلة طريقهما، ولكن جوزيفو توجه إلى رجل طيب كان يجلس عند بداية الجسر، وسأله عن اسم ذلك الجسر، فقال له الرجل:

- اسمه جسر الإوزة يا سيدي.

عندئذ تذكر جوزيفو كلمات سليمان الحكيم، وقال لميليسو:

- أقول لك الآن يا صاحبي، إن النصحية التي قدمها لي سليمان يمكن أن تكون جيدة وصحيحة، لأنني انتبهت الآن إلى أنني لم أعرف كيف أضرب زوجتي؛ ولكن هذا البغال علمني ما يتوجب علي فعله.

وبعد بضعة أيام، وصلا إلى أنطاكية، فطلب جوزيفو من ميليسو أن يتوقف عنده ليستريح بضعة أيام. وفي البيت، استقبلته زوجته بفتور شديد، فطلب منها أن تعدّ العشاء بالطريقة التي يطلبها ميليسو؛ وحين رأى هذا الأخير أن صاحبه يطلب ذلك، أخبرها بما يفضله للعشاء. فعمدت المرأة، كما هي عادتها، إلى إعداد عشاء مخالف تماماً لما طلبه

ميليسو. وعندما رأى جوزيفو ذلك قال لها غاضباً:

ـ ألم يقل لك ما يتوجب عليك عمله؟..

فردت المرأة بوقاحة:

ـ ما الذي يعنيه هذا؟.. آه! إذا كان العشاء لا يعجبك، فدعه ولا تأكل منه! وإذا كان قد طلبه بطريقة أخرى، فقد أحببت أنا أن أُعده بهذه الطريقة. فإذا أعجبك، كان بها؛ وإن لم يعجبك، فاصمت.

أذهل جواب المرأة ميليسو.

وعندئذ قال لها جوزيفو:

ـ مازلتِ مثلما كنتِ يا امرأة. ولكن صدقيني أنني سأجعلك تتغيرين.

ثم التفت إلى ميليسو قائلاً:

ـ سنجرب الآن يا صاحبي نصيحة سليمان؛ وأرجو ألا تستاء من رؤية ذلك، وألا تفكر في أن ما سأفعله مزاحاً. وكي لا تحاول منعي من فعله، تذكر جواب البغال لنا عندما أشفقنا على بغله.

فقال له ميليسو:

ـ أنا في بيتك يا جوزيفو، ولست أفكر في التدخل في أمورك.

عندئذ بحث جوزيفو عن عصا من شجرة سنديان فتية، وذهب إلى المخدع، حيث كانت زوجته التي نهضت عن المائدة غاضبة، وانصرفت وهي تتذمر. فأمسكها من شعرها وألقى بها أرضاً عند قدميه، وراح يضربها بتلك العصا بكل شراسة. بدأت المرأة تصرخ في أول الأمر، ثم راحت تهدده وتتوعده. ولكنها حين رأت أن جوزيفو لم يتأثر، وكان الضرب يؤلمها، أخذت تتوسل بحق الله ألا يقتلها. وتقول إنها لن تتخلف بعد اليوم عن عمل كل ما يرضيه. ولكن جوزيفو لم يتوقف بالرغم من كل ذلك، وواصل الضرب بمزيد من الغضب والقوة على ظهرها وخاصرتيها، ولم يتوقف إلا بعد أن تعب من كثرة الضرب. وباختصار، لم تبق بقعه في جسم المرأة إلا وأصابتها الرضوض والكدمات. وعاد بعد ذلك إلى ميليسو وقال:

ـ غداً سنرى كيف ستكون نتيجة نصيحة «اذهب إلى جسر الإوزة».

وبعد أن استراح، غسل يديه، وتناول العشاء مع ميليسو، ثم ذهبا للنوم. أما المرأة المسكينة، فقد تكبدت مشقة كبيرة في النهوض عن الأرض، وألقت بنفسها على السرير، حيث أراحت جسدها كيفما استطاعت. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت في وقت مبكر، وسألت جوزيفو عما يريد تناوله على الغداء. فأخبرها بما يريد وهو يضحك مع ميليسو. وعندما رجعا في موعد الغداء، وجدا كل ما طلباه جاهزاً. عندئذ امتدحا النصيحة التي لم يفهماها في أول الأمر.

وبعد بضعة أيام، ودع ميليسو صاحبه جوزيفو ورجع إلى موطنه، فأخبر صديقاً له هناك بما قاله له سليمان، فقال الصديق:

ـ لم يكن بإمكانه أن يقدم لك أفضل من هذه النصيحة ولا أكثر صدقاً منها. فأنت تعرف أنك لا تحب أحداً. أما ما تقدمه من تكريم وجميل للآخرين، فلا تقدمه بدافع المحبة، وإنما للتفاخر والتباهي. فأحب الآخرين، مثلما قال لك سليمان، لتكون محبوباً.

وهكذا تم إصلاح المرأة العنيدة، وأحب الشابُ الآخرين، فصار محبوباً.

القصة العاشرة

يقوم الكاهن دون جياني، بناء على طلب صاحبه بيترو، بعمل سحري لتحويل زوجة هذا الأخير إلى فرس، وعندما يريد وضع الذيل لها، يقول بيترو إنه لا يريد وضع ذلك الذيل، فيفسد السحر كله.

القصة التي روتها الملكة، أحدثت بعض الدمدمات بين النساء، وأضحكت الرجال. وبعد أن صمت الجميع، بدأ ديونيو الكلام:

ـ سيداتي الكريمات، بين حشد من الحمائم البيضاء، يمكن لغراب أسود أن

يضفي من الجمال أكثر مما تضفيه بجعة ساذجة؛ وهكذا هي الحال بين جمع من الحكماء، حيث يمكن لشخص أقل حكمة أن يُبرز روعة الآخرين وبهاءهم. وهكذا فإنني أنا الذي تفوح مني رائحة الحماقة، أجعل بعيوبي من مزاياكن، أنتن العاقلات الحصيفات، أشد تألقاً. وهذا يستدعي أن أكون محط تقديركن ومحبتكن أكثر ممن يغطي على مزاياكن. ولا بد بالتالي من حصولي على حرية أكبر في إظهار ما أنا عليه، وأن تبدين أنتن من الصبر تجاهي، وأنا أروي ما سأرويه، أكثر مما كان عليكن إظهاره لو أنني كنت حكيماً. ولسوف أقص عليكن قصة ليست بالطويلة، تدركن من خلالها أنه لا بد من التقيد بحرفية ما تستدعيه أعمال السحر، لأن أدنى خلل يُقترف فيها يُفسد كل ما أنجزه السحر.

كان يعيش في بارليتا كاهن يدعى جياني دي بارولو، ولأن كنيسته فقيرة لا تكفي لإقامة أوده، بدأ يحمل بضاعة على فرس له ويتنقل من مكان إلى آخر، ليبيع ويشتري، في أسواق منطقة أبوليا الشعبية. وخلال تنقلاته تلك، تعرف على بيترو دي تريسانتي وعقد معه صداقة متينة، وكان بيترو يمارس المهنة نفسها، لكنه يحمل بضاعته على حمار. وكعلامة على الصداقة الحميمة، لم يعد الكاهن يناديه إلا صاحبي بيترو، على طريقة أهالي أبوليا. وعندما كان بيترو يذهب إلى بارليتا، يأخذه الكاهن إلى كنيسته ليقيم معه، ويكرمه قدر ما يستطيع. فكان الصاحب بيترو من جانبه، وهو فقير يملك كوخاً بائساً في تريسانتي، لا يكاد يتسع له ولزوجته الشابة الجميلة وحماره، يأخذ الكاهن جياني إلى بيته كلما جاء إلى تريسانتي، ويكرمه قدر استطاعته رداً لجميل الكاهن في تكريمه. أما بشأن المبيت، فلم يكن لدى الصاحب بيترو إلا مرقد ضيق، ينام فيه مع زوجته الجميلة، ولم يكن قادراً على تكريم صديقه مثلما يرغب؛ اللهم إلا في إسطبل ضيق لحماره وفرس الكاهن جياني، حيث يتوجب على هذا أن ينام فوق كومة من القش. وحين علمت المرأة ما يوفره الكاهن من تكريم لزوجها في بارليتا، صارت ترغب، كلما جاء الكاهن، في الذهاب للنوم مع جارة لها تدعى زيتا كارابريسا، هي زوجة القاضي ليو، كي يتمكن الكاهن من النوم في الفراش مع زوجها. وكانت تقول ذلك للكاهن، لكن الكاهن لم يكن يقبل بذلك. وقد قال لها في إحدى المرات:

ـ لا تقلقي بشأني يا سيدة جيماتا، فأنا على أحسن حال مع هذه الفرس، لأنني عندما أرغب، أحوّلها إلى فتاة جميلة وأنام معها، ثم أحولها حين أشاء إلى فرس من جديد. ولهذا لا أحب الابتعاد عنها.

أدهش قوله المرأة الشابة، وصدقت ما قاله. ثم أخبرت زوجها بالأمر، وأضافت قائلة:

ـ إذا كان صديقك المقرب كما تقول، فلماذا لا تطلب منه أن يعلمك هذا السحر لتتمكن من تحويلي أنا إلى فرس؛ فتقوم بتجارتك على الحمار والفرس، وتتضاعف تجارتك؟.. وعندما نرجع إلى البيت تحولني مرة أخرى إلى امرأة مثلما أنا عليه الآن.

وكان الصاحب بيترو رجلاً محدود العقل، فصدق الأمر وعمل بنصيحتها. وبدأ يطلب من جياني، بأفضل ما يستطيع، أن يعلمه ذلك السحر. وسعى السيد جياني بكل السبل إلى إخراجه من تلك الحماقة، وعندما لم يستطع، قال له:

ـ حسن، بما أنك مصر على ذلك، فسوف ننهض غداً، كما هي عادتنا، قبل الفجر. وسوف أبين لكما عندئذ كيف أفعل ذلك. والحقيقة إن أصعب ما في العملية، كما ستريان، هي مسألة تركيب الذيل.

لم يكد الصاحب بيترو والصاحبة جيماتا يعرفان سبيلاً إلى النوم في تلك الليلة، فقد كانا ينتظران انبلاج الفجر بلهفة. وعندما حان الوقت، أيقظا الكاهن جياني؛ فنهض بملابسه الداخلية، وجاء إلى غرفة صاحبه بيترو وقال له:

ـ لا يوجد في هذه الدنيا أحد غيركما أعلمه هذا السحر؛ ولأنكما ترغبان في ذلك، فسوف ألبي رغبتكما. ولكن عليكما أن تفعلا ما أقوله لكما كي يتم الأمر على أحسن وجه.

فأجابا بأنهما سينفذان كل ما يقوله لهما؛ عندئذ تناول السيد جياني مصباحاً ووضعه في يد صاحبه بيترو قائلاً له:

ـ انظر جيداً ما سأفعله، وتذكر ما سأقوله إذا كنت لا تريد إفساد الأمر كله. وحذار أن تنطق بكلمة واحدة مهما كان ما تسمعه أو تراه؛ وابتهل إلى الله أن يلتصق الذيل جيداً.

تناول الصاحب بيترو الضوء، وقال له إنه سيتقيد بما قاله. ثم طلب السيد جياني من الصاحبة جيماتا أن تتعرى مثلما ولدتها أمها. وجعلها تضع يديها إلى جانب قدميها على الأرض، مثلما هي الأفراس، وأوصاها كذلك بألا تنطق بكلمة واحدة مهما حدث لها. وبدأ بلمس وجهها ورأسها بيديه وهو يقول:

ـ فليكن هذا الرأس رأس فرس.

ثم لمس الشعر، وقال:

ـ فليكن هذا الشعر عرف فرس.

ثم لمس ذراعيها وقال:

ـ فلتكن هاتان الذراعان قائمتي فرس.

ولمس بعد ذلك صدرها، فوجده صلباً ومكوراً، فأيقظ فيه ما لم يُستدع للنهوض، فقال:

ـ وليكن الصدر هذا صدر فرس أصيلة.

وفعل الشيء نفسه بالظهر والبطن والردفين والفخذين والساقين. وأخيراً، لم يبق شيء سوى الذيل؛ فرفع طرف قميصه وأخرج العدة التي تميز الرجال، وسارع إلى دسه في الشق المخصص له، وقال:

ـ وليكن هذا ذيل فرس لائقاً.

كان الصاحب بيترو يراقب كل شيء باهتمام، وحين رأى هذه العملية الأخيرة، لم يرقه الأمر، وقال:

ـ إيه يا سيد جياني، لا أريد ذيلاً، لا أريد ذيلاً!

وكانت الرطوبة السائلة التي تمنح النمو والحياة لكل نبات قد تدفقت عندما تراجع السيد جياني إلى الوراء، وقال:

ـ آه منك يا صاحبي بيترو، ما هذا الذي فعلته؟.. ألم أقل لك ألا تنطق بكلمة مهما كان ما تراه؟.. كانت الفرس على وشك أن تتشكل، ولكنك أفسدت كل شيء، ولم

تعد هناك طريقة لإصلاح الأمر وصنع الفرس أبداً.

فرد عليه الصاحب بيترو:

ـ لا بأس، أنا لا أريد هذه الذيل. لماذا لم تطلب مني أن أضعه أنا؟.. ثم إنك ألصقت الذيل في موضع منخفض جداً.

فقال السيد جياني:

ـ ما كان بإمكانك لصق الذيل جيداً منذ المرة الأولى مثلما أفعل أنا.

حين سمعت المرأة الشابة هذا الكلام، نهضت وقالت لزوجها مستاءة:

ـ يا لك من بهيمة! لماذا أفسدت أمورك وأموري على هذا النحو؟.. أين رأيت في حياتك فرساً بلا ذيل؟.. يعلم الله كم أنت فقير، ولكنك تستحق أن تكون أشد فقراً.

ولأنه لم تعد هناك وسيلة ممكنة لتحويل المرأة الشابة إلى فرس، بسبب الكلمات التي نطق بها الصاحب بيترو، عادت المرأة إلى ارتداء ملابسها بكآبة وغم، وخرج الصاحب بيترو مع الحمار، كعادته، ليقوم بعمله كما في السابق. وتوجه مع السيد جياني إلى سوق بيتونتو، ولكنه لم يعد إلى طلب أي خدمة منه.

●●

أضحكت هذه القصة كثيراً النساء اللواتي فهمنها خيراً مما أراده ديونيو. وليفكر في ذلك من يضحك الآن وهو يقرؤها. ولكن مع انتهاء القصة، وبدء الشمس بالمغيب، أدركت الملكة أن نهاية حكمها قد حانت، فنهضت واقفة ونزعت إكليل الغار عن رأسها، ووضعته على رأس بانفيلو، وهو الرأس الوحيد الذي لم يتشرف به بعد؛ ثم قالت مبتسمة:

ـ سيدي، إن حملاً ثقيلاً يلقى على كاهلك، لأنك الأخير، وعليك أن تصلح أخطائي وأخطاء الآخرين الذين شغلوا هذا الموقع الذي تشغله أنت الآن. فأرجو من الله أن يمنحك النعمة التي منحني إياها وأنا أختارك ملكاً علينا.

تلقى بانفيلو التكريم بسعادة، ورد عليها قائلاً:

ـ أفضالك يا سيدتي، وأفضال رعيتي الآخرين، ستجعلني موضع امتداح مثلما جرى امتداح من سبقوني.

وكما هي عادة الآخرين الذين سبقوه، قام بترتيب كل الأمور الضرورية مع القهرمان، ثم رجع إلى السيدات اللواتي ينتظرن، وقال:

ـ لقد أتاحت لكم حكمة إيميليا، ملكتنا الأخيرة، نيل قسط من الراحة حين منحت لكل واحد منا حرية الحديث حول ما يروقه ويرغب فيه. وبما أنكم قد استرحتم الآن، فإنني أرى أن نعود إلى شريعتنا المعهودة في التحدث في موضوع محدد. وأريد من كل واحد منكم أن يفكر، من أجل الغد، بقصة عن أولئك الذين تصرفوا بشهامة أو بعظمة وجلال حقيقيين، سواء في شؤون الحب أو غيره من الشؤون.

نال الموضوع رضا أفراد الجماعة كلهم، ثم نهضوا بإذن من الملك، وتوزعوا للهو والتسلية كل حسب مراده وهواه. وظلوا على تلك الحال حتى موعد العشاء، فتناولوه في أجواء بهيجة، ثم نهضوا بعد الانتهاء ليرقصوا رقصاتهم المعهودة ويستمتعوا بالغناء. وعندئذ أمر الملك نيفيله بأن تغني أغنية، فبدأت بسعادة، وبصوت رقيق، هذه الأغنية:

أنا شابة فتية محبة للهو
ابتهج وأغني في الربيع
لنِعم الحب والأفكار العذبة

أمضي في المروج الخضراء متأملة
الأزهار البيضاء والحمراء والصفراء،
الورود المنتصبة فوق الشوك، والزنبق الأبيض
فأراها كلها كوجه ذاك الذي أحبه ويحبني،
ومن سأحبه إلى الأبد،
دون رغبة أخرى سوى إسعاده.

حين أجد زهرة، تذكرني به،
أتناولها، أقبّلها، أحدثها عنه

تتفتح روحي لها وكل رغباتي،
فأصنعها مع غيرها من الأزهار إكليلاً
لشعري الناعم الأشقر.

المتعة التي تمنحها الأزهار
للنظر، يمنحني مثلها
من يؤججني بهذا الحب العذب.
واللذة التي يوحي بها أريجها
أعجز عن وصفه بالكلام،
فتشهره تنهداتي.

تنهدات تنطلق من صدري
لا كتأوهات غيري من المحزونات،
بل تخرج ناعمة وحارة على الدوام.
تطير مجنحة مع حبي،
وحين يسمعها الحبيب،
يأتي إليّ حيث أكون،
ليقول لي:
«حبيبتي، هأنذا هنا، فلا تحزني».

أثنى الملك والسيدات جميعهن مطولاً على أغنية نيفيله؛ وبعد ذلك، ولاسيما أن شطراً لا بأس به من الليل كان قد انقضى، أمر الملك الجميع بالذهاب للراحة حتى اليوم التالي.

وهنا ينتهي اليوم التاسع



اليوم العاشر

هنا يبدأ اليوم العاشر والأخير من الديكاميرون، وفيه يجري الحديث، تحت حكم بانفيلو، حول من يتمكن، بالشهامة والمروءة أو بعمل عظيم وجليل، من تحقيق إنجاز كبير، سواء في شؤون الحب أو غيرها.

كانت لا تزال هناك بعض السحب المائلة إلى الحمرة في الأفق الغربي، بينما كانت سحب الأفق الشرقي تمتد متألقة كما الذهب اللامع؛ تضيئها أشعة الشمس فتزيدها ألقاً مع اقترابها منها، عندما استيقظ بانفيلو، واستدعى الجماعة كلها. وبعد أن حضر الجميع، تداول الملك معهم عن الوجهة التي سيتوجهون إليها للتنزه والتسلية، ثم انطلق بخطوات وئيدة ترافقه فيلومينا وفياميتا، ويتبعهم الآخرون كلهم؛ يتبادلون الحديث حول حياتهم الآتية. فأمضوا وقتاً طويلاً وهم في التنزه والأحاديث، إلى أن بدأت حرارة الشمس تشتد، فرجعوا إلى القصر. وهناك اجتمعوا حول النافورة، فغسلوا الكؤوس بمائها الرقراق، وشرب من أراد منهم الشرب، ثم انتشروا للهو تحت ظلال الحديقة الوارفة إلى أن حلّ موعد الغداء. وبعد أن تناولوا الطعام، ناموا لبعض الوقت، مثلما اعتادوا أن يفعلوا. وعندما استدعاهم الملك، اجتمعوا كلهم، طلب من نيفيله أن تبدأ برواية قصتها. فابتسمت وبدأت الكلام بالقول:

القصة الأولى

يخيل لفارس يعمل في خدمة ملك إسبانيا أنه لم يتلق تعويضاً مناسباً يليق بخدماته، فيكشف له الملك، بدليل واضح، أنه ليس السبب في ذلك، وإنما هو سوء طالعه، ثم يكافئه بعد ذلك بسخاء.

ـ يسعدني يا صديقاتي المحترمات أن يكون ملكنا قد اختارني لأكون أول المتكلمين حول عظمة الكرم الذي هو ضوء ونور كل الفضائل، مثلما هي الشمس جمال وزينة السماء. وسأروي لكم قصة لا يمكن لذكرها، حسب رأيي، إلا أن يكون مفيداً.

لابد أنكم جميعكم تعلمون أن بين أعظم الفرسان الذين عرفتهم مدينتنا منذ زمن طويل وحتى اليوم، كان هناك واحد، ربما هو الأفضل، يدعى السيد روجيري دي فيجيوفاني. وقد كان المذكور غنياً وعالي الهمة، له تطلعات بعيدة المدى. ورأى أنه لن يتمكن من إظهار شجاعته، بالنظر إلى أساليب الحياة والعادات التوسكانية التي يعيش في كنفها. فقرر أن يلتحق لبعض الوقت بألفونسو ملك إسبانيا الذي كانت شهرة شجاعته تتجاوز شهرة أي سيد آخر في تلك الأزمنة. فتزود بما يتطلبه الشرف من الأسلحة والخيول والأتباع، وذهب إليه في إسبانيا، حيث استقبله الملك بالحفاوة. وهناك عاش السيد روجيري حياة مترفة، وحقق الأعاجيب في الأعمال الحربية، وسرعان ما اشتهر بنبله وشجاعته. وكان أثناء وجوده هناك يراقب أساليب الملك وعاداته، فلاحظ أنه يمنح القلاع والمدن والألقاب بطريقة قليلة الحكمة، ويقدمها لمن لا يستحقونها. وكان يرى أنه هو نفسه لم يُمنح أي أعطية أو مكافأة بالرغم من أنه أبرز الفرسان؛ فقدر أن الملك يستهين به ويقلل من شأنه، وقرر مغادرة ذلك المكان، وطلب من الملك أن يأذن له بذلك. فصرح له الملك بالرحيل، ومنحه بغلة من أفضل البغال وأجملها، أعجب بها السيد روجيري أيما إعجاب. وبعد ذلك، أوصى الملك أحد خدمه المتكتمين أن يجد طريقة لمرافقة السيد روجيري في المرحلة الأولى من رحلته، دون أن يُشعره بأنه موفد من الملك، وأن يحفظ في ذاكرته كل ما يقوله السيد روجيري عنه، ويطلب منه في صباح اليوم التالي أن يرجع إلى

الملك. وكان الخادم متيقظاً عندما غادر السيد روجيري المدينة، فلحق به بكل براعة ومداراة، قائلاً له إنه ذاهب إلى إيطاليا. فمضيا معاً يتبادلان الحديث، وكان السيد روجيري يمتطي البغلة التي أهداه إياها الملك. وبعد مسيرة لا بأس بها، قال للخادم:

ـ أظن أنه صار من المناسب إراحة هذه الدواب وإتاحة الفرصة لها للتبول وإخراج روثها.

ودخلا إسطبلاً حيث تبولت البهائم كلها وتخلصت من روثها، باستثناء البغلة؛ ثم واصلا الطريق، والخادم متيقظ طوال الوقت لكل ما يقوله الفارس، إلى أن بلغا نهراً، فأوقفوا البهائم هناك لتشرب، وعندئذ تبولت البغلة في النهر. فقال السيد روجيري حين رأى ذلك:

ـ لعنة الله عليك من بهيمة! إنك مثل السيد الذي أهداني إياك.

حفظ الخادم هذه الكلمات، مثلما حفظ غيرها خلال الطريق التي قطعاها في ذلك اليوم؛ ولكنه لم يسمع منه كلمة مديح واحدة للملك. وفي صباح اليوم التالي، عندما ركب السيد روجيري يريد مواصلة طريقه إلى توسكانا، نقل إليه الخادم أمر الملك بالرجوع، فسارع السيد روجيري إلى تلبية طلب الملك وقفل راجعاً. وبعد أن عرف الملك ما قاله عن البغلة، استدعاه وسأله عن سبب مقارنته له بالبغلة، أو بكلمة أصح، مقارنة البغلة به. فأجابه السيد روجيري:

ـ أنت تشبهها يا مولاي في أنك تمنح الهبات لمن لا يستحقونها، وتحرم منها الجديرين بها، وهكذا هي البغلة، لم تُخرج بولها وروثها حيث ينبغي لها، وفعلت ذلك حيث لا ينبغي.

فقال الملك:

ـ كوني لم أمنحك شيئاً يا سيد روجيري، ومنحتُ آخرين أدنى منك، لم يحدث لأني لم أجدك فارساً شجاعاً وجديراً بأعظم المنح؛ وإنما السبب هو حظك الذي لم يتح لي تكريمك، فهو المخطئ ولستُ أنا. وسأثبت لك أن ما أقوله هو الحقيقة.

فأجابه السيد روجيري:

ـ مولاي، أنا لم أغضب بسبب عدم نيلي من هباتك وعطاياك، فأنا غني ولا أرغب في مزيد من الثراء، وإنما لأن جلالتك لم تبدِ أي تقدير لقيمتي وشجاعتي. ومع ذلك، فإنني أرى في اعتذاركم هذا ما يكفيني ويشرفني؛ وأنا مستعد لتقبل ما تقوله، حتى لو لم تقدم أي دليل عليه.

عندئذ أخذه الملك إلى قاعة كبيرة، فيها صندوقان كبيران مغلقان، وقال له بحضور جمع كبير:

ـ سيد روجيري، في أحد هذين الصندوقين يوجد تاجي، والصولجان الملكي، وكثير من أفضل أحزمتي وخواتمي وجواهر أخرى أملكها. أما الصندوق الآخر، فمملوء بالتراب. اختر أحدهما الآن، والصندوق الذي تختاره سيكون لك، وسترى من هو الجاحد الذي أنكر قيمتك وشجاعتك، أهو أنا أم سوء حظك.

حين رأى السيد روجيري أن تلك هي رغبة الملك، اختار أحد الصندوقين، فأمر الملك بفتح ذلك الصندوق، وتبين أنه مملوء بالتراب. عندئذ ضحك الملك وقال:

ـ يمكنك أن ترى بوضوح يا سيد روجيري أن ما قلته لك عن سوء طالعك هو الحقيقة؛ ولكن شجاعتك تستحق في الواقع أن أعارض قوى حظك. أنا أعرف أنك لا تنوي أن تصير إسبانياً، ولهذا لن أقدم لك قلعة أو مدينة هنا. غير أن الصندوق الذي انتزعه الحظ منك، أريده أن يصير لك، رغماً عن الحظ، كي تأخذه إلى موطنك، وتتمكن من إثبات شجاعتك أمام مواطنيك بهداياي هذه.

تقبل السيد روجيري الهدية، وقدم للملك الشكر والحمد اللائقين بهذه الهدية، ورجع سعيداً إلى توسكانيا.

القصة الثانية

يأسر جينو دي تاكو رئيسَ دير كلوني ويشفيه من ألم في معدته، ثم يطلق سراحه بعد ذلك؛ فيعود رئيس الدير إلى بلاط روما، ويصالح جينو مع البابا بونيفيسيو، فيعينه فارساً إسبتارياً.

أشاد الجميع بعظمة الملك ألفونسو في علاقته بالفارس الفلورنسي. عندئذ نظر بانفيلو إلى إليسا طالباً منها أن تواصل القص، فسارعت إلى الاستجابة، وبدأت بالقول:

ـ سيداتي الرقيقات، كون الملك هو من قام بالعمل العظيم مستخدماً عظمة مكانته

مع واحد من رعاياه قدم خدماته إليه، لا يعني عدم امتداحه والإطراء على عمله. ولكن، ألا يكون أجدر بالثناء ما فعله رجل دين أبدى شهامة مبهرة تجاه شخص لو أنه عامله كعدو لما لامه أحد على ذلك؟.. فالواقع إن ما فعله الملك كان فضيلة، أما صنيع رجل الدين فكان معجزة، ولاسيما أن رجال الدين هم في الغالب أكثر جشعاً من النساء، وأعداء لدودون لأي نوع من التسامح. ومع أن رجال الدين يعظون حول المغفرة والتسامح، إلا أنهم يميلون إلى الانتقام ويلجؤون إليه أكثر من غيرهم من الرجال. وكل هذا سيجعلكم تقدرون عظمة رجل الدين في هذه القصة.

كان جينو دي تاكو مشهوراً بشراسته وسرقاته، وعدواً لكونت سانتافيوري، ومنفياً من سيينا. تمرد في راديكوفاني ضد كنيسة روما، فكان يقطع الطرق هناك، ويسطو مع عصابته على كل من يمر في تلك الأنحاء. وبينما البابا بونيفيسيو الثامن في روما في تلك الأثناء، جاء إلى بلاطه رئيس دير كلوني، وكان يُعتقد أنه أغنى أحبار الكنيسة في العالم. وحدث أن أصيب رئيس الدير بآلام في معدته وهو في روما، فنصحه الأطباء بالذهاب إلى حمامات سيينا، لأنه سيشفى هناك بكل تأكيد. وبعد أن أذن له البابا، انطلق في الرحلة في قافلة فاخرة من الأمتعة والحمولة والخيول والخدم، غير عابئ بشهرة جينو وسطوته. وما إن علم جينو دي تاكو بقدومه حتى نشر كمائنه، فحاصر رئيس الدير وكل مرافقيه وأمتعته في مكان ضيق، ثم أرسل إلى رئيس الدير مبعوثاً منه ليطلب منه، بكل لطف، أن يتفضل بالذهاب معه ليحل ضيفاً على المدعو جينو في قلعته. فاستشاط رئيس الدير غضباً حين سمع كلامه، وأجاب بأنه يرفض ذلك، لأنه ليس لديه ما يفعله مع جينو، وسوف يواصل طريقه ويرى من الذي سيمنعه. فقال له الرسول بتذلل:

ـ سيدي، إنك في مكان لا نخشى فيه أحداً سوى الله، حيث الجميع محرومون من المغفرة ومطرودون من الكنيسة؛ ولهذا أرجو أن تستجيب بالحسنى لدعوة جينو.

وبينما هذا الحديث يدور، كان المكان بكامله قد أحيط برجال العصابة المسلحين. وحين رأى رئيس الدير نفسه محاصراً مع مرافقيه، توجه مع الرسول نحو القلعة، وهو غاضب أشد الغضب، وسار معه مرافقوه وكل أمتعته. وما إن ترجل عن مطيته، حتى اقتيد وحيداً، مثلما أراد جينو، إلى حجرة ضيقة في بناء مظلم وغير مريح. أما بقية مرافقيه، فاستقبلوا استقبالاً لائقاً في القلعة، كل حسب مكانته ومقامه. ووضعت الخيول والأمتعة

في مكان أمين دون أن يُمس شيء منها. وبعد هذا، ذهب جينو إلى رئيس الدير وقال له:

ـ سيدي، إن جينو الذي يستضيفكم أرسل يسأل أن تخبروه بوجهتكم التي تذهبون إليها، وسبب رحلتكم هذه.

فأخبره رئيس الدير الوقور، وكان قد سيطر على غضبه، إلى أين هو ذاهب، وسبب رحلته. وعندما علم جينو، انصرف وهو يفكر في أن يعالجه دون أن يضطر إلى الذهاب إلى الحمامات. فأمر بحراسته جيداً وإبقاء النار مشتعلة في الحجرة، ولم يرجع إليه إلا في صباح اليوم التالي. وقد حمل له عندئذ، في منديل ناصع البياض، قطعتي خبز محمص، وكأس نبيذ من أرياف كورنيليا، وقال لرئيس الدير:

ـ سيدي، لقد درس جينو الطب في مطلع شبابه، وهو يقول إنه لا يوجد علاج لآلام المعدة أفضل من هذا الطعام الذي أحمله إليك، فتناوله وستتحسن حالك بفضله.

كان رئيس الدير جائعاً إلى حد لا يحتمل معه المزاح، ومع أنه أبدى استياءه، إلا أنه أكل الخبز وشرب النبيذ. وبعد أن سأل عن أمور كثيرة، ألح بصورة خاصة على اللقاء مع جينو. وكان جينو يسمعه ويرد على بعض الأسئلة بتهذب ويهمل غيرها، ثم أكد له أن جينو سيزوره بأسرع ما يمكن. وبعد قوله هذا ودعه وانصرف، ولم يعد إليه إلا في اليوم التالي، إذ جاء حاملاً إليه الكمية نفسها من الخبز المحمص والنبيذ. واستبقاه على هذه الحال أياماً عديدة، إلى أن رأى في أحد الأيام أن رئيس الدير قد أكل عدة حبات من الفول اليابس، كان قد أحضرها خفية وتركها له هناك بصورة متعمدة، فقال له:

ـ لقد أمرني جينو، يا سيدي، أن أسألك كيف ترى حال معدتك الآن.

فأجابه رئيس الدير:

ـ أظن أنني سأكون على ما يرام لو لم أكن في قبضة جينو؛ ولا أرغب في شيء آخر سوى أن أتمكن من تناول الطعام، لأنني شفيت تماماً على ما أرى بفضل علاجكم.

عندئذ أمر جينو بأن يُعدّ له خدمه حجرة جيدة، وتُهيأ مأدبة كبيرة يحضرها رجال القلعة، وأتباع رئيس الدير كلهم. ثم ذهب لزيارته في صباح اليوم التالي، وقال له:

ـ بما أنك استعدت عافيتك يا سيدي، فقد حان الوقت لمغادرة غرفة العلاج.

ثم أمسك بيده واقتاده إلى الحجرة التي أُعدت له، وتركه هناك مع رجاله، وذهب ليشرف على المأدبة لتكون عظيمة وفخمة.

تبادل رئيس الدير الحديث مع رجاله لبعض الوقت، وأخبرهم كيف أمضى تلك الأيام، بينما أخبروه هم بأنهم لقوا معاملة مختلفة تماماً، وكانوا محط حفاوة وتكريم كبيرين من جانب جينو. وعندما حان موعد الغداء، جلس رئيس الدير والآخرون جميعهم إلى المائدة، وقُدمت لهم أطايب الطعام وأفخر الأنبذة، دون أن يُعرّف جينو رئيس الدير بنفسه.

وبعد عدة أيام أمضاها رئيس الدير على هذا النحو، أمر جينو بإحضار كل أمتعته إلى إحدى القاعات، وجمع كل خيوله في فناء تحت تلك القاعة؛ ثم ذهب إلى رئيس الدير وسأله عن حاله، وإذا ما كان يشعر بأن قواه تمكنه من امتطاء جواده. فأجابه رئيس الدير بأنه قوي جداً، وأنه قد شفي تماماً من داء معدته، وسيكون في أحسن حال إذا وجد نفسه بعيداً عن قبضة جينو. عندئذ اقتاد جينو رئيس الدير إلى القاعة حيث كانت أمتعته وجميع رجال موكبه، وطلب منه أن يطل من نافذة يمكنه أن يرى منها كل خيوله، وقال له:

ـ أيها السيد رئيس الدير، لابد أن تعرف أن كثرة الأعداء والفقر والنفي هي التي حوّلت النبيل جينو دي تاكو، الذي هو أنا، إلى قاطع طريق وعدو لكنيسة روما كي أتمكن من الدفاع عن حياتي ونبلي، وليس بدافع الخبث والشر. ولأنني أرى فيك رجلاً متميزاً، لا أريد أن أعاملك، بعد أن عالجتُ معدتك، مثلما أعامل الآخرين. فعندما يقع أحدهم في قبضتي، مثلما هي حالك الآن، أحتفظ لنفسي بما أرغب فيه من ممتلكاته. أما أنت، فلا أريد الاستيلاء على شيء من ممتلكاتك؛ ولكنني أترك لك، وأنت ترى حاجتي، أن تقدم لي القدر الذي تشاءه من أمتعتك. إنها كاملة هنا أمامك، وبإمكانك أن ترى خيولك في الفناء من خلال هذه النافذة. فخذ كل شيء إذا شئت، أو اترك لنا ما تشاء، وأنت منذ هذه اللحظة حر، تستطيع الذهاب أو البقاء على هواك.

تعجب رئيس الدير لصدور مثل هذه الكلمات الكريمة عن قاطع طريق، وأسعده

ذلك كثيراً؛ فتلاشى فجأة ما كان يشعر به من غضب واستياء، وتحول إلى عطف ورفق، واندفع نحو جينو يعانقه من أعماق قلبه كصديق، قائلاً له:

ـ أقسم بالله إن كسب صداقة رجل مثل الذي عرفته الآن فيك، تجعلني أتحمل إساءات أكبر بكثير مما ظننتُ أنك ألحقته بي حتى الآن. لعنة الله على الحظ الذي دفعك مضطراً إلى سلوك هذا الطريق الخبيث!

قال هذا، واكتفى بأخذ قليل مما لابد منه من أمتعته، وكذلك من الخيول، وترك كل ما تبقى، ورجع إلى روما.

كان البابا قد علم بأمر وقوع رئيس الدير في الأسر؛ وبالرغم من أن ذلك قد أحزنه كثيراً، إلا أنه لم يمتنع عن سؤاله كيف كان مفعول الحمامات عليه. فأجابه رئيس الدير مبتسماً:

ـ أيها الأب المقدس، قبل أن أصل إلى الحمامات، وجدت طبيباً عظيماً عالجني.

وأخبره بطريقة العلاج التي أضحكت البابا. فواصل رئيس الدير حديثه، مدفوعاً بسمو روحه، وطلب من البابا أن يمنحه مكرمة. فظن البابا أنه يريد شيئاً يخصه، فقال له البابا إنه سيقدمها إليه أياً كانت. عندئذ قال رئيس الدير:

ـ ما أطلبه أيها الأب المقدس هو أن تمنح المغفرة لجينو دي تاكو، طبيبي الذي عالجني؛ لأنني أرى أنه أحد أفضل من عرفتهم من الرجال. والشر الذي هو فيه سببه الحظ، وليس هو نفسه. ولا شك لدي في أنه سيبدو لك، بعد وقت قصير، مثلما أراه، إذا ما منحته مغفرتك وما يمكنه من العيش بما يليق بمكانته.

حين سمع البابا هذا الكلام، وكان شخصاً طيب القلب، يكن تقديراً للرجال الشجعان، قال إنه يوافق بسعادة إذا كان الأمر ما يقوله رئيس الدير، ويمكنه المجيء دون خوف. وهكذا حضر جينو إلى البلاط البابوي، بكفالة رئيس الدير؛ وسرعان ما قدر البابا شجاعته ووفر له الأمان، ومنحه الأفضلية في نيل مرتبة فارس إسبتاري. وبعد نيله هذا اللقب، ظل وفياً مدى الحياة في خدمة الكنيسة المقدسة ورئيس دير كلوني.

القصة الثالثة

يشعر متريدنيس بالحسد والغيرة من كرم ناتان وحسن أخلاقه، فيذهب ليقتله. ويلتقي به دون معرفته؛ ويعرف منه ما ينبغي عليه عمله كي يحقق هدفه. ثم يلتقي به في غابة، مثلما علّمه ناتان نفسه، وحين يتعرف عليه، يخجل من تصرفه، ويصبحان صديقين.

استولت الدهشة على الجميع، وبدا لهم أن تصرف رجل الدين وإقدامه على عمل عظيم هو أشبه بمعجزة؛ وعندما صمتت السيدات، توجه الملك إلى فيلوستراتو وأمره بمواصلة القص، فبدأ هذا فوراً بالقول:

- سيداتي النبيلات، لقد كان كرم ملك إسبانيا عظيماً، وكان مستغرباً وفريداً تصرف رئيس دير كلوني، ولكن ربما لن يبدو لكنّ أقل غرابة سماع أن شخصاً سلّم نفسه، بدافع الشهامة، إلى شخص آخر يطلب دمه وروحه! وكان يمكن حدوث ذلك لو أن الآخر أراده، كما يحدث في القصة التي سأرويها.

إذا ما صدقنا ما يقوله الجنويون وغيرهم ممن كانوا في تلك البلاد، فقد كان يعيش في إحدى نواحي كاتا رجل من سلالة نبيلة، وثري ثراء لم يعرف له مثيل، يدعى ناتان. وكانت له مزرعة قريبة من طريق، لا بد لكل المسافرين من الغرب إلى الشرق، أو من الشرق إلى الغرب، أن يمروا بها. ولأنه رجل عالي الهمة وكريم النفس ويرغب في أن يكون مشهوراً بأفعاله، ولديه هناك عدد كبير من الصناع والمعلمين، فقد أمر بأن يبنى هناك، خلال وقت قصير، أحد أكبر البيوت وأفخمها. وزوده بكل ما يلزم لاستضافة نبلاء الناس وتكريمهم. وكان لديه الكثير من الخدم الجيدين، يستقبلون بالبشر والحفاوة كل عابر سبيل ويكرمونه. وقد حافظ على هذه العادة الحميدة حتى ذاعت شهرته في الشرق والغرب على السواء. وعلى الرغم من تقدمه في السن واشتداد وطأة السنين عليه،

إلا أنه لم يتوقف عن ذلك الكرم. وحدث أن بلغت شهرته إلى علم شاب يدعى متريدنيس، من منطقة غير بعيدة عنه، ولا يقل ثراء عن ناتان، فأحس بالغيرة من شهرته وفضائله، فقرر إلغاء تلك الشهرة أو خنقها بما يفوقها من السخاء والكرم؛ فأمر ببناء بيت مشابه لبيت ناتان، وبدأ يقدم كل أنواع التكريم التي لم يقدم على مثلها أحد، لكل من يمر من هناك، وصار مشهوراً خلال وقت قصير. وبينما الشاب في أحد الأيام يجلس وحيداً في فناء بيته، دخلت امرأة عجوز فقيرة من أحد أبواب البيت وطلبت منه صدقة، وحصلت عليها. ثم عادت للدخول من باب ثان، فاستقبلها من جديد، وواصلت ذلك اثنتي عشرة مرة وهو يعطيها ما تطلبه، وفي المرة الثالثة عشرة، قال لها متريدنيس:

ـ أنت لجوجة جداً في طلبك أيتها المرأة الطيبة.

ولكنه منحها مع ذلك صدقة أخرى. غير أن المرأة العجوز ردت عليه بالقول:

ـ آه يا شهامة ناتان، كم أنت رائعة وعظيمة! فقد دخلتُ من أبواب بيته الاثنين والثلاثين، وهو مثل هذا البيت. وكنت أطلب الصدقات، دون أن يتعرف عليّ (أو أنه تظاهر بعدم التعرف عليّ) وكان يقدم لي ما أطلبه في كل مرة. أما هنا، فلم أدخل إلا ثلاث عشرة مرة، وجرى التعرف عليّ وتأنيبي.

وانصرفت المرأة بعد قولها هذا ولم تعد للدخول. ولكن سماع كلامها أشعر متريدنيس بأن شهرة ناتان تقلل من شأن شهرته، فاستشاط غضباً وبدأ القول: «يا لتعاستي! متى سأبلغ الشهرة التي بلغها ناتان، فأنا لستُ عاجزاً عن التفوق عليه وحسب، وإنما لا أستطيع مجاراته كذلك في الأمور الصغيرة؟.. الحقيقة إنني أرهق نفسي دون طائل، والحل الوحيد هو في انتزاعه عن وجه الأرض. وبما أن كبر سنه لا يساعده، فمن المناسب أن أفعل ذلك بيدي». نهض مصمماً على هذه الفكرة، دون أن يخبر أحداً بنواياه، وامتطى جواده وانطلق مع جماعة قليلة العدد من المرافقين. وبعد ثلاثة أيام، وصل إلى حيث يعيش ناتان. فطلب من مرافقيه أن يتظاهروا بأنهم لا يعرفونه، وأن يجدوا لهم مأوى ويظلوا فيه إلى أن يصدر إليهم أوامر أخرى. ومع حلول الليل، ذهب وحيداً، والتقى بناتان يمشي وحيداً أيضاً على مقربة من بيته، إذ كان يقوم بنزهة قصيرة دون أي مظهر من مظاهر الأبهة. فسأله متريدنيس عما إذا كان بإمكانه أن يخبره أين يسكن ناتان، فرد عليه ناتان:

ـ لا يوجد في هذه المنطقة يا بني من يستطيع إخبارك بمكانه خير مني، وأنا مستعد

لأخذك إليه متى تشاء.

فقال الشاب إنه يشكره، ولكنه لا يريد لناتان أن يراه أو يتعرف إليه. فقال له ناتان:

ـ يمكنني تحقيق هذا أيضاً بكل سرور.

عندئذ ترجل متريدنيس عن جواده، وراح يتبادل الحديث مع ناتان بانشراح، وسرعان ما تعلق به، وسار معه حتى بيته. وهناك طلب ناتان من أحد خدمه أن يأخذ حصان الشاب، وهمس له بأن يقول لكل من في البيت فوراً بألا يخبروا الشاب أنه هو نفسه ناتان، وفعل الخادم ذلك. وبعد أن صارا في البيت، اقتاد متريدنيس إلى حجرة رائعة، حيث لا يمكن لأحد أن يراه إلا من اختارهم لخدمته؛ وزاد من تكريمه بأن رافقه هو نفسه. وبينما هما معاً، وكان متريدنيس يعامله بتوقير كما لو أنه أب، سأله عمن يكون، فأجابه ناتان:

ـ أنا خادم بائس عند ناتان، عملت في خدمته منذ طفولتي وشخت معه. ولم يرفعني قط إلى وضع آخر غير الذي تراني فيه. ولهذا لا يمكنني امتداحه، على الرغم من كل المديح الذي يكيله له الآخرون.

منحت هذه الكلمات بعض الأمل لمتريدنيس في أن يتمكن من الظفر بنصيحة، وضمانة أكبر، في تنفيذ نواياه الخبيثة. وعندئذ سأله ناتان بكل تهذيب عمن يكون، وما الذي جاء به، عارضاً عليه نصحه ومساعدته قدر ما يستطيع. تمهل متريدنيس قليلاً في الرد، وقرر أخيراً الوثوق به. وطلب منه بكثير من المداورة أن يعطيه كلمة شرف، وبعد ذلك النصح والمساعدة؛ أخبره من يكون، وسبب مجيئه، وما هي المشاعر التي دفعته إلى ما ينوي فعله. حين سمع ناتان خطاب متريدنيس ونواياه القاسية، غضب أشد الغضب في أعماقه. ولكنه سارع إلى الرد عليه بروح متماسكة وبحركة عدم مبالاة:

ـ لقد كان أبوك رجلاً نبيلاً ومشهوراً يا متريدنيس، وأنت لا تريد أن تكون أقل منه. وقد بذلتَ كما تقول الكثير من الكرم والعطاء، وأنا أشيد بما يعتمل في نفسك من حسد تجاه فضائل ناتان، لأنه إذا كان هناك من لهم هذه الفضائل، فإن هذا العالم التعس سيتحول بسرعة إلى عالم طيب وسعيد. أما نواياك التي كشفت لي عنها، فستبقى طي الكتمان، ومن أجل تنفيذها سأقدم لك نصيحة مفيدة هي أكبر من المساعدة التي أستطيع تقديمها، ونصيحتي هي: يمكنك أن ترى من هنا غابة صغيرة، اعتاد ناتان

الذهاب إليها وحيداً كل صباح للتنزه هناك لبعض الوقت. وسيكون من السهل عليك العثور عليه هناك، وعمل ما تشاء به. فإذا ما قتلته، وأردت الرجوع إلى بيتك دون عوائق، فلا تسلك الطريق الذي جئت منه، وإنما غادر الغابة عبر طريق ستجده إلى اليسار، ومع أنه أكثر وعورة إلا أنه أقصر للوصول إلى بيتك، وهو بالتالي أكثر أماناً.

بعد أن تلقى متريدنيس هذه المعلومات، وودّعه ناتان، أخبر رفاقه سراً (وكانوا هناك في البيت) بالمكان الذي عليهم انتظاره في اليوم التالي. وفي صباح اليوم التالي، لم يبدل ناتان من النصيحة التي قدمها إلى متريدنيس، وخرج إلى الغابة مستعداً للموت. ونهض متريدنيس بدوره، وحمل قوسه وسيفه وأسلحة أخرى لديه، وامتطى جواده وذهب إلى الغابة. ومن بعيد رأى ناتان يتنزه وحيداً، فرغب أن يراه ويسمع كلامه قبل أن يهاجمه، فاندفع نحوه وأمسك بالعمامة التي يضعها على رأسه قائلاً:

- إنك ميت لا محال أيها العجوز!

فاكتفى ناتان بالقول له:

- إنني استحق الموت إذن.

حين سمع متريدنيس صوته ونظر إلى وجهه، عرف فوراً أنه الشخص نفسه الذي استقبله بأريحية ونصحه بإخلاص؛ فتلاشى على الفور هياجه، وتحول غضبه إلى خجل. فألقى بعيداً بالسيف الذي كان قد استله لقتله، وترجل عن حصانه، وخرّ عند قدمي ناتان قائلاً:

- الآن عرفت حقيقة شهامتك وكرمك أيها الأب الغالي، بعد أن رأيتُ إسراعك في المجيء لتسلم لي حياتك التي أطلبها دون وجه حق. ولكن الله كان مهتماً بأمري أكثر من اهتمامي أنا بنفسي، ففتح في اللحظة الحرجة عيني عقلي بعد أن أطبقهما بؤس الحسد. والآن، بمثل سرعتك في تلبية طلبي وإرضائي، عليّ أن أكفر عن خطيئتي؛ فهلم وانتقم الانتقام الذي تراه مناسباً لذنبي.

ساعد ناتان متريدنيس في النهوض، وعانقه وقبّله بحنان، وقال له:

- بني، لا حاجة لطلب المغفرة أو منحها لما كنت تنوي فعله، لأن دافعك إليه لم يكن الحقد، وإنما رغبتك في أن تكون أفضل. فعش واثقاً بي، وتأكد أنك لن تجد شخصاً

آخر يحبك أكثر مني، تقديراً لسمو روحك التي لم تسلمها لجمع المال، مثلما يفعل بؤساء الروح، وإنما لإنفاق ما هو لديك. ولا تخجل من أنك أردت قتلي لتصير مشهوراً، ولا تظن أنني سأستهجن سلوكك. فأعظم الأباطرة والملوك لم يوسعوا ممالكهم، وبالتالي شهرتهم، إلا بفنون القتل، وليس قتل رجل واحد مثلما أردت أنت، وإنما قتل أعداد لا حصر لها من البشر، وإحراق بلدان وتدمير مدن. وإذا كنت تريد قتلي أنا وحدي كي تصير مشهوراً، فأنت لم تأت أمراً عجباً ومستهجناً، وإنما هو سلوك عادي وشائع جداً.

لم يجد متريدنيس عذراً لرغبته الخبيثة، لكنه أشاد بالعذر الكريم الذي وجده له ناتان. وبعد أن فكر ملياً، قال إنه في غاية الدهشة من تقبل ناتان للموت وتقديمه النصح بالطريقة المناسبة لقتله، فأجابه ناتان:

ـ لا أريد لك يا متريدنيس أن تستغرب قراري أو نصيحتي، لأنني منذ وعيت على الدنيا وصرت سيد نفسي، رغبت في أن ألبي طلب كل من يأتي إلى بيتي، مهما كان ما يطلبه. وجئت أنت راغباً بحياتي، وعند ما سمعتك تطلبها، وكي لا تكون الوحيد الذي جاء إلى هنا دون أن يحصل على مراده، قررتُ فوراً منحك ما طلبت، وقدمت لك تلك النصيحة التي رأيتُ أنها مناسبة لحصولك على حياتي وعدم فقدان حياتك؛ ولهذا أعود وأكرر أنه إذا كانت تلك هي رغبتك، فإنني أتوسل إليك أن تنفذها وتحقق ما أردت. فقد عشتُ ثمانين سنة، أنفقتها في ملذاتي ومتعي. وحياتي ستنتهي بعد وقت قصير، مثلما يحدث للبشر والأشياء كلها عموماً، وفق قانون الطبيعة؛ ولهذا أرى أنه من الأفضل أن أمنحها، مثلما منحت وأنفقت كنوزي، على أن أحتفظ بها إلى أن تنتزعها الطبيعة مني. إن منح مئة سنة هي أعطية ضئيلة، فما بالك بست أو سبع سنوات متبقية لي في هذه الحياة؟.. خذ حياتي إذاً، إن كان هذا يرضيك، أتوسل إليك وأرجوك؛ فطوال السنوات التي عشتها لم ألتق بأحد راغب فيها، ولا أدري إن كنت سأجد من يرغب فيها إذا أنت لم تأخذها الآن. لكل هذا، أرجوك أن تأخذ حياتي قبل أن تتضاءل قيمتها.

فرد عليه متريدنيس وهو يشعر بخجل عميق:

ـ معاذ الله أن أكون أنا من ينتزع منك شيئاً ثميناً كما هي حياتك، ولست أرغب في ذلك الذي قلته من قبل. بل إنني أرغب في أن أُقَصّر سنوات حياتي لو استطعت، لأضيفها إلى حياتك.

فسارع ناتان إلى القول:

- وهل سترضى بعمل ذلك لو أنك تستطيع؟.. تريدني أن أفعل معك ما لم أُقدم على فعله مع أحد. ألا ترى أنك ستجعلني بذلك آخذ شيئاً منك، وأنا الذي أمضيت حياتي في العطاء؟..

- أجل، سأفعل ذلك - قال متريدنيس.

فقال ناتان:

- فلتفعل إذاً ما سأقوله لك. أنت مازلت شاباً، وأريدك أن تبقى هنا في بيتي وتتخذ لنفسك اسم ناتان، وسأذهب أنا إلى بيتك، وأسمي نفسي هناك متريدنيس.

عندئذ أجابه متريدنيس:

- لو أنني أحسن التصرف مثلك، لرضيت بما تعرضه علي دون تردد؛ ولكنني موقن من أن سلوكي سيقلل من شهرتك، ولست راغباً في أن أسيء إلى غيري في ما لم أحسن تحقيقه لنفسي.

جرى بين ناتان ومتريدنيس جدل حول هذا الأمر وأمور أخرى كثيرة، وأخيراً رجعا إلى بيت ناتان، حيث استضافه هذا وكرمه أياماً عديدة. وعندما رغب متريدنيس في العودة مع مرافقيه إلى منزله، كان قد أدرك جيداً أنه لن يتمكن من أن يتفوق على ناتان في الكرم.

القصة الرابعة

يصل السيد جينتيلي دي كاريسيندي من مودينا، فيخرج سيدة يحبها من القبر، حيث دُفنت على أنها ميتة. فتنتعش، وتضع مولوداً ذكراً. ويعيدها السيد جينتيلي مع ابنها إلى زوجها نيكولوشيو كاشيانميكي.

أدهش كرم ناتان الجميع، خاصة أنه لم يتورع عن بذل دمه؛ وأكدوا أن ناتان قد فاق في عطائه وكرمه ملك إسبانيا ورئيس دير كلوني وتجاوزهما. وبعد أن تبادلوا الرأي حول بعض الأمور، نظر الملك إلى لوريتا، وقال لها إنه راغب في سماع قصتها، فبادرت لوريتا إلى القول:

ـ صديقاتي الشابات، عظيمة وجميلة كانت القصص التي حُكيت، ولا أظن أنه تُرك لنا شيء من القصص يمكننا روايته، ما لم نلتفت إلى شؤون الحب التي توفر لنا مادة وفيرة في كل موضوعات القص. لهذا السبب، ولأن شبابنا يدفعنا إلى شوؤن الحب، فإني أرغب في أن أروي لكن قصة عن شهامة عاشق محب، ربما يعادل في الكرم أو يفوق كل من جرى الحديث عنهم. لأن من يسعى لنيل ما يحبه، ينسى العداوة، ويُعرّض حياته وشرفه وسمعته لكل أنواع المخاطر.

كان يعيش في بولونيا، المدينة النبيلة في لومباردي، فارس جدير بالتقدير لفضائله ونبل دمائه، يدعى السيد جينتيلي دي كاريسيندي. وقد وقع هذا الشاب في غرام سيدة اسمها مادونا كاتالينا، هي زوجة المدعو نيكولوشيو كاشيانميكي. ولكنه لم يجد تجاوباً من السيدة، فأُصيب باليأس، وسافر إلى مدينة مودينا، حيث كان قد استدعي ليكون حاكماً لها. وفي أثناء ذلك، وبينما كان نيكولوشيو، زوج مادونا كاتالينا، في رحلة خارج بولونيا، ذهبت امرأته للإقامة في مزرعة لها تبعد ثلاثة أميال عن المدينة، لأنها كانت حبلى. وحدث أن أصيبت بعارض مرضي شديد انطفأت معه كل علامة للحياة فيها؛ فاعتبرها الأطباء ميتة. ولأن أقرب أقربائها قالوا إنهم علموا منها أن حملها لم يمض عليه وقت طويل، وأن الجنين لا يمكن أن يكون قد اكتمل بعد، فقد حملوها إلى مقبرة كنيسة مجاورة، وبعد أن بكوا عليها كثيراً، دفنوها هناك.

وصل خبر موتها فوراً إلى السيد جينتيلي، من خلال صديق له؛ فتألم كثيراً لموتها، لكنه قال في نفسه أخيراً: «ها أنتذي تموتين يا كاتالينا العذبة، ولم أستطع أن أنال منك ولو مجرد نظرة وأنت حية، ولكنك الآن وأنت ميتة، لن تستطيعي منعي من انتزاع قبلة منك.» وفي تلك الليلة بالذات، رتب الأمر سراً، وانطلق مع خادم له على حصانين، ولم يتوقفا إلى أن وصلا المدفن الذي وضعت فيه السيدة. ففتحاه، ودخل جينتيلي بكل حذر واحتراس، واستلقى إلى جانبها، وقرّب وجهه من وجه السيدة، وذرف دموعاً وهو يقبلها.

ولأن شهوة الرجال لا توقف عند حد، مثلما نعلم، وإنما هي ترغب في المزيد دوماً، وخاصة لدى العاشقين، فقد صمم ألا يقتصر على ما فعله، وقال: «لماذا لا أداعب صدرها قليلاً؟.. فقد صرت هنا، ولن يتاح لي ذلك بعد اليوم». وتغلبت عليه هذه الرغبة، فوضع يده على صدرها واستبقاها هناك لبعض الوقت، فبدا له أنه يشعر بخفقان قلبها. وبعد أن تخلص من الخوف، تفحصها باهتمام، وتأكد من أنها ليست ميتة، بالرغم من أن نبض الحياة فيها قليل وضعيف. فعمل بكل حرص، وبمساعدة خادمه، على إخراجها من المدفن، ووضعها أمامه على الجواد، وحملها إلى بيته في بولونيا. وهناك كانت أمه، المرأة الكريمة والحكيمة التي هزت قلبها الشفقة بعد أن أخبرها بكل ما جرى، فعملت بكل تكتم على إعادة السيدة إلى الحياة بحمام ماء ساخن وإشعال نار كبيرة. وعندما استعادت المرأة وعيها، أطلقت تنهيدة كبيرة، وقالت:

ـ أي! أين أنا؟..

فردت عليها المرأة الكريمة:

ـ اطمئني، أنت في بيت طيب.

ومع أنها استعادت وعيها، إلا أنها لم تعرف أين هي. وعندما رأت السيد جينتيلي أمامها، توجهت إلى أمه متوسلة أن تخبرها كيف وصلت إلى هذا المكان، فروى لها جينتيلي كل ما جرى لها بالتفصيل. تألمت لما سمعته أشد الألم، ولكنها شكرته كثيراً، وتوسلت إليه بحق الحب الذي كان يكنه لها، ألا يقدم على ما يدنس شرفها وشرف زوجها وهي في بيته؛ وأن يسمح لها بالعودة إلى بيتها عند طلوع الصباح. فأجابها السيد جينتيلي:

ـ سيدتي، كل رغباتي السابقة فيك، لم أعد أفكر فيها الآن، ولن أفكر فيها مستقبلاً «لأن الله أنعم عليّ بإعادتك من الموت إلى الحياة، وكان السبب هو الحب الذي أحببتك إياه». ولن أعاملك، هنا أو في أي مكان آخر، إلا كأخت عزيزة لي. غير أن ما قدمته لك هذه الليلة يجعلني جديراً بمكافأة منك؛ ولا أريد منك أن تنكري عليّ طلباً أريد التماسه منك.

عندئذ قالت له السيدة إنها مستعدة للموافقة على أي طلب إذا كان شريفاً، وضمن

إمكانياتها. فقال لها السيد جينتيلي:

ـ سيدتي، جميع أقربائك، وأهل المدينة كلها يعتبرونك ميتة. وليس هناك بالتالي من ينتظر عودتك في البيت؛ ولهذا أريد أن أطلب منك أن تظلي هنا مع أمي، بصورة سرية، إلى أن أعود من مودينا، وسيكون ذلك في موعد قريب. والسبب في طلبي هذا هو رغبتي في أن أقدمك، بحضور أفضل مواطني هذه المدينة، كهدية نفيسة ومهيبة إلى زوجك.

ولإدراك السيدة بأنها مدينة للفارس، وبأن طلبه شريف، فقد وافقت على ما طلبه، بالرغم من رغبتها الشديدة في الرجوع إلى بيتها؛ ووعدته بأن تلبي طلبه. وما إن انتهت من النطق بوعدها حتى أحست بأن لحظة وضع مولودها قد أزفت. وبعد قليل، بمساعدة حانية من أم السيد جينتيلي، وضعت مولوداً ذكراً جميلاً، مما ضاعف من سعادة السيد جينتيلي وأمه. فأمر بأن يتم توفير كل ما تحتاج إليه، وأن تُعامل كما لو كانت امرأته. ورجع بعد ذلك سراً إلى مودينا.

وبعد أن أنهى عمله في مودينا، وصار عليه أن يعود إلى بولونيا، أمر بأن يجري إعداد وليمة كبرى في بيته في بولونيا، في صباح اليوم الذي سيدخل فيه إلى المدينة، وأن يُدعى إلى الوليمة نبلاء بولونيا وسادتها، وأن يكون بينهم نيكولوشيو كاشيانميكي، زوج كاتالينا. وعندما وصل وترجل عن صهوة جواده، وبعد أن التقى بالسيدة الجميلة، وابتهج لأنها معافاة وبصحة جيدة هي وابنها، انضم بكل سعادة إلى ضيوفه. وجلس إلى المائدة، حيث قُدم الكثير من اللذائذ والمآكل الفاخرة. وعند اقتراب المأدبة من نهايتها، وكان قد أخبر السيدة مسبقاً بما سيفعله ويتدبره، بدأ الكلام بالقول:

ـ أيها السادة، أتذكر أنني سمعت يوماً عن عادة شائعة في بلاد فارس، عندما يريد أحدهم تكريم صديقه أقصى تكريم، يدعوه إلى بيته ويريه أثمن وأنفس ما لديه، سواء امرأته، أو صديقته، أو ابنته؛ مؤكداً بذلك أنه لو استطاع لأسعده أن يريه قلبه، مثلما يريه أثمن ما لديه. وأريد أن أمارس العادة نفسها هنا في بولونيا. فقد تكرمتم بتلبية دعوتي إلى هذه الوليمة، وأود أن أكرمكم على الطريقة الفارسية، فأريكم أثمن ما لدي في هذه الدنيا. ولكني أريد أن أرجوكم قبل ذلك أن تخبروني برأيكم حول أمر تراودني

الشكوك بشأنه: هناك شخص لديه في بيته خادم مخلص ووفي يصاب بمرض خطير؛ فلا ينتظر هذا السيد ما سيؤول إليه حال الخادم المريض، وإنما يأمر بحمله من البيت إلى قارعة الطريق، ولا يعود إلى الاهتمام بأمره. عندئذ يأتي شخص غريب، تحركه الشفقة على المريض؛ فيحمله إلى بيته ويعمل بجهد كبير ونفقات باهظة على شفائه وإعادة صحته إليه. وأريد أن أسألكم الآن إذا ما كان يحق للسيد الأول أن يشكو من أن الآخر لا يريد ردّ خادمه إليه، أو لأن الخادم نفسه لا يريد العودة إلى سيده الأول.

استغرق السادة في التفكير والتداول في ما قاله، واتفقوا جميعهم على رأي واحد، وطلبوا من نيكولوشيو كاشيانميكي أن يقدم الرد، لأنه محدث بارع وخطيب مفوه. فبدأ هذا بالثناء على تلك العادة الفارسية، وقال إنه يتفق هو والسادة الآخرون في الرأي بأنه ليس للسيد الأول أي حق على خادمه، لأنه لم يكتفِ بالتخلي عنه وحسب، وإنما ألقى به خارجاً وهجره لمصيره. واحتفاظ السيد الثاني به، بعد أن عالجه ورعاه، لا يتضمن أي أذى أو ضرر أو إهانة للسيد الأول، وليس هناك ما يدعو هذا الأخير إلى الشكوى والتذمر. وأيد السادة الآخرون ما قاله نيكولوشيو، مؤكدين أنهم يرون الرأي نفسه.

ابتهج الفارس جينتيلي لهذا الجواب، لاسيما أن نيكولوشيو هو الذي نطق به. وقال إنه يرى الرأي نفسه أيضاً، ثم أضاف:

ـ لقد حان الوقت لأنجز الوعد الذي قطعته لكم.

ثم استدعى اثنين من خدمه، وأرسلهما في طلب السيدة التي كانت ترتدي أفخر الملابس والزينات، لتكريم السادة النبلاء وإسعادهم بحضورها. فدخلت السيدة وهي تحمل طفلها بين ذراعيها، يرافقها خادمان، وجلست إلى جوار أحد أبرز المدعوين. عندئذ أضاف السيد جينتيلي قائلاً:

ـ أيها السادة، هذا هو أثمن ما أملكه، وما أرغب في امتلاكه أكثر من أي شيء آخر. فانظروا إذا ما كنتُ محقاً في ما أقوله.

امتدح السادة جمالها وأطروا عليها، وراحوا يتأملونها، وكان كثيرون منهم مستعدون

لأن يقولوا من هي، لولا أنهم يعتبرونها ميتة. وكان نيكولوشيو هو أكثر من أمعن النظر فيها وهو يتحرق رغبة في معرفة من تكون، فانتهز ابتعاد الفارس بعض الشيء، وسألها إذا ما كانت من مدينة بولونيا أم أنها غريبة. وحين سمعت السيدة زوجها يسألها، بذلت جهداً كبيراً لتمنع نفسها من الرد عليه، وظلت صامتة عملاً بما كان الفارس قد أوصاها به. وسألها آخر إذا ما كان ذلك الطفل ابنها، وكان هناك من سألها إذا ما كانت زوجة السيد جينتيلي أو قريبة له؛ ولم تجب على أي واحد منهم. عندئذ توجه أحد المدعوين إلى السيد جينتيلي بالقول:

ـ إنها باهرة الجمال، ولكنها بكماء كما يبدو، أهي كذلك؟..

فقال السيد جينتيلي:

ـ أيها السادة، عدم نطقها بأي كلمة هو دليل على ما هي عليه من عفة وفضيلة.

ـ أخبرنا إذن من تكون.

فقال الفارس:

ـ سأخبركم بذلك بكل سرور، ولكن عليكم أن تعدوني بألا يتحرك أحد من مكانه، مهما كان ما سأقوله، إلى أن أنتهي من كلامي.

وعده الجميع بما أراد، فجلس السيد جينتيلي إلى جانب السيدة، وقال:

ـ أيها السادة، إنها ذلك الخادم المخلص والوفي الذي حدثتكم عنه قبل قليل. فهي لم تلق التقدير الذي تستحقه من ذويها، فألقوا بها إلى عرض الشارع كأي شيء تافه وعديم الفائدة. وقد التقطتها أنا وانتزعتها بالرعاية من براثن الموت. والله يشهد على نقاء تأثري في إعادتها من جسد مرعب إلى هذا الجمال الذي هي عليه. ولكي تعلموا كيف حدث هذا كله، سأرويه لكم باختصار.

وبدأ الحديث عن حبه لها منذ البداية، وكل ما جرى من تفاصيل حتى اللحظة الراهنة، وسط دهشة مستمعيه واستغرابهم، ثم قال أخيراً:

ـ لكل هذه الأمور، وإذا كنتم لم تبدلوا رأيكم منذ بعض الوقت حتى الآن، وخاصة السيد نيكولوشيو، فإنني أستحق هذه المرأة بكل جدارة، وليس من العدالة أن يطلب أحد استردادها أو انتزاعها مني.

ولم يجب أحد منهم بشيء، وانتظروا جميعهم ما سيقوله بعد ذلك. عندئذ نهض السيد جينتيلي واقفاً، فحمل الطفل بين ذراعيه، وأمسك بيد السيدة، وتوجه بهما نحو السيد نيكولوشيو قائلاً:

ـ لستُ أعيد إليك زوجتك التي ألقى بها أهلك وأهلها إلى عرض الطريق، وإنما أعيد إليك هذه السيدة، أختي الروحية، ومعها ابنك هذا الذي أنا واثق من أنها أنجبته منك، ومن حملتُه عند تعميده، وكنتُ عرابه، وأطلقتُ عليه اسم جينيلي. وأرجو منك ألا تزدريها لأنها ظلت ثلاثة شهور في بيتي؛ لأنني أقسم لك بالله الذي ربما جعلني أقع في حبها كي يكون هذا الحب هو سبب نجاتها، إنها لم تكن يوماً – سواء مع أبيها، أو مع أمها، أو معك أنت – أكثر عفة مما كانت عليه مع أمي في هذا البيت.

ثم توجه إلى السيدة قائلاً:

ـ سيدتي، أنت في حلّ الآن من كل عهد قطعتِه لي، وحرة طليقة أسلمك إلى زوجك نيكولوشيو.

وبعد أن أعاد المرأة والطفل إلى ذراعي نيكولوشيو، عاد للجلوس في مكانه. وتلقى نيكولوشيو زوجته وابنه بسعادة من فقد الأمل بذلك اللقاء. وقدم الشكر بأفضل ما استطاع للسيد جينتيلي. وكان الحاضرون جميعهم يبكون تأثراً، ويثنون على صاحب تلك المأثرة. واستُقبلت المرأة بحفاوة بالغة في بيتها، وظل أهالي بولونيا ينظرون إليها لوقت طويل باعتبارها من انبعث من الموت؛ وربطت صداقة حميمة بين جينتيلي ونيكولوشيو وذويهما وذوي السيدة.

ما الذي ستقلنه عن هذا كله يا سيداتي الطيبات؟.. أترين أن تقديم ملك لصولجانه وتاجه، أو إقدام رئيس دير على مصالحة شقي مع البابا، أو وضع رجل عجوز عنقه تحت

سكين عدوه، جديرة بأن تقارن بصنيع السيد جينتيلي؟.. فهو شاب يضج بالشباب، ويرى أن العدل يمنحه الحق بما أهمله الآخرون، وشاء له حسن الطالع أن ينقذه، فلم يكتف بتهدئة نيران حبه المتأججة بكل صبر، وإنما أعاد ما كان يصبو بكل جوارحه إلى السطو عليه. الحقيقة إنني لا أرى في كل القصص السابقة ما يساوي هذه القصة.

القصة الخامسة

تطلب مادونا ديانورا، في كانون الثاني، من السيد أنسالدو حديقةً غناء كأنها في أيار؛ فيوفرها لها السيد أنسالدو بالاستعانة بأحد السحرة. ويسمح لها زوجها بأن تفعل ما يريده السيد أنسالدو، فيستاء هذا من كرم الزوج، ويتركها في حلّ من وعدها له، ويترك الساحر بدوره السيد أنسالدو في حل من ديونه.

أطرت الجماعة السعيدة على موقف السيد جينتيلي ورفعته إلى السماء، ثم توجه الملك إلى إيميليا وطلب منها أن تروي قصتها، فبدأت الكلام بثقة كبيرة:

ـ صديقاتي الضعيفات، لا يمكن لأحد أن يقول إن السيد جينتيلي لم يتصرف بشهامة؛ ولكن لا يمكننا القول إن ما فعله لا يمكن تجاوزه، وسوف أثبت لكن في قصتي أنه بالإمكان تجاوز ما فعله والتفوق عليه.

في فريولي، وهي بلاد سعيدة بالرغم من شدة برودتها؛ جبالها بديعة، وأنهارها كثيرة، وينابيعها صافية، توجد مدينة تدعى أودين. تعيش فيها سيدة نبيلة وباهرة الجمال، اسمها مادونا ديانورا، هي زوجة سيد عظيم وواسع الثراء، يدعى جيلبيرتو، معروف بلطفه وطيب طباعه. وقد أغرم بهذه المرأة سيد نبيل وعظيم اسمه السيد أنسالدو غرادينسي. وهو رجل رفيع الشأن، مشهور في كل الأنحاء بشجاعته وبراعته في فنون القتال، فضلاً عن كياسته ولباقته. وكان مدلهاً في هواها، يحبها بكل جوارحه إلى حد أنه لا يتورع عن عمل أي شيء لإرضائها ونيل قبولها. لكنها كانت تصد كل رسله إليها،

ولم تنفع جهوده للتقرب منها، إلا أن ذلك لم يفت من عضده. وحين رأت المرأة أنه لا يتخلى عن إلحاحه، ويعرض عليها كل ما تشاء، فكرت في حل لما هي فيه، وذلك بأن تطلب منه تلبية رغبة مستحيلة التحقيق في نظرها، بحيث تتمكن من التخلص منه. فقالت في أحد الأيام لامرأة اعتادت أن تحمل إليها رسائله:

ـ أيتها المرأة الطيبة، لقد جئتِ مرات كثيرة لتؤكدي لي أن السيد أنسالدو يحبني أكثر من أي شيء، وعرضتِ علي هدايا بديعة منه؛ وأنا أريده أن يحتفظ بتلك الهدايا لنفسه، لأنها لن تحملني أبداً إلى محبته وإرضاء رغباته. ولكي أتأكد من أنه يحبني حقاً كما تزعمين، وأستسلم لحبه ولعمل كل ما يرغب فيه؛ أريد أن يثبت لي ذلك بشيء أطلبه منه، وسأكون عندئذ مستعدة لكل ما يطلبه.

فقالت لها المرأة الطيبة:

ـ وما هو هذا الشيء الذي تريدينه منه يا سيدتي؟..

وأجابتها السيدة:

ـ ما أرغب فيه هو التالي: أن يصنع لي في شهر كانون الثاني القادم، على مقربة من المدينة، حديقة يملؤها العشب الأخضر، والأزهار المتفتحة، والأشجار الوارفة، كما لو أنها حديقة مزهرة في شهر أيار. فإذا لم يستطع تحقيق ذلك، لا أريده أن يرسلك أنت أو أي شخص آخر، وإذا ما أصر على الاتصال بي، فسوف أجد طريقة للتخلص منه، بالرغم من أنني أخفيت كل شيء حتى الآن عن زوجي وأهلي.

عندما سمع ذلك السيد ما ترغب فيه سيدة حبه، وما تعد به، وكان يدرك صعوبة تحقيق رغبتها، وحتى استحالتها؛ عرف أنها لم تطلب ذلك إلا لجعله يتخلى عن أي أمل في وصالها. إلا أنه صمم مع ذلك على محاولة عمل ما يستطيع عمله. وراح يجوب أماكن كثيرة بحثاً عمن يستطيع مساعدته أو تقديم النصح له. ووصل في بحثه إلى شخص وعده بأن يحقق له ذلك بالاستعانة بفنون السحر، مقابل أجر باهظ. وراح ينتظر بفرح الموعد الذي حُدد له، وفي فترة اشتد فيها البرد، وغطى الثلج والصقيع كل شيء، خرج الرجل المقتدر إلى مرج بديع على مقربة من المدينة، واستخدم فنون سحره في الليلة التي سيتلوها اليوم الأول من شهر كانون الثاني، بحيث ظهرت في الصباح – على حد قول من رأوها – أجمل

حديقة رأتها عينا بشر، تملؤها الأعشاب الفضة، وكل أنواع الأشجار المثمرة. وما إن رأى السيد أنسالدو ذلك المشهد، حتى ملأت البهجة قلبه. فقطف بعض الثمار البديعة، وباقة من الأزهار النضرة، وأرسلها سراً إلى سيدته، داعياً إياها لرؤية الحديقة التي طلبتها، كي تتأكد من حبه لها، وتتذكر الوعد الذي قطعته له ممهوراً بأغلظ الأيمان، وتعمل على إنجازه بوصفها امرأة وفية وصادقة.

وحين رأت المرأة الأزهار والثمار، وسمعت كثيرين يتحدثون عن روعة الحديقة، بدأ الندم يساورها لأنها أقدمت على ذلك الوعد؛ ولكنها على الرغم من شدة ندمها، ورغبة منها في رؤية تلك الأعجوبة، ذهبت مع عدد من نساء المدينة لرؤية الحديقة. ولم تخف دهشتها الكبيرة وهي تتحدث معهن، ولكنها كانت أتعس امرأة حين رجعت إلى بيتها وهي تفكر بما عليها تقديمه مقابل ذلك. وكان حزنها شديداً إلى حدّ لم تستطع إخفاءه، وظهر واضحاً على وجهها؛ فانتبه زوجها إلى ذلك، وأراد بكل السبل أن يعرف السبب. لكن خجل السيدة دفعها إلى الصمت لوقت طويل، إلا أنها انتهت في آخر الأمر إلى الاعتراف له بكل شيء. وللوهلة الأولى، اهتاج جيلبيرتو وهو يسمع ذلك واستولى عليه غضب شديد؛ ولكنه قدر بعد ذلك طيب نوايا زوجته، فأزاح الغضب جانباً، وقال لها بأقصى ما يستطيع من الرصانة:

ـ ليس من الفطنة والعفة أن تصغي المرأة لرسائل يحملها رسل من هذا النوع يا ديانورا، أو أن تفاوض أحداً على عفتها مهما كانت الظروف. فالكلمات التي تسمعها أذن القلب لها قوة أكبر مما يمكن تصوره، ويكاد كل شيء أن يكون ممكن التحقيق للعاشق الولهان. لقد أسأتِ التصرف، لأنك أصغيت إلى الرسول أولاً، ولأنك عقدت الاتفاق ثانياً. ولأنني أعرف نقاء نواياك، وكي تتحرري من قيود الوعد الذي قطعتِه، سأمنحك الإذن الذي ربما لا يمكن لأحد أن يمنحه؛ يدفعني إلى ذلك أيضاً الخوف من الساحر الذي يمكن للسيد أنسالدو، إذا ما خدعتِه، أن يطلب منه إلحاق الأذى بنا. ولهذا أريدك أن تذهبي إليه، فإذا ما استطعت التحايل بطريقة ما وإقناعه بالحفاظ على شرفك، فإنك ستتحررين بذلك من الوعد الذي قطعته له. أما إذا لم تتمكني من ذلك، فليس أمامك إلا أن تسلميه – لمرة واحدة ـ جسدك، وليس روحك.

بكت المرأة بمرارة حين سمعت قول زوجها، واستنكرت منه أن يمنحها مثل ذلك

الإذن. لكن السيد جيلبرتو، وبالرغم من رفض زوجته، أصر على الأمر. وفي اليوم التالي، مع بزوغ الفجر، خرجت السيدة دون أن تتجمل، تتقدمها خادمتان، وتتبعها ثالثة؛ وتوجهت إلى بيت السيد أنسالدو. وعندما سمع أن السيدة قد جاءت لزيارته، نهض مذهولاً، وأرسل إلى الساحر يستدعيه، وقال له:

ـ أريدك أن ترى الأمر العظيم الذي مكنتني من التوصل إليه.

وخرج للقائها. فاستقبلها باحترام وتكريم دون أن يبدي أي شهوة غير وقورة، ثم اتجه الجميع إلى حجرة بديعة فيها موقد كبير. وبعد أن دعاها للجلوس، قال لها:

ـ أرجوك يا سيدتي، إذا ما كان لحبي الطويل لك أن يُكافأ، ألا يضايقك إخباري بالسبب الحقيقي الذي دفعك للمجيء في هذا الوقت، ومع هذه الصحبة.

فأجابت السيدة بخجل، والدموع تكاد تطفر من عينيها:

ـ سيدي، ليس حباً أكنه لك، ولا الوعد الذي قطعته، هو ما جاء بي إليك؛ وإنما هو أمر من زوجي. فقد أكبر عملك الذي أنجزته بدافع الحب، أكثر من تقديره لشرفه وشرفي، وأمرني بأن آتي إليك. واستجابة لأمره أنا هنا، ومستعدة لعمل ما يرضيك، مرة واحدة.

وإذا كان مجيئها قد أدهش السيد أنسالدو، فإن دهشته ازدادت بعد سماعها، وتأثر كثيراً لشهامة جيلبرتو؛ وبدأت عاطفته بالتبدل، وقال:

ـ ثقي يا سيدتي أنني لن ألطخ شرف من أشفق على حبي وتفهمه. ووجودك هنا، مهما طال، لن يكون إلا كوجود أخت لي. وعندما ترغبن في الذهاب، يمكنك الانصراف بكل حرية، على أن تنقلي تحياتي لزوجك، وتقدمي له الشكر الذي ترينه مناسباً لشهامته؛ وأن تعتبريني صديقاً وخادماً لك.

حين سمعت المرأة هذه الكلمات، أحست بسعادة لم تعرفها من قبل قط، وقالت:

ـ الحقيقة إنني لم أكن أنتظر منك، بما عرفته عن شهامتك، موقفاً آخر غير هذا الذي اتخذته، وهو ما سأظل شاكرة ومدينة لك عليه إلى الأبد.

ثم ودعته بكل احترام، ورجعت مع خادماتها إلى جيلبرتو، وأخبرته بما جرى. فبدأت

صداقة حميمة بينه وبين السيد أنسالدو. وعندما أراد السيد أنسالدو أن يدفع للساحر المكافأة الموعودة. كان الساحر شاهداً على شهامة جيلبرتو تجاه السيد أنسالدو، وشهامة هذا الأخير مع السيدة، فقال:

ـ معاذ الله أن أكون أقل مروءة، بعد أن رأيت مروءة جيلبرتو في أمر يتعلق بشرفه، ومروءتك أنت في حبك. ولن أكون أقل منكما مروءة وشهامة بشأن مكافأتي؛ فهي لك، وستبقى لك.

خجل الفارس، وحاول بكل السبل إقناعه بأخذ المكافأة أو جزء منها؛ لكنه عجز عن ذلك وذهبت جهوده أدراج الرياح، لأن الساحر جعل الحديقة تختفي بعد ثلاثة أيام. وعندما رغب في الرحيل، ودّعه أنسالدو متمنياً له السفر بحفظ الله ورعايته. وانطفأ في قلب السيد أنسالدو حبه الجسدي للمراة، لتتأجج فيه عواطف نبيلة وعفيفة تجاهها.

ما الذي يمكننا قوله هنا يا صديقاتي المحببات؟.. أيمكننا أن نفضل قصة المرأة شبه الميتة، وحب عشيقها الذي أصابه فقدان الأمل بالفتور، على سلوك السيد أنسالدو وحبه الجارف الذي تفتحت آماله فيه، وصارت الطريدة المشتهاة رهن إشارته؟.. يبدو لي من البلاهة مقارنة هذه الشهامة بتلك.

القصة السادسة

الملك كارلوس، وقد صار شيخاً مسناً وملكاً ظافراً، يقع في غرام شابة فتية، فيخجل من حبه المجنون، ويزوج الفتاة وأختها زواجاً شريفاً ومحترماً.

من ذا الذي يستطيع أن يعيد رواية كل الجدل الذي دار بين السيدات حول من أبدى شهامة أكبر ـ أهو جيلبرتو أم السيد أنسالدو أم الساحر ـ في قضية السيدة ديانورا؟.. فتكرار كل ما قلنه سيكون طويلاً جداً. ولكن، بعد أن سمح الملك لهن بذلك الجدال الطويل، نظر إلى فياميتا، وأمرها بأن تروي قصتها لإخراجهن من ذلك النقاش. فبدأت

الكلام دون أن تنتظر لحظة واحدة:

- سيداتي الكريمات، لقد كنتُ أرى على الدوام أن الأحاديث في الاجتماعات، مثل اجتماعنا هذا، يجب أن تكون مسهبة، بحيث لا يكون الغموض في مغزى ما يقال موضوع جدال بين الآخرين. وهذا المنهج مناسب للمدارس والدارسين أكثر مما هو لنا نحن اللواتي ننكب على المغزل والطارة. وقد كنت أفكر في رواية قصة مثيرة للشكوك، ولكنني بعد أن رأيت جدالكن، سأتخلى عنها وأروي بدلاً منها قصة عن رجل، وهو ليس رجلاً عادياً، وإنما ملك همام، تصرف بشهامة بدل أن يهين شرفه أو ينتقص منه.

لا بد أنكم جميعكم سمعتم الكثير عن الملك كارلوس العجوز، أو الأول، وعن عظمة سلوكه، ثم عن انتصاره المجيد بعد ذلك على الملك مانفردي، حيث جرى حينذاك طرد الجيبليين[1] من فلورنسا، وعاد إليها الغويلفيون. وكان هناك فارس يدعى السيد نيري ديلي أوبيرتي لم يشأ الرحيل، وصمم على البقاء مع أسرته وأمواله الكثيرة. ولكي يقيم في مكان منعزل يقضي فيه بقية حياته براحة، ذهب إلى كاستيللاماري دي ستابيا. وهناك، على مرمى سهم من بيوت المدينة، وسط غابة من أشجار الزيتون والبندق والكستناء التي تنمو بوفرة في المنطقة، اشترى قطعة أرض، أقام عليها منزلاً ضخماً، فسيحاً وبديعاً، وإلى جواره حديقة رائعة، في وسطها وفرة من الماء الجاري، حيث أقام — على طريقتنا — بركة جميلة ملأها بأسماك كثيرة. ولأنه لا عمل له ولا مشاغل، كان يسعى في كل يوم إلى جعل الحديقة أكثر جمالاً. وحدث أن خرج الملك كارلوس، في فترة اشتداد الحر، للراحة لبعض الوقت في كاستيللا، ورغب في أن يرى حديقة نيري التي كان قد سمع الكثير عن جمالها. ولأنه كان قد عرف من هو نيري، وأنه ينتمي إلى الفريق المعادي له، فقد قرر معاملته بأريحية؛ فأرسل إليه أربعة من حاشيته ليقولوا له إن الملك يرغب في زيارته في الليلة التالية، والعشاء معه في حديقته. فأسعد ذلك نيري، وأعدّ الموائد بأبهة وفخامة، ورتب مع خدمه ما يتوجب عمله. وبأقصى ما يستطيع من بشر

---

[1] الجيبليني Ghibellin: هو ممن كان ولاؤهم السياسي للإمبراطورية الرومانية المقدسة في مواجهة البابوات ويقابلهم الغويليفيون güelfos الذين ناصروا البابوات، وقد تمكن هؤلاء الأخيرون من إلحاق الهزيمة بالجيبليين في معركة كمبلدينو، وتم نفي جميع الجيبليين الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسبعين من بلدة أريستو وفلورنسا كلها.

وحفاوة، استقبل الملك وصحبه في حديقته البديعة. وبعد أن تجول الملك في كل أنحاء حديقة السيد نيري وبيته، وأثنى على كل ما رآه، ووجد الموائد منضدة في الحديقة، إلى جانب بركة الماء، جلس إلى واحدة منها، وأمر الكونت جيدو دي مونفورتي، وكان من مرافقيه، أن يجلس إلى أحد جانبيه، وأجلس السيد نيري إلى الجانب الآخر. وأمر الثلاثة الآخرين الذين جاؤوا برفقته أن يقوموا على خدمة المائدة مثلما يرغب السيد نيري. وقُدمت المشروبات الخاصة والأنبذة الفاخرة، وأساليب الخدمة الراقية الجديرة بالإطراء، دون أدنى ضجة ودون أي خطأ، مما دفع الملك إلى الإطناب في كيل المديح. وبينما هو يأكل بسعادة مستمتعاً بمشاهد ذلك المكان المنعزل، دخلت فتاتان لا يزيد عمر كل منهما عن خمس عشرة سنة، شقراوان كأن خصل شعرهما المفلتة خيوط ذهب، يتوجهما إكليل من أزهار الدفلى، وتبدو على وجهيهما الرقيقين والجميلين وداعة الحملان أكثر من أي شيء آخر. وكانتا ترتديان ثوبين شفافين أبيضين ناصعين كأنهما الثلج على جسديهما. وكان الثوبان ضيقين من الخصر إلى أعلى، وينسدلان عريضين متموجين إلى أسفل حتى القدمين. وتبدو الفتاتان في مظهرهما ذاك كما لو أنهما ملاكان. وكانت أولاهما تحمل على كتفها شبكتي صيد، وتمسك بهما بيدها اليسرى، بينما تحمل في اليد اليمنى عصا طويلة. وتحمل الثانية في إحدى يديها مقلاة، وحزمة حطب تحت إبط الذراع نفسها، وفي اليد الأخرى كوز زيت خزفي، وشعلة نار مشتعلة. شهق الملك من الدهشة حين رآهما، وراح ينتظر ليرى ما الذي يعنيه ظهورهما.

تقدمت الفتاتان بخفر ورهبة، وانحنيتا احتراماً للملك؛ ثم توجهتا بعد ذلك نحو بركة الماء. ومن تحمل المقلاة منهما، وضعتها على الأرض، ووضعت إلى جانبها الأشياء الأخرى، ثم تناولت العصا التي تحملها الفتاة الأخرى؛ ونزلتا معاً إلى البركة، وكان ماؤها يصل حتى صدريهما. وسارع أحد خدم السيد نيري إلى إشعال النار هناك، وبعد أن وضع المقلاة على الأثافي، وسكب الزيت فيها، بدأ ينتظر أن تلقي إليه الفتاتان أسماكاً. وكانت إحدى الفتاتين تبحث في الأماكن التي تعرف أن الأسماك تختبئ فيها، بينما تهيئ الأخرى شبكتيها. وكان الملك يتأمل ذلك المشهد بشغف ومتعة. وخلال وقت قصير، اصطادتا الكثير من السمك. وكانتا ترميان ما تصطادان إلى الخادم، فيلقي بالأسماك في المقلاة وهي شبه حية. وبدأت الفتاتان مثلما دُربتا، باختيار أفضل الأسماك وأسمنها، ووضعها على المائدة أمام الملك، وأمام كونت جيدو وأبيهما. كانت الأسماك تنزلق على المائدة، مما أثار

دهشة الملك وإعجابه؛ فكان يلتقط الأسماك ويعيدها، برميها بوقار، إلى الفتاتين. وظلوا يلعبون على هذه الحال لبعض الوقت، إلى أن انتهى الخادم من قلي الأسماك التي أعطيت له، فوضعت أمام الملك مثلما أمر السيد نيري. وعندما رأت الفتاتان الأسماك المقلية، وأدركتا أنها صارت كافية؛ وكان ثوباهما الأبيضان قد التصقا بلحم جسديهما، ولم يعودا يخفيان شيئاً من جسميهما الرائعين، خرجتا من البركة. حملت كل منهما الأشياء التي جاءت بها، ومرتا بخفر أمام الملك قبل عودتهما إلى داخل البيت.

كان الملك والكونت وكل من هم هناك قد تأملوا الفتاتين طويلاً، وكان كل واحد منهم يقدر في دخيلة نفسه جمال الفتاتين أكبر تقدير، وكذلك لطفهما ولباقتهما. لكن أكبر المعجبين كان الملك الذي افتتن بكل أجزاء جسديهما عند خروجهما من الماء، حتى إنه ما كان سيشعر لو أن أحداً وخزه بدبوس حينذاك. وظل الملك يفكر فيهما، دون أن يعرف من هما، إلى أن أحس برغبة جارفة في شكرهما تطغى على قلبه، فأدرك أنه سيغرم بهما ويقع في حبهما ما لم يكبح نفسه ويعتصم بالحذر. لم يكن يدري أيهما تروقه أكثر من الأخرى، لأنهما كانتا متشابهتين في كل شيء. لكنه بعد أن قلّب هذه الأفكار طويلاً، التفت إلى السيد نيري وسأله عن الوصيفتين ومن تكونان؛ فرد عليه السيد نيري:

ـ إنهما ابنتاي يا مولاي، ولدتا في حمل واحد، إحداهما تدعى جنيفرا الجميلة، والأخرى إسوتا الشقراء.

أثنى عليهما الملك كثيراً، وحثه على تزويجهما؛ فاعتذر السيد نيري، لأنه ليس في وضع يمكنه من ذلك. ولم يكن قد تبقى حينئذ سوى تقديم الفاكهة على المائدة، فحضرت الفتاتان بثوبين رائعين من التفتا، وكانتا تحملان جفنتين كبيرتين من الفضة، ممتلئتين بثمار متنوعة، بما يسمح به الموسم، وضعتاهما على المائدة أمام الملك. وبعد أن فعلتا ذلك، تراجعتا قليلاً، وبدأتا غناء أغنية يقول مطلعها:

أين وصلت بي الحال ياحب،

ما عدتُ قادرة على كبح دموعي.

كانتا تغنيان بكثير من العذوبة واللطف، وكان الملك يستمع وينظر بمتعة، حتى بدا

له أن كل مراتب الملائكة قد نزلت هناك لتغني. وبعد أن انتهيتا من الغناء، جثتا أمام الملك طالبتين منه الإذن بالانصراف؛ ومع أن الملك تألم لانصرافهن، إلا أنه تكلف الانشراح وهو يمنحهن الإذن بالمغادرة. وهكذا انتهت مأدبة العشاء، وعاد الملك ومرافقوه إلى امتطاء خيولهم، فودعوا السيد نيري، وغادروا وهم يتبادلون الحديث في أمور مختلفة حتى وصلوا إلى القصر الملكي. وهناك، ظلت عاطفة الملك تتأجج، دون أن يتمكن من نسيان جمال جنيفرا الجميلة ولطفها، بالرغم من كل الأحداث والأمور التي تدور حوله. ولشدة حبه لها، أحب أيضاً أختها التي تشبهها تماماً؛ واستسلم لشِباك الغرام إلى أن لم يعد قادراً على التفكير في شيء آخر. وراح يتذرع بمسوغات أخرى، حتى ربط نفسه بصداقة حميمة مع السيد نيري، وصار يكثر من التردد عليه وزيارة حديقته البديعة كي يرى جنيفرا. وعندما لم يعد قادراً على تحمل المزيد، خطر لذهنه ألا يقتصر على واحدة منهما، وإنما انتزاع الفتاتين كلتيهما من أبيهما. وكشف نواياه هذه للكونت جيدو. وكان الكونت رجلاً شهماً وذا مروءة، فقال له:

- مولاي، إنني في غاية العجب مما أسمعك تقوله، وما يزيد من عجبي أنني خير من يعرف عاداتك منذ طفولتك حتى اليوم؛ ولست أتذكر أنك عرفت في شبابك «وهي المرحلة التي يمكن للحب فيها أن ينشب براثنه بسهولة أكبر» مثل هذه العاطفة الجامحة. وعندما أسمعك الآن، وأنت تقترب من الشيخوخة، تنتابني الدهشة والعجب من وقوعك في حب يبدو لي أشبه بالمعجزة. ولو كانت لي سلطة تأنيب جلالتك، لعرفت جيداً ما عليّ أن أقوله لك، آخذاً في الاعتبار أنك لا تزال في حالة حرب، في هذه المملكة التي فتحتها للتو، وبين أناس غرباء لا تعرفهم، مفعمين بالخداع والخيانة؛ وبينما أحوالك هنا لم تستقر بعد، هأنتذا تفسح المجال لأن تسيطر عليك دوافع الحب. ليس هذا مما يمكن لملك عظيم أن يقدم عليه، وإنما هو من أمور الشباب الطائش. والأسوأ من هذا كله، قولك إنك قررت انتزاع البنتين من أبيهما، من الرجل الطيب الذي كرمك أكثر مما يستطيعه، وزاد في التكريم بعرض ابنتيه عليك وهما شبه عاريتين، مدللاً بذلك على مدى ثقته بك، ومؤكداً إيمانه بأنك ملك وليس ذئباً كاسراً. وهل تراك نسيت سريعاً أن ممارسات مانفريدي العنيفة مع النساء هي أحد أسباب هزيمته وفتح أبواب هذه المملكة لك وانتصارك عليه؟.. وأية خيانة أعظم من الإساءة إلى من كرمك، بإقدامك على انتزاع شرفه، وثروته، وأمله، وسلواه؟.. وما الذي سيقال عنك إذا ما فعلت ذلك؟.. ربما تظن أنه سيكون كافياً التذرع

بالقول: «فعلت هذا لأنه جيبيلي». ولكن، هل من شيم الملوك وعدالتهم أن يعاملوا بهذه الطريقة من يسلم أمره إليهم، أياً كان مذهبه أو معتقده؟.. وأذكّرك يا جلالة الملك بأن انتصارك على مانفريدي كان عظيماً، ومثله إلحاقك الهزيمة بكورادينو؛ لكن ما هو أعظم من ذلك كله قدرتك على الانتصار على نفسك وكبح نزواتك. فأنت الذي عليك إصلاح الآخرين، لا بد لك قبل ذلك من الانتصار على نفسك، والتحكم بأهوائك، كي لا تقوض بمثل هذه اللطخة المشينة ما حققته من أعمال مجيدة.

جرحت هذه الكلمات مشاعر الملك جرحاً مريراً، وأحزنه أكثر معرفته أنها حقيقية وصادقة؛ فما كان منه إلا أن أطلق زفرة حرى، وقال:

ـ الحقيقة أيها الكونت إن الانتصار على النفس، والتغلب على الأهواء والنزوات، أصعب بكثير من الانتصار على أي عدو، مهما بلغت قوته. ولكن، على الرغم من شدة نزوتي، وحاجتي إلى قوة هائلة لكبحها، إلا أن كلماتك نبهتني إلى ما هو لائق وواجب؛ وقبل أن تنقضي بضعة أيام، سأريك بالأفعال وليس بالأقوال، أنني سأعرف كيف أسيطر على نفسي وأقهرها، مثلما عرفتُ كيف أنتصر على الآخرين.

وقبل انقضاء وقت طويل على هذه المحادثة، رجع الملك إلى نابولي، كي لا يمنح نفسه فرصة الإقدام على عمل دنيء من جهة، وكي يكافئ السيد نيري على ما تلقاه من تكريمه. وعلى الرغم من قسوة تقديمه إلى آخرين ما كان يرغب فيه لنفسه، قرر أن يزوج الفتاتين، ليس باعتبارهما ابنتي السيد نيرو، وإنما كما لو أنهما ابنتاه. وبموافقة من جانب السيد نيري، قدم الملك لهما دوطة محترمة، وزوج جنيفرا الجميلة من الشاب مافيو دي باليزي، وزوج إسوتا الشقراء من الشاب جيليليمو دي لاماغنا، وكلاهما من أنبل الفرسان وأعظم البارونات. ثم سافر إلى أبوليا وهو في غم شديد، وناضل بصلابة ضد نزواته إلى أن حطم قيود الهوى، وتحرر مدى الحياة من تلك العاطفة.

ربما هناك من سيقول إنه لأمر ضئيل القيمة أن يتولى ملك تزويج فتاتين وتقديم دوطة لهما؛ ولكن العظمة هي في أن الملك قد زوج من أحبهما دون أن ينال أي زهرة أو ثمرة من ثمار حبه. وهكذا كان تصرف الملك العظيم مكافأة سامية للرجل النبيل الذي كرمه، فزوج الفتاتين المحبوبتين، وتغلب على نفسه وقهرها.

القصة السابعة

يعلم الملك بيدرو بالحب المتأجج الذي تكنه له ليزا المريضة، فيواسيها، ثم يزوجها بعد ذلك من شاب نبيل، ويُقبّل جبهتها قائلاً لها إنه سيكون فارسها إلى الأبد.

وصلت فياميتا إلى نهاية قصتها، وأثنى الجميع كثيراً على شهامة الملك كارلوس، باستثناء واحدة من السيدات الحاضرات، وكانت جيبلينية لم تشأ امتداحه. وبدأت بامبينيا رواية قصتها بأمر من الملك:

ـ ليس هناك يا سيداتي الساميات، عاقل إلا ويمتدح الملك كارلو، اللهم إلا إذا كان لديه مسوغ لكراهيته. وقد ذكّرني هذا كله بقصة ليست أقل جدارة بالإطراء، عن عدو له مع فتاة من بنات مدينتنا فلورنسا، أرغب في أن أرويها لكنّ.

في الزمن الذي طُرد فيه الفرنسيون إلى صقلية، كان هناك في باليرمو بائع عقاقير فلورنسي يدعى برناردو بوشيني، وهو رجل بالغ الثراء، لم تنجب له زوجته سوى ابنة واحدة باهرة الحسن والجمال، وكانت الفتاة في سن الزواج. وقد توصل الملك بيدرو الأراغوني في تلك الأثناء إلى بسط سيطرته على جزيرة صقلية، وأقام في باليرمو مع رجاله احتفالات ضخمة ومهيبة. وفي إحدى تلك الاحتفالات، بينما هو يخوض مبارزة بالرماح على الطريقة الكتلانية، كانت ابنة برناردو، وتدعى ليزا، تنظر من إحدى النوافذ مع سيدات أخريات؛ فرأته وهو يعدو على جواده، وأعجبت به إعجاباً كبيراً، ثم نظرت إليه مرة أخرى، وأخرى؛ فأغرمت به وأحبته حتى الوله. وبعد الحفلة، لم تعد قادرة على التفكير وهي في بيت أبيها بأي شيء آخر سوى ذلك الحب السامي والعظيم. وما كان يحزنها في ذلك الوضع هو معرفتها أن مكانتها المتدنية، بالمقارنة مع الملك، لا تتيح لها أي أمل في بلوغ حبها نهاية سعيدة. لكنها لم تشأ مع ذلك التخلي عن حبها للملك، ولم تتجرأ في الوقت نفسه على إشهار ذلك الحب خوفاً من ضرر أشد. أما الملك فلم ينتبه إلى أمرها، مما أشعر الفتاة الجميلة بالأسى، وجعل الحب ينمو أكثر فأكثر في قلبها، حتى إنها لم تعد تفكر إلا به.

وراحت تتقلب من حزن إلى حزن حتى أصابها المرض. وصارت تذوي في كل يوم، مثلما يذوب الثلج تحت الشمس. أقلق مرض الفتاة أباها وأمها، فكانا يواسيانها ويجيئانها بالأطباء وبكل الأدوية الممكنة، لكن ذلك لم ينفع في تحسين حالتها؛ لأنها كانت يائسة إلى حد اختارت معه التخلي عن مواصلة العيش. عندئذ عرض عليها أبوها أن يقدم لها كل ما تشاء، فخطر للفتاة أن تُشعر الملك بحبها قبل أن تموت؛ فتوسلت إلى أبيها في أحد الأيام أن يطلب من مينوشيو دي أريزو أن يزورها. وكان مينوشيو مغنياً وموسيقياً مشهوراً، يقدره الملك تقديراً كبيراً. فأخبره الأب بأن ليزا ترغب في سماع عزفه وغنائه، وكان المغني رجلاً لطيفاً، فجاء إليها وغنى لها مواسياً لبعض الوقت. وبعد ذلك، قالت الفتاة إنها تريد أن تقول له بضع كلمات على انفراد. وعندما غادر الجميع الحجرة، قالت له:

ـ لقد اخترتك أنت يا مينوشيو لتكون الأمين على سر أريدك الا تُطلع عليه أحداً ما خلا شخصاً سأخبرك به. وأرجو منك بعد ذلك أن تساعدني قدر استطاعتك. لا بد أن تعلم، يا عزيزي مينوشيو، أنه في يوم الاحتفالات الكبرى التي أقامها الملك بيدرو، احتفالاً بتسلمه العرش، قيض لي أن أراه وهو يشارك في مبارزة الترامح. وفي تلك اللحظة، اشتعلت نيران حبه في روحي، وأوصلتني إلى الحالة التي تراني فيها الآن. ولأنني أدرك التهور الكبير في حبي للملك، ولا أستطيع في الوقت نفسه إبعاد حبه عن قلبي، فقد اخترت الموت للخلاص من هذا الوضع القاسي. وأشعر بأنني سأجد بعض العزاء إذا ما غادرت هذه الدنيا وهو يعلم بحبي له. ولم أجد من هو أفضل منك لإطلاع الملك على ما أكنه له من حب. وأريد منك أن تتولى هذا الأمر، ثم تخبرني بعد ذلك بأنك قد فعلت، كي أموت مطمئنة، وأتخلص من هذه الأحزان.

قالت هذا وراحت تبكي بصمت، فتأثر مينوشيو لكلماتها، وأعجب بعظمة روحها، وقسوة قرارها. وأحس بشفقة كبيرة عليها، ففكر في مساعدتها بكل نزاهة، وقال:

ـ أعدك يا ليزا بأن ألبي طلبك وأفعل ما طلبته مني. ولسوف أسعى جاهداً لأن آتيك، قبل انقضاء ثلاثة أيام، بما تشتهين من أخبار. وكي لا أضيع الوقت، سأبدأ فوراً بمباشرة المهمة.

ودّعته ليزا شاكرة، ومضى المغني من فوره للبحث عن ميكو دي سيينا، وهو أحد أفضل ناظمي القوافي في ذلك الزمن، وطلب منه أن ينظم له أغنية، هي التالية:

تحرك أيها الحب، واذهب إلى سيدي

انقل له ما أعانيه من أحزان،
قل له إنني أموت
خوفاً من إظهار حبي.
أتوسل إليك جاثية أيها الحب،
أن تذهب إلى مقر سيدي،
فتخبره بحبي وشوقي إليه
واحتراقي بنيران قلبي المتأججة
اجعله، بربك، يعرف عنائي وسقمي!

منذ وقعتُ في حبه
سلبتني، أيها الحب، القوة والجرأة،
وصرت في خوف دائم،
لا أستطيع البوح بمشاعري
لمن أحبه الحب كله.
وبينما أنا أموت، والموت يعذبني
ربما لن يسوءه
أن يعرف بآلامي.
ولو كانت لدي الجرأة
لأخبرته بما أعاني.

لكنك لم تكن كريماً أيها الحب
بمنحي الجرأة،
فأرجوك أن تكون رسولاً
وتفتح قلبي لسيدي
آه لحالي! وتخبره بما بي،
فاذهب إليه، وذكّره
بيوم رأيته بالدرع والحربة
يرامح الفرسان ويبارزهم.

اجعله يعلم كيف أني
أموت حباً به.

وسارع مينوشيو إلى وضع لحن رقيق ومشفق، يتناسب مع مضمون هذه الكلمات. وذهب في اليوم الثالث إلى البلاط، . وكان الملك بيدرو لا يزال يتناول طعامه، فطلب منه أن يعزف قيثارته ويغني له شيئاً. فبدأ العزف بعذوبة، وغنى هذه الأغنية، فبدا كل من في القاعة كما لو أنهم تحت تأثير ضرب من السحر الكئيب؛ وكان الملك أكثر الحاضرين إحساساً بذلك الحزن العميق. وعندما انتهى مينوشيو من الغناء، سأله الملك من أين جاء بهذه الأغنية التي لم يسمعها من قبل. فأجاب مينوشيو:

- لم تُوضع كلمات هذه الأغنية وألحانها إلا منذ ثلاثة أيام يا مولاي.

وعندما سأله الملك عمن وضعها، قال مينوشيو:

- هذا ما لا يمكنني أن أخبرك به، يا مولاي، إلا على انفراد.

ولشدة لهفة الملك إلى سماع ذلك، رافقه بعد رفع المائدة إلى حجرته، حيث روى له مينوشيو القصة كاملة، وبكل تفاصيلها؛ فأعجب الملك بالفتاة وأثنى عليها، وقال إنها شابة جديرة بالرحمة، وطلب من مينوشيو أن يذهب إليها ويخبرها بأنه سيأتي لزيارتها بكل تأكيد عند غروب ذلك اليوم. فأخذ مينوشيو قيثارته، ومضى مسرعاً لنقل الخبر السعيد إلى الفتاة. وعندما التقى بها على انفراد، أخبرها بكل ما جرى، ثم غنى لها الأغنية وهو يعزف القيثارة. فأفرح ذلك الفتاة، وبدأت تظهر عليها فوراً أمارات التحسن، دون أن يدرك أحد ممن في البيت بما جرى. وراحت تنتظر الغروب بفارغ الصبر، وهو موعد مجيء سيدها الملك.

كان الملك كريماً وطيب النفس، وقد فكر ملياً في ما رواه له مينوشيو، وكان قد عرف عن جمال الفتاة وحسنها، فازداد إشفاقه عليها. وعندما حلّ المساء، امتطى جواده متظاهراً بأنه سيخرج للتنزه، وتوجه إلى بيت بائع العقاقير. وهناك طلب أن تُفتح له حديقة البيت البديعة، فترجل عن جواده. وبعد حديث طويل مع برناردو، سأله عن حال ابنته، وعما إذا كانت قد تزوجت. فأجابه برناردو:

ـ ليست متزوجة يا سيدي، وهي مريضة جداً؛ لكنها تحسنت كثيراً، وبصورة مفاجئة، بعد ظهر هذا اليوم.

فقال الملك وقد أدرك سبب ذلك التحسن:

ـ من المحزن أن يفارق الدنيا مثل ذلك الجمال. ولكنني راغب في زيارتها.

ودخل بعد قليل إلى حجرتها مع اثنين من مرافقيه وأبيها، فاقترب من سرير الفتاة التي اعتدلت جالسة، وكانت تنتظر قدومه بلهفة؛ وقال لها وهو يمسك بيدها:

ـ ما هذه الحال؟.. إنك شابة، وعليك مواساة الآخرين. لماذا تستسلمين للمرض هكذا؟.. أرجوك بحق حبك أن تتجلدي وتحاولي إيجاد طريقة للشفاء بأسرع ما يمكن.

حين أحست الفتاة بأنها تمسك بيد من تحبه أكثر من أي شيء في الدنيا، وعلى الرغم من خجلها، شعرت كما لو أنها في الفردوس، وأجابته كيفما استطاعت:

ـ مولاي، لقد حاولت أن أحمل ثقلاً كبيراً بقواي الضئيلة، مما أصابني بالسقم الذي أنا فيه. ولكنك ستراني قريباً وقد شفيت.

الملك وحده هو من فهم مغزى كلامها، فراح يشجعها ويبث فيها الحماسة؛ ولعن في أعماقه القدر الذي جعلها ابنة لذلك الرجل. وبعد أن أمضى معها بعض الوقت، وقدم لها المزيد من عبارات التشجيع، ودّعها وانصرف. وقد قوبلت التفاتة الملك الإنسانية تلك بالمديح والثناء، وبالتشريف الكبير من جانب بائع العقاقير وابنته، حتى إن الفتاة أحست بالسعادة التي تشعر بها أي امرأة عند لقاء حبيبها. ولم تلبث أن تماثلت للشفاء بعد أيام قليلة، وصارت أكثر جمالاً وإشراقاً من أي وقت مضى. وبعد شفاء الفتاة من مرضها، تحدث الملك إلى الملكة عن الطريقة التي يمكنه بها مكافأة ذلك الحب الكبير الذي تكنه له الفتاة، ثم امتطى جواده في أحد الأيام، ومضى مع عدد كبير من رجال حاشيته إلى بيت بائع العقاقير؛ فدخل الحديقة وطلب استدعاء برناردو وابنته. وفي أثناء ذلك، حضرت الملكة ومعها سيدات كثيرات، واحتفى الجميع بالفتاة وبلائها من سقمها. وبعد بعض الوقت، استدعى الملك والملكة ليزا، وقال لها الملك:

ـ أيتها الشابة الكريمة، حبك الكبير لنا شرفنا كثيراً، ونحن نريد لك السعادة والتشريف. ولأنك في سن الزواج، فإننا نرغب في تزويجك من رجل محترم نختاره لك. على أن تظلي تعتبرينني فارسك على الدوام، دون أن أطلب منك مقابل ذلك سوى قبلة واحدة.

احمر وجه الفتاة من الخجل، وارتضت ما ارتضاه لها الملك، وأجابت بصوت خافت:

ـ مولاي، أنا متأكدة من أنه إذا ما علم الناس بأنني وقعت في حبك، فإن معظمهم

سيعتبرونني مجنونة، وسيرون أنني أجهل وضعي، ولا أعرف حقيقة مقامك. ولكن الله وحده الذي يعلم ويرى ما في قلوب البشر، يعلم أنني منذ اللحظة التي رأيتك فيها وأعجبتني، كنت مدركة أنك ملك وأنني ابنة عشاب العقاقير برناردو، وأنه لا يليق بي أن أوجه لهيب حبي نحو مكانتك السامية. ولكن ليس هناك، مثلما تعلم جلالتك خير مني، من يقع في الحب باختيار متروٍ، وإنما برغبة ودافع خفيين. وقد حاولت بكل ما لدي من قوى أن أعارض ذلك القانون، لكنني لم أستطع؛ فأحببتك، وأحبك، وسأحبك إلى الأبد. ومنذ أحببتك ووقعت في هواك، صممت على تسليم نفسي لإرادتك، ولكل ما ترغب فيه؛ ولهذا لن أنصاع وأحترم من تختاره زوجاً لي وحسب، بل إنني مستعدة لأن ألقي بنفسي إلى النار إذا ما طلبت مني ذلك، وكان يرضيك. أما القبلة التي تطلبها مني، فلن تنالها إلا إذا سمحت لك الملكة بها.

وعندما صمتت بعد قولها هذا، أعجبت الملكة برد الفتاة، وبدت لها رصينة وعاقلة مثلما حدثها الملك عنها. واستدعى الملك والد الفتاة وأمها، فأبديا سعادتهما مما يدبره لابنتهما. ثم أمر بإحضار شاب يدعى بيرديكوني، وهو رجل نبيل ولكنه فقير، وجعله يتزوج من ليزا. وبعد أن قدم الملك والملكة الكثير من الحلي والمجوهرات النفيسة للفتاة، منح الملك الزوجين إقطاعيتي سيفالو وكالتابيلوتا المزدهرتين، وقال للشاب:

ـ إنما نمنحك هاتين الإقطاعيتين كدوطة للعروس، أما ما نرغب في تقديمه إليك، فسوف تراه في قادم الأيام.

ثم التفت إلى الشابة وقال لها:

ـ لا بد لنا الآن من نيل نصيبنا من ثمرة حبكما الذي ستنعمان به.

وأمسك رأس الفتاة بكلتا يديه، وقبل جبهتها. فابتهج بيرديكوني وأبوا ليزا، وهي نفسها أيضاً، أشد الابتهاج، وأقاموا حفلة زفاف مهيبة وعظيمة. وحسب ما يؤكده كثيرون، أنجز الملك وعده للفتاة، لأنه ظل طوال حياته يعتبر نفسه فارسها، ولم يكن يخرج إلى أي عمل حربي إلا ويحمل الشعار الذي تطلب الفتاة منه أن يحمله.

بمثل هذه الأعمال يستحوذ الملوك على قلوب رعاياهم، ويقدمون مثلاً يقتدي به الآخرون، ويحرزون السمعة الأبدية. أما اليوم فقلة هم الذين أصابوا مثل هذه الحكمة؛ فتحول معظم السادة إلى طغاة وقساة.

القصة الثامنة

تظن سوفرونيا أنها زوجة جيسيبو، بينما تكون قد تزوجت في الحقيقة من تيتو كينتو فولفيوس، وتسافر معه إلى روما. ويأتي جيسبو وهو في وضع بائس، ويتخيل أنه سيُقابل بالازدراء من جانب تيتو. ويؤكد، لكي يُعدم، بأنه قتل رجلاً. يتعرف تيتو عليه، ويحاول إنقاذه بالتأكيد أنه هو من قتل الرجل. وحين يرى القاتل الحقيقي ذلك، يكشف عن نفسه. فيطلق الإمبراطور أوكتافيوس سراح الجميع. ويقدم تيتو أخته زوجة لجيسيبو، ويقتسم معه كل ممتلكاته.

بعد أن صمتت بامبينيا وأطرى الجميع على الملك بيدرو، بدأت فيلومينا الكلام بأمر من الملك، فقالت:

من ذا الذي لا يعرف، يا سيداتي الرائعات، أنه يمكن للملوك أن يُقدموا، عندما يشاؤون، على أعمال عظيمة وجليلة، وأن إقدامهم ذاك هو جزء من عظمتهم؟.. وبالتالي فإن من يفعل منهم ما يجب عليه فعله، يحسن الصنع؛ ولكن هذا لا يستدعي الكثير من الدهشة ولا رفعهم في المديح عالياً، بقدر ما يليق بنا امتداح آخرين، من أمثالنا، يقومون بأعمال جليلة لا تُنتظر منهم، بإمكانيات قليلة لا ترقى إلى إمكانيات الملوك. وإذا كنتم تشيدون بأعمال الملك بكل هذا الكلام، فإنني لا أشك في أنكم ستطرون أكثر على أعمال أمثالنا عندما تكون شبيهة بأعمال الملوك أو أعظم منها. وقد قررت أن أروي لكم قصة عن عمل عظيم أقدم عليه مواطنان صديقان.

في أزمنة أوكتافيوس قيصر، قبل أن يحمل اسم أوغسطس، وكان لا يزال يحكم الإمبراطورية الرومانية من منصبه المسمى عضو الحكومة الثلاثية، كان يعيش في روما

سيد نبيل يدعى بوبليو كنتو فولفيوس. وكان له ابن يدعى تيتو كينتو فولفيوس، شاب نابه وعظيم المواهب، أرسله أبوه إلى أثينا ليدرس الفلسفة، وأوصى به رجلاً نبيلاً وصديقاً قديماً له هناك يدعى كريميتيس. فاستضاف هذا النبيل الشاب تيتو في بيته، مع ابن له يدعى جيسيبو. وأوكل كريميتيس أمر تعليم تيتو وجيسيبو إلى فيلسوف يدعى أريستيبو. وكانت علاقة الشابين وطيدة إلى حد تشابهت معه عاداتهما، ونشأت بينهما أخوة وصداقة لا يمكن فصم عراها إلا بالموت. فلم يكن أي منهما يشعر بالراحة والطمأنينة إلا وهما معاً. بدأ الاثنان دراساتهما معاً، وكان كلاهما يتمتع بموهبة كبيرة وعبقرية لامعة، ارتقيا بها أعلى مدارج العلم بخطوات متساوية، محاطين بكل الإعجاب والتقدير. وظلا على هذه الحال (وكريميتيس سعيد بهما لا ينظر إلى أي منهما على أنه ابنه أكثر من الآخر) فترة تزيد على الثلاث سنوات. بعد ذلك، ومثلما يحدث لكل الأشياء، حدث أن كريميتيس، وقد صار عجوزاً هرماً، أطبق عينيه عن هذه الحياة؛ فأحس كلاهما بالحزن نفسه، كما لو أن من مات هو أبو الاثنين معاً، ولم يدر أصدقاء وأقرباء كريميتيس أيهما يجب تعزيته أكثر من الآخر. وحدث بعد شهور من ذلك أن حضر أصدقاء جيسيبو وأقاربه وشجعوه على أن يتخذ لنفسه زوجة، ووجدوا له فتاة باهرة الجمال ومن أسرة نبيلة من أثينا تدعى سوفرونيا، عمرها حوالي خمس عشرة سنة. وعندما اقترب موعد الزفاف، توسل جيسيبو إلى تيتو كي يرافقه للتعرف على خطيبته، ولم يكن قد رآها من قبل. فذهبا معاً إلى بيتها، وجلست الفتاة بينهما، وراح تيتو الذي أعجب بجمال خطيبة صديقه، ينظر إليها باهتمام، وكانت كل تقاطيعها دقيقة التناسق. وبينما هو يشيد بينه وبين نفسه بمفاتنها، صُعق بحبها مثلما لم يصعق عاشق بامرأة قط. وبعد أن مكثا معها لبعض الوقت، ودَّعاها ورجعا إلى بيتهما. وهناك دخل تيتو إلى حجرته، وانفرد فيها بنفسه، وراح يفكر في الشابة التي فتنته، وكلما أمعن في التفكير، ازداد هياماً بها. وبعد إطلاق كثير من الزفرات، انتبه إلى ما هو فيه، وقال لنفسه «آه، يا لبؤس حياتك يا تيتو! أين تضع روحك وحبك وآمالك؟.. ألا تعلم، وأنت الذي تلقيت تكريم كريميتيس وأسرته، ونشأت صداقة حقيقية بينك وبين جيسيبو، أن هذه التي تفكر فيها هي خطيبته، ويجدر بك توقيرها كأخت لك؟.. فكيف تقع في حبها؟.. وإلى أين يقودك خداع الحب؟.. إلى أين أنت ماض في الأمل الواهم؟.. افتح عيني عقلك واعرف نفسك أيها التعس، افسح المجال للعقل، واكبح جماح شهوتك، استبعد رغباتك غير السوية ووجه أفكارك إلى وجهة أخرى. كن

حازماً منذ البداية في مواجهة شهوتك وتغلب على نزوات نفسك قبل فوات الأوان. فما تريده غير لائق وغير شريف؛ وما تسعى إليه، حتى لو كنت واثقاً من نيله، وأنت لست كذلك، عليك أن تتفاداه وتهرب منه إذا ما نظرت إلى ما تطلبه منك الصداقة الحقيقية. ما الذي ستفعله يا تيتو؟.. إذا كنت ستفعل ما يمليه الواجب، عليك التخلي عن هذا الحب غير اللائق.» ولكنه راح يفكر بعد ذلك في جمال سوفرونيا، وسرعان ما تنكر لكل ما قاله، وبدأ يفكر: «قوانين الحب أقوى مما عداها. فهي لا تحطم قوانين الصداقة وحدها، وإنما كذلك القوانين الإلهية. فكم من المرات أحب الأب ابنته، والأخ أخته، وأحبت العرابة فلونها«ابنها بالعماد». وهي أمور أسوأ بكثير من وقوع صديق في حب زوجة صديقه، لأن هذا كثير الحدوث. أضف إلى ذلك أنني شاب، والشباب خاضع بالكامل لقوانين الحب؛ ولا بد لي بالتالي من الخضوع لما يريده لي الحب. أما أمور العفة والشرف، فأتركها للشيوخ المسنين. وهذه المرأة جميلة إلى حد تستحق معه أن يعشقها الجميع، فإذا ما أُغرمت بها، وأنا الشاب، فمن ذا الذي يمكن له أن يكون محقاً في لومي؟.. ولستُ أحبها لأنها خطيبة صديقي جيسيبو، بل أحبها لذاتها وأياً كان زوجها؛ وقد شاء القدر لها أن تكون خطيبة صديقي وليس سواه. وإذا كان جمالها جديراً بأن يُحب، فإنه سيكون من دواعي سرور جيسيبو أن أحبها أنا وليس شخصاً آخر غيري».

وبعد هذه التأملات، سخر من نفسه، ثم انقلب ثانية، وظل على هذه الحال من التبدل من رأي إلى رأي، ليس في ذلك اليوم وتلك الليلة وحسب، وإنما طوال أيام كثيرة تالية، حتى إنه فقد الشهية والرغبة في النوم، واضطر إلى ملازمة الفراش بسبب اشتداد ضعفه. تألم جيسيبو وحزن كثيراً حين رأى صديقه مستغرقاً في أفكاره منذ أيام، ثم رآه بعد ذلك طريح الفراش من المرض؛ فلم يعد يفارقه، وحاول التسرية عنه ومواساته بكل الوسائل، وكان يسأله مراراً وبإلحاح عن سبب وجومه ثم مرضه. فكان تيتو يرد عليه في كل مرة بإجابات كاذبة، ولكن جيسيبو لاحظ ذلك، فاضطر تيتو إلى البوح له وسط الدموع والزفرات:

- لو أن الآلهة تستجيب لرغبتي يا جيسيبو، لفضلتُ الموت على مواصلة هذه الحياة. فقد زج القدر بي في مأزق يختبر فيه فضيلتي، وأشعر بعار كبير وأنا أرى فضيلتي مهزومة. ولكنني آمل أن أنال، عما قريب، الجزاء الذي أستحقه، ألا وهو الموت، وهو عندي أفضل

من العيش حين أتذكر وضاعتي التي لا يمكنني، أنا الذي لا أستطيع، ولا ينبغي لي أن أخفي عنك شيئاً، إلا أن أخبرك بها وأنا مكلل بالعار.

وراح يروي له، منذ البداية، سبب الأفكار التي تراوده وصراعه مع هذه الأفكار، ولمن كان الفوز فيها، وكشف له عن أنه يموت حباً بسوفرونيا، وأكد له أن الموت هو السبيل للتكفير عما أوصلته إليه أفكاره، ويرجو أن يكون موته قريباً.

عندما سمع جيسيبو كلامه، ورأى بكاءه، استغرق في التفكير للحظات، متأملاً في تعلقه بجمال الفتاة الفاتنة؛ ولكنه سرعان ما توصل إلى أن حياة صديقه أهم لديه من حبه لسوفرونيا. وهكذا، لم يستطع كبح دموعه وهو يقول لصديقه:

ـ لو لم تكن في حالة تحتاج معها إلى من يخفف عنك الهموم، لكنت شكوت منك إليك، لأنك تتنكر لصداقتنا بإخفاء عاطفتك عني طوال هذا الوقت. وحتى لو كانت عاطفة لا تليق بالشرف، فالواجب يستدعي إطلاع الصديق على ما هو غير شريف مثلما يطلعه على الأمور الشريفة. لأن الصديق يفرح للأمور الشريفة، ويسعى لإبعاد صديقه عن غير الشريفة. ولكن، لنبقَ في موضوعنا، وهو ما أنت بحاجة إليه. إذا كنت تحب سوفرونيا، وهي خطيبتي، كل هذا الحب الجارف؛ فليس في هذا ما يدعوني للعجب، بل كنتُ سأعجب لو كان الأمر غير ذلك. لأني أعرف مدى جمالها، مثلما أعرف نبل روحك التي تشتد عاطفتها كلما كان ما تراه سامياً. وأنت تظلم القدر حين تشكو وقوعك في حب سوفرونيا، لأنك ترى – دون أن تقول ذلك – أن القدر منحني إياها، ويبدو لك أن حبك لها سيكون شريفاً لو أنها كانت لآخر سواي. ولكنك لو كنت عاقلاً وحصيفاً كعادتك، لشكرت القدر الذي جعلها من نصيبي، لأنه لا يمكن لشخص آخر غيري أن يرى حبك لها شريفاً، مادام يحبها أكثر مما يحبك؛ بينما أرى أنا ذلك إذا كنت تعتبرني صديقك الوفي مثلما أعتبرك. فأنا لا أتذكر، منذ ربطت الصداقة بيننا، أنني امتلكت شيئاً إلا ورأيت أنه لك بقدر ما هو لي. ولو كان أمر زواجي من سوفرونيا قد تقدم كثيراً، لكنتُ سلكت السلوك نفسه؛ ولكنها في الحقيقة ليست لي بعد، بالرغم من أنها خطيبتي، ومن أنني أحببتها كثيراً، وكنتُ أنتظر زفافها إليّ بسعادة؛ لكنني أؤكد لك أنها لن تكون زوجتي، وإنما ستتزوجها أنت في مخدعي. لأن حبك لها أعظم وأقوى، وتفهمك أكبر. فدعك من البكاء، وأزح عنك الكآبة، واستعد عافيتك التي فقدتها

وسعادتك السابقة. وانتظر منذ الآن المكافأة على حبك بالزواج من الفتاة التي تستحقها أكثر مني.

حين سمع تيتو كلام جيسيبو، أحس بالفرح لتحقق أمله، لكنه أحس في الوقت نفسه بالعار في أعماق ضميره العادل. وبقدر ما بدت له شهامة جيسيبو كبيرة، رأى أن عدم قبوله لها يجب أن يكون أكبر. فقال لصديقه بصوت واهن، ودون أن يتوقف عن البكاء:

- إن كرمك وصداقتك الحقيقة يا جيسيبو تبينان لي بوضوح ما يتوجب عليّ عمله. فمن منحتك إياها الآلهة بكل جدارة، لا يمكنني بأي حال أن أتقبلها لتكون زوجة لي. ولو رأت الآلهة أنها تناسبني، لما منحتها لك أو لأي شخص آخر. فتزوج راضياً ممن اخترتها ووهبتها لك الآلهة. ودعني أنا لدموعي التي منحني إياها القدر، لأنني لستُ جديراً بكل ذلك الخير الذي أُبعد عني. فإما أن أتغلب على الأحزان، وأظل صديقاً لك؛ أو تتغلب الأحزان علي فتقتلني وأتحرر من هذا الشقاء.

فقال له جيسيبو:

- إذا كانت صداقتنا تسمح لي يا تيتو، أن أجبرك على الامتثال لإرادتي، وعمل ما أمليه عليك؛ فسوف أستغلها في هذا الأمر وحده. فإن لم تستجب لتوسلاتي، سوف ألجأ إلى الإكراه الذي لا بد من اللجوء إليه من أجل مصلحة الصديق، كي أزوجك من سوفرونيا. إنني أعرف سطوة الحب وقوته، وأعرف أنه انتهى بمحبين كثيرين إلى الموت ميتة تعسة، وأراك تقترب من هذه النهاية، وأنت غير قادر على وقف دموعك أو التغلب عليها، وإنما ستهزمك وتقضي عليك؛ وعندئذ سألحق بك، دون شك، لأني لن أتحمل فراقك طويلاً. ولهذا، لو لم يكن هناك مسوغ آخر، فإن حياتك عزيزة لدي من أجل أن أعيش أنا أيضاً. وسوف تكون سوفرونيا لك، لأنك لن تجد امرأة أخرى تروقك مثلها، وسأحوّل أنا حبي بسهولة إلى امرأة غيرها، فأسعدك وأسعد نفسي. ولست أرى أنني كريم في ما أبذله، لأن العثور على النساء ليس بصعوبة العثور على صديق، ولهذا أجدني راغباً «لا أريد أن أقول خسارتها، لأنني لا أخسرها بتقديمها إليك، وإنما أحوّلها إلى أنا آخر» في أن أحولها إليك قبل أن أخسرك. فإذا كانت توسلاتي عزيزة عليك، فإنني أتوسل إليك أن تزيح عنك هذا الغم، فتسعدني وتسعد نفسك. وتمسَّك بالأمل كي تعيش ويبلغ حبك

المشبوب مرامه.

كان تيتو خجلاً من الموافقة على زواجه من سوفرونيا، فأصر على الرفض؛ لكن إلحاح صديقه من جهة، وحبه لها من جهة أخرى، دفعاه إلى القول:

ـ كفى يا جيسيبو؛ لست أدري إذا كان قبولي ما تعرضه عليّ هو سعادة لي أم لك، فأنت في توسلك تقول إن ذلك يسعدك كثيراً. لكن كرمك وشهامتك تغلبا على شعوري بالخجل والخزي، ودفعاني للقبول بما تعرضه علي. وثق بأنني لا أفعل هذا كمن لا يعرف أنك لا تهبني المرأة المحبوبة وحسب، وإنما وهبتني معها حياتي أيضاً. فلتساعدني الآلهة، إذا كان ذلك ممكناً، على أن أرد هذا الجميل إليك يوماً، وأبين لك مدى تقديري لما تفعله من أجلي.

بعد هذه الكلمات، قال جيسيبو:

ـ من أجل أنجاز هذا يا تيتو، أرى أنه يتوجب علينا التصرف كما يلي: أنت تعلم أن مفاوضات كثيرة جرت بين أقربائي وأهل سوفرونيا، وهي الآن خطيبتي وبمثابة زوجتي. فإذا ما ذهبتُ الآن لأقول إنني لا أريدها زوجة لي، سيؤدي ذلك إلى حدوث فضيحة كبرى، وسيغضب أهلي وأهلها؛ لكن هذا كله لا يهمني لو أنني واثق من أنها ستكون لك. غير أنني أخشى إذا ما تركتُها أن يسارع أهلها إلى تزويجها من شخص آخر، ربما لا يكون أنت، فتخسر بهذا ما كنتُ قد ظفرت به. لهذا أرى، إذا كنتَ توافقني الرأي، أن أواصل ما بدأته من إجراءات الزواج، ثم أُحضر الفتاة إلى بيتي كزوجة لي؛ فتدخل أنت سراً، وتنام معها كزوجة لك. وبعد ذلك نجد الزمان والمكان المناسبين لكشف الأمر للأهل، فإن ارتضوا ذلك كان بها، وإن لم يرضوا يكون ما جرى قد جرى، ولن يستطيعوا التراجع، وسيضطرون إلى القبول بالأمر الواقع.

بدا ذلك كله جيداً لتيتو؛ وبعد أن استرد عافيته، استقبل جيسيبو الفتاة كزوجة له في حفلة زفاف كبيرة. وعندما حل الليل، تركت النساء العروس الجديدة وحدها في مخدع عريسها وانصرفن. وكانت حجرة تيتو ملاصقة لحجرة جيسبيو، ويمكن الدخول من إحداهما إلى الأخرى. فقام جيسبيو بإطفاء كل الأضواء في غرفته، وخرج بصمت إلى حيث كان تيتو ينتظر، وطلب منه أن يدخل لينام مع زوجته. حين سمع تيتو هذه الكلمات، أحس بالعار وحاول التراجع ورفض الدخول؛ لكن جيسيبو كان مصمماً على إسعاد

صديقه، فألح عليه وأجبره على الدخول بعد جدال طويل. اقترب تيتو من الفراش، وأمسك الفتاة، وسألها بصوت خافت، كما لو أنه يمازحها، عما إذا كانت راضية بأن تكون زوجة له. وردت عليه الفتاة بنعم، وهي تحسبه جيسيبو. فوضع عندئذ خاتماً جميلاً وثميناً في إصبعها، وقال:

ـ وأنا أوافق على أن أكون زوجاً لك.

وهكذا أنجزا فعل الزواج. وظل تيتو يستمتع بحبه لوقت طويل، دون أن تتنبه هي نفسها أو أي شخص غيرها إلى أنها لا تنام مع جيسيبو، وإنما مع شخص آخر. وبينما سوفرونيا وتيتو على هذه الحال في زواجهما، حدث أن أغمض أبوه عينيه عن هذه الدنيا، ووصلته رسالة تدعوه للعودة إلى روما دون تأخير، من أجل النظر في أعماله الخاصة ومتابعتها. فتحدث في الأمر مع جيسيبو، وأخبره بأنه يريد أن يأخذ سوفرونيا معه، وهو أمر غير ممكن، وغير لائق، دون كشف حقيقة الوضع لها. وهكذا دعاها الصديقان في أحد الأيام إلى الحجرة، وأخبراها بكل ما حدث، وأكد لها تيتو صحة الأمر بوقائع مما جرى بينها وبينه. فراحت الفتاة تتنقل بنظرات غاضبة من أحدهما إلى الآخر، وانفجرت باكية وهي تشكو وتتذمر من خداع جيسيبو لها. وقبل أن تبدي أي رأي في الموضوع في بيت جيسيبو، قررت الذهاب إلى بيت أبيها، وهناك أخبرت أبويها بخداع جيسيبو لها ولهما، وأكدت لهما أنها كانت طوال الوقت زوجة تيتو وليس جيسيبو مثلما يظنون. وكان وقع الخبر قاسياً على أبي سوفرونيا، وقد استاء جداً هو وأقاربه وأقارب جيسيبو لهذا الوضع. وحل غضب أقارب الجانبين على جيسيبو، وقال الجميع إنه يستحق عقاباً قاسياً، وليس التأنيب واللوم فقط. ولكنه ظل يؤكد لهم أنه أقدم على عمل شريف، يستحق عليه شكر أبوي سوفرونيا، لأنه زوجها من شخص أفضل منه. وكان تيتو، من جانبه، يسمع ذلك كله، ويتحمله بمشقة وعناء. ولأنه كان يعرف أن من عادة الإغريق التمادي في التأنيب والتهديد إلى أن يجدوا من يواجههم ويقف في وجههم، فيتحولون عندئذ ليس إلى التذلل وحسب، بل الإذعان والاستسلام. وفكر في أنه لن يستطيع تحمل خطاباتهم الملعلعة، ولأنه يتمتع بروح الرومان وحكمة الاثينيين، فقد دعا أقارب جيسيبو وسوفرونيا إلى اجتماع في المعبد، ثم دخل عليهم وليس معه أحد سوى جيسيبو، وكلمهم على النحو التالي:

ـ يعتقد كثير من الفلاسفة أن ما يحدث للبشر الفانين هو من تقدير الآلهة الخالدة

وتدبيرها ، ولهذا يرى بعضهم أنه لا مفر لنا من كل ما يحدث أو ما سيحدث لنا ، لأنه حتمي ولا نستطيع تجنبه. إلا أن هناك آخرين منهم يعزون هذه الحتمية إلى ما حدث وصار ناجزاً. فإذا ما أمعنا النظر في هذه الآراء ، يتبين لنا أن كيل التأنيب على أمر لا سبيل إلى تبديله ، لا يعدو أن يكون رغبة من المرء في إظهار أنه يعرف أكثر من الآلهة الذين علينا الإيمان بأنهم يحكموننا ويتدبرون أمورنا ، وكل الأمور الأخرى ، بشريعة سرمدية ودون أخطاء. ولهذا أرى ، ويمكن لكم أن تروا بسهولة ، أنه من الجنون والبهيمية الزعم بإصلاح أفعال الآلهة ، وكم من الأغلال يستحقها أولئك الذين تبلغ بهم الجرأة والوقاحة هذه الحدود. وأنتم جميعكم ، كما أرى ، من هؤلاء الناس الذين يتجرؤون على الآلهة ، إذا كان صحيحاً ما فهمته مما قلتموه وتقولوه طوال الوقت ، واعتراضكم على زواجي من سوفرونيا التي أعطيتموها لجيسيبو ، دون أن تفكروا في أن القدر هو الذي اختارها ، منذ الأزل ، لتكون زوجة لي وليس لجيسيبو ، وهو ما تحقق الآن في الواقع. ولكن ، بما أن الحديث عن أسرار العناية الإلهية ونوايا الآلهة ، يبدو فهمه عصياً على كثيرين ممن يزعمون أن لا علاقة للآلهة بأي عمل من أعمالنا ؛ فإنني سأنزل إلى أحكام البشر ، وهذا يستدعي مني ذكر شيئين يتناقضان تناقضاً كبيراً مع عاداتي وطبيعتي : أولهما أن أمتدح نفسي بعض الشيء ؛ وثانيهما التحدث بالسوء عن آخرين ، أو إهانتهم. ولكني سأفعل ذلك وأنا مصمم على عدم الابتعاد عن الحقيقة في الأمرين كليهما ، وفق ما يتطلبه موضوعنا الحالي. فمبعث تذمركم وشكواكم هو الغضب وليس العقل ، وأنتم لا تتوقفون عن توجيه الاحتجاجات المتواصلة ، والصخب واللوم والإساءات والإدانات إلى جيسيبو ، لأنه قدم لي كزوجة ، وبقراره الحر ، من قدمتموها إليه بقراركم الحر. وأرى أن فعلته هذه تستوجب التقدير والثناء لسببين : أولهما أنه فعل ما يتوجب على الصديق فعله ، والسبب الثاني أنه تصرف بحكمة لم تتوصلوا إلى مثلها في سلوككم. وليس في نيتي اليوم التحدث إليكم عما تتطلبه قوانين الصداقة المقدسة من الصديق لصديقه ، وسأقتصر على تذكيركم بأن أواصر الصداقة توحد بين الناس بقوة تفوق قوة أواصر الدم أو القرابة ؛ لأن الأصدقاء نختارهم بإرادتنا ، بينما قرابة الدم هي من صنع القدر. فإذا كان جيسيبو قد فضل حياتي على إرضائكم ، لأنني صديقه مثلما هو صديقي ، فليس في ذلك ما يدعو إلى العجب. ولكن ، لنتحول الآن إلى السبب الثاني «وهو يستدعي منا التوقف عنده مطولاً» : فكونه أكثر حكمة وتعقلاً منكم ، كما أنكم لا تعرفون – كما أرى - سوى القليل عن عناية الآلهة ، وأقل من ذلك

بكثير عن روابط الصداقة. أقول إنكم بما لكم من تعقل وقدرة على المحاكمة، أعطيتم سوفرونيا لجيسيبو باعتباره شاباً وفيلسوفاً، فقدمتها حكمة جيسيبو إلى شاب وفيلسوف. أعطيتموها لأثيني، فقدمها هو إلى روماني. أعطيتموها لشاب نبيل، فقدمها جيسيبو إلى شاب أكثر نبلاً. أعطيتموها لشخص ثري، فقدمها جيسيبو إلى شخص أوسع ثراء. أعطيتموها لرجل لم يكن يحبها، بل لم يكن يعرفها، فقدمها هو لمن يحبها أكثر من سعادته ومن حياته نفسها. ولكي تدركوا أن ما قلته هو الحقيقة، تمعنوا فيه فكرة بعد فكرة: فأنا شاب وفيلسوف مثل جيسيبو، وسامتي ودراستي تثبتان ذلك دون الحاجة إلى أي خطبة. فأنا وهو في سن واحدة، وقد تقدمنا في دراستنا بالخطوات نفسها. وصحيح إنه أثيني، وأنا روماني؛ فإذا كانت أمجاد المدينة هي موضع خلافنا، فإنني أقول إنني أنتمي إلى مدينة حرة، بينما ينتمي هو إلى مدينة تابعة وتدفع الجزية؛ وأنا أنتمي إلى مدينة تسود على العالم بأسره، وينتمي هو إلى مدينة تابعة لمدينتي؛ ومدينتي مزدهرة بجيوشها وإمبراطوريتها وعلومها، بينما لا يستطيع هو التباهي إلا بعلوم مدينته. وفوق هذا كله، على الرغم من أنكم ترونني طالب علم بائساً هنا بينكم، فإنني لستُ من دهماء روما وعوامها؛ فقصوري الخاصة ومثلها الأماكن العامة في روما، تغص بتماثيل أسلافي وأجدادي. والحوليات الرومانية مترعة بانتصارات عظيمة حققها أبناء أسرتي من آل كينتو في الكابيتول الروماني. ولا يظنن أحد أن أمجاد أسرتنا قد ذوت بفعل الشيخوخة ومرور الزمن، بل إن هذه الأمجاد أكثر ازدهاراً اليوم باسمنا. وأنا أصمت، بدافع الخجل، عن الحديث عن ثروتي، متذكراً أن الفقر النزيه هو الإرث القديم الرفيع لنبلاء المواطنين الرومان. فإذا كانت هذه الصفة محل ازدراء الجهلة ممن يمتدحون الكنوز باعتبارها تمثل الثراء، فإنني أملك الكثير من الثروات، ليس لأني بخيل وجشع، وإنما لأني محب للثراء والوفرة. وأعرف جيداً أنكم تفضلون مصاهرة جيسيبو لأنه ينتمي إلى مدينتكم، ولكنني لن أكون أقل فائدة منه لكم في روما، حيث ستجدون في هناك الصديق المخلص، والمتنفذ المدافع عنكم، سواء في الشؤون العامة أو الخاصة. ولو تركنا العواطف جانباً، ونظرنا بعين العقل والعدالة، فمن الذي سيثني على مواقفكم ويفضلها على مواقف صديقي جيسيبو؟.. لا أحد في الحقيقة. فسوفرونيا تزوجت زيجة محترمة من النبيل تيتو كنتو فولفيوس، المواطن الروماني العريق والثري، وصديق جيسيبو. ومن يتبرم منكم ويشكو يكون مخطئاً أو جاهلاً. وربما يكون هناك من يقولون إنهم غير مستائين من زواج

سوفرونيا من تيتو، وإنما من الطريقة التي بها تم الزواج: خفية ومواربة، ودون علم أحد من الأقارب أو الأصدقاء. ولكن هذا ليس أعجوبة ولا هو بالأمر الذي يحدث أول مرة. وسوف أضرب صفحاً عن أولئك اللواتي تزوجن دون علم آبائهن، ومن هربن مع عشاقهن، فكنّ خليلات أكثر منهن زوجات؛ وعن أولئك اللواتي يكشف الحبل والإنجاب عن زواجهن قبل الإعلان عنه بالكلام، ثم تفرض الضرورة الاعتراف بذلك الزواج. ولكن شيئاً من هذا كله لم يحدث لسوفرونيا التي قدمها جيسيبو بكل وقار وشرف واحترام إلى تيتو. وقد يقول بعضكم إن ذاك قد زوّجها لمن لم يكن مقرراً أن تزف إليه. وهذه تحسرات بلهاء، تصدر عن قلة التقدير. فهذه ليست المرة الأولى التي يستخدم فيها القدر دروباً وأدوات جديدة لتحويل الأمور في وجهات معينة. وماذا يهمني من إبداء الحذّاء أو الفيلسوف رأيه حول عمل من أعمالي «سواء أفعل ذلك سراً أم علانية»، ما دامت خاتمة هذا العمل طيبة؟.. ولكن عليّ أن انتبه، إذا ما كان الحذاء غير متبصر، لأوقفه عن الكلام، وأشكره على عمله. وإذا كان جيسيبو قد زوّج سوفرونيا، ورحتم تتذمرون منه ومن الطريقة التي فعل بها ذلك، فهذه بلاهة غير مجدية ولا طائل منها؛ لأنكم إذا كنتم لاتثقون برأيه، فحاذروا من السماح له بتزويج غيرها من بناتكم، واشكروه على ما فعله. ويجب أن تعلموا فوق ذلك، أنني لم أسعَ، بالمكر أو التدليس، إلى تلطيخ شرفكم أو تلويث نقاء دمائكم في شخص سوفرونيا؛ فمع أنني تزوجت منها سراً، إلا أنني لم أتصرف كخاطف يريد انتزاع عذريتها، ولا كعدو يريد النيل منها بصورة غير شريفة، ويرفض مصاهرتكم، وإنما بُهرت بجمالها وفضيلتها، وكنت أعرف أنكم قد ترفضون طلبي إذا ما طلبتها منكم بالطرق العادية، لأنكم تحبونها كثيراً، وتخشون أن أحملها معي إلى روما. ولهذا لجأت إلى السرية التي أكشفها لكم الآن، فجعلت جيسيبو يفعل بدلاً مني ما كان غير مستعد لعمله؛ ومع أنني كنت مولعاً بحبها، إلا أنني لم أقربها كعشيق، وإنما كزوج «وهذا ما يمكنها أن تؤكده هي نفسها»، فأنا لم أتزوج منها إلا بعد عبارات الموافقة المعهودة، وبعد شبكها بخاتمي. فقد سألتها إذا ما كانت ترضى بي زوجاً لها، فأجابت بنعم. وإذا بدا لها أنها قد خُدعت، فليس لكم أن تلوموني، وإنما عليكم أن تلوموها هي لأنها لم تسألني من أكون. هذه هي إذن الخطيئة الكبرى، الجناية الكبرى، الجريمة الكبرى التي اقترفها جيسيبو كصديق، واقترفتها أنا كمحب؛ إنها زواج سوفرونيا من تيتو كنتو. ولهذا توجهون إليه التهديدات وتحاولون النيل منه. ماذا كنتم ستفعلون لو أنه زوجها من خادم أو

متشرد أو من أحد الرعاع؟.. أيه أغلال، وأية سجون، وأية صلبان كانت ستكفيكم عندئذ؟.. ولكن فلندع هذا جانباً الآن، فقد حمَّ القضاء الذي لم أكن أنتظره، وتوفي والدي. وأنا مضطر إلى العودة إلى روما. ولأنني أريد أخذ سوفرونيا معي، كشفت لكم عما كان بإمكاني إبقاؤه سراً. ولو أنكم كنتم حكماء لارتضيتم الأمر بسعادة؛ لأنني لو أردت خداعكم أو إهانتكم، لكنت تركتها وتخليت عنها بخسة ونذالة؛ ولكن معاذ الله أن تلجأ روح روماني إلى مثل هذه الوضاعة. إنها، وأعني سوفرونيا، لي بإرادة الآلهة، وبمقتضى القوانين، وبحكمة صديقي جيسيبو، وبحيلتي المحبة؛ أما أنتم «يا من تظنون أنكم أكثر حكمة من الآلهة والبشر»، فتثبتون لي أنكم مخطئون بطريقتين اثنتين: أولاهما، احتجازكم سوفرونيا عني وليس لكم عليها أي حق أو سلطة، إلا ما أرضى به؛ وثانيهما، معاملتكم لجيسيبو كعدو، في الوقت الذي كان عليكم فيه أن تشكروه. ولا أنوي الآن أن أحدثكم عن بلاهتكم في الأمرين كليهما إلا كصديق ينصحكم بالتخلي عن غضبكم، وأن تُعاد سوفرونيا إلي كي أرحل سعيداً كقريب لكم. وأؤكد لكم، سواء أأعجبكم ما جرى أم لم يعجبكم، بأنني سأنتزع جيسيبو منكم؛ وعندما أصل روما سأسترد من هي لي، مهما ضايقكم ذلك. وسأجعلكم عندئذ تعرفون، بتجربتكم، ما الذي يعنيه استثارة غضب الرومانيين.

بعد أن أنهى تيتو كلامه، نهض واقفاً والغضب بادٍ على محياه، وأمسك بيد جيسيبو مبدياً عدم اهتمامه بكل من في المعبد، وخرج من هناك وهو يهز رأسه متوعداً. أما من ظلوا في الداخل، فقد تحاوروا فيما بينهم، مدفوعين من ناحية بما قاله تيتو عن رغبته في أن يكون قريباً وصديقاً لهم، وخائفين من ناحية أخرى من كلماته الأخيرة المتوعدة، واتفقوا على أنه من الأفضل لهم قبول تيتو كقريب، لاسيما أن جيسيبو لم يقبل تلك المصاهرة، وأنه عليهم ألا يفقدوا قرابة جيسيبو ويكسبوا عداوة تيتو. فخرجوا بحثاً عن تيتو، وقالوا له إنهم يوافقون بسعادة على أن تكون سوفرونيا زوجة له، وأن يكون صهراً عزيزاً لهم، ويظل جيسيبو صديقاً؛ وأقاموا معاً حفلة أسرية وودية. ثم أرسلوا في طلب سوفرونيا، وقد كانت عاقلة وحكيمة، فحولت إلى تيتو كل الحب الذي كانت تكنه لجيسيبو، وسافرت مع زوجها إلى روما، حيث استُقبلت بكل مظاهر التشريف.

أما جيسيبو فظل في أثينا، حيث أهمله الجميع وعاملوه بازدراء، ولم يمض إلا بعض

الوقت، حتى قامت بعض الشراذم المدنية بطرده مع أسرته من المدينة، فقيراً وبائساً، وحُكم عليه بالنفي المؤبد. وعندما صار جيسيبو في هذه الحال، ليس فقيراً وحسب، وإنما متسولاً، تمكن من الوصول كيفما اتفق له إلى روما ليرى إن كان تيتو يتذكره. وكان قد علم أنه لا يزال حياً، ويحظى باحترام وتقدير الرومان كلهم؛ ثم تعرف على موقع بيته، فذهب إليه وراح ينتظر إلى أن جاء تيتو. ولكنه لم يتجرأ، بسبب بؤسه، على التكلم إليه، وإنما سعى جاهداً إلى لفت نظره لعله يتعرف عليه ويستدعيه. فمر تيتو قريباً منه، وبدا لجيسيبو أنه رآه وتجنبه، فتذكر عندئذ ما كان فعله هو من أجله، وانصرف غاضباً وبائساً.

وعند حلول الليل، وكان جيسيبو جائعاً لا يملك نقوداً، ولا يدري أين يذهب؛ وأكثر ما يتمناه هو الموت، وصل إلى مكان موحش من المدينة. فوجد هناك مغارة كبيرة، دخل إليها لقضاء تلك الليلة فيها. وغلبه النوم هناك من شدة البكاء، ونام على الأرض العارية، وليس عليه سوى أسماله البالية. وإلى تلك المغارة، حضر عند الفجر لصان أمضيا تلك الليلة في السرقة، وأثناء تقاسم السرقات نشب بينهما خلاف، وكان أحدهما أقوى من الآخر، فقتل زميله وانصرف مبتعداً. وقد رأى جيسيبو وسمع كل شيء، فبدا له أنه وجد السبيل إلى الموت الذي يتمناه، دون أن يضطر إلى قتل نفسه بنفسه. ولهذا ظل هناك إلى أن حضر رجال الشرطة، بعد أن علموا بأمر الجريمة، واقتادوا جيسيبو سجيناً. وعند استجوابه، اعترف بأنه قتل الرجل، وأنه لم يستطع بعد ذلك مغادرة المغارة. وهكذا حكم عليه القاضي، ويدعى ماركو فارون، بالموت على الصليب، وهي طريقة تنفيذ عقوبة الإعدام في ذلك العصر. وشاءت المصادفة أن يصل تيتو إلى المحكمة في تلك اللحظة، فنظر إلى وجه المحكوم البائس، وسمع سبب الحكم عليه، وعندئذ تعرف فيه على صديقه القديم جيسيبو. فأدهشه بؤسه وسوء طالعه، وكيفية وصوله إلى روما؛ وأحس برغبة جارفة في مساعدته. ولكنه لم يجد وسيلة لإنقاذه إلا باتهام نفسه بالجريمة، وإعفاء صديقه من التهمة. فتقدم مسرعاً، وصاح متوجهاً إلى القاضي:

ـ استدع الرجل الذي أدنته يا ماركو فارون، لأنه بريء. ويكفيني أنني أغضبت الآلهة بقتل ذلك الرجل الذي وجده حراس شرطتك ميتاً هذا الصباح. ولا حاجة بي إلى إغضاب الآلهة من جديد بإرسال رجل بريء آخر إلى الموت.

أدهش كلامه القاضي فارون، وآلمه أن جميع من في المحكمة قد سمعوه. ولأن شرفه لا يسمح له بالتقاعس عن العمل بمقتضى القوانين، أمر بإعادة جيسيبو، وقال له بحضور تيتو:

ـ كيف بلغ بك الجنون حدّ المقامرة بحياتك، والاعتراف ـ دون أن تتعرض لأي تعذيب ـ باقتراف ما لم تفعله؟.. أنت تقول إنك من قتل الرجل في الليلة الفائتة، وها هو شخص آخر يأتي الآن ليقول إنك لست القاتل، وإنما هو من قتله.

نظر جيسيبو إلى الرجل، ورأى أنه تيتو، فأدرك أنه يفعل ذلك لإنقاذه كرد للجميل الذي قدمه إليه في زمن آخر. عندئذ راح يبكي بلوعة ويقول:

ـ الحقيقة إنني أنا من قتله يا سيدي، أما إشفاق تيتو عليّ ومحاولته إنقاذ حياتي، فجاء بعد فوات الأوان.

ولكن تيتو قال من جهته:

ـ أنت ترى أيها القاضي أن هذا الرجل غريب وأعزل، وقد عُثر عليه قريباً من القتيل؛ وأنت ترى أن بؤسه هو دافعه إلى طلب الموت. ولهذا عليك أن تطلق سراحه، وتعاقبني أنا الذي أستحق العقاب.

ازدادت دهشة فارون من إصرار الرجلين، وحدثته نفسه بأنهما كلاهما غير مذنبين؛ وراح يفكر في طريقة لتبرئتهما. وعندئذ تقدم شاب يدعى بابليو أمباسترو، وهو رجل عادات غامضة، ولص مشهور يعرفه جميع الرومان؛ وهو الجاني الحقيقي في تلك الجريمة. ولأنه يعرف أن الرجلين بريئان من التهمة التي ينسبانها لنفسيهما، ملأت الرقة قلبه، وتحرك مدفوعاً بالشفقة، وقال وهو يمثل أمام القاضي فارون:

ـ سيدي القاضي، لقد جاءت بي أفعالي إلى هنا لأحل هذا الجدل بين الرجلين، ولستُ أدري أي إله في داخلي يحثني ويدفعني إلى الاعتراف بخطيئتي. اعلم يا سيدي أن المذنب ليس أياً من هذين الرجلين اللذين يتهم كل منهما نفسه. والحقيقة إنني أنا من قتل ذلك الرجل عند بزوغ فجر هذا اليوم. وقد رأيت هذا البائس الواقف هناك، نائماً في المغارة، بينما كنت أتقاسم المسروقات مع من قتلته. أما تيتو فلا حاجة بي إلى البحث عن عذر له، فسمعته ناصعة في كل الأنحاء، ومعروف أنه ليس من هذا الصنف من الناس، فاطلق

سراحهما يا سيدي القاضي، وعاقبني بما يقضي به القانون.

وفي أثناء ذلك، وصل الأمر إلى علم الإمبراطور أوكتافيوس، فأمر بإحضار الرجال الثلاثة، ورغب في أن يسمع السبب الذي دفع كلاً منهم إلى اتهام نفسه؛ هكذا روى كل واحد منهم أسبابه. فأمر أوكتافيوس بإطلاق سراح الثلاثة؛ الاثنان الأولان لأنهما بريئان، والثالث حباً به. وعندئذ عانق تيتو صديقه جيسيبو ولامه كثيراً في أول الأمر لعدم ثقته به، ثم احتفى به، واقتاده إلى منزله، حيث استقبلته سوفرونيا بدموع المودة كصديق. وبعد مواساته وإلباسه الملابس اللائقة بفضائله ومكانته النبيلة، اقتسم تيتو معه كل كنوزه وأملاكه، ثم زوجه بعد ذلك من أخته الشابة المدعوة فولفيا، وقال له أخيراً:

ـ لك الخيار الآن يا جيسيبو في أن تبقى معي أو تعود إلى أثينا ومعك كل ما منحتك إياه.

ونظراً لنفي جيسيبو وإبعاده عن مدينته من جهة، وحبه من جهة أخرى لتيتو وصداقته، قرر البقاء في روما والتحول إلى روماني. وعاش مع فولفيا، وتيتو مع سوفرونيا، في بيت كبير، تحيط بهم السعادة وتتوطد أواصر الصداقة بينهم في كل يوم.

مقدسة هي الصداقة إذن، وليست جديرة باحترام فريد وحسب، وإنما لأن تكون كذلك محل ثناء دائم باعتبارها أم المكارم والشرف، وأخت الفضل والإحسان، وعدوة الحقد والجشع؛ فهي تسارع على الدوام، دون حاجة إلى الرجاء، لتقدم للآخرين بكل نزاهة ما ترجوه لنفسها. آثارها القدسية لم تعد تتبدى في هذه الأيام بين شخصين، بسبب عار البشر الفانين وبؤس أرواحهم، هؤلاء الذين ما عادوا ينظرون إلا إلى مصالحهم الخاصة، فأقصاهم الجحود إلى منفى أبدي، أبعد من أقصى حدود الأرض. فأي حب، وأي ثراء، وأي قرابة، كان يمكن لها، لولا الصداقة، أن تجعل قلب جيسيبو يشعر بحرقة دموع تيتو وزفراته، فيتخلى له عن المرأة المحبوبة والنبيلة ويزوجها له؟.. وأية قوانين، أية تهديدات، أية مخاوف كان يمكن لها أن تمنع ذراعي تيتو، في الأماكن المنعزلة، في الأركان المظلمة، في سريره، عن معانقة الشابة الجميلة لولا الصداقة؟.. وأية أحوال، أية مزايا، أية مكاسب كان يمكن لها جعل جيسيبو لا يولي اهتماماً لخسارته أقرباءه وأقرباء سوفرونيا، ولا يهتم لتقولات الرعاع المشينة، ولا يهتم للسخريات والإهانات في

سبيل إرضاء صديقه، لولا الصداقة؟.. وما الذي كان سيجعل تيتو، من جانب آخر، وقد كان بمقدوره التظاهر بأنه لم ير جيسيبو، ماذا كان سيجعله يسارع إلى انتزاع صديقه عن الصليب، ويسعى للحلول محله لولا الصداقة؟.. ومن الذي كان سيجبر تيتو، وهو الثري واسع الثراء، على تقاسم ثروته مع جيسيبو الذي أطاح سوء الطالع بثرواته، لولا الصداقة؟.. ومن ذا الذي كان سيدفع تيتو إلى تزويج أخته، دون تردد، من جيسيبو الذي بلغ أقصى حدود الفقر والبؤس، لولا الصداقة؟.. يمكن للرجال أن يرغبوا في أن يكون لهم كثير من الأقران، وجيش من الأخوة، وعدد كبير من الأبناء، وأن يزيدوا بأموالهم من أعداد خدمهم، وألا يهتموا بأن أياً من هؤلاء جميعهم يخشى من أدنى خطر يتهدده أكثر مما يبديه من حماسة في إبعاد المخاطر الكبرى عن أبيه أو أخيه أو سيده؛ بينما نرى الصديق يفعل عكس ذلك تماماً.

القصة التاسعة

يلقى صلاح الدين، وهو متنكر بزي تاجر، تكريم السيد توريللو وحسن ضيافته. وفيما بعد ينضم السيد توريللو إلى حملة صليبية، ويحدد لزوجته فترة محددة يمكنها أن تتزوج بعدها إذا هو لم يرجع. فيقع أسيراً في الحرب، ويُقدم للسلطان باعتباره بارعاً في تدريب صقور الصيد، فيتعرف السلطان عليه، ويعرفه بنفسه، ويكرمه تكريماً عظيماً. يصاب السيد توريللو بالمرض، فينقل بفنون السحر، في ليلة واحدة، إلى بافيا؛ حيث يصل في أثناء حفلة زفاف امرأته إلى زوج جديد، فتتعرف عليه، ويعودان معاً إلى بيتهما.

أنهت فيلومينا قصتها، وأثنى الجميع كثيراً على شهامة تيتو وكرمه؛ ولكي يحافظ الملك على الامتياز الممنوح لديونيو في أن يكون آخر المتكلمين، بدأ هو نفسه الحديث بالقول:

- سيداتي الفاتنات، لا شك في صحة ما قالته فلومينا عن الصداقة، وهي محقة حين

تتحسر، في نهاية كلامها، من أن الصداقة صارت اليوم ضئيلة القيمة لدى البشر الفانين. ولو كان اجتماعنا هنا من أجل تصحيح العيوب الدنيوية، أو حتى لمجرد ذمها، لكنت واصلتُ وأضفت أقوالاً مسهبة إلى كلامها في هذا الشأن. ولكن غايتنا هنا مختلفة، وقد فكرتُ في أن أروي لكم قصة، ربما هي طويلة جداً، ولكنها لطيفة وممتعة في كل أجزائها، عن واحد من تصرفات صلاح الدين المجيدة. وإذا كانت الصداقة الكاملة المنزهة غير ممكنة، فإنه يمكن لنا أن نعرف على الأقل، من خلال قصتي هذه، أن التصرف اللائق والشهم، قد يؤتي ثماره يوماً ويتلوه حسن الجزاء.

جرى في عهد الإمبراطور فردريك الأول، كما يؤكد البعض، الإعداد لحملة صليبية شاملة، من أجل استرداد الأراضي المقدسة. وقد وصلت بعض هذه الأخبار إلى السيد الفاضل صلاح الدين، وهو آنذاك سلطان بابليونيا، فقرر أن يستطلع بنفسه إعدادات ملوك المسيحيين لتلك الحملة الصليبية، من أجل التمكن من مواجهتها. فرتب أموره في مصر، متظاهراً بأنه سيذهب إلى الحج، واصطحب معه اثنين من أعقل رجاله وأكثرهم تنوراً، وثلاثة من الخدم فقط، وانطلق في رحلته متنكراً بهيئة تاجر. وبعد أن اجتازوا الكثير من الإمارات المسيحية، وصلوا على صهوات جيادهم إلى لومبارديا، ليجتازوا الجبال التي تليها. وحدث أن التقوا وهم يمضون من ميلان إلى بافيا، وكان الوقت غروباً، بسيد من إيستريا دي بافيا يدعى توريللو، يمضي مع خدمه وكلابه وصقوره إلى مزرعة له على ضفاف نهر تسينو. وفور رؤيتهم، أدرك السيد توريللو أنهم نبلاء وغرباء، ورغب في تكريمهم. وهكذا، ما إن سأل صلاح الدين أحد خدم توريللو عن المسافة التي تفصلهم عن مدينة بافيا، وإذا ما كان بوسعهم الوصول إلى المدينة قبل أن تغلق أبوابها، حتى بادر السيد توريللو إلى الإجابة بنفسه:

- لن تستطيعوا الوصول إلى المدينة، أيها السادة، قبل أن تغلق أبوابها

فقال صلاح الدين:

- تفضل إذن وأخبرنا أين يمكننا العثور على مأوى جيد لهذه الليلة، لأننا غرباء.

فأجابه السيد توريللو:

- سأفعل هذا بكل سرور. لقد كنت أفكر، الآن بالذات، في إرسال أحد رجالي

هؤلاء إلى مكان قريب من بافيا ، لقضاء أحد شؤوني. وسوف أرسله معكم ليأخذكم إلى مكان يمكنكم أن تبيتوا فيه ليلتكم على أحسن وجه.

ثم دنا من أحد أكثر أتباعه حرصاً وتكتماً ، فأمره بما عليه أن يفعله ، وأرسله معهم. ومضى هو بأسرع ما يستطيع إلى مزرعته ، فأمر بإعداد عشاء فاخر ، وبوضع المائدة في الحديقة؛ وعندما صار كل شيء جاهزاً ، وقف عند الباب ينتظر. وفي أثناء ذلك ، راح الخادم الذي رافق الغرباء يتحدث إليهم في أمور شتى ، واقتادهم عبر بعض الدروب ، ثم انحرف بهم ، دون أن ينتبهوا إلى ذلك ، نحو مزرعة سيده. وما إن رآهم السيد توريللو ، حتى خرج للقائهم وهو يقول باسماً :

ـ أهلاً وسهلاً بكم أيها السادة.

وقد أدرك صلاح الدين ، وهو الرجل الفطن ومتوقد الذكاء ، أن ذلك الفارس خشي ألا يقبلوا دعوته لو أنه دعاهم عندما التقى بهم أول مرة. لهذا ، وكي لا يتمكنوا من رفض البقاء في ضيافته تلك الليلة ، اقتادهم بالحيلة إلى بيته. فما كان من صلاح الدين إلا أن ردّ على تحيته بالقول:

ـ أيها السيد ، إذا كانت الشكوى من الكرام ممكنة ، لجاز لنا أن نشكو منك ونلومك؛ فمع أنك عرقلت سفرنا كي تحتفي بنا ، دون أن يكون بيننا أكثر من تحية عابرة ، إلا أن كرمك يجبرنا على قبول دعوتك وحفاوتك التي لا نستحقها.

فقال السيد توريللو ، وكان حكيماً ومفوهاً :

ـ أيها السادة ، ما هذا الذي تلقونه مني سوى تكريم متواضع ، إذا قورن بالمكانة التي يدل عليها مظهركم. والحقيقة إنكم ما كنتم ستجدون خارج بافيا مكاناً لائقاً تنزلون فيه ، ولهذا رأيت أنه لن يضايقكم إطالة طريقكم قليلاً ، لكي تنزلوا في مكان أقل إزعاجاً لكم.

وما إن قال ذلك ، حتى جاء الخدم وأحاطوا بهم ، فترجلوا عن صهوات خيولهم ، وأخذها الخدم لتستريح. واقتاد السيد توريللو الرجال الثلاثة إلى الحجرات التي أُعدت لهم ، حيث خلعوا أحذيتهم ، وانتعشوا قليلاً ببعض النبيذ البارد ، وظلوا يتبادلون الحديث إلى أن حان موعد العشاء. وكان صلاح الدين وزميلاه وخدمه يجيدون جميعهم التكلم باللاتينية ،

فكانوا يفهمون ويُفهمون على أحسن وجه. وبدا لهم جميعاً أن ذلك السيد هو أكثر من التقوهم من الرجال لطفاً وكياسة. وبدا لتوريللو، من جهته، أنهم أشخاص بارزون، وأسمى مكانة مما قدّره من قبل، وساءه أنه لا يستطيع إكرامهم في تلك الليلة بمأدبة وصحبة تليق بأهميتهم. وفكر في أن يعوض ذلك في اليوم التالي. فأخبر أحد خدمه بما يود عمله، ثم أرسله إلى بافيا، وهي قريبة جداً وأبوابها لا تُغلق أبداً، ليخبر زوجته، وهي سيدة عظيمة وعالية الهمة، بما عليها إعداده. واصطحب بعد ذلك السادة إلى الحديقة، وسألهم هناك بكل لباقة عمن يكونون، وإلى أين يذهبون. فأجابه صلاح الدين:

ـ إننا تجار قبارصة، جئنا من قبرص، ونحن ذاهبون إلى باريس لإنجاز أعمال لنا هناك.

فقال السيد توريللو:

ـ أرجو من الله أن تنجب بلادنا سادة نبلاء على شاكلة ما أراه في تجار قبرص!

وانتقلوا من هذا الحديث إلى أحاديث أخرى، حتى حان موعد العشاء، فدعاهم للجلوس إلى المائدة. وقُدمت لهم، على أحسن وجه، أصناف الطعام التي أعدت على عجل. وعند الانتهاء من تناول العشاء، نهضوا عن المائدة، وأدرك السيد توريللو أنهم متعبون، فأخذهم للنوم والراحة في غرف فخمة، على أسرة وثيرة. وذهب بدوره إلى حجرته لينام.

كان الخادم الذي أوفد إلى بافيا قد نقل الرسالة إلى زوجة توريللو، فبادرت السيدة على الفور ـ ليس بحماس نسوي، وإنما ملكي ـ إلى استدعاء عدد كبير من أصدقاء توريللو وخدمه، وأعدت كل التدابير اللازمة لإقامة وليمة عظيمة. وعلى أضواء المشاعل، وجهت الدعوات إلى عدد كبير من أبرز نبلاء المدينة. وأخرجت الأقمشة والحرائر والجلود والفراء، ورتبت كل شيء مثلما طلب منها زوجها أن تفعل.

وعندما استيقظ السادة في الصباح، امتطوا جيادهم مع السيد توريللو الذي أمر بإحضار صقوره، واقتادهم إلى بحيرة قريبة، حيث أراهم طيران الصقور ومهارتها في القنص. إلا أن صلاح الدين سأله إذا ما كان هناك شخص ذاهب إلى بافيا، كي يوصلهم إلى أفضل نزل فيها. فقال له السيد توريللو:

ـ أنا هو ذلك الشخص، لأن لدي عملاً أنجزه هناك.

صدقوه مبتهجين، وانطلقوا معه في الطريق، فوصلوا المدينة عند الضحى، وكانوا

يظنون أنهم ذاهبون إلى أفضل نزل فيها؛ لكنهم وجدوا أنفسهم يصلون مع السيد توريللو إلى منزله. وكان هناك أكثر من خمسين شخصاً من أبرز أعيان المدينة، حضروا لاستقبالهم والترحيب بهم. وحين رأى صلاح الدين وصحبه ذلك، أدركوا حقيقة ما يجري، فقالوا:

ـ ليس هذا ما طلبناه منك يا سيد توريللو. لقد فعلتَ ما يكفي في الليلة الماضية، وأكرمتنا بأكثر مما نستحق؛ ويمكن لك بالتالي السماح لنا بمواصلة طريقنا دون أي شعور بالتقصير.

فأجابهم السيد توريللو قائلاً:

ـ أيها السادة، ما جرى ليلة أمس لا أدين به لكم، وإنما للقدر الذي أدرككم في الطريق، واضطركم إلى المجيء إلى بيتي الريفي المتواضع. أما الآن، فإنني مدين لكم بواجب الضيافة، ومعي كل هؤلاء السادة الأعيان المحيطين بكم؛ فإن وجدتم لباقة في رفض تشريفهم بتناول الغداء معهم، فواصلوا طريقكم إذا شئتم.

أُسقط في يد صلاح الدين وصحبه، فترجلوا عن صهوات جيادهم، واستقبلهم السادة الأعيان بسعادة، ثم اقتيدوا إلى حجرات خصصت لهم، وأُعدت بأبهة لراحتهم. فخلعوا ثياب السفر، واستراحوا قليلاً، ثم انضموا إلى الجمع في القاعة الكبرى الفخمة. وبعد أن جيء بماء غسل الأيدي، جلس الجميع إلى المائدة في انتظام بديع، وقُدمت لهم أصناف كثيرة من الطعام، بحيث لو كان الإمبراطور حاضراً لما أحيط بأكثر من ذلك التكريم. ومع أن صلاح الدين وصاحبيه كانوا من السادة العظام المعتادين على الأبهة والفخامة، إلا أنهم أصيبوا بالذهول لمقام مضيفهم الذي كانوا يحسبونه سيداً برجوازياً، وليس نبيلاً رفيع المكانة.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، ورفع المائدة، وتبادل الحديث لبعض الوقت في أمور مهمة وسامية، بدأ الحر يشتد؛ فاستأذن السادة وجهاء بافيا من السيد توريللو، وذهبوا للراحة. وعندما لم يبق أحد سوى ضيوفه الثلاثة، انتقل معهم إلى قاعة أخرى، وكي لا يظل شيء مما يعتز به خافياً عنهم، أمر باستدعاء زوجته الفاضلة. فحضرت المرأة باهرة الجمال ورفيعة المقام، مرتدية ملابس موشاة فاخرة، وعلى جانبيها ابناها الصغيران كأنهما ملاكان، فحيت السيدة الضيوف باحترام. وكان هؤلاء قد نهضوا عند رؤيتها

تدخل، واستقبلوها بتوقير وإجلال، ثم أجلسوها بينهم، وأحاطوا طفليها الجميلين بالمداعبات الحانية. وبعد أن دخلت معهم في حديث لبق، غادر السيد توريللو القاعة؛ فسألتهم السيدة بكل لطف عن موطنهم الذي جاؤوا منه، وعن وجهتهم التي يقصدونها؛ فأجابها السادة بما كانوا قد أجابوا به السيد توريللو من قبل. عندئذ قالت السيدة بسعادة:

ـ أرى أن احتياطاتي الأنثوية كانت نافعة، ولهذا أرجو منكم أن تسدوا لي الجميل بعدم رفض هدية صغيرة سأحضرها لكم، وألا تستخفوا بها، آخذين في اعتباركم أن النساء لا يستطعن أن يقدمن سوى هدايا صغيرة، لأن قلوبهن صغيرة؛ وأرجو أن تنظروا إلى طيب نوايا مقدم الهدية وليس قيمة الهدية أو حجمها.

وأمرت بإحضار ثوبين لكل منهم، أحدهما من الحرير، والآخر من فرو السمور، لا تشبه في شيء ما يلبسه المواطنون العاديون أو التجار، وإنما هي من ملابس كبار السادة النبلاء. ثم جاءت بثلاث عباءات من الكتان الناعم، وقالت:

ـ تفضلوا بقبول هذه الأشياء، فهي مثل ما يرتديه زوجي. وبما أنكم بعيدون عن زوجاتكم، وقد قطعتم طريقاً طويلة، ولا تزال أمامكم رحلة طويلة، ولأن التجار رجال محبون للنظافة والأناقة، فإن هذه الملابس قد تفيدكم وتروقكم بالرغم من ضآلة قيمتها.

ذهل السادة الضيوف وأدركوا أن السيد توريللو لن يترك نوعاً من التكريم إلا ويقدمه لهم. وأحسوا بالرهبة وهم يرون فخامة تلك الملابس ونبلها، بحيث لا يمكن لها أن تكون من لبوس التجار بأي حال، وداخلتهم الشكوك في أن يكون السيد توريللو قد اكتشف حقيقتهم وعرف من يكونون. ومع ذلك، فقد توجه أحدهم إلى السيدة بالقول:

ـ إنها أشياء عظيمة يا سيدتي، ولا يمكن لنا تقبلها بسهولة لولا توسلاتك التي لا تتيح لنا رفضها.

وفي أثناء ذلك، كان السيد توريللو قد رجع، فاستأذنتهم السيدة في الانصراف، وذهبت لتكرم خدمهم وتقدم لهم هدايا مماثلة. وتوسل إليهم السيد توريللو بأن يظلوا معه طوال ما تبقى من اليوم، وألح على ذلك إلى أن أقنعهم بالبقاء. وبعد أن استراحوا لبعض الوقت، ارتدوا الثياب الجديدة، وامتطوا جيادهم ليقوموا مع السيد توريللو بجولة في المدينة. وعندما حان موعد العشاء، تناولوا الطعام مع عدد كبير من السادة النبلاء. ثم

ذهبوا إلى الحجرات المخصصة لهم عندما حان موعد النوم.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظوا ووجدوا بانتظارهم ثلاثة جياد أصيلة وقوية، بدلاً من أحصنتهم المتعبة، وخيولاً أخرى جديدة لخدمهم. وحين رأى صلاح الدين ذلك كله، التفت إلى صاحبيه وقال لهما:

- أقسم بالله إنني لم أعرف قط رجلاً بمثل هذا الكرم واللباقة وسعة الأفق؛ ولو أن ملوك المسيحيين كلهم مثل هذا السيد، لما استطاع سلطان بابل مواجهة واحد منهم فقط، وليس جميع أولئك الذين يستعدون للهجوم عليه وغزو بلاده.

ولأنه كان يعرف أنه من غير اللائق رفض تلك الجياد، فقد شكره بكل لباقة وتقدير، ثم امتطى وأصحابه جيادهم. ورافقهم السيد توريللو وعدد كبير من أصدقائه إلى مسافة بعيدة خارج المدينة. ومع أن صلاح الدين كان يشعر بالأسى لفراق السيد توريللو، بعد أن تعلق به، إلا أنه رجاه أن يعود إلى مدينته، لأنه مضطر للرحيل. فقال لهم السيد توريللو وهو يشعر بقسوة الفراق:

- أيها السادة، سوف أرجع إلى المدينة ما دامت هذه رغبتكم. ولكنني أقول لكم: أنا لا أعرف من تكونون، ولا رغبة لي في أن أعرف عنكم أكثر مما ترغبون فيه. ولكن أياً تكونون، لا يمكن لكم أن تقنعوني بأنكم مجرد تجار. فلترافقكم رعاية الله.

وبعد أن استأذن صلاح الدين مرافقي السيد توريللو كلهم، توجه إليه قائلاً:

- أيها السيد، قد تتاح لنا فرصة نريك فيها تجارتنا، وعندئذ ستتأكد من حقيقتنا. فوداعاً، وليحطك الله برعايته.

رحل صلاح الدين وصحبه، وقد استقر قراره «إذا ما قُدر له العيش، ولم تحل الحرب المتوقعة دون ذلك» على أن يكرم السيد توريللو إكراماً لا يقل عما لقيه منه. واستفاض في التحدث مع رجاله عنه والإشادة به، وبزوجته، وبكل أعماله وتصرفاته. وبعد أن جال أقاليم الغرب كلها، متكبداً الكثير من المشقة والعناء، ركب البحر مع رفاقه ورجع إلى الاسكندرية، واستعد للدفاع عن بلاده مستعيناً بكل ما حصل عليه من معلومات.

رجع السيد توريللو إلى بافيا، وظل يفكر طويلاً في من يكون أولئك السادة الثلاثة. ولكنه لم يستطع التوصل إلى الحقيقة أو الاقتراب منها قط. وكان قد حان موعد انطلاق

الحملة الصليبية، وبدأت الاستعدادات والتدابير تُتخذ في كل مكان. وقرر توريللو الانضمام إلى الحملة، على الرغم من توسلات زوجته ودموعها. وبعد أن أعد كل ما يلزمه، وصار على وشك امتطاء جواده، قال لزوجته التي يكن لها أعظم الحب:

ـ إنني ذاهب، كما ترين يا امرأة، في هذه الحملة الصليبية لتكريم جسدي وخلاص روحي على حدّ سواء. وإني أعهد إليك بكل أملاكي وشرفي. وإذا كنتُ واثقاً من ذهابي، فإنني لا أملك ـ لألف سبب ـ أي ضمانة في عودتي؛ لهذا أريد منك أمراً واحداً: مهما سيحل بي، وما لم يصلك خبر مؤكد عن حياتي أو موتي، أريد منك أن لا تعودي إلى الزواج من غيري إلا إذا أنا لم أرجع إليك قبل انقضاء عام وشهر ويوم، بدءاً من هذا اليوم الذي أغادرك فيه.

فأجابت السيدة وهي تبكي متفجعة:

ـ سيدي توريللو، لست أدري كيف سأتحمل الأسى الذي تتركني فيه؛ ولكن إذا ما قيض لي تحمله والبقاء على قيد الحياة، فكن واثقاً، سواء أكنتَ حياً أم ميتاً، من أنني سأظل في الحياة والممات زوجة توريللو، ووفية لذكراه.

فقال لها توريللو:

ـ إنني واثق يا زوجتي من أنك ستفعلين كل ما بوسعك لتنفيذ هذا الذي تعدينني به. ولكنك امرأة شابة وجميلة، تنحدرين من أسرة نبيلة، والجميع يعرفون مدى فضيلتك وعفتك؛ لهذا كله، لستُ أشك في أن كثيراً من النبلاء والسادة، سيطلبون يدك من إخوتك وأهلك إذا ما حدث لي شيء أو ضاعت أخباري. ولن تتمكني عندئذ من الصمود، وستضطرين للرضوخ لهم. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى تحديد هذا الموعد، ولستُ أطلب منك أكثر منه.

فقالت المرأة:

ـ سأفعل كل ما أستطيع في سبيل ما قلته لك؛ وإذا ما اضطررت إلى عمل شيء آخر، فسوف أنفذ هذا الذي تطلبه بكل تأكيد. وأرجو من الله ألا يوصلك أو يوصلني إلى مثل تلك الخيارات.

أنهت السيدة هذه الكلمات باكية، وعانقت السيد توريللو، ثم نزعت خاتماً من

إصبعها وقدمته إليه قائلة:

- إذا ما قدر لي أن أموت قبل عودتك، فتذكرني كلما رأيت هذا الخاتم.

تناول السيد توريللو الخاتم، ثم امتطى جواده مودعاً الجميع، وانطلق في رحلته. وعند وصوله مع رجاله إلى جنوا، أبحروا في سفينة انطلقت بهم إلى عكا، حيث انضموا إلى جيش آخر من جيوش الفرنجة. وسرعان ما تفشى في صفوف هذا الجيش وباء فتاك وخطير، أهلك أعداداً كبيرة من الجند، ومن بقي منهم على قيد الحياة وقع أسيراً في يد صلاح الدين. وجرى توزيعهم على مدن كثيرة ليوضعوا في سجونها. وكان السيد توريللو واحداً من أولئك الأسرى، وقد اقتيد إلى السجن في الإسكندرية. ولأنه لم يكن معروفاً، وخشي التعريف بنفسه، فقد دفعته الضرورة إلى تدريب صقور الصيد والعناية بها، وقد كان خبيراً كبيراً بهذه الأعمال. وعندما علم صلاح الدين بمهارته تلك، أخرجه من السجن وعينه راعياً لصقوره. ولم يتعرف عليه السلطان الذي كان يدعوه باسم «النصراني»، مثلما لم يتعرف السيد توريللو بدوره على السلطان؛ لأن تفكيره كله كان موجهاً إلى بافيا وحدها. وقد حاول الهرب مراراً، ولكنه لم يستطع. وفي أحد الأيام حضر بعض الجنويين في سفارة إلى صلاح الدين للتفاوض على افتداء بعض مواطنيهم. وعندما كانوا يستعدون للرحيل، فكر السيد توريللو في أن يكتب رسالة لزوجته يخبرها فيها أنه مازال على قيد الحياة، وأنه سيعود إليها بأسرع ما يستطيع، ويطلب منها أن تنتظره. وتوسل إلى أحد أولئك السفراء، وكان يعرفه، أن ينقل أخباره تلك إلى رئيس دير سان بيترو في سييلدورو، وهو عمه.

وبينما السيد توريللو في الأسر، حدث أن مرّ صلاح الدين في أحد الأيام، وراح يتحدث معه عن صقوره، وابتسم خلال الحديث، محدثاً حركة بشفتيه كان صلاح الدين قد انتبه إليها وهو في بيته في بافيا، فذكّرت تلك الحركة صلاح الدين بالسيد توريللو؛ فأمعن النظر في الأسير، وبدا له أنه الشخص نفسه. فتحول عن موضوع الحديث وقال له:

- أخبرني أيها النصراني، من أي بلاد الغرب أنت؟..

فأجاب السيد توريللو:

- أنا لومباردي يا سيدي، من مدينة تدعى بافيا. ولستُ سوى رجل فقير من العامة.

حين سمع صلاح الدين قوله، تأكدت شكوكه تقريباً، وقال لنفسه بسعادة: «لقد وفر لي الله الفرصة كي أريه مدى امتناني لكرمه!» ودون أن يقول شيئاً آخر، أمر بأن توضع ملابسه كلها في حجرة، اقتاد إليها الأسير وقال له:

ـ انظر أيها النصراني إذا ما كان بين هذه الملابس شيء رأيته من قبل.

بدأ السيد توريللو النظر، ورأى الثوبين اللذين أهدتهما زوجته لصلاح الدين، وقدّر أنهما لا يمكن أن يكونا نفسيهما؛ ولكنه أجاب مع ذلك:

ـ لم أعرف أي ثوب من هذه الثياب يا سيدي، وإن كان بينها اثنان يشبهان ما كنت أرتدي فيما مضى، وما أهديت لثلاثة تجار استضفتهم في بيتي.

لم يستطع صلاح الدين عندئذ كبح نفسه، فعانقه بمحبة وهو يقول:

ـ أنت السيد توريللو دي إيستريا، وأنا أحد التجار الثلاثة الذين أهدت إليهم زوجتك هذه الثياب. وقد حانت الآن اللحظة التي أؤكد لك فيها رأيك بتجارتي، وهو ما قلت لك عند الوداع أنه قد يحدث.

عندما سمع توريللو ذلك، بدأ يشعر بمزيج من السعادة والخجل، السعادة لأنه استضاف مثل هذا الضيف، والخجل لأنه رأى أن تكريمه له كان أقل مما يليق بمقامه. فقال له صلاح الدين:

ـ بما أن الله قد أوصلك إليّ الآن يا سيد توريللو، فاعتبر منذ الآن أنك أنت السيد هنا، وليس أنا.

أمر بإقامة حفلة كبرى، وألبسه ثياباً ملكية، وقدمه إلى رجاله البارزين. وبعد أن أطرى أمامهم مطولاً على شهامته وكرمه، أمر الجميع أن يعاملوه بالتبجيل نفسه الذي يعاملونه هو نفسه به. وهو ما فعلوه جميعهم منذ ذلك اليوم، وخاصة السيدين اللذين زاراه في بيته بصحبة صلاح الدين. ذلك الصعود المفاجئ إلى ذروة المجد، جعل السيد توريللو ينسى لبعض الوقت أموره في لومبارديا، ولاسيما أنه كان يأمل أن تكون رسالتاه قد وصلتا إلى عمه وإلى زوجته. وتصادف أن مات في معسكر الصليبيين ـ في اليوم نفسه الذي أسرهم فيه صلاح الدين ـ سيد صغير الشأن من بروفانس، اسمه توريللو دي نيس. وبسبب تشابه الاسمين، ولكون السيد توريللو دي إيستريا معروفاً للجيش كله، بسبب نبله

ومكانته، فإن كل من سمع منادياً يقول: «لقد مات السيد توريللو» ظن أن المقصود هو السيد توريللو دي إيستريا، وليس دي نيس؛ ثم جاء الأسر بعد ذلك، فلم يتمكن المخطئون من معرفة ذلك الخطأ. وهكذا رجع إيطاليون كثيرون إلى بلادهم حاملين هذا الخبر؛ وكان بينهم بعض المدعين الذين أكدوا أنهم رأوه ميتاً وشهدوا دفنه. وعندما وصلت هذه الأنباء إلى الزوجة وذويها، كانت سبب حزن عظيم لا يوصف، ليس لهم وحدهم، وإنما لجميع من عرفوه. ولن يتسع الوقت للحديث عن مدى حزن الزوجة وألمها وبكائها. لكن الأحزان بدأت تتضاءل بعد شهور من معاناة هذه المحنة، وصار أبرز سادة لومبارديا يتقربون منها ويطلبون ودها. وبدأ إخوتها وأهلها يطلبون منها أن تتزوج ثانية، فكانت ترفض ذلك في كل مرة وهي تبكي بمرارة. ولكنها أُجبرت أخيراً على قبول ما يريده أهلها؛ غير أنها اشترطت ألا تساكن الزوج الجديد قبل انقضاء الفترة التي وعدت بها السيد توريللو.

وبينما كانت أمور السيدة تسير في بافيا على هذا النحو، وقبل ثمانية أيام من انتهاء المدة المحددة لذهابها إلى زوجها الجديد، حدث أن رأى السيد توريللو في الإسكندرية رجلاً آتياً من جنوا، وكان قد رآه من قبل برفقة السفراء الذين بعث معهم رسالتيه. فناداه وسأله كيف كانت رحلته، وكيف وصل إلى جنوا، فأجابه الرجل:

ـ لقد كانت رحلة شؤم يا سيدي. فقد نزلتُ من السفينة في كريت، وبقيتُ في الجزيرة لبعض شؤوني. وعلمت بعد ذلك أن عاصفة شمالية عاتية قد هبت بينما السفينة تقترب من صقلية، وألقت بها إلى شواطئ بلاد البربر، ولم ينج أحد من ركابها، وكان بينهم اثنان من إخوتي.

تأكد السيد توريللو من صدق ما يقوله ذلك الرجل، وتذكر أن المهلة التي حددها لزوجته ستنتهي بعد أيام قليلة، وانتبه إلى أنه ليس هناك من يعرف عنه شيئاً في بافيا؛ فأدرك أن زوجته ستتزوج ثانية دون شك. أصابه ذلك بغم وحزن شديدين، وفقد الرغبة في الطعام، وسقط طريح الفراش، مصمماً على الموت. وعندما علم صلاح الدين بحاله، وكان يكنّ له أعمق محبة، ذهب لزيارته. وبعد كثير من التوسل والرجاء، عرف سبب كآبته ومرضه، فلامه كثيراً لأنه لم يخبره بذلك من قبل، ثم طلب منه أن يرفع من همته. وأكد له أنه سيجعله يصل إلى بافيا قبل الموعد المحدد؛ وأخبره بالطريقة.. اطمأن السيد توريللو لكلمات صلاح الدين، وكان قد سمع كثيراً عن إمكانية تحقيق ذلك، فبدأ يستعيد

معنوياته، ويطلب من صلاح الدين أن يسرع بما وعده به.

توجه صلاح الدين إلى ساحر كان قد جرب فنونه من قبل، وأمره بأن يتدبر أمر نقل السيد توريللو، على سرير، إلى بافيا، في ليلة واحدة. فأجابه الساحر بأنه سيكون له ما أراد، ولكنه يفضل أن ينقله وهو منوم من أجل خيره. وبعد ترتيب هذا الأمر، رجع صلاح الدين إلى السيد توريللو، فوجده مصمماً على أن يكون في بافيا قبل الموعد المحدد، إذا كان ذلك ممكناً، وإن لم يستطع فإنه يفضل الاستسلام للموت. فقال له صلاح الدين:

ـ إذا كنت تحب زوجتك يا سيد توريللو بكل هذه الرقة، وتخشى أن تصير زوجة لغيرك، فالله يعلم أنني لست ألومك، لأنني لم أر في كل من عرفتهن من النساء من تستحق الثناء والتقدير أكثر منها في أخلاقها وخصالها وسلوكها «دون ذكر جمالها، لأن الجمال زهرة لا تدوم نضارتها». وقد كان يسعدني كثيراً، بعد أن ساقك القدر إلى هنا، أن نقضي ما تبقى لنا في الحياة معاً، نتعاون كسيدين متساويين في حكم مملكتي هذه؛ ولكن الله لن يمنحني هذه الأمنية، لأنك مصر على الوصول إلى بافيا قبل المهلة المحددة، أو الموت دون ذلك. وكم كان بودي أن أعرف بذلك في وقت مبكر، كي أتمكن من إرسالك إلى موطنك بالمهابة والمعية التي تستحقها فضائلك. وبما أن هذا لم يعد ممكناً، لأنك راغب في الذهاب بأسرع ما يمكن، فإنني سأرسلك كيفما أستطيع، وبالطريقة التي أخبرتك بها.

فقال له السيد توريللو:

ـ لقد أثبتت لي أفعالك يا سيدي، قبل كلماتك، مدى عظمة أريحيتك التي تفوق ما تستحقه مكانتي. وحتى لو لم تقل ما قلته، فإنني سأعيش وأموت وأنا واثق منه. ولكنني مصمم على الرحيل، وأرجو منك أن تسارع إلى تحقيق ما وعدتني به، فغداً هو اليوم الأخير في المهلة.

فقال له صلاح الدين إنه قد رتب كل شيء. وفي اليوم التالي، أعد صلاح الدين العدة لإرساله في الليل، فأمر بإعداد سرير بديع وفخم في إحدى أجمل القاعات، فراشه من الريش وأنفس المخامل المذهبة والمزركشة بنقوش عربية ولآلئ كبيرة الحجم وأحجار كريمة، فكان سريراً لا تقدر قيمته بثمن. ووُضعت عليه وسادتان تليقان بذلك السرير. وبعد الانتهاء من هذه الإعدادات أمر صلاح الدين، بأن ينقل السيد توريللو، وهو نائم، إلى

هذا السرير، وأن يجري إلباسه ثياباً عربية لم يُر مثلها من قبل، وأن توضع على رأسه إحدى أفضل عمائمه. ولأن الوقت كان قد تأخر، فقد توجه صلاح الدين إلى حجرة السيد توريللو مع عدد كبير من رجال حاشيته، وشرع يقول وهو يكاد يبكي:

ـ لقد دنت ساعة الفراق يا توريللو، ولأنني لا أستطيع مرافقتك أو إرسال حاشية ترافقك، بسبب ظروف الرحلة التي ستقوم بها، فإنني مضطر إلى أن أودعك هنا؛ وهذا ما جئتُ من أجله. وقبل أن أتركك برعاية الله، أستحلفك بالمحبة والصداقة التي ربطت بيننا ألا تنساني، وأن تسعى جاهداً، بعد أن تسوي أمورك في لومبارديا، لأن تأتي ولو مرة واحدة لزيارتي قبل أن يحين أجلنا، كي أسعد بلقياك، وأُصلح الخطأ الذي سأقترفه الآن بهذا الوداع بسبب تعجلك؛ وإلى أن تتمكن من المجيء، لا تتوانى عن مراسلتي وطلب كل ما تبتغيه من مطالب، ولسوف ألبي ما ترغب فيه بكل سرور، فليس هناك في الدنيا من يسعدني تلبية رغباته مثلك.

لم يستطع السيد توريللو كبح دموعه التي حالت دون تمكنه من الكلام، فاكتفى بكلمات مقتضبة تؤكد أنه من المستحيل أن تغيب أفضال صلاح الدين وأريحيته عن ذاكرته، وأنه سيأتي بكل تأكيد لزيارته إذا ما سنحت له الفرصة بذلك. وعانقه صلاح الدين وقبله بمودة، ثم قال والدموع تملأ عينيه:

ـ فليكن الله معك.

وغادر الحجرة، فودع السادة الآخرون توريللو وخرجوا بعده متوجهين جميعهم إلى القاعة التي أُعد فيها السرير.

ولأن الوقت كان قد تأخر، وكان الساحر ينتظر إنجاز ما أعده، فقد حضر طبيب يحمل دواء قال إنه مقو، ولا بد للسيد توريللو من أن يتناوله. ولم تمض سوى لحظات قليلة حتى غرق في سبات عميق، فأمر صلاح الدين بنقله وهو نائم، ووضعه على السرير الفخم، ثم وضع على السرير تاجاً نفيساً نُقش عليه ما يشير بوضوح إلى أنه هدية من صلاح الدين إلى زوجة السيد توريللو. ووضع في إصبع السيد توريللو خاتماً فيه فص من الياقوت الأحمر المتوهج كأنه شعلة مشتعلة، لا تقدر قيمته بثمن؛ ثم زنره بسيف مزخرف ومرصع بأحجار كريمة، وعلق على صدره قلادة مرصعة بلآلئ لم يُر لها مثيل، وبأحجار نفيسة أخرى، ثم أمر بعد ذلك بأن توضع إلى جانبيه جفنتان ضخمتان من الذهب ممتلئتان بنقود

ذهبية، وكثير من حلي اللؤلؤ، والخواتم والأحزمة، وأشياء كثيرة أخرى يصعب حصرها وعدّها وضعت حوله. وبعد الانتهاء من ذلك كله، قبّل السيد توريللو مرة أخرى، وأمر الساحر بأن يسرع في عمله. وعلى الفور، بحضور صلاح الدين، اختفى السرير من هناك وعليه السيد توريللو. وظل صلاح الدين يتكلم عنه مع رجال حاشيته المقربين.

وفي الحال، انتقل السرير، وعليه السيد توريللو وكل الحلي والزينات التي ذُكرت آنفاً إلى كنيسة القديس بيترو في سييلدورو ببافيا، مثلما طلب السيد توريللو نفسه. وكان لا يزال نائماً عندما قُرعت الأجراس فجراً، ودخل خادم الدير إلى الكنيسة يحمل شعلة في يده، وفوجئ برؤية السرير الفخم، فلم يفاجئه ذلك وحسب، وإنما أصابه برعب عظيم؛ فعاد أدراجه هارباً. ورآه رئيس الدير والرهبان، فعجبوا لذلك وسألوه عن سبب خوفه. فأخبرهم خادم الكنيسة بما رآه. وقال له رئيس الدير:

ـ آه! أنت لست طفلاً، ولست جديداً في الكنيسة لترتعب بهذه السهولة. هلموا بنا، ولنر أي غول أخافه.

أضيء مزيد من المشاعل، ودخل رئيس الدير مع رهبانه إلى الكنيسة ورأوا ذلك السرير العجيب والثمين، وعليه الفارس النائم. وبينما هم مذعورون، يحملقون بالجواهر النفيسة من بعيد بذهول، حدث أن انتهى مفعول المخدر، واستيقظ السيد توريللو مطلقاً زفرة عميقة. وعندما رأى الرهبان ذلك، ومعهم رئيس الدير، أصابهم الرعب وصرخوا قائلين: «ألطف بنا يا رب»!..، وفروا هاربين.

فتح السيد توريللو عينيه، ونظر في ما حوله، وأدرك بوضوح أنه في المكان الذي طلب من صلاح الدين أن يوصله إليه، فأسعده ذلك كثيراً؛ واعتدل في السرير وراح يتأمل كل ما يحيط به باهتمام. وبالرغم من معرفته العميقة بعظمة صلاح الدين ونبله، إلا أنه أحس الآن بأنه أعظم وأنبل من كل ما عرفه عنه من قبل. ودون أن يكون قد تحرك من مكانه، رأى الرهبان يهربون، وأدرك سبب هروبهم. فراح ينادي رئيس الدير باسمه، ويرجوه ألا يخاف، لأنه ليس إلا توريللو ابن أخيه. وعندما سمع رئيس الدير ذلك، ازداد خوفه، لأنه كان يعتبره ميتاً منذ شهور. ولكنه بعد بعض الوقت، شعر بالطمأنينة وهو يسمع النداء، فرسم إشارة الصليب المقدس، واقترب منه. فقال له السيد توريللو:

ـ ما الذي يخيفك يا أبت؟.. إنني ما أزال حياً والحمد لله، وقد رجعت مما وراء البحار.

وبالرغم من طول لحية السيد توريللو، وملابسه العربية، إلا أن رئيس الدير تعرف عليه، واطمأن تماماً، فصافحه قائلاً:

ـ أهلاً بك يا بني ـ ثم واصل قائلاً ـ يجب ألا يدهشك خوفنا، لأنه لا وجود في هذه الأنحاء لشخص واحد لم يصدق نبأ موتك، حتى إن زوجتك نفسها، السيدة أداليتا، قد رضخت لتوسلات أهلها وتهديدهم، ووافقت مكرهة على الزواج ثانية. واليوم سوف تنتقل إلى بيت الزوج الجديد، وقد أعد كل شيء لحفلة زفافها هذا الصباح.

نهض السيد توريللو عن السرير الفخم، فحيا رئيس الدير والرهبان، وطلب من الجميع ألا يحدثوا أحداً بأمر عودته، قبل أن يفرغ من حلّ مسألة خاصة. ثم عمد بعد ذلك إلى وضع الجواهر الثمينة في مكان آمن، وروى لرئيس الدير كل ما جرى له حتى تلك اللحظة. فعجب الكاهن من كل تلك المغامرات، وشكر الله لإعادته سالماً. وسأله السيد توريللو عن الزوج الجديد لامرأته، فأخبره رئيس الدير بذلك. عندئذ قال السيد توريللو:

ـ قبل أن تعلم زوجتي بعودتي، أريد أن أعرف كيف سيكون تصرفها في هذا الزفاف؛ ومع أنني أعرف أنه ليس من عادة رجال الدين الذهاب إلى مثل هذه الحفلات، إلا أنني أتوسل إليك ـ حباً بالرب ـ أن تتدبر أمر ذهابنا معاً.

وأجابه رئيس الدير بأنه سيفعل بكل رحابة صدر. وعندما طلع الصباح، أرسل إلى العريس يخبره بأنه راغب في حضور الحفلة مع رفيق له. وجاء الرد بأنه يرحب به بكل سعادة. وعندما حان موعد الغداء، ذهب السيد توريللو بتلك الملابس التي كان يرتديها، ومعه رئيس الدير إلى بيت العريس، فكان كل من رآه ينظر إليه بدهشة، دون أن يتعرف عليه أحد. وكان رئيس الدير يقول للجميع إنه مسلم موفد في سفارة من السلطان إلى ملك فرنسا. وجلس السيد توريللو إلى مائدة في مواجهة امرأته تماماً، وكانت سعادته كبيرة برؤيتها. وبدا له من ملامحها أنها متضايقة من هذا الزواج. وكانت هي تنظر إليه من حين إلى آخر، ليس لأنها عرفته (فاللحية الطويلة، والثياب الغريبة، والقناعة الراسخة بموته لم تكن تتيح لها التعرف إليه)، وإنما لغرابة ملابسه. وعندما بدا للسيد توريللو أن الفرصة صارت مواتية لمعرفة إذا ما كانت تتذكره، نزع من إصبعه الخاتم الذي قدمته إليه زوجته عندما ودعها، ثم استدعى شاباً كان يقوم على خدمتها، وقال له:

ـ قل للعروس إن العادة في بلادي، إذا ما حضر غريب، مثلي، مأدبة عروس، مثلها،

أن تبدي ترحيبها به بأن ترسل إليه الكأس التي تشرب منها مملوءة بالخمر، فيشرب الغريب قدر ما يرغب منها، ثم يغطيها ويعيدها إليها لتشرب ما تبقى فيها.

نقل الشاب الرسالة إلى السيدة، فرأت أن اللباقة والفطنة تستدعيان منها إبداء سعادتها بحضوره. ولكي تثبت ذلك، تناولت كأساً ذهبية كبيرة كانت أمامها، فأمرت بغسلها، ثم ملأتها بالخمر وأرسلتها إلى الضيف. وكان السيد توريللو قد وضع خاتمها في فمه، فأسقطه في الكأس وهو يشرب منها، دون أن ينتبه إليه أحد، وترك قليلاً من الخمر في الكأس، ثم غطاها وأرسلها إلى السيدة. أزاحت السيدة غطاء الكأس لتشرب ما تبقى فيها، تنفيذاً لتلك العادة، وما إن رفعتها إلى فمها حتى رأت الخاتم، فتأملته بإمعان دون أن تقول شيئاً، وعرفت أنه يشبه ذلك الخاتم الذي قدمته للسيد توريللو عند رحيله. عندئذ أمعنت النظر في الغريب، وتعرفت عليه، فأطاحت بالمائدة التي أمامها، كمن أصابها مس من الجنون، وصاحت:

- إنه زوجي وسيدي. إنه السيد توريللو حقاً.

وركضت باتجاه المائدة التي كان يجلس إليها. ودون أن تولي اهتماماً لملابسها أو للصحاف والأواني التي على المائدة، ألقت بنفسها عليه وضمته بقوة، ولم يستطع أحد من الحاضرين، سواء بالأقوال أو الأفعال، إبعادها عنه إلى أن طلب منها السيد توريللو أن تتماسك، لأنها ستجد ما يكفي من الوقت لمعانقته مثلما تشاء؛ عندئذ وقفت هادئة. وبعد الفوضى التي أحدثتها عودة الفارس في حفلة الزفاف، طلب هذا من الجميع أن يصمتوا، وراح يروي لهم كل ما جرى له منذ يوم رحيله حتى تلك اللحظة، وانتهى إلى القول إن السيد الذي كان على وشك الزواج من امرأته، لاعتقاده بأنه ميت، يجب ألا يستاء الآن من استعادته لها وهو حي. ومع أن العريس أحس بقدر غير قليل من الإجحاف، إلا أنه أجاب كصديق وبشهامة أنه يمكن للسيد توريللو أن يفعل ما يحلو له. ونزعت المرأة الإكليل والخاتم اللذين تلقتهما من العريس الجديد، وتركتهما هناك؛ ووضعت في إصبعها الخاتم الذي أخذته من الكأس، وتكللت بالتاج الذي أرسله إليها السلطان، وخرجا من ذلك البيت في احتفال زفافي حتى بيت السيد توريللو. وهناك احتفى به الأهل والأصدقاء وكل من كانوا يظنونه ميتاً في المدينة، وكانوا ينظرون إليه كما لو أنه قد انبعث من الموت. وقدم السيد توريللو جزءاً من الجواهر النفيسة إلى من تحمل تكاليف حفلة الزفاف، وإلى

رئيس الدير وآخرين كثيرين. ثم أرسل رسولاً ليخبر صلاح الدين بعودته السعيدة إلى موطنه، مؤكداً له أن سيظل صديقه وخادمه الوفي إلى الأبد. وعاش عمراً مديداً مع زوجته اللبقة التي صارت أشد كياسة من أي وقت آخر.

وهكذا انتهت نكبات السيد توريللو وزوجته المحبوبة، وكوفئ على كرمه وشهامته.

القصة العاشرة

يضطر مركيز سالازو، بإلحاح من رعاياه، إلى اتخاذ زوجة له؛ فيختار ابنة أحد القرويين، وينجب منها ابنين اثنين؛ يجعلها تعتقد أنه قد أمر بقتلهما. ثم يبدي لها النفور، وأنه اتخذ زوجة أخرى، معيداً إلى البيت ابنته بالذات على أنها زوجته. ويطرد زوجته بقميصها، وعندما يجدها مذعنة وصابرة على كل شيء، يزداد حبه لها، ويعيدها إلى البيت، فيريها ابنيها وقد كبرا، ويكرمها كمركيزة ويمنحها مكانة محترمة.

بانتهاء القصة الطويلة التي رواها الملك، وأعجبت الجميع، قال ديونيو ضاحكاً:

ـ الرجل الطيب الذي كان يأمل أن يُهدئ، في ليلة زفافه، ذيله المنتصب، وفوجئ بمجيء السيد توريللو كشبح، لن يقدم قطعتين نقديتين مقابل كل الثناء الذي تغدقونه على السيد توريللو.

وبعد أن قال هذا وهو يعرف أنه لم يبق أحد سواه من الرواة، بدأ قصته بالقول:

ـ سيداتي الطيبات، لقد كان هذا اليوم، كما بدا لي، مكرساً للملوك والسلاطين ومن هم على شاكلتهم؛ وكي لا أختلف كثيراً عنكم، سأتحدث عن مركيز لم يقم بعمل عظيم، وإنما ببلاهة جنونية، لكنها انتهت نهاية سعيدة. ولست أنصح أحداً بمحاكاة ذلك الرجل، لأن النتيجة ستكون محزنة وليس كالنهاية السعيدة التي قُدرت لرجلنا.

منذ زمن بعيد، كان أكبر أبناء مركيزي سالازو شاباً يدعى غالتيري، وكان بلا زوجة ولا أبناء، لا هم له إلا قضاء الوقت في الصيد والبيزرة، ولم يكن يشغل تفكيره بالزواج أو انجاب الأبناء، وهو أمر يستدعي، في الواقع، اعتباره حكيماً. ولكن ذلك لم يرق لرعيته، فكانوا يكثرون من التوسل إليه أن يتخذ زوجة، كي لا يبقى دون وريث، ولا يبقون دون سيد. وكانوا يعرضون عليه أن يجدوا له زوجة، تكون من أب وأم نبيلين، يسعدون بها. وبعد كثير من الإلحاح، قال لهم غالتيري:

- أيها الأصدقاء، إنكم تجبرونني على شيء كنتُ مصمماً على عدم الإقدام عليه أبداً، لأنني أرى أنه من أشق الأمور العثور على من يستطيع التلاؤم مع عادات شخص آخر، وستكون الحياة قاسية على من يتزوج امرأة لا تناسب عاداته. وقولكم الذي تتعللون به، بأنه يمكن من عادات الآباء والأمهات معرفة عادات بناتهن، ما هو إلا بلاهة، لأنني لا أعرف كيف يمكن لكم معرفة من هم آباؤهم أو ما هي أسرار أمهاتهم؛ وحتى لو عرفتم ذلك، فإن الأبناء يختلفون في معظم الأحيان عن آبائهم وأمهاتهم. وحيث إنكم راغبون في تقييدي بهذه الأغلال، فإنني سأرضيكم؛ وكي لا يكون هناك من أتذمر وأستاء منه، فإنني أريد أن أجد بنفسي المرأة التي سأختارها. وأنبهكم إلى أنه سيكون عليكم احترام المرأة التي سأختارها وتوقيرها، أياً كانت، باعتبارها زوجتي؛ كي تعرفوا من معاناتكم مدى معاناتي من الزواج استجابة لتوسلاتكم ورغم إرادتي.

فأجاب الأعيان إنهم موافقون على ما يقرره بشأن المرأة التي يختارها. وكان غالتيرو قد أعجب منذ زمن بعيد بعادات فتاة فقيرة تعيش في قرية قريبة من بيته، وكانت تبدو له جميلة، فقدر أنه يمكن له أن يعيش معها حياة سعيدة. ولهذا لم يبحث طويلاً، وعزم على الزواج منها. استدعى أباها، وكان رجلاً فقيراً فقراً مدقعاً، واتفق معه على الزواج منها. وبعد ذلك، جمع غالتيري كل أصدقائه في الإقليم، وقال لهم:

- أيها الأصدقاء، طالما رغبتم في أن أتخذ لي زوجة، وقد وعدتكم بأن أفعل ذلك لإرضائكم. وأنتم تعرفون وعدكم لي، وأعني أنكم ستكونون سعداء وتعاملون المرأة التي أختارها كسيدة. وقد حانت اللحظة التي يمكنني أن أنجز وعدي لكم وتنجزوا وعدكم لي. فقد عثرت على شابة تروقني على مقربة من هذا المكان، وأريد الزواج منها وإحضارها إلى بيتي خلال بضعة أيام. ففكروا في إقامة حفلة زفاف مناسبة، وفي

استقبالها بتكريم كي أشعر بالرضا عن إنجازكم لما وعدتم به مثلما ستشعرون بالرضا عن إنجازي لوعدي لكم.

ابتهج الأعيان جميعهم، وقالوا إن ذلك يسعدهم، وإنهم سيعاملون الفتاة المختارة كسيدة، بغض النظر عمن تكون، وسيحترمونها في كل الأمور كسيدة. وبدؤوا جميعهم بعد ذلك في الاستعداد لإقامة حفلة زفاف مهيبة وسعيدة، وفعل غالتيري مثلهم. فقد أعد العدة لحفلة عظيمة وبديعة، دعا إليها الكثير من الأصدقاء والأقارب، وعدداً كبيراً من السادة والنبلاء، وشخصيات أخرى من المناطق المجاورة؛ وأمر بشراء أقمشة وتفصيل ثياب فاخرة ونفيسة على مقاس فتاة بدت له مماثلة في القامة للشابة التي قرر الزواج منها. واشترى فضلاً عن ذلك أحزمة وخواتم مرصعة، وتاجاً بديعاً، وكل ما تحتاجه العروس. وعندما حلّ اليوم الموعود للزفاف، امتطى غالتيري جواده، ومعه كل من حضروا للاحتفال به؛ وحمل معه كل تلك الأشياء الضرورية، وقال:

- أيها السادة، لقد حان الوقت للذهاب من أجل إحضار العروس.

انطلق مع ذلك الموكب إلى القرية، وحين وصلوا إلى بيت أبي الفتاة، وجدوها عائدة من ينبوع الماء، وكانت تمضي مسرعة كي تتمكن من الذهاب مع النساء الأخريات لرؤية عروس غالتيري. وعندما رآها غالتيري ناداها باسمها - وكانت تدعى جريسلدا — وسألها عن أبيها، فردت عليه بحياء:

- إنه في البيت يا سيدي.

ترجل غالتيري عندئذ عن صهوة جواده، وأمر الجميع بالانتظار، ودخل وحده إلى البيت البائس، حيث وجد والد الفتاة، وكان يدعى جينوكلو، وقال له:

ـ لقد جئت للزواج من جريسلدا، لكنني أريد منها قبل ذلك أن تقول لي أمراً بحضورك.

فسألها إذا ما كانت ستسعى بكل جهدها لإرضائه، حين يتخذها زوجة له، ولا تغضب منه مهما قال أو فعل؛ وإذا ما كانت ستطيعه. وأسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل. وكان جوابها على كل ما قاله إنها ستفعل. عندئذ أمسكها غالتيري من يدها، واقتادها خارجاً، وطلب منها أمام حاشيته والمدعوين جميعهم أن تتعرى، ثم أمر بإحضار الملابس

التي كان قد أوصى على صنعها، فألبسها الثياب والحذاء، وأمر بوضع التاج على رأسها دون تسريح شعرها المشعث، ثم قال وسط دهشة الجميع:

ـ أيها السادة، هذه هي التي أريدها زوجة لي، إذا كانت تقبل بي زوجاً لها.

ثم التفت إليها، وكانت تشعر بالخجل من نفسها، وتتلعثم، وقال لها:

ـ أتقبلينني زوجاً لك يا جريسلدا؟..

فأجابت:

ـ أجل يا سيدي.

وقال هو:

ـ وأنا أقبلك زوجة لي.

وهكذا تزوج منها بحضور الجميع، ثم أركبها جواداً، وحملها إلى بيته وسط مرافقة كبيرة وتشريف عظيم. وأقيم هناك زفاف فخم وبديع، واحتفالات صاخبة ما كانت لتختلف لو أنه تزوج من ابنة ملك فرنسا. وبدا أن روح الشابة وسلوكها قد تبدلا وهي بتلك الملابس.

لقد كانت، كما أسلفنا القول، جميلة الوجه والقوام. وبدا كل جمالها ذاك مريحاً للنظر، وهادئاً ووقوراً، فلم تعد تبدو أنها ابنة جينوكلو، وأنها كانت راعية أغنام، وإنما بدت كابنة سيد نبيل. وأدهش سلوكها كل من عرفوها من قبل. وكانت فوق ذلك شديدة الانصياع لزوجها، تقوم على خدمته بكل طاعة وإخلاص، مما جعله أسعد رجل في هذه الدنيا. وكانت في الوقت نفسه شديدة اللطف والطيبة مع رعية زوجها، فلم يكن هناك من لا يحبها ويكرمها بكل سعادة، وكان الجميع يتمنون لها الخير والرفعة ويكيلون لها الثناء والمديح؛ وحتى أولئك الذين اعتادوا القول إن غالتيري قد تصرف بقليل من الحصافة في اختياره زوجته، صاروا يقولون إنه أكثر رجال العالم حصافة وذكاء، لأنه ما كان بإمكان أحد سواه أن يتعرف على الفضيلة السامية المخبأة تحت الثياب البائسة، وتحت رداء القروية الفقيرة. وباختصار، لم يقتصر الأمر على إمارته وحدها، وإنما انتشرت أخبارها، بعد وقت قصير، في كل الأنحاء، وصار الحديث يدور عن عظمتها

وسلوكها الحميد، وتبدل رأي من تكلموا بالسوء عن زوجها «إذا كان هناك من تكلم عنه» لأنه تزوج منها.

ولم تلبث، بعد وقت قصير من زواجها، أن حبلت، ثم أنجبت عندما جاء موعد الوضع مولوداً أنثى، احتفى غالتيري بقدومها بإقامة حفلة كبرى. ولكن خاطراً غريباً خطر لذهنه بعد قليل من ذلك، فأراد أن يختبر صبرها في اختبار بالغ القسوة والغرابة؛ فأهانها في أول الأمر بالكلام، وذلك بإبداء الغضب والقول لها إن رعيته في غاية الاستياء منها لوضاعة أصلها، ولاسيما بعد أن عرفوا أنها أنجبت ابنة، وإنهم لا يتوقفون عن التهامس، بأسى، حول الطفلة الوليدة. وحين سمعت السيدة كلامه، لم يطرأ أي تبدل على ملامحها، بل قالت بمزاج طيب:

- سيدي، افعل بي ما تراه مناسباً لشرفك وسعادتك، وسأكون راضية تمام الرضا عن كل ما تفعله، فأنا أعرف أنني أقل مكانة، ولست جديرة بهذا الشرف الذي أحطتني به.

أعجب جوابها هذا غالتيري، ورأى أن ما أحاطها به، هو والآخرون، من تشريف، لم يبدل شيئاً من طباعها ويدفعها إلى التكبر والغرور. وبعد قليل من ذلك، أخبر زوجته بكلمات مبهمة، أن رعاياه غير قادرين على تحمل الطفلة التي أنجبتها. ثم أرسل إليها في أحد الأيام واحداً من خدمه ليقول لها متألماً:

- سيدتي، لا بد أن أنفذ ما أمرني به سيدي، إذا كنتُ لا أريد الموت. وقد أمرني بأن آخذ ابنتك هذه، وأن...

ولم يكمل كلامه.

حين سمعت السيدة كلام الخادم، ورأت وجهه، وتذكرت ما كان زوجها قد قاله؛ أدركت أنه قد أمره بقتل الطفلة. عندئذ سارعت إلى تناول ابنتها من مهدها، فقبلتها وباركتها، ووضعتها بين يدي الخادم. ودون أن يطرأ أي تبدل على ملامح وجهها، بالرغم من الألم الذي يمزق قلبها، قالت للخادم:

ـ خذها. وافعل ما أمرك به سيدك وسيدي؛ ولكن لا تسمح للوحوش والطيور أن تلتهمها إلا إذا كانت هذه هي رغبته.

أخذ الخادم الطفلة، وأخبر غالتيري بما قالته السيدة، فأذهله صبرها، وأرسل الطفلة

إلى مدينة بولونيا لتعيش في بيت أحد أقربائه، متوسلاً إليه ألا يخبر أحداً ابنة من هي، وأن يولي رعايتها وتربيتها كل العناية.

وحدث بعد ذلك أن حبلت السيدة مرة أخرى، وعندما جاء موعد الولادة، وضعت مولوداً ذكراً، فابتهج به غالتيري أشد الابتهاج. لكنه لم يكتف بما كان قد فعله سابقاً، فعمد إلى جرح زوجته بطعنة أشد وطأة، إذ قال لها بغضب في أحد الأيام:

ـ منذ إنجابك هذا الابن يا امرأة، لم أعد قادراً على العيش مع رعيتي. إنهم يتحسرون بقسوة لأن حفيد رجل وضيع سيصير سيداً عليهم بعدي. وإذا كنتُ أريد الحفاظ على مكانتي، لا بد لي من التخلص منه، ثم التخلي عنك أخيراً والزواج من امرأة أخرى.

استمعت المرأة بقلب صابر إلى كلامه، واكتفت بالقول:

ـ لا تقلق بشأني يا سيدي، وفكر فقط في ما يرضيك وينفعك؛ ولن تجدني إلا راضية، لأني لا أريد سوى سعادتك.

وبعد بضعة أيام، وبالطريقة التي أرسل في طلب الطفلة، أرسل هذه المرة في طلب الوليد. وتظاهر بالطريقة نفسها بأنه قد أمر بقتله، ثم أرسله إلى بولونيا مثلما أرسل الطفلة. ولم تبد المرأة أي تبرم ولم تقل شيئاً سوى ما قالته عندما أُخذت الطفلة منها. فازدادت دهشة غالتيري، وأكد لنفسه أنه لا وجود لامرأة أخرى تقدم على ما أقدمت عليه؛ ولولا ما يعرفه عن حنانها وحبها لطفليها، وأنها إنما تفعل ذلك لإرضائه بكل انصياع وتعقل، لظن أنها مستهترة وغير عابئة بأبنائها. وكان رعاياه الذين صدقوا أنه قد قتل ابنيه يلومونه كثيراً، ويعتبرونه رجلاً فظاً وقاسي القلب، ويرثون لحال زوجته وينظرون إليها بكثير من الشفقة. أما الزوجة، فلم تكن تقول للنساء اللواتي يتفجعن على موت ابنيها بتلك الطريقة، أي شيء سوى أن ذلك ما أراده الأب الذي أنجبتهما منه.

بعد أن انقضت سنوات طويلة على ولادة الطفلة، بدا للمركيز غالتيري أن الوقت قد حان لاختبار زوجته الاختبار الأخير، فأشاع بين عدد كبير من أعوانه أنه لم يعد يطيق الاحتفاظ بجريسلدا زوجة له، وأنه قد تهور وأساء التصرف بزواجه منها، ولهذا سيبذل جهده ليطلب من البابا أن يمنحه الإذن باتخاذ زوجة أخرى والتخلي عن جريسلدا؛ فلامه على ذلك كثير من الرجال الصالحين، لكنه اقتصر على الرد عليهم بأنه لا بد من تسوية

الأمر على ذلك النحو.

عندما سمعت زوجته شيئاً من هذا الكلام، ورأت أنها ستعود إلى بيت أبويها، وربما سترعى الأغنام هناك مثلما كانت تفعل من قبل، وسترى امرأة أخرى تستحوذ على الرجل الذي أحبته بكل جوارحها، أحست بألم ممض في أعماقها. ولكنها مثلما تحملت نكبات القدر الأخرى، قررت أن تتحمل بصبر مماثل هذه النكبة. وبعد مرور بعض الوقت، أحضر غالتيري وثائق مزيفة من روما، وأكد لمرؤوسيه أنها من البابا، يأذن له فيها أن يتخذ زوجة أخرى ويهجر جريسلدا؛ ثم أرسل في طلبها، وقال لها بحضور كثيرين:

- لدي إذن من البابا باختيار زوجة أخرى وهجرك أنت. ولأن أسلافي كانوا على الدوام سادة نبلاء، ومركيزات هذا الإقليم، بينما كان أهلك فلاحين على الدوام، فإنني قررت ألا أبقيك زوجة لي، وأن أعيدك إلى بيت أبيك جيانكولو ومعك الدوطة التي جئت بها. أما أنا، فسأبحث فيما بعد عن امرأة مناسبة وأتزوجها.

حين سمعت المرأة هذه الكلمات بذلت جهداً هائلاً «يفوق طبيعة النساء» لكبح دموعها، وقالت:

- لقد كنت أعرف على الدوام، يا سيدي، وضاعة أصولي وعدم ملاءمتها بأي حال لمقامكم النبيل. وكل ما نلته منك، أعرف أنه كان بفضل الله وفضلك، وكنت مدركة طوال الوقت أنه مستعار ومؤقت، ويسعدني أن أرده إليك. ها هو خاتمك الذي تزوجتني به، أعيده إليك. وأنت تطلب مني أن آخذ معي الدوطة التي جئتك بها، ولكنني أذكر جيداً أنني لم أقدم لك مالاً ولا متاعاً، وأنك أخذتني عارية؛ فإذا كنت ترى لائقاً ومشرفاً أن أكشف للجميع جسدي الذي حملت فيه ابنين من صلبك، فإنني مستعدة للذهاب عارية. ولكنني أحلفك باسم عذريتي التي جئتك بها، ولا أستطيع أخذها معي، أن تمنحني ولو قميصاً أستر به نفسي.

أحس جالتيري برغبة في البكاء أكثر من أي شيء آخر، ولكنه تجلد مع ذلك، وقال بوجه لا يبدو عليه التأثر:

- خذي معك قميصاً إذن.

توسل إليه كل من هم حوله أن يعطيها ثوباً، كي لا يرى الجميع من كانت زوجته

لأكثر من ثلاث عشرة سنة، وهي تخرج من بيته فقيرة ومهانة لا يستر جسدها سوى قميص؛ لكن توسلاتهم ذهبت أدراج الرياح. فما كان من السيدة إلا أن ودعتهم وهي حافية ومكشوفة الرأس، وليس عليها سوى قميص. وخرجت من البيت راجعة إلى بيت أبيها، وسط دموع وبكاء كل من رأوها.

أما أبوها الذي لم يستطع أن يصدق يوماً بأن غالتيري سيحتفظ بابنته كزوجة له، فكان ينتظر في كل يوم حدوث هذا الذي حدث. وكان لا يزال يحتفظ بالملابس التي خلعتها يوم زفافها إلى غالتيري، فجاءها بها وارتدتها، وعكفت على أعمال بيت أبيها مثلما اعتادت من قبل، متحملة بصبر قسوة القدر وغدره. وبعد أن انتهى غالتيري من كل هذا، أقنع مرؤوسيه بأنه اختار ابنة كونت بانغانو للزواج؛ وأمر بتهيئة احتفالات كبيرة للزفاف، ثم أرسل في طلب جريسلدا، وقال لها:

ـ سآتي بالسيدة التي أريد الزواج منها، وأريد تكريمها على أحسن وجه عند مجيئها. وأنت تعلمين أنه لا وجود في البيت لنساء يتقنّ تهيئة الحجرات والقيام بكثير من الأمور التي تتطلبها حفلة الزفاف؛ ولأنك تعرفين هذه الشؤون البيتية أفضل من الجميع، فإنني أريدك أن ترتبي ما يجب ترتيبه، وأن توجهي الدعوة لمن تشائين من السيدات، وأن تستقبليهن كما لو أنك سيدة البيت؛ وبعد انتهاء حفلة الزفاف، يمكنك العودة إلى بيتك.

ومع أن هذه الكلمات كانت أشبه بخناجر أخرى تنغرس في قلب جريسلدا، أجابت كمن لم تستطع أن تتخلص من الحب الذي تكنه له:

ـ إنني مستعدة وجاهزة لعمل كل ذلك يا سيدي.

وهكذا دخلت بثوبها الشاحب والمهترئ إلى ذلك البيت الذي خرجت منه، قبل وقت قصير، بقميص وحسب؛ وبدأ تكنس الغرف وترتبها، وتعلق الستائر والسجاجيد في القاعات، وتنظف المطبخ وكل الأماكن الأخرى بيديها، كما لو أنها خادمة البيت الذليلة. ولم تسترح إلى أن صار كل شيء مرتباً وجاهزاً كما يجب. وبعد ذلك، قامت بتوجيه الدعوات باسم غالتيري إلى كل سيدات المنطقة، وراحت تنتظر الحفلة. وفي يوم الحفلة، وقفت بثيابها البائسة، ووجه باسم، تنتظر جميع السيدات المدعوات، وتستقبلهن ببهجة. أما غالتيري الذي وفر لابنيه تربية لائقة في بيت قريبه في بولونيا، «وكانت ابنته قد بلغت الثانية عشرة، وصارت من أجمل ما رأته عينا بشر. وكان الابن قد بلغ السادسة من

عمره»، فقد بعث رسالة إلى قريبه في بولونيا يطلب منه التفضل بالمجيء إلى سالزو ومعه ابنته وابنه، وأن يُحضر معه كوكبة كبيرة من السادة النبلاء، وأن يقول للجميع إنه يأخذ الفتاة لتكون زوجة له، دون أن تبوح لأحد بأنها ابنته. ففعل ذلك السيد ما طلبه منه المركيز، ووصل إلى سالزو بعد أيام ومعه الفتاة وأخوها وموكب من الأعيان، وكان وصوله في موعد الغداء، حيث وجد حشوداً من الفلاحين وغيرهم من المواطنين ينتظرون قدوم زوجة غالتيري الجديدة. واستُقبلت الفتاة من جانب السيدات أحسن استقبال، واقتيدت إلى القاعة التي وُضعت فيها الموائد. وهناك خرجت جريسلدا مبتهجة للقائها، وهي بمظهرها ذاك، وقالت لها:

ـ أهلاً وسهلاً بك يا سيدتي!

وكانت السيدات قد توسلن كثيراً إلى غالتيري كي يُبقي جريسلدا في إحدى الغرف، أو يسمح لها بارتداء أحد الأثواب التي كانت لها، ولكن دون طائل. وهكذا جلسوا إلى المائدة وبدأت جريسلدا تقوم على خدمتهم. وكان الجميع ينظرون إلى الفتاة ويقولون إن غالتيري قد قام بتبديل جيد، وكانت جريسلدا تثني كثيراً على الفتاة وأخيها.

وعندما بدا لغالتيري أنه قد اختبر صبر زوجته إلى أقصى الحدود، ورأى أن لا شيء من كل تلك الأحداث الغريبة بدّل من طباعها، وأدرك أن السبب في ذلك ليس بلاهتها، وإنما هي رصانة منها. وبدا له أن الوقت قد حان لإخراجها من ذلك الوضع المرير الذي تخفيه دون شك تحت مظهرها الهادئ؛ أمرها بالمجيء إليه، وقال لها باسماً بحضور الجميع:

ـ ما رأيك بزوجتنا؟..

فأجابت جريسلدا:

ـ إنها تبدو لي فاتنة يا سيدي، وإذا ما كانت رصينة بقدر ما هي جميلة، وهذا ما أظنه، فلست أشك في أنك ستكون معها أسعد رجل في العالم. ولكنني أتوسل إليك، بكل ما لدي من قدرة، ألا تسبب لها جراحاً كتلك التي سببتها من قبل. لأنني أظن أنها لن تستطيع تحملها، سواء لصغر سنها أو لتربيتها المنعمة؛ بينما كانت تلك التي جرحتها قد تربت على المشقات المتواصلة منذ طفولتها.

وحين رأى غالتيري أنها تتكلم وهي واثقة من أن تلك الفتاة ستكون زوجته، وأنها

امتنعت لهذا السبب عن قول شيء لا يكون لائقاً، طلب منها أن تجلس إلى جانبه، وقال لها:

ـ لقد حان الوقت يا جريسلدا لتقطفي ثمار صبرك الطويل، ويعرف من اعتبروني قاسياً وظالماً وبهيمياً أن ما فعلته إنما كنت أفعله لهدف معين، أردت منه تعليمك كيف تكونين امرأة، وتعليم الآخرين كيف يختارون المرأة ويحفظونها، وأن أتوصل أنا نفسي إلى العيش بسلام طوال الوقت الذي سنعيشه معاً. فعندما اضطررت إلى الزواج، كنت أخشى ألا أتمكن من النجاح في ذلك؛ ويمكنك أن تتأكدي من شعوري هذا، من الأساليب التي عمدت إلى تجريحك بها وإهانتك. ومع ذلك لم تحاولي مجافاتي أو عدم تلبية رغباتي بصورة لم أر أو أسمع بمثلها قط؛ فأدركت أنني واجد فيك السعادة التي أتمناها. وأريد الآن أن أعيد إليك، في لحظة واحدة، ما انتزعته منك على امتداد سنوات طويلة، وأن أشفي بكل عذوبة ما سببته لك من جراح. ولهذا، تلقي بكل بهجة هذه التي تظنينها زوجتي، وأخاها، لأنهما ابناك وابناي. وهما نفسهما من ظننتِ وظن كثيرون، لسنوات طويلة، أنني أمرت بقتلهما بقسوة. وأنا زوجك الذي أحبك أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، ويمكن لي المفاخرة بأنه لا وجود لرجل آخر قادر على السعادة مثلي بزوجته.

وبعد أن أنهى كلامه، عانقها وقبّلها، ونهض واقفاً إلى جانبها وهي تبكي من الفرح، وتوجها معاً إلى ابنيهما اللذين استمعا بذهول إلى كل ما قيل. وسارعت إلى معانقة ابنتها وابنها واحتضانهما بحنان. ونهضت السيدات عن المائدة بسعادة، وذهبن مع جريسلدا إلى مخدعها، فنزعن عنها ثيابها البائسة، وألبسنها أفضل الثياب والحلي، ثم عدن معها إلى القاعة كسيدة، مثلما كانت تبدو حتى وهي بأسمالها. وهناك احتفى بها ابناها، وسط سعادة الجميع، وتواصلت تلك الاحتفالات أياماً عديدة. وقدر الجميع حكمة غالتيري وحصافته، ولكنهم اعتبروا أن اختباراته لزوجته كانت شديدة القسوة. وبعد بضعة أيام، عمد غالتيري إلى إحضار أبي جريسلدا من عمله، ومنحه مكانة حميه. أما ابنته فوفر لها زواجاً لائقاً، وعاش مع جريسلدا حياة مديدة ملؤها السعادة والهناء.

هذه القصة تبين لنا أن البيوت الفقيرة لا تخلو أيضاً من الفضيلة التي أبدتها جريسلدا طوال الوقت.

●●

انتهت قصة ديونيو، وأكثرت السيدات من الحديث عنها، والتعليق عليها، بعضهن يرين رأياً، وأخريات يخالفنهن؛ منهن من توجه اللوم، وغيرها تغدق المديح. وأخيراً رفع الملك بصره نحو السماء، ورأى أن الشمس قد مالت كثيراً نحو الغروب، فنهض وبدأ الكلام على هذا النحو:

ـ سيداتي الرائعات، أظن أنكنّ تعرفن أن الحس السليم لدى بني البشر الفانين لا يتلخص فقط في تذكر الأحداث الماضية ومعرفة الوقائع الحالية، وإنما في معرفة كيفية الجمع بين هذه وتلك لرؤية المستقبل. وغداً، كما تعلمن، سيكون قد انقضى خمسة عشر يوماً على مغادرتنا فلورنسا، بحثاً عن تسلية نحفظ بها صحتنا وحياتنا، ونبتعد عن الكآبة والآلام والهموم المتواصلة في مدينتنا منذ أن بدأت أزمنة الوباء البغيضة. وقد فعلنا ذلك، كما أرى، بصورة شريفة؛ لأني إذا كنت قد أحسنت النظر، وعلى الرغم من أن بعض القصص التي رُويت تستثير الشهوات، وعلى الرغم من المآكل الشهية والمشروبات الفاخرة، والموسيقى والأغاني «وهي أمور كلها تدير الرؤوس الضعيفة إلى أمور غير شريفة»، إلا أنه لم يحدث أي عمل، ولم يُقل أي كلام، سواء من جانبكن أو من جانبنا، يستحق الملامة أو التأنيب، وإنما بدا لي كل ما رأيته وسمعته، عفة متواصلة، ووئاماً متواصلاً، وأخوة أسرية متواصلة. ولأنني أرى أنه يمكن للاستمرار طويلاً على العادة نفسها أن يتحول إلى مبعث للضيق والإزعاج، وكي لا يخرج لنا من يلومنا على غيابنا الطويل هنا، بعد أن نال كل واحد منا يوماً من التشريف، مثلما هو حالي اليوم، فإنني أرى – إذا كنتم توافقونني الرأي – أنه صار من المناسب أن نعود إلى مدينتنا التي خرجنا منها. مع الأخذ في الاعتبار، إذا ما أمعنتم النظر، بأن اجتماعنا هنا صار معروفاً لأناس كثيرين، ويمكن للأقاويل أن تتزايد بصورة تفسد علينا سعادتنا. فإذا كنتم توافقون على رأيي، فإنني سأحتفظ بإكليل الغار الذي توجتموني به حتى موعد رحيلنا، وأرى أن يكون الرحيل في صباح الغد. أما إذا كان لكم رأي آخر، فقد فكرت في من يجب أن يتوج ملكاً علينا في اليوم التالي.

استمر الجدل طويلاً بين السيدات والشبان، ولكنهم اتفقوا في النهاية على نصيحة الملك، باعتبارها نافعة وشريفة، وقرروا أن يفعلوا ما قاله. وهكذا استدعى الملك القهرمان، وتحدث معه عما يجب عليه عمله في صباح اليوم التالي، ثم نهض واقفاً ومنح الإذن للجماعة بالانصراف إلى أن يحين موعد العشاء.

نهضت السيدات والشبان، وانشغل بعضهم في تسلية، وآخرون في غيرها، كما هي عادتهم. وعندما صار العشاء جاهزاً، ذهبوا جميعهم بسعادة لتناوله. وبعد الانتهاء منه بدؤوا الغناء وعزف الموسيقى، وقادت لوريتا الرقص، فأمر الملك فياميتا بأن تغني أغنية، وبدأت هذه الغناء بكل سرور:

لو كان الحب بلا غيرة،
لما كانت هناك امرأة
قادرة على العيش بمثل سعادتي.
وإن كان مرح الشباب في الحبيب،
هو ما تبتغيه المرأة،
أو الإصرار والشجاعة،
الشهرة أو الفضيلة،
الموهبة، أو الشرف، أو اللباقة،
أو الشهامة الكاملة،
فإنني أجدها كلها مجتمعة،
لأنني عاشقة،
وأرى الكمال بعيني الأمل.
لكنني حين أرى نساء أخريات،
لهن مثل ما لي من الفطنة،
أموت خوفاً، وأفكر في الأسوأ،
في أن رغبتهن تتجه
إلى من استولى على روحي،
إلى من رغبتُ فيه.
فينتابني الأسى، ويغمر حياتي الحزن
على من كان سعادتي.

لو كنت أرى، في سيدي، من الوفاء
قدر ما أرى من الشجاعة،

لما شعرت بالغيرة،
غير أن كثيرات
يبحثن عن حبيب
فأرتاب بهن جميعاً.
وهذا سبب يأسي وقلقي،
وإحساسي بأني سأموت باكراً
لأن كل من تنظر إليه،
تستثير ريبتي، وخوفي من أن تسلبني إياه.
أتوسل إليكن، بحق الرب،
ألا تحاولن إهانتي في هذا الأمر،
فإن أقدمت منكن واحدة،
بمجرد الكلام أو الإيماء أو أي شيء
على الضرر بي،
أقسم أن أجعلها تعسة
وأجعلها تندم على جنونها.

عندما أنهت فياميتا أغنيتها، وكان ديونيو إلى جانبها، قال لها ضاحكاً:

ـ سيدتي، سيكون لطفاً منك أن تكشفي لصديقاتك من هو، كي لا يدفعهن جهلهن به إلى انتزاعه منك، وعندئذ سيحل الخصام بينكن.

ثم غنوا بعد ذلك أغنيات كثيرة أخرى، وعندما أوشك الليل على الانتصاف، أمر الملك الجميع بأن يذهبوا للراحة. وحين استيقظوا في صباح اليوم التالي، كان القهرمان قد أرسل كل الأمتعة واللوازم قبلهم، فتوجهوا في أثر الملك الرصين عائدين إلى فلورنسا. وعند بلوغهم سانتا ماريا نوفا، وهو الموضع الذي خرجوا منه معاً، ودع الشبان الثلاثة السيدات السبع، وعادت كل واحدة منهن إلى بيتها.

خاتمة المؤلف

سيداتي النبيلات، من أجل تسليتكن تكبدت هذا الجهد الطويل، وأظن أنني قد أنجزت (بعون من العناية الإلهية التي استجابت لتضرعاتكن، كما أرى، وليس بفضل مزاياي) ما وعدتُ به حين بدأت هذا العمل؛ ولهذا، وقبل أن أترك ريشتي لتستريح، وأضع حداً لما أصاب يدي من إنهاك، أريد أن أشكر الله أولاً، ثم أشكركن أنتن. وأريد قبل التوقف قول بعض الأمور بإيجاز، ربما يمكن لإحداكن أو لآخرين غيركن قولها (إذ يبدو لي مؤكداً أن هذه الأمور ليست أكبر شأناً من تلك التي عرضتها في مطلع اليوم الرابع)، ودافعي هو الرد على بعض القضايا المضمرة. ربما سيقول بعضكن إنني قد منحت نفسي الكثير من الحرية في كتابة هذه القصص، كما في جعلي السيدات يقلن في بعض الأحيان، ويسمعن في أحيان كثيرة، أموراً لا يليق بالنساء المحترمات قولها أو سماعها. وهذا شيء أنكره، لأنه ليس هناك من يستاء، مهما كان الأمر غير شريف، إذا ما قيل بكلمات شريفة. وهو ما يبدو لي أنني فعلته هنا بصورة مناسبة ولائقة. ولكن، لو فرضنا أن الحال هو ما تقلن، وأنا لا أريد الخصام معكن، وأنكن تغلبتن عليّ؛ فإنني أقول في الرد عليكن، حول ما دفعني إلى عمل ذلك، إن أسباباً ومسوغات كثيرة تخطر لي فوراً. أولها، أن تكون نوعية القصص قد تطلبت ذلك؛ ولو نظر أشخاص متفهمون إلى هذه القصص بعين متعقلة، لأدركوا بوضوح أنه ما كان بالإمكان روايتها بطريقة أخرى، دون خيانة طبيعتها. وإذا ما كانت فيها عبارة أو كلمة ربما تبدو أشد تحرراً مما تتقبله أو تتسامح به منافقة ممن يتظاهرن بالتقوى «وهن يتضايقن من الكلمات أكثر من ضيقهن بالممارسات، ويتصنعن الطيبة أكثر مما هن عليه في الواقع»، فإنني أقول إنه يجب عدم تأنيبي على كتابتها أكثر من تأنيب الرجال والنساء عموماً عندما يقولون كلمات مثل «ثقب»، «وتد»، «هاون»، «مهراس»، «سجق»، «مقانق»، وعدداً كبيراً آخر من الكلمات

المشابهة. وهذا كله دون تقدير أنه يجب منح قلمي قدراً من السلطة لا يقل عما هو ممنوح لريشة الرسام الذي يُسمح له، ليس فقط برسم القديس ميكائيل وهو يطعن الأفعى بالسيف، ورسم القديس جورجيو يطعن التنين بالرمح، متى شاء، وإنما هو يُسمح له كذلك برسم المسيح رجلاً وحواء امرأة، وبرسم ذاك الذي رغب في الموت مصلوباً من أجل خلاص الجنس البشري، مثبتاً على الصليب بمسمار واحد أحياناً، وبمسمارين في أحيان أخرى. أضف إلى ذلك أن هذه القصص لا تروى في الكنائس، حيث يجب أن يكون الكلام الذي يقال عفيفاً ونزيهاً «وإن يكن في قصصها أحداث تمضي إلى ما هو أبعد بكثير من قصصي»، كما أن هذه القصص لا تُروى في مدارس الفلاسفة، حيث الشرف مطلوب أكثر من أي مكان آخر. إنها لا تروى بين الكهنة ولا بين الفلاسفة في أي مكان، وإنما تروى في الحدائق، وكوسيلة تسلية بين أشخاص في عمر الشباب، لكنهم ناضجون لا يمكن لهم التأثر بالقصص، وفي زمن انحطت فيه العادات، فكان خروج المرء فيه وهو يضع سروالاً داخلياً على رأسه، لينجو بحياته، لا يُنظر إليه بعين السوء من جانب الناس الشرفاء. فالقصص، أي قصص، يمكن لها ـ مثل كل الأشياء الأخرى ـ أن تسبب الأذى أو الخير، وفقاً لمن يستمعون إليها. فمن الذي لا يعرف أن النبيذ مفيد للبشر الأحياء، حسب قول شينشيليوني وإسكولاريو وكثيرين غيرهم، لكنه مضر لمن هو مصاب بالحمى؟.. أنقول إذن إنه سيئ لأنه يضر المصابين بالحمى؟.. ومن الذي لا يعرف كم هي النار نافعة ومفيدة، بل إنها ضرورية للبشر الفانين؟.. فهل نقول إنها سيئة لأنها تحرق البيوت والقرى والمدن؟.. والأسلحة أيضاً، توفر الحماية والدفاع عن النفس لمن يرغبون في العيش بسلام؛ ولكنها تقتل البشر أحياناً، ليس لخبث فيها بذاتها، وإنما لخبث من يستخدمونها.

لا يمكن لعقل فاسد أن يفهم معنى الكلمة بصورة سوية؛ ولهذا فإنه غير قادر على الاستفادة من الكلمات الشريفة، مثلما لا يمكن للكلمات غير الشريفة أن تلوث العقل المنفتح للخير، ومثلما لا يمكن للوحل أن يلوث أشعة الشمس أو للقذارات الأرضية أن تلوث جمال السماء. فأي كتب، وأي كلمات، وأية أوراق هي أكثر قداسة وجدارة ومدعاة للاحترام من الكتابة المقدسة؟.. ومع ذلك، فإن هناك كثيرين ممن فهموها بصورة فاسدة ومحرفة، وآخرين ممن أودت بهم إلى الضياع. فكل شيء له فائدة في إحدى حالاته، ويمكن لسوء استخدامه أن يكون مضراً في حالات كثيرة؛ وهذا ما ينطبق على قصصي.

فمن يريد أن يستخلص منها نصائح خبيثة أو أعمالاً سيئة، لا يمكن منعه إذا كانت تلك الأشياء فيه، أو إذا ما حورها ومطها على هواه؛ ومن أراد منها فائدة وثمراً طيباً فلن تُنكر عليه، ولن تعتبر أبداً إلا مفيدة وشريفة إذا ما قُرئت أو رُويت في المناسبات وللأشخاص الذين رُويت من أجلهم. ومن عليه أن يصلي «أبانا الذي في السماء»، أو يصنع عجة كستناء لكاهن اعترافه، فليترك القصص جانباً؛ بالرغم من أن هناك متدينات يروينها «ويمارسنها كذلك» بين حين وآخر.

هناك أيضاً من يقول إنه كان من الأفضل عدم وجود بعض القصص الموجودة. وأنا أوافقه الرأي؛ ولكن لم يكن بمقدوري إلا أن أورد القصص التي رُويت، ولهذا كان على من يرووها أن يروها بصورة جيدة، وكنت عندئذ سأوردها جيدة. أما إذا أردتُ الافتراض أنني مبدع القصص وكاتبها، مع أنني لستُ كذلك، فأقول إنني لا أشعر بالخجل لكونها ليست جميعها جيدة؛ لأنه لا وجود لمعلم واحد، من الرب فما دون، ينجز كل الأشياء بصورة جيدة وكاملة؛ وحتى شارلمان، وكان أول من أوجد نظام الفرسان، لم يستطع أن يخلق الكثيرين بحيث يتشكل جيش منهم. ومن الملائم أن توجد، في حشود الأشياء المختلفة، كل التنوعات. ففي أي حقل، مهما أُحسنت زراعته، لا بد أن يوجد بعض العوسج أو القُرّاص أو الأشواك. وهذا كله دون الأخذ في الحسبان أنه عند التحدث إلى شابات بسيطات، مثلما هن معظمكن، سيكون من البلاهة المضي في التقصي، وإضناء النفس بحثاً عن أشياء ممتعة والتكلم بصورة موزونة ورصينة. ولكنني أقول باختصار، إنه يمكن لمن يقرأ هذه القصص أن يترك جانباً ما يضايقه، ويقرأ منها ما يروقه؛ ولاسيما أن كل واحدة منها، كي لا تخدع أحداً، تحمل في مطلعها ملخصاً لما هو مخبأ فيها.

وأظن كذلك أن هناك من سيقول إن بينها قصصاً مفرطة في الطول؛ فأرد عليهم بأن من لديه عمل آخر يقوم به، يقترف حماقة بقراءتها، حتى لو كانت قصيرة ومقتضبة. فعلى الرغم من مرور وقت طويل منذ بدأت كتابتها حتى هذه اللحظة التي أصل فيها إلى نهاية إنهاكي، إلا أنه لم تفارقني فكرة أنني إنما أكتب هذه القصص للمستريحين ممن لا عمل لهم، وليس لغيرهم. ومن يقرأ لتمضية الوقت لا يبدو له أي شيء طويلاً ما دام ينفعه في ما يرمي إليه من إضاعة للوقت. فالأشياء الموجزة تنفع للدارسين (وهم مضطرون إلى استغلال الوقت لا إضاعته)، وليس لكنَّ معشر النساء، حيث كل وقت لا تمضينه في المتع الغرامية هو وقت فائض؛ أضف إلى ذلك أن أياً منكن لا تذهب للدراسة والتحصيل في أثينا، أو بولونيا، أو باريس؛ ولهذا فإن الحديث الطويل إليكن يبدو ملائماً أكثر من

التوجه إلى من شحذت الدراسة عبقريتهم.

ولا يخامرني أدنى شك في أنه سيكون هناك من يقولون إن هذه القصص ملوءة بالتهكم والمزاح، ومن غير اللائق برجل رصين وذي وزن أن يكتب على هذا النحو. ولا يسعدني إلا أن أشكرهم على غيرتهم الكريمة على سمعتي. ولكنني أرد على معارضتهم بالقول: أعترف أنني رجل ذو وزن، وقد كنتُ كذلك مرات كثيرة في حياتي، ولهذا أتوجه إلى أولئك اللواتي لا تعرفن وزني، وأؤكد أنني لست ثقيلاً وإنما أنا خفيف جداً بحيث يمكن لي أن أطفو في الماء. ولتقديري بأن المواعظ التي يلقيها الكهنة كي يصلح البشر أخطاءهم، يكون معظمها مفعماً بعبارات ساذجة، ومزاح، وسخريات، فإنني أرى أن وجود هذه الأمور في قصصي ليس بالأمر السيئ؛ لأنها كُتبت لإبعاد الكآبة عن النساء. ولكن، إذا ما ضحكن كثيراً منها، فإنه يمكن لتفجع آرميا، وآلام المخلّص، وأحزان المجدلية أن تشفيهن من الضحك بسهولة.

وسيكون هناك من يتهمني بأن لساني سليط ومسموم، لأني أكتب في بعض القصص عن حقيقة الرهبان. ومن يقولون هذا لا بد من الصفح عنهم لأنهم مدفوعون بمسوغ عادل، فالرهبان أشخاص طيبون يهربون من المضايقة والإزعاج حباً بالرب، ويجنون ما يزرعه آخرون؛ ولولا رائحة المعزى التي تنبعث منهم، لكان طعامهم أطيب بكثير. ولكنني أعترف مع ذلك بأن أشياء هذه الدنيا لا تعرف الاستقرار والثبات، وإنما هي في تبدل دائم، وهو ما يمكن أن يطال لساني أيضاً ويبدله. ومع أنني لا أثق بأحكامي، وأرتاب بها أكثر عندما تتعلق بشؤوني الخاصة، إلا أن إحدى جاراتي قالت لي، منذ زمن بعيد، إن لساني هو الأفضل والأكثر عذوبة في العالم؛ والحقيقة إن هذا حدث عندما لم يكن قد بقي لي سوى عدد قليل من القصص السابقة كتابة.

وأترك لكل امرئ أن يقول ويعتقد بما يحلو له، لأنه علي أن أنهي كلامي بشكر ذاك الذي تمكنتُ بعونه، بعد عناء طويل، من التوجه والوصول إلى النهاية المنشودة. أما أنتن يا سيداتي اللطيفات، فأتمنى لكنّ أن تنعمن بفضله بالأمان، وأن تتذكرنني إذا ما وجدتن في بعض ما قرأتن ما يساعدكن.

وهنا ينتهي اليوم العاشر والأخير من الكتاب المسمى ديكاميرون، والمعروف أيضاً باسم الأمير غاليوتو.





الفهرس

من بيتها ويلتجئ في بيت رجل فقير. فيأخذه هذا الرجل إلى الساحة العامة، متخفياً بزي فلاح؛ غير أن زملاءه الرهبان يتعرفون عليه، فيمسكون به ويحبسونه.

265

القصة الثالثة

ثلاثة شبان يغرمون بثلاث أخوات ويهربون معهن إلى كريت. تدفع الغيرة أكبرهن إلى قتل عشيقها، وتسلم الثانية نفسها لدوق كريت، لتنقذ الأولى من الموت؛ فيقتلها رجلها ويهرب مع الأولى. وتتهم الأخت الثالثة وعشيقها بارتكاب الجريمة، فيعترفان خوفاً من الموت؛ ولكنهما يرشوان الحارس بالمال، ويهربان فقيرين إلى رودس.

269

القصة الرابعة

يحنث جيربينو بما وعد به جده، الملك غيليلمو، فيحارب سفينة تابعة لملك تونس كي يختطف ابنته؛ ويرى كيف يقتلها من هم في السفينة، فيقتلهم بدوره، ولكنه يفقد رأسه أخيراً.

273

القصة الخامسة

أخوة ليزابيتا يقتلون عشيقها. فيظهر لها في الحلم، ويدلها على المكان الذي دُفن فيه. فتنبش هي القبر سراً، وتأخذ رأسه وتضعه في أصيص ريحان، وتبكي عليه كل يوم، إلى أن ينتزع إخوتها الأصيص منها. وشيئاً فشيئاً تموت هي حزناً وكمداً أيضاً.

276

القصة السادسة

تقع أندريولا في حب غابريوتو. تروي له حلماً، ويروي لها حلماً آخر. وفجأة، يموت بين ذراعيها، وبينما هي تنقله إلى بيته بمساعدة خادمة لها، يعتقلهما أعوان الحاكم، فتوضح هي ما حدث. ويحاول الحاكم أن يغتصبها، ولكنها تصده بحزم. ويعلم أبوها بما جرى، فيعمل على إطلاق سراحها لأنها بريئة. وتأبى هي مواصلة العيش في العالم، وتتحول

يصير سيموني حكيماً بفضل الحب، فيخطف حبيبته إيفيجينيا. لكنه يُؤسر ويُسجن في رودس، وهناك يحرره ليسيماكوس. وبتعاونهما معاً، يحرران إيفيجينيا وكاسندرا، ويهرب الجميع إلى كريت، حيث يتزوجان منهما، ثم يُستدعيان إلى موطنيهما.

إلى عمود. يعترف به أبوه روجيري دي لوريا، فينجو ويتزوج من الفتاة.

340

القصة السابعة

يقع تيودورو في غرام فيولانتي، ابنة السيد أميركو، فتحبل منه ويحكم عليه بالشنق. وعندما يُقتاد إلى المشنقة، يتعرف عليه أبوه ويزوجه من فيولانتي.

345

القصة الثامنة

أحب ناستاجيو أونيستي امرأة من آل ترافيرساري، وأنفق ثرواته كلها دون أن تبادله الحب. وبرجاء من ذويه، ذهب إلى شياسي، ورأى هناك فارساً يطارد فتاة شابة ويقتلها، ثم يتركها ليلتهمها كلبان. فدعا أهله والمرأة التي أحبها إلى وليمة، وحين رأت هي مصير القتيلة الممزقة أشلاء، خافت أن يحدث لها شيء مماثل، ووافقت على الزواج منه.

350

القصة التاسعة

يقع فيدريكو ديلي ألبيرغي في الحب ولا يجد تجاوباً من المحبوبة، ولشدة تبذيره في طلب ودها يحل به الإفلاس؛ فلا يبقى لديه سوى صقر يعتز به. ولأنه لا يملك شيئاً آخر، يُعد منه طعاماً لسيدته التي حضرت إلى بيته. وعندما تعرف هي ذلك، تتبدل مشاعرها تجاهه، فتتزوج منه وتجعله ثرياً.

356

القصة العاشرة

يذهب بيترو دي فينشيولو للعشاء خارج البيت؛ فتبعث زوجته طالبة إتيانها بفتى. يعود الزوج، فتخبئ المرأة الفتى تحت قفص دجاج. يقول بيترو إنه ذهب مع هيركولانو للعشاء في بيته؛ فوجدا هناك شاباً أدخلته امرأة هيركولانو وخبأته، فتنتقد زوجته سلوك تلك المرأة. وفي أثناء ذلك، يدوس حمار بقائمته على أصابع الفتى الذي تحت قفص الدجاج، فيصرخ. يركض بيترو نحوه، فيراه ويكتشف خدعة زوجته، لكنه يتصالح معها أخيراً، بسبب رذيلته الذميمة

يضاجع الراهب رينالدو عرابته، ويجده الزوج معها في المخدع، فيحملانه على أن يصدق بأن الراهب يقوم بقراءة التراتيل لطرد الديدان من فلونه الطفل.

417

القصة الرابعة

يغلق توفانو باب بيته في إحدى الليالي أمام زوجته، ولا تستطيع المرأة بتوسلاتها أن تجعله يفتح الباب، فتتظاهر بأنها ألقت بنفسها إلى بئر، بينما تلقي حجراً كبيراً فيه. يخرج توفانو راكضاً نحو البئر، فتدخل المرأة إلى البيت، وتغلق الباب في وجهه وهي تطلق الشتائم وصرخات الغضب.

421

القصة الخامسة

يتنكر زوج غيور بزي كاهن ويتلقى اعتراف زوجته، فتخبره بأنها تعشق كاهناً يأتي لزيارتها في كل ليلة. وبينما الغيور يكمن مترصداً وراء الباب، تُدخل المرأة عشيقها من السطح، وتستمتع معه.

428

القصة السادسة

بينما السيدة إيزابيل مع عشيقها ليونيتو، يأتي لزيارتها السيد لامبيرتوشيو الذي يحبها، وفي هذه الأثناء يحضر زوجها؛ فتجعل السيد لامبيرتوشيو يخرج من بيتها وهو يشهر سيفه، ثم يرافق زوجها ليونيتو بعد ذلك ويوصله إلى بيته.

432

القصة السابعة

يبوح لودفيك للسيدة بياتريس بحبه لها وهيامه بها، فترسل زوجها إيغانو إلى الحديقة مرتدياً ملابسها، بينما هي تضاجع لودفيك الذي ينهض بعد ذلك، ويذهب إلى الحديقة ليضرب إيغانو.

438

القصة الثامنة

يشعر أحدهم بالغيرة على امرأته، ولكي تتنبه هي إلى مجيء عشيقها في الليل، تربط خيطاً بإصبعها. يلاحظ الزوج ذلك، وبينما هو يطارد العشيق، تضع الزوجة في

المعلم سيمون طبيبٌ، دعاه برونو وبوفالماكو للانضمام إلى جماعة تخرج في أعمال قرصنة، فحملاه ليلاً إلى مكان، حيث ألقى به بوفالماكو في حفرة براز وتركه هناك.

533

القصة العاشرة

امرأة صقلية تنتزع بمهارة من تاجر ما حمله معه من بضاعة إلى باليرمو، فيتظاهر بأنه رجع مرة أخرى ومعه بضائع أكثر من المرة الأولى، فيستدين منها نقوداً، ويدفع لها ماء وطيناً.

547

اليوم التاسع. انتهى اليوم الثامن من الديكاميرون، ويبدأ هنا اليوم التاسع تحت حكم إيلينا، وفيه يتحدث كل شخص حول ما يروقه وما يحلو له من الموضوعات.

549

القصة الأولى

يقع رجلان في هوى مادونا فرانشيسكا، أحدهما يدعى رينوشيو والآخر أليساندرو، ولكنها لا تستجيب لغرام أي منهما، فتجعل أحدهما يدخل مدفناً كما لو أنه ميت، وتجعل الآخر يُخرجه من المدفن، وعندما يعجزان عن تنفيذ طلبها، تتخلص منهما وتبعدهما عنها بفطنتها وحسن تدبيرها.

553

القصة الثانية

تنهض رئيسة الدير على عجل في الظلام كي تفاجئ إحدى راهباتها، بعد وشاية، وهي مع عشيقها. ولأن رئيسة الدير نفسها كانت حينذاك مع أحد الرهبان، فقد وضعت على رأسها، في تسرعها، سروال الراهب الداخلي معتقدة أنها تضع القلنسوة. وحين ترى الراهبة المتهمة ذلك، تلفت النظر إليه، فتنجو من التهمة، وتنال حريتها في البقاء مع عشيقها.

556

القصة الثالثة

المعلم سيمون، بطلب من برونو وبوفالماكو ونيللو، يحمل كالاندرينو على الاعتقاد بأنه حامل، فيقدم للمذكورين

يمكن له أن يكون محبوباً، والآخر عن كيفية تأديب زوجته العنيدة؛ فينصح الأول بالحب، وينصح الثاني بالذهاب إلى جسر الإوزة.

589

القصة العاشرة

يقوم الكاهن دون جياني، بناء على طلب صاحبه بيترو، بعمل سحري لتحويل زوجة هذا الأخير إلى فرس، وعندما يريد وضع الذيل لها، يقول بيترو إنه لا يريد وضع ذلك الذيل، فيفسد السحر كله.

597

اليوم العاشر . هنا يبدأ اليوم العاشر والأخير من الديكاميرون، وفيه يجري الحديث، تحت حكم بانفيلو، حول من يتمكن، بالشهامة والمروءة أو بعمل عظيم وجليل، من تحقيق إنجاز كبير، سواء في شؤون الحب أو غيرها.

599

القصة الأولى

يخيل لفارس يعمل في خدمة ملك إسبانيا أنه لم يتلق تعويضاً مناسباً يليق بخدماته، فيكشف له الملك، بدليل واضح، أنه ليس السبب في ذلك، وإنما هو سوء طالعه، ثم يكافئه بعد ذلك بسخاء.

601

القصة الثانية

يأسر جينو دي تاكو رئيسَ دير كلوني ويشفيه من ألم في معدته، ثم يطلق سراحه بعد ذلك؛ فيعود رئيس الدير إلى بلاط روما، ويصالح جينو مع البابا بونيفيسيو، فيعينه فارساً إسبتارياً.

606

القصة الثالثة

يشعر متريدنيس بالحسد والغيرة من كرم ناتان وحسن أخلاقه، فيذهب ليقتله. ويلتقي به دون معرفته؛ ويعرف منه ما ينبغي عليه عمله كي يحقق هدفه. ثم يلتقي به في غابة، مثلما علّمه ناتان نفسه، وحين يتعرف عليه، يخجل من تصرفه، ويصبحان صديقين.

611

القصة الرابعة

يصل السيد جينتيلي دي كاريسيندي من مودينا، فيخرج سيدة يحبها من القبر، حيث دُفنت على أنها ميتة. فتنتعش، وتضع مولوداً ذكراً. ويعيدها السيد جينتيلي مع ابنها إلى زوجها نيكولوشيو كاشيانميكي.

618

القصة الخامسة

تطلب مادونا ديانورا، في كانون الثاني، من السيد أنسالدو حديقةً غناء كأنها في أيار؛ فيوفرها لها السيد أنسالدو بالاستعانة بأحد السحرة. ويسمح لها زوجها بأن تفعل ما يريده السيد أنسالدو، فيستاء هذا من كرم الزوج، ويتركها في حلّ من وعدها له، ويترك الساحر بدوره السيد أنسالدو في حل من ديونه.

622

القصة السادسة

الملك كارلوس، وقد صار شيخاً مسناً وملكاً ظافراً، يقع في غرام شابة فتية، فيخجل من حبه المجنون، ويزوج الفتاة وأختها زواجاً شريفاً ومحترماً.

628

القصة السابعة

يعلم الملك بيدرو بالحب المتأجج الذي تكنه له ليزا المريضة، فيواسيها، ثم يزوجها بعد ذلك من شاب نبيل، ويُقبّل جبهتها قائلاً لها إنه سيكون فارسها إلى الأبد.

634

القصة الثامنة

تظن سوفرونيا أنها زوجة جيسيبو، بينما تكون قد تزوجت في الحقيقة من تيتو كينتو فولفيوس، وتسافر معه إلى روما. ويأتي جيسببو وهو في وضع بائس، ويتخيل أنه سيُقابل بالازدراء من جانب تيتو. ويؤكد، لكي يُعدم، بأنه قتل رجلاً. يتعرف تيتو عليه، ويحاول إنقاذه بالتأكيد أنه هو من قتل الرجل. وحين يرى القاتل الحقيقي ذلك، يكشف عن نفسه. فيطلق الإمبراطور أوكتافيوس سراح

الجميع. ويقدم تيتو أخته زوجة لجيسيبو، ويقتسم معه كل ممتلكاته.

648

القصة التاسعة

يلقى صلاح الدين، وهو متنكر بزي تاجر، تكريم السيد توريللو وحسن ضيافته. وفيما بعد ينضم السيد توريللو إلى حملة صليبية، ويحدد لزوجته فترة محددة يمكنها أن تتزوج بعدها إذا هو لم يرجع. فيقع أسيراً في الحرب، ويُقدم للسلطان باعتباره بارعاً في تدريب صقور الصيد، فيتعرف السلطان عليه، ويعرفه بنفسه، ويكرمه تكريماً عظيماً. يصاب السيد توريللو بالمرض، فينقل بفنون السحر، في ليلة واحدة، إلى بافيا؛ حيث يصل في أثناء حفلة زفاف امرأته إلى زوج جديد، فتتعرف عليه، ويعودان معاً إلى بيتهما.

664

القصة العاشرة

يضطر مركيز سالازو، بإلحاح من رعاياه، إلى اتخاذ زوجة له؛ فيختار ابنة أحد القرويين، وينجب منها ابنين اثنين؛ يجعلها تعتقد أنه قد أمر بقتلهما. ثم يبدي لها النفور، وأنه اتخذ زوجة أخرى، معيداً إلى البيت ابنته بالذات على أنها زوجته. ويطرد زوجته بقميصها، وعندما يجدها مذعنة وصابرة على كل شيء، يزداد حبه لها، ويعيدها إلى البيت، فيريها ابنيها وقد كبرا، ويكرمها كمركيزة ويمنحها مكانة محترمة.